حادي المشتاقين إلى صحبة المخلصين



رمضان كريم

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فإن جاز للناس أن يتناصحوا بما ليس فيهم من صفات - بنية أن يُرْزَقُوا العمل - جاز لنا أن ننصح بشأن الإخلاص.

وخلاصة القول ونحن في بدايته:

لا سعادة ولا فلاح ولا نجاح في الدنيا والآخرة إلا بالإخلاص، وبقدر ما ينشغل العقل في إيجاد السعادة بغير الاخلاص لله تعالى، بقدر ما يشقى صاحبه ويتعذب ويضل الطريق لأنه سلك طريقا غير الذي رسمه له خالقه.

أولا: قبل أن تخطو خطوة:

وقبل أن تخطو خطوة واحدة عليك أن تعرف السبيل التي فيها نجاتك، فلا يُقبل من المرء صرف ولا عدل إلا بشرطين:

١- الإخلاص الذي ننشده: أن يكون صاحبه قد قصد به وجه الله عز وجل، قال صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». [جزء من حديث عمر بن الخطاب في صحيح البخاري ١/ ٣ ط٣/ دار ابن كثير]. ومنه يظهر لكل ذي قلب أهمية الإخلاص.

٢- الإتباع (لا بد من ذكره لتمام الفائدة): أن يكون موافقا لما بيّن لنا نبيه صلى الله عليه وسلم عندما قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا (أي: سُنتنا) فهو ردّ، (أي: مردود غير مقبول). [جزء من حديث أم المؤمنين عائشة في صحيح مسلم ٣/ ١٣٤٣، ط/ دار إحياء التراث العربي].

فإذا اختلّ واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل مقبولاً، ويدل على هذا أيضا قوله تبارك وتعالى: «فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» [سورة الكهف: ١١٠]، فقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يكون العمل صالحا أي: موافقًا للشرع، ثم أمر أن يخلص به صاحبه لله، لا يبتغي به سواه.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (وهذان ركنا العمل المتقبل: لا بد أن يكون خالصًا لله تعالى، صوابًا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروي مثل هذا عن القاضي عيّاض رحمه الله وغيره). [تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٩، ط / دار الفكر].

وإن دلت الآية والحديث السالف ذكرهما على بيان الأمر بالإخلاص، فإننا ينبغي أن نشير أيضا إلى ما جاء في التحذير من الرياء، أعاذنا الله وإياكم منه:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: « إِنَّ أَوَّلَ الناس يُقْضَى يوم الْقِيَامَةِ عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قَاتَلْتُ فيكَ حتى اسْتُشْهِدْتُ. قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فيكَ الْقُرْآنَ، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هو قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عليه وَأَعْطَاهُ من أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ

فيها؟ قال: ما تَرَكْتُ من سَبيلٍ تُحبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلا أنْفَقْتُ فيها لك، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هو جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ». [صحيح مسلم ٣/١٥١٣].

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: «أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عن الشِّرْكِ، من عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». [صحيح مسلم ٤/٢٢٨٩].

ثانيًا: الرياء يتسرب للمرء على حين غفلة:

ولأن الرياء قد يتسرب للمرء على حين غفلة أحببت أن أعرض لبعض نماذجه التي تذكره لنفسي وإخواني:

١- رياء في شكل البدن وتغيره:

ويكون بإظهار النحول والصفار، ليرى العباد بذلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين، وإظهار ذبول الجسم ليدل بذلك على أنه مواظب على الصوم أو كإبقاء أثر السجود على الوجه ليدل بذلك على مواظبته على الصلاة، أما إن ظهرت هذه الظواهر بغير قصد فلا حرج في هذا.

٢- رياء من جهة الزي:

وارتداء نوع معين من الزي ترتديه طائفة يعدهم الناس علماء، فيلبس هذا اللباس ليقال: إنه عالم.

٣- رياء بالقول:

وهو- على الغالب- رياء أهل الدين والوعظ والتذكير وحفظ الأخبار لأجل المحاورة، وإظهار غزارة العلم، وتحريك الشفتين بالذكر من محضر الناس، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن والخشوع.

٤- رياء الأعمال الصالحة:

وهو مشهور كمراءاة المصلي بطول القيام وتطويل الركوع والسجود وإظهار الخشوع، والمراءاة بالصوم والغزو والحج والصدقة، ونحو ذلك.

٥- رياء بزيارة العلماء والصالحين:

كالذي يتكلف أن يستزير عالمًا أو عابدًا ليقال: إن فلانًا قد زار فلانًا. ودعوة الناس لزيارته قد يقال: إن أهل الدين يترددون عليه. [انظر: الإخلاص، لحسين العوايشة ص٢٩، بتصرف].

ثالثًا: كونوا مع الصادقين- قولاً وعملاً- (نحسبهم والله حسيبهم):

أولاً: نماذج من أقوال السلف في الإخلاص:

١- يقول ابن القيم: «وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ اللَّهِ الَّتِي لَا تُبَدَّلُ وَسُنَّتُهُ الَّتِي لَا تُحَوَّلُ أَنْ يُلْبِسَ الْمُخْلِصَ مِنْ الْمَهَابَةِ وَالنُّورِ وَالْمَحَبَّةِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ وَإِقْبَالِ قُلُوبِهِمْ إلَيْهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ إخْلَاصِهِ وَنِيَّتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِرَبِّهِ، وَيُلْبِسَ الْمُرَائِيَ اللَّابِسَ ثَوْبَيْ الزُّورِ مِنْ الْمَقْتِ وَالْمَهَانَةِ وَالْبُغْضَةِ مَا هُوَ اللَّائِقُ بِهِ؛ فَالْمُخْلِصُ لَهُ الْمَهَابَةُ وَالْمَحَبَّةُ، وَلِلْآخَرِ الْمَقْتُ وَالْبُغْضَاءُ.) (إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ١٥٣)، ط/ دار الجيل، تحقيق:طه عبد الرؤوف).

٢- ينقل الذهبي بسنده (في ترجمته لمسعر بن كدام) قول مسعر: «إنَّ هَذَا الحَدِيْثَ (يقصد طلب الحديث) يَصُدُّكُم عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وَعَنِ الصَّلاَةِ، فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهُوْنَ؟»، ثم يعلق الذهبي قائلًا: «هَذِهِ مَسْأَلَةٌ مُخْتَلَفٌ فِيْهَا(أي طلب العلم أم نوافل العبادات): هَلْ طَلَبُ العِلْمِ أَفْضَلُ، أَوْ صَلاَةُ النَّافِلَةِ وَالتِّلاَوَةُ وَالذِّكْرُ؟ فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُخلصاً لله في طَلَبِ العلم، وَذهنُه جَيِّدٌ، فَالعِلْمُ أَوْلَى، وَلَكِنْ مَعَ حَظٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَعَبُّدٍ، فَإِنْ رَأَيتَه مُجِدّاً في طَلَبِ العِلْمِ لاَ حَظَّ لَهُ في القُرُبَاتِ، فَهَذَا كَسلاَنُ مَهِيْنٌ، وَلَيْسَ هُوَ بِصَادِقٍ في حُسنِ نِيَّتِه، وَأَمَّا مَنْ كَانَ طَلَبُه الحَدِيْثَ وَالفِقْهَ غَيَّةً وَمَحَبَّةً نَفْسَانِيَّةً، فَالعِبَادَةُ في حَقِّه أَفْضَلُ،وَهَذَا تَقسِيْمٌ في الجُمْلَةِ، فَقُلْ -وَاللهِ- مَنْ رَأَيتُه مُخلصاً في طَلَبِ العِلْمِ».

ثم يستطرد الذهبي رحمه الله قائلا: «دَعْنَا مِنْ هَذَا كُلِّه، فَلَيْسَ طَلَبُ الحَدِيْثِ اليَوْمَ عَلَى الوَضْعِ المُتَعَارَفِ مِنْ حَيِّزِ طَلَبِ العِلْمِ، بَلِ اصْطِلاَحٌ وَطَلَبُ أَسَانِيْدَ عَالِيَةٍ، وَأَخْذٌ عَنْ شَيْخٍ لاَ يَعِي، أَوْ لِفَقِيْهٍ يَتَحَدَّثُ مَعَ حَدَثٍ، أَوْ آخَرَ يَنْسَخُ، وَفَاضِلُهُم مَشْغُوْلٌ عَنِ الحَدِيْثِ بِكِتَابَةِ الأَسْمَاءِ أَوْ بِالنُّعَاسِ، فَالعِلْمُ عَنْ هَؤُلاَءِ بِمَعْزِلٍ، وَالعَمَلُ لاَ أَكَادُ أَرَاهُ، بَلْ أَرَى أُمُوْراً سَيِّئَةً - نَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ». [سير أعلام النبلاء ط٣ / الرسالة (٧/ ١٦٧)].

قلت: ومع أن مسعر رحمه الله من كبار علماء الحديث إلا أنه ينصح طلابه بهذه النصيحة لما يعلم من أهمية النية والإخلاص التي بها ينجو طالب العلم، وكذلك نرى الذهبي رحمه الله وهو من هو من علو كعبه في الحديث وغيره إلا أنه لم يستغرب هذا الرأي من مسعر لعلمه هو الآخر

بأهمية النية و الإخلاص.

ثانيا: نماذج من أحوال السلف:

١- هذا أبو الحسن محمد بن أسلم الطوسي، يقول عنه خادمه أبو عبد الله: «صَحِبْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَسْلَمَ نَيِّفًا وَعِشْرِينَ سَنَةً لَمْ أَرَهُ يُصَلِّي حَيْثُ أَرَاهُ رَكْعَتَيْنِ مِنَ التَّطَوُّعِ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَا يُسَبِّحُ وَلَا يَقْرَأُ حَيْثُ أَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ مِنِّي، وَسَمِعْتُهُ يَحْلِفُ كَذَا كَذَا مَرَّةً أَنْ لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَتَطَوَّعَ حَيْثُ لَا يَرَانِي مَلَكَايَ لَفَعَلْتُ وَلَكِنْ لَا أَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، ثُمَّ أَخَذَ حَجَرًا صَغِيرًا فَوَضَعَهُ عَلَى كَفِّهِ، فَقَالَ: أَلَيْسَ هَذَا حَجَرًا؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: أَوَ لَيْسَ هَذَا الْجَبَلُ حَجَرًا؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَالِاسْمُ يَقَعُ عَلَى الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ أَنَّهُ حَجَرٌ فَكَذَلِكَ الرِّيَاءُ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ شِرْكٌ. وَكَانَ مُحَمَّدٌ يَدْخُلُ بَيْتًا وَيُغْلِقُ بَابَهُ وَيُدْخِلُ مَعَهُ كُوزًا مِنْ مَاءٍ، فَلَمْ أَدْرِ مَا يَصْنَعُ حَتَّى سَمِعْتُ ابْنًا لَهُ صَغِيرًا يَبْكِي بُكَاءَهُ فَنَهَتْهُ أُمُّهُ فَقُلْتُ لَهَا: مَا هَذَا الْبُكَاءُ؟ فَقَالَتْ: إِنَّ أَبَا الْحَسَنِ يَدْخُلُ هَذَا الْبَيْتَ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَبْكِي فَيَسْمَعُهُ الصَّبِيُّ فَيُحَاكِيهِ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ غَسَلَ وَجْهَهُ وَاكْتَحَلَ فَلَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ الْبُكَاءِ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ يَصِلُ قَوْمًا وَيُعْطِيهِمْ وَيَكْسُوهُمْ فَيَبْعَثُ إِلَيْهِمْ وَيَقُولُ لِلرَّسُولِ: انْظُرْ أَنْ لَا يَعْلَمُوا مَنْ بَعَثَهُ إِلَيْهِمْ فَيَأْتِيهِمْ هُوَ بِاللَّيْلِ فَيَذْهَبُ بِهِ إِلَيْهِمْ وَيُخْفِي نَفْسَهُ فَرُبَّمَا بَلَتْ ثِيَابُهُمْ وَنَفِدَ مَا عِنْدَهُمْ وَلَا يَدْرُونَ مَنِ الَّذِي أَعْطَاهُمْ «.

قلت: وما وصل إلى هذه الحالة إلا بما عرف من قدر ربه فانظر ماذا يقول عن نفسه:

«مَا لِي وَلِهَذَا الْخُلُقِ، كُنْتُ فِي صُلْبِ أَبِي وَحْدِي، ثُمَّ صِرْتُ فِي بَطْنِ أُمِّي وَحْدِي، ثُمَّ دَخَلْتُ الدُّنْيَا وَحْدِي، ثُمَّ تُقْبَضُ رُوحِي وَحْدِي، وَأَدْخُلُ فِي قَبْرِي وَحْدِي، وَيَأْتِينِي مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ فَيَسْأَلَانِي فِي قَبْرِي وَحْدِي، فَإِنْ صِرْتُ إِلَى خَيْرٍ صِرْتُ وَحْدِي وَإِنْ صِرْتُ إِلَى شَرٍّ كُنْتُ وَحْدِي، ثُمَّ أُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَحْدِي، ثُمَّ يُوضَعُ عَمَلِي وَذُنُوبِي فِي الْمِيزَانِ وَحْدِي، وَإِنْ بُعِثْتُ إِلَى الْجَنَّةِ بُعِثْتُ وَحْدِي، وَإِنْ بُعِثْتُ إِلَى النَّارِ بُعِثْتُ وَحْدِي، فَمَا لِي وَلِلنَّاسِ».

[انظر ترجمة محمد بن أسلم الطوسي: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم (٩/ ٢٤١، وما بعدها)، ط / دار الكتاب العربي].

٢- وروى البيهقي بسنده عن سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ، يَقُولُ: « كَانَ دُعَاءُ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا تُبْتُ إِلَيْكَ مِنْهُ ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهِ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا جَعَلْتُهُ لَكَ عَلَى نَفْسِي ثُمَّ لَمْ أَفِ بِهِ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا زَعَمْتُ أَنِّي أَرَدْتُ بِهِ وَجْهَكَ فَخَالَطَ قَلْبِي فِيهِ مَا قَدْ عَلِمْتَ». [شعب الإيمان ٥/ ٤٣٢)، ط١/دار الكتب العلمية].

٣- وقال أبو سليمان الداراني: (من صفى صفي له ومن كدر كدر عليه ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله). [ذم الهوى لابن الجوزي ١/ ١٨٥)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد].

٤- وقيل لابن المبارك: إبراهيم بن أدهم ممن سمع؟ ممن أخذ الحديث؟ وممن أخذ العلم؟ قال « قد سمع من الناس وله فضل في نفسه.. صاحب سرائر ما رأيته يظهر تسبيحاً، ولا شيئاً من الخير، ولا أكل مع قوم قط إلا كان آخر من يرفع يده - يتظاهر أنه ليس من أهل الزهد وإنما يأكل كما يأكل عامة الناس فلا يقوم أولهم - « (الحلية (٧/ ٣٦٨))

٥- وروى أبو القاسم علي بن الحسن بسنده عن محمد بن إسحاق قال: أتينا فضيل بن عياض لنسمع منه فلما رآنا وقف على باب الدار فلما أتيناه سلمنا عليه فقال لنا: «لقد تعوذت بالله من شركم حيث رأيتكم قلنا له ولم يا أبا علي قال أكره أن تزينوا إلي وأتزين لكم «، وروى بسنده إلى عبد الله الأنطاكي قال: «اجتمع الفضيل بن عياض وسفيان الثوري يوماً، فجلسوا يتذاكرون شيئاً من الرقائق فرق كل واحد منهم وبكى، فقال سفيان الثوري رحمه الله: « أرجوا أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة « فقال الفضيل بن العياض: « ولكني أخاف يا أبا عبد الله ألا يكون أضرُ علينا.. ألست تخلصتَ إلى أحسن حديثك وتخلصتُ أنا إلى أحسن حديثي.. فتزينتُ لك.. وتزينتَ لي.. فبكى سفيان الثوري رحمه الله وقال « أحييتني أحياك الله « (تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل ٤٨ / ٤٠٤)، ط/ دار الفكر)، «وأوصى سفيان أن تدفن كتبه وقد ندم على أشياء كتبها عن قوم ظن أن الذي حمله على ذلك شهوة الحديث « (الحلية ٧ / ٦٤)

٦- وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: «ما صدق الله عبد أحب الشهرة. قال: ولم أره يحرك شفتيه بالتسبيح قط «. (العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا ١ / ١٢٦)،ط١/دار

الوطن، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان).

٧- وروى أبو نعيم بسنده عن الربيع بن سليمان (تلميذ الشافعي) يقول: دخلت على الشافعي وهو عليل فسأل عن أصحابنا وقال يا بني لوددت أن الخلق كلهم تعلموا يريد كتبه ولا ينسب إلي منه شيء (الحلية ٩ / ١١٨).

رابعا: ومن وسائل تحقيق الاخلاص وعلاج الرياء:

فإن كان الإخلاص بهذه الأهمية، والرياء بهذه الخطورة فجدير بالعاقل أن يبحث فيما ينال به مقام المخلصين، وينجو به من ورطات المرائين؛ لذا فإننا نعرض لبعض الأسباب المعينة على ذلك:

١- معرفة عظمة الله تعالى، وأسمائه، وصفته، والإلمام بالتوحيد ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وهذا بحثه واسع لا يتسع له المقام، لكننا نورد طرفًا يسيرًا منه من باب الذكرى.

إن الله تعالى وحده هو الذي ينفع ويضر متى شاء، وانظر ماذا يقول حبيبك الله صلى الله عليه وسلم وقد علم هذا الحديث لابن عباس وهو غلام: «يا غُلَامُ إني أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ على أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله لك، وَلَوْ اجْتَمَعُوا على أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ. قال الترمذي: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ « (سنن الترمذي ٤ / ٦٦٧ ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون).

٢- تذكر الموت وقصر الأمل في الدنيا:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أَخَذَ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم بِمَنْكِبَيَّ فقال: «كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ، وكان بن عُمَرَ يقول: إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ من صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ « (صحيح البخاري ٥ / ٢٣٥٨)، فالغريب لا ينافس أهل المحلة سلطانهم في محلتهم فلا داعي لحب الظهور.

٣- الدعاء:

فلا تتوقف عن الدعاء ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وتحرّ ما استطعت الساعات المستجابة مع مراعاة آداب الدعاء.

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاءً يذهب عنا كبار الشرك وصغاره فقال: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم» (جزء من حديث في صحيح الجامع: ٣٦٢٥).

٤- الإكثار من أعمال الخير غير المشاهَدة:

مثل: قيام الليل، البكاء خاليًا من خشية الله تعالى، صوم النافلة، صدقة السر، الدعاء للإخوة في الله بظهر الغيب، صلاتك لما سوى الفرائض في البيت.

٥- مصاحبة من ترى فيهم الإخلاص والصلاح والتقوى:

فالمخلص لا يعدمك من إخلاصه شيء، والمرائي والمشرك إما يحرقك في نار جهنم يوم القيامة، أو تجد منه ريح الرياء النتنة التي تزيدك حبًا وولعًا بالرياء والشرك، أعاذنا الله منه.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ، وَكِيرِ الْحَدَّادِ لَا يَعْدَمُكَ من صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أو تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أو ثَوْبَكَ أو تَجِدُ منه رِيحًا خَبِيثَةً « (صحيح البخاري ٢ / ٧٤١).

٦- معرفة ثمرات الإخلاص وويلات الرياء:

وهي كثيرة ولا يتسع المقام لذكرها، وقد ذكرنا بعضًا منها في طيات المقال، ولتراجع بتوسع في مظانها من كتب السنة، وكتب الرقائق والتراجم كالمشار إليها في هذا المقال، وغيرها.

أخيرًا: وقفة على أعتاب رمضان:

حبيبي في الله: لو لم تكن وقفتنا مع هذه النفس الأمارة بالسوء الآن، ونحن على أعتاب رمضان، وقد صفدت الشياطين، وغلقت أبواب النيران، وداعي الخير ينادي يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، لولم تكن الآن فمتى تكون؟!، وقفة مع النفس نراجع فيها أنفسنا، مقبلين فيها على ربنا سائلين الله فيها الإخلاص، راجين من الله فيها التوفيق والسداد، متمنين عليه سبحانه العتق من النار، إنه خير مسئول وأكرم مأمول.

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يرزقنا وإياكم وجميع المسلمين الإخلاص الذي يحبه ويرضاه إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.



أعظم الكرامة لزوم الاستقامة

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

عن سُفْيَانَ بن عبد اللَّه الثَّقَفِيِّ قال: قلت يا رَسُولَ اللَّه قُلْ لي في الإِسْلام قَوْلًا لا أَسْأَل عنه أَحَدًا بَعْدَكَ، وَفي حَديث أبي أُسَامَةَ غَيْرَكَ قال: « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ»

أولاً: تخريج الحديث

(أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، بَاب جَامِع أَوْصَافِ الْإِسْلَام (١ / ٦٥) حديث (٣٨)، ط/دار إحيَاء التراث العربي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي)، وانفرد به عن البخاري، واللفظ له.

وأخرجه الترمذي في «كتاب الزهد» «باب ما جاء في حفظ اللسان» حديث (٢٤١٠)، (٤ / ٦٠٧)، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، وزاد فيه» قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟ قال: هذا، وأخذ بلسانه».

وأخرجه ابن ماجه في «كتاب الفتن» «باب كف اللسان في الفتنة» حديث (٣٩٧٢)، (٢ / ١٣١٤)، ط/دار الفكر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي)، وزاد فيه ما زاده الترمذي.

وأخرجه ابن حبان « كتاب الحظر والإباحة »، «باب ما يكره من الكلام وما لا يكره»، (٥/١٣)، ط٢/مؤسسة الرسالة تحقيق شعيب الأرناءوط.

فائدتان على تخريج الحديث:

لم يرو مسلم لسفيان بن عبد الله راوي هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم غير هذا الحديث.

ولم يرو له البخاري ولا روى له في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا. [انظر: الديباج على مسلم لأبي الفضل السيوطي (١ / ٥٦)، ط/ دار ابن

عفان، تحقيق: أبو إسحاق الحويني الأثري].

ثانيا: رجال الحديث

سُفْيَان بن عبد اللَّه الثَّقَفِيّ: هو ابن ربيعة بن الحارث الثقفي الطائفي صحابي، وكان عامل عمر على الطائف[تقريب التهذيب لابن حجر (١ / ٢٤٣٦)، ط١/ دار الرشيد، تحقيق: محمد عوامة].

عروة: هو ابنِ الزبيرِ بن العوام، مدني تابعي ثقة، كان رجلاً صالحا لم يدخل في شيء من الفتن ووقعت في ركبته الأكلة فقطعها ولم يترك جزءه تلك الليلة [انظر: معرفة الثقات للعجلي (ج٢ ص١٣٣)، ط١/ مكتبة الدار].

هشام بن عروة : هو ابن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي ثقة فقيه، ربما دلس، من الخامسة، مات سنة خمس أو ست وأربعين وله سبع وثمانون سنة [تقريب التهذيب ج ١ ص ٧٢٩٧]، ووثقه العجلي [انظر:معرفة الثقات (ج٢ ص٣٣٢)، ط١/ مكتبة الدار].

فائدة: قلت: قول الحافظ (ربما دلس) فسره لنا - الحافظ - في طبقات المدلسين بعدما وضعه في الطبقة الأولى (وهم مَن لم يوصف بالتدليس إلا نادرًا)، ثم قال: ذكره بذلك أبو الحسن القطان، وأنكره الذهبي وابن القطان، فإن الحكاية المشهورة عنه أنه قدم العراق ثلاث مرات، ففي الأولى حدّث عن أبيه فصرح بسماعه، وفي الثانية حدث بالكثير فلم يصرح بالقصة، وهي تقتضي أنه حدث عنه بما لم يسمعه منه، وهذا هو التدليس (قلت: أي أنه في المرة الثانية كان يحدث عن أبيه ما لم يسمعه منه مباشرة؛ لذا لم يصرح بالسماع) [انظر: تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس المعروف بطبقات المدلسين لابن حجر، ص٢٦، ط١/مكتبة المنار].

قلت: ومَن وضعه الحافظ في الطبقة الأولى والثانية هم من احتمل الأئمة تدليسهم، وأخرجوا لهم في الصحيح كيحيى بن سعيد الأنصاري من الأولى، والثوري من الثانية، وعليه فلا إشكال في صحة الحديث للحيثيات التالية:

١- تخريج الإمام مسلم للحديث يُعد حكمًا بصحته.

٢- هشام بن عروة من رجال الصحيحين، بل خرّج له الجماعة.

٣- أن تدليسه من الطبقة الأولى كما سبق بيانه فهو حديث صحيح والحمد لله.[انظر: طبقات المدلسين ص١٣].

ثالثا: شرح ألفاظ الحديث

قوله: « قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك »: أي علمني قولاً جامعاً لمعاني الإسلام واضحاً في نفسه؛ بحيث لا يحتاج إلى تفسير غيرك، أعمل عليه وأتقي به، فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله: « قل آمنت بالله ثم استقم ».[شرح الأربعين النووية (١ / ٢٠)]، ولفظ الترمذي وابن ماجه (حدثني بأمر أعتصم به): أي أستمسك به [تحفة الأحوذي للمباركفوري (٧ / ٧٧ط /دار الكتب العلمية]، والجمع بينهما: أي قل لي قولاً جامعًا أستمسك به، ولا أحتاج بعده إلى سؤال غيرك.

قوله: «قل آمنت بالله ثم استقم» قال النووي: قال القاضي عياض رحمه الله: هذا من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم وهو مطابق لقوله تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ » [الأحقاف: ١٣] أي وحدوا الله وآمنوا به، ثم استقاموا فلم يحيدوا عن التوحيد والتزموا طاعته سبحانه وتعالى إلى أن توفوا على ذلك. وعلى ما ذكرناه أكثر المفسرين من الصحابة فمن بعدهم، وهو معنى الحديث إن شاء الله تعالى، هذا آخر كلام القاضي رحمه الله. [شرح النووي على صحيح مسلم (٢ / ٩، ط٢ /دار إحياء التراث العربي].

ومعنى الاستقامة:

لغة: الاعتدال، وهي مصدر استقام: أي اعتدل واستوى [انظر لسان العرب (٤٩٩/١٢)، ط١/ دار صادر].

وفي الشرع: هي سلوك الطريق المستقيم، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا

يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك « [انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ص (١٩٣)].
وذكر البغوي رواية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «استقاموا لله ولم يروغوا روغان الثعالب»، وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «لم يشركوا بالله شيئًا «. [شرح السنة للبغوي (١/ ٣١)ط٢/ المكتب الإسلامي تحقيق: شعيب الأرناؤوط)].
قوله: (ما أخوف ما تخاف علي) (وهى زيادة عند الترمذي، وابن ماجه): ما الأولى استفهامية مبتدأ خبره أخوف، وهو اسم تفضيل، وما الثانية موصولة: أي ما أخوف الأشياء التي تخاف منها عليّ يا رسول الله.
(فأخذ بلسان نفسه، ثم قال هذا): أي أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بلسان نفسه، ثم قال هذا، والمعنى: هذا أكثر خوفي عليك منه (وهي أيضا زيادة عند الترمذي وابن ماجه) [تحفة الأحوذي للمباركفوري (٧ / ٧٧(ط/ دار الكتب العلمية].

رابعًا: من فوائد الحديث

الحديث دليل على حرص الصحابة رضوان الله عليهم على العلم، وسؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن أهم الأعمال وأحكمها، وعلى تعلم الدين، وهذا مفهوم واضح من سؤال الصحابي للنبي صلى الله عليه وسلم، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: «كان الناس يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» [جزء من حديث متفق عليه في البخاري برقم (٣٤١١)، ومسلم برقم (١٨٤٧)].
الحديث من جوامع الكلم التي أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم، ففي هذين الأمرين جمع النبي الدين كله، ولذا بوَّب الإمام مسلم عليه بـ «باب جامع أوصاف الإسلام «، فالحديث شمل عمل القلب وهو الإيمان، وعمل الجوارح وهي الاستقامة، فهو شامل للظاهر والباطن. شرح النووي على صحيح مسلم (٢ / ٩، ط٢/دار إحياء التراث العربي].
الحديث دليل على أن جماع الخير في الاستقامة بعد الإيمان؛ ولأن شأنها عظيم أرشد النبي صلى الله عليه وسلم لها حينما سأله عن شيء جامع، وجواب النبي صلى الله عليه وسلم هو الموافق لقوله تعالى:« إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ».]الأحقاف: ١٣[. [انظر: الديباج على مسلم لأبي الفضل السيوطي (١ / ٥٦)، ط/ دار ابن عفان، تحقيق: أبو إسحاق الحويني الأثري].
زيادة الترمذي وابن ماجه مبينة على أن أعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنه ترجمان القلب، ونُسب إلى أحمد: لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ونُسب إلى الشافعي: احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان. [انظر: شرح سنن ابن ماجه للسيوطى ج ١ ص ٢٨٦].

خامسًا: في رحاب الحديث

إن غاية ما يتطلع إليه الإنسان المسلم: أن تتضح له معالم الطريق إلى ربّه، فتراه يبتهل إليه في صلاته كل يوم وليلة أن يهديه الصراط المستقيم؛ كي يتخذه منهاجًا يسير عليه، وطريقًا يسلكه إلى ربه، حتى يظفر بالسعادة في الدنيا والآخرة.
وهذا الحديث على قلة ألفاظه، يضع منهجًا متكاملاً للمؤمنين، وتتضح معالم هذا المنهج ببيان قاعدته التي يرتكز عليها، وهي الإيمان بالله: (قل آمنت بالله)، فهذا هو العنصر الذي يغير من سلوك الشخص وأهدافه وتطلعاته، وبه يحيا القلب ويولد ولادة جديدة تهيئه لتقبل أحكام الله وتشريعاته، ويقذف الله في روحه من أنوار هدايته، فيعيش آمنا مطمئنا، ناعمًا بالراحة والسعادة، قال الله تعالى مبينا حال المؤمن: «أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا » (الأنعام: ١٢٢)، فبعد أن كان خاوي

الروح، ميّت القلب، دنيوي النظرة ؛ إذ بالنور الإيماني يملأ روحه، فيشرق منها القلب، وتسمو بها النفس، ويعرف بها المرء حقيقة الإيمان ومذاقه.

ولما كان هذا شأنها أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الإيمان، فمن الناس من يأتي بالإيمان اعتقاداً وقولاً وعملاً لكنه يعوجُّ في طريقه ويقصِّر في عمله، والاستقامة هي الثبات على طريق الحق والاستمساك به، فهي طريق النجاة، ولذا أمر الله عز وجل بها.

الاستقامة تكون بالقلب واللسان والجوارح

لذا فمن زعم أنه استقام على شرع الله تعالى وظاهره يخالف ذلك وتراه ربما يشير إلى صدره ويقول: (التقوى هاهنا) فزعمه باطل، ودعواه كاذبة، فاستقامة القلب تنقاد إليها الجوارح، فهي امتحانه ودليله، وكذا من استقام ظاهره ولم يستقم قلبه فاستقامته مخرومة، فليست هي الاستقامة التي يريدها الله تعالى، فمن عمَّر قلبه بفتن الشهوات وساء عمله حمل قلبا مسودًا أو قلبًا قليل التعلق بربه ومهابته وخشيته وإجلاله وتعظيمه والتقرب إليه بالعبادات القلبية، فأنى لقلبه استقامة؟!

وغالبا ما يُظهر اللسان ما في القلب فتجده معبِّرا عما فيه، فمن ساء قوله فكان كذابًا أو مغتابًا أو نمامًا أو فاحشًا بذيئًا ونحو ذلك من آفات اللسان فأي لسان استقام معه؟! لذا فإن الاستقامة تكون بالقلب واللسان والجوارح.

يقول ابن القيم رحمه الله: «والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنِّيَّات، فالاستقامة فيها وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله. قال بعضهم: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة، فالاستقامة للحال بمنزلة الروح من البدن، فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت، فكذلك إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد... وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»

[انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١٠٥/٢)، ط ٢/ دار الكتاب العربي، تحقيق: محمد حامد الفقي].

و يقول ابن رجب - رحمه الله -: « أصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد... فمتى استقام القلب على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته، ومحبته وإرادته، ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه، وأعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنه ترجمان القلب والمعبِّر عنه».[انظر: جامع العلوم والحكم (٢٠٥)، ط٧/مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط / إبراهيم باجس].

ختامًا: ونحن في أعقاب رمضان

إن كانت حقيقة الاستقامة أن يحافظ العبد على الفطرة التي فطره الله عليها، فلا يحجب نورها بالمعاصي والشهوات، مستمسكا بحبل الله، كما قال ابن رجب رحمه الله: « والاستقامة في سلوك الصراط المستقيم تشمل فعل الطاعات، وترك المنهيات «[انظر: جامع العلوم والحكم (ص: ٢٠٦)]

فلا يتصور- أخي في الله - أن تفرط في إكرام الله لك، ولا أن تتخلى عن جهدك وعلو همتك التي عوّدت نفسك الطيبة عليها في رمضان، نسأل الله أن يهدينا وإياك إلى صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

في ديننا اليسر

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه قال: «حدثنا عبد السلام بن مطهر قال: حدثنا عمر بن علي عن معن بن محمد الغفاري عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ».

أولاً: التخريج

(صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (١ / ٢٣)، ط٣/دار ابن كثير، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا).

(سنن النسائي (المجتبى)، كتاب الإيمان وشرائعه، باب الحياء، (٨ / ١٢١)، ط٢/مكتب المطبوعات الإسلامية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة)، وزاد النسائي: ويسروا.

(صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، (٢ / ٦٣)، ط٢/مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرناءوط).

(شعب الإيمان للبيهقي (٤٠١/٣) (رقم ٣٨٨١)، ط١/ دار الكتب العلمية، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول).

(مسند الشهاب لأبي عبد الله القضاعي (٢ / ١٠٤) (رقم٩٧٦)، ط٢/ مؤسسة الرسالة، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي).

فائدة على التخريج:

تفرد البخاري دون مسلم بتخريج هذا الحديث، وأخرج مسلم طرفًا منه بسنده عن أبي هريرة رفعه: « قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِه. قالوا: يا رَسُولَ اللَّه ولا أنت؟ قال: وَلا أنَا، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِرَحْمَةٍ منه وَفَضْلٍ »

ثانيًا: رجال الإسناد

وهم خمسة:

الأول: عبد السلام بن مطهر الأزدي البصري، روى عن شعبة وجرير بن حازم، وروى عنه البخاري وأبو داود وغيرهما، ثقة توفي ٢٢٤. (انظر: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، لأبي عبد الله الذهبي

الثاني: عمر بن علي بن عطاء، بصري أصله واسطي، ثقة وكان يدلس تدليسا شديدًا، من الثامنة، مات سنة تسعين وقيل بعدها. (تقريب التهذيب لابن حجر(١ /٤١٦)، ط١/ دار الرشيد، تحقيق: محمد عوامة).

الثالث: مَعْن، بفتح الميم وسكون العين المهملة، ابن محمد بن معن بن نضلة الغفاري الحجازي، ذكره ابن حبان في ثقاته، روى له البخاري، والتِّرْمِذِيّ، والنَّسَائي، وابن ماجه. (انظر: تهذيب الكمال للحافظ المزي(٣٤١/٢٨)، ط١/ مؤسسة الرسالة، تحقيق: د. بشار عواد معروف).

فائدة: تفرد البخاري دون مسلم بالتخريج لمَعْن.

الرابع: سعيد بن أبي سعيد، واسم أبي سعيد: كيسان، المقبري، مدني تابعي ثقة. (انظر: معرفة الثقات للعجلي(٣٩٩/١)، ط١/ مكتبة الدار، تحقيق: عبد العليم عبد

العظيم البستوي).

وقال الإمام العيني: «قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث، ولكنه كبر وبقي حتى اختلط قبل موته». (انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١ / ٢٣٦)، ط/دار إحياء التراث العربي)

الخامس: أبو هريرة (الصحابي الجليل رضي الله عنه).

فوائد ولطائف على إسناد هذا الحديث:

منها أن فيه التصريح بالتحديث والعنعنة كما هو ظاهر في الإسناد، ومع هذا فهو صحيح، وسيأتي الجواب عن العنعنة.

ومنها: أن رواته ما بين حجازي ومدني وبصري كما سبق بيانه في الكلام على رجاله، مما يدل على بذل علماء الحديث ورحلتهم في طلبه، وأن الله حفظ بهم السنة النبوية المطهرة.

ومنها: أن فيه رواية مدلس شديد بعن، ولكنه محمول على ثبوت سماعه من جهة أخرى، (وكل ما كان في الصحيحين عن المدلسين بعن، فمحمول على سماعهم من جهة أخرى، مما يدل على أنه ليس كل مدلس تُترك روايته). (انظر: عمدة القاري (١ / ٢٣٦).

ثالثا: بيان درجة الحديث

الحديث صحيح بشهادة إمام المحدثين البخاري، وإن كان في ظاهره علتان:

١- أنه رواية مدلس بالعنعنة (عمر بن علي رحمه الله).

٢- أنه رواية معن عن سعيد، وسعيد رحمه الله كان قد اختلط في آخر عمره.

والجواب عنهما بما يلي:

الجواب عن الأول: أن عمر بن علي - رحمه الله - صرّح بالسماع من طريق أخرى، فقد رواه ابن حبان في صحيحه من طريق أحمد ابن المقدام أحد شيوخ البخاري عن عمر بن علي (المذكور)، قال: سمعت معن بن محمد فذكره. (فتح الباري (١/ ٩٥))، ط/دار المعرفة، تحقيق: محب الدين الخطيب).

والجواب عن الثاني: أن سماع معن عن سعيد كان قبل اختلاطه، ولو لم يصح ذلك عند البخاري لما أودعه في كتابه الذي سماه (صحيحًا). (انظر:عمدة القاري (١/ ٢٣٦).

رابعًا: شرح الحديث

١- قوله: «إن الدين يسر»: أَيْ دِين الْإِسْلَام ذُو يُسْر في شرائعه جميعًا. (انظر: فتح الباري (٩٤/١).

٢- قوله: (ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه): «يشاد» من المشادة وهي المغالبة من الشدة، وقوله: « إلا غلبه « أي: غلبه الدين، وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه. (انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير، ط/ مطبعة الملاح، تحقيق: عبد القادر الأرناءوط - التتمة تحقيق بشير عيون)

(والمعنى: لا يأخذ أحدكم بالأصعب، ويترك الأيسر إلا غلب الدين عليه، وعجز ذلك المتعمق، وانقطع عن عمله كله أو بعضه).

٣- قوله: (فسددوا) من التسديد، وهو: التوفيق للصواب، وهو السداد والقصد من القول والعمل من غير تفريط ولا إفراط. (انظر: عمدة القاري (١ / ٢٣٨).

قوله: (وقاربوا): معناه إن لم تستطيعوا الأخذ بالكل، فاعملوا ما يقرب منه؛ فإنكم لن تبلغوا النهاية في العبادة. (عمدة القاري (١ / ٢٣٨).

٤- قوله: (وأبشروا): أي بالثواب على العمل وإن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره. (انظر: فتح الباري (١ /٩٥)).

٥-قوله:(واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة):

استعينوا:(من الاستعانة وهى طلب العون) على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة. والغَدوة: بالفتح السير أول النهار. والروحة: بالفتح السير بعد الزوال.

والدُّلْجة: بضم أوله وفتحه وإسكان اللام سير آخر الليل، وقيل سير الليل كله، ولهذا عبّر فيه بالتبعيض، وهذه الأوقات أطيب أوقات المسافر، وكأنه صلى الله عليه وسلم خاطب مسافرًا إلى مقصد فنبّهه على أوقات نشاطه؛ لأن المسافر إذا سافر الليل والنهار جميعًا عجز وانقطع، وإذا تحرى السير في هذه الأوقات المنشطة أمكنته المداومة من غير مشقة. (فتح الباري (١ /٩٥).

خامسًا: ما يستفاد من الحديث:

١- هذا الحديث من دلائل النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، ولا نقصد بالتنطع طلب الأكمل في العبادة؛ فإنه من الأمور المحمودة، بل المقصود منع الإفراط المؤدي إلى الملل والمبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلي الليل كله، ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح. (انظر: شرح السيوطي لسنن النسائي (٨ /٥٠٣٤)، ط٢/مكتب المطبوعات الإسلامية، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة).

٢- أن ديننا يسر، قال السيوطي رحمه الله: سماه النبي صلى الله عليه وسلم يسرًا مبالغة ومقارنة بالأديان قبله، فمن ذلك أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم ومن أوضح الأمثلة، لذلك أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم. (انظر: شرح السيوطي لسنن النسائي(٨ /٥٠٣٤)

٣- التنبيه على أوقات النشاط؛ لأن الغدو والرواح والإدلاج أفضل أوقات المسافر وأوقات نشاطه. (عمدة القاري (١ / ٢٣٩).

٤- تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنعه ورغبته لا يستلزم نقص أجره (فرب العباد كريم).(انظر: فيض القدير (١ / ٢٣٤)).

٥- تدخل الرخص ضمن ما سهّله الله على عباده كصلاة وصيام أصحاب الأعذار وغير ذلك مما أجمع على حله، فإذا أنعم الله سبحانه وتعالى على عبده بنعمة كهذه أحسن العبد قبولها إجلالا لما صدر من كرمه سبحانه وتعالى. (انظر: فيض القدير (١ / ٢٣٤).

٦- رفق النبي صلى الله عليه وسلم بأمته، وأن الشريعة حنيفية سمحة.
(شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩٦/١))، ط٢/ مكتبة الرشد، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم).

٧- الأمر بالاقتصاد في العبادة، وترك التشديد على النفس، فإن الله سبحانه وتعالى لم يتعبد خلقه بأن ينصبوا آناء الليل والنهار، فلا يستريحوا، بل أوجب عليهم وظائف في وقت دون وقت، فليخلطوا طرف الليل بطرف النهار، وليجمّوا فيما بينهما أنفسهم. (شرح السنة للبغوي (٩٧/٤) ط٢/ المكتب الإسلامي، تحقيق: شعيب الأرناءوط - محمد زهير الشاويش).

٨- الأخذ من العمل بما يتمكن صاحبه من المداومة عليه، وأن أحب العمل إلى الله ما داوم صاحبه عليه وإن قل. وقد روي ذلك في حديث آخر. (فتح الباري (١ / ١٥٠) ط٢/ دار ابن الجوزي، تحقيق: أبو معاذ طارق عوض الله).

٩- فيه الإشارة إلى شدة رغبة الصحابة في العبادة، وطلبهم الازدياد من الخير (مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يضع لهم الضابط الشرعي لهذا). (عمدة القاري (١ / ١٦٧)).

١٠- وفيه تشبيه للسفر إلى الله تعالى بالسفر الحسي، ومعلوم أن المسافر إذا استمر على السير انقطع وعجز، وإذا أخذ الأوقات المنشطة نال المقصد بالمداومة. (حاشية السندي على سنن النسائي (٨ / ١٢٣))، ط٢/دار المطبوعات العربية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة).

وقال الخطابي: معنى هذا الكلام (شيء من

الدلجة) الحث على عبادة السحر. (انظر: عون المعبود (٦/ ٣٣٦)، ط٢/دار الكتب العلمية).

١١- (براعة الإمام البخاري رحمه الله في تبويب صحيحه؛ فقد أورد هذا الحديث عقب الأحاديث التي قبله والتي تضمنت الترغيب في القيام والصيام والجهاد، فأراد أن يبين أن الأَوْلى للعامل بهذه الأحاديث أن لا يُجهد نفسه بحيث يعجز وينقطع، بل يعمل بتلطف وتدريج ليدوم عمله ولا ينقطع، ثم عاد بعد حديثنا هذا إلى سياق الأحاديث الدالة على أن الأعمال الصالحة معدودة من الإيمان فقال: « باب الصلاة من الإيمان » (وفي هذا رد على من تجرأ على ذكاء البخاري رحمه الله وعلمه) (انظر: فتح الباري (١ /٩٥))، ط/دار المعرفة).

أخيرًا: الحديث وواقعنا

إن هذا الحديث يدل بمفهومه ومنطوقه على أن ديننا يسر، فلو تفكر الإنسان في العبادات جميعها لوجدها ميسرة؛ فالصلوات موزعة في أوقات، والزكاة جزء صغير بالنسبة لأصل المال، والصوم شهر في العام، والحج لمن استطاع سبيله، هذا فضلاً عن التماس الشارع الأعذار لأصحابها.

فالحاصل أن الدين يسر، يسر في أصل التشريع، ويسر فيما إذا طرأ ما يوجب الحاجة إلى التيسير في حالة الأعذار، ولن يطلب أحد التشدد في الدين إلا غلب وهزم، ثم ترك العمل، فعلى المرء أن يفعل الشيء على وجه السداد والإصابة، فإن لم يتيسر فيقارب، وليستبشر بالثواب الجزيل والخير والمعونة من الله عز وجل.

ولا يفوتنا في هذا المقام ومع هذا الحديث النبوي أن ننصح لأنفسنا وإخواننا بما يلي:

١- ينبغي للإنسان أن يحرص على إدخال السرور على إخوانه ما استطاع، بالبشارة والبشاشة وغير ذلك، ولا يقنطهم ظنًا منه أن التخويف قد يأتي بثمرة أجود في طريق الدعوة إلى الله، فهذه البشارة هي هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وهي نوع من التيسير.

٢- عدم التشديد على الناس في دعوتهم إلى الخير أو إلزامهم بالعزائم، أو تكليفهم بما لا يطيقون مما لم يكلفهم به الشرع الحنيف.

٣- عدم التشديد على النفس ولا تكليفها بما لم يكلّفها الشارع به بزعم الأخذ بالعزيمة؛ لأن الخير كل الخير في اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم، بل لا سبيل غير ذلك.

٤- الحرص على إظهار سنة التيسير للناس في جميع مناحي الدين مع التأكيد على نية التقرب إلى الله والتعبد له بإظهارها ، وأن الذي يشدد على الناس - مهما كان صاحب هدف سام - مخالف للحنيفية السمحة.

٥- عدم التسرع في الحكم على الناس وتصنيفهم مهما بدا من تقصيرهم، بل ينبغي الإعراض عن تصنيف الناس بالكلية ، فلا يكلف المرء نفسه بما لم يكلفه الله به، إذ إن ضرر ذلك أكبر من نفعه .

٦- التدرج في دعوة الناس إلى الخير، والبدء بالأهم ثم المهم حتى لا يعرض الناس عن دين الله بالكلية، وهذا نوع من التيسير، وهذه هي السنة .

٧- تحبيب الناس في سنة الحبيب صلى الله عليه وسلم، والتأكيد على أن اختيار النبي لأمته هو عين التيسير وهو كذلك، فلا يفرّط المسلم في شرائع دينه بدعوى التيسير، بل التيسير هو عين السنة، فما خُيِّر رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما كما هو ثابت في الحديث ، فالسنة لا تحتاج إلى تعديل ، ولا إلى مزيد من التيسير فحبيبنا صلى الله عليه وسلم لم يقصر في تبليغ دين الله على الوجه الذي أمره الله به.

أسأل الله الكريم المنان بفضله أن يرزقنا وإياكم هدى نبيه كاملاً غير منقوص، إنه ولي ذلك والقادر عليه،

والحمد لله رب العالمين.

باب السنة

أيها الحبيب؛ سَلْ عما ينفعك

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

قال الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا عبد الْعَزِيزِ ابن عبد الله حدثنا إِبْرَاهِيمُ بن سَعْد عن الزُّهْرِيِّ عن سَعِيدِ بن الْمُسَيَّبِ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: سُئِلَ النبي صَلَّى الله عليه وسلم أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ: « إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قال: جِهَادٌ في سَبِيلِ اللَّهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قال: حَجٌّ مَبْرُورٌ».

أولا: عزو الحديث

١. صحيح البخاري، كتاب الحج / باب فضل الحج المبرور (٢/ ٥٥٣) ط٣/دار ابن كثير، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.

٢. صحيح مسلم، كتاب الإيمان/ بَاب بَيَانِ كَوْنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ(١/ ٨٨)، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٣. سنن الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، بَاب ما جاء أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ (٤/ ١٨٥)، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون وفيه قال: (الجهاد سنام العمل).

٤. المجتبى من سنن النسائي، كتاب مناسك الحج، فضل الحج (٥/ ١١٣)، ط٢/ مكتب المطبوعات الإسلامية، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة.

فائدة وبيان:

إن الهدف من تخريج الحديث هو عزوه إلى كتب السنة الأصلية التي أخرجته بسنده بهدف دراسة إسناده ومتنه للوصول للحكم على الحديث وبيان درجته ونوعه (القول الثمين في أصول التخريج للدكتور عماد علي عبد السميع ص١٨-٢٠ بتصرف).

لذا فإن مذهب أهل العلم تجاه الأحاديث التي خرجها البخاري ومسلم وكانت في غيرهما قسمان: أحدهما: يكتفي بالعزو إلى البخاري ومسلم، وحجته أن أحاديث الصحيحين قد اتفق أهل العلم أنها في أعلى درجات الصحة، وبالتالي قد تحقق الهدف من التخريج فلا داعي للعَزْو إلى غيرهما، وهذا مذهب الأكاديميين من أهل هذا التخصص، وفريق آخر من أهل العلم يرى أن تعدد الكتب التي يعزى إليها الحديث يزيد من ثقة القارئ فيه حتى وإن كان في الصحيحين، لذا - وتوسطا بين المسلكين - فإننا سنكتفي بتخريج الحديث من الكتب الستة، إلا إذا كانت هناك لفظة أو فائدة مستفادة زيادة على ما كان في الكتب الستة فإننا نخرجها معزوة إلى من أخرجها منهم.

ثانيا: رجال الإسناد

١. عبد الْعَزِيز بن عبد اللَّه: هو ابن عبدالله الأويسي شيخ البخاري، وثقه أبوعبدالله الذهبي، وذكره في كتابه « ذكر من تكلم فيه وهو موثق » لأبي عبدالله الذهبي (١٢٢/١)، ط١/مكتبة المنار. وذكره أبو نصر الكلاباذي في كتابه «رجال صحيح البخاري « المسمى «الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد»(٤٧٤/١)، ط١/دار المعرفة.

٢. إِبْرَاهِيمُ بن سَعْدٍ: إبراهيم بن سعد سبط عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ذكره الذهبي ووثقه في (ذكر من تكلم فيه وهو موثق) (٣١/١)، ووثقه غيره من علماء الجرح والتعديل.

٣. الزهري: هو الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، حجة، إمام، واستشهد به مسلم في أحاديث قليلة [ذكر من تكلم فيه وهو موثق للذهبي (١ /١٦٩).

٤. سَعِيد بن الْمُسَيَّب: هو ابن المسيب بن حزن المدني إمام التابعين وفقيه الفقهاء، أبوه وجده صحابيان أسلما يوم فتح مكة ذكره ابن حبان في (الثقات) (٤ /٢٧٣)، ط١/ دار الفكر).

٥. أبو هُرَيْرَةَ: هو عبدالرحمن بن صخر الصحابي الجليل، وقد سبق الكلام عنه في أعداد سابقة، وإن كان غنيًا عن التعريف.

ثالثا: درجة الحديث

في أعلى درجات الصحة كما سبق بيانه، فهو مما اتفق عليه الشيخان؛ البخاري ومسلم.

رابعا: شرح ودراسة الحديث

١. قوله: سئل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: السائل هو أبو ذر رضي الله عنه، قاله القسطلاني في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩٦/٣).

٢. قوله: (أي الأعمال أفضل)؟: أي أكثر ثوابًا. (إرشاد الساري للقسطلاني (٩٦/٣)).

٣. قوله: (إيمان بالله ورسوله): نكر الإيمان ليشعر بالتعظيم والتفخيم أي التصديق المقارن بالإخلاص المستتبع للأعمال الصالحة. [تحفة الأحوذي لأبي العلا محمد بن عبد الرحمن المباركفوري (٢٤٤/٥) ط/ دار الكتب العلمية].

٤. قوله: (قيل: ثم ماذا؟): أي: أي شيء أفضل بعده؟

٥. قوله: (جهاد في سبيل الله): أي قتال الكفار لإعلاء كلمة الله. (إرشاد الساري (٣/ ٩٦))، وفي رواية الترمذي قال: الجهاد سنام العمل، وسنام كل شيء أعلاه (تحفة الأحوذي (٥ / ٢٤٤)).

٦. قوله حج مبرور: أي مقبول ومنه بَرّ حجك، وقيل: المبرور الذي لا يخالطه إثم ولا رياء ولا سمعة، مأخوذ من البرّ أي: الطاعة، ومنه برّ في يمينه أي صدق، ومنه: أبرّ الله قسمه أي: جعله صادقا، وهذه المعاني كلها صحيحة، لأنّ المقبول هو الذي لا يخالطه إثم ولا رياء فيه وصدق فيه الحاجّ. (الفتح ٧٨/١)

وكلها (أي: الإجابات الثلاثة من النبي صلى الله عليه وسلم) أخبار لمبتدآت محذوفة؛ لأن المقدر المحذوف في الكل هو: (أفضل الأعمال) (انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (٣/ ٩٦)) بتصرف.

إشكال وجوابه

الأعمال التي وُصفت بأنها أحب الأعمال إلى الله تعالى كثيرة، ومنها: المداومة على العمل الصالح وإن قلّ، وكثرة السجود لله تعالى، وأن يموت ذاكرًا لله تعالى، والصلوات لمواقيتها، وأدلة ذلك كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر: قوله - صلى الله عليه وسلم-: «وإن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل» [متفق عليه].

وقال ثوبان - رضي الله عنه - لرسول الله: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة، أو بأحب الأعمال إلى الله، فقال: «عليك بكثرة السجود؛...الحديث» [مسلم في الصلاة (ح٤٨٨).

وعن ا بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: الصلوات لمواقيتها...الحديث. (مسلم وغيره).

فقد تعدَّد ذكر أحبِّ الأعمال إلى الله - سبحانه - وأفضلها وخيرها، وكذا أحب الناس إليه تعالى، في السُّنَّة الصحيحة التي لا تُدْفَع؛ مما أشكل على بعضهم، وما حدا بالعلماء إلى محاولة الجمع بين المختلفات بما يُقوِّي الإيمان ويَدْفَع الشك ؛ فكان السؤال الذي لا يزال يطرح نفسه أي الأعمال أفضل؟

الجواب:

قال الحافظ في الفتح((٩/٢)،ط/دار المعرفة)ما مفاده: ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين، وذلك كما يلي:

١- أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلم كل قوم:
بما يحتاجون إليه.
أو بما لهم فيه رغبة.
أو بما هو لائق بهم.

أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره، فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال؛ لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتمكن من أدائها، وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة، ومع ذلك ففي وقت

مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل.

٢- في الأحاديث الأخرى كحديث ابن مسعود الذي قدم فيه الصلاة ولم يذكر الإيمان لا يمكن أن تكون كلمة «أفضل» على بابها (أي: الفضل المطلق) بل المراد بها من أفضل الأعمال فحذفت من وهي مرادة فلا تعارض حينئذ بين هذه الروايات الأخرى وبين حديثنا الذي بين أيدينا «. اهـ من الفتح.

قلت: و لفظ «خير» و «أحب» «وأفضل» ونحوها كلها مترادفة؛ فإن الأفضل هو الأحب وهو الخير، ولكننا في هذا المقال اقتصرنا على ما جاء أنه الأفضل إلى الله تعالى؛ كيلا يطول الكلام فلا تعارض بين هذه الأحاديث، وبذا تنسجم الشريعة مع نفسها، وهى كذلك والحمد لله.

ما يستفاد من الحديث

١- دلَّ الحديث على أن الإيمان بالله - تعالى - أفضل الأعمال وأعلى الشعَب التي يتقرب بها العبد لله تعالى؛ وذلك لأنه أصل الأعمال فلا تصح إلا به، ولأنه أول واجب على المكلف فلا تقبل منه سائر الأعمال من عمل القلب واللسان والجوارح إلا بتحقق الإيمان (والأدلة على ذلك مستفيضة وليس هذا مجال بسطها). (حاشية السندي على سنن النسائي ج ٨ ص ٩٤)، ط٢/ مكتب المطبوعات الإسلامية، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة).

قضية مهمة:

قضية إدخال العمل في مسمى الإيمان هي قضية من أهم القضايا والتي ضل بسبب عدم فهمها كثير من الناس، ولقد منَّ الله على علماء السنة بفهم هذه القضية وشرحها لمن بعدهم لذا بوب البخاري بابًا بعنوان بابٌ مَنْ قَالَ: إِنَّ الإِيمَانَ هُوَ العَمَلُ لقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى «وَتِلْكَ الجَنَّةُ التِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، وقال ابن بطال فيما نقله عنه الإمام بدر الدين العيني في شرحه لصحيح البخاري(١/١٨٦): الآية حجة في أن العمل به ينال درجات الآخرة، وأن الإيمان قول وعمل، يشهد لذلك الحديث المذكور، وأراد به هذا الحديث. ثم قال: وهو مذهب جماعة أهل السنة. قال أبو عبيدة: وهو قول مالك والثوري والأوزاعي ومن بعدهم. ثم قال: وهو مراد البخاري بالتبويب. (عمدة القاري ط/ دار إحياء التراث العربي).

٢- قلت: وفي الحديث بيان فضل الجهاد في سبيل الله، فقد جعله النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بعد الإيمان، وقد تكاثرت النصوص على عظم منزلته في الدين؛ لأنه السياج الحصين الذي يحمي الدين، ويساهم في نشر الإسلام في المعمورة، يشترط في مشروعيته وتحقق فضله وثوابه أن يكون موافقا للشرع في الباطن والظاهر عمومًا، وهذا يحتاج إلى تفصيل لا يتسع له المقام، ويرجع فيه إلى كلام أهل الأثبات من أهل العلم.

٣- جعل الجهاد في هذا الحديث أفضل من الحج ؛ لأن ذلك كان في أول الإسلام وقلته، وكان الجهاد فرضا متعينا على كل أحد، فأما إذ ظهر الإسلام وفشا، وصار الجهاد من فروض الكفاية على من قام به، فالحج حينئذ أفضل ؛ فإن حَلّ العدو ببلدة واحتيج إلى دفعه، وكان له ظهور وقوة وخيف منه ؛ صار فرض الجهاد على العيان، وكان أفضل من الحج والله أعلم. (شرح صحيح البخاري لابن بطال(٤/١٩٠)،ط٢/ مكتبة الرشد، تحقيق: أبوتميم ياسر إبراهيم).

٤- قلت: وفيه دليل على فضل الحج التام الكامل الخالص من مفسدات العمل ومنقصاته في النية والعمل؛ بحيث يكون الحج مبروراً أي خالصاً لوجه الله، سالما من الرفث والفسوق والبطلان.

قال النَّوويّ رحمه الله:» من علامة قبول الحج وكونه مبرورًا أن يرجع خيرًا مما كان ولا يعاود المعاصي» (شرح النووي على صحيح مسلم (٩ / ١١٩) بتصرف.

٥- قلت: أهمية سؤال المرء عما ينفعه كما رأيناه من الصحابة وهم يسألون النبي عما ينفعهم كما هو ظاهر، واقتصار النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الثلاث لا يعني الحصر، أي أن هناك أعمالاً فاضلة ولكنه اقتصر هنا على ذكر هذه الثلاث، كما أن ذكر هذه الثلاث لا يعني أنها أفضل الأعمال مُطلقا، بل الأمر كما سبق الجواب عليه في الإشكال السابق ذكره.

(فائدة على المعاني والبيان)

فيه تنكير الإيمان والحج وتعريف الجهاد، وذلك لأن الإيمان والحج لا يتكرر وجوبهما بخلاف الجهاد فإنه قد يتكرر، فالتنوين للإفراد الشخصي، والتعريف للكمال. (عمدة القاري (١ / ١٨٧).

أخيرا: إسقاط على الواقع

هذا السؤال الذي سأله السائل في هذا الحديث للنبي صلى الله عليه وسلم كثر من قبل الصحابة كما رأينا لأنهم يحرصون على ما ينفعهم، و يحذرون من قوله تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (سورة الكهف: ١٠٣-١٠٤).

فكان انشغالهم بما فيه نجاتهم، كذلك كانوا في سؤالهم للنبي صلى الله عليه وسلم متأدبين بما يجب على السائل أن يتأدب به من حسن السؤال وعدم الإكثار على المفتي، أما عن الذي جاء إلينا من توجيه في هذا الحديث مما ذكر في أفضل الأعمال فهو بالترتيب الإيمان، ثم الجهاد، ثم الحج المبرور،

ولا شك، وكما سبق أن أفضنا أن الأمر لا يقتصر على هذه الثلاث، وأن أفضلية العمل لها ضوابط كثيرة يرجع إلى كل في موضعها، لكننا مع هذا لا نختلف جميعًا أنه مهما كثرت الإجابات التي جاءت إلينا من السنة المطهرة فيما أجيب أنه من أفضل الأعمال لا نختلف أن الإيمان هو الأفضل على الإطلاق لاستفاضة الأدلة على هذا، ولا نختلف جميعا على أن ما ورد ذكره بعد ذلك في حديثنا هذا من جهاد وحج هو من الأعمال العظيمة العالية القدر التي أخبر عنها نبينا أنها من أفضل الأعمال وبشرنا بعظم أجرها، لذا ومن خلال ما استفدناه.

من حديثنا هذا ننصح لأنفسنا وإخواننا بما يلي:

١- الحرص على تعلم الإيمان وتحقيقه، وأنه بوابة الدخول إلى باقي الأعمال وأقصد بالإيمان هنا الإيمان بمعناه الواسع الشامل، أعني معناه العلمي المعروف في علم العقيدة والسالف الإشارة إليه، إضافة إلى معناه التربوي الذي تعلمناه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعن عبد الله بن عمر: يقول عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: « لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرٍ وَأَحَدُنَا يَرَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَأَمْرَهَا وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ نُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمُ الْيَوْمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، وَلَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ وَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ « (رواه الطبراني في الأوسط، قال الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولا أعلم له علة ووافقه الذهبي أنظر: المستدرك على الصحيحين ١/ ٣٥).

٢- معرفة فضل الجهاد في سبيل الله، وفضل إعلاء الجهاد لكلمة الله، والتغلب على ما لحق بالمسلمين من هزيمة نفسية، وإدراك أن ما لحق بهم هو من كسب أيديهم والله تبارك وتعالى عفا عن كثير.

٣- العلم بأن الجهاد له ضوابط شرعية مهمة جدًا تدرس في مظانها على أيدي العلماء الثقات، فلا يترك الناس أنفسهم فريسة للعواطف تحركهم فيكلفون أنفسهم بما لم يكلفهم الله به فيكون ذلك سببا في إتلافهم وهلاكهم والقضاء على الدعوة إلى الله.

٤- معرفة فضل الحج المبرور زيادة على كونه ركنا من أركان الإسلام.

٥- تتفاوت الأعمال فبعضها أفضل من بعض، فعلى المسلم أن يحرص على ما يطيق من أفضل الأعمال وأكثرها نفعا، وأعظمها أجرا، وعلى ما ينفعه منها، حتى وإن كانت كلها مشروعه فما بالنا بما هو غير مشروع كالتظاهرات التي يضيع الإنسان فيها وقته وربما يتلف نفسه، فعليه أن يعرض عنها بالكلية.

٦- من آداب السؤال أن يختار السائل الوقت المناسب، وأن يقتصر في السؤال على ما يتعلق بالشيء المسئول عنه، وأن يكون بصوت واضح أو بخط واضح إذا كان السؤال مكتوباً، وأن يسأل عما ينفعه، وأن يسأل سؤال طالب للاستفادة، لا سؤال تعنت وتعالم، وأن لا يسأل عن الحوادث التي لم تقع أو هي نادرة الوقوع، وأن لا يكون قصده أن يجيبه الشيخ بما يهواه، بل يحرص أن يكون قصده معرفة الحق، وألا يسأل إلا أهل العلم المعتبرين الموثوق بهم. وإذا كان السؤال عن قول أو فعل فأجاب الشيخ مثلاً بأن هذا العمل بدعة فلا يحل للسائل أن ينزل هذه الفتوى على فلان من الناس فيقول فلان مبتدع؛ لأن المعين قد يقوم به مانع يمنع من إسقاط الحكم عليه.

وفى ذلك يقول ابن القيم رحمه الله - وقد ذكر مراتب العلم، ومنها حسن السؤال -:

« فمن الناس من يحرمه لعدم حسن سؤاله، أما لأنه لا يسأل بحال أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه، كمن يسأل عن شيء لا يضر جهله به ويدع مالا غنى له عن معرفته، وهذه حال كثير من الناس، ومن الناس من يحرمه لسوء إنصاته فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب إليه من الإنصات، وهذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة للعلم، وهي تمنعهم علمًا كثيرًا، ولو كان حَسَنَ الفهم.

ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال: من كان حَسَنَ الفهم رديء الاستماع لم يقم خيره بشره.

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب العلل له قال: كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس، فكان يخزن علمه عنه، وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلطف له في السؤال فيعزه بالعلم عزًا.

وقال ابن جريج: لم أستخرج العلم الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به.

وقال بعض السلف: إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول. اهـ.» انظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٦٩).

نسأل الله الكريم بفضله ومنِّه وجوده أن يرزقنا وإياكم والمسلمين جميعا حسن الفهم وحسن العمل، وأن يعيننا عليه ويتقبله منا؛ إنه أكرم مسئول وخير مأمول، والحمد لله رب العالمين.

شهر الله المحرم
نفحة من نفحات الدهر

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

اختص الله تعالى في أيام دهرنا مواسم تعظُم فيها الطاعة والتقرب إليه سبحانه وتعالى، فهي مواسم جليلة ونفحات ربانية عظيمة وهبها الله لهذه الأمة تفضلاً منه تبارك وتعالى، فقد أخلفها عن قِصَر أعمارها بركةً في عملها ونفحات في أيام دهرها، فمواسم الخيرات في السنة لا تنقضي، يخرج المؤمن من عبادة ليستقبل أخرى، فمن لا يطيق فضيلة فهو يجتهد في غيرها، ومن فاتته فرصة للخير فهو يغتنم أخرى، فطوبى لمن تعرض لهذه النفحات، واستغل الفرص قبل الفوات، وكل ذلك من نعم الله تعالى على عباده، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، من ذلك شهر الله المحرم الذي يلي موسم الحج المبارك، وفي فضل المحرم يقول الإمام مسلم رحمه الله:

حدثني قُتَيْبَةُ بن سَعِيدٍ حدثنا أبو عَوَانَةَ عن أبي بِشْرٍ عن حُمَيْدِ بن عبد الرحمن الْحِمْيَرِيِّ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ».

أولاً: عَزْو الحديث:

١- (صحيح مسلم، كتاب الصيام، بَاب فَضْلِ صَوْمِ الْمُحَرَّمِ، (٢/٨٢١) (١١٦٣) ط: دار إحياء التراث العربي، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢- (سنن أبي داود «كتاب الصوم، بَاب في صَوْمِ الْمُحَرَّمِ (٢/٣٢٣)» (٢٤٢٩)، ط/دار الفكر، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٣- (سنن الترمذي، كتاب أبواب الصلاة/بَاب ما جاء في فَضْلِ صَلَاةِ اللَّيْلِ (٢/٣٠١) (٤٣٨)، ط/دار إحياء التراث العربي، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون.

٤- (المجتبى من سنن النسائي) كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب الترغيب في قيام الليل (٣/٢٠٦) (١٦١٣)، ط٢/مكتب المطبوعات الإسلامية، ت: عبدالفتاح أبو غدة.

ثانيا: رجال الإسناد:

١- **قُتَيْبَةُ بن سَعِيدٍ:** هو ابن سعيد بن جميل بفتح الجيم بن طريف الثقفي أبو رجاء البغلاني (ثم البلخي) يقال اسمه يحيى، وقيل علي، ثقة ثَبْت، مات سنة أربعين عن تسعين سنة (تقريبًا) [تقريب التهذيب(١/٤٥٤)، ط١/دار الرشيد، ت: محمد عوامة]، قلت: وقتيبة لقبه (مستفاد من تهذيب التهذيب (٨/٣٢١)».

فائدة خاصة بمن روى عن قتيبة:

روى عنه الجماعة (البخاري، مسلم، أبو داوود، الترمذي، النسائي، ابن ماجة) بغير واسطة سوى ابن ماجة فقد روى له بواسطة، وروى له الترمذي بواسطة وبغير واسطة [تهذيب التهذيب (٨/٣٢١)، ط١/دار الفكر].

٢- **أبو عَوَانَةَ:** هو وضاح بن عبد الله الحافظ أبو عوانة اليشكري مولى يزيد بن عطاء، سمع قتادة وابن المنكدر، وعنه عفان وقتيبة، ثقة متقن لكتابه، توفي ١٧٦هـ. [الكاشف(٢/٣٤٩)، ط١/دار القبلة للثقافة الإسلامية ، ت: محمد عوامة].

٣- **أبو بِشْرٍ:** هو جعفر بن إياس أبو بشر بن أبي وحشية بفتح الواو وسكون المهملة وكسر المعجمة وتثقيل التحتانية ثقة مات سنة خمس، وقيل ست وعشرين. [انظر: تقريب التهذيب،(١/١٣٩) ط/دار الرشيد، ت: محمد عوامة].

٤- **حميد بن عبد الرحمن الحميري البصري:** ثقة فقيه من الثالثة. [التقريب(١/١٨٢)].

٥- **أبو هُرَيْرَةَ:** الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر (سبق الترجمة له في أكثر من عدد للمجلة فانظره).

تنبيه: هذه التراجم لرجال الإسناد آثرت أن أنقلها باختصار شديد؛ لأن الحديث في صحيح مسلم وهو من هو في هذا العلم الشريف، وقد اعتمد عليه في أصل كتابه، فلا داعي للتوسع في تراجم رجال إسناده بعد ذلك؛ لأن الحديث بهذه الشروط هو مما حكم عليه إمام المحدثين والعلل الإمام مسلم بالصحة، يقول الإمام

الحميدي- رحمه الله- في الجمع بين الصحيحين (٧٦/١): «وَشَهَادَة هذَيْن الإِمَامَيْن أو أحدهمَا بذلك، وتصحيحهما إيَّاه حكمٌ يلْزم قبُوله، وتبليغٌ يتَعَيَّن الانقياد لَهُ، ونذارةٌ يخَاف عَاقبَة عصيانها، قال تَعَالَى: «فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» [سُورَة التَّوْبَة: ١٢٢]».

فوائد ولطائف على رجال الإسناد:

١- قلت: يوجد سبعة من الرواة يكنى كل منهم بأبي بشر، وقد ذكرت هذا ليعلم القارئ الكريم جهد علماء الحديث في الحفاظ عليه، وتمييز صحيحه من سقيمه، ودراسة أحوال نَقَلته، مع ما يلاقونه من معاناة في هذا ولتمام الفائدة. [انظر: تهذيب التهذيب (٢٤/١٢)].

٢- ليس لحميد بن عبد الرحمن الحميري عن أبي هريرة في الصحيح غير هذا الحديث، وقد تفرد به مسلم دون البخاري، فليس لحميد في صحيح البخاري عن أبي هريرة شيء. [قاله الإمام الحميدي في جمعه بين الصحيحين ط/دار ابن حزم(٣٢٢/٣)].

٣- قال النووي: «ربما اشتبه حميد بن عبد الرحمن الحميري هذا بحميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري الراوي عن أبي هريرة أيضًا، وقد رويا في الصحيحين عن أبي هريرة أحاديث كثيرة، قد يقف مَن لا خبرة له على شيء منهما فينكر قول الحميدي توهمًا منه أن حميدًا هذا هو ذاك، وهو خطأ صريح [قاله الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤٤/١) ط٢/ دار إحياء التراث]، فباقي ما في الصحيحين غير هذا الحديث لحميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة فهو لابن عوف الزهري. [الديباج على مسلم للسيوطي، ط/ دار ابن عفان، ت: الحويني].

٤- كذلك ليس للحميرى عن أبى هريرة أيضًا في الكتب الثلاثة التي هي تمام أصول الإسلام الخمسة (أعنى: سنن أبي داود والترمذي والنسائي) غير هذا الحديث [النووي على مسلم (١٤٤/١)].

ثالثا: شرح ألفاظ الحديث:

١- قوله صلى الله عليه وسلم: (أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم): تصريح بأنه أفضل الشهور للصوم، مع أنه قد ثبت أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الصوم في شعبان دون المحرم [انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥٥/٨)]، وسيأتي الجواب على هذا الإشكال في الفوائد الفقهية إن شاء الله.

قوله صلى الله عليه وسلم: (شهر الله المحرم): نسبه إلى نفسه سبحانه على سبيل التعظيم. [انظر شرح السنة للبغوي (٣٤١/٦) ط/المكتب الإسلامي].

٢- قوله صلى الله عليه وسلم: (وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل): أي أفضل الصلاة أجرًا بعد أجر الفريضة أجر صلاة قيام الليل.

رابعا: ما يستفاد من الحديث:

١- تعظيم شهر الله المحرم فقد نسبه الله إلى نفسه، كمثل قوله سبحانه وتعالى: «نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا» [الشمس: ١٣]. وكان سفيان بن عيينة يقول في قوله عز وجل: «وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ» [الأنفال: ٤١]، نسب المغنم إلى نفسه لأنه أشرف الكسب، ولم يقل ذلك في الصدقة، فقال: «إنما الصدقات للفقراء..» [التوبة: ٦١]، ولم يقل: لله ثم للفقراء؛ لأنها أوساخ الناس، واكتسابها مكروه إلا للمضطر إليها. [شرح السنة (٣٤١/٦)].

٢- مما قيل في علة اختصاص المحرم بهذه النسبة: (شهر الله) دون سائر الشهور مع أن فيها ما يساويه في الفضل أو يزيد عليه كرمضان؛ لأن هذا الاسم إسلامي دون سائر الشهور، فإن أسماءها كلها على ما كانت عليه في الجاهلية، وكان اسم المحرم في الجاهلية صفر الأول، والذي بعده صفر الثاني، فلما جاء الإسلام سماه الله المحرم، فأضيف إلى الله بهذا الاعتبار. [قاله السيوطي في الديباج (٢٥٢/٣)، ط/دار ابن عفان، ت: الحويني].

٣- قال القرطبي: «إنما كان صوم المحرم أفضل الصيام من أجل أنه أول السنة المستأنفة، فكان استفتاحها بالصوم الذي هو أفضل الأعمال» [الديباج على مسلم للسيوطي(٢٥٢/٣)]. قلت: والجواب عن الخلاف في أفضليته على غيره سيأتي بيانه إن شاء الله تحت عنوان (أي الشهور أفضل؟).

٤- فوائد فقهية مختصرة

١- ذكر الخلاف حول أي الأشهر الحرم أفضل؟ وجوابه:

رجح طائفة من أهل العلم أن أفضل هذه الأشهر هو شهر الله المحرم، قال ابن رجب: «وقد اختلف العلماء في أي الأشهر الحرم أفضل، فقال الحسن وغيره: أفضلها شهر الله المحرم ورجّحه طائفة من المتأخرين»، (قلت: ويدل على هذا حديثنا الذي بين أيدينا)، وروى وهب بن جرير عن قرة بن خالد عن الحسن قال: إن الله افتتح السنة بشهر حرام وختمها بشهر حرام، فليس شهر في السنة بعد شهر رمضان أعظم عند الله من المحرم، وكان يسمى: «شهر الله الأصم» من شدة تحريمه، وإطلاقه في هذا الحديث (أفضل الأشهر) محمول على ما بعد رمضان». (انظر: لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب ص(٣٤/١)، ط١/دار ابن حزم).

٢- أيهما أفضل التطوع بالصيام في المحرم كما هو ظاهر في حديثنا أم في شعبان لما صح وروده من إكثار نبينا من الصوم فيه؟

الجواب: الراجح فيها من كلام أهل العلم أن التطوع بالصيام في المحرم أفضل منه في شعبان، وجوابهم عما ورد عن كثرة صومه صلى الله عليه وسلم في شعبان ما يأتي:

قال المباركفوري- رحمه الله-: «فإن قلت: قد ثبت إكثار النبي- صلى الله عليه وسلم- من الصوم في شعبان، وهذا الحديث يدل على أن أفضل الصيام بعد صيام رمضان صيام المحرم، فكيف أكثر النبي- صلى الله عليه وسلم- منه في شعبان دون المحرم؟ قلت: لعله لم يعلم فضل المحرم إلا في آخر الحياة قبل التمكن من صومه، أو لعله كان يعرض فيه أعذار تمنع من إكثار الصوم فيه كسفر ومرض وغيرهما». [تحفة الأحوذي (٣٦٨/٣)، ط/دار الكتب العلمية]، ويكفي من فضائله ما جاء في يوم عاشوراء كما سيأتي بيانه إن شاء الله..

٣- هل يدل الحديث على الحث على فضل صيام شهر المحرم كاملاً؟

الجواب: اختلف أهل العلم رحمهم الله في مدلول الحديث؛ هل يدل الحديث على صيام الشهر كاملاً أم أكثره؟ نقول: حمله بعض العلماء على الترغيب في الإكثار من الصيام في شهر المحرم لا صومه كله، لقول عائشة رضي الله عنها: (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر قط إلا رمضان، وما رأيته في شهر أكثر منه صيامًا في شعبان) [مسلم (٨١٠/٢ برقم ١١٥٦)].

٤- أيهما أفضل صلاة الليل أم السنن الرواتب؟

الجواب: في حديثنا دليل على ما اتفق العلماء عليه أن تطوع الليل أفضل من تطوع النهار وفيه حجة لمن قال: إن صلاة الليل أفضل من السنن الراتبة، وقال أكثر أصحابنا: الرواتب أفضل لأنها تشبه الفرائض، والأول أقوى وأوفق للحديث، والله أعلم. [قاله النووي في شرحه على مسلم (٨ /٥٥)].

٥- أيهما أفضل عاشوراء أم عرفة؟

الجواب: كان النبي- صلى الله عليه وسلم- يتحرى صيامه كما قال ابن عباس- رضي الله عنهما-: «ما رأيت النبي- صلى الله عليه وسلم- يتحرى صيام يوم فضله على غيره إلا هذا اليوم يوم عاشوراء، وهذا الشهر (يعني شهر رمضان) [رواه البخاري في صحيحه برقم (١٩٠٢)].

قال ابن حجر- رحمه الله-: «هذا(أي كلام ابن عباس) يقتضي أن يوم عاشوراء أفضل الأيام للصائم بعد رمضان، لكن ابن عباس- رضي الله عنهما- أسند ذلك إلى علمه، فليس فيه ما يرد علم غيره، وقد روى مسلم من حديث أبي قتادة مرفوعًا أن صوم عاشوراء يكفر سنة، وأن صيام يوم عرفة يكفر سنتين، وظاهره أن صيام يوم عرفة أفضل من صيام عاشوراء، وقد قيل في الحكمة في ذلك: إن يوم عاشوراء منسوب إلى موسى- عليه السلام- ، ويوم عرفة منسوب إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- ، فلذلك كان أفضل» [فتح الباري للحافظ ابن حجر (٢٤٩/٤)، ط/دار المعرفة].

خامسًا: إسقاط على الواقع:

أيها الحبيب: الكلام حول هذا الحديث المبارك يدور حول محورين رئيسين بخلاف الفوائد الفرعية:

المحور الأول: فضل شهر الله المحرم:

شهر الله المحرم هو أول شهر من الأشهر الهجرية وأحد الأربعة الأشهر الحرم، وقد بيّن لنا نبينا صلى الله عليه وسلم ما يتصل بهذا الشهر المبارك من خير، ومن ذلك:

١- فضل هذا الشهر عمومًا:

هو من الشهور الحرم التي عظمها الله تعالى وذكرها في كتابه فقال جل ذكره: « إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ » [التوبة: ٣٦]. وشرَّف الله تعالى هذا الشهر من بين سائر الشهور فسُمِّي بشهر الله المحرم، فأضافه إلى نفسه تشريفًا له، وإشارة إلى أنه حرَّمه بنفسه، وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحريم الله تعالى لهذه الأشهر الحرم ومن بينها شهر المحرم فيما رواه أبو بَكْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ: (إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ) (متفق عليه). وما حرَّم الله تبارك وتعالى أو حرَّمه رسوله صلى الله عليه وسلم مبلِّغًا عنه لا يجوز لأحد تحليله، فانتبهوا أحبتي في الله.

ومن أهم ما أذكِّر به نفسي وإخواني في هذا المقام أن الله تعالى حرَّم القتال فيه حتى مع المشركين فما بالنا بمن يتجرأ فيه على قتال إخوانه من المسلمين، فتجتمع حرمة قتال المسلم مع حرمة شهر الله المحرم، أعاذنا الله وإياكم من الجرأة على حرماته، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

٢- فضل صيامه:

أما عن فضل صيامه فقد بيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل صيام شهر الله المحرم بقوله في حديثنا الذي نعيش معه: (أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم)، فأرشد عليه الصلاة والسلام إلى الترغيب من الإكثار من الصوم فيه عمومًا فضلاً عن أنه خصَّه بيوم من نفحات الدهر التي تكرم الله بها على هذه الأمة وهو يوم عاشوراء.

عاشوراء نفحة من أيام الدهر:

وهو اليوم العاشر من شهر المحرم، وأفضل ما ورد في فضله قول النبي- صلى الله عليه وسلم- كما في حديث قتادة- رضي الله عنه-: «صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده، وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله» [مسلم في صحيحه برقم (١١٦٢)].

ومما ورد في فضل هذا الشهر أنه حصل فيه حدث عظيم، ونصر مبين، أظهر الله فيه الحق على الباطل؛ حيث أنجى فيه موسى- عليه السلام- وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فهو يوم له فضيلة عظيمة، ومنزلة قديمة، روى ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قدم النبي- صلى الله عليه وسلم- المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «ما هذا؟»، قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: «فأنا أحق بموسى منكم» فصامه وأمر بصيامه». [البخاري في صحيحه برقم (١٩٠٠)].

يُستحب صيام التاسع مع العاشر

فعن عبدالله بن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع» [مسلم في صحيحه برقم (١١٣٤)]. قال صاحب عون المعبود: «قال الشافعي، وأصحابه، وأحمد، وإسحاق، وآخرون- رحمهم الله-: «يستحب صوم التاسع والعاشر جميعًا؛ لأن النبي- صلى الله عليه وسلم- صام العاشر ونوى صيام التاسع، قال بعض العلماء: ولعل السبب في صوم التاسع مع العاشر أن لا يتشبه باليهود في إفراد العاشر» [عون المعبود (٧/ ٧٧)].

لماذا نصوم في المحرم؟

الإكثار من الصيام في شهر الله المحرم، وصيام يوم عاشوراء:

١- اقتداءً بالنبي- عليه الصلاة والسلام- ، وذلك لأن النبي- عليه الصلاة والسلام- صامه وحث على صيامه.

٢- وكذا جعل الله- عز وجل- في صيامه وصيام يوم عاشوراء منه فضلاً عظيمًا كما سبق بيانه، وذلك لكونه يكفّر ويغفر الله به، وهذا من فضل الله- تبارك وتعالى- ورحمته لأن أعمار هذه الأمة قصيرة.

٣- الحرص على مخالفة أهل الكتاب، ولذا أمر النبي- عليه الصلاة والسلام- بمخالفتهم لأنهم كانوا يصومون العاشر، فقال- عليه الصلاة والسلام-: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع»، وقد تقدم هذا الحديث.

المحور الثاني: فضل صلاة الليل:

أما عن فضل قيام الليل فدونك كلام مختصر مهذب من كلام الحافظ ابن رجب في لطائف المعارف (٤٣/١)، يقول ابن رجب: (وقد دل حديث أبي هريرة رضي الله عنه هذا على أن أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل، وهل هو أفضل من السنن الراتبة؟ فيه خلاف سبق ذكره.

وقد مدح الله تعالى المستيقظين بالليل لذكره ودعائه واستغفاره ومناجاته فقال الله تعالى: « تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » [السجدة: ١٦، ١٧] وقال الله تعالى: « أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ » [الزمر: ٩]

وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ فَكَانَ بَعْدُ لاَ يَنَامُ مِنْ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلاً» [البخاري ١١٢٢].

إن سفر الآخرة بعيد فخذوا له ما يصلحكم: صلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور.

يا رجال الليل جدوا

رُبَّ داعٍ لا يُرَدّ

ما يقوم الليل إلا

من له عزم وجد

أيها الحبيب:

الغنيمة تقسم على كل من حضر الوقعة، فما يطلع فجر الأجر إلا وقد حاز القوم الغنيمة، وفازوا بالفخر وحمدوا عند الصباح السرى، وما عند أهل الغفلة والنوم خبر مما جرى.

يا نفس قومي فقد نام الورى

اصنعي الخير فذو العرش يرى

وأنت يا عين دعي عنك الكرى...

عند الصباح يحمد القوم السرى

ما يؤهل للخلوة بالملوك إلا من أخلص في ودهم ومعاملتهم فأما من كان من أهل المخالفة فلا يؤهلونه!!

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَهُ حَتَّى أَصْبَحَ. قَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ، أَوْ قَالَ فِي أُذُنِهِ. [متفق عليه، خ: (١/ ٣٨٤)(١٠٩٣)، م: (١/ ٥٣٧) (٧٧٤)]

إن قوافل الصالحين قد سارت قدامنا ونحن قد بقينا، وواعظ الخير ينادينا قائلاً:

يا راقد الليل كم ترقد

قم يا حبيبي قد دنا الموعد

وفي الختام: اللهم أرزقنا وإخواننا ومن نعرف من المسلمين حسن الرجوع إليه ويمن القدوم عليه إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تذكير الحبيب بمرتبة الغريب

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

إِنَّ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، وَإِنَّ الرَّغْبَةَ فِي الدُّنْيَا تُكْثِرُ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ والمؤمن فِي الدُّنْيَا كَالْغَرِيبِ لَا يُنَافِسُ فِي عِزِّهَا، وَلَا يَجْزَعُ مِنْ ذُلِّهَا، لِلنَّاسِ شأن وَلَه شأن ، طريقه مرضاة الله وعمله لأخراه وشوقه لنعيم «دائم يغلب على عرض زائل وهذه مرتبة ينالها العبد – بعد فضل الله – بالسير الجاد إلى مولاه» (أفاده ابن أبي الدنيا في الذهد) وفي هذا المعنى يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا عَلِيُّ بن عبد اللَّه حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو المُنْذِر الطَّفَاوِيُّ عن سُلَيْمَانَ الْأَعْمَشِ قال حدثني مُجَاهِدٌ عن عَبد اللَّه بن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: أَخَذَ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم بِمَنْكِبي فقال: كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ وكان بن عُمَرَ يقول إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ من صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ

ثانيا: عزو الحديث

١- صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب بَاب قَوْلِ النبي صلى الله عليه وسلم كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ (٥/٢٣٥٨) رقم(٦٠٥٣)، ط٣/ دار ابن كثير، ت: د. مصطفى ديب البغا

٢- وخرجه الترمذي في سننه،(ط/دار إحياء التراث)، من حديث ليث بن أبي سليم عن مجاهد (٤/٥٦٧) (٢٣٣٣) وزاد فيه: وعد نفسك من أهل القبور، وزاد في كلام ابن عمر: فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غدا

٣- وخرجه ابن ماجه كلفظ الترمذي (٢/١٣٧٨) (٤١١٤) غير أنه لم يذكر زيادته في كلام ابن عمر، ط/دار الفكر،ت: محمد فؤاد عبد الباقي

ثالثا: رجال الإسناد (باختصار شديد)

١- علي بن عبد الله: هوابن المديني بصري ثقة ثبت إمام أعلم أهل عصره بالحديث وعلله حتى قال البخاري ما استصغرت نفسي إلا عند علي بن المديني وقال فيه شيخه بن عيينة كنت أتعلم منه أكثر مما يتعلم مني وقال النسائي كأن الله خلقه للحديث (انظرتقريب التهذيب لابن حجر(ج١ ص٤٠٣)،ط١/دار الرشيد، ت/محمد عوامة)

٢- محمد بن عبد الرحمن الطفاوي: أبو المنذر البصري صدوق يهم (التقريب (١/٤٩٣))

فائدة:

لماذا خرج البخاري للطفاوي مع كونه يهم ؟ الجواب أنه بالنظر إلى ترجمة الطفاوي في كتب الرجال نجد أنه ليس معناها أن حديثه حسن يحتمل الضعف ، وقد أخرج له البخاري.

لما يأتي:

١- ورد الحديث من طرق أخري كثيرة ورواة بعض هذه الطرق من رجال الصحيح وهذا مما يقوي الحديث (الفتح ١١/٢٣٤).

٢- كأن البخاري لم يشدد فيه لكونه من احاديث الترغيب والترهيب (الفتح ١/٤٤٠).

٣- سليمان الأعمش: هو أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش الكوفي ثقة حافظ عارف بالقراءات ورع لكنه يدلس (تقريب التهذيب (١/٢٥٤))

فائدة تتضمن الجواب عن تخريج البخاري للحديث مع كون الأعمش قد وسم بالتدليس:

١- هو ممن احتمل الأئمة تدليسهم: ذكره الحافظ ابن حجر في (طبقات المدلسين (١/٣٣)) وعده في الطبقة الثانية وقد قال شاهدا للواحد من أهل هذه الطبقة (١/١٣):"من احتمل الأئمة تدليسه وأخرجوا له في الصحيح لامامته وقلة تدليسه في جنب ما روى" (طبقات المدلسين ط١/دار المنار)

٢- اشترط البخاري فيمن وسم بالتدليس من أمثال الأعمش رحمه الله أن يقبل حديثه إذا صرح بالتحديث وقد صرح الأعمش بالتحديث عن مجاهد كما سبق بيانه والحمد لله.

إذن ومما ذكر في (٢،١) أنه ممن يحتمل تدليسه وقد صرح بالتحديث يزول الإشكال

٣- مجاهد: هو ابن جبر بفتح الجيم وسكون الموحدة أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي ثقة إمام في التفسير وفي العلم (التقريب (١/٥٢٠)

٤- عبد الله بن عمر بن الخطاب: صحابي جليل معروف ابن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنهما سبق الترجمة له وانظر ترجمته في مظانها من كتب التراجم.

فائدة على إسناد هذا الحديث من كلام أهل العلم تتعلق بالأعمش والطفاوي:

١- ابن حبان: بعدما أخرجه بسنده إلى الطفاوي بالعنعنة أيضا وقال مكثت مدة اظن ان الأعمش دلسه عن مجاهد وانما سمعه من ليث حتى رأيت على بن المديني رواه عن الطفاوي فصرح بالتحديث يشير إلى رواية البخاري التي في الباب

قلت: وهذا يعد جوابا على كلام العقيلي

٢- عبد الرحمن بن أبي حاتم: قلتُ لأبي: من محمد بن عَبد الرحمن هذا؟ قال: لا أعرفه ولا أعرف أحدًا يقال له محمد بن عَبد الرحمن يُحدِّثُ عن الأعمش وها هى رواية البخاري أمامنا تدلل على عدم صحة هذا القول (علل ابن أبي حاتم -١ - ط الحميد (ص: ٤٨١))

قلت: وفائدتنا في هذا المقام أنه ينبغي لطالب العلم ألا يتسرع في الحكم على حديث فإن ذلك يعد جرأة على شرع الله فمن أثبت حديثا فقد أثبت شرعا ومن ضعف حديثا فقد عطل شرعا فالأمر ليس بالهين، كذلك ينبغي على طالب العلم ألا يتجرأ على أهل العلم فضلاً عن الناس لمجرد أنه تعلم شيئا فدونك علمين جليلين - ابن حبان،وأبوحاتم الرازي رحمهما الله - وقد فاتهما ما اتضح لغيرهما كما سبق بيانه.

رابعا: الحكم على الحديث

قلت: هوكما حكم عليه إمام المحدثين البخاري رحمه الله فهو حديث صحيح وقد نقلنا الجواب على ما طرأ عليه من شبهة الضعف عند من ضعفه من الأكابر من أهل العلم رحمهم الله جميعا.

خامسا: الشرح

١- قوله باب قول النبي صلى الله عليه وسلم كن في الدنيا كأنك غريب: ترجم ببعض الخبر إشارة إلى ثبوت رفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأن من رواه موقوفا قصر فيه (فتح الباري (١١/٢٣٥))

فائدة: قلت: ويستفاد من هذا معرفة مكانة البخاري وجلالة قدره رحمه الله ويتأكد هذا بما ظهر للناس في زمان البخاري وبعده من فقهه رحمه الله في تراجم الأبواب وانظر الكتب التي تخصصت في شرح عناوين تراجمه فقط وجعلت نفسها واسطة بين فهم وفقه البخاري العالي وبين فهمنا نحن المتواضع فدلت على دقة فقهه، كما دلت على عظيم حفظه، ومنها على سبيل المثال " المتواري على تراجم أبواب البخاري" لابن المنير السكندري، تراجم أبواب البخاري" للشاه ولي الله الدهلوي، و " شرح تراجم أبواب البخاري"، لمحمد زكريا الكاندهلوي والأخير من أروع ما كتب في بابه فقد وفى رحمه الله بشهادة أهل التخصص، وغيرها الكثير، أما عن الكتب التي ألفت حول صحيح الإمام البخاري عموما فكثيرة جدا وتتجاوز ٥٠٠ كتاب، مابين شرح واختصار وكلام على رجاله وتراجمه....إلخ، قلت هذا وأسهبت فيه ليعلم أعداء السنة من هم نقلتها عموما ومن هو البخاري خصوصا.

٢- قوله أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي: المنكب بكسر الكاف: مجمع العضد والكتف وضبط في بعض الأصول بالتثنية (أي منكبي) والمعنى: أمسك النبي صلى الله عليه وسلم بكتفى (فتح الباري (١١/٢٣٥))

فائدة - قال الحافظ في الفتح (١١/٢٣٥): وفي الحديث مس المعلم أعضاء المتعلم عند التعليم والموعوظ عند الموعظة وذلك للتأنيس والتنبيه ولا يفعل ذلك غالبا الا بمن يميل إليه، وقال المباركفوري [(التحفة (٦/٢٣٥))] ونكتة الأخذ تقريبه إليه وتوجهه عليه ليتمكن في ذهنه ما يلقى لديه.

٣- قوله كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل: قال الحافظ: قال الطيبي ليست للشك بل للتخيير والاباحة والاحسن ان تكون بمعنى بل (أي: للإضراب) فشبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل (فتح الباري (١١/٢٣٥)

٤- وقوله رضى الله عنه: (إذا أمسيت فلا تنتظر

الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء) حض منه على أن يجعل الموت نصب عينيه، فيستعد له بالعمل الصالح، وحض له على تقصير الأمل، وترك الميل إلى غرور الدنيا..(شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٤٩/١٠)، ط/مكتبة الرشد)

٥- وقوله رضى الله عنه: (خذ من صحتك لمرضك): اشتغل في الصحة بالطاعة بحيث لو حصل تقصير في المرض ليجبر بذلك أي ان العمر لا يخلو عن صحة ومرض فإذا كنت صحيحا فسر سير القصد وزد عليه بقدر قوتك ما دامت فيك قوة بحيث يكون ما بك من تلك الزيادة قائما مقام ما لعله يفوت حالة المرض والضعف [انظر:تحفة الأحوذي للمباركفوري (٥١٦/٦)].

٦- وكذلك قوله رضى الله عنه: (ومن حياتك لموتك): تنبيه على اغتنام أيام حياته، ولا يمر عمره باطلاً فى سهو وغفلة، لأن من مات فقد انقطع عمله وفاته أمله وحضره على تفريطه ندمه، فما أجمع هذا الحديث لمعانى الخير وأشرفه.(شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٤٩/١٠)

٧- قوله صلى الله عليه وسلم " وعد نفسك من أهل القبور " وكذا قول ابن عمر " فإنك ياعبدالله لا تدري ما اسمك غدا" (وهى زيادات الترمذي وغيره): أي عد نفسك من الأموات فإنك لا تدري ما اسمك غدا (الشقي أو السعيد وقيل المراد هل يقال هو حي أو ميت) (انظر:تحفة الأحوذي للمباركفوري (٥١٦/٦)

خامسا: الفوائد العامة المستنبطة من الحديث (غير ما سبق ايراده في موضعه)

١- هذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا فإن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنا ومسكنا فيطمئن فيها ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر يعد جهازه للرحيل وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم قال تعالى حاكيا عن مؤمن آل فرعون أنه قال: "إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار" غافر (جامع العلوم والحكم (٣٧٩/١)، ط/مؤسسة الرسالة)، وننبه على إخواننا أن قصر الأمل في الدنيا لا نقصد به أبدا ترك العمل والتكاسل والتواكل بل توافرت أدلة الشرع على الحث على العمل والجد فيه لكننا قصدنا أن تكون هذه الدنيا في أيدينا وليست في قلوبنا وأن هذا الجد في العمل هو من قبيل الرغبة في الأجر والاستعداد للآخرة والسعي الجاد لرفعة شأن الأمة وغير ذلك مما يحضر المؤمن من نوايا إتباع حبيبه صلى الله عليه وسلم.

٢- قلت: هذا الحديث يرشد إلى ترك فضول الخلطة والحث على العزلة المشروعة لذا وضعه الامام الخطابي في كتابه العزلة (٣٩)،ط٢/السلفية) في " باب في ترك الاستفسار من الاصدقاء وما يستحب من قلة الالتقاء"

وأوصي إخواني بالرجوع إليه وقراءته بعناية أوإلى أمثاله مما كتب في بابه بحسب ما يتيسر من مصادر ليفرق الأحبة بين الخلطة المفيدة والخلطة الضارة.

٣- المرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده فشأنه ان يبادر بفعل ما أرسل فيه ثم يعود إلى وطنه فلا تحدثه نفسه بالبقاء فيها ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه (فتح الباري (٢٣٥/١١)

٤- وفيه مخاطبة الواحد وإرادة الجمع وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على إيصال الخير لامته والحض على ترك الدنيا والاقتصار على ما لا بد منه(فتح الباري (٢٣٥/١١)

أخيرا: في رياض الحديث

هذا الحديث وصية نبوية مباركة تدعو إلى عدم الركون إلى الدنيا، وإن الناظر إلى حقيقتها، يعلم أنها لم تكن يوما دار إقامة، أو موطن استقرار، ولئن كان ظاهرها يوحي بنضارتها وجمالها، إلا أن حقيقتها فانية، ونعيمها زائل، كالزهرة النضرة التي لا تلبث أن تذبل ويذهب بريقها.

تلك هي الدنيا، لا تصفو فيها سعادة، ولا تدوم فيها راحة، ولا يزال الناس في غمرة الدنيا ساهون يركضون، وخلف حطامها يلهثون، حتى إذا جاء أمر الله انكشف لهم زيف ما يصنعون، وصدق الله العظيم إذ يقول: «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (آل عمران: ١٨٥).

وما كان لحبيبنا عليه الصلاة والسلام ليترك أصحابه دون أن يبيّن لهم ما ينبغي عليهم ولذا جاء هذا الحديث بيانا وحجة ووصية.

لقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمنكبيّ

عبدالله بن عمر رضي الله عنهما؛ ليسترعي بذلك انتباهه، ويجمع إليه فكره، ويشعره بأهمية ما سيقوله له،: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)، فانسابت تلك الكلمات إلى روحه وسكنت في نفسه وطيبتها.

لقد شبّه النبي صلى الله عليه وسلم مُقام المؤمنين في الدنيا بحال الغريب؛ فإنك لا تجد في الغريب ركونا إلى الأرض التي حل فيها أو أنسا بأهلها، ولكنه مستوحش من مقامه، دائم القلق، لم يشغل نفسه بدنيا الناس، بل اكتفى منها بالشيء اليسير.

وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب رحمه الله (٣٨٠)): وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولاوطنا فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين إما أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غربة همه التزود للرجوع إلى وطنه أو يكون كأنه مسافر غير مقيم البتة بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة فلهذا وصي النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمر أن يكون في الدنيا على أحد هذين الحالين "

ولأبي العتاهية من جملة أبيات:

وما أدري وإن أملت عمرا

لعلي حين أصبح لست أمسي

ألم تر أن كل صباح يوم

وعمرك فيه أقصر منه أمس

فالعاقل يعلم أن الإنسان لم يزل في هدم عمره منذ سقط من بطن أمه،

إنا لنفرح بالأيام نقطعها

وكل يوم مضى يدني من الأجل

إن غربة المؤمن في هذه الدنيا، تقتضي منه التمسّك بالدين، ولزوم الاستقامة، حتى وإن حاد الناس عن الطريق؛ فصاحب الاستقامة له هدف يصبو إليه، وهذه هي حقيقة الغربة التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء)(مسلم ١٤٥).

ثم ينقل الحديث المؤمن من حال الغريب إلى حال عابر السبيل الذي جمع بين الغربة والسفر فصارت غربته أشد وأعلى من غربة المقيم ، إن عابر السبيل لا يأخذ من الزاد سوى ما يكفيه مؤونة الرحلة، ويعينه على مواصلة السفر، لا يقر له قرار حتى يصل إلى أرضه ووطنه و الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة، حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، و انقطاع السفر عما قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزود يا حبيبي لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك.

روى ابن أبي الدنيا في كتاب الزهد (ص: ١٦٩) بسنده إلى عمر بن محمد المكي قال: خَطَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ: إِنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِدَارِ قَرَارِكُمْ، دَارٌ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْفَنَاءَ، وَكَتَبَ عَلَى أَهْلِهَا مِنْهَا الظَّعْنَ، فَكَمْ عَامِرٌ مُونِقٌ عَمَّا قَلِيلٍ يُخَرِّبُ، وَكَمْ مُقِيمٌ مُغْتَبِطٌ عَمَّا قَلِيلٍ يَظْعَنُ، فَأَحْسِنُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ مِنْهَا الرِّحْلَةَ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، إِنَّمَا الدُّنْيَا كَفَيْءِ ظِلَالٍ قَلَصَ فَذَهَبَ، بَيْنَمَا ابْنُ آدَمَ فِي الدُّنْيَا يُنَافِسُ فِيهَا قَرِيرَ الْعَيْنِ قَانِعًا، إِذْ دَعَاهُ اللَّهُ بِقَدَرِهِ، وَرَمَاهُ بِيَوْمِ حَتْفِهِ، فَسَلَبَهُ آثَارَهُ وَدُنْيَاهُ، وَصَيَّرَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ مَصَانِعَهُ وَمَغْنَاهُ، إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَسُرُّ بِقَدْرِ مَا تَضُرُّ، إِنَّهَا تَسُرُّ قَلِيلًا، وَتُحْزِنُ حُزْنًا طَوِيلًا "

ذلك هو المعنى الذي انساب إلى نفس ابن عمر، فنلمس ذلك في وصيّته رضي الله عنه: " إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك، فإنك ياعبد الله لا تدري ما اسمك غدا "

ولأبي العتاهية من جملة أبيات:

نسير إلى الآجال في كل لحظة

وأيامنا تطوى وهن مراحل

ترحل من الدنيا بزاد من التقى

فعمرك أيام وهن قلائل

ولأهمية هذا المقام نجد عناية أئمة السلف به في تصانيفهم فنجد إماما كالآجري يفرد له كتابا بعنوان " الغرباء"

فضلا عن إهتمامهم بهذا المقام ويعنونون له في كتبهم كما فعل ابن القيم في مدارج السالكين زيادة على الوصية بهذا المقام في طيات مواعظهم وأشعارهم كما فعل ابن القيم في (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) (١٥١/١)):

فحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا

مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى

نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا ونسلم

فاللهم ارحم في الدنيا غربتنا، وارحم في القبر وحشتنا، وارحم موقفنا غدا بين يديك.

عبادة التواضع ... إكرام لأهل الإيمان

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد.

سبحان الله الذي حكم على هذه الدنيا أنها إلى زوال، وأنها ليست بدار قرار؛ فأهلها عنها راحلون، وصلحاؤها وطلحاؤها زائلون، الكل زائل ويفنى، ولا يبقى إلا وجه ربنا الأعلى، «وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » [الكهف: ٤٦].

فلا متكبر يبقى في تكبره ولا متجبر يبقى في تجبره، فمهما علا وتجبر فأمره إلى خزي وزوال، هكذا الدنيا بأهلها وتلك سُنة باقية.

وفي هذا المعنى نعيش ما قدّر لنا مع ما حدث به إمام المحدثين البخاري رحمه الله يقول: حدثنا مَالِكُ بن إِسْمَاعِيل حدثنا زُهَيْرٌ عن حُمَيْدٍ عن أَنَس رضي الله عنه قال: كان لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم نَاقَةٌ تُسَمَّى الْعَضْبَاءَ؛ لَا تُسْبَقُ. قال حُمَيْدٌ: أو لَا تَكَادُ تُسْبَقُ. فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ على قَعُودٍ فَسَبَقَهَا، فَشَقَّ ذلك على الْمُسْلِمِينَ حتى عَرَفَهُ، فقال: حَقٌّ على اللَّهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ من الدُّنْيَا إلا وَضَعَهُ. طَوَّلَهُ مُوسَى عن حَمَّادٍ عن ثَابِتٍ عن أَنَسٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم.

أولًا: العزو (مقتصرًا على الكتب الستة):

١- البخاري، كتاب الجهاد، باب ناقة النبي صلى الله عليه وسلم (٢٧١٧) (١٠٥٣/٣)، وكذا في كتاب الرقاق، باب التواضع (٦١٣٦).

٢- أبو داود، كتاب الأدب، باب كراهية الرفعة في الأمور (٤٨٠٣)(٢٥٤/٤).

٣- النسائي (المجتبى)، كتاب الخيل، باب السبق (٣٥٨٨)، (٣٥٩٢) (٢٢٧/٦) بلفظ: (حق على الله أن لا يرفع شيءٌ نفسَه في الدنيا إلا وضعه).

فائدة: من ترجمة البخاري على الحديث:

١- بوَّب له البخاري بباب ناقة النبي (بالإفراد) في كتاب الجهاد: ليدلل البخاري على مذهبه أن العضباء هي القصواء هي الجدعاء؛ فكلها ألقاب لناقة واحدة، (هذه الفائدة إضافة للفوائد الأخرى التي سيأتي ذكرها) (أفاده العيني في عمدة القاري(١٦٢/١٤)).

٢- كذلك بوَّب بباب التواضع في كتاب الرقاق، وقد زعم بعض الناس أنه لا مدخل لهذا الحديث في هذه الترجمة (يعني: باب التواضع)، وغفل عما وقع في بعض طرقه عند النسائي بلفظ (حق على الله أن لا يرفع شيء نفسه في الدنيا إلا وضعه)، فإن فيه إشارة إلى الحث على عدم الترفع، والحث على التواضع، والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة، قلت: وحتى لو لم يرد لفظ النسائي فما المانع أن يتعظ الإنسان عندما يعلم أن كل أمور الدنيا إلى زوال، وليعلم المتعجلون في الحكم على البخاري قدر هذا الإمام الذي احتارت العقول في فهم تراجمه إلى الآن، وننصح بمراجعة الكتب التي عُنيت بشرح تراجم أبوابه كالمتواري لابن المنير السكندري، وغيره مما ذكرنا في مجلتنا هذه بعددها السالف. (مستفاد من الفتح (٣٤١/١١)).

ثانيًا: درجة الحديث:

طالما خرَّجه البخاري في أصل الكتاب فقد حكم عليه بالصحة.

ثالثًا: رجال الإسناد:

١- مالك بن إسماعيل: هو أبو غسان النهدي الكوفي الحافظ، روى عنه البخاري، حجةٌ عابد قانت لله. (الكاشف للذهبي (٢٣٣/٢)، ط١/دار القبلة).

٢- زهير: هو ابن معاوية بن حديج أبو خيثمة الجعفي الكوفي، نزيل الجزيرة، ثقة ثبت. (التقريب (٢١٨/١)، ط١/دار الرشيد).

٣- حميد: هو حميد الطويل، بصري تابعي ثقة، وهو خالُ حماد بن سلمة سمع من أنس أربعة وعشرين حديثًا (معرفة الثقات للعجلي (٣٢٥/١)، ط١/الدار).

٤- أنس: هو أنس بن مالك الصحابي،روى عن عدة من الصحابة، وروى عنه خلقٌ، جاوز المائة (الكاشف ٢٥٦/١).

فائدتان: قلت:

١- قول البخاري: (طوَّله موسى عن حماد عن ثابت

عن أنس): أي: روى هذا الحديث مطولاً بهذا الإسناد وكلمة مطولا معناها: بدرجة أطول كأن يكون مقترنا بذكر كلام طويل مرتبط بالحديث كقصة أم نحو ذلك.

٢- قول الحافظ تعليقًا على قول البخاري السالف: ولم تقع هذه الرواية إلا في رواية المستملي، قلت: المستملي هذا هو الإمام أبو إسحاق المستملي أحد رواة الصحيح عن الفربري عن البخاري، والفربري هو أشهر من روى عن البخاري، وأشهر تلامذة الفربري غير المستملي: ابن حمويه، والكشميهني (الذي من أشهر تلامذته: أم الكرام كريمة)، وابن السكن، وابن شبويه، وأبو زيد المروزي، وابن مكي الجرجاني. وللمستملي وابن حمويه تلميذ مشهور هو أبو ذر الهروي، وقد ذكرت هذه الأسماء حتى لا يستغربها القارئ عندما يقرأ في كتب شروح الصحيح.

رابعًا: شرح عبارات الحديث:

١- قوله باب فضل التواضع: أي: هذا باب في بيان فضل التواضع، وهو إظهار التنزل عن مرتبته. وقيل: هو تعظيم من فوقه من أرباب الفضائل. (عمدة القاري للعيني(٢٣/٨٨)).

٢- قوله: "كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة تسمى العضباء": والعضباء بفتح المهملة (العين) وسكون المعجمة (الضاد) بعدها موحدة (الباء) ومد هي: المقطوعة الأذن أو المشقوقة. وقال ابن فارس: كان ذلك لقبًا لها لقوله: (تُسمى العضباء) و(يقال لها العضباء)، ولو كانت تلك صفتها لم يحتج لذلك. واختُلف هل العضباء هي القصواء أو غيرها (قولان)؟ فقال بعضهم: تسمى العضباء والقصواء (مقطوعة الأذن)، والجدعاء (مقطوعة الأذن أو الأنف أو الشفة). ((فتح الباري (٦/٧٤)).

٣- قوله: لا تُسبَق أو لا تكاد تُسبق: شك من حميد، وفي بقية الروايات بغير شك. ((فتح الباري (٦/٧٤)).

٤- قوله فجاء أعرابي على قعود له: وقوله فجاء أعرابي: (فسبقها) أو(فسابقها فسبقها) أو(سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم).. (روايات مختلفة): قلت: والحاصل أنه سبقها. ((فتح الباري (٦/٧٤)).

٥- قوله (على قعود له) بفتح القاف وضم العين، والقعود من الإبل ما أمكن أن يُرْكَب، وأدناه أن يكون له سنتان، ثم هو قعود إلى السنة السادسة، ثم بعد ذلك هو جمل.

٦- (فسبقها الأعرابي) أي: غلب في السبق، ففيه خاصة المغالبة.(عون المعبود (١٣/١١٠).

٧- قوله: (فشق ذلك على المسلمين) أي: فحزن الصحابة لذلك؛ لغَيْرَتِهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٨- قوله: (حتى عرفه) أي: عرف رسول الله أثر المشقة في عين الصحابة. ((الفتح (٦/٧٤)).

٩- قوله: فقال صلى الله عليه وسلم: حق على الله: أي جرت سنته بهذا. (عون المعبود ١٣/١١٠).

١٠- قوله: (ألا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه): (لا يرتفع شيء من الدنيا)، (لا يرفع شيئًا) روايتان للبخاري. وللنسائي (لا يرفع شيء نفسه في الدنيا) ((فتح الباري (٦/٧٤))، و(أن لا يرفع) رواية بصيغة المجهول (عون المعبود (١٣/١١٠).

والحاصل من كل الروايات أن أي ارتفاع في أي أمر من أمور الدنيا تكون نهايته الانخفاض، وذلك يدعو العاقل للزهد والتواضع.

فوائد:

١- الحض على التواضع، والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة. (عمدة القاري ج ٢٣ ص ٨٨).

٢- في الحديث حثٌ على ترك المباهاة والفخر بمتاع الدنيا، وأن ما كان عند الله في منزلة الضعة، فحق على كل ذي عقل الزهد فيه، وقلة المنافسة في طلبه، وترك الترفع والغبطة بنَيْله؛ لأن المتاع به قليل والحساب عليه طويل. ((شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/٢١٣)).

٣- وفيه التزهيد في الدنيا، وأن كل شيء منها لا يرتفع إلا اتضع. (عون المعبود (١٣/١١٠).

٤- جواز المسابقة بالخيل والإبل. (عون المعبود (١٣/١١٠).

٥- وفيه حُسن خُلق النبي صلى الله عليه وسلم، وتواضعه وعظمته في صدور أصحابه. ((فتح الباري (٦/٧٤)).

تنبيه:

قلت: ترجم أبو داود لهذا الحديث بقوله: [باب في كراهية الرفعة في الأمور]، وهو يعني بذلك: في الأمور الدنيوية، وأما الأمور الأخروية فالرفعة فيها مطلوبة، والمنافسة فيها مندوبة قال تعالى: (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ) [المطففين: ٢٦].

في رياض الحديث

إن في هذا الحديث إيماءةً نبويّة مباركة، تبيّن أن الدنيا لا تدوم على حال، وأنها لا تبقى لأحد، وأن

أحوالها في تقلّب دائم.

هذا وإن حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - سُطّرت بمداد من العمل والصبر والجهاد والتضحية، على نحو لم يترك للراحة واللهو موطناً، ومع هذا فإنسانيّةُ نبيّنا - صلى الله عليه وسلم - كانت حاضرةً في تعامله مع الناس حوله، على نحوٍ يُتوّج سيرته العطرة.

وفي هذا السياق تروي لنا الأخبار من شأن النبي - صلى الله عليه وسلم - مع ناقته حينما قدم أعرابي من البادية، وسار بجانب النبي صلى الله عليه وسلم، وسواء كان يقصد مسابقة ناقة النبي صلى الله عليه وسلم - كما في بعض الروايات- أو لا يقصد - أيًا ما كان - فقد سبقت ناقتُه ناقةَ النبي صلى الله عليه وسلم..

فسبحان الله سُبقت ناقةُ نبينا عليه الصلاة والسلام وكانت لا تُسبَق، فعظُم الأمر على الصحابة؛ كيف لأعرابي تسبق ناقته ناقة النبي عليه الصلاة والسلام؟! وذلك غَيْرةً منهم على صدارة النبي صلى الله عليه وسلم أن تُمَسَّ، واستبدّت بهم مشاعر الإحباط، وبلغ منهم الحزن كلّ مبلغ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم كان إنساناً بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ - فهو الذي علّم البشرية بدينه كيف يكون الإنسان إنساناً - وبعدما رأى ملامح الوجوه من حوله شعر بما في نفوس الصحابة من حزن وما في قلوبهم من أسى، وأراد استثمار الموقف -فلا يجوز له تأخير البيان عن وقت الحاجة- ليقرّر سنّة إلهيّة لا تتغيّر ولا تتبدّل، فقال عليه الصلاة والسلام بيانه: (إن حقًا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه).. قالها ليسمعها المؤمنون فيفرحوا ويطمئنوا، وليسمعها أهل الغرور والإفساد فيحذروا ويقلعوا قبل فوات الأوان -ولات حين مندم- فلتستبشر أمة الإسلام وليستبشر أهل الإيمان.. فبقاء الظالمين على حالهم لا يستقيم مع سنة الله في خلقه.

ولا شك أن من يدرك هذه الحقيقة التي قررها النبي صلى الله عليه وسلم، ومن يخالط هذا الحديث قلبه ليدرك أهمية هذه العبادة التي من الله بها علينا، وبها بوّب الإمام البخاري بابه (فضل التواضع)، ثم انظر إلى ما سطره ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري (٢١٣/١٠) يقول: "وقالت عائشة: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة: التواضع. قال الطبري: والتواضع من المحن التي امتحن الله بها عباده المؤمنين، لينظر كيف طاعتهم إياه فيها، ولما علم تعالى من مصلحة خلقه في ذلك في عاجل دنياهم وآجل أخراهم، فمصلحة الدنيا به لو استعمله الناس لارتفع - والله أعلم - الشحناء بينهم والعداوة، واستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة والتذوا بما قسم لهم، وكان لهم فيه صلاح ذات البين وارتفاع الحسد والشح" ا.هـ.

كلام للسلف في التواضع:

يقول ابن القيم رحمه الله (في مدارج السالكين (٢٣٩/٢)، ت: شيخنا حامد الفقي رحمه الله):

التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح ولين الجانب.

وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة.

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا! فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة فأردت أن أكسرها!!

وركب زيد بن ثابت مرة فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه فقال: مه يا ابن عم رسول الله! فقال ابن عباس: هكذا أُمرنا أن نفعل بكبرائنا.

ويذكر أن أبا ذر رضي الله عنه عيَّر بلالاً رضي الله عنه بسواده، ثم ندم فألقى بنفسه فحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه، فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال!!

وقال رجاء بن حيوة: قوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو يخطب باثني عشر درهما، وكانت قباء وعمامة وقميصًا وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة!!

ورأى محمد بن واسع ابنًا له يمشي مشية منكرة، فقال: تدري بكم شريت أمك! بثلاثمائة درهم، وأبوك لا كثّر الله في المسلمين مثله، (يضع من شأن نفسه ليضع من شأن ابنه) وأنت تمشي هذه المشية؟!!

وقال حمدون القصار: التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة لا في الدين ولا في الدنيا" ا.هـ بتصرف.

ويقول ابن عبد ربه (في العقد الفريد (١١٧/٢) ط٣/ دار إحياء التراث العربي):

"قال عبد الملك بن مروان: أفضلُ الرجل مَن تواضع عن رفعة، وزَهِد عن قدرة، وأنصف عن قوّة، خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويده على المُعَلَّى بن الجارود العبدي، فلقيته امرأةٌ من قريش فقالت له يا عمر، فوقف لها، فقالت: كنا نعرفك مدّةً عُمَيْراً، ثم صرت من بعد عُمَيْر عُمَرَ، ثم صرتَ من بعد عمر أميرَ المؤمنين، فاتق الله يا ابنَ الخطاب وانظر في أمور الناس، فإنه من خاف الوعيدَ قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خَشيَ الفوْت.

فقال المعلي: إيهاً يا أمة الله، لقد أبكيت أمير المؤمنين! فقال له عمر: اسكت أتدري من هذه ويحك! هذه خَوْلة بنت حكيم التي سمع الله قولها من سمائه، فعُمَر أحْرَى أن يسمع قولها ويقتديَ به.

وسئل الحسن عن التواضع؟ فقال: هو أن تخرج من بيتك فلا تلْقَى أحداً إلا رأيت له الفضل عليك.

وقال رجل لبكر بن عبد الله: علّمني التواضع؟ فقال: إذا رأيت من هو أكبرُ منك، فقل سبقني إلى الإسلام والعمل الصالح، فهو خير مني، وإن رأيت أصغر منك فقل سبقته إلى الذنوب والعمل السيئ، فأنا شرٌّ منه.

وقال أبو العتاهية:

يا مَنْ تشَرَّف بالدُّنْيا وزينَتِها
ليس التَّشرُّفُ رفْعَ الطّين بالطِّين
إذا أردْتَ شريفَ النَّاس كُلِّهُم
فانظُرْ إلى مَلِكٍ في زيِّ مِسكين
ذاك الذي عُظمت في الناس همته
وذاك يصلح للدنيا وللدين "ا.هـ

وروى ابن عبد البر (في جامع بيان العلم وفضله(١٠٣/١)) بسنده إلى إبراهيم بن الأشعث قال: سألت فضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته، ولو كان أجهل الناس! لزمك أن تقبله منه.

قال: وكان يقال: علّم علمك مَن يجهل، وتعلّم ممن يعلم؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت "ا.هـ

تطبيقات عملية

هذا وننصح أنفسنا وإخواننا بما يلي:

١- أن يتواضع العبد إذا رُزق بنعمة، ومن ذلك تواضعه عندما يرتفع بمنصب أو جاه بين الناس؛ لأن النفس في هذه الحالة تريد أن تشمخ وتخلع جلباب العبودية، وتلبس لباس التيه والفخر، وبالمبالغة في التواضع تعود إلى أصلها. (وانظر: الشكر لابن أبي الدنيا ص ٧٢).

٢- ليس التواضع أن يتخشع العبد أمام الآخرين، بل تواضعه الحقيقي يبدأ من قلبه، ثم ينطلي على جوارحه، فتصبح وقد تزينت بشرع ربها، وإن من أهم ما يعينه على هذا هو كثرة سجوده لربه ودعائه والتذلل له، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء" (صحيح الجامع ح ١١٧٥).

٣-ومن صور تواضع المرء عند نفسه: عدم تقدمه على غيره من إخوانه إلا إذا رأى مصلحة شرعية في هذا كأن يكون تخلفه عن هذا العمل فيه إضرار بمصلحة المسلمين-والله أعلم بالسرائر- فلا يخدعن المرء نفسه، وأسوتنا في هذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما قال في أول خطبة له بعد توليه الخلافة: (وُلِّيت عليكم ولست بخيركم). مع أنه خير الناس جميعًا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه التواضع منه، ومع هذا فقد قبل الخلافة للمصلحة الشرعية.

٤- هذا ومما ينبغي أن ننبّه عليه هو التفريق بين الضعة والتواضع، وننقل فيها كلام ابن القيم رحمة الله (في كتابه الروح ص٢٣٤) يقول: (التواضع هو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقًا، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله، وهذا خُلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه. وأما الضعة: فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السفل في نيل شهواتهم وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه؛ فهذا كله ضعة لا تواضع، والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة " ا.هـ بتصرف.

وختامًا:

لا تضح أيها الحبيب بهذه العبادة، وقد قال الله تعالى: «تِلْكَ الدار الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض وَلاَ فَسَاداً والعَاقِبة لِلْمُتَّقِينَ» [القصص: ٨٣].

وفي (الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب (٩٠/٢)) يقول:

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهه
على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه
إلى صفحات الجو وهو وضيع

وصلى الله وسلم وبارك على النبي محمد وآله وصحبه وسلم.

نعمتان.. نسي شكرهما الكثير

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله الذي جعل الأعمار مواسم يربح فيها الشاكرون فهي لهم نعمة، ويخسر فيها الجاحدون فهي عليهم حسرة، قدّرها الله لبلوغ الأمل، وتدارك الخلل، وقد جعل الله «زمن العافية» من أجلّ النعم وأعظم المنن التي لا ينبغي أن يجحدها موفّقٌ.

ونعمة «زمن العافية» تتفرع- في الحقيقة - إلى نعم كثيرة؛ منها نعمة الوقت، ونعمة الصحة، ونعمة الكفاية، ونعمة الستر، وغير ذلك من النعم، ومع بعضٍ من هذا يحدثنا إمام المحدثين - البخاري رحمه الله - فيقول:

حدثنا المَكِّيُّ بن إبراهيم أخبرنا عبد اللَّه بن سَعِيدٍ عن أبيه عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ من الناس: الصِّحَّةُ، وَالْفَرَاغُ».

أولا: العزو (مقتصرا على الكتب الستة):

١- (صحيح البخاري، كِتَاب الرِّقَاقِ، بَاب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لَا عَيْشَ إلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ (٥/٢٣٥٧) (٦٠٤٩) ط٣/دار ابن كثير، تحقيق: د. مصطفى البغا).

٢- السنن الكبرى للنسائي (كتاب الرقاق) (١٠/٣٨٧) (١١٨٠٠)، ط/دار الرسالة،ت/شعيب الأرناءوط.

٣- (سنن الترمذي(٤/٥٠) (٢٣٠٤) كِتَاب الزُّهْدِ، باب الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ من الناس، ط/دار إحياء التراث العربي ت: أحمد محمد شاكر).

٤- (سنن ابن ماجه كتاب الزهد، باب الحكمة، (٢/١٣٩٦)(٤١٧٠) ط/دار الفكر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

ثانيا: رجال الإسناد باختصار:

١- المَكِّيُّ بن إبراهيم: هو ابن بشير التميمي البلخي أبو السكن، ثقة ثبت، مات سنة خمس عشرة ومائة وله تسعون سنة وَهُوَ اسْمٌ بِلَفْظِ النَّسَبِ (إلى مكة)، وذكره البخاري بالألف واللام في أوله وذكره غيره (مكي) بغيرهما ((تقريب التهذيب(٩٦٩)، ط/العاصمة)).

٢- عبد اللَّه بن سَعِيدٍ (والذي عليه مدار الحديث): عبد الله بن سعيد بن أبي هند، أبو بكر المدني، صدوق ربما وهم، مات سنة بضع وأربعين ((تقريب التهذيب(٥١٢)،ط/العاصمة))، وهو مِنْ صِغَارِ التَّابِعِينَ لِأَنَّهُ لَقِيَ بَعْضَ صِغَارِ الصَّحَابَةِ (لَقِيَ أَبَا أُمَامَةَ بْنَ سَهْلِ بن حنيف).

فائدة: ما معنى مدار إسناد الحديث؟: الجواب: هو الراوي الذي تلتقي أسانيد ذلك الحديث عنده مهما تعددت، فينفرد بذلك الحديث مطلقاً، ثم يرويه عنه اثنان فأكثر وهو يفيد في الحكم على الحديث؛ (رفعًا أو وقفًا، وصلاً أو إرسالاً)؛ وذلك تبعاً للقرائن التي لا تُدرك إلا بمعرفة (مدار الإسناد) (انظر: (منزلة مدار الإسناد في علم علل الحديث) لمحمد مدار الخطيب (خاتمة رسالة ماجستير من جامعة أم درمان)».

٣ - المقصود بأبيه: سعيد بن أبي هند الفزاري مولاهم (أي: مولى الفزاريين، وهو مولى سمرة بن جندب الفزاري)، ثقة توفى: ١٦هـ (تقريب التهذيب . العاصمة (ص: ٣٩٠» (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩/٢٣٦)».

فائدتان:

١- ليس لسعيد بن أبي هند عن ابن عباس في الصحيح غير هذا الحديث (الجمع بين الصحيحين للحميدي ٢/١١٥).

٢- توضيح لكلمة مولاهم التي كثيرًا ما تقابلنا في التراجم:

نقول تأتي هذه الكلمة على معنى من أربع ،أهمهما معنيان :

أ- مولى عتاقة - وهو الأكثر -: (أي: أن القبيلة الفلانية أعتقته، فيُنسب إلى القبيلة بكلمة

مولاهم).

ب- مولى إسلام: بأن أسلم على يد واحد من القبيلة، كالبخاري الإمام مولى الجعفيين، أسلم بعض أجداده على يد واحد من الجعفيين (أفاده النووي في «تهذيب الأسماء واللغات» (١٤/١)).

٣- ابن عَبَّاس: هو ابن عم رسول الله، من صغار الصحابة، كأن يسمى الحِبر والبحر لكثرة علمه وجدَّة فهمه، وُلد عام الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وتوفي بالطائف سنة ثمان وستين (معرفة الصحابة لأبي نعيم، ٣\ ١٦٩٧،١٦٩٦) ط/دار الوطن.

ثالثًا: درجة الحديث:

حديث صحيح بحكم إمام المحدثين البخاري رحمه الله.

رابعا: شرح ألفاظ الحديث:

١- قوله (نعمتان): قال ابن الخازن: «النعمة ما يتنعَّم به الإنسان ويستلذه. [«قوت المغتذي على جامع الترمذي للسيوطي(٥٥٩/٢)]».

٢- قوْله: (مغبون): إمَّا مُشْتَقٌ من الْغبْن بسُكُون الْبَاء وَهُوَ النَّقْص فِي البيع، وَإِمَّا من الْغبَن بِفَتْح الْبَاء وَهُوَ النَّقْص فِي الرَّأْي، فَكَأَنَّهُ قَالَ: هَذَانِ الْأَمْرَان إِذا لم يُستعملا فِيمَا يَنْبَغِي فقد غُبِنَ صَاحبهمَا فيهمَا، وقوله (مَغبون فيهما) أي في النعمتين (إرشاد الساري للقسطلاني (٢٣٦/٩) ط٧، المطبعة الكبرى).

٣- قَوْله: (الصِّحَّة): أَي إِحْدَى النعمتين: الصِّحَّة فِي الْأَبدَان.

٤- قَوْله: (والفراغ):أَي الْأُخْرَى مِنْهُمَا الْفَرَاغ، وَهُوَ عدم مَا يشْغلهُ من الْأُمُور الدُّنْيَوِيَّة. (عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٣١/٢٣).

خامسًا: في رياض الحديث:

في هذا الحديث الشريف يخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم عن نعمتين من أجل النعم وأعظم المنن التي وهبنا الله تعالى، ألا وهما نعمة الصحة التي بها يستطيع الإنسان أداء أعماله، ونعمة الفراغ التي يستطيع الإنسان بسبب استغلالها تحقيق آماله.

هذا وإن الإنسان قد يكون صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنياً عنده سعة في وقته ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا واستعملهما المرء في طاعة مولاه لعلمه أنه راحل إلى أخراه متمثلا قول القائل:

وما المرءُ إلا راكبٌ ظهرَ عمره
على سفرٍ يُفْنِيه باليومِ والشهرِ
يَبيتُ ويُضْحِي كل يومٍ وليلَةٍ
بعيداً عن الدُّنيا قريباً إلى القبرِ

فهو موفق مغبوط، وإن قصر في ذلك فهو الخاسر المغبون، وأول مظاهر شكر النعم امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

هذا وقد أدرك سلفنا رحمهم الله قيمة هذه النعم تبصر ذلك في أحوالهم وأقوالهم مما يدل على شكرهم لها.

شكر السلف لنعمة (زمن العافية)

١- أبو الوفاء، علي بن عقيل الحنبلي:

نقل ابن رجب الحنبلي عن ابن الجوزي قوله: «رأيتُ بخط ابن عقيل: إني لا يحل لي أن أضيّع ساعة من عُمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملتُ فكري في حال راحتي، وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره. وإني لأجدُ من حرصي على العلم. وأنا في عشر الثمانين أشدّ مما كنت أجدُه وأنا ابن عشرين سنة». (ذيل طبقات الحنابلة، ١٢٩/١).

٢- يقول الإمام ابن القيم في «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص ٢٠٨و٢٠٩): «أعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله، ومن ذلك الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهمّ كله عليه، فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبدًا!، فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، ومادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة المعيشة الضنك في العذاب الأليم فإذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والأماني الباطلة، فموت هذا خيرٌ له من حياته، وإذا كان العبد وهو في الصلاة: ليس له من الصلاة إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله تعالى).ا.هـ بتصرف يسير.

٣- ولابن الجوزي في تقدير الوقت كلام نفيس في كثير من كتبه:

- يقول في: ((تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر (ص: ٦٠)، ط/دار البشائر ت/محمد بن ناصر العجمي) : (وكان (عامر بن عبد قيس)

يصلي كل يوم ألف ركعة، ولقيه رجل، فقال: أكلمك كلمة، فقال: أمسك الشمس (حتى أكلمك)، وقال لرجل سأله في مسألة: عجل فإني مبادر. قال: وما الذي تبادر قال: خروج روحي .

وقال (عثمان الباقلاني): أبغض الأشياء إلى وقت إفطاري لأني أشتغل بالأكل عن الذكر وقال أيضا: إني وقت الإفطار أحس بروحي كأنها تخرج، لأجل اشتغال بالأكل عن الذكر.

وكان (داود الطائي) - رحمه الله - يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز. فقيل له في ذلك، فقال: بين أكل الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية)) ا.هـ بتصرف، وله في نفس الرسالة كلام مهم في أطوار عمر الإنسان وما يلائم كل طور منها يضيق المقام عن نقله أنصح إخواني بمراجعته.

٤- ويقول ابن الجوزي في رسالته لولده «لفتة الكبد في نصيحة الولد» (ص٢): «الكسل عن الفضائل بئس الرفيق! وحب الراحة يورث من الندم ما يربو على كل لذة، فانتبه واتعب لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سعة، واسق غصنك ما دامت فيه رطوبة، واذكر ساعتك التي ضاعت، فكفى بها عظة، ذهبت لذة الكسل فيها، وفاتت مراتب الفضائل! وإنما تقصر الهمم في بعض الأوقات، فإذا حثت سارت، وما تقف همة إلا لخساستها! وإلا فمتى علت الهمة فلا تقنع بالدون.

إذا ما علا المرء رام العلا
ويقنع بالدون من كان دونا

ا.هـ بتصرف، وهي رسالة صغيرة الحجم عظيمة النفع فجزاه الله خيرا.

٥- حماد بن سلمة، رحمه الله: نقل الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٠٨/٧)،ط/دار الحديث) عن عبد الرحمن بن مهدي قوله: لو قيل لحماد بن سلمة: إنك تموت غدًا ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا (وذلك لاستثماره لزمن عافيته)، وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي: لو قلت لكم: إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكا لصدقت، كان مشغولا: إما أن يحدّث أو يقرأ، أو يسبّح، أو يصلي، وقد قسم النهار على ذلك) ا.هـ بتصرف.

٦- الخليل بن أحمد رحمه الله:

يقول أبو هلال العسكري في كتابه «الحث على طلب العلم» (ص ٨٧) ط/المكتب الإسلامي): «كان الخليل بن أحمد يقول: أثقل الساعات عليّ: ساعة آكل فيها)!!

٧- يقول الضياء المقدسي واصفًا الحافظ عبد الغني المقدسي فيما نقله عنه الذهبي رحمهم الله جميعا: «وكان لا يضيع شيئا من زمانه؛ كان يصلي الفجر، ويلقن القرآن، وربما لقن الحديث، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثلاثمائة ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قبيل الظهر، فينام نومة فيصلي الظهر، ويشتغل بالتسميع أو النسخ إلى المغرب، فيفطر إن كان صائمًا، ويصلي العشاء ثم ينام إلى نصف الليل أو بعده، ثم يتوضأ ويصلي إلى قريب الفجر... ثم ينام نومة يسيرة قبل الفجر، وهذا دأبه».(تذكرة الحفاظ للذهبي (١١٣/٤) ط/ دار الكتب العلمية).

ما يُستفاد من الحديث:

١- الرِّقَاقُ: بِالْكَسْرِ جَمْعُ رَقِيقٍ، وَالْمُرَادُ بِهَا الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَرِقُّ بِهَا الْقُلُوبُ إِذَا سُمِعَتْ، وَتَرْغَبُ عَنِ الدُّنْيَا بِسَبَبِهَا، وَتَزْهَدُ فِيهَا. سُمِّيَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تُحْدِثُ رِقَّةً وَرَحْمَةً. والرقة إذا أضيفت للقلب صارت محمدة وإذا أضيفت للبدن صارت مذمة «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٢٢٥/٨)».

- عظيم نعمة الله على عباده في الصحة والكفاية؛ لأن المرء لا يكون فارغًا حتى يكون مكفيًا مؤنة العيش في الدنيا، فمن أنعم الله عليه بهما فليحذر أن يغبنهما، ومما يُستعان به على دفع الغبن أن يعلم العبد أن الله تعالى خلق الخلق من غير ضرورة إليهم، وبدأهم بالنعم الجليلة من غير استحقاق منهم لها، فمنّ عليهم بصحة الأجسام وسلامة العقول، وضمن أرزاقهم وضاعف لهم الحسنات ولم يضاعف عليهم السيئات وأمرهم أن يعبدوه ويعتبروا بما ابتدأهم به من النعم الظاهرة والباطنة، ويشكروه عليها بأحرف يسيرة، وجعل مدة طاعتهم في الدنيا منقضية بانقضاء أعمارهم، وجعل جزاءهم على ذلك خلودًا دائمًا في جنات لا انقضاء لها مع ما ذخر لمن أطاعه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فعلى العاقل إدراك مصلحته. (شرح صحيح البخاري لابن بطال

(١٠/١٤٦) بتصرف.

- اخْتُلِفَ فِي أَوَّلِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ؛ فَقِيلَ: الْإِيمَانُ، وَقِيلَ الْحَيَاةُ، وَقِيلَ الصِّحَّةُ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى فَإِنَّهُ نِعْمَةٌ مُطْلَقَةٌ، وَأَمَّا الْحَيَاةُ وَالصِّحَّةُ فَإِنَّهُمَا نِعْمَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، وَلَا تَكُونُ نِعْمَةً حَقِيقَةً إِلَّا إِذَا صَاحَبَتِ الْإِيمَانَ، وَحِينَئِذٍ يُغْبَنُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَيْ يَذْهَبُ رِبْحُهُمْ أَوْ يَنْقُصُ، فَمَنِ اسْتَرْسَلَ مَعَ نَفْسِهِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ الْخَالِدَةِ إِلَى الرَّاحَةِ فَتَرَكَ الْمُحَافَظَةَ عَلَى الْحُدُودِ وَالْمُوَاظَبَةَ عَلَى الطَّاعَةِ فَقَدْ غُبِنَ، وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ فَارِغًا فَإِنَّ الْمَشْغُولَ قَدْ يَكُونُ لَهُ مَعْذِرَةٌ بِخِلَافِ الْفَارِغِ فَإِنَّهُ يَرْتَفِعُ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ وَتَقُومُ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ. [انظر: فتح الباري لابن حجر (١١/٢٣٠)].

تطبيقات عملية:

١- الواجبات أكثر من الأوقات، وليس اغتنام الإنسان للوقت يعني أن يتبتل الشخص، أو يتجرد للعبادة، أو ينعزل عن الناس تماماً، فالإسلام لا يدعو للرهبانية، فهناك متطلبات شرعية لو أراد الشخص استيفاءها لضاق الوقت عليه دون إكمالها، فمن تلك الأمور المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها وفي المسجد، ثم المحافظة على الأذكار بعد الصلوات المكتوبات، وصلاة الضحى، وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم، والمحافظة على تلاوتها لئلا يتفلت.

٢- كثيرٌ من مستحدثات العصر مع تطورها تعتبر معاول لهدم قوة الشباب وإرخاء عزيمته، وتمييع إرادته، كالإكثار من مشاهدة التلفاز بزعم الاستفادة من برامجه وهو في الحقيقة يشتمل على كثير من المغالطات واستهلاك الأوقات، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولا يفهم من كلامي تبني المنع من الاستفادة من تطورات العصر ولكن كل شيء له ضوابطه.

٣- ومن الأمور التي تضيّع الوقت: عدم التزام الكثير من الناس بالآداب الاجتماعية كآداب الزيارة وآداب التهنئة وآداب العزاء، فنجد أن هذه الأمور صارت في زماننا هذا مظاهر اجتماعية لا تنتمي للشرع ولا تتقيد بتعاليمه، فقد صارت موضعاً للترفيه والاستئناس والتفكه معهم بطريقة تخرج الإنسان عن دائرة الورع وتقحمه في إطار الغوغاء من الناس.

٤- (الزمان الذي نعيش فيه ظرف عابر لا يتجدد ولا يعود، وقد قيل:

ما مضى فات والمؤمل غيب
ولك الساعة التي أنت فيها

وقد يخيل للبعض أن الأيام ستفرغ له في المستقبل من الشواغل، وتصفو له من المكدرات والعوائق، وأنه سيكون فيها أفرغ منه في الماضي أيام الشباب، ولكن الواقع المشاهد على العكس من هذا، وصدق القائل:

أترجو أن تكون وأنت شيخ
كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب
دريس كالجديد من الثياب

(أفاده الخطيب في تاريخ بغداد (١٤:١٢٤) ط/دار الغرب الإسلامي).

وعليه فيجب على الإنسان أن يبادر ولا ينتظر فالله أعلم بما هو آت.

بعض الأسباب التي تعين على شكر نعمة (زمن العافية):

١-التوبة من جحده، والتخلص من أسباب تضييعه.
٢-التوكل على الله.
٣-النظر في سِيَر الأعلام من السابقين واللاحقين والاقتداء بهم والاستفادة منهم
٤- مصاحبة المجدين النبهاء المقدرين لنعمة الوقت.
٥-الأخذ بأسباب إدارة الوقت المعينة والتي منها:
أ- وضع خطة واضحة ومقسَّمة على مراحل.
ب- التخلص من كل الشواغل التي تعوق العمل.
ج- ترتيب الأولويات (الأهم فالمهم).

وفوق ما ذكر عليك بسبب الدعاء الذي لا يخطئ سهمه، وقد قال الله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر/٦٠)، وصدق الشافعي الإمام إذ يقول:

أتهزأ بالدُّعاء وتزدريه
وما تدري بما صنع الدُّعاءُ؟!
سهامُ اللَّيلِ لا تُخطِئ ولكنْ
لها أمدٌ وللأمدِ انقضاءُ

والله وحده أسأل أن يتم علينا نعمه، وأن يرزقنا شكرها، وأن يحفظها علينا؛ إنه خير مسئول، وأكرم مأمول، والحمد لله رب العالمين.

طول الأمل وبغتة الأجل

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

لا يعرف الدواء مَن لا يقف على الداء، وطالب الدنيا كشارب من ماء مالح، كلما شرب منه ازداد عطشا، وقد رأينا من جمع كثيرًا وبنى مشيدًا وأمَّل بعيدًا، فأصبح جمعهم بورًا، وبنيانهم قبورًا، وأملهم غرورًا.

روى الإمام البخاري في صحيحه قال: حدثنا صَدَقَةُ بن الْفَضْلِ أخبرنا يحيى بن سَعِيدٍ عن سُفْيَانَ قال حدثني أبي عن مُنْذِرٍ عن رَبِيعِ بن خُثَيْمٍ عن عبد اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: خَطَّ النَّبِي صلى الله عليه وسلم خَطًا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا في الْوَسَطِ خَارِجًا منه، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إلى هذا الذي في الْوَسَطِ من جَانِبِهِ الذي في الْوَسَطِ، وقال: هذا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أو قد أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الذي هو خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ؛ فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هذا، وإن أَخْطَأَهُ هذا نَهَشَهُ هذا.

أولا: العزو (مقتصرا على الكتب الستة):

١- (صحيح البخاري (٥/٢٣٥٩) رقم (٦٠٥٤)، في كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله.ط/دار ابن كثير)

٢- والترمذي (٤/٦٣٥) رقم (٢٤٥٦) في كتاب الزهد، باب أمل الإنسان وأجله (ط/دار إحياء التراث العربي - تحقيق: أحمد شاكر).

٣- وابن ماجه (٢/١٤١٤) رقم (٤٢٣١) في كتاب الزهد، باب النية، ط/دار الفكر، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي).

٤- والنسائي في السنن الكبرى (١٠/٣٧٧) رقم (١١٧٦٤) كتاب الرقاق ط/دار الكتب العلمية، تحقيق: د/عبدالغفار البنداري وغيره.

ثانيا: (رجال الإسناد باختصار)

١- صدقة بن الفضل: هوالمروزي الحافظ قال الذهبي في الكاشف: إمام ثبت: (الكاشف (١/٥٠٢) ط١/دار القبلة).

٢- يحيى بن سعيد: هو ابن فروخ -بفتح الفاء وتشديد الراء المضمومة وسكون الواو- أبو سعيد القطان البصري، ثقة متقن حافظ، إمام قدوة، من كبار التاسعة، مات سنة ثمان وتسعين وله ثمان وسبعون (تقريب التهذيب (١/٧٥٥٦) ط١/دار الرشيد).

فائدة:

معنى قول الحافظ: «من التاسعة »: هي الطبقة الصغرى من أتباع التابعين كالشافعي الإمام فهو منها أيضا.

٣- سفيان: هو ابن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي، ثقة حافظ، فقيه عابد، إمام حجة من رءوس الطبقة السابعة، وكان ربما دلس، مات سنة إحدى وستين وله أربع وستون (تقريب التهذيب (١/٢٤٣٦).

فائدتان:

- معنى قول الحافظ من السابعة: أي من كبار أتباع التابعين.(انظر: مقدمة التقريب).

- الجواب عن قول الحافظ عن سفيان "ربما دلس" ومع ذلك يخرج له البخاري: قسَّم الحافظ المدلسين إلى خمسة طبقات وذكر اتفاق العلماء على قبول أصحاب الطبقة الأولى والثانية، وبدأ الخلاف من بداية الطبقة الثالثة، والحمد لله، فقد صنَّف سفيان الثوري رحمه الله على أنه من أصحاب الطبقة الثانية فقال: "من احتمل الأئمة تدليسه، وأخرجوا له في الصحيح لإمامته وقلة تدليسه في جنب ما روى كالثوري". (طبقات المدلسين (ص ١٣) ط١/ مكتبة المنار).

٤- أبو سفيان: هو سعيد بن مسروق الثوري ثقة مات سنة ست وعشرين وقيل بعدها (تقريب التهذيب (١/٢٣٨٩)».

٥- منذر: بضم الميم وسكون النون وكسر الذال المعجمة بعدها راء ابن يعلى الثوري، الكوفي ويقال (المنذر) ابن يعلى الثوري ثقة (تقريب التهذيب (١/٦٨٨٤).

٦- ربيع بن خثيم: وقيل: الربيع بن خثيم -بضم المعجمة وفتح المثلثة- ابن عائذ بن عبد الله الثوري أبو يزيد الكوفي ثقة عابد مخضرم من الثانية، قال له ابن مسعود: (لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك). مات سنة إحدى وقيل ثلاث وستين (تقريب

التهذيب ج ١ ص ١٨٨٣).

فائدة:

معنى قول الحافظ: «مخضرم من الثانية» أنه عاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنه لم يسلم إلا بعد موته، وعليه فهو ليس بصحابي، ويعد من كبار التابعين وهم أصحاب الطبقة الثانية.

٧- وعبد الله: هو ابن مسعود الصحابي الجليل (انظر ترجمته في حلية الأولياء لأبي نعيم ١/١٢٤) وغيره من كتب تراجم الصحابة).

فائدة على كتاب التقريب:

قسم الحافظ الرواة إلى اثنتي عشرة مرتبة واثنتي عشرة طبقة، أما المراتب فحسب درجة توثيقهم، فبدأ بالصحابة طبعًا، ثم من أكد توثيقهم كأن يقول: أوثق الناس، ثم بمن تفرد بصفة كأن يقول: ثقة.. وهكذا تقل درجة التوثيق ونحن نسير إلى أن انتهى إلى المرتبة الثانية عشرة، وهو من أطلق عليه اسم الكذب والوضع، وأما الطبقات فبحسب ترتيبهم الزمني، وليس لكل طبقة مدة زمنية متساوية مع التي بعدها كما يظن البعض، فكانت الطبقة الأولى هي طبقة الصحابة ثم كبار التابعين ثم.. وهكذا (انظر تقريب التهذيب ٧٥ و٧٦).

ثالثًا: (الشرح)

١- قوله: (خط النبي خطاً مربعاً): الظاهر أنه كان بيده المباركة على الأرض. قال الطيبي [رحمه الله]: المراد بالخط الرسم والشكل أي رسم شكلا مربعا. (مرقاة المفاتيح (٩/٤٥٢) ط١/دار الكتب العلمية).

٢- قوله: (وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا منه): أي خارجا من المربع، (وخط خططا) بضم الخاء المعجمة والطاء الأولى للأكثر، وجوّز فتح الطاء، أي خطوطاً (صغاراً) جمع صغيرة (إلى هذا) أي متوجهة ومائلة ومنتهية إلى هذا الخط (الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط) أي: من جانبيه اللذين في الوسط. فالمراد بالمفرد الجنس، ولا يراد به جهة واحدة من جهتي الخط. (انظر: مرقاة المفاتيح (٩/٤٥٢).

٣- قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هذا الإنسان): مبتدأ وخبر أي: هذا الخط الذي في الوسط (قبل أن يخرج ويمتد خارج المربع) هو الإنسان على سبيل التمثيل (وهذا أجله محيط به) إشارة إلى المربع (أو) (قد أحاط به) بالشك من الراوي، (وهذا) الخط المستطيل المنفرد (الذي هو خارج) من وسط الخط المربع (أمله، وهذه الخطط) (الصغار): أي الشطبات التي في الخط الخارج من وسط المربع من أسفله أو من أسفله وأعلاه هي: (الأعراض) بالعين المهملة والضاد المعجمة أي: الآفات العارضة له كمرض أو فقد مال أو غيرهما، أو المراد بالخطوط المثال لا عدد مخصوص معين. «انظر: إرشاد الساري للقسطلاني (٩/٢٣٩)».

٤- قوله: (فإن أخطأه هذا): أي أحد الأعراض (نهشه) بمعجمة، وقيل بسين مهملة: أي أصابه وعضه. (هذا) أي عرض آخر. وعبر عن الإصابة بالنهش وهو لدغ ذات السم، مبالغة في المضرّة (وإن أخطأه هذا) أي عرض آخر (نهشه هذا) أي: عرض آخر وهلم جرًا إلى انقضاء الأجل وعدم انتهاء الأمل «انظر: مرقاة المفاتيح (٩/٤٥٢)».

رابعًا: في رياض الحديث

إن المرء من يوم أن يولد الى يوم أن يموت وهو عرضة للمصائب والأنكاد قال تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في كبد»

وما أجمل قول من قال: ألم تروا مصارع من كان قبلكم، كيف استدرجتهم الدنيا بزخارفها، ثم تركتهم وقد تخلت عنهم، فهم في حيرة وظلمة، تركوا العيال والأموال، سكنوا القبور وقد تخلت عنهم الدور، صاروا ترابًا باليًا، وكان الله عز وجل لهم ناهيًا، قال تعالى: (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ).

نَبْكِي على الدنيا وما من مَعْشَرٍ
جَمَعَتْهُمُ الدنيا فَلَمْ يَتفرَّقُوا
أَيْنَ الأكاسِرَةُ الجَبَابِرةُ الأُلى
كَنَزُوا الكُنوزَ فما بَقِينَ ولا بَقُوا

فإن قيل ما السبب في حب الدنيا والتكالب عليها مع كثرة أنكادها، فالجواب: قلة المعرفة بها وبما يجب نحوها.

ولقد أخبرنا حبيبنا صلى الله عليه وسلم في حديثنا هذا بأصل الداء، فضرب مثلاً للإنسان بأنه نقطة أو خط وسط مربع محيط به هو أجله، وخط خارج من هذا الإنسان، ويمتد خارج المربع هو أمله، والمربع هو الأجل المقدّر والذي يقطع ذلك الأمل الطويل، فكان أصل الداء هو عدم تقدير الأمور حق قدرها.

إن الإنسان بفطرته يحب الحياة ويحرص على الرزق الذي هو مطلق ما ينتفع به، وهو مأمور بذلك شرعاً، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» [مسلم (٤/٢٠٥٢)].

إلا أن المؤمن يعلم يقيناً أن الذي يهب له الحياة ويمد

له في العمر، هو الله، وأن الذي ينزع منه هذه الحياة هو الله، وأن سعيه للرزق محكوم بمشيئة الله، فإن كان الأمر كذلك وكان الداء كما أسلفنا فما هو الدواء؟

إن قصر الأمل بضوابطه الشرعية (والتي أشرنا إليها من خلال حديث مسلم المتقدم ويأتي مزيد توضيح لها في الفوائد والتطبيقات) هو جزء من علاج الداء. يقول الشيخ حافظ حكمي رحمه الله: «إن المقصود الأعظم (من قصر الأمل): التأهب للموت قبل نزوله، والاستعداد لما بعده قبل حصوله، والمبادرة بالعمل الصالح، والسعي النافع قبل دهوم البلاء وحلوله؛ إذ هو الفيصل بين هذه الدار وبين دار القرار، وهو الفصل بين ساعة العمل والجزاء عليه، والحد الفارق بين أوان تقديم الزاد والقدوم عليه؛ إذ ليس بعده لأحد من مستعتب ولا اعتذار، ولا زيادة في الحسنات ولا نقص من السيئات، ولا حيلة ولا افتداء ولا درهم ولا دينار، ولا مقعد ولا منزل إلا القبر، وهو إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار إلى يوم البعث والجزاء وجمع الأولين والآخرين وأهل السموات والأرضين والموقف الطويل بين يدي القوي المتين...، قال الله تعالى: (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠] الآيات. (معارج القبول (٢/٧٠٨)، ط/دار ابن القيم).

خامسًا: السلف وطول الأمل

لقد بلغ قصر الأمل بالسلف الصالح مبلَغًا عظيمًا، ولولا النقل الصحيح لقلنا: هذا ضرب من الخيال أو شيء محال، ومن ذلك:

روى الإمام أبو بكر ابن الدنيا بسنده في (قصر الأمل)، ط٢/دار ابن حزم، تحقيق: محمد خير:

- عن شريك بن عبد الله في تفسير قوله عز وجل: (فتنتم أنفسكم) قال: بالشهوات واللذات. وتربصتم (قال: بالتوبة) وارتبتم (قال: شككتم) حتى جاء أمر الله (قال: الموت) وغركم بالله الغرور). (قصر الأمل ١١٧).

- وعن عبد الرحمن بن يزيد - وكان له حظ من دين وعقل - قال لبعض أصحابه: أبا فلان، أخبرني عن حالك التي أنت عليها، أترضاها للموت؟ قال: لا. قال: فهل أزمعت التحويل إلى حال ترضاها للموت؟ قال: لا والله، ما تاقت نفسي إلى ذلك بعدُ، قال: فهل بعد الموت دار فيها معتمل؟ قال: لا. قال: فهل تأمن أن يأتيك الموت وأنت على حالك هذه؟ قال: لا. قال: ما رأيت مثل هذه حالاً رضي بها وأقام عليها - أحسبه قال - عاقل. (قصر الأمل ص ٧٠).

- وعن يَزيد الرقاشي أنه قال: «إلى متى نقول: غدًا أفعل كذا، وبعد غد أفعل كذا، وإذا أفطرتُ فعلت كذا، وإذا قدمتُ من سفري فعلتُ كذا! أغفلتَ سفرَك البعيد، ونسيتَ مَلَك الموت؟ أما علمتَ أن مَلَكَ الموت غيرُ مُنتظِر بك أملَك الطويل؟ أما علمت أن الموت غاية كل حي؟، أيها المغتر بشبابه، أيها المغتر بطول عمره، ثم يبكي حتى يبُل عمامته!» (انظر: قصر الأمل(٧١)».

- وعن ابن أبي عَمْرة قال:

يا أيُّهذا الذي قد غرَّه الأمل
ودون ما يَأْمُلُ التنغيصُ والأجَلُ
ألا ترى أنما الدنيا وزينتُها
كمنزلِ الرَّكْب دارًا ثُمَّة ارتحلوا

إلى أن قال:

المرء يشقى بما يسعى لوارثه
والقبر وارث ما يسعى له الرجل

(قصر الأمل: ص ٧٣).

- ويقول ابن الجوزي (في صفة الصفوة، ط٢/دار المعرفة (٤/٣٤)»:

كانت عُفيرة العابدة لا تضعُ جنبها إلى الأرض في ليل، وتقول: «أخاف أن أؤخذ على غِرَّة وأنا نائمة»!!

- وعن الربيع بن عبدالرحمن قال: «قطعتنا غفلةُ الآمال عن مبادرة الآجال، فنحن في الدنيا حيارى،.. إلى أن قال: إن تُحسن أيها المرء يُحسَن إليك، وإن تسئ فعلى نفسك بالعَتْب فارجع، فقد بيَّن وأعذر وأنذر، فما للناس على الله حُجَّة بعد الرسل، وكان الله عزيزًا حكيمً».(٣/٣٥٤).

- وفي كتاب الزهد لابن حنبل رحمه الله ط٢/ تحقيق:عبدالعلي عبدالحميد:

- كان الحسن البصري - رحمه الله - يقول: «ما أكثر عبدٌ ذكْر الموت إلا رُئي ذلك في عمله، ولا طال أملُ عبد قط إلا أساء العمل». (ص ٢٣٩).

- وعن عطاء الأزرق قال: سمعت رجلاً سأل الحسن كيف أنت؟ كيف حالك؟ قال: بأشر حال، وما حال من أصبح وأمسى ينتظر الموت لا يدري ما يفعل الله به.(ص ٢٦٢).

- وروى البيهقي في الزهد الكبير، ط٣: مؤسسة الكتب الثقافية -، تحقيق: عامر أحمد حيدر بسنده عن منازل بن سعيد يقول: صلينا خلف جنازة فيها داود الطائي وهو لا يراني خلفه، فقال: أوه (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)، ثم قال لنفسه: يا داود من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال

أمله قصر عمله، وكل ما هو آت قريب. واعلم يا داود أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشئوم، واعلم يا داود أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون فبما عليه أهل القبور يندمون عليه أهل الدنيا يقتتلون فيه يتنافسون، وعليه عند القضاء يختصمون، ثم نظر إليَّ، فقال لو: علمت أنك خلفي لم أنطق بحرف. (٢٠٩/١).

- وبسنده عن عبدالله بن المعتز أنه أنشد فقال:

الدهر يَبْلى وآمال الفتى جُدُد
تَزيد آماله والدهر يُفنيها
ليلٌ وصبْح وآجال مقدورة تَمضي
ونمضي وتطوينا ونَطويها

- ويفسر ابن رجب في (جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، لابن رجب ط٧/مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرناءوط/ إبراهيم باجس) معنى قصر الأمل فيقول: قال داود الطائي: سألت عطوان بن عمرو التيمي قلت: ما قصر الأمل؟ قال: ما بين تردد النفس، وكان محمد بن واسع إذا أراد أن ينام قال لأهله: أستودعكم الله، فلعلها أن تكون منيتي لا أقوم منها. وكان هذا دأبه إذا أراد النوم. وقال عون بن عبدالله: ما أنزل الموت كنه منزلته مَن عَدَّ غدًا من أجله؛ كم من مستقبل يومًا لا يستكمله! وكم من مؤمل لغد لا يدركه! إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره لبغضتم الأمل وغروره، وكان يقول: إن من أنفع أيام المؤمن له في الدنيا ما ظن أنه لا يدرك آخره». (٣٨٤/١).

سادسًا: ما يُستفاد من الحديث:

- في الحديث إشارة إلى الحض على قصر الأمل والاستعداد لبغتة الأجل. وعبر بالنهش وهو لدغ ذات السم مبالغة في الإصابة والإهلاك. (الفتح ١٨٧/١١).

- الخطوط المذكورة بجوار الخط الطويل الخارج إنما هي على سبيل المثال، لا أن المراد انحصارها في عدد معين، والحاصل أن من لم يمت بالسيف مات بالأجل. (الفتح ١٨٧/١١).

- مَنْ قَصُرَ أَمَلُهُ زَهِدَ وَمِنْ طَالَ أمله كَسَلُ عَنِ الطَّاعَةِ وقسا قلبه، قَالَ تَعَالَى: (فطال عَلَيْهِم الأمد فقست قُلُوبهم)، وَقيلَ: مَنْ قَصُرَ أَمَلُهُ قَلَّ هَمُّهُ وَتَنَوَّرَ قَلْبُهُ؛ لأَنَّهُ إِذَا اسْتَحْضَرَ الْمَوْتَ اجْتَهَدَ فِي الطَّاعَةِ وَقل همه وَرضِي بِالْقَلِيلِ. (انظر الفتح ٢٣٧/١١).

- طول الأمل فيما يتعلق بأعمال الآخرة أمر مطلوب، وفيه ينقل ابن حجر عن ابن الجوزي رحمهما الله قوله: الْأَمَلُ مَذْمُومٌ لِلنَّاسِ إِلَّا لِلْعُلَمَاءِ، فَلَوْلَا أَمَلُهُمْ لَمَا صَنَّفُوا وَلَا أَلَّفُوا. (فتح الباري لابن حجر ٢٣٧/١١).

قلت: وكذلك طول الأمل بالنسبة لأعمال الدنيا المتعدي نفعها للغير والتي لا تؤثر على القلب بالسلب فهي تعد من الأمل المحمود؛ لأن الإنسان يؤجر عليها.

- بعض الناس يظن أن قصر الأمل معناه ترك العمل، وهذا خطأ، والصواب كما قال ابن حجر رحمه الله: وَفِي الْأَمَلِ سِرٌّ لَطِيفٌ لِأَنَّهُ لَوْلَا الْأَمَلُ مَا تَهَنَّى أَحَدٌ بِعَيْشٍ، وَلَا طَابَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَشْرَعَ فِي عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا الْمَذْمُومُ مِنْهُ الِاسْتِرْسَالُ فِيهِ.(فتح الباري لابن حجر ٢٣٧/١١).

وختامًا:

علينا الآن أحبتي في الله أن نتوب توبة عامة، ثم أن ننوي نية عامة بالتمسك بكتاب الله وسنة رسول الله، وأختم بكلام مستفاد من كلام ابن أبي الدنيا في (قصر الأمل) عن عبيدالله بن شميط بن عجلان قال: "سمعت أبي يقول: "إن المؤمن يقول لنفسه: إنما هي أيام ثلاثة، فقد مضى أمس بما فيه، وغدًا أملٌ لعلك لا تُدركه، وبينهما يومًا وليلة تُختَرم فيه أنفسٌ كثيرة، لعلك المُختَرم فيها، ومع ذلك قد حَمَلْتَ على قلبك الضعيف همَّ السنين والأزمنة، وهمَّ الغلاء والرخص، وهمَّ الشتاء قبل أن يجيء الشتاء، وهمَّ الصيف قبل أن يجيءَ الصيف، فماذا أبقيتَ من قلبك الضعيف لآخرته؟! كل يوم ينقص من أجلك وأنت لا تحزن، وكل يوم تستوفي رزقك وأنت لا تحزن، طالت آمالكم، فجدَّدتم منازلكم من الدنيا، وطيَّبتم منها معايشكم، وتلذَّذتم فيها بطيب الطعام، ولين اللباس، كأنكم للدنيا خُلقتم! أو لا تعلمون أن الموت أمامكم؟

أيها المغترُّ بصحته، أما رأيت ميتًا قط من غير سَقم؟ أيها المغتر بطول المهلة، أما رأيت مأخوذًا قط من غير عُدَّة؟ إنك لو فكَّرت في طول عمرك، لنسيتَ ما قد تقدَّم من لذاتك، أبالصحة تغترُّون؟! أم بطول العافية تمرحون؟ أم للموت تأمنون؟ أم على مَلَك الموت تَجترئون؟ إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروةُ مالك، ولا كثرة احتشادك، أما علمتَ أن ساعة الموت ذات كَرْب وغُصَص ونَدامة على التفريط، رَحِمَ الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت"(ص٥٨).

اللهم إن نعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، ونعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، ونعوذ بك من أمل يمنع خير العمل، والحمد لله رب العالمين.

الحمد لله.. هذا ديننا

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث حُذَيْفَةَ بن اليمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كان رَجُلٌ ممَّنْ كان قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بعَمَله، فقال لأَهْله: إذا أنا مُتُّ فخُذُوني فذَرُّوني في الْبَحْرَ في يَوْم صَائف، فَفَعَلُوا به، فَجَمَعَهُ الله ثُمَّ قال: مَا حَمَلَكَ عَلى الذي صَنَعْتَ؟ قَال: ما حَمَلَنِي إلا مَخَافَتُكَ، فَغَفَرَ له».

مقدمة لا بد منها

بالتأمل في حديث الباب، في فوائده من خلال شروح أهل العلم عليه اخترت للمقالة عنوانًا هو: (الخوف من الله من منازل المؤمنين)، وهو مستفاد من تبويب الإمام البخاري على الحديث في كتاب الرقاق، ثم اخترت عنوانًا آخر ينافس الأول، وهو: (الخوف من الله من سمات التائبين)، ثم وجدت أن الحديث أصل بنفسه كضابط من ضوابط العذر بالجهل، فقلت: (العذر بالجهل والرد على بدعة التكفير)، أو (أهمية القلب في أعمال العبد)، ثم استفدت عنوانًا من تبويب الإمام مسلم للحديث وهو: (رحمة الله غلبت غضبه)، كل هذا مستفاد من حديثنا هذا، ثم هداني الله إلى عنوان يجمع هذا كله بل أكثر منه وهو: (الحمد لله.. هذا ديننا)، فالحمد لله أن ديننا جمع كل هذه المحاسن وأكثر منها في حديث واحد، فالسنة السنة يا عباد الله.

أولًا: تخريج النص السالف، وعزو باقي الروايات الأخرى له إلى مصادرها:

١- رواه البخاري في كتاب الرقاق (٥ / ٢٣٧٧) بَاب الْخَوْف من الله قال: حدثنا عُثْمَانُ بن أبي شَيْبَةَ حدثنا جَرِيرٌ عن مَنْصُور عن رِبْعِيٍّ عن حذيفة وذكر الحديث، ورواه في كتاب الأنبياء (٣ / ١٢٧٢) بَاب ما ذُكِرَ عن بَنِي إسْرَائِيلَ، وفي كتاب التوحيد (٦/ ٢٧٢٢) بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ)، (إنه لَقَوْلٌ فَصْلٌ (حَقٌ) وما هو بِالْهَزْلِ) (باللَّعِبِ)، ط٣/ دار ابن كثير، تحقيق: د. مصطفى البغا.

٢- ورواه مسلم في صحيحه في كتاب التوبة (٤/ ٢١٠٩)، بَاب في سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٣- ورواه النسائي في (المجتبى) في كتاب الجنائز(٤/ ١١٣) برقم (٢٠٨٠) ط٢/ مكتب المطبوعات الإسلامية، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة.

٤- ورواه ابن ماجه في سننه في كتاب الزهد (٢ / ١٤٢١) باب ذكر التوبة ط/ دار الفكر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

ثانيًا: رجال الإسناد باختصار

١- **عثمان بن أبي شيبة:** هو عثمان بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم العبسي الكوفي، قال ابن حبان في الثقات: كان حسن الاستقامة في الحديث، وقال الخطيب: كان ثقة، وقال أحمد بن محمد بن بكر: مات سنة ٢٥٦هـ. (انظر: تهذيب التهذيب ج٧ ص١١٢)، ط/دار الفكر).

٢- **جرير:** هو ابن عبد الحميد بن قرط الضبي الكوفي الرازي (يعني: نزيل الري) وقاضيها، ثقة صحيح الكتاب، مات سنة ثمان وثمانين وله إحدى وسبعون سنة. (انظر: تقريب التهذيب ج١ ص١٣٩).

٣- **منصور:** هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمي أبو عتاب بمثناة ثقيلة ثم موحدة، الكوفي، ثقة ثبت، وكان لا يدلس من طبقة الأعمش، مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة. (تقريب التهذيب ج١ ص٥٤٧).

٤- **ربعي بن حراش:** بكسر المهملة وآخره معجمة أبو مريم العبسي الكوفي ثقة عابد مخضرم من الثانية، مات سنة مائة، وقيل غير ذلك. (تقريب التهذيب ج١ ص٢٠٥).

٥- **حذيفة:** ابن اليمان الصحابي الجليل، وانظر ترجمته في «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (١ / ٩٨-٩٩) وغيره من المصادر.

ثالثًا: الشرح

١- قوله: (كان رجل ممن كان قبلكم): يعني من بني إسرائيل (من أجل هذا ذكره البخاري في ذكر بني إسرائيل). (عمدة القاري (٢٥٦/٣٣).

فائدة: وهل شرع بني إسرائيل شرع لنا؟ سيأتي الجواب عن هذا فيما يُستفاد من الحديث.

٢- قوله: (يسيء الظن بعمله): يعني بعمله الذي كان معصية، ففي صحيح ابن حبان من طريق ربعي بن حراش أنه كان نباشًا للقبور يسرق أكفان الموتى، وعند أبي عوانة من حديث حذيفة عن أبي بكر الصديق أنه آخر أهل الجنة دخولاً، فيكون آخر من يخرج من النار، وفي المصابيح أنه كان يقول: أجرني من النار مقتصرًا على ذلك (شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩/ ٢٧٥).

٣- قوله: (فَقَالَ لأَهْله: إِذَا أَنَا مُتُّ، فَخُذُونِي، فَذَرُّونِي فِي الْبَحْر): بضم الذَال من الذر وهو التفريق، ويروى بفتح الذال من التذرية، يقال: ذرت الريح الشيء ومنه (تذروه الرياح). (عمدة القاري (٢٥٦/٣٣).

٤- قوله: (في يوم صائف): أي حارّ بتشديد الراء من الحرارة (وفي حديث أبي سعيد (في يوم عاصف) أي عاصف ريحه، وفي رواية مسلم (في ريح عاصف) (الفتح ٥٢٢/٦).

٥- قوله في بعض الروايات (فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا لم يعذبه أحدًا من خلقه): اختلف العلماء في توجيه هذه اللفظة، وأصوبها أن الرّجل لم يكن عالماً بجميع ما يستحقه الله من الصفات، ولا مدركاً للقدرة الإلهيّة على وجه التفصيل كما قاله شيخ الإسلام، وسيأتي بيانه إن شاء الله.

٥- (ففعلوا به): ما أمرهم به.

٦- (فجمعه الله) عز وجل، وفي رواية (فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه. ففعلت)، وفي حديث سلمان الفارسي عند أبي عوانة في صحيحه فقال الله له: (كن فكان كأسرع من طرفة العين) (الفتح ٥٢٢/٦).

٧- (ثم قال) الله تعالى له: (ما حملك على الذي صنعت؟) قال (الرجل): (ما حملني) عليه (إلا مخافتك، فغفر له). (إرشاد الساري (٩/ ٢٧٥».

رابعًا: ما يُستفاد من الحديث

١-الخوف من الله من منازل السائرين إليه:

ولقد بوب الإمام البخاري لهذا الحديث في كتاب الرقاق بباب الخوف من الله، يقول الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣١٣)»الخوف من الله من المقامات العلية وهو من لوازم الإيمان، قال الله تعالى: (وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)(آل عمران: ١٧٥)». يقول الشيخ السعدي: في هذه الآية دليل على وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله. (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٢٩٤/١- ٢٩٥).

حتى لا يختلط الأمر

وحتى لا يختلط الأمر بين المشروع والممنوع من الخوف نذكر أقسامه وانظره في:(القول المفيد على شرح كتاب التوحيد، لابن عثيمين: ١٦٦/٢):

أ- خوف العبادة، والتذلل، والتعظيم، والخضوع، وهو ما يسمى بخوف السر. والذي يكون معه اعتقاد النفع والضر، وهذا النوع لا يجوز صرفه لغير الله.

ب- الخوف الجبليُّ، كالخوف من عدو، أو نحو ذلك. فهذا النوع يأخذ من الأحكام بحسب حال الخائف، فمنه ما هو محرم إن حمل على ترك واجب، أو فعل محرم، بغير ضرورة تستلزم ذلك.

ومنه ما هو مباح، كما حصل لموسى عليه السلام: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ) (القصص: ٢١)، وقد يكون واجباً إذا كان يتوصل به إلى إنقاذ نفسه، وكلا القسمين استسابقين مشروع.

فائدة وحوار لبيان الممنوع من الخوف

أما الممنوع من الخوف فهو نوع غالى فيه صاحبه، حتى صار مرضاً فقطع صاحبه عن السعي، وأقعده عن الفضائل المطلوبة، والأعمال المحبوبة عند الله، فخرج الخوف بهذا عن كونه مشروعًا وصار مذمومًا ممنوعا وصاحبه يخشى عليه (انظر: التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لابن رجب: ٢٠).

«فالخوف ليس مقصوداً لذاته، بل هو مقصود لغيره (قصد الوسائل) «(انظر: مدارج السالكين: ٥١٤/١).

والناظر إلى حال الصحابة . رضي الله عنهم . يرى أن الخوف قد كان غالباً عليهم ؛ إذ لم يخف من الله . عز وجل . بعد النبيين أحدٌ مثلهم، ومع هذا لم يظهر عليهم شيء من دعاوى الغالين، مع عدم تفريطهم في الخوف من رب العالمين؛ فلم يؤثر ذلك عليهم، لا في قطع كسب وعيش، ولا في إقعاد عن فضل عمل وعبادة ؛ وذلك لقوة علمهم بالله ؛ فقوة العلم بالله تورث شدة الخوف منه.

ولقد أدهشني حوار دار بيني وبين أحد الأساتذة الذين أكن لهم الاحترام ولولا أن شرع الله - خاصة وإن تعلق الأمر بالعقيدة - لا مجاملة فيه ما ذكرت هذا الحوار (مختصرًا له): ذكر أستاذنا أمامي مرة

صاحب كتاب (طبقات الصوفية) مادحًا له، فقلت له: أليس هو القائل في حق فلان: « وكان من كرامته أنه رضي الله عنه يمشي عاريًا؟!»

فقال أستاذ الحديث الذي أحترمه: وماذا في هذا إنه من شدة حبه لله وخوفه منه مشى عريانًا. فقلت متعجبًا: ألا يوجد واحد من الصحابة أحب أو خاف من الله كما فعل هذا الولي؟! وأختصر كلامي تاركًا الجواب للقارئ الحبيب؛ لأنني أظن أن تقرير البديهيات لا يحتاج إلى هذه المناقشات.

وخلاصة القول: إن الخوف المطلوب هو ما كان عوناً على التقرب إلى الله بفعل ما يحبه، وترك ما يكرهه، ومتى صار الخوف من الله مانعاً من المخالفة، وحافزًا للقربى، فقد انعكس المقصود منه.

وكان يحسن بنا أن نذكر نماذج من أحوال سلفنا في خوفهم من الله، لكنني ولضيق المقام أحيلك أيها الحبيب إلى ما كتبه أسلافنا كابن رجب في (التخويف من النار والتحذير من دار البوار) لتطلع فيه على حال هؤلاء.

٢- شرع من قبلنا شرعٌ لنا؛ ما لم يرد في شرعنا ما يرده:

وهى مسألة مختلف فيها، والراجح، والله أعلم، هو قول الجمهور وهو أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما يخالفه، واستدلوا بأدلة كثيرة من أقواها:

أ - أن الله عز وجل لما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام ختم الآيات بقوله: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)، والهدى هنا عامّ؛ لأنه مفرد مضاف فيشمل جميع الهدى ما لم يرد خلافه.

ب - حديث أنس قال: إن الربيع وهي ابنة النضر كسرت ثنية جارية، فطلبوا الأرش (أي: طلب أهل الربيع أن يدفعوا لأهل الجارية الدية)، وطلبوا العفو(مقابل ما سيدفعون)، فأبوا (أي: أهل الجارية) فأتوا النبي، فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: أتُكسر ثنية الربيع يا رسول الله؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فقال: « يا أنس كتاب الله القصاص» فرضي القوم وعفوا فقال النبي: « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» رواه البخاري(٢٧٠٣).

وكتاب الله المراد قوله تعالى: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ) [سورة المائدة: ٤٥] الآية، وهي في بني إسرائيل، وهذا هو تفسير جمهور شراح الحديث.

من أجل هذا نقول: هذا الحديث وإن كان من شرع من قبلنا إلا أنه شرع لنا؛ لما سبق ذكره، بل وزيادة عليه أنه سيق وقد أقره النبي صلي الله عليه وسلم.

٣- العذر بالجهل والرد على بدعة التكفير

من أهم ما يستفاد من هذا الحديث أنه يقرر أصلاً مهمًا من أصول أهل السنة والجماعة، وهو أنهم يعذرون الجاهل بجهله، ولا يُعيِّنُون بالكفر إلا بعد تحقق شروط في هذا المعين وانتفاء موانع تمنع من تنزيل الحكم عليه، ذكرها أهل العلم بالتفصيل في مظانها.

وأكتفي في عرض القضية مختصرة من خلال الكتاب وصحيح السنة وكلام السلف لاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية المفتري عليه:

أ- قال تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء: ١٥]،

ب- وأكتفي في السنة بحديث الباب، والنصوص في هذا كثيرة، والحمد لله.

ج- قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى»(٣/٢٢٩): «هذا مع أني دائماً - ومن جالسني يعلم ذلك مني - أني من أعظم الناس نهياً عن أن يُنسب معيَّنٌ إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا عُلِمَ أنه قد قامت عليه الحُجَّة الرسالية، التي من خالفها كان كافراً تارةً، وفاسقاً أخرى، وعاصياً أخرى، وإني أقرِّر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعمُّ الخطأ في المسائل الخبريَّة القوليَّة، والمسائل العمليَّة، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحدٌ منهم على أحد لا بكفر، ولا بفسق، ولا بمعصية!..

وكنت أبيِّن أنَّ ما نُقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير مَنْ يقول كذا وكذا، فهو أيضاً حقٌّ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين.. والتكفير هو من الوعيد؛ فإنه وإن كان القول تكذيباً لما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يُكفَّر بجَحْد ما يجحده حتى تقوم عليه الحُجَّة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص، أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده مُعارِضٌ آخر، أوجب تأويلها وإن كان مخطئاً، وكنت دائماً أذكر الحديث الذي في «الصحيحين» في الرجل الذي قال: «إذا أنا متُّ فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليَمِّ، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين، ففعلوا به ذلك؛ فقال الله: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتُك، فغُفر له»

فهذا رجلٌ شكَّ في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذُرِّي؛ بل اعتقد أنه لا يُعاد، وهذا كفرٌ باتفاق المسلمين؛ لكنه كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمناً يخاف الله أن يعاقبه؛ فغُفر له بذلك».

وقال أيضا (١٦٥/٣٥): «وأصل ذلك: أن المقالة التي هي كفرٌ بالكتاب والسنَّة والإجماع، يقال: هي كفرٌ قولاً، يطلق كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية؛ فإن الإيمان من الأحكام المتلقَّاة عن الله ورسوله، ليس ذلك مما يحكم فيه الناس بظنونهم وأهوائهم، ولا يجب أن يحكم في كل شخص قال ذلك بأنه كافر، حتى يثبت في حقه شروط التكفير، وتنتفي موانعه.... إلى أن قال: «فإن هؤلاء لا يُكفَّرون حتى تقوم عليهم الحجَّة بالرسالة؛ كما قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]».

د- ومن العلماء المعاصرين: يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في (الشرح الممتع على زاد المستقنع ٦ / ١٦٣): وهذه المسألة - أعني مسألة العذر بالجهل - مسألة عظيمة شائكة، وهي من أعظم المسائل تحقيقاً وتصويراً، ومما زاد الأمر صعوبة كثرة المؤلفات فيها من جميع المناهج وكل واحد يتبنى رأيه واعتقاده، وبعضهم يستدلون بأدلة ليس لها علاقة بالقضية أصلاً، ومنهم من يحملون كلام السلف محملاً خطأ، ومنهم من لا يفرقون بين التكفير المطلق وتكفير المعين، ومنهم من يأتي بنصوص ويترك النصوص الأخرى، ومنهم من يأتي بأقوال للعلماء ويترك أقوالهم الأخرى وهكذا، وغير ذلك من التخبط البعيد عن المنهج العلمي».

نصيحة واجبة:

هذا، وأنصح نفسي وإخواني أن نلتمس العذر لمن خالف الحق الذي نعتقده؛ حتى تُقام الحجة بضوابطها المعروفة لدى أهل العلم، وأن نعطي للمسألة حجمها من القراءة والبحث بهدوء وبلا استعجال، وأن نعلم أننا دعاة ولسنا قضاة، وأن الداعية حريص على تأليف القلوب لا تنفيرها، دعوتنا هي توحيد الناس على كلمة التوحيد، وأن واجبنا تعليم الناس وليس تكفيرهم وتبديعهم، وأننا بهذا لا نميع القضية، ولكننا نناقش مسألة مهمة قد يؤدي التقصير في عرضها إلى تدمير المجتمع، والله المستعان.

٤- حكم سوء ظن العبد بنفسه

وهو متعلق بالفائدة السابقة فلو اتهم المرء نفسه لسهل عليه عذر غيره، وقد اختلف فيه العلماء، فمنهم من رأى الاستحباب. قال ابن القيم: (أما سوء الظن بالنفس فإنما احتاج إليه؛ لأنَّ حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش، ويلبس عليه، فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالاً.

فعين الرضى عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدي المساويا

ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه). «انظر: مدارج السالكين» (١٨٩/١)،

- ومنهم من رأى الكراهة؛ كما نقله الماوردي رحمه الله في أدب الدنيا والدين (٢٣٤/١-٢٣٥).

- ومنهم من قال بالموازنة بين سوء الظن وحسن الظن. (ينبغي على المرء أن - يكون في التهمة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظن بها مقتصدًا، فإنه إن تجاوز مقدار الحقِّ في التهمة لنفسه ظلمها؛ فأودعها ذلة المظلومين، وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها آمنها؛ فأودعها تهاون الآمنين. ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدار من الوهن، ولكل وهن مقدار من الجهل) «البيان والتبيين» لأبي عثمان الجاحظ (٦٤/١).

قلت: والموازنة -والله أعلم- هي المنهج الوسط الأنسب لأحوال الناس.

فائدة أخيرة: هل يعد الندم توبة كما فعل هذا الرجل؟

الجواب: إن مجرد الندم لا يعد توبة، يقول ابن القيم في مدارج السالكين (١٨٢/١): (وشرائط التوبة ثلاثة: الندم، والإقلاع، والاعتذار، فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة؛ فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم، فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خُلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

ولما كان متوقفا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له).

إذن ومما تقدم فإن الندم هو جزء من التوبة وشرط من شروطها، ولا يفوتنا أن نذكّر بما ورد في صحيح ابن ماجه برقم (٣٤٢٩) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الندم توبة)، والمراد أنه أول مراحل التوبة، والله أسأل كما رزقنا دينًا وسطًا قويمًا أن يتوب علينا ويهدينا صراطًا مستقيمًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

رجب

بين اتباع المحبين وابتداع الغالين

اعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد :

قال الله-تعالى- : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) [القصص:٦٨] ، والاختيار هو الاصطفاء ، قال قتادة رحمه الله : « إن الله اصطفى صفايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رُسلا ومن الناس رُسلا، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجدَ، واصطفى من الشهور رمضانَ والأشهرَ الحرمَ، واصطفى من الأيام يومَ الجمعة، واصطفى من الليالي ليلةَ القدرِ» انتهى(الطبري ١٠/١٢٧)

و لا يثبت فضلُ لشيء إلا بدليل شرعي صحيح ، ودليل اختياره من بين الشهور أربعة حُرما قوله تعالى :

« إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ » التوبة٣٦ .

ومن السنة

عن أبي بكرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القَعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان))

والحديث رواه :

١- البخاري برقم (٣٠٢٥)، (٤١٤٤)، (٤٣٨٥) ،(٥٢٣٠) ،(٧٠٠٩) ط٣/دار ابن كثير)

٢- ومسلم (١٦٧٩) ، ط/دار احياء التراث ،تحقيق :محمد فؤاد عبدالباقي)

٣- (أبوداوود (١٩٤٧) ط/دار الفكر،تحقيق:محمد محيي الدين عبدالحميدوللأشهر الحرم - والتي منها شهرنا رجب - مكانة عظيمة نبينها لاحقا في موضعها ، لكننا مع هذه المكانة التي جعلها الله لهذا الشهر الفضيل لا نغالي فيه مغالاة المبتدعين الذين طاب لهم أن يزيدوا على ما جعله الشارع له من مزية باختراع عبادات واحتفالات ما أنزل الله بها من سلطان ، بل نتبع اتباع المحبين لربهم المستنين بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم .

ولبيان هذا أقف مع حضراتكم في هذه المقالة ثلاث وقفات رئيسية :

١- معنى الابتداع ٢- معنى الاتباع ٣- بيان ما ورد في رجب من السنة وما أحدثه الغالون من البدعة

أولا: معنى الابتداع

الابتداع لغة: مصدر ابتدع ، وابتدع أي أتى ببدعة ، لذا فنعتمد في تعريفه على تعريف البدعة و بدع الشيء و ابتدعه : أنشأه وبدأه . و بدع الركية (أي:البئر) : أحدثها . وركي بديع : حديثة الحفر . وفي التنزيل : (قل ما كنت بدعا من الرسل) أي ما كنت أول من أرسل ، قد أرسل قبلي رسل (لسان العرب ج٨ ص٦)

و اصطلاحاً:

عرفها ابن رجب بأنها:» ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدلّ عليه فليس ببدعة شرعًا وإن كان بدعة لغة»(جامع العلوم والحكم (ص٢٦٥)).

وعرفها السيوطي بأنها:» فعلة تصادم الشريعة بالمخالفة أو توجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان». (ينظر:الأمر بالإتباع (ص٨٨)).

وخلاصة ما سبق في معنى الابتداع الذي هو فعل البدعة:

هو ما أحدث في الدين و ليس له أصل شرعي يدل

عليه فيخرج ما أُحدث في أمور الدنيا ولم يقصد به عبادة

و البدعة قد تكون بالمخالفة التامة لأمر شرعي أو بمجرد النقص أو الزيادة فيه .

ما أحدث وله أصل في الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا وإن كان بدعة لغة .

ولمزيد من تأصيل المفهوم - وهو جدير بالمزيد- أنصح ببحثه في مظانه ككتاب الاعتصام للشاطبي(إبراهيم بن موسى ، (ت٧٩٠) أو كتاب السنن والمبتدعات للشقيري(ت١٣٧١) والذي قدم له فضيلة الشيخ حامد الفقي مؤسس الجماعة رحمه الله تعالى .

سؤال مهم وجوابه :

هل في الدين بدعة حسنة ؟ وبتعبير آخر : كيف نوفق بين قوله صلى الله عليه وسلم (كل بدعة ضلالة) وقول عمر رضى الله عنه (نعمت البدعة هذه) وكذا التوفيق بين قول بعض أهل العلم (كل بدعة محرمة) وبين تقسيم بعض العلماء البدعة إلى (مستحسنة ومستقبحة)

قال الحافظ ابن رجب : (قوله صلى الله عليه وسلم (كل بدعة ضلالة) من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء ، وهو أصل عظيم من أصول الدين ، وهو شبيه بقوله صلى الله عليه وسلم (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) فكل من أحدث شيئا ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل في الدين يرجع إليه فهو ضلالة . والدين بريء منه ، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة . اهـ).

قلت : وهو المقصود بقول بعض العلماء كل بدعة محرمة : أي كل بدعة بمفهومها الشرعي لا اللغوي ، (أما قول عمر رضي الله عنه (نعمت البدعة) ، يريد البدعة اللغوية لا الشرعية ، فما كان له أصل في الشرع يرجع إليه إذا قيل إنه بدعة يكون المقصود لغة لا شرعا ، [مختصر من جامع العلوم والحكم (٢٦٦/١)] وفي هذه الحالة تحمد ولا تذم والمثال عليها (أي:على قول عمر رضى الله عنه : جمع القرآن في كتاب واحد، وكذلك صلاة التراويح ، وهذا التقسيم هو ما عناه الإمام شهاب الدين أبو شامة - وغيره ممن حذا حذوه من ثقات أهل العلم - : عندما عرف البدعة في كتابه «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص٢٢) ط/دار الهدى) ثم قسمها إلى مستحسنة (أي: اللغوية) ومستقبحة(أي: الشرعية) ، علما بأن غايتي من هذا التوفيق بين كلام الثقات من علمائنا ألا يضرب الناس كلام العلماء بعضه ببعض أو يستدلون بقولهم في تقسيم البدعة على استباحة البدعة الشرعية مع أن قولهم : بدعة مستحسنة المراد به البدعة اللغوية كما أسلفنا ،فلا يوجد في الشرع بدعة حسنة وهذا بالطبع يختلف عن قول من قال : إن البدعة تأخذ الأحكام الخمسة فهذا قول مرفوض كما أفتى به العلامة عبد الرزاق عفيفي رحمه الله (فتاوى اللجنة الدائمة) فلا دليل عليه في الشرع فهو في نفسه بدعة .

ثانيا:الاتباع

تعريفه لغة:

قال ابن فارس: «(تبع) هو التّلو والقَفْو، يقال: تبعت فلاناً إذا تلوته واتبعته»(وانظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٣٦٢/١)).

ثانيا: تعريف الاتباع اصطلاحا

قال ابن عبد البر: «الاتباع ما ثبت عليه الحجة (أي: قام عليه الدليل)»(٥٤٨/٧))

وبعيدا عن المصطلحات : القرآن يدعو إليه

إن المتأمل في كتاب الله تعالى ثم في كلام الأئمة في آياته ليجد أن قضية الاتباع هى مراده الحقيقي لأن العبد إذا كان متبعا فلا مراء في كونه موحدا مخلصا مستنا والأمثلة على ذلك كثيرة وكلها تخرج من مشكاة واحدة مع كونها تعالج القضية من جوانب مختلفة ومن ذلك :

قول الشّاطبيّ (ت٧٩٠) - رحمه الله - متأملا في قوله تعالى:«وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ» [الشورى: ٥٢] : فالكتاب (أي : القرآن) هو المتّبع على الحقيقة، ومراتب النّاس بحسب اتّباعهم له ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أوّل من هداه الله بالكتاب والإيمان، ثمّ من اتّبعه فيه، والكتاب هو الهدي، والوحي المنزّل عليه مرشد ومبيّن لذلك الهدى، والخلق مهتدون بالجميع ...وشرف الناس إنّما يثبت بحسب ما اتّصفوا به من الدّخول تحت أحكام الشريعة ، والأخذ بها قولا واعتقادا وعملا، ...، فالشّرف إنّما هو بحسب المبالغة في تحكيم الشّريعة واتباعها) [انظر: الاعتصام للشاطبي (٣٣٨/٢)]

ومن نفس المشكاة يحدثنا الإمام ابن كثير رحمه الله حول آية أخرى من كتاب الله توضح لنا - بل وتحصر- حب الله في اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم

فلقد زعم قوم محبتهم لله عز وجل فابتلاهم الله بقوله تعالى :« قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [آل عمران:٣١]، والتي أطلق عليها العلماء آية المحبة، ومعناها كما يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره (ج١ ص٣٥٩)

: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله « انتهى بتصرف ، فإن من يدعي محبة الله جل وعلا ولم يتبع رسوله صلى الله عليه وسلم فهو عاص لله جل وعلا ولله در القائل :

تعصي الإله وأنت تزعم حبه
هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

ومن واقع الصحابة

إنني لم أقصد بهذا العنوان أن أسرد أحاديث الأمر بالاتباع كحديث أم المؤمنين عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم :من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) (خ ٢٦٩٧ - م ١٧١٨) فمثل هذه الأحاديث تمتلئ بها الصحاح فأنصح نفسي وإخواني بمراجعتها لأهميتها، لكنني قصدت بذلك نقل ما ورد من حال الصحابة مما يدل على شدة اتباعهم وتمسكهم لعلمهم أن في ذلك نجاتهم ومن ذلك:

ما ورد عن الصديق رضى الله عنه : فمواقف اتباعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسعها مقام كهذا لكننا لا نعدم خير سيرة الصديق ولو باليسير فلم ينج الصديق مما ألم به إلا باتباعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك المعنى روى الإمام أحمد في (فضائل الصحابة) بسنده إلى أم المؤمنين عائشة أنها كانت تقول قبض النبي صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب واشرأب النفاق بالمدينة فلو نزل بالجبال الرواسي ما نزل بأبي لهاضها (ج ١ ص ٦٨) (والهيض معناه : كسر للعظم). ومع هذا حارب المرتدين وأنفذ جيش أسامة بن زيد لحرب الروم كما هو معلوم وأصر أن يظل أسامة أميرا على الجيش اتباعا لرسول الله وقال قولته المشهورة : (والذي لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ما رددت جيشاً وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا حللت لواء عقده. ، فكتب الله للمسلمين النصر من حيث قد بدا لهم مظنة الهزيمة والخوف وذلك باتباعهم) (وانظر : تاريخ دمشق لابن عساكر(٢/٦٠))

والفاروق عمر رضى الله عنه يراجع نفسه في الحال : ففي البخاري عن زَيْدُ بن أَسْلَمَ عن أبيه أَنَّ عُمَرَ بن الخَطَّاب رضي الله عنه قال لِلرُّكْنِ (الأسود من الكعبة) أَمَا والله إني لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم اسْتَلَمَكَ ما اسْتَلَمْتُكَ فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ قال فما لنا وَلِلرَّمَلِ (وهو السير بهيئة الجري في الثلاث أشواط الأولى من الطواف) إنما كنا رَاءَيْنَا بِهِ الْمُشْرِكِينَ (أي: فعلناه في بداية الأمر لنري المشركين قوتنا) وَقد أَهْلَكَهُمْ الله ثُمَّ قال شَيْءٌ صَنَعَهُ النبي صلى الله عليه وسلم فلا نُحِبُّ أَنْ نَتْرُكَهُ (صحيح البخاري ج ٢ ص ٥٨٢)

بل ولعلمهم بأهمية اتباعهم لنبيهم لا ينتظرون يسألون أو كما يقول الناس في هذه الأزمنة يجادلون ليفهمون بل حالهم ينطق بما في صدورهم : سمعنا وأطعنا ، يبادرون بالطاعة خوفا من حضور الموت قبل فعل الأمر ومثاله - والأمثلة كثيرة - ما رواه الحاكم في المستدرك وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داوود(٨٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال:« بَيْنَمَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ إِذْ خَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَنْ يَسَارِهِ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْقَوْمُ. أَلْقَوا نِعَالَهُمْ. فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم صَلاتَهُ قَالَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى إِلْقَائِكُمْ نِعَالَكُمْ؟ قَالوا: رَأَيْنَاكَ أَلْقَيْتَ نَعْلَيْكَ فَأَلْقَيْنَا نَعَالَنَا. فَقَالَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهِمَا قَذَرا» فسبحانَ اللهَ أين هذا اليوم مما نحن فيه من بذل العمر والجهد في اقناع النفس باتباع السنة والنفس الرديئة تأبى متعللة بعلل شتى ما بين طلب القناعة أو طلب التخفيف أو نحو ذلك ، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ثالثا: رجب بين الاتباع والابتداع

إننا في هذه الوقفة نريد أن نطبق ما تدارسناه عن الاتباع والابتداع بشكل عملي ، نريد أن نرى كيف نتناول أي مسألة من واقع الخوف من البدعة والحرص على السنة ، من واقع اتباع الدليل الذي هو الشرع

إننا على الجملة واختصارا نقول : لقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل هذا الشهر، صحيحها غير صريح، وصريحها ضعيف أو موضوع فلا يصح دليل صريح في تخصيص رجب بعبادة .

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله في رسالته (تبيين العجب بما ورد في فصل رجب ص: ٢٣)): «لم يرد في فضل شهر رجب، ولا في صيامه، ولا في صيام شيء منه معين، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه حديث صحيح يصلح للحجة» ، وقد جمع -رحمه الله- الضعيف فكان أحد عشر حديثا، وجمع الموضوع فكان واحدًا وعشرين حديثًا و بسبب الاستدلال بهذه الروايات الضعيفة والموضوعة أحدث الناس في شهر رجب بدعاً كثيرةً نبَّه عليها أئمة الإسلام وعلماؤه، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيِّم، والشاطبي، وابن رجب ، وابن حجر ومن

المعاصرين: الشيخ علي محفوظ، والشُّقيري، و ابن باز، والألباني وابن عثيمين وغيرهم الكثير من الثقات من علماء الأمة رحم الله من مات وحفظ من هو على قيد الحياة .

ومن ذلك :

١ - ذبح ذبيحة يسمونها (العتيرة)، وقد كان أهل الجاهلية يذبحونها فأبطل الإسلام ذلك، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا عتيرة في الإسلام».[أخرجه أحمد (٢ / ٢٢٩)] ، قال أبو عبيدة : «العتيرة هي الرجبية ذبيحة كانوا يذبحونها في الجاهلية في رجب يتقربون بها لأصنامهم». [فتح الباري لابن حجر (٩ / ٥١٢)] .

وقال ابن رجب:» ويشبه الذبح في رجب اتخاذه موسماً وعيداً «. [لطائف المعارف (٢٢٧)] فربنا قد شرع لنا عيدين لا ثالث لهما الفطر والأضحى فعن أنس قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: ما هذان اليومان؟ قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله قد أبدلكم بهما خيرا منهما يوم الأضحى ويوم الفطر»(صحيح سنن أبي داوود (١١٣٤))

٢ - تخصيص رجب بصيام غيرما يشرع في غيره من الشهور ، من صيام الاثنين والخميس والأيام الثلاثة البيض وصيام يوم وإفطار يوم .

٣ - تخصيص رجب بالصدقة لاعتقاد فضله، والصدقة مشروعة في كل وقت، واعتقاد فضيلتها في رجب بذاته اعتقاد لا دليل عليه .

٤ - تخصيص رجب بعمرة يسمونها (العمرة الرجبية)، والعمرة مشروعة في أيام العام كلها (قاله بمعناه الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في فتاويه مستندا لما قرره الإمام أبو شامة في كتاب البدع والحوادث)

٥- تخصيص رجب بصلاة مخصوصة ، ومثاله : ما يسمونها بصلاة الرَّغائب قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في (مجموع الفتاوى) (٢٣/١٢٣) : صلاة الرغائب بدعة باتفاق أئمة الدين كمالك والشافعي وأبي حنيفة والثوري والأوزاعي والليث وغيرهم والحديث المروي فيها كذب بإجماع لأهل المعرفة بالحديث «

٦- تخصيصه بزيارة قبر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : وزيارة مسجده صلى الله عليه وسلم وقبره مشروع في السنة كلها ، و لم يرد دليل على تخصيص رجب بذلك (أحكام الجنائز للألباني ص ٢٢٣).

٧- الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج في رجب بأي مظهر من مظاهر الاحتفال

وقد أبطل العلماء هذا الاحتفال من وجوه أهمها :

الأول: لم يقم دليل على تعيين ليلته، ولا على شهره « لم يأت في الأحاديث الصحيحة تعيين هذه الليلة فكل ما ورد في تعيينها غير صحيح ولا أصل له « (مجموع الفتاوى(٢٥/٢٩٨))

الثاني: وحتى لو ثبت تعيين تلك الليلة لم يجزْ لنا أن نحتفل فيها، ولا أنْ نُخصِّصها بشيء لم يشرعه الله ولا رسوله.

وخلاصة أقوال المحققين من العلماء أنها ليلة عظيمة القدر، مجهولة العين.

فائدة: لتأصيل هذه الأمثلة التي حذرنا منها وغيرها ينصح بمراجعة (الأصول الجامعة للبدعة) (من كتاب موسوعة الفقه الاسلامي ص٢١٩) ، فقد ذكر أن جميع البدع سواء كانت قولاً، أو فعلاً، أو اعتقاداً، تندرج تحت ثلاث قواعد كلية هي: الخروج على أحكام الدين بالكلية ، أوالتقرب إلى الله بما لم يشرع ، أو فعل الذرائع المباحة ولكنها تؤدي إلى تقرير بدعة (كمن التزم سنة من السنن بشكل يوهم أنها فريضة)

أما عن خلاصة ما نعرفه في المسنون في شهر رجب:

أولا: أنه من الأشهر الحرم كما سبق بيانه ونزيد عليه: قال تعالى :(يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام) أي لا تحلوا محرماته التي أمركم الله بتعظيمها ونهاكم عن ارتكابها فالنهي يشمل فعل القبيح ويشمل اعتقاده ، وقال تعالى: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) التوبة/٣٦ ، قال قتادة:إن الظلم في الأشهر الحُرُم أعظم خطيئة ووِزْرًا من الظلم فيما سواها وإن كان الظلم على كلٍّ حالٍ عظيمًا، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء ، فحرمة انتهاك المحارم فيها أشد من غيرها (تفسير ابن أبي حاتم ٦/١٧٩٣)

ثانيا : أما عن باقي العبادات فرجب شأنه شأن سائر الشهور فإن ازدادت العبادة في رجب عنه في غيره وفي شعبان أكثر من رجب استعداد لشهر رمضان فهو واقع قبله وهذا يفسره قول بعض السلف: السنة مثل الشجرة و شهر رجب أيام توريقها و شعبان أيام تفريعها و رمضان أيام قطفها و الاستعداد لرمضان وهو مشروع كما هو معلوم ولا يتسع المقام لسرد فضله ، ومع ذلك نقول: السلامة لا يعدلها شيء و كما قال الإمام اللالكائي رحمه الله(ت٤١٨) في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/٢٨) بسنده إلى أبيّ بن كعب- رضى الله عنه- قال: « وإنّ اقتصادا في سبيل وسنّة خير من اجتهاد في خلاف ذلك » فاللهم بلغنا رمضان واجعل عملنا كله صالحا ولوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا ، والحمد لله رب العالمين.

من سنن الصيام في شهر شعبان

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

روى الإمام البخاري في صحيحه قال: حَدَّثَنَا مُسْلِمُ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

«لاَ يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدُكُمْ رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمَهُ، فَلْيَصُمْ ذَلِكَ اليَوْمَ».

أولاً: عزو الحديث إلى من خرّجه من الكتب الستة:

١- البخاري، كتاب الصيام، باب لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين(٣/ ٢٨) ح(١٨١٥).

٢- ومسلم (٢/٧٦٢) ح(١٠٨٢) كتاب الصيام، بَابُ لا تَقَدَّمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلا يَوْمَيْنِ.

٣- وأبو داود، (٢/٣٠٠) ح(٢٣٣٥)، كتاب الصيام، باب فيمن يصل شعبان برمضان.

٤- والترمذي،(٢/٦٢) ح(٦٨٤) كتاب الصيام، باب ما جاء؛ لا تقدموا الشهر بصومه.

٥- والنسائي، (٤/١٥٤) ح(٢١٩٠) كتاب الصيام، التسهيل في صيام يوم الشك.

٦- وابن ماجه،(١٦٥٠) كتاب الصيام، باب ما جاء في النهي أن يتقدم رمضان بصوم إلا من صام صومًا فوافقه.

٧- وورد الحديث في كثير من كتب السنة غير الكتب الستة.

ثانيًا: رجال إسناد البخاري

١- مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: الأزدي الفراهيدي (نسبة إلى قبيلته) أبو عَمرو البصري، ثقة مأمون مكثر، عمي باخرة.. وهو أكبر شيخ لأبي داود [تقريب التهذيب (ص: ٥٢٩)، دار الرشيد، تحقيق: محمد عوامة].

٢- هِشَامٌ: هو ابن أبي عبد الله سنبر أبو بكر البصري الدستوائي (كان يتجر في القماش الذي يجلب من دستوا، وهي بليدة من أعمال الأهواز)، ثقة ثبت، وقد رُمي بالقدر (التقريب (ص: ٥٧٣).

فائدة: كيف يكون ثقة ثَبْتًا وقد رُمي بالقدر؟

الجواب: مذاهب أهل العلم في رد حديث أهل البدع أو قبوله محصورة في أربعة مذاهب:

أ- ترك حديثهم مطلقاً.

ب - التفريق بحسب شدة البدعة وخفتها، وفي ذلك يقول ابن رجب: «البدع الغليظة كالتجهم يرد بها الرواية مطلقاً، والمتوسطة كالقدر إنما يُرد رواية الداعي إليها، والخفيفة كالإرجاء، (هل يقبل معها الرواية مطلقاً، أو يرد عن الداعية؟) على روايتين» (شرح علل الترمذي (١ / ٥٦).

ج - التفريق بين الداعي إلى بدعته، وغير الداعي، فيُرَد الأول، ويُقبل الثاني.

وهو منقول عن كثير من أهل الحديث (الكفاية

ص (٢٠٣ ـــ ٢٠٥)، وفي معناه يقول نعيم بن حماد: سمعت ابن المبارك، وقيل له: تركت عمرو بن عبيد وتحدثت عن هشام الدستوائي وفلان، وهم كانوا في عداده؟ قال: «إن عمراً كان يدعو» أي: إلى البدعة. [الضعفاء، للعقيلي (٣ / ٢٧٧)].

د- عدم اعتبار البدعة جَرْحاً مسقطاً لحديث الراوي؛ لما تقوم عليه من التأويل، وإنما العبرة بالحفظ والإتقان والصدق، والسلامة من الفسق والكذب، وعلى هذا يتنزل مذهب من ذهب من كبار الأئمة (ومنهم البخاري) (انظر: الكفاية للخطيب) (ص: ٢٠٠- ٢٠٣)، (وانظر: تحرير علوم الحديث لعبدالله الجديع). فانظروا يا عباد الله إلى فضيلة الصدق، واعتبروا يا أولي الألباب.

٣- يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِير: يحيى بن أبي كثير الطائي، ثقة ثبت، لكنه يُدلس ويُرسل (التقريب) (ص: ٥٩٦).

فائدة:

لماذا خرَّج البخاري ليحيى بن أبي كثير ١٣٦ رواية مع كونه مدلسًا؟

والجواب: ذلك لإمامته وقلة تدليسه بجنب ما روى، لذا كان ممن احتمل الأئمة تدليسه، فخرجوا له في الصحيح، وحملوا روايته على الاتصال، وإن لم يصرح بالسماع، وهو ما أصَّله الحافظ العلائي في جامع التحصيل، ولخَّصه الحافظ ابن حجر في (طبقات المدلسين ص ١٣)، (وينظر: روايات المدلسين في صحيح البخاري لعواد الخلف).

٤- أبو سَلَمَةَ: هو ابن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني، قيل: اسمه عبد الله، وقيل: إسماعيل، ثقة مكثر. [(التقريب (ص: ٦٤٥)].

٥- أبو هُرَيْرَةَ: الصحابي الجليل، رَاوية الإسلام؛ عبد الرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه (وأبو هريرة كُنيته).

فائدة:

ما معنى رواه الجماعة الذي استخدمه ابن حجر مع كل رواة هذا الإسناد في التقريب، ويشار إليه بالرمز(ع)؟

يختلف المراد بهذا المصطلح باختلاف المصنّفين في علم الحديث في تحديده عدداً أو معدوداً:

- فعند بعضهم يُطلق الجماعة على رواة الكتب الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ومثاله كتاب (تقريب التهذيب) كما صرح بذلك الحافظ (التقريب ص٧٦).

- وعند بعضهم يطلق على نفس الرواة السابقين، وذكروا مالكًا ولم يذكروا ابن ماجة، مثل ابن الأثير (ت٦٠٦هـ) في كتابه: جامع الأصول من أحاديث الرسول (١ / ٢٧، ٢٨) بإشراف عبد المجيد سليم، وحامد الفقي، رحمهم الله جميعًا.

- وعند آخرين يُطلق على سبعة من الرواة، وأضافوا الإمام أحمد لرواة الكتب الستة، ومثاله كتاب (المنتقى من أخبار المصطفى . صلى الله عليه وسلم ص(١/ ٣)، بتحقيق محمد حامد الفقي) لأبي البركات، مجد الدين عبد السلام بن تيمية.

وهذا يعني أنه من النظر إلى قصد مؤلفه، وتحديد المراد به لديه.

ويكفي لصحة الحديث أنه متفق عليه .

ثالثا: الشرح

- قوله: باب لاَ يُتَقَدَّمُ رَمَضَانُ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلاَ يَوْمَيْنِ: أي هذا (باب) يذكر فيه..... الخ.

- قوله: (لا يتقدّمن) بنون التوكيد الثقيلة، ويجوز تخفيفها: لا يتقدم المكلف (رمضان) (بصوم يوم ولا يومين)، يعدّ منه بقصد الاحتياط له؛ فإن صومه مرتبط بالرؤية، فلا حاجة إلى التكلف. (إرشاد الساري للقسطلاني (٣/ ٣٥٩) بتصرف).

- قوله: « إلاّ أن يكون رجل كان يصوم صومًا فليصم ذلك اليوم»، وهذا استثناء منقطع «معناه»، لكن إذا كان للصائم أيّام معتادة يصومها آخر الشهر تطوعاً، أو كان نذراً أو قضاءً فصادف آخر شعبان، فلا مانع من صيامه إذن؛ لأن ذلك ليس من جنس الصيام المنهي عنه شرعاً. (منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٢١١).

- والمعنى العام: قال العلماء: معنى الحديث: لا تستقبلوا رمضان بصيام على نية الاحتياط لرمضان، قال الترمذي بعدما أخرجه: والعمل على هذا عند أهل العلم؛ فقد كرهوا أن يتعجل الرجل بصيام قبل دخول

- اعتبر الإمام البخاري وكثير من كبار أئمة الحديث الكذب جَرْحاً مسقطاً لحديث الراوي؛ ولم يعتبر البدعة مثله لما تقوم عليه من التأويل، فانظروا يا عباد الله إلى فضيلة الصدق، واعتبروا يا أولي الألباب.

رمضان لمعنى رمضان اهـ (انظر: فتح الباري - ابن حجر (٤/ ١٢٨).

رابعًا: ما يستفاد من الحديث

أولاً: مسألة فقهية وهي: النهي عن صيام آخر يومين من شعبان:

- دل هذا الحديث على النهي عن صيام آخر يوم من شعبان المسمى بيوم الشك مطلقاً، سواء صامه وحده، أو مع يوم قبله؛ لحديث الباب، ولقول عمار رضي الله عنه: «من صام اليوم الذي يشك فيه الناس فقد عصى أبا القاسم صلى الله عليه وسلم» (الترمذي (٣/ ٧٠)، وقال حسن صحيح، وصححه الألباني).

لذا أخرج الطحاوي عن ابن عباس يقول: «إني لأعْجَبُ من الذين يَصُومُون قبل رمضان، إنما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إذا رأيتم الهلال فصُومُوا، وإذا رأيتموه فأفطِرُوا، فإن غُمَّ عليكم. فَعُدُّوا ثلاثين «مشكل الآثار» (ينظر: فيض الباري على صحيح البخاري (٣/ ٣٣٤) بتصرف).

لكن إن كانت هذه هي دلالة هذا الحديث، فهل هذا النهي حكم فقهي مطلق؟ أم أنه مقيّد بأحوال الصائم؟

والجواب: لا يمكن أن يُقال: إنه نهي مطلق بعد علمنا بورود أدلة أخرى تخالف هذا النهي، والتي منها:

١- الاستثناء في الحديث نفسه، فقوله: (إلا رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمًا فَلْيَصُمْهُ)، هذا الاستثناء يصرف أصل النهي عن التحريم إلى الكراهة.

٢- النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم شعبان أكثره أو كله، كما سيأتي بيانه.

وبالجمع بين هذه السنن (الأدلة) المبيحة وتلك الحاظرة، وإعمالها جميعًا (وهو أوْلى من إهمال أيّ منها) نقول:

- إذا تقدم رمضان بصيام على سبيل الاحتياط لرمضان، فهو المراد من الحديث، وهو نهي تحريم؛ لأن الحدود الشرعية مُحَدَّدة «صُومُوا لِرُؤْيَتِه وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِه»، فمن فعل هذا فقد خالف حدود الله.

- أن يكون ذلك من رجل اعتاد أن يصوم كمن صام شعبان كله كما ذكرت، أو رجل يصوم يومًا ويُفطر يومًا، أو يصوم الاثنين والخميس، أو رجل عليه نذر، والأمر في هذا واسع، والصيام لأجل هذا مباح؛ وذلك لما ورد من أدلة تدل على جواز الصوم، وللاستثناء الوارد في الحديث.

وخلاصة القول: (يختلف حكم صيام هذه الأيام بحسب حال الصائم ونيته) طالما ورد في ذلك سنة صحيحة، وهو ما أفاده شراح الحديث كما تقدم بيانه.

أما عن الحكمة من النهي عن الصيام في حديثنا ففيها أقوال عديدة، أختار منها ما أفاده الحافظ في الفتح، وذكره الصنعاني في سُبل السلام (١٠٤/٤) أن الشارع قد علّق الدخول في صوم رمضان برؤية الهلال، والمتقدم على الهلال احتياطًا لرمضان مخالف للشرع أمرًا ونهيًا، وقد حاول الخروج على هذا الحكم.

ونزيد على هذا أن من مقاصد الشارع أن يرى العبودية من العبد في اتباعه لشرعه، لا أن يرى منه غلوًا حتى ولو كان المقصد خيرًا، وهو ما قررته نصوص الشريعة، وتظاهرت عليه الأدلة المختلفة، كتلك التي تنهى عن الغلو، وغيرها التي تدعوا للاتباع، وغلق باب البدع والزيادة في الدين أو النقص منه.

فلو سُمح للناس أن يتقدموا رمضان بيوم أو يومين لأوشكوا أن يزيدوا في الشريعة، فالعلة الجامعة لكل هذه الحكم هي تحقيق العبودية بتحكيم شرعه، واتباع حكمه.

مسائل لها صلة بالحديث

١- فضل شعبان، والحكمة من إكثار النبي صلى الله عليه وسلم الصيام فيه:

اختلف العلماء فيها على أقوال عديدة، وكل له دليله؛ فمن قائل: تعويضًا عما فاته من صيام البيض طوال العام لسفره، ومن قائل: تشجيعًا لنسائه من أفطرت منهن في رمضان، ولما تقضي بعد حتى أتى عليها شعبان، ومن قائل: يستعد بهذا الصيام لصيام رمضان، وغير ذلك من الأقوال وأرجحها ما صرح به صلى الله عليه وسلم بنفسه حينما سأله أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال:



قلت: يا رسول الله، لِمَ أرك تصوم في شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحببت أن تُرفع أعمالي وأنا صائم»(صحيح سنن النسائي٢٢١) وكذا حسَّن إسناده عبدالقادر الأرناؤوط).

٢- ما هي السنة في صيام شعبان؟ هل يُصام بأكمله؟

والجواب: هناك أحاديث تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم شعبان كله كحديث أبي سلمة أن عائشة حدثته قالت: لم يكن النبي (صلى الله عليه وسلم) يصوم شهراً أكثر من شعبان؛ فإنه كان يصوم شعبان كله. (الجمع بين الصحيحين) (٤/ ١١٤).

وأحاديث تدل على صيامه أغلب شعبان كحديث أبي سلمة عن عائشة قالت: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان، وما رأيته في شهر أكثر منه صياماً في شعبان». [الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم (٤/ ١١٥) السالف ذكره في فضل شعبان].

وللتوفيق بين هذه الروايات نقول: اختلف العلماء في الجمع بين هذه الروايات على أقوال؛ أرجحها ما اختاره الترمذي عن ابن المبارك في السنن (١١٤/٣) فقال ما مفاده: يُحمل قول أم المؤمنين أنه صامه كله أنها أرادت أغلبه، وهو جائز في لغة العرب، وأن الأحاديث التي تفيد الكل والأحاديث التي تفيد الأغلب متفقة، وحاصل مذهب هؤلاء أن رواية عائشة عند مسلم «كان يصوم شعبان إلا قليلا» مفسِّرة للروايات التي دلت على صيام النبي صلى الله عليه وسلم كله، واختاره الحافظ في الفتح (٧٣٢/٤)، ويؤيده رواية أم المؤمنين عائشة في صحيح مسلم: «ولا صام شهرًا قط منذ قدم المدينة غير رمضان».

ولا تعارض بين هذه الروايات وبين حديث الباب «لا تقدموا الشهر بيوم أو يومين...» الحديث؛ فالنهي في حديث الباب محمول على من تعمد صيام يوم أو يومين؛ ليحتاط لرمضان، أما من كان متعودًا صوم أيام من شعبان، فوافق صيامه هذين اليومين، فلا شيء في ذلك، وكما سبق بيانه.

سؤال مهم وارد:

إن كان حديث الباب والذي ينهى أن يتقدم رمضان بصيام يوم أو يومين (وعليه يفيد جواز الصوم قبل اليومين)، فكيف يوفق بينه وبين الروايات الصحيحة التي تنهى عن الصوم بعد منتصف شعبان عمومًا؟ أي: في فترة الجواز المفهومة من حديث الباب (من بعد المنتصف وإلى قبل انتهاء الشهر بيومين)؟

والجواب: لقد ورد في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه، وغيرهم من كتب السنن ما يدل على النهي عن الصيام بعد منتصف شعبان ولفظ الترمذي: «إذا بقي نصف من شعبان فلا تصوموا» (صحيح سنن الترمذي ٥٩٠).

وللتوفيق بين هذه الروايات وحديث الشهر نقول: من كان له ورد فقد أذن له فيه عمومًا سواء قبل اليومين أو خلالهما، وذلك مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم: «إلا أن يوافق صومًا كان يصومه أحدكم»، وهذا ما قرره الإمام النووي في شرحه على مسلم (١٩٤/٧) عندما قال: « فيه النهي عن استقبال رمضان بيوم أو بيومين لمن لم يصادف عادة له، أو يصله بما قبله، فإن لم يصادف عادة أو يصله بما قبله فهو حرام، وهو الصحيح في مذهبنا لهذا الحديث، والحديث الآخر في سنن أبي داود وغيره: «إذا انتصف شعبان فلا صيام...الحديث» فإن وصله بما قبله أو صادف عادة له جاز».

فائدة أختم بها :

هل الأجر على قدر المشقة أم على قدر الإخلاص والمتابعة؟

المشهور على الألسنة: أن الأجر على قدر المشقة، لكن هذه القاعدة ليست على إطلاقها، بل الأجر على قدر الإخلاص والمتابعة، فربما عمل رجل عملا أقل وقد وافق إخلاصًا وسُنَّة فهو من المفلحين، وربما عمل رجل عملاً أشق، وقد خالف ذلك فهو من الخاسرين، وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٧٢) قائلاً: «إنَّ الْمَشْرُوعَ الْمَأْمُورَ بِهِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الِاقْتِصَادُ فِي الْعِبَادَةِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِداً. وَقَالَ: «إنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلَّا غَلَبَهُ فَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا». وَكِلَاهُمَا فِي الصَّحِيحِ. وَقَالَ أبي بْنُ كَعْبٍ: « اقْتِصَادٌ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ اجْتِهَادٍ فِي بِدْعَةٍ « انتهى ، فإذا توفر الإخلاص والمتابعة، وتردد العمل بين اليُسر والمشقة، فالسنة اختيار الأيسر، أما إذا فُرضت المشقة وليس للعبد سعي في استجلابها وتوفيرها، فمع إخلاصه ومتابعته وصبره على المشقة يكون الأجر أعظم، وعظمته على قدر المشقة.

والحمد لله رب العالمين.

من سنن القيام في شهر رمضان

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فقد كان المسلمون -ولا يزالون- يستقبلون شهر رمضان بفائق العناية، ويولونه أشد الاهتمام والرعاية، يستعدون لمقدمه فرحًا، ويستبشرون بحلوله تيمنًا، يبحثون فيه عن سنن نبيهم المهجورة فيحيونها، وعن سبل النجاة المنشودة فيصعدونها -وهم أهل لذلك والحمد لله- فقد قال فيهم حبيبهم صلى الله عليه وسلم: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله و هم كذلك» (متفق عليه).

وإن من أظهر ما يعتني به المسلمون في رمضان عبادة القيام حتى صارت علمًا على الشهر الفضيل بعد الصيام، وإن من تكرم ربنا وامتنانه وفضله وإحسانه أن رزقنا بفيض في ذلك من سنة نبينا، ثم تكرم بفهمها على سلفنا، فال الميراث كله إلينا، ومع شكر النعمة صارت تبعة الحفاظ على ذلك الخير علينا، ومن ذلك ما رواه الإمام الترمذي في جامعه قال:

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

حدثنا هَنَّادٌ حدثنا محمد بن الْفُضَيْلِ عن دَاوُدَ بن أبي هِنْدٍ عن الْوَلِيدِ بن عبد الرحمن الْجَرَشِيِّ عن جُبَيْرِ بن نُفَيْرٍ عن أبي ذَرٍّ قال: صُمْنَا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يُصَلِّ بنا حتى بَقِيَ سَبْعٌ من الشَّهْرِ، فَقَامَ بنا حتى ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ، ثُمَّ لم يَقُمْ بنا في السَّادِسَةِ، وَقَامَ بنا في الْخَامِسَةِ حتى ذَهَبَ شَطْرُ اللَّيْلِ، فَقُلْنَا له: يا رَسُولَ اللَّهِ لو نَفَّلْتَنَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِنَا هذه؟ فقال: إنه مَن قام مع الإمام حتى يَنْصرف كُتِبَ له قيام ليلة. ثُمَّ لم يُصَلِّ بنا حتى بَقِيَ ثَلَاثٌ من الشَّهْرِ، وَصَلَّى بنا في الثَّالِثَةِ، وَدَعَا أَهْلَهُ وَنِسَاءَهُ، فَقَامَ بنا حتى تَخَوَّفْنَا الْفَلَاحَ. قلت له: وما الْفَلَاحُ؟ قال: السُّحُورُ، وزاد أبو داود والنسائي وابن ماجه «ثم لم يقم بنا بقية الشهر». والحديث قال عنه الترمذي أبو عِيسَى: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وكذلك صحح الحديث الشيخ الألباني في تحقيقه لسنن أبي داود وابن ماجه والنسائي، وفي تخريجه للحديث في كتابه (صلاة التراويح).

ثانيًا: عزو الحديث للكتب الستة

- سنن الترمذي (٣/١٦٩)(٨٠٦)، كتاب الصوم، بَاب ما جاء في قِيَام شَهْرِ رَمَضَانَ، ط/دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون).
- سنن أبي داود (٢/٥٠) رقم (١٣٧٥) كتاب الصلاة، باب في قيام شهر رمضان، ط/دار الفكر).
- سنن النسائي الكبرى (٢/١١٤) رقم (١٣٠٠) ترقيم شعيب الأرناؤوط، (ثواب من صلى مع الإمام حتى ينصرف).
- سنن ابن ماجة (١/٤٢٠)، كتاب الصيام، بَاب ما جاء في قِيَام شَهْرِ رَمَضَانَ، ط/دار الفكر).

ثالثًا: ترجمة رَاوي الحديث وباقي رجال الإسناد

- الترمذي: هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (من أهل ترمذ على نهر جيحون)، من أئمة علماء الحديث وحفاظه، وُلد سنة (٢٠٩هـ) تتلمذ للبخاري، وشاركه في بعض شيوخه، وعمي في آخر عمره، وكان يُضرب به المثل في الحفظ، مات بترمذ سنة (٢٧٩هـ). (وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي(١٣/٢٧٣).
- هناد: هو هناد بن السري -بكسر الراء

الخفيفة- بن مصعب أبو السري التميمي، ثقة، من العاشرة مات سنة (٢٤٣هـ). (تقريب التهذيب لابن حجر ج١ ص٥٧٤، ط١/دار الرشيد).

فائدة: ويحذر من الخلط بين السابق وهناد بن السري بن يحيى بن السري التميمي قريب الذي قبله، ثقة من الثانية عشرة مات سنة (٣٣١هـ): أي بعد الترمذي (انظر تقريب التهذيب ص٥٧٤).

- محمد بن الفضيل: محمد بن فضيل بن غزوان بفتح المعجمة وسكون الزاي، صدوق، رُمي بالتشيع، من التاسعة (تقريب التهذيب ج١ ص٥٠٢).

فائدة: كيف يُوثق وقد رُمي بالتشيع؟ ينظر العدد السابق (عدد شعبان) من مجلة التوحيد، فقد أجبنا على مثل هذا باستفاضة.

- داود بن أبي هند القشيري: ثقة متقن، كان يهم بآخر عمره، مات سنة ١٤٠ هجرية. (تقريب التهذيب ج١ ص٢٠٠).

- الْوَلِيد بن عبد الرحمن الْجُرَشِي: بضم الجيم وبالشين المعجمة، ثقة من الرابعة. (تقريب التهذيب ج١ ص٥٨٢).

- جُبَيْر بن نُفَيْر: هو ابن مالك بن عامر الحضرمي، ثقة جليل، من الثانية، مخضرم (أدرك الجاهلية والإسلام). (تقريب التهذيب ج١ ص١٣٨).

يقول الشيخ أحمد شاكر: جامع الترمذي يمتاز بثلاثة أمور لا تجدها في شيء من كتب السنة: يختصر طرق الحديث اختصارًا لطيفًا، يذكر الخلاف في المسائل الفقهية غالبًا، يُعنَى بتعليل الحديث وذكر درجته.

رابعًا: الشرح

يحدثنا أبو ذر رضي الله عنه فيقول: (صمنا مع رسول الله) أي: في رمضان (فلم يصل بنا) أي: لم يصل بنا غير الفريضة من ليالي شهر رمضان، وكان إذا صلى الفريضة دخل حجرته (حتى بقي سبع من الشهر) أي: ومضى اثنان وعشرون يومًا (فقام بنا) أي: ليلة الثالث والعشرين، والمراد بالقيام صلاة الليل (حتى ذهب ثلث الليل) أي: صلى بنا بالجماعة صلاة الليل إلى ثلث الليل، (ثم لم يقم بنا في السادسة) أي: مما بقي، وهي ليلة الرابع والعشرين (وقام بنا في الخامسة) وهي ليلة الخامس والعشرين (حتى ذهب شطر الليل) أي: نصفه.

(فَقُلْنَا له يا رَسُولَ اللَّه: لو نَفَّلْتَنَا بقية ليلتنا هذه) أي: لو جعلت بقية الليل زيادة لنا على قيام الشطر والتنفيل هو الزيادة، وفي النهاية لو زدتنا من الصلاة النافلة سميت بها النوافل؛ لأنها زائدة على الفرائض، و(لو) للتمني (إنه) ضمير الشأن (من قام مع الإمام): أي: من صلى مع الإمام، واختلفوا في المراد بهذه الصلاة، والأرجح أنه نفل قيام الليل، فهذا هو الظاهر (حتى ينصرف) أي: من صلى جماعة مع إمامه حتى ينصرف الإمام كُتب له قيام ليلة، أي: حصل له أجر قيام ليلة تامة.

(ثُمَّ لم يُصَلِّ بِنَا حتى بَقِيَ ثَلَاثٌ من الشَّهْرِ وَصَلَّى بِنَا في الثَّالِثَةِ) لم يصل بنا قيام الليل جماعة (حتى بَقِي ثلاث مَنَ الشهر) أي: ليلة السابع والعشرين والثامن والعشرين والتاسع والعشرين، (وصلى بنا في الثالثة) وهي ليلة السابع والعشرين (ودعا أهله ونساءه) وفي رواية أبي داود جمع أهله ونساءه والناس. (قلت) قائله جبير بن نفير (له) أي لأبي ذر (ما الفلاح؟ قال: السحور) أي: طعام السحور، وسمي فلاحًا لأنه سبب للمعونة على الصيام الذي هو من أسباب فلاحنا. انتهى بتصرف]ينظر: تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي (٤٣٨/٣)، وعون المعبود شرح سنن أبي داوود (١٧٤/٤)[.

فائدة: وهنا سؤال: كيف عرف أن الباقي سبع عندما قال حتى بقي سبع من الشهر؟

ج: قال الطيبي أي: سبع ليال نظرًا إلى المتيقن، وهو أن الشهر تسع وعشرون فيكون القيام في قوله (فقام بنا) أي ليلة الثالث والعشرين، والمراد بالقيام صلاة الليل. [التحفة (٤٣٨/٣)]

(ذكر ما يستفاد من الحديث)

جواز صلاة التراويح جماعة

وردت أحاديث كثيرة تدل على هذا؛ تتنوع ما بين فعله صلى الله عليه وسلم، وإقراره، وبيانه لفضلها، ومن ذلك حديث الباب (حديث أبي ذر) قال الألباني في (صلاة التراويح ص١٧): «والشاهد من الحديث قوله: (من قام مع الإمام حتى ينصرف...)؛ فإنه ظاهر الدلالة على فضيلة صلاة قيام رمضان

مع الإمام».

وإن كانت الجماعة لها هذا الفضل المذكور في الحديث فهل هناك حد معين لركعاتها يمكثه المأموم وراء إمامه لينال فضل الحديث؟

١- لم يرد في حديثنا هذا بيان لعدد الركعات: لكنه قد ورد في حديث جابر رضي الله عنه، والذي يصف لنا نفس الصلاة وفيه: أنه صلى الله عليه وسلم صلى بهم ثماني ركعات والوتر...) قال الألباني في صلاة التراويح: سنده حسن. وأشار الحافظ في الفتح وفي التلخيص إلى تقويته، وكذلك في غيره من الأدلة.

٢- اتفق أهل العلم على أن رسول الله ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة: ففي الصحيحين من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة رضي الله عنها: كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: (ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة؛ يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثا.. الحديث) (صحيح البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨»، فهذا الحديث الصحيح نص صريح في هذا. (قاله ابن عبد البر في الاستذكار (٢٣٦/٥)، (وفي أحكام قيام الليل لسليمان العلوان (ص: ١٢) ط١/دار الإيمان) (وانظر: كتاب فقه السنة مع تمام المنة (٢٥٢/١)».

٣- ثم اختلفوا بعد ذلك في جواز الزيادة على ما ورد، وكان سبب هذا الخلاف هو ما صح عند بعضهم من فعل بعض الصحابة كعمر وعثمان وعلي، وقد أفاض الشيخ الألباني في تحقيق هذه المسألة، فنقل قولهم: «وصح أن الناس كانوا يصلون على عهد عمر وعثمان وعلي عشرين ركعة»، ثم علق عليه قائلاً: أما عن عثمان فلا أعلم أحدًا روى ذلك عنه، ولو بسند ضعيف.

وأما عمر وعلي فقد روي ذلك عنهما بأسانيد كلها معلولة.. وإن الذي صح عن عمر رضي الله عنه بأصح إسناد مطابق لسنته صلى الله عليه وسلم التي روتها عائشة في حديثها سالف الذكر، فقد روى مالك في «الموطأ» عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: «أمر عمر بن الخطاب أبي بن كعب وتميمًا الداري أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة» (فقه السنة مع تمام المنة (٢٥٢/١)، (صلاة التراويح ص ١٩ وما بعدها، فقد حققه بإسهاب)، (وانظر: الموطأ بشرح الزرقاني (٢٣٨/١»، ولم يأت عن أحد منهم شيء صحيح يخالف هذا.

وإن كان العمل بالأفضل والأرجح مطلباً من مطالب الشريعة إلا أن المسائل الخلافية التي حُفظ فيها الخلاف تُعد مسائل اجتهادية لا يُبَدَّع فيها المخالف.

وخلاصة القول

وبعدما نضيف إلى ما سبق أن العمل بالأفضل مطلب من مطالب الشريعة، وقد بُينت السنة بفعل النبي صلى الله عليه وسلم الذي داوم عليه حتى فارق الحياة، وجرى عليه عمل أصحابه من بعده: أن قيام الليل إحدى عشرة ركعة في رمضان وغيره، ولم يصح عن أحد منهم غير هذا، فنقول: هذه هي السنة التي ترجحت لدينا، والله أعلم.

لكننا نقول: والقول الآخر ليس ببدعة

إن ترجيح هذا القول لا يجعل القول الآخر بدعة أو ضلالة، فالمسألة اجتهادية، والخلاف فيها محفوظ فقد قال بجواز الزيادة الأئمة الأربعة وابن المبارك والليث والجمهور لاسيما وقد بقيت أمامنا بعض العموميات التي قد تبيح الزيادة على إحدى عشرة ركعة، وترفع عنها الحرج، كقول النبي صلى الله عليه وسلم عندما سُئل عن قيام الليل فقال: «مثنى مثنى، فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلى» متفق عليه (البخاري (١١٣٧)، ومسلم (٧٤٩» بل وما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه زاد فصلى ثلاث عشرة ركعة.

وعليه: فإن تيسر لنا متابعة الإمام حتى ينصرف مع المحافظة على العدد الوارد عن نبينا كانٍ أفضل، وإلا فلا تُترك فضيلة هذه المتابعة رفضًا لهذه الزيادة؛ لما ورد من أدلة عامة تبيحها، وللحفاظ على عدم الخلاف، والله أعلم. (وانظر: كتاب فصول في الصيام والتراويح والزكاة لابن عثيمين رحمه الله (ص١٦-١٧)».

فائدة تربوية:

يقول الشيخ الألباني في كتابه (صلاة التراويح) عندما تحدث عمن خالفهم في قولهم بجواز الزيادة فقال هو بعدم جوازها: ولا يخطر في بال مسلم أن أحدًا من المسلمين يرميهم بالابتداع في الدين حاشاهم ذلك، بل هم مأجورون على كل حال كما بيناه مرارًا، كيف وهم الذين لهم الفضل في إرشادنا إلى ما دل عليه الكتاب والسنة».

فائدة: إن كان هذا هو عدد ركعات صلاة التراويح، فهل هناك حدّ للقراءة في كل ركعة؟

والجواب: يجوز القراءة بأي قدر من القرآن تصح به الصلاة (راجع: باب الفقه في مجلة التوحيد (صفة صلاة النبي)، وورد في فقه السنة (٢٠٧/١، ٢٠٨) «ليس في القراءة في قيام رمضان شيء مسنون، وورد عن السلف أنهم كانوا يقرءون بالمائتين (قلت: هكذا في الأصل والصواب بالمئين)، ويعتمدون على العصي من طول القيام، قال ابن قدامة: قال أحمد «يقرأ بالقوم في شهر رمضان ما يخف على الناس، ولا يشق عليهم، ولاسيما في الليالي القصار»، وقال القاضي: لا يستحب النقصان من ختمة في الشهر ليسمع الناس جميع القرآن، ولا يزيد على ختمة؛ كراهية المشقة على مَن خلفه، والتقدير بحال الناس أولى، فإنه لو اتفق جماعة يرضون بالتطويل كان أفضل، كما قال أبو ذر: «قمنا مع النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى خشينا أن يفوتنا الفلاح، يعني السحور».

وفي مصنف عبد الرزاق (٢٦١/٤) عن الثوري عن القاسم عن أبي عثمان قال: أمر عمر بثلاثة قراء يقرءون في رمضان، فأمر أسرعهم أن يقرأ بثلاثين آية، وأمر أوسطهم أن يقرأ بخمس وعشرين، وأمر أدناهم أن يقرأ بعشرين»، وعليه فالضابط في القراءة هو مراعاة أحوال الناس طالما أنه كله في نطاق السنة المطهرة.

فائدة: الأفضل أن تُصلى التراويح في أول الليل أم في آخره؟

لقد تقرر لدى أهل العلم أن جماعة التراويح بعد صلاة العشاء مباشرة هي سنة المسلمين التي اعتادوا عليها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا في عهد القرون الثلاثة المفضلة:

فقد ذكر الإمام أبو داود رحمه الله تعالى في [المسائل ص٦٢]: «سمعتُ أحمد - الإمام أحمد بن حنبل - قيل له: يعجبك أن يصلي الرجل مع الناس في رمضان أو وحده؟! قال: يصلي مع الناس. وسمعته أيضا يقول: يعجبني أن يصلي مع الإمام ويوتر معه؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ الرجل إذا قام مع الإمام حتى ينصرف كتب الله له بقية ليلته»، ثم قال أبو داود: «قيل لأحمد وأنا أسمع: يؤخر القيام - يعني التراويح - إلى آخر الليل؟! قال: لا، سنة المسلمين أحبّ إليَّ».

ولا يستدل البعض بعبارة عمر رضي الله عنه (وهي في البخاري): «والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون»، أي: الصلاة في جوف الليل -التي ينامون عنها- أفضل من الصلاة في أول الليل التي يقومونها؛ لأن عمر الذي قال هذا يعلم ذلك فلا بد أن لكلامه تأويلاً، كأن يُقال: يُحمل قوله على من صلى منفردًا، والصحابة رضي الله عنهم يعلمون ذلك، ولم ير أحدٌ منهم أن تقام صلاة التراويح جماعة في آخر الليل، بل بقي الأمر على ما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولو كانت صلاة التراويح جماعة في المسجد أفضل في جوف الليل لما تأخر عن هذه الفضيلة الصحابة الكرام؛ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره [١٥٧/٤]: «لو كان خيراً لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا بادروا إليها».

قلت: ومعيار فهم النصوص العامة تطبيق الصحابة لها.

نصيحة لها تعلق بالحديث:

بعض محبي الخير يتعمد صلاة العشاء في مسجد، ثم يخرج منه تاركًا التراويح للبحث عن مسجد آخر، ولا يخفى ما في ذلك من مخالفة لسنة هذا الحديث (من صلى وراء إمامه حتى ينصرف)، غير أننا ننبّه على أن الأوْلى للمسلم ألا يتنقل بين المساجد، وليصل مع إمام مسجده، ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليصل أحدكم في مسجده، ولا يتتبع المساجد) أخرجه الطبراني (١٣٣٧٣) وجوّد إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٠٠).

قال ابن القيم في إعلام الموقعين (١٤٨/٣):».. نهى الرجل أن يتخطى المسجد الذي يليه إلى غيره، وذكر حديث ابن عمر بلفظ (.. ولا يتخطاه إلى غيره)، وما ذاك إلا لأنه ذريعة إلى هجر المسجد الذي يليه، وإيحاش صدر الإمام، وإن كان الإمام لا يتم الصلاة أو يُرْمَى ببدعة أو يُعلن بفجورٍ؛ فلا بأس بتخطيه إلى غيره».اهـ.

هذا ونذكّر أنفسنا وإخواننا بالإخلاص، وتقوى الله أبدًا، لاسيما في هذا الشهر الذي تكثر فيه الأعمال الظاهرة، والحمد لله رب العالمين.

صفة الأولياء

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فإن من دلائل عبودية العبد وإذعانه أن يؤمن بما جاء من وحي في كتاب الله أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بلا تعصب أو تمسك برأي موروث، وحول ذلك تثار قضايا عديدة بين مؤيد ومعارض، والحق هو الوسط، والوسط هو السُّنَة، ومن ذلك ما ورد في كرامات الأولياء وطريق الولاية.

إعداد
د. مرزوق محمد مرزوق

يقول الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: حَدَّثَني مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ بْن كَرَامَةَ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلاَلٍ، حَدَّثَني شَرِيكُ بْنُ عَبْد اللَّه بْنِ أَبِي نَمِر، عَنْ عَطاء، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّه قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْب، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدي بِشَيْء أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْه، وَمَا يَزَالُ عَبْدي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِل حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتي يَمْشي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَني لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَني لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْء أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدي عَنْ نَفْس المُؤْمن، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ".

أولًا: التخريج

هذا الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع (٨/ ١٠٥)(٦٥٠٢).

ثانيا: رجال الإسناد

١- مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ بْن كَرَامَةَ: من صغار شيوخ البخاري، وقد شاركه في كثير من شيوخه منهم خالد بن مخلد شيخه في هذا الحديث، فقد أخرج عنه البخاري كثيرًا بغير واسطة منها في باب الاستعاذة من الجبن في كتاب الدعوات، وهو ثقة من الحادية عشرة (تقريب التهذيب ج١ ص٤٩٦) [وانظر الفتح ص (١/ ٤٠٠)].

٢- خَالِدُ بْنُ مَخْلَد: خالد بن مخلد القطواني بفتح القاف والطاء أبو الهيثم البجلي مولاهم الكوفي صدوق يتشيع، وله أفراد، من كبار العاشرة مات سنة ثلاث عشرة وقيل بعدها (تقريب التهذيب ج ١ ص ١٦٦٣) كبار شيوخ البخاري روى عنه، وروى عن واحد عنه.

فائدة حديثية:

هذا الحديث تفرد بإخراجه البخاري دون بقية أصحاب الكتب..

وهو من غرائب الصحيح، فرواه البخاري عن محمد بن عثمان بن كرامة عن خالد بن مخلد القطواني، وقد تكلم فيه الإمام أحمد وغيره، وقالوا: له مناكير، وقال أبو حاتم: لا يُحتج به، وقد قال ابن عدي فيما

نقله عنه ابن حجر في الفتح: "هذا حديث غريب جدًا، ولولا هيبة الصحيح لعدوه في منكرات خالد بن مخلد".

الجواب: قال الحافظ في فتح الباري مجيبًا عن رواية البخاري لخالد بن مخلد: أما التشيع فقد قدمنا أنه إذا كان ثبت الأخذ والأداء لا يضره، لا سيما ولم يكن داعية إلى رأيه، وأما المناكير فقد تتبعها أبو أحمد بن عدي من حديثه وأوردها في كامله، وليس فيها شيء مما أخرجه له البخاري، بل لم أر له عنده من أفراده سوى حديث واحد وهو حديث أبي هريرة (من عادى لي وليًا) الحديث، وروى له الباقون سوى أبي داود، وقد نقل ابن حجر توثيق العجلي وغيره، وأن هذا ليس من منكرات خالد بن مخلد. (انظر: الفتح ١/ ٤٠٠).

٣- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ: سليمان بن بلال التيمي مولاهم أبو محمد وأبو أيوب المدني ثقة من الثامنة مات سنة سبع وسبعين. (تقريب التهذيب ج ١ ص ٢٥٣٣).

٤- شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِر: أبو عبد الله المدني صدوق يخطئ من الخامسة مات في حدود أربعين ومائة (تقريب التهذيب ج ١ ص ٢٧٧٨).

٥- عَطَاءٍ: هو ابن يسار الهلالي أبو محمد المدني مولى ميمونة، ثقة فاضل، صاحب مواعظ وعبادة، من صغار الثانية، مات سنة أربع وتسعين وقيل بعد ذلك. (تقريب التهذيب ج ١ ص ٤٥٩٦.

٦- أبو هريرة الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر المعروف بأبي هريرة، وانظر ترجمته في أسد الغابة (٢/ ٢٠٠) وغيره من كتب التراجم..

ثالثًا: أهمية هذا الحديث

هو حديث قدسي، من كلام الله عز وجل، وللرسول أن يتصرف في ألفاظه بخلاف القرآن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الحديث: "هو أشرف حديث رُوي في صفة الأولياء" ((الفتاوى)) (١٨/ ١٢٩)، ونقل ابن حجر في فتح الباري عن الطوفي أنه قال: هذا الحديث أصل في السلوك إلى الله والوصول إلى معرفته ومحبته وطريقه؛ إذ المفترضات الباطنة وهي الإيمان، والظاهرة وهي الإسلام، والمركب منهما وهو الإحسان فيهما كما تضمنه حديث جبريل، والإحسان يتضمن مقامات السالكين من الزهد والإخلاص والمراقبة وغيرها. اهـ (الفتح: ١١ / ٣٤٥).

ولأهميته عُني بشرحه علماء الإسلام قديمًا وحديثًا لما اشتمل عليه من جوانب سلوكية كالحث على فعل الفرائض ثم النوافل وأخرى عقدية

> المراد بولي الله: العالم بالله، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته، وهذه صفة المؤمن التقي.

كإثبات صفة المحبة لله عز وجل، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأنه يتفاضل بالأعمال، فذكره الأئمة في كتب العقائد، واختاره الإمام النووي في الأربعين حديثا التي عليها مدار الدين، وأفرد الشوكاني شرحه في كتاب سمَّاه (قطر الولي بشرح حديث الولي).

رابعًا: الشرح

-" مَنْ عَادَى لِي وَلِيًا " المعاداة ضد الموالاة، والولي ضد العدو، المُراد بوَلِيِّ الله: العَالم بالله، المُوَاظب عَلَى طَاعَته، المُخْلص في عِبَادَته؛ وهذه صفة المؤمن التقي؛ ومعنى قوله: " عَادَى لِي وَلِيًا " أَيْ: اتَّخَذَهُ عَدُوًا.

-" فَقَدْ آذَنْته بالْحَرْب " أَيْ: أَعْلَمْته أنه محارب لي؛ فيتعرض لإهْلَاكِي إيَّاهُ، قلت: ثم ذكر أسباب الولاية فقال: "وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْت عَلَيْه " يَدْخُل تَحْت هَذَا اللَّفْظ جَمِيع فَرَائض الْعَيْن وَالْكِفَايَة، وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ أَدَاء الْفَرَائض أَحَبُّ الْأَعْمَال إِلَى الله ؛ لأن في الْإِتْيَان بالْفَرَائض عَلَى الْوَجْه الْمَأْمُور به امْتِثَال الْأَمْر، وَاحْتِرَام الْآمِر وَتَعْظِيمُهُ بالانْقِيَاد إِلَيْه، وَإِظْهَار عَظَمَة الرُّبُوبِيَّة، وَذُل الْعُبُودِيَّة ؛ فَكَانَ التَّقَرُّبُ بذَلِكَ أَعْظَم الْعَمَل.

-" وَمَا يَزَال يَتَقَرَّب إِلَيَّ " التَّقَرُّب: طَلَبُ الْقُرْب " بالنَّوَافِل حَتَّى أُحِبَّه " الْمُرَاد بالنَّوَافِل جَمِيع مَا يُنْدَب مِنْ الْأَقْوَال وَالْأَفْعَال، وَالمعنى: إِنَّهُ إِذَا أَدَّى الْفَرَائض وَدَامَ عَلَى إِتْيَان النَّوَافِل مِنْ صَلَاة وَصِيَام وَغَيْرهمَا أَفْضَى بِهِ ذَلِكَ إِلَى مَحَبَّة الله تَعَالَى.

-" كُنْت سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به " قيل: المَعْنَى كليَّته مَشْغُولة بي فَلا يُصْغي بِسَمْعه إلا إلى ما يُرْضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمَرْتُه به" ولَئِنْ سألني لأعْطِيَنه": أي ما سأل؛ " ولَئِنْ استَعاذني لأعيذَنَّه" أي: مما يخاف؛ فهذا المحبوبَ المقرَّب، له عند الله منْزلة خاصة تقتضي أنَّه إذا سأل الله شيئًا، أعطاه إياه، وإن استعاذ به من شيء، أعاذه منه، وإن دعاه أجابه، فيصير مجابَ الدعوة لكرامته على ربه " وما تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْء أنا فاعلُهُ تَرَدُّدي عَنْ نَفْس المُؤمن يكْرَهُ المَوْتَ وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ " أخبرَ أنَّه يكرَهُ المَوْتَ ويَسُوؤُه، ويكْرَهُ الله مَساءَتَهُ ؛ قيل: هذا خطابٌ لنا بما نَعْقل، والرَّبُّ مُنَزَّهٌ عَنْ حقيقته، بَلْ هُوَ مِنْ جِنْس قَوْله: " ومَنْ أتاني يَمْشي أتيْتُه هَرْوَلَة "؛ وقد عَبَّرَ ابن رجب في شرحه للحديث عَنْ هَذا بقوله: لما كان الموت بهذه الشدَّة، والله تعالى قد حتَّمه على عباده كلهم، ولابدَّ لهم منه، وهو تعالى يكرهُ أذى المؤمن ومساءته، سمَّى ذلك تردُّدًا في حق المؤمن. اهـ [انظر (جامع العلوم) حديث رقم (٣٨) (١/ ٣٧٥)، وشرح السنة للبغوي (ج ٢ / ص ٣٨٠)، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (ج ٣٣ / ص ٢٨٨)].

خامسًا: ما يُستفاد من الحديث:

فائدة: في ثبوت الولاية ومعناها:

أما عن ثبوتها فهي ثابتة بلفظ الحديث، ومن قبل ذلك في كتاب الله، وأما عن معناها فقال شيخ الإسلام في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (٥/١): والولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد، وقد قيل: إن الولي سمي وليًا من موالاته للطاعات أي متابعته لها والأول أصح. اهـ

ولله ولاية عامة كما في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام-٦٢]، وهي في جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم.

وولاية خاصة: وهي لأهل الحق والإيمان ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة-٢٥٧]، وتطلق على المعان والمعين، فقد ذكر أبو الهلال العسكري في الفروق اللغوية (٥٧٧/١) في معنى الولي فقال: أن الولي يجري في الصفة على المعان والمعين، تقول: الله ولي المؤمنين أي معينهم، والمؤمن ولي الله أي المعان بنصر الله عز وجل، ويقال أيضا: المؤمن ولي الله والمراد أنه ناصر لأوليائه ودينه، ويجوز أن يقال: الله ولي المؤمنين بمعنى أنه يلي حفظهم. اهـ.

من هم أولياء الله؟

يقول الشوكاني رحمه الله في (تحفة الذاكرين):

> المحبوبَ المقرَّب له عند الله منْزلة خاصة تقتضي أنَّه إذا سأل الله شيئًا، أعطاه إياه، وإن استعاذ به من شيءٍ، أعاذه منه .

" المعيار الذي تُعرف به صحة الولاية، هو أن يكون عاملاً بكتاب الله سبحانه وبسنة رسوله- صلى الله عليه وسلم - مؤثراً لهما على كل شيء، مقدماً لهما في إصداره وايراده، وفي كل شؤونه، فإذا زاغ عنهما زاغت عنه ولايته"، وبذلك نعلم أن طريق الولاية الشرعي ليس سوى محبة الله وطاعته واتباع رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وأن كل من ادعى ولاية الله ومحبته بغير هذا الطريق، فهو كاذب في دعواه.(انتهى بتصرف) .

فائدة: الفرائض أحب إلى الله وأعظم أجرًا عنده من النوافل :

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في تعليقاته على الأربعين النووية (٧٧/١) في تعليقه على قوله: وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه قال: يعني: ما عبدني أحد بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه. اهـ

وقال ابن دقيق العيد في شرح الأربعين النووية (١٠٠/١): فيه إشارة إلى أنه لا تقدم نافلة على فريضة، وإنما سميت النافلة نافلة إذا قضيت الفريضة وإلا فلا يتناولها اسم النافلة؛ لأن التقرب بالنوافل يكون بتلو أداء الفرائض. اهـ

وقال ابن حجر في الفتح: قال بعض الأكابر: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور. اهـ

فائدة:

استشكل كيف يكون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره.. إلخ؟

الجواب: قال الحافظ في الفتح نقلا عن الإمام الطوفي: اتفق العلماء ممن يعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد. (انظر: فتح الباري (٤٠١/١).

وقال ابن رجب رحمه الله في (جامع العلوم والحكم ج٢/ص٥٨٠): (فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل؛ فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله؛ أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعينا بالله في ذلك كله.

قال شيخ الإسلام في (مجموع الفتاوى ج٢/ ص٣٤١): (وهذا الحديث يحتج به أهل الوحدة، وهو حجة عليهم من وجوه كثيرة: منها: أنه قال: "من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة" فأثبت نفسه ووليه ومعادي وليه؛ وهؤلاء ثلاثة، ثم قال: "وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه" فأثبت عبدا يتقرب إليه بالفرائض ثم بالنوافل). انتهى.

وقال العطار في (حاشيته على جمع الجوامع ج٢/ ص٥١٧): (والمراد: أن الله تعالى يتولى محبوبه في جميع أحواله، فحركاته وسكناته به تعالى). انتهى.

قال العلامة الحكمي في (معارج القبول ج١/ ص٢٠٦) نقلاً عن الإمام ابن رجب في (جامع العلوم والحكم): (وليس معنى ذلك أن يكون جوارح للعبد؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا، وإنما المراد: أن من اجتهد بالتقرب إلى الله عز وجل بالفرائض ثم بالنوافل قرَّبه إليه؛ ورقَّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان؛ فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه؛ حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهداً له بعين البصيرة؛ فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره؛ فإن نطق نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظرَ به، وإن بطش بطش به). انتهى.

قلت: وكلها معان جائزة أن تُفهم من الحديث، وكلها والحمد لله بعيدة عما قال الحلولية.

فائدة: في معنى التردد الوارد في الحديث:

قوله (وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته)؛ قال الحافظ في الفتح (٣٤٥/١١): قال الخطابي التردد في حق الله غير جائز والبداء (أي: ظهور رأي لم يكن ظاهرًا قبل ذلك) عليه في الأمور غير سائغ، ولكن له أوجه:

- أحدهما: أن العبد قد يشرف على الهلاك في أيام عمره من داء يصيبه وفاقه تنزل به فيدعو الله فيشفيه منها، ويدفع عنه مكروهها فيكون ذلك من فعله كتردد من يريد أمرًا ثم يبدو له فيه فيتركه ويعرض عنه.

- وقال الكلاباذي ما حاصله أنه عبر عن صفة الفعل بصفة الذات أي عن الترديد بالتردد وجعل متعلق الترديد اختلاف أحوال العبد من ضعف ونصب إلى أن تنتقل محبته في الحياة إلى محبته للموت فيقبض على ذلك، قال: وقد يحدث الله في قلب عبده من الرغبة فيما عنده والشوق إليه والمحبة للقائه ما يشتاق معه إلى الموت فضلاً عن إزالة الكراهة عنه، فأخبر أنه يكره الموت ويسوؤه ويكره الله مساءته فيزيل عنه كراهية الموت لما يورده عليه من الأحوال، فيأتيه الموت وهو له مؤثر واليه مشتاق.

- ثالثا: وهو احتمال أن يكون معنى التردد اللطف به كأن الملك يؤخر القبض، فإنه إذا نظر إلى قدر المؤمن وعظم المنفعة به لأهل الدنيا احترمه فلم يبسط يده إليه، فإذا ذكر أمر ربه لم يجد بدًا من امتثاله.

- رابعا: وهو أن يكون هذا خطابًا لنا بما نعقل والرب منزه عن حقيقته، بل هو من جنس قوله: (ومن أتاني يمشي أتيته هرولة) فكما أن أحدنا يريد أن يضرب ولده تأديبًا فتمنعه المحبة وتبعثه الشفقة فيتردد بينهما ولو كان غير الوالد كالمعلم لم يتردد بل كان يبادر إلى ضربه لتأديبه، فأريد تفهيمنا تحقيق المحبة للولي بذكر التردد، وجوّز الكرماني احتمالاً آخر وهو أن المراد أنه يقبض روح المؤمن بالتأني والتدريج بخلاف سائر الأمور فإنها تحصل بمجرد قول كن سريعًا.

- ويحتمل أن تكون المساءة بالنسبة إلى طول الحياة لأنها تؤدي إلى أرذل العمر وتنكس الخلق والرد إلى أسفل سافلين.

وفي الختام: أوصي نفسي وإخواني بتقوى الله فهي وصية الله للأولين والآخرين، وهي طريق موالاة العبد لربه ومولاه، قال تعالى: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ» [النساء: ١٣١]، والحمد لله رب العالمين.

رحمة الله الواسعة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

الرحمة صفة عظيمة عامة من صفات الرحمن الرحيم يظهر أثرها على وجه الكمال إن شاء الله تعالى يوم الدين، وتعم الصالحين والطالحين من المرحومين من المؤمنين؛ حين يغفر الله سبحانه وتعالى ذنوب المذنبين ويعفو عن خطايا الخاطئين من الموحدين المتبعين للكتاب والسنة.

وقد سبقت رحمتُه غضبَه، ورضاه سخطه، وعفوُه انتقامه، وهو أحق بذلك وأولى، وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة صحيحة.

إعداد
د. مرزوق محمد مرزوق

من ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه قال:

حدثنا الْحَكَمُ بن نَافِعٍ الْبَهْرَانِيُّ أخبرنا شُعَيْبٌ عن الزُّهْرِيِّ أخبرنا سَعِيدُ بن الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قال سمعت رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ في مِائَةِ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ في الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ؛ حتى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عن وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».

أولاً: عزو الحديث

* صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٢٣٦ رقم (٥٦٥٤) كتاب الأدب، باب جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ في مِائَةِ جُزْءٍ. ط / بيروت (دار ابن كثير).

* صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٠٨، رقم ٢٧٥٢، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي كتاب التوبة، باب في سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ.

ثانيا: رجال الإسناد

* الْحَكَمُ بن نَافِعٍ الْبَهْرَانِيُّ: هو أبو اليمان الحمصي مشهور بكنيته، ثقة ثبت (تقريب التهذيب ج ١ ص ١٤٥٨)، والبهراني نسبة إلى قبيلة من قضاعة (ينظر فتح الباري ج ١٠ ص ٤٣١).

* شُعَيْبٌ: هو ابن أبي حمزة الأموي واسم أبيه دينار أبو بشر الحمصي، ثقة عابد (تقريب التهذيب ج ١ ص ٢٧٩٤).

* الزُّهْرِيِّ: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، أبو بكر، الفقيه الحافظ، متفق على جلالته وإتقانه، وهو من رءوس الطبقة الرابعة، مات سنة خمس وعشرين، وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين (تقريب التهذيب (ج ٢ / ص ١٣٣».

فائدة وتنبيه:

يحذر من اختلاط إمامنا هذا مع ابن أخيه الإمام محمد بن عبد الله بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري المدني بن أخي الزهري، صدوق لكن له أوهام، من السابعة مات سنة اثنتين وخمسين وقيل بعدها (ينظر: تقريب التهذيب ج ١ ص

٦٠٤٥).

سَعِيدُ بن الْمُسَيَّب: التابعي الجليل سعيد بن المسيب أحد العلماء الأثبات الفقهاء الكبار من كبار الثانية، اتفقوا على أن مرسلاته أصح المراسيل، وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علما منه، مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين. (تقريب التهذيب ج ١ ص ٢٣٨٩).

أبو هريرة: الصحابي الجليل عبدالرحمن بن صخر، وانظر ترجمته في الأعداد السابقة.

ثالثاً: الشرح

(جعل الله الرحمة في مائة جزء): قال ابن أبي جمرة: يحتمل أن يكون سبحانه وتعالى لما من على خلقه بالرحمة جعلها في مائة وعاء، فأهبط منها واحدًا للأرض (فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا): أخّر عنده تسعة وتسعين رحمة (وأنزل في الأرض جزءا واحدا): أنزل منها في الأرض رحمة واحدة بين الخلق جميعا (فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه): فبهذا الجزء يتعاطفون، وبه تعطف الوحش على ولدها والوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض.

وقال ابن أبي جمرة: خص الفرس بالذكر؛ لأنها أشد الحيوان المألوف الذي يعاين المخاطبون حركته مع ولده، ولما في الفرس من الخفة والسرعة في التنقل، ومع ذلك تتجنب أن يصل الضرر منها إلى ولدها، (وأن تصيبه)، مصدرية أي: خشية الإصابة. (يُنظر: (عمدة القاري ج ٢٢ ص ١٠٢)، «شرح صحيح البخاري لابن بطال ج ٩ ص ٢١٣)، «فتح الباري ج ١٠ ص ٤٣٢».

رابعاً :ما يستفاد من الحديث

١- المراد بالرحمة في الحديث

(قال ابن حجر: الرحمة رحمتان: رحمة من صفة الذات، وهي لا تتعدد، ورحمة من صفة الفعل وهي المشار إليها هنا، وقال أيضًا: وفيه إشارة إلى أن الرحمة التي في الدنيا بين الخلق تكون فيهم يوم القيامة يتراحمون بها أيضًا، وصرح بذلك المهلب، فقال: الرحمة التي خلقها الله لعباده وجعلها في نفوسهم في الدنيا هي التي يتعاطفون بها يوم القيامة التبعات بينهم، قال: ويجوز أن يستعمل الله تلك الرحمة فيهم فيرحمهم بها سوى رحمته التي وسعت كل شيء، وهي التي من صفة ذاته، ولم يزل موصوفا بها فهي التي يرحمهم بها زائدا على الرحمة التي خلقها لهم، قال: ويجوز أن تكون الرحمة التي أمسكها عند نفسه هي التي عند ملائكته المستغفرين لمن في الأرض؛ لأن استغفارهم لهم دالّ على أن في نفوسهم الرحمة لأهل الأرض. (فتح الباري ج ١٠ ص ٤٣٢).

ويفهم مما سبق أن الحديث يحتمل وجهين

الأول: أن إضافة الرحمة في الحديث إلى الله جل وعلا إضافة المخلوق لخالقه، فالرحمة هنا ليست صفة لله جل وعلا، إنما هي أثر الصفة كقوله تعالى: « فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »[الروم:٥٠]، وما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»، وأمثلة ذلك كثيرة، فإضافة الرحمة هنا إضافة المفعول إلى فاعله؛ فتكون مفعولاً لله مخلوقا لهَ، وهي من أثر صفة الرحمة الذاتية.

وعلى هذا الوجه يمكن أن يُفهم ما يلي:

أولهما: أن تكون التسعة وتسعين رحمة المذكورة في الحديث أعيان قائمة بذاتها يرحم الله بها المؤمنين يوم القيامة، كحوض النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من آثار رحمة الله الذاتية فكل هذه أعيان مخلوقة يرحم الله بها المؤمنين.

الثاني: أن تكون التسعة وتسعين رحمة هذه يجعلها الله في قلوب المؤمنين يتراحمون بها فيما بينهم.

الثالث: أن تكون التسعة والتسعين موزعة بين الأول

إن رحمة الله تعالى الواسعة هي رباط بين الله وعباده فبسببها أرسل رسله وأنزل كتبه، وبها هداهم، وبها يسكنهم دار ثوابه.

والثاني.

أما الوجه الثاني:

أن تكون الرحمة المضافة إلى الله جل وعلا في رواية مسلم: «إن لله مائة رحمة....» إضافة معاني (وصف لموصوف) أي: الرحمة الذاتية غير المخلوقة، وتكون رواية البخاري «إن الله خلق الرحمة...»، ورواية الصحيحين: «جعل الله الرحمة...» بمعنى قدَّر وصير، أي: بمعنى أظهر تقديره وصير من رحمته مائة رحمة.

قال القرطبي: يجوز أن يكون معنى « خلق « اخترع وأوجد، ويجوز أن يكون بمعنى قدر، وقد ورد خلق بمعنى قدر في لغة العرب، فيكون المعنى أن الله أظهر تقديره لذلك يوم أظهر تقدير السماوات والأرض. (ينظر الفتح: ١٠/٤٣٢).

ومن المعلوم أن صفات الله جل وعلا لا تتجزأ، وأن رحمة الله لا حد لها فيكون « مائة جزء..» و«مائة رحمة...» من باب تقريب الفهم وبيان مدى سعة رحمة الله جل وعلا، فيكون ذلك على سبيل التمثيل تسهيلا للفهم وتقليلا لما عندنا وتكثيرا لما عند الله جل وعلا، ويكون قوله صلى الله عليه وسلم « ... (قاله الطيبي بمعناه وانظر: تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي ج ٨ / ص ٤٣٨).

٢- المسلم يتقلب بين الخوف والرجاء

هذا الحديث ذكره البخاري بمعناه أيضاً في كتاب الزهد باب الخوف والرجاء، فكما أن رحمة الله واسعة فغضب الله شديد، قال في حديث الشفاعة عند البخاري من حديث أبي هريرة (٣/١٢١٥) على لسان بعض أنبيائه: (إن ربي غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله)، لكن من رحمة الله وامتنانه وعفوه وإحسانه أن رحمته تغلب غضبه كما في صحيح البخاري (٣٠٢٢) من حديث أبي هريرة.

لكن يبقى سؤال: هل ذكر هذا الحديث وما في معناه مما يدفع للعمل ويرشد العبد لصالحه أم مما يجعل العبد يتكل فيجره لما هو عكس ذلك.

الجواب: لا شك أن ذلك مما يفيد العبد من وجوه:

أولها: أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي بشر العباد بهذا ولم يحذر من التحديث بذلك.

ثانيا: أنه من المعلوم أن مما يحفز المرء هو تبشيره وإسعاده.

ثالثا: أن ذكر هذه الأحاديث هو مما يحافظ على التوازن بين الخوف والرجاء الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، فلا ندع الفرصة للمخالفين أن يخوفوا الناس ويرهبونهم بنصوص الخوف فقط فيقنطونهم، وكذلك لا تذكر أحاديث الرجاء فقط دون الإشارة لأحاديث الخوف فيتكل الناس ويتركوا العمل. والآثار الدالة على ذلك كثيرة فأذكر نفسي وإخواني بمراجعتها في مظانها من كتب العقائد والحديث والتربية.

من أهم أسباب استجلاب رحمة الله : التوبة إليه وإن إمهال الله عز وجل لعباده ليتوبوا لهو دليل على سعة رحمته.

٣- رحمة الذخرة للمؤمنين فقط، وهذا يدل على أهمية تعلم التوحيد وتجنب الوقوع في نواقضه:

قال الحافظ: ويفهم من هذا أن الكفار لا يبقى لهم حظ من الرحمة لا من جنس رحمات الدنيا ولا من غيرها إذا كمل كل ما كان في علم الله من الرحمات للمؤمنين، واليه الإشارة بقوله تعالى (فسأكتبها للذين يتقون) الآية (فتح الباري ج ١٠ ص ٤٣٢).

وقال أيضًا: وفيه الحث على الإيمان واتساع الرجاء في رحمات الله تعالى المدخرة. (فتح الباري ج ١٠ ص ٤٣٣).

٤- رحمة الله علاقة سامية بين العبد وربه:

إن رحمة الله سببٌ رباط بين الله وعباده، فبسببها أرسل رسله إليهم، وأنزل كتبه عليهم، وبها هداهم، وبها يسكنهم دار ثوابه، وبها يرزقهم ويعافيهم وينعم عليهم: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » [يونس: ٥٧ -٥٨].

فبرحمته سبحانه شرع لهم شرائع الأوامر والنواهي، بل برحمته جعل في الدنيا ما جعل من الأكدار حتى لا يركنوا إليها فيرغبوا عن نعيم الآخرة، ولعل هذا المعنى مما دفع البخاري أن يضع الحديث بمعناه في كتاب الزهد، وبهذه الرحمة أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالرحمة؛ فهو نبي الرحمة للعالمين أجمعين: «وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » [الإسراء: ١٠٥]، وقال تعالى: « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ » [آل عمران:١٥٩]، وقال تعالى: « لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » [التوبة:١٢٨].

٥- رحمة الله تُرجَى بتحقيق العبودية:

ورحمة الله تُرجَى بطاعته وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والاستقامة على الإسلام، قال تعالى: (وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [آل عمران: ١٣٢]، كما تستجلب بتقوى الله: «وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » [الحجرات:١٠]، « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » [الحديد:٢٨]، فالرحمة تحصل للمؤمنين المهتدين بحسب هداهم؛ فكلما كان نصيب العبد من الهدى أتم كان حظه من الرحمة أوفر، والعبد بذنوبه وتقصيره فقير إلى رحمة الله: «لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » [النمل:٤٦].

٦- ورحمة الناس دليل من دلائل العبودية والامتثال:

فمن أعظم ما تُستجلب به رحمة الله: الرحمة بعباده، ففي الحديث الصحيح: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» رواه أبو داود والترمذي.

والمؤمن قوي الإيمان يتميز بقلب حي مرهف لين رحيم، يرق للضعيف، ويألم للحزين، ويحنو على المسكين، ويمد يده إلى الملهوف، وينفر من الإيذاء، ويكره الجريمة، فهو مصدر خير وبر وسلام لما حوله ومن حوله.

وعن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس» متفق عليه.

وعن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تُنزع الرحمة إلا من شقي» رواه أحمد والترمذي، (ينظر: يقظة أولي الاعتبار ج١ص ٢٤٢).

٧- آفة من الواقع

ومن أخطر آفات الدعوة إلى الله: ادعاء نوع من البشر ولايتهم على الناس يقطبون عن جبينهم، وقد ظنوا أنهم بما عندهم من علم أو بما قدموه من عبادة قد صاروا حكامًا على عباد الله.

فعند مسلم: عن جندب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حدَّث أن رجلاً قال: «والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله - تعالى - قال: مَن ذا الذي يتألى عليَّ ألا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك».

إن الذي يزعم هذا لهو عقليةٌ لم يكتمل لها نور الرسالة السماوية، والتشريع الرباني والمنهج الإلهي الذي أنزله الله -عز وجل- إلى سيد الأوَّلين والآخرين، وقد أشرقت النصوص قرآنًا وسنة وفهمًا لسلفنا الصالح بما لا يجحده إلا مغبون، نسأل الله العافية للجميع.

٨- المهم أن تبدأ

أيها الحبيب! إن إمهال الله عز وجل لنا لنتوب دليل على سعة رحمته، فينبغي للمسلم أن يتلمس مواضع رحمة الله تعالى وألا يكون من الغافلين.

ومن أهم أسباب الرحمة وأجلّ المقامات مقام التوبة إلى الله، والذي ينبغي ألا يفارق المسلم أبدا ، والله تبارك وتعالى يحب ذلك من عبده، فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «إن الله - عز وجل - يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «يقول الله - عز وجل -: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ هم خيرٌ منهم، وإن تقرَّب إلي شبرًا، تقرَّبت إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم، وبعد:

لقد رفع الله - عز وجل - سنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى المقام الأسمى، والمحل الأرفع، إذ أوكل إليه - صلى الله عليه وسلم - مع مهمة البلاغ، وظيفة التبيين، فقال تعالى: «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» [النحل:٤٤].

فكل ما شرعه - صلى الله عليه وسلم - للأمة فهو بيان منه عن الله، ولا فرق بين ما يبلغ عنه من كلامه المتلو (القرآن) وبين وحيه (السنة) الذي هو نظير كلامه في وجوب الاتباع، ومخالفة القرآن حينئذ كمخالفة السنة.

ولقد دلت السنة نفسها وأرشدت بل أوجبت هذا المعنى في غير ما حديث، ومن ذلك ما رواه أبو داود في سننه والترمذي في جامعه وابن ماجه من أصحاب الكتب الستة وغيرهم من أصحاب كتب السنة الأخرى:

قال الترمذي: حدثنا عَلِيُّ بن حُجْر حدثنا بَقِيَّةُ بن الْوَليد عن بجير بن سَعْد عَن خَالد بن مَعْدَانَ عن عبد الرحمن بن عَمْرو السُّلَمِيِّ عن الْعِرْبَاض بن سَارِيَة قال: «وَعَظَنَا رسول الله صلى الله عليه وسلم يَوْمًا بَعْدَ صَلاَة الْغَدَاة مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ منها الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ منها الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هذه مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يا رَسُولَ الله؟

قال: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ؛ فإنه من يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّهَا ضَلاَلَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذلك مِنْكُمْ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ».

قال أبو عيسى: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وقد رَوَى ثَوْرُ بن يَزِيدَ عن خَالد بن مَعْدَانَ عن عبد الرحمن بن عَمْرو السُّلَمِيِّ عن الْعِرْبَاض بن سَارِيَةَ عن النبي صَلى الله عليه وسلم نَحْوَ هذا، حدثنا بِذَلِكَ الْحَسَنُ بن عَلِيٍّ الْخَلاَّلُ، وَغَيْرُ وَاحِد قَالُوا: حدثنا أبو عَاصِم عن ثَوْرِ بن يَزِيدَ عَنْ خَالد بن مَعْدَانَ عن عَبْدِ الرحمن بن عَمْرو السُّلَمِيِّ عن الْعِرْبَاض بن سَارِيَةَ عن النبي صَلى الله عليه وسلم نَحْوَهُ، وَالْعِرْبَاض

بن سَارِيَةَ يُكْنَى أَبَا نَجِيح، وقد رُوِيَ هذا الْحَدِيثُ عن حُجْر بن حُجْر عَنْ عِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم نَحْوَهُ.

أولا: تخريج الحديث:

١- رواه الترمذي في جامعه (ج ٥ ص ٤٤، حديث ٢٦٧٦)، ط: دار إحياء التراث العربي، كتاب العلم، بَاب ما جاء في الْأَخْذ بالسُّنَّة وَاجْتِنَاب الْبِدَع، وذلك من طريقين إلى العرباض رضي الله عنه:

أ- قال حدثنا عَلِيُّ بن حُجْر حدثنا بَقِيَّةُ بن الْوَلِيد عن بجير بن سَعْد عنْ خَالد بن مَعْدَانَ عن عبد الرحمن بن عَمْرٍو السُّلَمِيِّ عَنْ الْعِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ.

ب- وقال: حدثنا بِذَلِكَ الْحَسَنُ بن عَلِي الْخَلَّالُ وَغَيْرُ وَاحِد قالوا: حدثنا أبو عَاصِم عن ثَوْر بن يَزِيد عن خَالد بن مَعْدَانَ عن عبد الرحمن بن عَمْرو السُّلَمِيِّ عن الْعِرْبَاض بن سَارِيَة.

٢- ورواه أبو داود بسنده إلى العرباض بن سارية رضي الله عنه، كتاب السنة، باب في لزوم السنة (ج ٤ ص ٢٠٠، حديث ٤٦٠٧)، ط/ دار الفكر.

٣- ورواه ابن ماجه بسنده إلى العرباض بن سارية رضي الله عنه من طريقين إلى عبدالرحمن بن عمرو عنه، بَاب اتِّبَاع سُنَّة الْخُلَفَاء الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، (ج ١ ص ١٧) رقم (٤٣)،(٤٦).

ثانيًا: رجال الإسناد:

وسنعتمد في دراستنا للحديث على أحد طريقي الترمذي، وهو طريقه عن ثَوْر بن يَزِيد عن خَالد بن مَعْدَانَ عن عبد الرحمن بن عَمْرو السُّلَمِيِّ؛ لأن طرق الحديث الأخرى جميعها لا تسلم من مقال، وقد سلمت هذه الطريق، والحمد لله.

١- الحسن بن علي بن محمد الهذلي، أبو علي الخلال الحلواني بضم المهملة نزيل مكة، ثقة حافظ، مات سنة اثنتين وأربعين (تقريب التهذيب ج ١ ص ١٢٥٤)، ط١/دار الرشيد.

٢- الضحاك بن مخلد بن الضحاك بن مسلم الشيباني، أبو عاصم النبيل البصري، ثقة ثبت، من التاسعة، مات سنة اثنتي عشرة أو بعدها (تقريب التهذيب ج ١ ص ٢٩٧٧).

٣- ثور بن يزيد: أبو خالد الحمصي، ثقة ثبت، إلا أنه يرى القدر مات سنة خمسين (تقريب التهذيب ج ١ ص ٨٥٩).

٤- خالد بن معدان: خالد بن معدان الكلاعي الحمصي أبو عبد الله ثقة عابد يرسل كثيرًا، مات سنة ثلاث ومائة وقيل بعد ذلك (تقريب التهذيب ج ١ ص ١٦٦٣).

٥- عبد الرحمن بن عمرو بن عبسة السلمي الشامي مقبول مات سنة عشر ومائة (تقريب التهذيب ج ١ ص ٣٩٥٥).

٦- العرباض: صحابي جليل من أعيان أهل الصفة، سكن حمص، روى عنه عبد الرحمن بن عمرو السلمي وعدة، وكان من البكائين، نزلت فيه وفي أمثاله (تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ) (سير أعلام النبلاء ج٣ ص٤٢٠)، ط٩ /دار الرسالة، ت: شعيب الأرناؤوط . محمد نعيم العرقسوسي) (وانظر: حلية الأولياء لأبي نعيم ج٢/ص١٣).

ثالثًا: درجة الحديث:

الحمد لله: الحديث صحيح من هذا الطريق، وقد صححه جمع غفير من أهل العلم من القدامى والمحدثين والمعاصرين غير الترمذي، ومن هؤلاء الأئمة: أحمد بن حنبل عندما احتج

إن كل ما شرعه - صلى الله عليه وسلم - للأمة هو بيان منه عن الله تعالى، ولا فرق بين ما يبلغه عن الله من كلامه المتلو (القرآن) وبين وحيه غير المتلو (السنة)؛ فكلاهما واجب الاتباع، ومخالفة السنة حينئذ كمخالفة القرآن.

بالحديث على تسمية ما فعله الخلفاء الراشدون سنة (نقله عنه أبو داود في المسائل (ص:٣٦٩)، وأبو بكر البزار فيما نقله عنه بسند صحيح ابن عبد البر -ووافقه- في جامع بيان العلم وفضله (١١٦٥/٢)، وأبو بكر بن المنذر في الأوسط (٢٢٥/١) والحاكم في المستدرك (١٧٤/١)، وأبو نعيم الأصبهاني في (المسند المستخرج على صحيح مسلم (١ / ٣٦) والبغوي (في شرح السنة (٢٠٥/١) والجوزقاني في الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير (٤٧٣/١)، ومن مشاهير المتأخرين شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (٨٣/٢)، ومن المعاصرين الشيخ الألباني والشيخ ابن باز رحمهم الله جميعًا.

هذا فضلاً عن أن الأمة قد تلقت هذا الحديث بالقبول والتسليم، وكلام الأئمة في ذلك كثير جداً، ومنهم على سبيل المثال؛ الأئمة: المروزي في كتابه السنة (ص:١٤)، وابن خزيمة في صحيحه (٤ / ٣٢٥)، والطحاوي في كتابه مختصر اختلاف العلماء (١٠٦/٥)، والبربهاري في شرح السنة (ص:٩٥)، وأبو سليمان الخطابي في معالم السنن (٣٠١/٤)، وغيرهم الكثير، والحمد لله.

فائدة:

بعض من توهم ضعف الحديث من هذا الطريق ضعّفه لجهالة عبدالرحمن بن عمرو - بالنسبة له - تقليدًا لابن القطان في كتاب الوهم والإيهام (٨٩/٤) حينما قال: (فالرجل مجهول الحال، والحديث من أجله لا يصح).

ويمكن الجواب على ذلك بما يلي:

- ابن القطان بنى تضعيفه للحديث على عدم وجود تصريح بالتوثيق في الراوي، وهو منهج ابن القطان كما صرح بذلك الذهبي في الميزان، وعدم وجود توثيق في راو معين ليس دليلاً على جهالته، فتصحيح الأئمة لحديث الراوي دليل على عدم جهالته، وقد صحح الحديث جمع غفير من النقاد، قال الذهبي في الميزان (٥٥٦/١): وهذا شيء كثير، ففي الصحيحين من هذا النمط خلق كثير مستورون، ما ضعفهم أحد ولا هم بمجاهيل».

- هذا فضلاً عما قاله الذهبي في الكاشف (٦٣٨/١) عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي: «صدوق»، وقال أبو الفضل العراقي في ذيل ميزان الاعتدال (ص:١٤٦): الرجل معروف العين والحال معًا.

شرح الحديث

قوله: (وعظنا) الوعظ: هو التذكير المقرون بالترغيب أو الترهيب. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخول أصحابه بالموعظة، ولا يكثر عليهم؛ مخافة السآمة.

قوله: (وجلت منها القلوب) - أي: خافت.

(وذرفت منها العيون) أي: بكت حتى ذرفت دموعها.

(إن هذه موعظة مودع) بإضافة، فإن المودِّع بكسر الدال عند الوداع لا يترك شيئًا مما يهم المودَّع بفتح الدال أي كأنك تودعنا بها؛ لما رأى من مبالغته صلى الله عليه وسلم في الموعظة.

(فماذا تعهد إلينا؟) - أي: فأوصنا - لأن موعظة المودِّع تكون موعظة بالغة قوية فأوصنا.

(قال: أوصيكم بتقوى الله عز وجل)، وهذا من فقه الصحابة رضي الله عنهم أنهم اقتنصوا هذه الفرصة ليوصيهم النبي صلى الله عليه وسلم بما فيه خير.

قال: (أوصيكم بتقوى الله عز وجل)، وتقوى الله اتخاذ وقاية من عقابه بفعل أوامره واجتناب

لقد توافرت النصوص الشرعية وتلاقت معها الأدلة العقلية التي دلت على حُجية السنة النبوية ، فلا يبقى بعد ذلك مجال لحاقد ولا حجة لجاهل، اللهم إلا إن كان كبرًا وعنادًا، فقد أوكل الله لنبيه مع مهمة البلاغ وظيفة التبيين.

نواهيه وهذا حق الله عز وجل.

(والسمع والطاعة) يعني لولاة الأمور أي: اسمعوا ما يقولون وما به يأمرون، واجتنبوا ما عنه ينهون.

(وان عبد حبشي) أي: وان تأمَّر عليكم عبد حبشي كما في رواية الأربعين للنووي، أي صار أميرا أدنى الخلق فلا تستنكفوا عن طاعته، أو لو استولى عليكم عبد حبشي فأطيعوه مخافة إثارة الفتن، ووقع في بعض نسخ أبي داود (وان عبدا حبشيا) بالنصب أي وان كان المطاع عبدًا حبشيًا.

(وان تأمر عليكم عبد) يعني وان كان الأمير عبداً فاسمعوا له وأطيعوا. وهذا هو مقتضى عموم الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قوله: (فإنه من يعش منكم) أي: من تطول حياته فسيرى اختلافاً كثيراً، ووقع ذلك كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد حصل الاختلاف الكثير في زمن الصحابة رضي الله عنهم، ثم أمر صلى الله عليه وسلم بأن تُلْتزم سُنَّتُه أي طريقته، وطريقة الخلفاء الراشدين المهديين. والخلفاء الذين خلفوا النبي صلى الله عليه وسلم في أمته علماً وعبادة ودعوة وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

(المهديين) وصف كاشف؛ لأن كل راشد فهو مهدي، ومعنى المهديين الذين هُدُوا، أي: هداهم الله عز وجل لطريق الحق.

(عضوا عليها بالنواجذ) وهي أقصى الأضراس، وهو كناية عن شدة التمسك بالسنة.

ثم حذر النبي صلى الله عليه وسلم من محدثات الأمور فقال: (إياكم) أي: أحذركم من (محدثات الأمور)، وهي ما أحدث في الدين بلا دليل شرعي.

ولما أمر بلزوم السنة والحذر من البدعة، قال: (فإن كل بدعة ضلالة)، قال الحافظ ابن رجب في كتاب جامع العلوم والحكم: فيه تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة، وأكد ذلك بقوله كل بدعة ضلالة». (انظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري ج ٧ ص ٣٦٦، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ١/١٦٠، وشرح الأربعين النووية للشيخ ابن عثيمين رحمه الله).

أدرك أعداء الإسلام أهمية السنة النبوية بالنسبة للإسلام، وأنه بالتشكيك فيها والنَّيل منها يكون التشكيك والنيل من القرآن الكريم بل من الإسلام نفسه، فكان من شأنهم الاجتهاد في هدم هذا الحصن وصولاً لهدم هذا الدين.

ما يستفاد من الحديث

وفيه نتناول:

١- الفائدة العامة من الحديث وأثره في الحفاظ على كيان الأمة.

٢- حُجية السنة، والرد على شبهات المخالفين حولها.

٣- الأحاديث الصحيحة والتي طعن فيها المخالفون لجهلهم بها أو لحقدهم على السنة، كحديث رضاع الكبير، وحديث سحر النبي صلى الله عليه وسلم، وحديث وقوع الذباب في الإناء، وما يتيسر من أحاديث صحيحة مما يتسع له المقام، وكذلك الرد على قصة الغرانيق المفتراة والتي افتراها الجاهلون على النبي صلى الله عليه وسلم والتي يتشدق بها مقلدوهم في هذه الأيام. ثم نختم بسنة الخلفاء وحجيتها، ثم بأهم نتائج البحث حول حجية السنة، وهو ما سوف نتناوله في الحلقات القادمة إن شاء الله تعالى بحسب ما يتيسر، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



ليس دفاعاً عن السنة.. ولكن حفظًا لكيان الأمة



إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.. وبعدُ:

فلقد شرعنا في الحلقة السابقة في تناول حديث العرباض بن سارية رواية وشرحا برواية الترمذي رحمه الله -: عن الْعِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ قال: «وَعَظَنَا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة... الحديث «.. وفيه: «فعليكم بسُنَّتي». قال أبو عيسَى الترمذي: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وانتهينا إلى أن العلماء حكموا على الحديث بالصحة، والحمد لله، وأن الحديث حجة بنفسه في الأمر باتباع السنة، ثم نواصل في هذه الحلقة عرض أهم ما يُستفاد من الحديث.

بيان: وقد اخترت هذا العنوان (ليس دفاعا عن السنة..) لأبين للقارئ الكريم أن دفاعنا عن السنة في هذه الحلقات ليس لمجرد الدفاع، فالسنة لا تحتاج منا إلى ذلك؛ لأننا عندنا مائة برهان أن الله حفظ السنة الصحيحة كما حفظ القرآن، لكننا أردنا من هذا الدفاع أن نقول: إن الحفاظ على كيان الأمة مرتبط بتمسكها ودفاعها عن سنة نبيها، والحمد لله.

أولا: نظرة عامة على الحديث:

إن الناظر إلى سياق الحديث المبارك ليرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدلنا في هذا الحديث على أهم أصول منهج النجاة في الدنيا والآخرة، وأولها: (تقوى الله) عندما قال لمن سأله الوصية- والكلام للأمة جميعًا-: إن أردتم النجاة فعليكم بتقوى الله التي هي وصية الله للأولين والآخرين قال تعالى: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ» (النساء: ١٣١)، والتقوى هي المنهج العام الشامل لكل شرائع الدين من توحيد رب العالمين، واتباع سنة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فهو منهج النجاة لكم في الدنيا والآخرة، والكلام في معنى التقوى كثير، وكان من أحسن ما قيل فيها: أنها الواقي من معصية الله، وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال:

خل الذنوب صغيرها

وكبيرها ذاك التقي

واصنع كماش فوق

أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة

إن الجبال من الحصى

وأصل آخر من أصول النجاة:

ثم تكلم عن أصل آخر من أصول هذا المنهج الشرعي العام والتي بها تنتظم أمور الحياة واللازمة للاستعداد

ليوم الممات، وهي السمع والطاعة لأولياء الأمور بالمعروف؛ حتى لا تحدث الفوضى ويتصارع الناس وتفسد أولاهم وربما أخراهم؛ بسبب صراعهم وعدم استقرارهم، وقد وجّه القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا » (النساء: ٥٩).

وفي تعليقه على الحديث يقول ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ج١ ص٢٦٢): «وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد... إلخ». اهـ.

ولأهمية هذه الوصية:

ولأهمية هذه الوصية وصى النبي صلى الله عليه وسلم بها في حجة الوداع في خطبته بها كما خرجه الإمام أحمد والترمذي وصححه الألباني من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع يقول: «اتقوا الله، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة مالكم، وأطيعوا أمرائكم تدخلوا جنة ربكم» [الصحيحة ٨٦٧].

والأصل الثالث: خطورة البدعة الشرعية ومعناها:

ثم أكد الحديث على أصل آخر من أصول منهج النجاة العام والنابع من تقوى الله وهو ترك البدع.

وفي تأصيله لمفهوم البدعة وحكمها يقول ابن رجب (ت٧٩٥هـ): «والمراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا، وإن كان بدعة لغة، وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»... فقوله صلى الله عليه وسلم: «كل بدعة ضلالة»، من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»، فكل من أحدث شيئا ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة، وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد وخرج ورآهم يصلون كذلك فقال: نعمت البدعة هذه». اهـ.

ولا يفهم من كلامنا أننا ننكر كل اجتهاد أو عمل مبتدأ، وإنما ننكر منه ما ليس له أصل في الكتاب والسنة، ويقرر هذا المفهوم ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) في اقتضاء الصراط المستقيم (الجزء ٢ ص ٩٥) بقوله: «وقد عُلم أن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «كل بدعة ضلالة» لم يرد به كل عمل مبتدأ، فإن دين الإسلام بل كل دين شرع جاءت به الرسل هو عمل مبتدأ، وإنما أراد ما ابتدأ من الأعمال التي لم يشرعها هو صلى الله عليه وسلم». (ولمزيد من بحث البدعة يراجع باب السنة لشهر رجب ١٤٣٥هـ بالمجلة).

والى هنا قد تتم الفائدة من الحديث، لكن الله عز وجل والذي يوحي إلى نبيه بما يقول يعلم من حال الناس وهو القائل جل ذكره: « أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ » (الملك:١٤) يعلم أن الناس يحتاجون إلى تفصيل بعد إجمال، وإلى حسم للأمور لا يحتاج بعده إلى مقال، وهنا يأتي التأكيد على دور السنة مرة أخرى بأمره صلى الله عليه وسلم باتباعها بقوله: «عليكم بالسنة».

- قال ابن رجب: «وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم... وذكر من الأمور المهمة التي يلونها: الجمعة والجماعة، والعيد، والثغور والحدود، فلا تستقيم الأمور إلا بهم».

وقد أنكر قوم حجية السنة، وعللوا هذا بعلل كان من أظهرها وأشهرها ما يلي:

١- طعن بعضهم في مفهومها ابتداء فتمسكوا بالمعنى اللغوي الذي هو الطريقة؛ - حسنة كانت أم قبيحة -؛ وذلك ليهدموا مفهوم السنة بالمعنى الشرعي والذي هو طريقة النبي وأصحابه، وبالتالي يهدموا حُجيتها من أصلها، فلا تكون مصدرًا للتشريع مع القرآن، وهي مدرسة بدعية كبيرة قديمة حديثة.

٢- وقال آخرون: نحن نكتفي بالقرآن ففيه غُنية وكفاية، وبعضهم جعل

عقله ضابطًا للقبول والرد.

٣- وطرح بعضهم شبهات أخرى عدة نختصر عرضها حين الرد عليها إن شاء الله.

١- ولمناقشة الطائفة الأولى الأخطر نقول: هلا بحثتم مفهوم السنة في اللغة والاصطلاح واستعمال الإسلام لها، وعرفتم كيف استعملها الإسلام بالمعنى اللغوي، ثم استعملها بمعنى اصطلاحي شرعي يتفق مع المعنى اللغوي ويخصصه فيصبح الأخير هو المشروع؟!

معنى السنة في اللغة:

أما السنة في اللغة فتطلق على عدة معان من أكثرها تداولاً، والتي تمسك بها المنكرون للسنة المهمشين لها: أنها وردت بمعنى الطريقة، سواء حسنة كانت أم سيئة. [ينظر: لسان العرب ١٣ /٢٢٥ .

وقد استعملها الإسلام بهذا الإطلاق في القرآن وفي السنة النبوية على لسان النبي صلى الله عليه وسلم

قال تعالى « وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا » (الكهف: ٥٥) أي: تأتيهم طريقة الأولين.

وفي السنة النبوية قال صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع». (مسلم ٢٦٦٩)، أي: لتتبعن طرق من كان قبلكم.

قلت: وعليه فقد أقر الإسلام المعنى اللغوي لهذا المفهوم.

تعريف السنة في الاصطلاح:

يختلف تبعًا لاختلاف أغراض العلماء من بحوثهم حسب تخصصاتهم المختلفة، فيختلف تعريفها عند المحدثين عنه عند الأصوليين، عنه عند الفقهاء، لكنهم في النهاية يلتقون جميعا في معنى واحد كما سيتضح إن شاء الله.

ونكتفي بما ذهب إليه جمهور المحدثين كما قرره ابن رجب في (جامع العلوم والحكم ٢/ ١٢٠) و ذهب إليه من الفقهاء أيضًا الإمام أبو حنيفة « كما في أصول السرخسي (١/ ٣١٣)؛ وهي - أي السنة- أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخَلقية والخُلقية، وسائر أخباره سواء كان ذلك قبل البعثة أم بعدها، وكذلك أقوال الصحابة وأفعالهم.

وقد استعمل الإسلام مفهوم السنة أيضا بمعناها الاصطلاحي الشرعي في القرآن وفي السنة النبوية على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، ودليل ذلك كثير نذكر منه:

١- في القرآن:

لقد ذُكرت السنة في القرآن الكريم كثيراً بلفظ الحكمة، قال تعالى: «هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ » (الجمعة:٢)

قال الحسن وقتادة: الكتاب: هو القرآن، والحكمة هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. (انظر: الفقيه والمتفقه ١/ ٨٨).

وقال الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى -: «ذكر الله الكتاب، وهو القرآن، وذكر الحكمة فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سُنة رسول الله». [الرسالة ص ٧٩، ٧٨ .

قلت: وفي ذلك رد من قال: إن السنة بمعناها الاصطلاحي الشرعي لم تُذكر في القرآن؛ ليهدمها من جذرها وينفى حجيتها.

٢- في السنة النبوية:

ورد لفظ السنة كثيراً على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك على ألسنة الصحابة، وهي تعني عندهم الطريقة المشروعة المتبعة في الدين، والمنهج النبوي الحنيف، والشواهد على هذا كثيرة جداً، منها:

- حديث العرباض الذي بين أيدينا: وعليه علق المباركفوري في تحفة الأحوذي (ج ٣ ص ٤٠) قال: قال القاري في المِرْقَاة: «فعليكم بسنتي: أي طريقتي وسيرتي القويمة التي أنا عليها، مما فصلته لكم من الأحكام الاعتقادية والعملية، الواجبة والمندوبة وغيرها».

- عن حذيفة قال: «حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم

- من خطورة البدع: أنها نوع من أنواع الخروج على المنهج النبوي بالرأي المخالف له، فبسببها يقع التخلف عن التزام هدي الكتاب والسنة وفهوم الراسخين من الأئمة، ومن ثم فلا يتصور وحدة للأمة واجتماعها إلا على الكتاب والسنة، وليس على هذه البدع مهما ادعى أصحابها.

- حديثين، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة....» [البخاري رقم (٦٤٩٧)].

وفي تعليقه عليه قال ابن حجر في (فتح الباري: ٣٩/١٣): قوله: (ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة): فيه إشارة إلى أنهم كانوا يتعلمون القرآن قبل أن يتعلموا السنن، والمراد بالسنن ما يتلقونه عن النبي صلى الله عليه وسلم واجباً كان أو مندوباً). اهـ.

قلت: ومن الحديثين السابقين وغيرهما الكثير ظهر لنا أن لفظ (السنة) بمعناها الشرعي الواسع كان معلوما للنبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والسلف الصالح عليهم رضوان الله فلا يبقى حجة لمن حصر معناها في المعنى اللغوي أنها طريقة حسنة أو قبيحة لينفى حجيتها.

وخلاصة القول:

إن السنة معناها في اللغة «الطريقة» سواء كانت سيئة أو حسنة، وقد استعملها الإسلام بمعناها اللغوي كما رأينا في الآيات والأحاديث السابقة، ثم خصصها الإسلام بطريقة النبي وطريقة أصحابه كما ورد في تعريف السنة اصطلاحاً، ودليل التخصيص هو ورودها بهذا المعنى الشرعي في القرآن وفي الأحاديث النبوية كما سبق عرضه، فهذه الكلمة انتقلت من معناها اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي (سنة رسول الله الشاملة لأقواله وأفعاله وتقريراته...) وهى بهذا المعنى مصدر تشريعي ملازم للقرآن الكريم لا ينفك أحدهما عن الآخر..

والسؤال: إذا وردت الكلمة بمعنيين معنى لغوي وآخر شرعي كيف نجمع بينهما عند التعارض؟!

الجواب: في جوابه على ذلك يقول أبو هلال العسكري في كتابه معجم الفروق اللغوية ص١٩: أن الاسم الشرعي: ما نقل عن أصله في اللغة فسمى به فعل أو حكم حدث في الشرع نحو الصلاة والزكاة والصوم والكفر والإيمان والإسلام، وما يقرب من ذلك، وكانت هذه أسماء تجري قبل الشرع على أشياء، ثم جرت في الشرع على أشياء أخر، وكثر استعمالها حتى صارت حقيقة فيها، وصار استعمالها على الأصل مجازاً، ألا ترى أن استعمال (الصلاة) اليوم في الدعاء مجاز، وكان هو الأصل» ا.هـ.

قلت: وكلام أبي هلال السابق ذكره يحتاج إليه إذا توهم التعارض بين المعنيين.

والحق أنه لا تعارض بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي لمن كان له قلب

فبالنظر نجد أن الاستعمال اللغوي والاستعمال الاصطلاحي الشرعي للسنة مؤداه في النهاية إلى معنى واحد جامع لكلا المعنيين وهو الطريقة المتبعة في الدين والتي تماثل ما كان عليه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وهذا في حقيقته هو المعنى الاصطلاحي والذي يشتمل في طياته على كل التعاريف الاصطلاحية للعلماء إلا أن أهل كل اختصاص قد نظروا إلى السنة من الزاوية التي تعنيهم من حيث تخصصهم وموضوع علمهم؛ لأن سنة المصطفى من قول، أو فعل، أو تقرير أو... إلخ. طريقة متبعة عند المؤمنين ليس لهم خيرة في أمرهم، كما قال رب العزة «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا» (الأحزاب: ٣٦)، وانظر: الحديث النبوي للدكتور محمد الصباغ ص١٣٩).

وختامًا: ومن كل ما سبق تبين لنا أنه لا حجة لكل من ادعى من منكري السنة من أن مفهوم السنة بمعناها الاصطلاحي الشرعي - والذي هو حجة وواجب الاتباع - لا أصل له في الدين كما ادعى المستشرقون ومن سار على دربهم من المخالفين، بل وتبين لنا عكس كلامهم من حجية السنة النبوية، وتأصيل المفهوم الشرعي لها من لدن نبينا صلى الله عليه وسلم.

وفى هذا القدر الكفاية، والله أسأل أن يهدينا وإياهم إلى سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين.

- وفي ختام هادئ نقول: أليس في كل ما عرض رد على شبهات المنكرين لحجية السنة؟ أمثال المستشرق المجري اليهودي جولد تسيهر في كتابه (العقيدة والشريعة) والذي تبعه فيه جميع المقلدين له في القديم والحديث من تمسك بالمعنى اللغوي فقط أو بعض المعاني الاصطلاحية التي تخدم إنكارهم؟!

تذكير الأحبه بحجية السُنة

الحلقة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

أحبتي في الله: لقد ناقشنا في العددين السابقين حُجية السنة النبوية المطهرة من خلال دراسة حديث العرباض تحقيقًا وشرحًا، وأكدنا صحة الحديث من خلال كلام أهل العلم، وناقشنا المنكرين لحجية السنة النبوية؛ من خلال إنكارهم للمفهوم الشرعي للسنة النبوية والملزم بحجيتها، وفندنا شبهاتهم في ذلك، واليوم بحول الله وقوته نرد على ما يتيسر لنا الرد عليه من شبهات حول هذا المفهوم العقدي - أعني: مفهوم أن السنة حجة كالقرآن - والتي أثارها في هذه الأيام المتأخرة نابتة سوء سارت وراء أسلافها ممن طعن في السنة «قديماً» من الخوارج، والمعتزلة، والروافض، ومن جرى مجراهم من أهل البدع والأهواء والضلال فنقول مستعينين بالله:

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

١ - شبهة والرد عليها

يقول المخالفون المنكرون لحجية السنة: نحن نكتفي بالقرآن ولا حاجة لنا بالسنة، ففي القرآن غنية وكفاية، فقد احتوى على كل شيء، واستدلوا بقوله تعالى: «مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ» (جزء من الآية ٣٨ من سورة الأنعام)، وما في معناها.

وللجواب على هذه الشبهة نقول:

أولا: لا يُسَلَّم لهم بهذا التفسير الذي فسَّروا به هذه الآية.. فعلى سبيل المثال يرد علماء التفسير على فهم المخالفين لمثل هذه الآيات فيقولون في قوله تعالى: «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ»: إن المراد من الكتاب اللوح المحفوظ الذي حوى كل شيء على التفصيل التام كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعرشه على الماء" (مسلم: ٢٦٥٣). (أفاده الإمام الطبري في تفسيره ج ٧ ص ١٨٨) (وانظر: حجية السنة للدكتور عبد الغني عبد الخالق ص٣٨٤، ٣٨٥). وعلى ذلك يقاس باقي كلامهم.

ثانيا: ولو افترضنا أن المقصود في الآية هو القرآن؛ فإننا نقول: لم يفرط ربنا عز وجل في كتابه في شيء من أمور الدين على سبيل الإجمال، ومن بين ما لم يفرّط في بيانه وتفصيله إجمالاً بيان حجية السنة، ووجوب التحاكم إليها كما سيأتي بيانه. (ينظر: السنة بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين للدكتور رءوف شلبي: ١٨-٢٤).

٢ - ومن شبهاتهم: عرض السنة على كتاب الله

واعتمدوا في هذا على بعض الروايات التي تؤدي كلها إلى معنى واحد نذكر منها -على

سبيل المثال- زعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله..." فما وافق القرآن؛ فهو من السنة، وما زاد على القرآن؛ فهو ليس من السنة

الجواب على هذه الشبهة:

١- لماذا خالف هؤلاء منهجهم واحتجوا بالحديث وهم لا يرون الاحتجاج به أصلاً؟

أهو رفض الحق لأجل جحوده فقط، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (النور: ٤٩- ٥٠). أم عدم فهم للأدلة ؟!

٢- وعلى فرض التنزل مع الخصم نقول: إن القاعدة تنص على أن الاحتجاج فرعٌ للصحة لا العكس، فكيف يحتج بما لا يثبت؟ كما قرر ذلك الإمام الشافعي ونقله عنه الإمام البيهقي في دلائل النبوة (٢٧/١)، يقول الشافعي: "احتج على بعض من رد الأخبار بما روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "ما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فأنا قلته، وما خالفه فلم أقله"، فقلت له: ما روى هذا أحد يثبت حديثه في شيء صغير ولا كبير، وإنما هي رواية منقطعة عن رجل مجهول، ونحن لا نقبل مثل هذه الرواية في شيء، ثم قال البيهقي معلقًا: أشار الإمام الشافعي إلى ما رواه خالد بن أبي كريمة عن أبي جعفر فذكره، ثم قال البيهقي: خالد مجهول، وأبو جعفر ليس بصحابي فالحديث منقطع، ثم راح البيهقي يفصل طرق هذا الحديث فقال: وقد رُوي الحديث من أوجه أخر كلها فيها مقال.

٣- أما المتن فمعلول أيضًا، ويحمل الدليل على وضعه بين طياته، فإن حديثهم المزعوم بطلب عرض أقوال النبي صلى الله عليه وسلم على القرآن، فإن وافقه كان حديثا، وإلا فلا، وهذا ما فعله العلماء، ثم قالوا: عرضنا حديث العرض على كتاب الله تعالى فوجدناه مكذوبًا، فإنا لم نجد آية في كتاب الله تعالى تطلب منا عرض أقوال نبيه صلى الله عليه وسلم على القرآن، بل وجدنا عكس ذلك، وجدنا القرآن الكريم يطلب طاعة نبيه صلى الله عليه وسلم بصفة مطلقة وبشكل قاطع، وبدون هذا العرض المزعوم، كما في قوله تعالى: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (الحشر: ٧) (أفاده ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ج٢/١٩٠) نقلاً عن عبد الرحمن بن مهدي رحمهم الله جميعًا).

٣- ومن شبهاتهم عرض السنة النبوية على العقل

واعتمدوا في هذا أيضا على روايات تؤدي كلها إلى معنى واحد نذكر منها - على سبيل المثال - ما نسبوه لأبي هريرة أنه قال: قال رسول الله: «إذا حدثتم عني بحديث تعرفونه ولا تنكرونه، قلته أو لم أقله، فصدقوا به، وإني أقول ما يُعرف ولا يُنكر، وإذا حدثتم عني بحديث تنكرون لا تعرفونه، فكذبوا به، فإني لا أقول ما ينكر ولا يعرف» فما وافق عقول هؤلاء الناس؛ فهو من السنة حتى ولو لم يقله النبي فعلاً، وما خالف تلك العقول، فكذب ليس من سُنة النبي، ولم يقله حتى ولو جاء متواترًا صحيحًا فالحجة عندهم في تلك العقول لا في السنة النبوية المطهرة.

إن خطورة منكري السنة تكمن في أنهم لا يصارحون الناس بداية بأهدافهم، وإنما يتدرجون شيئاً فشيئاً مظهرين للناس أنهم ناصحون حتى يصلوا إلى بغيتهم، لعلمهم أنهم لو صارحوا الناس بما يريدون لردهم الناس.

وللجواب عن الحديث نقول:

١- هذا الحديث روي من طرق مختلفة كلها ضعيفة

لا يصلح شيء منها، بل ولا بمجموعها للاحتجاج والاستشهاد، وفي بيان ذلك يقول الإمام البيهقي في مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة (ص٣٩) قال ابن خزيمة: في صحة هذا الحديث مقال، لم نر في شرق الأرض ولا غربها

أحدًا من علماء الحديث يثبت هذا عن أبي هريرة.." ا.هـ.

وفي علل ابن أبي حاتم ج٢ ص٣١٠ قال: قال أبي: هذا حديث منكر، الثقات لا يرفعونه (أي: لا يرفعون إسناده فوق المقبري)، وقال العقيلي في الضعفاء ج١ص٣٢: ليس له إسناد يصح، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (ج١ص٢٥٧)، ثم يذكر لنا الإمام ابن حزم في الإحكام (ج٢ص٢١٣) دليلا عقليا يشهد لبطلان الحديث؛ لما فيه من إباحة الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه حكى عنه أنه قال: "قلته أو لم أقله فأنا قلته أي: فكيف لم يقله النبي ويأمر بتصديقه كأنه قاله).

٢- قلت: وعلى فرض صحة الخبر جدلا ، فلا سبيل إلى أن يُفهم منه ما تدفعه القواطع، فمن المقطوع به، أن معارف الناس وعقولهم وآراءهم وأهواءهم تختلف اختلافًا شديدًا، وبهذا يُعلم أن ما يعرض للسامع من قبول واستبشار، أو نفور واستنكار. قد يكون حيث ينبغي، وقد يكون حيث لا ينبغي، ثم إن الله جعل العقول في إدراكها حدًا تنتهي إليه لا تتعداه.

٣- فائدة: وهنا يرد سؤال لتتمة الرد على هذه الشبهة، وهو: أيهما الحاكم على الآخر النقل أم العقل؟

الجواب

من المقرر عند أهل العلم، وكذا من المعلوم من الدين بالضرورة، أنه لا حاكم على المكلفين سوى الله ولا حكم إلا ما حكم به الله، وقد قال تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ »(الآية ٥٠ من سورة المائدة)، وهذا بإجماع أهل السنة والجماعة، (ولمزيد من التفصيل ينظر الإحكام للآمدي (٧٦/١)، وكتاب الأم للإمام الشافعي رحمه الله (٣٣٩/٧)، فقد ناظر واحدًا من هؤلاء ممن ردوا الأخبار بعقولهم ودحض لهم حججهم فلتراجع.

وختامًا:

لقد تجمع لدينا من الأدلة النقلية على حجية السنة ما ذكرنا بعضه في الحلقات السابقة، وما أفاض فيه فضيلة الرئيس العام في افتتاحية عدد المحرم ١٤٣٦هـ وصفر الذي بين أيدينا فليراجع منعًا للتكرار، وعليه فإننا نركز فيما بقي من سطور على الأدلة العقلية تنزلاً مع حال المنكر الذي لا يؤمن بالنقل، ويزعم أنه يفهم ويحكم بالعقل، وذلك من خلال طرح بعض الأسئلة على المنكر لحجية السنة وندع الجواب للسان العقل الذي يزعم:

١- قال تعالى في فريضة الصلاة: «وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (النور:٥٦).

وهنا نسأل كيف نقيم الصلاة؟، وما عددها؟ وما أوقاتها؟ وما هي تفاصيلها عموما؟ وكيف يدخل فيها؟ وكيف يخرج منها؟

الجواب: إما الاكتفاء بما جاء في القرآن من إشارات إلى الصلاة وأهميتها، وأثرها في النفس دون أن نصلي، وإما أن نصلي بالصلاة التي علمنا إياها رسول الله في سنته المطهرة وهذا يحتم علينا الرجوع للسنة والأخذ بها.

وما قيل في الصلاة يقال في سائر الأحكام التي استقلت السنة ببيانها كالزكاة والصيام والحج ونحن نتساءل: هل لكم في معرفة سائر هذه العبادات سبيل آخر؟

٢- كما أن هناك حالات كثيرة نتساءل أيضًا عن حكمها عند من ينكر السنة، ومن أوضح هذه الأسئلة: هل يمكن للواحد منكم أن يتزوج المرأة على عمتها أو خالتها ويجمع بينهما وقد عرفتم أن الله أحل للرجل أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع؟!

إن منكري حجية السنة قد خالفوا الأدلة النقلية والعقلية وإجماع المسلمين ولولا خطر السماوات المفتوحة عبر شاشات التليفزيون، وشبكة المعلومات لكنا أعرضنا عن هؤلاء ووفرنا أوقاتنا للأهم لأن البديهيات لا تحتاج إلى براهين.

سيقول بلسان الواثق: بالطبع لا، نقول له: فمن أين أتيت بهذا والقرآن لم ينص على هذا التحريم؟! وغير ذلك كثير من الأحكام مما لا يتسع المقام لسرده، ونحيل فيه على من توسع فيه من أهل العلم كالإمام ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله والإمام الشاطبي في الموافقات وغيرهم.

٣- إن لسان العقل يجيب على جميع ما سبق بما أجاب به أسلافنا رضي الله عنهم بقولهم: **إنه يتحتم شرعاً وعقلا أن يحتاج القرآن للسنة لتفصيل مجمله وتوضيح مشكله وتقييد مطلقه، أو تخصيص عامه كما أن السنة قد تستقل بكثير من الأحكام كما سبق الإشارة إلى ذلك.**

وفي بيانه لذلك ينقل ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/١٩١)، عن الأوزاعي قوله: "الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب". قال ابن عبد البر: "يريد أنها تقضي عليه - أي تفصل ما فيه - وتبين المراد منه". فلا يفهم من ذلك تقديم السنة علي القرآن لذا لا نجد ختاما أفضل مما قاله الإمام الطبري في تفسيره ج١/ص٣٩) عند قوله تعالى: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم): بأن هناك مبيِّنًا ومبيَّنًا، ونحن الآن نتساءل أين المبيِّن والمبيَّن به؟ نحن لا نجد جوابا إلا أن نقول: السنة مبينة للقرآن، فإن كان عندكم جواب غير هذا فلتظهروه لنا وكذا ما قاله الإمام ابن القيم عليه رحمة الله في كتابه إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ٩٧- ١٠٤)

في تفسيره لنفس الآية ما مختصره: أن البيان اسم جامع لمعانٍ مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع:

أحدها: بيان نفس الوحي الذي أوحى به الله تعالى بظهوره على لسانه صلى الله عليه وسلم بعد أن كان خفيًا.

الثاني: بيان المشكل وتفسيره لمن احتاج إلى ذلك، كما بين أن الظلم المذكور في قوله تعالى: ((ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)) (الأنعام: ٨٢)، قال صلى الله عليه وسلم هو الشرك (البخاري ١ / ٢١).

الثالث: بيانه صلى الله عليه وسلم بفعله كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيانه صلى الله عليه وسلم ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن، فينزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره (مسلم: ج ٢ ص ١١٣٣).

الخامس: بيانه صلى الله عليه وسلم لما سئل عنه بالوحي أيضا لكن بما ليس قرآنًا، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تضمخ بالخلوق، فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويزيل أثر الخلوق (البخاري: ج ٢ ص ٥٥٧).

السادس: بيانه صلى الله عليه وسلم للأحكام بالسنة ابتداءً من غير سؤال كما حرم عليهم المتعة (البخاري: ج ٥ ص ١٩٦٦).

السابع: بيانه صلى الله عليه وسلم للأمة جواز الشيء بفعله هو له، وعدم نهيهم عن التأسي به أو إقراره للصحابة على فعله وكذلك بيان إباحة الشيء بالسكوت عن تحريمه لأنه إن سكت عن تحريم الحرام فإنه لم يؤد الأمانة ولم يبلغ الرسالة وقد أدى وبلغ صلى الله عليه وسلم بأبي هو وأمي.

الثامن: أن يحكم القرآن بشيء ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وأوصاف، فيحيل ربنا تبارك وتعالى على رسوله في بيانها؛ كقوله تعالى: (وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ) (النساء:٢٤)، فالحل موقوف على شروط النكاح، وانتفاء موانعه، وحضور وقته، وأهلية المحل، فجاءت السنة ببيان ذلك كله وفي هذا القدر الكفاية.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم.

نقل الإمام ابن عبد البر عن الأوزاعي قوله: "الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب" وقال ابن عبد البر: "يريد أنها تقضي عليه - أي تفصل ما فيه - وتبين المراد منه".

حديث السحر بين إثبات المستشرقين وإنكار الغالين

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

إن اعتقاد حدوث السحر أمر ثابت بالكتاب والسنة النبوية الصحيحة، قال الإمام النووي رحمه الله: (قال الإمام المازري رحمه الله: مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر) (شرح صحيح مسلم ٣٩٦/١٤)، وذلك خارج عن دائرة الحوار، لكن الذي يعنينا الآن هو دراسة لحديث تعرض لذكر واقعة كثر الجدل حولها بين مثبت ونافٍ، ومراتب بينهما، وهي واقعة سحر المعصوم صلى الله عليه وسلم، ومناسبة الكلام فيها في هذه الآونة هو ما انتشر على الفضائيات وغيرها من استغلال لهذا الحديث للطعن في السنة النبوية، فمن مثبت له يريد بإثباته الطعن في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن منكر له يريد بذلك الطعن في نقلة السنة وعلى رأس المطعون فيهم الإمام البخاري رحمه الله -والسبب واضح وهو أهمية كتابه عند المسلمين فهو أصح كتاب بعد كتاب الله كما هو معلوم-، ومن منكر له لا لهذا ولا ذاك، ولكن لفهم عنده أن الحديث يحطّ من مقام النبوة، وقد وقع بذلك الغلو في مفهوم العصمة في إنكاره لحديث نبوي صحيح بهذا المنهج العقلي الذي سار خلفه، وهذا النوع الأخير وإن كان فيما يبدو في ظاهره أنه أخفّ من غيره إلا أننا نعتقد أنه أضرّ من غيره؛ وذلك لثقة بعض الناس بهذه الطائفة؛ حيث إنها لا يبدو عليها بغض للسنة النبوية -فيما نعلم- فينطلي كلامها على سامعه.

والى مناقشة هؤلاء نقول:

روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: «سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم، يهودي من يهود بني زريق يقال له: لَبيدُ بن الأعصَم. قالت: حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يخيل إليه أنه يفعل الشيء، وما يفعله، حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم دعا. ثم دعا. ثم قال: يا عائشة! أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ جاءني رجلان فقعد إحداهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي، للذي عند رجلي، أو الذي عند رجلي، للذي عند رأسي: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: من طبَّه؟ قال: لَبيدُ بن الأعْصَم. قال في أي شيء؟ قال: في مُشْط ومُشَاطَة. قال وَجُبٍّ طَلْعَة ذَكَر. قال فأين هو؟ قال: في بئر ذي أَرْوَانَ. قالت: فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه. ثمَّ قال: «يا عائشة! والله! لكأنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاء ولكَأنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشياطين». قالت: فقلت: يا رسول الله! أفلا أحْرَقْتَهُ؟ قال «لا. أما أنا فقد عافاني الله، وكرهت أن أُثير على النَّاس شَراً. فَأَمَرْتُ بها فَدُفِنَتْ».

وفي رواية للبخاري عن عائشة: « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سُحر، حتى كان يُرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن - قال: سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا -، وفي رواية قالت: مكث النبي - صلى الله عليه وسلم - كذا وكذا يُخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي ....

أولا: العزو:

١- أخرجه البخاري في: «كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر١٠/٢٤٣ رقم٥٧٦٥، وباب السحر ١٠/٢٤٦ رقم ٥٧٦٦، وفي كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» ١٠/٤٩٤ رقم ٦٠٦٣ وفي كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٦/٣٨٥ رقم ٣٢٦٨، وفي كتاب الدعوات، باب تكرير الدعاء ١١/١٩٦ رقم ٦٣٩١.

٢- ومسلم في كتاب السلام، باب السحر ٧/٤٢٩ رقم ٢١٨٩.

٣- وابن ماجة في كتاب الطب باب السحر (٣٥٤٥).

ثانيًا: رجال إسناد البخاري وصحة الحديث:

هذا الحديث رواه البخاري قال: حدثنا أبو كريب حدثنا ابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة فذكره ولضيق المقام سنتجاوز عن دراسة تراجم رجال البخاري، فكلهم ثقات، ولا يوجد منهم من يحتاج إلى تعليق إلا ما كان من اعتراض المنكرين على هشام ابن عروة، وسيأتي تفصيل ذلك في معرض الرد على المعترضين.

المعنى العام للحديث:

يحكى لنا حالاً حدث للنبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث إنه صلى الله عليه وسلم سُحر حتى كان يُخيل إليه أنه يفعل الشيء، وما يفعله، أو أنه يأتي النساء وما يأتيهن، فكان ذلك السحر بعيدا كل البعد عن الوحي، وإنما كان في شأن بعض الأفعال كالمتعلقة بالنساء أو نحوها، وهنا يعلمنا صلى الله عليه وسلم ماذا يفعل المسلم إذا تعرض لمثل هذا، فتقول أم المؤمنين رضي الله عنها: حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم دعا. ثم دعا. ثم قال: يا عائشة! ... باقي متن الحديث.. (ينظر المنهاج شرح مسلم ٧/ ٤٣٠).

شرح مفردات الحديث:

١- أفتاني فيما استفتيته: أي أجابني فيما دعوته.

٢- أتاني رجلان: يعني أتاني ملكان.

٣- مطبوب: مسحور.

٤- لبيد بن أعصم: رجل من بني زريق من الخزرج حليف ليهود كان منافقا) ، وكان قد أسلم نفاقاً.

٥- في مشط ومشاطة: أما المشط فهو الآلة المعروفة التي يسَرح بها شعر الرأس واللحية، أما المشاطة أو المشاقة، فبضم الميم وهي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحه.

٦- في جف طلع نخلة ذكر: الجف أو الجب وعاء طلع النخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه،ويطلق على الذكر والأنثى، فلهذا قيده في الحديث بقوله « طلعة ذكر» فصفته أنه ذكر لا أنثى، وهذا من دقة رواة الحديث في الوصف والنقل.

٧- بئر ذروان هي اسم لبئر في بني زريق ويقال لها « أروان».

٨- كأن ماءها نقاعة الحناء: أي أن لون ماء البئر لون الماء الذي يُنقع فيه الحناء.

٩- كرهت أن أثير على الناس شرًا: يخاف من إخراجه وإشاعة هذا ضررًا وشرًا على المسلمين من تذكر السحر، أو تعلمه، وشيوعه، والحديث فيه، أو إيذاء فاعله، فيحمله ذلك أو يحمل بعض أهله ومحبيه والمتعصبين له من المنافقين وغيرهم على سحر الناس وأذاهم، وانتصابهم لمناكدة المسلمين بذلك. هذا من باب ترك مصلحة لخوف مفسدة أعظم منها. (ينظر المنهاج شرح مسلم٧/ ٤٣٠).

عرض للآراء المختلفة حول الحديث ومناقشة المخالفين:

اختلف الناس حول هذا الحديث إلى ثلاث طوائف:

١- الطائفة الأولى: هم قوم أقروا بهذا الحديث، وأثبتوه مع أن منهجهم رد السنة واستغلوه لكي يطعنوا في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم وهؤلاء هم المستشرقون ومن تابعهم.

٢- طائفة أنكرت الحديث على ما حكاه عنهم غير واحد من الأئمة كما ذكره النووي في المنهاج شرح مسلم ٧/ ٤٣٠، وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص ١٦٤ فلتراجع.

ومن جملة ما أفادوه أن هذا الحديث من ضمن الأحاديث التي طعن فيها النظَّام وأمثاله من أئمة الاعتزال الذين لا يقيمون وزناً للأحاديث والسنن.

ثم جاء بعض المعاصرين فتلقفوا هذه الآراء، ورددوها تحت مسمى تحكيم العقل، وطرح كل ما يتعارض مع مسلماته وثوابته، وتأثر بتلك الطعون بعض من علماء المسلمين حسني النية فيما نحسب والله حسيبهم فتابعهم على ذلك من سار على طريقتهم ممن وافق هواهم كلام هؤلاء.

وتتلخص دعواهم عموما في الآتي:

١- تضعيفهم للحديث ترتيبًا على طعنهم في هشام بن عروة.

٢- قولهم: إننا إن قد صدقنا أن النبي صلى الله عليه وسلم، قد سُحر، فقد صدقنا كلام الظالمين، «وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا » (الآية ٨ من سورة الفرقان).

٣- التصديق بالحديث ينافي عصمة الأنبياء.

٤- ثم قالوا: وأما الحديث على فرض صحته فهو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن. وسيأتي الجواب بعون الله على جل ما زعموه.

٣- والطائفة الثالثة هم أهل الحق وهم الوسط بين الطائفتين، فهم أهل السنة الذين يؤمنون بكل ما جاء

عن نبيهم صلى الله عليه وسلم، ويردون متشابهه إلى محكمه، وهؤلاء هم أصحاب الرد على الطائفتين السابقتين.

ولمناقشة المنكرين جميعا والرد على شبهاتهم نقول:

أولاً: إن الحديث صحيح، وثابت، بأصح الأسانيد في أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل، فقد رواه الشيخان في صحيحيهما وقد اتفق أهل العلم على هذا.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في التفسير القيم في تفسيره للمعوذتين: «وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث متلقًى بالقبول بينهم لا يختلفون في صحته، وقد اعتاص (أي: صعُب) على كثير من أهل الكلام وغيرهم وأنكروه أشد الإنكار وقابلوه بالتكذيب، وصنّف بعضهم فيه مصنفًا مفردًا حمل فيه على هشام بن عروة وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فإن هشامًا من أوثق الناس وأعلمهم.

وفي كلامه على هشام يقول العلامة عبد الرحمن المعلمي في كتاب التنكيل: (أقول: أما النسيان فلا يلزم منه خلل في الضبط؛ لأن غايته أنه كان أولاً يحفظ أحاديث فحدث بها ثم نسيها فلم يحدث.

وأما الوهم، فإذا كان يسيراً يقع مثله لمالك وشعبة وكبار الثقات، فلا يستحق أن يسمى خللاً في الضبط، ولا ينبغي أن يسمى تغيراً، غاية الأمر أنه رجع عن الكمال الفائق المعروف لمالك وشعبة وكبار الثقات، ولم يذكروا في ترجمته شيئاً نسب فيه إلى الوهم إلا ما وقع له مرة في حديث أم زرع ... وعلى كل حال فهذا وهم يسير قد رجع عنه هشام ...

... والتحقيق أنه لم يدلس قط ولكن كان ربما يحدث بالحديث عن فلان عن أبيه فيسمع الناس منه ذلك ويعرفونه ثم ربما ذكر ذلك الحديث بلفظ (قال أبي) أو نحوه اتكالاً على أنه قد سبق منه بيان أنه إنما سمعه من فلان عن أبيه، فيغتنم بعض الناس حكايته الثانية فيروي ذاك الحديث عنه عن أبيه لما فيه صورة العلو، مع الاتكال على أن الناس قد سمعوا روايته الأولى وحفظوها . وفي مقدمة (صحيح مسلم) ما يصرح بأن هشاماً غير مدلس، وفيه أن غير المدلس قد يرسل وذكر لذلك أمثلة منها حديث رواه جماعة عن هشام (أخبرني أخي عثمان بن عروة عن عروة) . ورواه آخرون عن هشام عن أبيه، ومع هذا فإنما اتفق لهشام مثل ذلك نادراً، ولم يتفق إلا حيث يكون الذي بينه وبين أبيه ثقة لا شك فيه كأخيه عثمان ومحمد بن عبد الرحمن بن نوفل يتيم عروة) ا.هـ بتصرف من كتاب التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل ٢/ ٧٤٠).

وعليه لا يصح لنا أن نكذّب البخاري وروايته، اعتماداً على رأي ليس له من حظ في توثيق الأخبار، وإقرار الحقائق من قريب أو بعيد، ولا يمت لقواعد التصحيح والتضعيف والبحث في السنة النبوية بصلة، والاعتماد على ضابطهم هذا (ضابط العقل) يفتح ثغرة ضد الثابت الصحيح من السنة؛ لأن قلوب الناس ثم عقولهم تتفاوت كما هو معلوم.

ثانياً- وأما ادعاؤهم أن سحر الأنبياء ينافي عصمتهم، ففي هذا الشأن يقول الإمام ابن قيم الجوزية : «وأما قولكم إن سحر الأنبياء ينافى حماية الله لهم؛ فإنه سبحانه كما يحميهم، ويصونهم، ويحفظهم، ويتولاهم، يبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم، ليستوجبوا كمال كرامته، وليتأسى بهم من بعدهم من أممهم، إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا، ورضوا، وتأسوا بهم» (ينظر: تفسير المعوذتين لابن قيم الجوزية ص٤١).

من أجل ذلك أثبت علماء الإسلام هذا الحديث، وشرحوه بما يناسب مقام النبوة، فقالوا:

أولاً: الزعم بأن الحديث يحطّ من منصب النبوة، ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع، هذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل؛ لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته، وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك، وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل. (وانظر المنهاج شرح مسلم النووي ٤٢٩/٧).

ثانياً: أن سحر الرسول صلى الله عليه وسلم، يرفع من مقام النبوة ويشرفها ولا يحط من شأنها؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم، لم يكن معصوماً من الأمراض فلقد كان يأكل، ويشرب، ويمرض، وتجرى عليه كل النواميس المعتادة التي أودعها الله في ولد آدم، وليس في السحر على الهيئة الواردة التي سنبينها ما ينقص من قدره كإمام لسائر الأنبياء والمرسلين

قال القاضي عياض: وكل ما جاء في الروايات من أنه يخيل إليه فعل شيء ولم يفعله ونحوه، فمحمول على التخيل بالبصر، لا لخلل تطرق إلى العقل، وليس في ذلك ما يدخل لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الضلالة».

وعليه يُحمل قول أم المؤمنين «أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله» وهذا التخيل إما أن يكون في أمور الدنيا لا في أمور الدين والرسالة، وقياس أمور الوحي والرسالة على أمور الدنيا قياس مع الفارق، فإنه بالنسبة لأمور الدين معصوم من الخطأ والتغير والتبدل لا يخالف في ذلك أحدٌ، فللرسول - صلى الله عليه وسلم - اعتباران: اعتبار كونه بشرًا، واعتبار كونه رسولاً، فبالاعتبار الأول يجوز عليه ما يجوز على سائر البشر، ومنه أن يُسحر، وبالاعتبار الثاني لا يجوز ما يخلّ بالرسالة لقيام الدليل العقلي والنقلي على العصمة منه.

وإما أن يكون ذلك التخيل في أمر خاص بينته الروايات الأخرى في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، هي رواية الإمام سفيان بن عيينة التي رواها عنه اثنان من كبار شيوخ البخاري الأول شيخه المُسْنَدي، والثاني شيخه الإمام الحميدي، وفيها تقول عائشة رضي الله عنها: « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سحر حتى كان يُرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهنَّ، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك».

فهذه الرواية تبين ما في الرواية الأولى من إجمال، وما هو هذا الشيء الذي كان يخيل إليه أنه فعله ولم يفعله؟، ويؤكد هذا كلام القاضي عياض رحمه الله: «يحتمل أن يكون المراد بالتخيل المذكور أنه يظهر له من نشاطه ما ألفه من سابق عادته من الاقتدار على الوطء، فإذا دنا من المرأة فتر عن ذلك كما هو شأن المعقود (ينظر المنهاج شرح مسلم للنووي ٤٣١/٧ بتصرف، وانظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ١٨٠/٢-١٨٣).

ونضيف إلى ما سبق أن من الحديث ما يدل على أن نبينا صلى الله علية وسلم لم يكن سحره في عقله أو دينه، فإن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: فدعا ودعا ودعا، وكذلك عندما استجاب له رب العزة وأرسل إليه ملكين، فإنه وعى قولهما.

فإننا نستطيع أن نقرر بما لا يدع مجالاً للريبة أن سحره عليه الصلاة والسلام لم يكن في دينه ولا عقله ولا عقيدته إنما كان في بعض أعمال الظاهر كأن يُخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله.

ثالثاً - إن القول بأن الحديث معارض للقرآن الكريم، ويصدق المشركين في قولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (الآية ٨ من سورة الفرقان) مردود بأن المشركين كانوا يقولون إن محمداً بشر، وأنه فقير، وأنه لا يعلم الغيب، فهل نكذبهم في ذلك ونخالف الحق لمجرد الرغبة في المخالفة؟! أم أننا نوضح حقيقة ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم بما يتفق مع اعتقاد أهل السنة والجماعة.

ثم إننا نعلم يقيناً، أن الكفار لا يريدون بقولهم هذا، أن يثبتوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أثبته هذا الحديث، وهو أن فلاناً من اليهود سحره بضعة أيام، فأدركه شيء من التغير، وخيل إليه أنه يفعل بعض الشيء، وهو لا يفعله، ثم إن الله شفاه من ذلك، هم لا يريدون هذا، بل يريدون أن رسول الله إنما يصدر عن خيال وجنون، وأنه لم يوح إليه شيء، فإذا آمنا بما دل عليه الحديث لم نكن مصدقين للمشركين في دعواهم، فمفهوم الحديث شيء، ودعواهم شيء آخر.

وكذلك نعلم الحجة على جواز السحر للأنبياء ثابتة بقول رب العزة: «قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ » (الآيات ٦٥-٦٨ من سورة طه)، فقد صرحت الآية بأن سحر أولئك السحرة، قد أوقع نبي الله موسى في التخييل، حتى تغيرت أمامه الحقائق، فحسب الحبال حيات، والساكنات متحركات....

(وانظر: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٦٨).ا.هـ. فهل بتخيل نبي الله موسى الذي نص عليه القرآن يعد خللاً في تبليغ الرسالة؟!

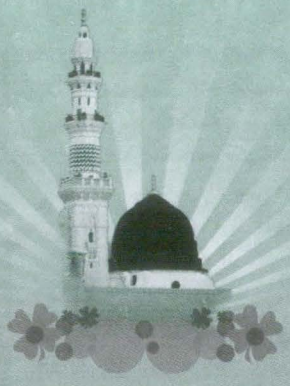
رابعاً - أما دعواهم بمنع الأخذ بخبر الآحاد في العقائد فهو مخالف لمذهب أهل السنة قديما وحديثا الذي اتفقوا جميعا على وجوب العمل بخبر الآحاد، وإن اختلفوا في دلالته عندهم (الظن أم اليقين) ولا يسعنا الآن التفصيل في الرد على هذه الدعوى لضيق المقام لكننا نحيل إلى بعض المصادر التي توسعت في تقرير هذا المذهب ككتاب الصواعق المرسلة لابن قيم الجوزية، وكتاب المستصفى للغزالي رحمه الله والإحكام للآمدي، وكتاب الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام للشيخ الألباني رحمه الله، وغيرها.

إذاً فالحديث صحيح الإسناد والمعنى ولا يعارضه القرآن الكريم ولا المعقول، فوجب قبوله والإيمان به» وللحديث صلة في الحلقة القادمة إن شاء الله

والحمد لله رب العالمين.



علاج السحر بين المشروع والممنوع



إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فقد تكلمنا في الحلقة الماضية عن حديث السحر المشهور، والذي فيه قصة السحر التي حدثت للنبي صلى الله عليه وسلم، وذكرنا أنه لولا الهجمة الشرسة في الفضائيات التي دخلت أغلب البيوت فلبست على الناس دينهم بما ألقته من شبهات حول السنة النبوية لولا هذا ما تكلمنا في مثل هذه الأمور، لكن سبحان الله الحكيم الفعال لما يريد قدر لنا هذا، فاستفدنا فوائد عديدة تدل على أهمية هذا الحديث، الذي طعن فيه المخالفون للسنة، ولعل هذا ما دفع إمامًا كالبخاري أن يذكره في أربعة مواضع من صحيحه.

فانتهينا في تناول الحديث بالشرح والدراسة إلى أن هذا الحديث في أعلى مراتب الصحة، وأن السحر حقيقة ومرض يصيب الإنسان، وأن هذا الحديث من دواعي التوحيد الخالص، فقد أظهر لنا جانبًا بشريا للنبي صلى الله عليه وسلم يعتريه ما يعتري البشر من الأمراض، والتي لا يمكنه كبشر أن يدفعها عن نفسه، فلا يُقدَّس إلا الله سبحانه، وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، وأكد عليه في مواضع عديدة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» (رواه البخاري ٣٤٤٥)، وفي ذلك صيانة لجناب التوحيد.

كما أن هذا الحديث أيضا دليل من دلائل النبوة وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم؛ من دلائل النبوة لأنه صلى الله عليه وسلم ومع ما اعتراه في جسده من مرض السحر إلا أن ذلك المرض لم يؤثر على الوحي، بل أدرك وهو في مرضه ما أوحى الله له به من مكان السحر واسم الساحر وكيفية النجاة منه، ودليل على صدق الرسول؛ لأن الرسول لو لم يكن صادقا هو وأصحابه لكان من شأنهم أن أخفوا عنا هذه الواقعة التي في ظاهرها تبدوا عيبًا، وأقول في ظاهرها؛ لأنه ظهر لنا في الحقيقة أنها دليل إعجاز، ثم كان من فوائد هذا الحديث أيضًا أنه عالج لنا مشكلة حياتية تقابلنا كل يوم وهي مشكلة السحر، وكيف يُعالَج من ابتلي به، وهو ما سنتناوله في هذا اللقاء بمشيئة الله.

العلاج المشروع:

علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث (الحديث الذي تناولناه في الحلقة الماضية) جانبا من العلاج الشرعي، ومن ذلك:

١- التوجه الخالص إلى الله بالدعاء: حين قالت أم المؤمنين عائشة (فدعا ثم دعا ثم دعا)، فسأل الله في كربته ولم يسأل غيره ممن لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فقد قال الحق جل وعلا: (أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) (النمل - الآية ٦٢)، وتكراره للدعاء تعليم لنا أننا لا نعجل في الدعاء، فالله الحكيم أمرنا بالدعاء، وتكفل لنا بما شاء من الإجابة، وعلمنا أن الدعاء لا ينافي الصبر، قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله

(سلك النبي صلى الله عليه وسلم في هذه القصة - يعني قصة السحر - مسلكي التفويض وتعاطي الأسباب، ففي أول الأمر فوَّض وسلَّم لأمر ربه، فاحتسب الأجر في صبره على بلائه، ثم لما تمادى ذلك وخشي من تماديه أن يُضعفه عن فنون عبادته جنح إلى التداوي ثم إلى الدعاء، وكل من المقامين غاية في الكمال) (فتح الباري - ١٠ / ٢٢٨).

٢- استخراج السحر: حيث ذهب لمكان السحر واستخرجه، قال ابن القيم - رحمه الله -: (استخراج السحر وتبطيله هو أبلغ علاج كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سأل ربه سبحانه وتعالى في ذلك فدله عليه فاستخرجه من البئر) (زاد المعاد - ٣ / ١٠٤).

وهنا نحذر من استخدام الوسائل غير المشروعة في الاستخراج، يقول الألباني رحمه الله معلقا: إن الرسول صلى الله عليه وسلم استخرجه بالوحي، ولم يستخرجه بالسحر والشعوذة، وحاشاه من ذلك..... لكن لا يباح إن كان ذلك بالسحر الذي حرمه الله في كتابه وعلى لسان نبيه، وعده من الموبقات المهلكة؛ لما فيه من الأمور الموغلة في الكفر والشرك..).

وينضاف إلى ما سبق من الكتاب والسنة عن علاج السحر بعد وقوعه الكثير، نذكر منه على سبيل المثال:

٣- قراءة القرآن بنية الشفاء فالقرآن كله شفاء؛ كما قال تعالى: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ» (فصلت: ٤٤)، و الاسترقاء بالقرآن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد ورد عنه الاسترقاء بـ «قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، وقال: لم يتعوذ الناس بمثلهن» رواه مسلم. وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لمن رقى بالفاتحة «وما يدريك أنها رقية» رواه البخاري.

٤- قيام الليل: لفضله ولما يشتمل عليه من دعاء، خاصة في الثلث الأخير من الليل، كما ثبت من أحاديث النزول الصحيحة التي تؤكد ذلك، لاسيما إن قرأ سورة البقرة؛ لما ثبت لها من فضل في حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة - أي: السحرة -) (صحيح الجامع ١١٦٥).

٥- الرقى بوجه عام: ودليلنا ما أخرجه ابن ماجه (٢٠٦٥) من طريق أبي خزامة عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت رقى نسترقيها، ودواء نتداوى به، هل يرد من قدر الله شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله تعالى».

ولكن لهذه الرقى شروط:

فقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

١- أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته.

٢- وباللسان العربي أو بما يُعرف معناه من غيره.

٣- وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بقدر الله تعالى.

ففي صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك».

وننبه على أن قومًا تمسكوا بهذا العموم، فأجازوا كل رقية جربت منفعتها ولو لم يُعقل معناها، لكن دل حديث عوف السالف ذكره أنه ما كان من الرقى يؤدي إلى الشرك يُمنع، وما لا يعقل معناه لا يؤمن أن يؤدي إلى الشرك فيمتنع احتياطًا. (أفاده في فتح الباري، (باب الرقى والمعوذات ص١٩٥، م/١٠)).

٦- بعض المطعومات كتمر العجوة:

لما ثبت من حديث عامر بن سعد عن أبيه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر) وقال غيره: « سبع تمرات» (متفق عليه).

٧- الحجامة: صح عنه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: (الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي) (صحيح البخاري:٥٣٥٦)، وقال ابن القيم - رحمه الله - في سياق ذكر طرق علاج السحر: (واستعمال الحجامة في ذلك المكان الذي تضررت أفعاله بالسحر من أنفع المعالجة إذا استُعملت على القانون الذي ينبغي) (زاد المعاد ٤/ ١٢٥ - ١٢٦).

وقد توجد وسائل أخرى من قبيل المباح كالاستفراغ: وهو كما قال ابن القيم - رحمه الله -: (الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر،

النُّشْرَة بالضم ضَرْب من العلاج، يُعالَج به مَن كان يُظن أن به مسًّا من الجن، وهي لفظ عام يطلق على ما هو مشروع وما هو غير مشروع من علاج المسحور.

فإن ذلك نافع جدًا) (الطب النبوي - ص ١٢٥ بتصرف)، فهناك وسائل كثيرة، لكننا حاولنا الاقتصار على مبلغ علمنا مما صح فيه الدليل، والحمد لله رب العالمين.

أما عن غير المشروع

فهنا يأتي سؤال مهم: إن كان العلاج بما سبق مشروع، فهل يجوز للمسلم أن يعدو هذه الأسباب إلى غيرها كأن يلجأ إلى ساحر لدفع الضرر أو يلجأ إلى من ليس بساحر لكنه يتجاوز هذه الأسباب المشروعة إلى غيرها من الأسباب حتى وإن قصد بها المصلحة والمنفعة؟

إن الجواب على هذه المسألة يتطلب منا تحقيق مسألة مهمة كنا نظن قديما أن الجواب عليها من المسلَّمات لكننا ابتلينا في هذه الأيام بمن يثير علينا دعاوى يخرجها من بطون الكتب بغير تحقيق علمي منصف لا تؤدي من وجهة نظري إلا إلى بلبلة وفتنة للناس في دينهم ونقص في توحيدهم لا سيما مع قلة العلم واندثاره وغياب الضوابط التي توفرت لمن تكلم في هذا الخلاف ممن سبقنا من الأسلاف.

تحقيق المسألة

لقد اشتهرت هذه المسألة بين أهل العلم بالنشرة والنشرة كما قال ابن الأثير: (النشرة- بضم النون- ضرب من الرقية والعلاج، يُعالَج به من كان يظن أن به مسًا من الجن، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء أي يكشف ويزال) (النهاية في غريب الحديث. (٥٤/٥). إذن فالنُشرة لفظ عام يُطلق على ما هو مشروع، وما هو غير مشروع من علاج المسحور، ويفرّق لنا ابن قيم الجوزية -رحمه الله- بين النوعين في فتاوى إمام المفتين (ص: ٢٠٧) فيقول: «النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

الأول: حل السحر بمثله، والذي هو من عمل الشيطان، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: بالرقية والتعوذات والأدوية المباحة فهذا جائز، انتهى كلام ابن القيم.

والدليل على أن الرقية بالقرآن تسمى نشرة ما جاء في الحديث: «..فنشره بـ (قل أعوذ برب الناس)» أي رقاه. (سنن أبي داود ٣٨٦٨). والدليل على أن العلاج بما هو غير مشروع يسمى نشرة ما جاء من حديث جابر -رضي الله عنه- (سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن النشرة، فقال: هي من عمل الشيطان) (رواه أبو داود (٣٨٦٨) وصححه الألباني). وعليه فالنشرة المشروعة هي علاج المسحور بما ورد في السنة مما سبق ذكره أو ضاق المقام عن ذكره، المهم أن ضابطنا هو موافقة السنة، وإن أيّ خروج على السنة بأي نوع من أنواع الانحراف لعلاج المسحور مهما حسنت النوايا أمر محرم، وهو ما يسمى بالنشرة المحرمة، وهو ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن النشرة فقال: (هي من عمل الشيطان)، وقال أهل العلم: هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، وعن المداواة المعروفة. (ينظر: تفسير القرطبي، سورة الإسراء: ٣١٩/١٠). والنصوص القرآنية تنهى عن طلب السحر واستبداله بالدين؛ وأن السحر كله مضرة، وقد يصل في بعض أحواله إلى الكفر الذي يهلك صاحبه في الدنيا والآخرة كقوله تعالى: «وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ» (البقرة: ١٠٢)، وقوله تعالى: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ» (طه: ٦٩) ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى نفى الفلاح عن الساحر نفيًا عامًا حيث توجه وسلك.

- وقوله صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله ما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» رواه البخاري ومسلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم في المسند: (من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا يؤمن بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) (صححه الألباني وغيره)، وقال: (ليس منا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سَحر أو سُحر له). (السلسلة الصحيحة: ٢١٩٥). و«من» تدل على عموم تحريم إتيان الساحر والاستعانة به

أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بقدر الله تعالى.

وقصد سحره، بأي غاية كانت، وتصديقه بأي شيء قاله دون تخصيص أو استثناء، فهذا هو المفهوم الظاهر للحديث، فيبقى المعنى والحكم كما هو لانتفاء الناسخ أو المخصص أو الإجماع على خلاف العموم فلا أحد يستطيع أن يثبت شيئًا من ذلك. وهكذا الأدلة جميعها، فالناظر إليها يجدها أدلة عامة ليست هي خاصة لمن قصد السحر لإرادة الضرر.

دفع شبهة:

ومع ذلك فقد وجب الرد على شبهة من أجاز الاستعانة بالسحر لدفع الضرر:

أولاً: إن أهم ما يستدل المجيزون به أثر ورد عن قتادة، وجاء معلقا عند البخاري في كتاب الطب - باب هل يستخرج السحر- قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب (أي سحر) - أو يؤخذ عن امرأته - أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه) (فتح الباري - ١٠ / ٢٣٢).

والسؤال كما هو واضح قتادة يسأل سعيد بن المسيب عن رجل مسحور أو مربوط هل يفك سحره أم لا؟ هل يحاول أن يلجأ إلى طرق مشروعة لفك السحر أم يترك الأمر كما هو لأن هذا قضاء الله فيه؟ وجاءت الإجابة: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم يُنْه عنه.

والواضح والمفهوم من السياق أن ما نهي عنه فهو غير نافع للناس، وهو محرم بلا شك؛ لأن الشريعة تدور مع مصالح العباد فأينما وُجدت المصلحة فثم شرع الله، فكيف يستدل بهذا القول على إباحة ما نص الشارع على تحريمه وهو إباحة إتيان السحرة؟ وهل يظن أن سعيد بن المسيب يفتي بجواز قصد الساحر لحل السحر؟! لا شك أن هذا القول منه يُحمل على نوع من النشرة لا يُعلم أنه سحر؛ لأن سؤال قتادة في النشرة عن المسحور، وكان جواب ابن المسيب لا بأس - أي بالنشر- لأنهم يريدون الإصلاح، فأما ما ينفع فلم يُنْه عنه. فدل على أنه أراد الرقية الشرعية أو النشرة المباحة الخالية من الشرك؛ لأنها منفعة لا تلحقها مضرة لا دنيوية أو أخروية.

ثانياً: ظن بعض الناس أن الإمام أحمد قد أجاز النشرة عمومًا، والحق أنه أجاز المشروعة منها،

إن أي خروج على السنة بأي نوع من أنواع الانحراف لعلاج المسحور مهما حسنت النوايا أمر محرم وهو ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن النشرة فقال: (هي من عمل الشيطان)

فقول الإمام أحمد عندما سُئل: لا أدري ما هذا، صريح في النهي عن النشرة على الوجه المكروه، فهذا التعبير مما يُعرف أنه نهي عند الإمام أحمد، وفي تعليق ابن قدامة على كلام ابن المسيب رحمه الله أورده ثم قال رحمه الله: (وأما ما جاء عن الإمام أحمد عندما سئل عمن يطلق السحر عن المسحور، فقال: قد رخص فيه بعض الناس، فهذا محمول على النشرة المشروعة، ومن حمله على النشرة السحرية فقد غلط بدليل أن الإمام أحمد عندما سئل عمن يطلق السحر عن المسحور فقال: قد رخص فيه بعض الناس. فقيل له: إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه؟ فنفض يده، وقال: لا أدري ما هذا؟ قيل له: أفترى أن يؤتى مثل هذا؟ قال: لا أدري ما هذا؟ وهذا صريح في النهي عن النشرة على الوجه المكروه، وكيف يجيزه وهو الذي روى الحديث « إنها من عمل الشيطان »، ولكن لما كان لفظ النشرة مشتركا بين الجائزة والممنوعة، ورأوه قد أجاز النشرة ظنوا أنه قد أجاز التي من عمل الشيطان، وحاشاه من ذلك) (المغني: ٨ / ١٥٦، ١٥٧).

ولأن الحق لا يُعرف بالرجال، وإنما يُعرف الرجال بالحق، فقد أصَّل ابن القيم لذلك، وحسم الخلاف، فقال - رحمه الله - في تعقيبه على ذلك: (ولو صح عنه أنه أراد بذلك حل السحر بسحر مثله فهو اجتهاد منه لا يُوافَق عليه؛ لمخالفته للنص في تحريم الذهاب إلى الكهان وأضرابهم). (إعلام الموقعين: ٤/٣٩٦).

وهذا التوجيه الذي وجهنا به كلام ابن المسيب ما بينه كلام الحافظ في الفتح (١٠ / ٢٣٣- ٢٣٤)، حيث وجَّه كلام ابن المسيب، بأن معناه أن يُنشَّر عن المسحور بالرقى المباحة.

وأكد ذلك بقوله بعد ذلك: «ويوافق قول سعيد بن المسيب ما تقدم في باب «الرقية» في حديث جابر عند مسلم مرفوعاً» من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»» (الفتح: ١٠ / ٢٢٥).

فجعل الحافظ كلام ابن المسيب في النُّشرة من السحر، من باب النشرة المشروعة، وهو ما يوافق كلام أئمة السلف في هذا، وبهذا تزول الشبهة، والحمد لله رب العالمين.

باب السنة

من آداب المفتي والمستفتي



إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد: فإنه لما انتشر في هذه الأيام هجمة شرسة على رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم كان ذلك أكبر داع إلى الكلام حول حديثنا هذا الذي اختاره إمام المحدثين وكبير المحققين أمير المؤمنين في الحديث أبوعبدالله محمد بن إسماعيل البخاري؛ اختاره ليكون أول حديث في كتاب العلم، ومناسبة اختيارنا لهذا الحديث هو اعتقادي أن أول مراتب العلاج هو تشخيص الداء، ولا يمكن أن يوصَف متجرئ على رسول الإسلام وخير الأنام إلا أنه جاهل بآخرته فضلاً عن دنياه، وأنه لا يعلم ألا سعادة له في الدارين - الدنيا والآخرة - إلا بمتابعته واقتفاء هديه والدعوة إلى ذلك فكان لابد من العلم ليس هذا فحسب، بل ولا بد أن نعرف جميعا أن واجب الدفاع عن نبينا صلى الله عليه وسلم في مواجهة هؤلاء المتجرئين بشتى وسائلهم- جهارا أو إسراراً أو رضاً بهذه الجرأة- صار متعينا، وقد اخترت لنفسي - قناعة - أن تعليم هؤلاء هو عين النصح لهم والدفاع عن نبينا صلى الله عليه وسلم فبدأت بما بدأ به شيخ المحدثين إمام المسندين الإمام البخاري - المفترى عليه - رحمه الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ، قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنْ السَّاعَةِ؟ قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتْ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ"

تخريج الحديث من الكتب الستة:

هذا الحديث الشريف تفرد به إمام المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري عن باقي أصحاب الكتب الستة:

١- رواه في كتاب العلم باب مَنْ سُئِلَ عِلْمًا وَهُوَ مُشْتَغِلٌ فِي حَدِيثِهِ فَأَتَمَّ الْحَدِيثَ ثُمَّ أَجَابَ السَّائِلَ(٥٩) (١/٢١) بإسنادين:

- قال حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ قَالَ حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ (ح).

- وحَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ حَدَّثَنِي هِلَالُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عن أبي هريرة به.

٢- ورواه في كتاب الرقاق باب رفع الأمانة (٦٤٩٦)(٨/١٠٤) بالإسناد الأعلى قال: حدثني محمد بن سنان، قال: حدثني فليح قال حدثني هلال بن علي عن عطاء بن

يسار عن أبي هريرة به
بلفظ (إذا أسند) بدلاً من (إذا وسد) ومعناهما واحد.

فائدة:

في غالب النسخ قبل قوله وحدثني إبراهيم بن المنذر صورة
(ح) وهي حاء مهملة مفردة ومعناها واحد مما يأتي:

- مأخوذة من (التحول) لتحوله من إسناد إلى آخر، ويقول القارئ إذا انتهى إليها «حا» ويستمر في قراءة ما بعدها.

- وقيل إنها من (حال) بين الشيئين إذا حجز لكونها حالة بين الإسنادين، وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشيء.

- وقيل إنها رمز إلى قوله (الحديث) وأهل المغرب إذا وصلوا إليها يقولون: الحديث.

-وقد كتب جماعة عن حفاظ عراق العجم موضعها «صح» فيشعر بأنها رمز صحيح وحسن لئلا يتوهم أنه سقط متن الإسناد الأول (ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ٢ /٣٧٨).

بيان رجاله من تقريب التهذيب

١- محمد بن سنان: ثقة ثبت (التقريب (ص ٤٨٢)).

٢- فليح بن سليمان: صدوق كثير الخطأ (التقريب (ص ٤٤٨)).

رد شبهة عن رواية الإمام البخاري لفليح

رحمه الله: حكم بعض الناس على فليح بالضعف، ومع هذا أخرج له البخاري في الصحيح. فلماذا أخرج له؟

والجواب: كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٤٢/١) دفاعا عن ذلك: صدوق تكلم بعض الأئمة في حفظه، ولم يُخرج البخاري من حديثه في الأحكام إلا ما توبع عليه، وأخرج له في المواعظ والآداب وما شاكلها طائفة من أفراده وهذا منها. (فتح الباري - ابن حجر: ١ /١٤٢).

٣- إبراهيم بن المنذر: صدوق تكلم فيه أحمد لأجل القرآن (تقريب التهذيب (ص ٩٤)).

فائدة: روى له البخاري مع أن أحمد تكلم فيه، وذلك لأن كلام أحمد كان لأجل أن الرجل وقع في بدعة خلق القرآن، ومذهب جمهور المحدثين أن الثقة إذا روى ما لا يتعلق ببدعته يقبل كلامه كما بيناه مفصلاً في أعداد سابقة بباب السنة.

٤- محمد بن فليح: صدوق يهم (التقريب: ص ٥٠٢)).

فائدة: رواه البخاري عاليا من غير طريق محمد بن فليح كما هو واضح فلا إشكال في كون محمد بن فليح يهم.

٥- هلال بن علي: ويقال له هلال بن أبي ميمونة، ويقال له هلال بن أبي هلال، ويقال له هلال بن أسامة نسبة إلى جده، وقد يظن أنهم أربعة والكل واحد: ثقة (تقريب التهذيب (٢ /٢٧٣))(وانظر الفتح ١/١٤٢).

٦- عطاء بن يسار: ثقة فاضل صاحب مواعظ وعبادة (تقريب التهذيب (ص ٣٩٢)).

أبو هريرة الصحابي الجليل.

فائدة تربوية مأخوذة من الإسناد: وراثة الأبناء للآباء.

نجد في هذا الإسناد قول محمد بن فليح: حدثني أبي أي أنه ورث الحديث عن أبيه وهذا كثير في أخبار السلف، فهذا الإمام أحمد بن حنبل، أولاده علماء: عبد الله، وصالح. وأبو حاتم الرازي ابنه عبد الرحمن بن أبي حاتم، وغيرهم كثير، ونحن نسأل: أين أمثال هؤلاء الآن؟ إن ضياع مثل هذا النمط من حياتنا له أسباب كثيرة، من أهم هذه الأسباب باختصار من وجهة نظري هو غياب القدوة من العلماء الربانيين الذين يتدينون بعلمهم.. إننا بحاجة أن ننطلق في نصرة هذا الدين مثلما فعل أسلافنا رحمهم الله ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

> كثيرا ما نجد في أخبار السلف وراثة الأبناء لآبائهم في العلم والدعوة إليه ، ونحن نسأل: ما السبب وراء غياب هذه الظاهرة الفريدة في عصرنا الحالي؟! إننا بحاجة أن ننطلق في نصرة هذا الدين مثلما فعل أسلافنا رحمهم الله، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

صحة الحديث:

أما عن صحة الحديث فهو صحيح

بشهادة شيخ المحدثين البخاري الذي انتقى من أحاديث فليح ما اطمأن إليه، وتوفرت فيه شروط الصحيح فلا يعترض معترض على فليح، وقد قال الحافظ في هدي الساري مقدمة فتح الباري ص:٤٣٥ بعدما نقل اختلاف العلماء في فليح: وهو عندي لا بأس به. قلت: لم يعتمد عليه البخاري اعتماده على مالك وابن عيينة وأضرابهما، وإنما أخرج له أحاديث أكثرها في المناقب وبعضها في الرقاق) ا.هـ وهذا الحديث من هذا القبيل.

حول هذا الحديث

قال الإمام البخاري رحمه الله: باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث، ثم أجاب السائل ثم ذكر الحديث، وهذا هو الباب الثاني من كتاب العلم للإمام البخاري، وقد افتتح هذا الكتاب بقوله: (باب فضل العلم) واكتفى فيه بذكر قول الله تَعَالَى: «يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ «رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)، ليرغبنا أن نكون من هؤلاء أو نتشبه بهم ثم عقد لنا الإمام البخاري هذا الباب الذي نحن بصدده وبدأه بهذا الحديث الذي اشتمل على قصة أعرابي جاء وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحدث الناس، فقطع عليه حديثه، وهذا فعل يُجتنب، فلا ينبغي أن يفعله طالب علم، والإمام البخاري عندما ذكر هذا الحديث إنما ذكره كنموذج؛ ليقول: إن أول شيء ينبغي أن يتحلى به طالب العلم هو تعلم الأدب، فلا ينبغي له أن يفعل كما فعل هذا الأعرابي، لذا ولأنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة نجد أن النبي قد أدّب الأعرابي بالإعراض عنه أولاً حتى استوفى ما كان فيه ثم رجع إلى جوابه فرفق به ولم يزجره مراعاة لطبيعته، فدلنا بذلك على أن طالب العلم ينبغي أن يتحلى بآداب، كما أن الشيخ ينبغي أن يتحلى بآداب، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: حتى إذا قضى حديثه قال: (أين أراه السائل عن الساعة؟) قال: ها أنا يا رسول الله. قال: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة). وكان رجلاً عاقلاً مع طبيعته الجافية التي ذكرنا، فسأل سؤالاً آخر قال: (وكيف إضاعتها؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا وُسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة).

ما يستفاد من الحديث:

إن من أظهر ما يُستفاد من الحديث مما ذكره الحافظ في الفتح (١/١٤٢) هو التنبيه على أدب العالم والمتعلم، ومنها:

١- أن السائل لا يسأل العالم وهو مشتغل بغيره؛ لأن حق الأول مقدم عليه.

٢- وفيه مراجعة العالم إذا لم يفهم ما يجيب به حتى يتضح كما في قوله: كيف إضاعتها.

٣- وفيه مراعاة طبيعة السائل، فطريقة تأديب النبي ورفقه بالأعرابي على جفوته غير معاملته لأصحابه.

٤- وفيه وجوب تعليم السائل لقوله أين السائل ثم إخباره عن الذي سأل عنه.

وفيه جواز اتساع العالم في الجواب إذا كان ذلك لمعنى أو لمصلحة). اهـ. من الفتح بتصرف.

من علامات الساعة أن يوسد الأمر لغير أهله.

فائدة تبين فقه الإمام البخاري ودفاع عن هويتنا:

إن من فقه الإمام البخاري أن اختار هذا المتن لكتاب العلم؛ حيث إن إسناد الأمر إلى غير أهله إنما يكون عند غلبة الجهل ورفع العلم، وذلك من جملة الأشراط، ومقتضاه أن العلم ما دام قائما ففي الأمر فسحة، وكأن المصنف أشار إلى أن العلم إنما يُؤخذ عن الأكابر تلميحا، لما روي عن أبي أمية الجمحي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (من أشراط الساعة أن يُلتمس العلم عند الأصاغر). لذا ودفاعًا عن هويتنا نقول: إن ما ظهر في هذه الأيام

إن من فقه الإمام البخاري أن استهل كتاب العلم بهذا الحديث؛ حيث إن إسناد الأمر إلى غير أهله إنما يكون عند غلبة الجهل ورفع العلم فيتجرأ الجاهل على الدين كما هو واقع الآن.

الغابرة المتأخرة من هجوم على السنة النبوية من مجاهيل البشر إنما هو أمارة من أمارات الساعة، وإن من أقوم السبل وأقواها للتصدي لهذه الهجمة الشرسة ـــ من وجهة نظري ـــ هو تعلم العلم والعمل به، والدعوة إليه، فلا تضيع الأعمار في الردود والمناظرات؛ لأن مثل هذه المواجهات تفنى دونها الأعمار فقافلة الشياطين كبيرة ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا.

إن من أقوم السبل وأقواها للتصدي لهذه الهجمة الشرسة هو تعلم العلم والعمل به والدعوة إليه، فلا تضيع الأعمار في الردود والمناظرات؛ لأن مثل هذه المواجهات تفنى دونها الأعمار.

والشيء بالشيء يذكر، وردا على جرأة هؤلاء الأصاغر على الإمام البخاري نقول: إن ترتيب كتاب البخاري يدل على عمق علمه وفهمه، فقد افتتح كتابه الصحيح بكتاب بدء الوحي، وختم كتابه بكتاب التوحيد، فكأنه يريد أن يقول: من أراد أن يخرج من الدنيا على التوحيد فعليه بالوحي، وما بين بدء الوحي وكتاب التوحيد الإسلام كله، والوحي إما قرآنا أو سنة، وقد كانت السنة يوحى بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم مثلما يُوحى إليه بالقرآن، لكن السنة من لفظ النبي صلى الله عليه وسلم، وهو لا ينطق عن هوى نفسه عليه الصلاة والسلام، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤). فالخروج من الدنيا على التوحيد يكون بالوحيين، والفرق التي ضلت السبيل إلى الله، إنما سلكت سبيلاً آخر غير الوحي الذي هو القرآن والسنة.

لقد بدأ المخالفون للسنة يؤصلون من عندهم أصولاً ويطلقون الشبهات التي يردون بها شطر الوحي الذي هو السنة النبوية، والمفصل والمبين والشارح والناسخ أحيانا للشطر الآخر الذي هو القرآن، بل وقد يستقل ببعض الأحكام كما سبق أن بينت المجلة في باب السنة، في باب العقيدة وفي الافتتاحية فليراجع في مظانه.

فكان من جملة ما ألقوه من شبهات بل ومن أولها شبهة حكم العقل على صحة النص الشرعي، وهو ما امتلأت به الفضائيات ضجيجا وما صاح به الأصاغر مذهبا ورثوه عن أسلافهم من المعتزلة ومن تبعهم، إن تحكيم العقل عنوان براق يحترمه الجميع ويناقون خلفه، ونحن لا ننكر العقل بل نحترمه كما يفعلون، لكننا بهذا العقل نخاطبهم فنقول: أليس من العقل أن يتكلم المتخصص فيما تخصص فيه؟ أليس إذا مرض للواحد من هؤلاء مريض يذهب لمن تخصص في هذا المرض ليس فقط بل وينتقيه؟ ألا يذهب الواحد من هؤلاء، وهو يريد تشييد مبنى إلى من تخصص في هذا؟ بل وأتقنه؛ وإلى آخر هذا من هذه الأمثلة، فلماذا هان علينا ديننا فتكلم فيه وأفتى من يعلم ومن لا يعلم؟

نعم إن الدين للكل، ولكن كعقيدة، كتعلم للعمل، كسلوك لكن كفتوى لا يجوز لإنسان أن يفتي إلا إذا كان مؤهلاً، فإن الفتوى كما أفادنا ابن القيم -في كتابه: إعلام الموقعين عن رب العالمين-: إن المفتي يوقع عن رب العالمين، فمن يتحمل مسئولية الفتوى بغير علم؟!

يا قومنا: إنكم إذا اختلفتم معنا بعقولكم واختلفنا معكم بعقولنا فأي عقل من العقلين يحكم على الآخر؟ الجواب إذن لابد أن يكون هناك عقل سابق كبير يحكم بيننا نرجع إليه ونتفق عليه، ولا يكون ذلك إلا للنبي عليه الصلاة والسلام، فهل ترضون بالنبي صلى الله عليه وسلم بيننا حكما؟ فإن قلتم لا - ولاأظنكم تقولون ولا يخطر بذهني - لكن إن قلتم هذا فلا مجال للمناقشة، وإن قلتم نعم فها هي سنة نبيكم نقلها لكم العدول الضابطون من الأسلاف عن أمثالهم حتى وصلوا بسندهم إلى نبينا الذي آمنا به وارتضيناه نبيا معلما مبلغا عن رب العزة جل وعلا، فهل ترضون به أيها الكرام؟ وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



المال النافع والعمل الصالح

إعداد / د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد،

فإن المتابع لما يدور على ساحة الأرض وفي جنبات الدنيا ليرى إلحاحًا أن نكتب لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم، والدفاع عن السنة؛ فالقيام بهذا الدور أصبح من عبادة الوقت، ومجلة التوحيد لا يمكن أن تغفل هذا طاعةً لله، ثم طمأنة لإخواننا لكننا اتخذنا لأنفسنا منهجا بعيدا عن الردود والمناظرات وهو أصل في دعوتنا نتواصى به؛ ولأن حجم المتاح في مجلتنا الغراء لا يسمح بمعالجة كل أهداف الكاتب أو حاجيات القارئ، ومراعاة واجب الوقت ، فكانت هذه العبادة من خلال بيان جهود علماء الحديث عبر حديث الباب وذلك كل شهر ما أمكن، وينضاف إليه ما ييسره الله لنا من مباحث أخر حول حديث الشهر:

روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله)؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: (فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر).

المفردات:

(أحب إليه) أكثر حرصًا عليه. (ما قدم) صرفه في حياته في مصارف الخير. (ما أخّر) ما ادخره حتى مات وتركه لوارثه.

التخريج:

- هذا الحديث رواه الإمام البخاري بهذا اللفظ برقم (٦٠٧٧) في كتاب الرقاق، باب ما أنفق من ماله فهو له (٢٣٦٦/٥)، قال حدثني عمرو بن حفص حدثني أبي حدثنا الأعمش قال حدثني إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال عبد الله (أي ابن مسعود رضي الله عنه) وذكره.

- ورواه النسائي بمعناه (٢٣٧/٦) في (الكراهة في تأخير الوصية) برقم (٣٦١٢) بترقيم أبي غدة.

رجال الإسناد:

١- عمر بن حفص بن غياث بن طلق: من شيوخ البخاري ثقة ربما وهم من العاشرة روى له خ م د ت س . (تقريب التهذيب: ص٤١١).

٢- حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي أبو عمر الكوفي القاضي، ثقة فقيه تغير حفظه قليلاً في الآخر، روى له الجماعة. (تقريب التهذيب: ص١٧٣).

٣- سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي أبو محمد الكوفي الأعمش ثقة حافظ عارف بالقراءات ورع، لكنه يدلس روى له الجماعة. (تقريب التهذيب: ص ٢٥٤).

٤- إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، يكنى أبا أسماء الكوفي العابد ثقة إلا أنه يرسل ويدلس، روى له الجماعة. (تقريب التهذيب: ص ٩٥).

٥- الحارث بن سويد التيمي أبو عائشة الكوفي ثقة ثبت. (تقريب التهذيب: ص ١٤٦).

٦- عبدالله: هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فائدتان من الإسناد:

ظاهرة توريث الدين علما وعملا في حياة السلف: وهذه نستفيدها من قول عمر بن حفص حدثني أبي فأبوه حفص بن غياث هو الذي حدثه، وهو الذي ورثه هذا الدين، وهي فائدة تكلمنا عليها في الحلقة الماضية، ونؤكد عليها لعلتين:

أولاهما: أننا عرجنا عليها في المرة الماضية على عجالة؛ وذلك لضيق المقام.

والسبب الثاني: هو أهميتها في صلاح هذه الأمة - من وجهة نظري-.

فيقين الآباء أن نجاة أبنائهم الحقيقية إنما تكون في تعبيدهم لرب العالمين، وأنه لا فلاح ولا نجاح لهم في الدنيا والآخرة إلا في اتباعهم هدي سيد المرسلين؛ لو أيقن الآباء هذا لعكفوا ليل نهار على دفع أبنائهم إلى هذا علما وعملا فهمًا وتطبيقًا دعوةً وهمًا لتبليغ هذه الدعوة، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا أن فلاحهم ونجاحهم هم وفلذات أكبادهم فيما ذكرنا.

لذا وجدنا من أسلافنا من يؤلف رسالة خاصة لولده في مثل هذا المعنى تنطق بما في قلبه تجاه فلذة كبده كما فعل ابن الجوزي في كتابه (لفتة الكبد في نصيحة الولد) قال ص٢ مخاطبًا ولده: (اعلم يا بني وفقك الله أنه لم يميز الآدمي بالعقل إلا ليعمل بمقتضاه، فاستحضر عقلك وأعمل فكرك، واخل بنفسك، تعلم بالدليل أنك مخلوق مكلف وأن عليك فرائض أنت مطالب بها، وأن الملكين عليهما السلام يحصيان ألفاظك ونظراتك، وأن أنفاس الحي خطوات إلى أجله، ومقدار اللبث في الدنيا قليل، والحبس في القبور طويل، والعذاب على موافقة الهوى وبيل، فأين لذة أمس؟ قد رحلت وأبقت ندمًا، وأين شهوة النفس؟ نكست رأسًا وأزلت قدمًا.

وما سعد من سعد إلا بمخالفة هواه، ولا شقي من شقي إلا بإيثار دنياه، فاعتبر بمن مضى من الملوك والزهاد، أين لذة هؤلاء وأين تعبُ أولئك؟ بقي الثواب الجزيل والذكر الجميل للصالحين، والمقالة القبيحة والعقاب الوبيل للعاصين، وكأنه ما شبع من شبع، ولا جاع من جاع.

ثم اعلم أن طلب الفضائل نهاية مراد المجتهدين، ثم الفضائل تتفاوت، فمن الناس من يرى الفضائل الزهد في الدنيا، ومنهم من يراها التشاغل بالتعبد، وعلى الحقيقة فليست الفضائل الكاملة إلا الجمع بين العلم والعمل، فإذا حصلا رفعا صاحبهما إلى تحقيق معرفة الخالق سبحانه وتعالى، وحركاه إلى محبته وخشيته والشوق إليه، فتلك الغاية القصوى، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وليس كل مريد مرادًا، ولا كل طالب واجدًا، ولكن على العبد الاجتهاد، وكل ميسر لما خلق له، والله المستعان(ا.هـ كلامه).

وقد وجدنا هذه الظاهرة في حياة هؤلاء، فمعنا اليوم عمر بن حفص شيخ البخاري ورث العلم من أبيه حفص بن غياث، وكان معنا قبل ذلك محمد بن فليح، وأبوه فليح بن سليمان، وفي سير السلف الكثير من أمثال هؤلاء كالإمام أحمد وبنيه رحمهم الله، وكالشافعي وابنه، وأبو حاتم وابنه، وتفنى الصفحات ولا تنتهي مثل هذه النماذج التي أدركت الحقيقة؛ فعبَّدت أبناءها لرب العالمين، فهلا اقتفينا أثر هؤلاء؟!

الإمام الأعمش ظاهرة تحتاج إلى دراسة:

إننا لن نسهب في ترجمة الأعمش كعَلَم من أعلام أصحاب الحديث ونقلة الشرع الشريف، لكننا سنقف في سيرته على عبارة له وعليه، ألا وهي قول الحافظ السالف ذكره في التقريب: (ثقة حافظ عارف بالقراءات ورع، لكنه يدلس)، وقد يشعر الناظر نظرا سريعا أن أول العبارة الذي هو مدح يناقض آخرها الذي هو وصف بالتدليس (والذي هو إخفاء عيوب الحديث) ولكننا أردنا من بيان هذه العبارة أن نؤكد على شرف علماء الحديث.

أولاً: لبيان مكانة الأعمش بين علماء الحديث نؤكد على كلام الحافظ ابن حجر بكلام الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء (٦/٢٢٦) عندما ترجم للأعمش قائلا: هو الإمَامُ، شَيْخُ الإسْلاَمِ، شَيْخُ المُقْرِئِيْنَ وَالمُحَدِّثِيْنَ، أَبُو مُحَمَّد... الحَافِظُ،...قَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ: كَانَ الأَعْمَشُ أَقْرَأَهُم لكتَابِ اللهِ، وَأَحْفَظَهُم للْحَدِيْثِ، وَأَعْلَمَهُم بالفَرَائِضِ. وَقَالَ يَحْيَى القَطَّانُ: هُوَ عَلاَّمَةُ الإِسْلاَمِ.

وقَالَ وَكِيْعُ بنُ الجَرَّاحِ: كَانَ الأَعْمَشُ قَرِيْباً مِنْ سَبْعِيْنَ سَنَةً لَمْ تَفُتْهُ التَّكْبِيْرَةُ الأُوْلَى.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ الخُرَيْبِيُّ: مَا خَلَفَ الأَعْمَشُ أَعْبَدَ مِنْهُ...

قَالَ عِيْسَى بنُ يُوْنُسَ: لَمْ نَرَ نَحْنُ مِثْلَ الأَعْمَشِ، وَمَا رَأَيْتُ الأَغْنِيَاءَ عِنْدَ أَحَدٍ أَحقَرَ مِنْهُم عِنْدَهُ مَعَ فَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ.

قُلْتُ (أي:الذهبي): كَانَ عَزِيْزَ النَّفْسِ، قَنُوعاً، وَلَهُ رِزْقٌ عَلَى بَيْتِ المَالِ، فِي الشَّهْرِ خَمْسَةُ دَنَانِيْرَ،

قُرِّرَتْ لَهُ فِي أَوَاخِرِ عُمُرِهِ.
قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ: كَانَ الأَعْمَشُ يَعْرِضُ القُرْآنَ، فَيُمْسِكُونَ عَلَيْهِ المَصَاحِفَ، فَلاَ يُخْطِئُ فِي حَرْفٍ.
قلت (أي: الكاتب): ومع كل ما سبق من مدح الذهبي له من نقله لقول الإمام أحمد فيه فقال الذهبي: قال عَلِيُّ بْنُ سَعِيْدٍ النَّسَوِيُّ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُوْلُ: مَنْصُوْرٌ أَثْبَتُ أَهْلِ الكُوْفَةِ، فَفِي حَدِيْثِ الأَعْمَشِ اضْطِرَابٌ كَثِيْرٌ.) ا.هـ من سير الأعلام بتصرف.
وما سبق إن دل فإنما يدل على نقاء ورقي وتثبت هؤلاء الجهابذة أصحاب الحديث وأهل الإسناد؛ فلا يغرنهم كل ما شهدوا به للأعمش أن يَسِمُوه بالتدليس، ولا يحجبهم كونه مدلسا من شهادة حق يدلون بها تبين مكانته بينهم كما سبق أن بينا فهؤلاء الأسلاف كصيارفة الذهب يعرفون كيف يميزون الصالح من غيره..
وسؤالنا الآن فلماذا أخرج له البخاري وهو مدلس؟
الجواب: هذا أيضا مما يدل على مكانة علماء الحديث عامة، والبخاري خاصة؛ فلم يأخذوا الأحكام على علتها بل من إنصافهم وحرصهم على حفظ السنة والدفاع عنها نظروا في أحوال المدلسين، فكان من شأنهم أن قسموهم إلى خمس مراتب (كما ذكره ابن حجر في كتاب طبقات المدلسين ص١٣):
وجعل منهم من يقبل تدليسه ومنهم من لا يقبل تدليسه.
وبعد النظر إلى هذه المراتب نجد أن ابن حجر قد جعل الأعمش من الطبقة الثانية: أي ممن احتمل الأئمة تدليسهم، وأخرجوا لهم في الصحيح؛ لإمامتهم وقلة تدليسهم بجنب ما رووا؛ لذا أخرج له البخاري في الصحيح، فالبخاري يعرف عمن يأخذ حديث رسول الله، فليس في دين الله مجاملة لأحد؛ لأن الناقل لحديث رسول الله والذي عليه تنبني الأحكام وجوانب الشريعة إنما هو مُبَلِّغ عن رب العباد، فمن أثبت حديثا فقد أثبت دينا ومن عطل حديثا وأنكره فقد عطل دينا فكيف يجهل البخاري رحمه الله هذا؟ بل وسيرة الأعمش نفسه في تأديبه لطلابه (كشعبة وابن عيينة والثوري) وتعليمهم كيفية التحمل والتحري لكلام رسول الله تملأ الدواوين، بل ربما ضُرب به المثل في هذا؛ فلتراجع في مظانها.
من أجل هذا نقول: إن للبخاري والأعمش وأمثالهم في عنقنا دَيْنًا يجب علينا الوفاء به، فقد عانوا في نقل صحيح السنة إلينا، نعم قاموا بهذا الجهد للنجاة بأنفسهم لكن الذي لا يشكر الناس على معروفهم لا يشكر الله، فهل بعد هذا المعروف الذي صنعوه لنا نفرط في عرض هؤلاء لمن سبهم وتجرأ عليهم؟! أمن المعروف والشهامة أن ننكر الجميل؟! إن أقل ما يقدم إلى هؤلاء الجهابذة من أسلافنا الكرام نقلة الدين والداعين إليه هو أن نجعل من دعائنا قسطا معروفا لهم بما قدموه لنا من معروف قال تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (الرحمن: ٦٠).

الشرح

(قوله باب ما قدم من ماله فهو له):

أي هذا باب في بيان حال من قدم أي الإنسان المكلف من ماله فهو له؛ يجد ثوابه يوم القيامة والمراد بالتقديم صرف ماله قبل موته في مواضع القربات.
- قوله (أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله): أي إن الذي يخلفه الإنسان من المال وإن كان هو في الحال منسوبا إليه فإنه باعتبار انتقاله إلى وارثه يكون منسوبا للوارث فنسبته للمالك في حياته حقيقية ونسبته للوارث في حياة المورث مجازية، ومن بعد موته حقيقية، فالنبي صلى الله عليه وسلم يسأل: أيكم يحب المال الذي سيموت ويتركه لوارثه أكثر من حبه للمال الذي ينسب إليه هو في حياته يستمتع به وينفق منه بل وينفق منه على ورثته ولكن في حياته؟
- قوله (فإن ماله ما قدم) أي هو الذي يضاف إليه في الحياة وبعد الموت بخلاف المال الذي يخلفه فإنه مال وارثه ينتفع به من بعده. انظر: فتح الباري - ابن حجر (١١ / ٢٦٠).

ما يستفاد من الحديث:

١- الحث على الإنفاق في أوجه الخير.
قال ابن بطال وغيره عند شرح الحديث: فيه التحريض على تقديم ما يمكن تقديمه من المال في وجوه القربة والبر لينتفع به في الآخرة، وسيأتي مزيد بيان لهذه الفائدة لأنها لب الحديث.

٢- تأصيل مهم:

إننا لا يمكن أن نحيا بغير مال، فهو قوام الحياة، وهذا أمر مسلَّم به؛ لذا أمر الله عز وجل بالسعي لتحصيله كما قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥)، لكننا ننبه على ضوابط شرعية في هذا المسلك:

أ- الله تبارك وتعالى أخبر أن تحصيل المال إما بطريق طيب وإما بطريق محرم، فأباح الله لنا تحصيله عن طريق الطيبات، وحرم الله علينا تحصيله عن طريق ما حرمه من وسائل.

ب - أن الإنسان كما سيحاسب على ماله من أين اكتسبه؟ من حلال أم من حرام؟ فكذلك سيسأل فيم أنفقه؟ كما قال صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيم فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه) (رواه الترمذي من حديث أبي برزة وقال حسن صحيح).

ج - الإنسان لا يمكن أن يشبع مهما جُلب له من المال، فحري به أن يتحرى الحلال أولا، وألا يعطله كسب المال عن قضية العبودية ثانيا، بل يجعل هذا المال وسيلة لتحقيقها وليضع نصب عينيه حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب).

إذن فليس المراد من حديث الشهر أن نعرض عن الدنيا أو نتنسك، ولكن المراد هو أن ننزل الدنيا منزلتها الحقيقية فنجعلها بلاغًا للآخرة فتكون بما فيها من مال وبنين وجاه إنما هي لتحصيل التقوى وتحقيق العبودية وصيانة الدين لا العكس.

الإسلام دين الشمولية (إشكال وجوابه)

إننا نرى في تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه منهج الشمولية وهو المنهج الإسلامي في كل مناحي الدين فنحن إذا جمعنا الأحاديث بعضها إلى بعض عرفنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجنح تارة إلى ما تتعلق به النفوس ويتحدث عن الأموال، كهذه الأحاديث الذي اختارها البخاري في كتاب الرقاق، وتارة يتحدث عن النوافل في الصلوات وكأن الدين ليس فيه إلا صلاة، وتارة عن حق الجار، وأخرى عن حق الضيف، وهكذا فلا بد من النظر إلى السنة النبوية من خلال هذه النظرة الشمولية بالجمع بين أبوابها.

ومن هنا يأتي الجواب سؤال من قال: كيف نجمع بين حديث هذا الشهر وبين قوله صلى الله عليه وسلم لسعد رضي الله تعالى عنه: (إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس) عندما أراد سعد بن أبي وقاص أن يتصدق بماله كله، بل وبوّب البخاري على هذا الحديث باب: أَنْ يَتْرُكَ وَرَثَتَهُ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَتَكَفَّفُوا النَّاسَ.

قلنا كما بيّن ابن بطال (١٠/١٦٢) في شرحه على حديث الشهر: لا تعارض بينهما؛ لأن سعدًا أراد أن يتصدق بماله كله في مرضه، وكان وارثه بنته ولا طاقة لها على الكسب فأمره أن يتصدق منه بثلثه ويكون باقيه لابنته وبيت المال، وحديث الباب إنما خاطب به أصحابه في صحتهم وحرضهم على تقديم شيء من مالهم لينفعهم يوم القيامة، وليس المراد منه أن تقديم جميع ماله عند مرضه؛ فإن ذلك حرمان للورثة وتركهم فقراء يسألون الناس وإنما الشارع جعل له التصرف في ماله بالثلث فقط). اهـ كلام ابن بطال.

ولذلك نؤكد أننا لا نقصد أبدًا أن نؤصل لخلق القسوة واللامبالاة بالورثة بل أردنا أن ندرك حقيقة العلاقة بين المرء ودنياه بكل ما فيها ولا يدهش المرء إن قرأ قول الشاعر على لسان رجل تخيل أنه قد مات، فقال:

تمرُّ أقاربي جنبات قبري
كأنَّ أقاربي لا يعرفوني
وذو الميراث يقتسمون مالي
ولا يألون إن جحدوا ديوني!!
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا
فيا لله أسرع ما نسوني!!

فمن أدرك هذا فليقدم لنفسه من ماله ما يحب؛ فإنه إذا قدمه كان له بين يديه، ينتفع به في دار الإقامة.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

تهنئة واجبة

١- للشيخ الدكتور/ مرزوق محمد مرزوق، عضو مجلس الإدارة واللجنة العلمية بجمعية أنصار السنة المحمدية على أعلى سند في إجازة في القراءة والإقراء في القرآن الكريم في العالم في هذا الزمان برواية حفص عن عاصم، ومجيزه هو الشيخ محمد يونس الغلبان، من تلاميذ الشيخ الفاضلي رحمه الله.

٢- الشيخ عماد عيسى، بجمعة أنصار السنة بفيصل، لحصوله على درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز من كلية أصول الدين بالأزهر الشريف، وكانت الرسالة بعنوان: «الصبغة الحديثية وأثرها في الترجيح بين المذاهب الفقهية».

وأسرة تحرير مجلة التوحيد تتمنى لهما مزيدًا من الرقي والتقدم.

رئيس التحرير

Upload by: altawhedmag.com

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فأينما حلت بالمسلم أرجله يجد اللوم في كل مكان على تقصيرنا في الرد على المشككين في سنة سيد المرسلين بوسائلهم المختلفة وطرقهم المتنوعة ومآربهم الكثيرة.

ونحن نقول لهم: وهل تناقش البديهيات إلا في زمن الغفلة؟! ولأننا لا نحيد عن طريقة التعليم والتي هي من هدي سيد المرسلين ولا نتبنى منهج الردود والمناظرات؛ فكان من شأننا في هذا الشهر الكلام في التدليل على خيرية القرون الأولى المفضلة ودفع ظنون من قال بخلاف ذلك مع كوننا نعتقد أنه من البديهيات لكنه الواقع يفرض نفسه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده إلى عبدالله بن مسعود عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ).

التخريج:

هذا الحديث رواه أصحاب الكتب الستة جميعا (البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة)؛ وأكتفي بتخريج البخاري ومسلم لضيق المقام ولكفايتهما.

١- البخاري (ط/دار طوق النجاة):

- رواه بلفظه السالف في كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٤٢٩) قال: حَدَّثَنَا عَبْدَانُ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَبِيدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وذكر الحديث.

- وفي نفس الباب من حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رقم (٦٤٢٨ بزيادة).

- ورواه في كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد رقم (٢٦٥١) من حديث عمران بن حصين، ورقم (٢٦٥٢) من حديث عبد الله ابن مسعود السالف ذكرهما في الرقاق.

- ورواه في كتاب فضائل الصحابة، بَاب فَضَائِلِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ رَآهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ، (٣٦٥٠) من حديث عمران بن

حصين، (٣٦٥١) من حديث عبدالله بن مسعود.
- ورواه في كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال أشهد بالله أو شهدت بالله رقم (٦٦٥٨) من حديث عبدالله بن مسعود.
وفي (باب إثم من لا يفي بالنذر) من حديث عمران بن حصين رقم (٦٦٩٥).
٢- ورواه الإمام مسلم (ترقيم عبدالباقي)
- باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) (٢٥٣٣) من حديث عبد الله بن مسعود، وبرقم (٢٥٣٤) بمعناه عن أبي هريرة بزيادة، وبرقم (٢٥٣٥) عن عمران بن حصين بلفظه الذي نقله عنه البخاري.

ترجمة رجال إسناد الحديث مختصرًا:

١- عَبْدَانُ: هو عبد الله بن عثمان أبو عبد الرحمن المروزي، ثقة حافظ من العاشرة (تقريب التهذيب ١/٣١٣).
٢- أبو حمزة: هو محمد بن ميمون المروزي أبو حمزة السكري، ثقة فاضل. (التقريب: ١/٦٣٤٥).

فائدة من سيرة أبي حمزة رحمه الله:

في ترجمته لأبي حمزة يقول الإمام الذهبي في السير (٧/٣٨٦): قال عباس الدوري: كان أبو حمزة من الثقات، وكان إذا مرض عنده من قد رحل إليه (زائرا لطلب العلم أو غيره)، ينظر إلى ما يحتاج إليه من الكفاية، فيأمر بالقيام به، ولم يكن يبيع السكر، وإنما سمي السكري لحلاوة كلامه..
وكان إذا مرض الرجل من جيرانه، تصدق بمثل نفقة المريض، لما صرف عنه من العلة.
وعن معاذ بن خالد قال: سمعت أبا حمزة السكري يقول: ما شبعت منذ ثلاثين سنة، إلا أن يكون لي ضيف.
وروى إبراهيم الحربي، عن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، قال: أراد جار لأبي حمزة السكري أن يبيع داره، فقيل له: بكم؟ قال: بألفين ثمن الدار، وبألفين جوار أبي حمزة.
فبلغ ذلك أبا حمزة، فوجه إليه بأربعة آلاف (الثمن الذي أراد أن يبيع به)، وقال: لا تبع دارك.
لذلك لما سئل ابن المبارك عن الاتباع فقال: الاتباع ما كان عليه الحسين بن واقد وأبو حمزة. اهـ. من سير أعلام النبلاء.
فانظر رحمنا الله وإياك لقد كان سلوك هؤلاء الأماجد من سلفنا الصالح ترجمة عملية لما تعلموه من خلق نبوي كريم، فما أحوجنا إلى هذا في هذه الأزمنة المتأخرة والتي نعاني فيها أزمة أخلاقية، ما أحوجنا إلى إبراز سنة نبينا وأخلاقه كواقع عملي تتأصل أول معالمه في توحيد الله عز وجل، ثم تتجلى ثمرة ذلك وآيته في معاملاتنا وأخلاقنا وسلوكنا فتكون دعوتنا كدعوة أسلافنا علما وعملا فهما وتطبيقا، فالطريق معلومة وصلاح هذه الأمة بما صلح به أولها، وما لم يكن يومئذ دينا فليس اليوم دينا.
٣- الْأَعْمَشِ: هو أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش، وقد سبق الترجمة له في العدد السابق (جمادى الآخرة) وغيره فلتراجع لأهميتها.
٤- إِبْرَاهِيمَ: هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، أبو عمران الكوفي، الفقيه ثقة إلا أنه يرسل كثيرا. (تقريب التهذيب ج ١ ص ٢٦٦).
فائدة: ذكر الذهبي في السير (٤/٥٢٦) في ترجمة إبراهيم النخعي قال: قال نعيم بن حماد: حدثنا جرير، عن عاصم، قال: تبعت الشعبي، فمررنا بإبراهيم، فقام له إبراهيم عن مجلسه، فقال له الشعبي: أما إني أفقه منك حيا، وأنت أفقه مني ميتًا، وذاك أن لك أصحابا يلزمونك، فيحيون علمك، فيقول إبراهيم: تكلمت، ولو وجدت بدًا، لم أتكلم، وإن زمانًا أكون فيه فقيهًا لزمان سوء. اهـ من سير أعلام النبلاء.
(قلت: وهذا هو السلوك العملي في الدعوة ونشر العلم الشرعي بين الناس فطريقة التأليف والكتابة المجردة عن التعليم العملي لا تكفي ولا تعارض بين السعي الداعية أن يكون له تلامذة يعلمهم ويؤدبهم، وبين تواضعه واتهامه لنفسه كما فعل إبراهيم).

٥- عَبِيدَةَ: عبيدة بن عمرو السلماني المرادي أبو عَمرو الكوفي تابعي كبير مخضرم فقيه ثبت كان شريح إذا أشكل عليه شيء يسأله. (تقريب التهذيب ١/٤٤٠٤).

٦- عَبْدِ اللَّهِ: هو الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

درجة هذا الحديث

إن حديثا - كما تفضلتم ورأيتم - اتفق عليه الشيخان بل ورواه باقي أصحاب الكتب الستة فضلاً عن غيرهم من المحدثين من غير الكتب الستة الكثير كما في (مسند الإمام أحمد)، و(سنن البيهقي الكبرى)، (والمعجم الأوسط للطبراني)، و(أبو نعيم في المعرفة)، و(ابن أبي عاصم في السنة)، و(شرح معاني الآثار للطحاوي) و(صحيح ابن حبان)، و(مسند أبي يعلى) وغيرهم الكثير، وما أكثرت من ذكر من رواه إلا ليعرف الناس قوة هذا الحديث فيعتقدون أحكامه يقينًا لا سيما خيرية أسلافنا رضي الله عنهم، بل وورد ما يفيده المعنى من هذه الخيرية في أحاديث أخرى كما في صحيح مسلم وغيره، ألا يمكن أن يقال فيه ما قاله الألباني رحمه الله في غير موضع من كتبه أنه: (متواتر)، وهل بعد هذه القوة يمكن أن ينكر مثل هذا الحديث إن كان جواب المنصفين بلا؟!

ونحن لا نخاطب إلا أهل الإنصاف نسألهم سؤال آخر إن كان قد ثبت عندكم هذا الحديث فماذا يفيدنا معناه؟ لا شك أنه من أقوى الأدلة على خيرية هذه القرون وأفضليتها كما هو ثابت بنص الحديث، فهل يمكن لنا بعد هذا أن نتنقص من هؤلاء الأكابر؟

إن شكر الناس ومعرفة أقدارهم والوفاء لهم من الإيمان، ونحن ننشد فيكم إيمانكم بالله عز وجل، فهلا تفرغنا لنصرة ديننا ثم الترضي على أسلافنا والدعاء لهم بدلاً من نقدهم للتنقص منهم ظلما كما هو حادث الآن من بعض المغرضين؟ ألا فلينتبه إخواننا الطيبون الذين ينخدعون بدعاوى التطور الزائفة، أو دعاوى تحكيم العقل الخادعة، أو دعاة البحث عن الحقيقة الكاذبة، ألا فلينتبهوا من الانزلاق في مثل هذه المستنقعات النتنة والتي بدت ريحها منذ أن وجدناهم قد تطاولوا بالسب والتنقص من أسلافنا الكرام، إن طفلاً صغيرًا يبحث عن مصلحته لا يمكن أن ينخدع بمثل دعاوى هؤلاء، فما بالنا ونحن نخاطب قومًا نتوسم فيهم العقل والقلب جميعًا، كيف يتسنى لهم مع رجحان العقل أن ينخدعوا بمثل هذه المهاترات؟!

فائدة: مناسبة الترجمة للباب:

في تعليقه على ترجمة البخاري للحديث أفاد ابن المنير السكندري في كتابه (المتواري على تراجم أبواب البخاري): أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حذر من الوقوع في فتنة الدنيا في غير ما حديث، ثم هو قد برّأ هذه القرون في هذا الحديث، فأراد البخاري أن يثبت بهذا التبويب أن هؤلاء السلف بهذه الخيرية التي وصفهم بها النبي قد نجوا من هذه الفتنة التي حذر منها صلى الله عليه وسلم.

فانظروا -رحمنا الله وإياكم- إلى عميق فهم الإمام البخاري رحمه الله، وما فتح الله عليه به، أبعد هذا الفتح والفهم فضلاً عن واسع العلم والسيرة العطرة يتهجم على مثله ويُنكر فضله وصالح جميله علينا؟!

فائدة منهجية:

وفي تعليقه على الحديث يقول الشيخ الألباني رحمه الله:

وفي ذلك دلالة واضحة على أنَّ المسلمين جميعاً في هذه العصور المتأخرة لا يجوز لهم أن يخالفوا سبيل المؤمنين الأولين؛ لأنهم كانوا على هدى من ربهم فهديهم منهاج يجب على المسلمين في العصر الحاضر أن يلتزموه، وأن لا يكونوا بعيدين عنه، فلا يكفي اليوم أن نقول نحن على الكتاب والسنة ثم نختلف في فهم الكتاب والسنة فالرجوع إلى السلف الصالح في فهمهم هو ضمان وأمان ا.هـ بتصرف.

وإن على رأس هؤلاء السلف أهل الثلاثة قرون الأولى فمن هم يا ترى؟

عدالة الصحابة وخيرية القرون الأولى؟

إن الصحابي هو من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنًا به ومات على الإسلام، وهو ما جزم به البخاري، وهو قول أحمد والجمهور من المحدثين واختاره الحافظ في النخبة، وأفاده في الفتح (٣/٧)، وعلى ما بين أهل السنة في حد الصحبة من اختلاف فإنهم لا يختلفون في اعتقاد عدالتهم جميعًا، كما قرر ذلك أئمتنا ونص عليه في كتاب «تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة» (١/٦٠) يقول:

والذي ذهب إليه جمهور السلف والخلف، أن العدالة ثابتة لجميع الصحابة رضي الله عنهم، وهي الأصل المستصحب فيهم، وهذه المسألة عظيمة الجدوى، والحاجة إليها ماسة في أصول الدين وأصول الفقه جميعاً.

ولذلك لا تجد المخالفين في هذه المسألة إلا شذوذاً لا يعتد بهم من أهل البدع ومن في قلبه مرض.

وعدالة الصحابة تعني استقامتهم على الدين والتزامهم بأوامره وانتهائهم عن نواهيه، وأنهم لا يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بما اتصفوا به من قوة الإيمان والتزام التقوى والمروءة وسمو الأخلاق والترفع عن سفاسف الأمور.

والأدلة على عدالة الصحابة ثابتة من القرآن والسنة النبوية وكلام من يعتد بهم من أئمة الدين والعلم من السلف الصالح ومن جاء بعدهم فضلا عن حديثنا هذا.

أيحسن بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه الخيرية التي شهد لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل وشهد لهم القرآن قبل السنة في غير ما موضع، ومن ذلك قوله تعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » (الحشر:٨)، أي أن الله عز وجل قد شهد لهم بالصدق، أيسعنا بعد ذلك البحث في أحوالهم؟ لا شك أن مجرد الجواب على مثل هذا قد يسيء إلى المخاطب، وهذا لا أرتضيه لنفسي ولا لغيري، فمن أين إذن أتى هؤلاء المتجرئون على الصحابة بجرأتهم؟ لا شك أن هواننا على أنفسنا وهوان ديننا علينا أهاننا في أعين هؤلاء الضعفاء!!

ويتضح من الحديث كذلك: أن الصحابة أفضل من التابعين، وأن التابعين أفضل من أتباع التابعين، وهكذا على سبيل المجموع، وكانت نظرة التابعين للصحابة تدل على هذا الفهم.

قال في فيض القدير (٦٣٨/٣): قال الحسن البصري: التابعي الكبير المُجمَع على جلالته وإمامته: لقد أدركنا أقواماً -أي وهم الصحابة- أهل القرن الأول كنا في جنبهم لصوصاً، وقال: أدركنا الناس وهم ينامون مع نسائهم على وسادة واحدة عشرين سنة يبكون حتى تبتل الوسادة من دموعهم لا يشعر عيالهم بذلك، وقال: ذهبت المعارف وبقيت المناكير ومن بقي اليوم من المسلمين فهو مغموم وكان كثيراً ما ينشد:

ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميت ميت الأحياء

وقال الربيع بن خيثم: لو رآنا أصحاب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقالوا هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب.

قلت: فما بال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لو سمعوا عنا في هذه الأيام؟

بشرى:

إن النبي صلى الله عليه وسلم بشرنا ببشرى أزفها إليكم وهي خيرية هذه الأمة جميعًا، أولها وآخرها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». (متفق عليه). ولا تعارض بين هذا المعنى وبين حديث الباب، فخيرية الأمة لا تنتهي إلى قيام الساعة، وفضل الله واسع، فعلى المرء العمل، وربنا الكريم يدبر لنا، فاللهم دبر لنا فإننا لا نحسن التدبير، واجبر اللهم كسرنا وأصلح فساد قلوبنا، وأحسن خاتمتنا واجمعنا بحبيبنا وشفيعنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا تحرمنا لذة النظر إلى وجهك الكريم، والحمد لله رب العالمين.

أمانة الكلمة بين ورع المتبعين وإسراف المخالفين

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فإن من أهم وأخطر ما يحاسب عليه العبد حصاد لسانه، وحصاد لسانه هو طرح جنانه، فاللسان تابع للقلب وعلامة عليه... والقلب المتصل بالله يورث لسان صاحبه سكونا ووقارا، وأحكام اللسان لا يمكن بحال أن تفصل في مقال واحد، لذا آثرت أن أتناول آدابه أطوف فيها مع حضراتكم على قدر وسعنا مع حديث عنونت له كما تفضلتم وقرأتم "الكلمة بين ورع المتبعين وإسراف المخالفين"، وقد جعلت هذا المقال تأكيدا وتتمة لما كتبه شيخنا فضيلة الشيخ صفوت نور الدين رحمه الله تعالى، والذي أعيد نشره في عدد شوال لعام أربعة وثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية بعنوان الكلمة بين الأمانة والحرية، فلتتكرموا بمراجعته لعظيم فائدته.

هذا وتأتي خطورة الكلمة من كونها قد ترفع صاحبها إلى الجنة وقد تضعه في النار، وفي هذا المعنى يرد حديث الباب الذي رواه إمامنا شيخ المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ من رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لها بَالًا يرفعه اللَّهُ بها دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ من سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لها بَالًا يهوى بها في جَهَنَّمَ".

عزو الحديث:

هذا الحديث بهذا اللفظ رواه الإمام البخاري في كتاب الرقاق / بَاب حِفْظِ اللِّسَانِ وَقَوْلِ النبي صلى الله عليه وسلم من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: (ما يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (٦١١٣) (٢٣٧٦/٥) ط٣/دار ابن كثير بيروت).

قال البخاري: حدثني عبد الله بن مُنير سمع أَبَا النَّضْرِ حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله يَعْنِي بن دِينَارٍ عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة فذكره.

والحديث نجد بعضه عند مسلم (٢٩٨٨)، ورواه ابن ماجة بمعناه تامًا في باب كفّ اللسان في الفتنة ج١٣١٢/٢، وروى بعضه الترمذي في بَاب فِيمَنْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يُضْحِكُ بها الناس (٥٥٧/٤) ورواه بتمامه في بَاب (في قلة الكلام) (٥٥٩/٤)، ورواه غير أصحاب الكتب الستة.

تراجم رجال الحديث:

١- عبد الله بن مُنير: أبو عبد الرحمن المروزي الزاهد ثقة عابد من الطبقة الحادية عشرة ويفرق بينه وبين واحد من نفس طبقته اسمه عبد الله بن منير أيضا لكنه يكنى بأبي محمد السرخسي، وهو مقبول ترجم له ابن حجر في الترجمة التي بعده ص ٣٢٥.

فائدة: ومنه يتبين مدى دقة أسلافنا الكرام في حكمهم على الرجال مما يحفّز هذه الأمة على الفخر بهذا العلم الشريف الذي تميزت به، ويدفعها هذا إلى شكر هذه النعمة والعمل للحفاظ عليها.

فائدة تربوية:

عبد الله بن منير كان من شيوخ البخاري كما رأيتم، ومع هذا كان إذا ذهب رجل يعرفه ابن منير إلى بخارى بلد البخاري، ثم عاد إلى ابن منير يسأله هل لقيت البخاري؟ فإن قال: لا، طرده من مجلسه، وقال: لا خير في رجل يذهب لبلد البخاري ولا يكون حريصًا على لقائه، ثم يقول: البخاري شيخي مع أن ابن منير هو شيخ البخاري، وهذا من تواضع العلماء، فالعلم الذي لا يدعو صاحبه إلى عبادة التواضع لا خير فيه، فما بالنا بعلم يدعو صاحبه إلى الترفع والتعالي على الناس بحجج واهية كأن يظن أن تواضعه فيه إهانة للعلم أو أن مثله لا بد أن يؤتى إليه، أو نحوا من ذلك مما يحتاج إلى ضبط نفس وفقه واقع، ولعل فلسفة ابن منير في طرد من لم يحرص على رؤية البخاري ممن ذهب إلى بلده هي أن محبة أهل الحرص على الالتقاء بهم دليل على صحة المنهج، وأن المعرض عنهم والمترفع عليهم دليل على فساد منهجه، وهذا واقع بكثرة، ومثل هذا عليه أن يراجع نفسه. (وانظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ط/ دار الحديث ١٠/ ٣٤).

٢- أبو النضر: هاشم بن القاسم بن مسلم الليثي مولاهم البغدادي ولقبه قيصر، ثقة ثبت. تقريب التهذيب (ص ٥٧٠).

٣- عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار: عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار مولى ابن عمر صدوق يخطئ من السابعة أخرج له (خ د ت س) تقريب التهذيب (ص ٣٤٤).

٤- عن أبيه: يعني عبد الله بن دينار: أبو عبد الرحمن المدني مولى بن عمر ثقة من الرابعة، مات سنة سبع وعشرين. ع.

ويحذر من اختلاطه بعبد الله بن دينار البهراني الأسدي أبو محمد الحمصي ضعيف من الخامسة، وهكذا نرى دقة علمائنا في تراجم الرجال والحكم عليهم، وما هذا إلا لأنه دين الله الذي لا مجاملة فيه. تقريب التهذيب (ص ٣٠٢).

٥- أبو صالح: هو ذكوان السمان الزيات المدني ثقة ثبت. (تقريب التهذيب ص ٢٠٣).

٦- أبو هريرة رضي الله عنه: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الشَّرْحُ:

هذا الحديث رواه البخاري في بَاب حِفْظ اللِّسَان وَقَوْل النبي صلى الله عليه وسلم: "مَن كَان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ" وَقَوْلِه تَعَالَى: (ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ).

وحديثنا في هذا الشهر يوضح أهمية الكلمة والعضو المسئول عنها هو اللسان، لذا وجدنا تبويب الإمام البخاري رحمه الله لهذا الحديث بباب حفظ اللسان، ثم يفصل لهذا الفهم، فيوضح لنا أن هذا الحفظ لا يراد به الإغلاق عليه في الفم فينتج عنه الصمت المطلق، ولكن هذا الحفظ معناه أن يعمل هذا اللسان في الخير الذي كلفه الله به، فإن لم يكن فالحفظ يكون بالصمت، ثم يزيد الأمر وضوحًا بعد وضوح فيورد لنا قول الله تعالى: (ما يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)، وهو قضاء شديد من رب العزة يوضح أن حصائد الألسنة كلها مكتوبة؛ لأن الله عز وجل خلق لنا اللسان محفوظا في الفم المغلق فلا يفتح إلا بقصد، فكان من كمال عدله أن يحاسب المتكلم على هذا القصد.

يقول ابن بطال البكري في شرحه على صحيح البخاري (١٠/ ١٨٦): وقوله - صلى الله عليه وسلم -: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت) يعني من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه ستبعثه قوة إيمانه على محاسبة نفسه في الدنيا، والصمت عما يعود عليه ندامة يوم القيامة. وقال عمر بن عبد العزيز لرباح بن عبيد: بلغني أن الرجل ليظلم بالمظلمة، فما زال المظلوم يشتم ظالمه حتى يستوفي حقه، ويفضل للظالم عليه. اهـ.

وهنا يرد سؤال: إذا لم يعلم الإنسان الحكم فيما يقول أهو خير أم شر فهل يتكلم أم يسكت؟

إن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "فليقل خيرا أو ليصمت" يدل على أن الكلام قسمان؛ إما خير يتكلم به أو شر يمسك عنه، ويؤكد هذا قول الله تعالى: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد إذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)، وخرّج ابن أبي الدنيا: "وهل تقول شيئًا إلا وهو لك أو عليك"؟

واختلفوا: هل يُكتب كل ما يتكلم به، أو لا يكتب إلا ما فيه ثواب أو عقاب؟ على قولين مشهورين.

ومن هنا يُعلم أن ما ليس بخير من الكلام، فالسكوت عنه أفضل من التكلم به، اللهم إلا ما تدعو إليه الحاجة.

درر من كلام السلف

وكان أبو بكر رضي الله عنه يأخذ بلسانه ويقول: "هذا أوردني الموارد".

وقال ابن مسعود: والله الذي لا إله إلا هو، ما على الأرض أحق بطول سجن من اللسان.

وقال وهب بن منبه: أجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت.

وقال الفضيل بن عياض: "ما حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان، وقال: سجن اللسان سجن المؤمن، ولو أصبحت يهمك لسانك، أصبحت في غم شديد".

وسئل ابن المبارك عن قول لقمان لابنه: إن كان الكلام من فضة، فإن الصمت من ذهب، فقال: معناه: لو كان الكلام بطاعة الله من فضة، فإن الصمت عن معصية الله من ذهب. وهذا يرجع إلى أن الكف عن المعاصي أفضل من عمل الطاعات.. وتذاكروا عند الأحنف بن قيس، أيهما أفضل الصمت أو النطق؟ فقال قوم: الصمت أفضل، فقال الأحنف: النطق أفضل؛ لأن فضل الصمت لا يعدو صاحبه، والمنطق الحسن ينتفع به من سمعه. (وانظر: جامع العلوم والحكم ص١٣٥).

قلت: وهذا باب يطول استقصاؤه، والخلاف فيه واسع، ولكن المقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر المتكلم أن يتكلم بالخير، وأن يسكت عما ليس بخير؛ فليس الكلام مأمورًا به على الإطلاق، ولا السكوت كذلك، والله أعلم.

ومن حديث الشهر:

هذا وفي معرض شرحه لحديثنا يفيد شيخنا ابن عثيمين في شرحه لرياض الصالحين (ص:١٧٤٤): أن الرجل يتكلم بالكلمة من رضوان الله: أي كلمة ترضي الله؛ قرآن، تسبيح، تكبير، تهليل، أمر بالمعروف، نهي عن المنكر، تعليم علم، إصلاح ذات البين، وما أشبه ذلك، يتكلم بها ولا يلقي لها بالاً، يعني أنه لا يظن أنها تبلغ به ما بلغت، والا فهو قد درسها وعرفها وألقى لها البال، لكن لا يظن أن تبلغ ما بلغت يرفعه الله له بها درجات في الجنة.

وعلى عكس ذلك رجل يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي بها بالاً يهوي بها في النار: أي كلمة لا ترضي الله كإفساد ذات بين أو فتنة، أو تألي على الله، أو احتقار مسلم أو ما يُشعر بكبر أو غرور أو تعالي أوغيبة أو نميمة أو بهتان أو تجريح أو ما فيه صدّ عن سبيل الله أو نحو ذلك مما لا يرضي الله عز وجل.. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١١/ ٣١١): "قوله: (لا يلقي لها بالاً) أي: لا يتأملها بخاطره ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظن أنها تؤثر شيئا.

هذا ولنا هنا وقفة مع ثلاث طوائف من الناس:

أولاهما: مع أصحاب الكلمة المكتوبة:

ها قد رأيتم طرفا من خطورة الكلمة عموما وتزداد هذه الخطورة مع المكتوبة منها؛ وذلك لأنها ما كتبت إلا اختيارا بخلاف ما يوصف أنه سبق لسان ونحن وان كنا نحسب أن كثيرًا من الكتاب أصحاب رسالة يريد توصيلها ونشرها، لكننا نذكّر أنفسنا واياهم بيوم العرض على الله والذكرى تنفع المؤمنين نقول: لا يغرنكم ما ينادي به بعض الناس من نشر الفكر التنويري، ثم هم في سبيل ذلك يسلكون كل مسلك حلالاً كان أم حرامًا، فالغاية عندهم قد بررت الوسيلة، وهذا بفرض صحة هذه الغاية ولا يغرنكم ما يتناقله بعض أصحاب الصحف من حرية الرأي، وأن الجريدة غير مسئولة عن رأي الكاتب، نعم قد لا تكون مسئولة في الدنيا لكنها عند الله مسئولة وعند الله تجتمع الخصوم.

ولا تصلح اللجاجات والفلسفات الجدلية الباطلة، ولا يغرنّ كاتب خبر أو مقالة أو كتاب قد يحقق به شهرة لكنه قد يهدم بها كيانا عامرًا

ينشر الخير ويدعو إليه فيسيء ويظلم مجتمعا بأسره من حيث لا يعلم.

إن الله عز وجل قد رزقكم منابر دعوة تدعو إلى الخير وتحث عليه، فلا تقصروا في شكر هذه النعمة باستثمارها في تثقيل موازينكم يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

والثانية: طلاب العلم

أولاً: الجرح والتعديل قائم في الأمة إلى قيام الساعة، لكن بشروطه وضوابطه المعلومة لدى أهل العلم، وقد كان يقوم به أفذاذ أهل العلم لا جميعهم.

ثانيًا: إنه مما ابتُليت به الساحة الاسلامية في هذه الأيام ما أشيع بين بعض الإخوة من واجب أوجبوه على أنفسهم، وظنوا أنه لا يستقيم إلتزامهم إلا به ألا وهو إحاطتهم بالحكم على أهل العلم والدعوة بل ودعوة غيرهم إلى ما وصلوا إليه من أحكام في هؤلاء الدعاة، ومن الغريب أنهم ربما ابتدأوا بهذا المرض أو التكليف الذي كلفوا أنفسهم به، ابتدأوا به من الوهلة الأولى لالتزامهم ودخولهم المساجد ولأنهم قد بدأو بهذا الخلق وتعلموه وأتقنوه، ولأنه علم لا يحتاج إلى مجاهدة بل قد يجد الإنسان من حظ نفسه ما يدفعه إلى هذا ويحببه فيه، فإنه يصير من الوهلة الأولى داعيا بدوره إلى هذا الخلق.

وهكذا يتولد عندنا جيل كبير يتسم بالجرأة على أهل العلم والفضل، ويصير معول هدم في جسد الدعوة التي تعب فيها أسلافنا حتى وصلت إلينا فضلاً وأمانة في أعناقنا، أقول لهؤلاء الإخوة: لا يخفى على أمثالكم من طلبة العلم خطورة الكلمة ومزالق اللسان، كما لا يخفى عليكم أن الله عز وجل قد جعل استقامة اللسان من علامات الإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم كما في المسند من حديث أنس "لا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه"، فانتبهوا وارفقوا بأنفسكم يرحمكم الله، ولا تكلفوا أنفسكم بما لم تكلفوا به، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

وللثالثة (وهم عامة الناس) أقول: انتبهوا: فكلامكم ستحاسبون عليه:

وذلك في واقعنا جميعا وصوره كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- فمنها أن يثق الناس في ناصح فيستشيرونه في أحوالهم فبدلاً من تهدئتهم وحسن نصحهم قد تخرج من الناصح كلمة تودي بهم إلى خراب، وذلك كما يحدث بين بعض الأزواج أو نحو ذلك.

٢- ومنها: أن يتكلم رجل عند مديره كلاما يمتدح فيه نفسه، فيفيد الطعن في زملائه.

٣- ومنها: أن تتكلم المرأة في أختها كلاما لتشعر زوجها بفضلها فتهلك نفسها،

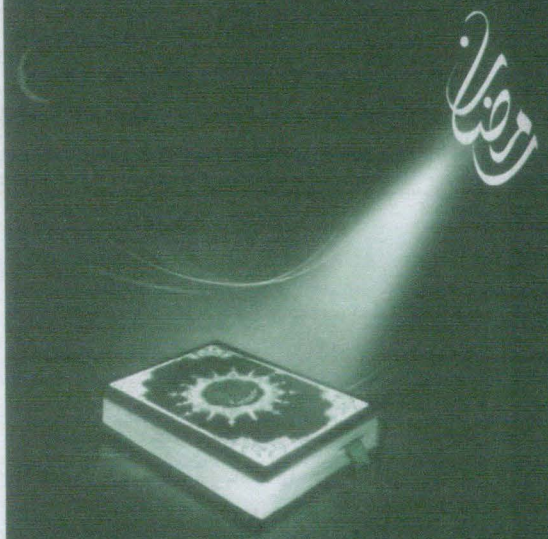
٤- ومنها: أن يجلس الرجل للصلح بين اثنين عسى الله أن يصلح بينهما فيخرج منه كلام يزيد الأمر بينهما اشتعالا.. وهكذا.

وأهم مما سبق جميعه: أن يتكلم الإنسان في دين الله بغير علم كلاما قد يصل إلى الكفر والعياذ بالله؛ كأن يتجرأ على رسول الله وسنته بل وعلى كتاب الله وأحكامه هذا فضلاً عن جرأتهم على أصحاب رسول الله ونقلة الدين من سلفنا الصالح ومن تبعهم بإحسان رضى الله عنهم أجمعين يحل بذلك جميعه عرى الدين عروة عروة، وكل ذلك بدعوى العقل والفكر زعموا فوالله لو رزق المتكلم بهذا أدنى درجات الفهم ما ورط نفسه في هذا الوحل، ألا فليعلم هؤلاء جميعا قدر الكلمة في الإسلام فبها يثبت للعبد أحكام الإسلام، وبها تستحل الفروج، وبها تنعقد العقود، وقد يكتب للمرء بها الجنة أو يودي نفسه بسببها في النار أعاذنا الله، وإياكم من دار البوار.

ونختم بكلام لابن القيم رحمه الله في كتابه: (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) ص٢٣٥:

"ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام، والظلم، والزنا والسرقة، وشرب الخمر، ومن النظر المحرم، وغير ذلك ؛ ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى يرى الرجل يشار إليه بالدين، والزهد، والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقى لها بالا ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد ما بين المشرق والمغرب. وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالى ما يقول).

وصلى الله وسلم على رحمة الله للعالمين نبينا وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



رمضان بين العادة والعبادة

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعدُ؛

فلقد اعتادت مجلتنا - لسان دعوة التوحيد - أن تخرج عن طورها فرحة بقدوم رمضان خروج الشاكرة المحتفلة المتوثبة المشتاقة المتزينة بأبهى ما يتزين المحب لاستقبال حبيبه، فكان من مظاهر ذلك أن تلقي على مادتها مما أفاض الله عليها به من استعدادها لهذا الشهر، فتخرج لنا في حُلة خاصة تذكر الناس بالضيف الكريم الذي حل بقلوبهم، وما ينبغي عليهم مما يستطيعون تجاهه، فكان مما اخترت لنفسي عنوانًا أخذ بمجامع قلبي رمقته بين عناوين طرحها علينا قلب مجلتنا وهو ينبض بحب الشهر، ألا وهو ما أسلفت لك وقرأت أنت.

فأردت - من باب توبتي إلى الله في استقبال شهرنا - أن أدور حوله معتمدا على حديث يحفظه الجميع ولا يوفي شكر نعمته إلا من رحم ربي وعند الله العفو والفضل، وحديثنا هو: ما رواه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه". رواه البخاري ومسلم.

من فرائد هذا الحديث:

١- يبتدئ به العلماء كتبهم، ومن ذلك ما فعله البخاري فصدَّر به كتابه الصحيح، وأقامه مقام الخطبة له؛ إشارة منه إلى أن كل عمل لا يُراد به وجه الله فهو باطل لا ثمرة له في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي: "من أراد أن يصنّف كتابا فليبدأ بحديث الأعمال بالنيات".

٢- وهذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور الدين عليها، فقد روي عن الشافعي أنه قال: «هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين بابا من الفقه». وعن الإمام أحمد رضي الله عنه قال: «أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث؛

حديث عمر إنما الأعمال بالنيات، وحديث عائشة من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد، وحديث النعمان بن بشير الحلال بين والحرام بين) انتهى. (راجع: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي رحمه الله في شرح حديث إنما الأعمال بالنيات ص٧ فستجد كنزا بلا حارس).

٣- قلت: حديث كهذا قسيم في كل الأعمال؛ وذلك لأن النية شرط في كل عمل، ألا يستحق أن يكون نصف العلم؟ بل إذا تقرر أن كل عبادة تحتاج إلى نية والنية وحدها قد تصح عبادة فلا تحتاج لغيرها، ألا يستحق أن يزيد على النصف؟

٤- وللباحثين عن السعادة نقول: لا بد أن نعلم أنه لا سعادة ولا استقرار إلا بالإخلاص لله، وبقدر ما ينشغل العقل في إيجاد السعادة بغير الإخلاص لله تعالى، بقدر ما يشقى صاحبه ويتعذب، لذا فإننا نقول: أمرٌ هذا شأنه ألا يدعوك إلى مزيد من القراءة والاطلاع للتذكير بفضل الإخلاص وصوره، وخطر الرياء وطرق معالجته، ويعينك على ذلك مطالعة سير السلف. (راجع: كتب السير عامة؛ كسير أعلام النبلاء للذهبي، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم، وإعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، وذم الهوى لابن الجوزي، وغيرهم).

رمضان بين العادة والعبادة

عادة الناس في استقبالهم لرمضان:

ومما اختص به شهرنا أن الناس على اختلاف توجهاتهم يستقبلونه بمزيد من الاهتمام والناس في هذا الاهتمام مذاهب:

فمنهم الخائف من قدومه أن يحرم من لذاته وشهواته والحمد لله قليل ما هم، ومن سماتهم أنه إذا صام الواحد منهم عن شهواته المحرمة التي اعتاد فعلها في غير رمضان كان صيامه عنها وقتياً؛ فتراه يتحين غروب الشمس متى تغيب ليهرع إلى ما استمرأ عليه من شهواته المحرمة، بل ربما بادر بالفطر على شيء من هذه المحرمات.

فالصيام عندهم يقطع عنهم لذة التمتع، وهؤلاء قد يهدم ليلهم نهارهم، فيستقبلون الشهر على وجل، يقبلون على الطعام والشراب وكأنهم يأخذون في شعبان ما سيحرمونه في رمضان!!

إذا العشرون من شعبان ولّت
تتابع شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار
فإن الوقت ضاق على الصغار

- ومنهم المستقبل بمزيد من التجهز بالمطعومات والمشروبات ونحو ذلك؛ وكثير ما هم؛ وهؤلاء يتأهبون بالتبضع والتجهيز؛ وبعضهم يبالغ في أصناف المأكولات والمشروبات؛ ففي الغالب نجد استعدادات مادية شكلية، وليس هذا هو المراد إنما المراد هو الاستعداد القلبي الإيماني، شحذا للهمم وإعلانا لتوبة نصوح، ووضعًا لبرنامج وتخطيطاً مسبقاً لاستثمار هذا الشهر الكريم.

ومنهم المقتدي بنبيه المتأسي بسلفه الطيبين المتأهب لنيل فضل رب العالمين في هذا الشهر الكريم، فإذا به يطالع ما له وما عليه في رمضان باحثا متعلما ومعلما لسنة خير الأنام ومن تبعه من أصحابه وأتباعهم الكرام.

تلك صنوف من الناس أربعة فيا ترى إلى صنف تنحاز أيها الحبيب؟ إنني أربأ بنفسي وإياك أن نكون من الصنف الأول ولا أحب أن يكون حظي وإياك من رمضان كأصحاب الصنف الثاني ، إذن أعود بنفسي وإياكم إلى ذلكم الصنف الثالث ذلكم المحب الذي استبشر بدخول الشهر لعلمه بما يجده من اللذة بصيامه ومن أنس في قيامه، فنهاره تسبيح وتهليل وتحميد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وصدقة وبر وإغاثة وإحسان، وليله لا يهجع فيه إلا القليل تحسباً للهجوع الطويل.

فراجع أحوالك من مراجعتك لحال السلف في رمضان وأحيلك في ذلك على كتاب لطائف المعارف.

صيامهم بين العادة والعبادة:

وإن من جميل ما نراه في رمضان أن بعض الناس لو ضرب على أن يفطر في شهر رمضان لغير عذر لم يفعل، لكننا نرى بمن يفعل ذلك أن يفعله حياء من الناس؛ نريد ممن يفعل ذلك أن يفعله لعلمه أن الله لا يحب منه هذا بغير عذر، ومن علامات الإيمان أن يكره المؤمن ما يلائمه من شهواته إذا علم أن الله يكرهه لذا قد يتلذذ العبد أحيانا بما يراه من تعب في صيامه ولسان حاله يقول:

عذابي فيك عذب

وبعدي فيك قرب

حسبي من الحب أني

لما تحب أحب

لا تقربوا الفواحش:

ومن جميل العادات أن الناس يتقربون إلى الله بترك المطعومات والمشروبات؛ فهلا تقربوا إليه بالإعراض عن الفواحش عامة؟ وذلك بالتقرب إليه بترك ما حرمه الله في كل حال، من الكذب والظلم والعدوان قال صلى الله عليه وسلم: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) (رواه البخاري).

قال أحدهم:

إذا لم يكن في السمع مني تصاون

وفي بصري غض وفي منطقي صمت

فحظي إذاً من صومي الجوع والظما

وإن قلت إني صمت يومي فما صمت

(راجع: لا تقربوا الفواحش للشيخ جمال عبد الرحمن).

ولمن مَنَّ الله عليهم بالإعراض عن أكل الحرام نقول: اشكروا الله واسألوه أن يمن عليكم بالإعراض عن أكل لحوم إخوانكم، فلا تلوكوا أعراضهم ولا تهتكوا أستارهم (راجع: باب السنة لشهر رجب بعنوان: أمانة الكلمة بين ورع المتبعين وإسراف المخالفين).

قيامهم بين العادة والعبادة:

ومن جميل ما اعتاد عليه الناس أنهم يحرصون على قيام الليل في رمضان والتنقل بين المساجد لأجل هذا:

فليكن قيامهم مصحوبًا بنية التقرب إلى الله لا بنية التقليد والخجل أن يتخلف عما يفعله الآخرون؛ وليكن قيامهم -تنفلاً- مسبوقًا بالمحافظة على الفرائض من الصلوات المكتوبات فهل يليق بذي لب أن يحرص على النافلة ويقصر في الفريضة وقد قال الله: (...وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه.....الحديث)(أخرجه البخاري)، ثم ليكن تنقلهم بين المساجد ليس بحثًا عن الصوت الأجمل، ولكن بحثًا عن الصلاة الأكمل وإن كان معه الصوت الحسن فهو نور علي نور؛ وهى تلكم التي توافق السنة من جهة وتجد فيها قلبك من جهة أخرى.

قراءتهم للقرآن وصدقاتهم

ومن أشهر ما اعتاد عليه الناس في رمضان أنهم يجودون بالخير ويقرءون القرآن:

لأن شرعنا حث عليه وأرشد إليه ففي الصحيحين (عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن وكان جبريل يلقاه كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فرسول الله صلى الله عليه و سلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة" (البخاري حديث ١٩٠٤، ومسلم حديث ١١٥١).

وهو خير كبير وعلامة على الشهر، لكننا لا نريد ذلك عادة وتقليدا يقلد بعضنا بعضا أو يتباهى به بعضنا على بعض، أو خصلة اشتهر بها آباؤنا فلا نتخلى عنها؛ لأننا على آثارهم مقتدون، نحن نريد ذلك لله حقا حقا تعبدا ورقا؛

تراه إذا ما جئته متهللا

كأنك تعطيه الذي أنت سائله

أعمال العشر الأخيرة بين العادة والعبادة:

ومما تعود عليه الناس في رمضان هو تخصيص العشرة الأخيرة بمزيد من العبادة والإحسان:

وفي الصحيحين (عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله)، هذا لفظ البخاري وفي رواية لمسلم عنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره).

وهل يماري في فضل ذلك إلا الجحود؟ لكننا نريده بنية العبادة لا إلفًا للعادة، نعم قد يصعب على المرء أن يتعب نفسه هذا التعب لمجرد العادة فقط، لكنه قد يحدث أن يرى المرء كل الناس يفعلون فيفعل؛ نحن لا نريد هذا لا لأنفسنا ولا لإخواننا، نحن نريده لله؛ كثير من الناس قد يترك عمله بالكلية في هذه العشر تفرغًا للاعتكاف، وكم هو أمر رائع لو استحضرت فيه نية العبادة لله وليس مجرد التقليد أو التعود أو الراحة من عناء العمل أو -لا قدر الله- التباهي بذلك، إننا نريد ممن يعتكف أن يعتكف لأنه يعلم أن الشارع حثه على ذلك:

يا نائم الليل كم ترقد

قم يا حبيبي قد دنا الموعد

ثم إننا نريد من المعتكف في اعتكافه أن يحقق المقصد منه فلا يضيع وقته في السمر أو المراء والرياء:

((فالمعتكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره؛ وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه، وعكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه فما بقي له هم سوى الله وما يرضيه عنه.. فمعنى الاعتكاف وحقيقته: قطع العلائق عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالق وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له والأنس به أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله تعالى بالكلية على كل حال)).

يتحرى الناس فيها ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر؟

لله أيضًا وليس لأنه من العيب أن يعبد الناس كلهم ربهم في هذه الليلة، وأتخلف أنا، نقومها لأننا نعلم أن الله قد قال في فضلها «خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ»، وأنه قد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه.

وفي وداع رمضان بين العادة والعبادة والنَّاس في ذلك أقسام:

ما بين سعيد بالراحة من الصيام والتخلص من أعباء رمضان وآخر سعيد أيضا لأنه يظن أنه حاز الخير وحصله، ومنهم من يحتفل مع المحتفلين، ولا يفكر إلا في لحظته، ونحن لا نحمل الناس الهموم بل ندعوهم إلى ما يسعدهم ويسرهم، بأن يفكر المرء في نهاية الشهر فيما حصل؛ ويا ترى هل هو من الفائزين أم من المحرومين؟! ((كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإكماله واتقانه ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله ويخافون من رده، وتجد ذلك فيما روي عنهم، فمما روي عن علي رضي الله عنه أنه كان ينادي في آخر ليلة من شهر رمضان: "يا ليت شعري من هذا المقبول فنهنيه؟! ومن هذا المحروم فنعزيه؟!"

ترحل شهر الصبر والهفاه وانصرما

واختص بالفوز في الجنات من خدما

(فمن منكم أحسن فيه فعليه التمام، ومن فرط فليختمه بالحسنى والعمل بالختام، فاغتنموا منه ما بقي من الليالي اليسيرة والأيام، واستودعوه عملا صالحا يشهد لكم به عند الملك العلام، وودعوه عند فراقه بأزكى تحية وسلام.

سلام من الرحمن كل أوان

على خير شهر قد مضى و زمان

(راجع لطائف المعارف لابن رجب)

والحمد لله رب العالمين.



رجاء المؤمنين في فضل رب العالمين

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

كنا قد تواعدنا في شهر رمضان المبارك؛ إن أحيانا الله تعالى أن يكون لحديثنا الذي ابتدأناه آنذاك صلة فيما يتعلق بحديث النيات وثمراته، وقد وجدتني وبعد معاينة لأحوال المسلمين المباركة وعباداتهم في هذا الشهر الكريم أن أذكّر نفسي بقضية هي من وجهة نظري لا تقل أهمية عن العبادة نفسها؛ لأنها تحقق في مبناها ومعناها معنى العبودية، ففيها جزء كبير من عمل القلب واعتقاده، ثم هي في النهاية ثمرة من ثمرات أعمال الشهر المبارك؛ لذا جعلتها صلة لحديثنا فيه.

هذه المسألة هي أننا لا بد أن نعتقد أنه لن يدخل أحد منا الجنة بعمله، مهما اجتهد وعمل، وأن الأعمال إنما هي سبب إكرام الله للعبد، وأن الله تعالى لا يجب عليه شيء، إلا ما أوجبه على نفسه، بل العالم ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه يفعل فيهما ما يشاء.

عزو الحديث:

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق،

روى البخاري في صحيحه من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال صلى الله عليه وسلم: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أنه لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إلى الله أدومها وَإِنْ قَلَّ».

باب القصد والمداومة على العمل برقم (٦٠٩٩) ط٣، دار ابن كثير، قال: حدثنا عبد الْعَزِيز بن عبد الله حدثنا سُلَيْمَانُ عن مُوسَى بن عُقْبَةَ عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن عن عَائِشَةَ فذكره. ورواه برقم (٦١٠٢) من طريق آخر إلى أم المؤمنين عائشة.

ورواه من حديث أبي هريرة من طريق آخر (٦٠٩٨) باختلاف يسير في ألفاظه، وزيادة في بعض معانيه.

ورواه مسلم بمعناه مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه

بزيادة (قالوا: ولا أنت يا رَسُولَ اللَّه، قال: ولا أنا إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنيَ اللَّه منه بِرَحْمَةٍ) كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى. (٢٨١٨) (ج٤/٢١٧١) ط. دار إحياء التراث.

ورواه النسائي في السنن الكبرى في كتاب الرقاق (١١٨١٢).

ورواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بمعناه برقم (٤٢٠١) في كتاب الزهد، بَاب التَّوَقِّي عَلَى الْعَمَلِ ط. دار إحياء الكتب العربية.

الحكم على الحديث:

الحديث اتفق عليه الشيخان (من حديث أم المؤمنين عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهما)، فهو في أعلى درجات الصحة.

رجال الإسناد (مختصرًا من تقريب التهذيب):

١- عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى بن عمرو ابن أويس بن سعد بن أبي سرح الأويسي، أبو القاسم المدني، ثقة من كبار العاشرة، خ د ت كن ق. (تقريب التهذيب: ص ٣٥٧).

٢- موسى بن عقبة بن أبي عياش بتحتانية ومعجمة الأسدي مولى آل الزبير، ثقة فقيه إمام في المغازي من الخامسة، لم يصح أن ابن معين لينه، مات سنة إحدى وأربعين وقيل بعد ذلك ع (تقريب التهذيب: ص ٥٥٢).

٣- أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني قيل اسمه عبد الله، وقيل إسماعيل، ثقة مكثر من الثالثة، مات سنة أربع وتسعين أو أربع ومائة وكان مولده سنة بضع وعشرين ع. (تقريب التهذيب: ص ٦٤٥).

٤- أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها.

شرح الحديث:

قال الحافظ في (فتح الباري) (١١/٢٩٥) في بيان معنى السداد: ومعناه: اقصدوا السداد أي الصواب، وقال: اعملوا واقصدوا بعملكم الصواب، أي اتباع السنة من الإخلاص وغيره، ليقبل عملكم فتنزل عليكم الرحمة. وقال في معنى (وقاربوا): أي لا تُفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة، لئلا يُفضي بكم ذلك إلى الملال فتتركوا العمل فتفرّطوا. انتهى.

وقال النووي في شرح صحيح مسلم (١٧/١٦٢): ومعنى سددوا وقاربوا اطلبوا السداد، واعملوا به وإن عجزتم عنه فقاربوه أي: اقربوا منه، والسداد الصواب وهو بين الإفراط والتفريط فلا تغلوا ولا تقصروا) انتهى.

قلت: وعليه يكون السداد الذي أمرنا به النبي صلى الله عليه وسلم هو تحقيق شرطي العمل من إخلاص لله واتباع السنة، ثم يأتي بعد ذلك معنى المقاربة، وهو المقاربة من السنة في حالة العجز عن فعلها سدادًا كاملاً، ومدار ذلك على استطاعة العبد، فالله تبارك وتعالى لا يكلفنا إلا على قدر استطاعتنا قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

- قوله (وَاعْلَمُوا أنه لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ): وردت هذه الجملة بألفاظ متعددة متقاربة، ومعناها: أن دخول الجنة والتمتع بنعيمها لا يحصل للعبد بمجرد العمل، بل بتفضل الله وإحسانه، فهو الذي وفق العبد للعمل الصالح وأعانه على فعله، وامتن عليه بقبوله، وتفضل بالمثوبة عليه، فله الفضل والمنة قبل العمل وعنده وبعده،(وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)، (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا).

قال النووي في شرح هذا الحديث ونحوه من الأحاديث في (صحيح مسلم) (١٧/١٥٩): وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته، وأما قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يُدخل بها الجنة فلا يعارض هذه الأحاديث، بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل وهو مراد الأحاديث ويصح أنه دخل بالأعمال

أي بسببها وهي من الرحمة ، والله أعلم.

(وقال الحافظ في الفتح (١١/٢٩٥)):

ويجوز أن يكون الحديث مفسرا للآية، والتقدير ادخلوها بما كنتم تعملون مع رحمة الله لكم، وتفضله عليكم؛ لأن اقتسام منازل الجنة برحمته، وكذا أصل دخول الجنة هو برحمته؛ حيث ألهم العاملين ما نالوا به ذلك، ولا يخلو شيء من مجازاته لعباده من رحمته وفضله، وقد تفضل عليهم ابتداء بإيجادهم، ثم برزقهم ثم بتعليمهم، وقال عياض: طريق الجمع أن الحديث فسر ما أجمل في الآية، فذكر نحوا من كلام ابن حجر الأخير، وأن من رحمة الله توفيقه للعمل وهدايته للطاعة وكل ذلك لم يستحقه العامل بعمله وإنما هو بفضل الله وبرحمته.

قلت: ويؤخذ من هذا أن الباء باءان:

١- باء للسببية

٢- باء للمجازاة والمقابلة.

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن القيم الفرق بين البائين فقال في (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) (١/٨): «وأحسن من هذا أن يقال الباء المقتضية للدخول غير الباء التي نفى معها الدخول؛ فالمقتضية هي باء السببية الدالة على أن الأعمال سبب للدخول مقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، والباء التي نفى بها الدخول هي باء المعاوضة والمقابلة التي في نحو قولهم اشتريت هذا بهذا، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد وأنه لولا تغمد الله سبحانه لعبده برحمته لما أدخله الجنة فليس عمل العبد وإن تناهى لا يوجب بمجرده دخول الجنة، ولا أن يكون عوضًا لها لأنه ولو وقع على الوجه الذي يحبه الله لا يقاوم نعمة الله، بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة فتبقى سائر نعمه مقتضية لشكرها وهو لم يوفها حق شكرها، فلو عذّبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم، وإذا رحمه في هذه الحالة كانت رحمته خيرًا من عمله كما في حديث أبي بن كعب الذي أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧) في ذكر القدر (ففيه لو أن الله عذّب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم) الحديث، قال: وهذا فصل الخطاب مع الجبرية الذين أنكروا أن تكون الأعمال سببًا في دخول الجنة من كل وجه، والقدرية الذين زعموا أن الجنة عوض العمل وأنها ثمنه، وأن دخولها بمحض الأعمال والحديث يبطل دعوى الطائفتين، والله أعلم). انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر - بعد عرضه للخلاف بين أهل العلم في التوفيق بين الآية والحديث - قولاً موفقًا خرج به من الخلاف ووفق به بين الأقوال فقال ما مفاده:

إن الجمع بين الآية والحديث بأن يُحمل الحديث على أن العمل من حيث هو عمل لا يستفيد به العامل دخول الجنة ما لم يكن مقبولاً، وإذا كان كذلك فأمر القبول إلى الله تعالى، وإنما يحصل برحمة الله لمن يقبل منه، وعلى هذا فمعنى قوله (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أي تعملونه من العمل المقبول، ولا يضر بعد هذا أن تكون الباء للمصاحبة أو للإلصاق أو المقابلة ولا يلزم من ذلك أن تكون سببية.

قوله (واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل): دال على أن العمل الذي يداوم عليه فاعله ولو كان قليلاً، هو أحب العمل إلى الله، وذلك أن العبد إذا داوم على الأعمال الصالحة، فهو حري أن يختم الله له بخير، فإنه إذا وافاه الأجل يوافيه على حالة حسنة، بخلاف الذي لا يداوم على العمل الصالح وينقطع عنه، فقد يوافيه أجله في حالة الترك.

وقال الحافظ في (الفتح) (١١/٢٩٩): والحكمة في ذلك أن المديم للعمل يلازم الخدمة فيكثر التردد إلى باب الطاعة كل وقت ليجازى بالبر لكثرة تردده فليس هو كمن لازم الخدمة مثلاً ثم انقطع وأيضًا فالعامل إذا ترك العمل صار كالمعرض بعد الوصل فيتعرض للذم والجفاء ومن ثَمَّ ورد الوعيد في حق من حفظ القرآن ثم نسيه، والمراد بالعمل هنا الصلاة والصيام

وغيرهما من العبادات، وقوله (ما تطيقون) أي قدر طاقتكم، والحاصل أنه أمر بالجد في العبادة والإبلاغ بها إلى حد النهاية، لكن بقيد ما لا تقع معه المشقة المفضية إلى السآمة والملال». انتهى.

ومما يستفاد من الحديث بخلاف ما سبق:

١- الإخلاص هو ملاك الأعمال وبركتها:

فقد رأيتم أن معنى (سددوا) كما قاله ابن حجر يعنى الصواب الخالص، ثم يأتي بعد ذلك فيقول: وقاربوا، أي بعد فعلكم العمل موافقاً للسنة ومحققاً للإخلاص فافعلوا من الأعمال ما تطيقون طالما حققتم هذين الشرطين، وبذلك تشعر أن بركة العمل الحقيقية في كونه مخلصًا موافقًا للسنة فهي أول درجات المفاضلة، ثم تأتي بعد ذلك المفاضلة بكثرة العمل.

٢- سقوط الإنكار بين المكثر والمقل:

فطالما وافق العمل السنة فلا ينكر المكثر على المقل ولا المقل على المكثر، ولا يتعالى أحد على أحد، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «هلك المتنطعون»، وكذا لا ينكر المقل على المكثر ويرميه بالتشدد، فكله خير طالما لا يخرج كله عن السنة وكل ميسر لما خلق له.

٣- دخول الجنة بفضل الله والعمل سببٌ فيه:

فالعامل لا يعول على عمله في دخول الجنة والنجاة من النار، وإنما هو بفضل الله تعالى ورحمته، وهذه مسألة قد أكثر فيها العلماء لأهميتها كما سبق أن أشرنا في شرح الحديث.

٤- وفيه الحث على المداومة على العمل، وأن العمل الدائم ولو قل هو أحب العمل إلى الله، وإذا جمع في العمل بين الدوام والكثرة بدون إفراط كان أفضل.

٥- أن الأعمال الصالحة محبوبة لله، وفيه إثبات صفة المحبة لله على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى.

فائدة علمية على شرح النووي لمسلم:

ذكر أهل العلم أن التبويبات الموجودة في المطبوع من الصحيح ليست من تبويب مسلم، والظاهر أنها من تبويبات الإمام النووي الشافعي، وذلك لما يأتي:

١- هناك عدد من هذه التبويبات على طريقة فقهاء الشافعية.

٢- وهناك عدد من المواضع في شرح النووي على مسلم تدل على أن النووي هو الذي وضع هذه التبويبات.

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم «١٣٥/٤» (وقد قدمنا في آخر الباب السابق دليل ما ذكرته في الترجمة).

وقال (٩٠/٧) (وفيه بيان ما ذكرناه في الترجمة) فظاهر كلامه أن هذه التراجم من صنعه.

٣- وجود تراجم أخرى عند غيره كما في مستخرج أبي نعيم.

٤- أن النسخ القديمة لصحيح مسلم غير مبوبة أصلاً، وأن بعضهم قد وضع هذه التبويبات في الهامش.

ومن هذا ما نجده عند بعض العلماء من قولهم: بوَّب عليه الإمام النووي بكذا (كالزيلعي وما نقله عنه ابن التركماني) فلعله أخطأ أو نسب الفعل إلى منشئه.

ثم إننا إذا تقرر لدينا ما سبق؛ فقد استفدنا مسألة تربوية أخرى أن الإمام النووي قد وصل من البراعة والإتقان أنه عبّر عن أبواب مسلم بطريقة دقيقة جعلت الناس يختلفون فيمن وضع الترجمة: النووي أم مسلم؟، وكذلك أن السلف على قدر اهتمامهم بنسبة الكلام إلى قائله والعلم إلى أهله إلا أنهم قد يخفون من أعمالهم لدرجة أنه يختلف في تقرير من الفاعل فقارن - يا رعاك الله - بين فعلهم وبين فعلنا نحن، وتضخيمنا لقليل عملنا في هذه الأيام المتأخرة، والله المستعان.

هذا وبالرجوع إلى شرح الحديث في مظانه من الكتب التي ذكرنا وغيرها فستجد كنزًا من الفوائد، وصلى الله وسلم وبارك على النبي محمد وآله وصحبه وسلم.

باب السنة

حجة الله البالغة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ).



إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

عزو الحديث إلى الكتب الستة:

تفرد الإمام مسلم برواية هذا الحديث عن أصحاب الكتب الستة فأخرجه في كتاب الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام، (١/١٣٤)، قال: حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: وَأَخْبَرَنِي عَمْرٌو، أَنَّ أَبَا يُونُسَ حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فذكره.

فائدة إسنادية في قول ابن وهب: «وأخبرني عمرو»، بذكر الواو فما فائدتها؟

الجواب: رواية ابن وهب عن عمرو إنما هي صحيحة، وقد روى ابن وهب عن عمرو جملة من الأحاديث، فذكر في أول حديث قال: أخبرني عمرو، ثم قال وأخبرني عمرو ثم قال وأخبرني عمرو وهكذا، أي: أن الواو هذه ذكرت بعد ذلك مع كل حديث وغابت فقط ولم تذكر مع الحديث الأول، وهذا الحديث ليس هو الحديث الأول، وكان يمكن تركها أيضًا في هذا الحديث، فلو حذفها لجاز، ولكن لأن يونس سمعها هكذا ولأمانة هؤلاء الرواة وتدقيقهم نقلها كما سمعها، وفيه ردّ على المشككين في عدالة نقلة السنة النبوية.

المعنى الإجمالي

يوضح النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث إحدى عقائد الإسلام، وهي عموم بعثته -صلى الله عليه وسلم- إلى الناس كافة من عرب وعجم وانس وجن، لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى وحر وعبد، فالكل سواء في وجوب الإيمان به والدخول في طاعته، ولا نجاة لأحد سمع به وعرف دعوته إلا بالإيمان به، ولو كان كتابياً من اليهود والنصارى، فضلاً عن غيرهم من الوثنيين والملحدين. قال الله تعالى: « وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ » (سبأ:٢٨). وقال: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » (الفرقان:١). وقال: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » (الأنبياء:١٠٧).

الشرح:

قوله: (وَالَّذِي) أَيْ: وَاللَّهِ الَّذِي (نَفْسُ مُحَمَّدٍ) أَيْ: رُوحُهُ، وَذَاتُهُ، وَصِفَاتُهُ، وَحَالَاتُهُ، وَإِرَادَتُهُ، وَحَرَكَاتُهُ، وَسَكَنَاتُهُ (بِيَدِهِ) أَيْ كَائِنَةٌ بِنِعْمَتِهِ، وَحَاصِلَةٌ بِقُدْرَتِهِ، وَثَابِتَةٌ بِإِرَادَتِهِ، وَوَجْهُ اسْتِعَارَةِ الْيَدِ لِلْقُدْرَةِ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَظْهَرُ سُلْطَانُهَا فِي أَيْدِينَا، وَهِيَ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ. (قاله في مرقاة المفاتيح).

قلت: وَمَذْهَبُ السَّلَفِ فِيهَا أنهم يعلمون معانيها ويمررونها على ظاهرها مع تَفْوِيضِ عِلْمِ كيفيتها إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَعَ التَّنْزِيهِ عَنْ ظَاهِرِهِ، وذلك كقول مالك المشهور في الاستواء: « الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » فلم يكن السلف يسألون عن الكيف، بل ويبدعون مجرد السؤال

تنطعًا.

قوله: (لا يسمع بي أحد) لَا يَعْلَمُ برسَالَتي (أحَدٌ) أيْ: ممَّنْ هُوَ مَوْجُودٌ أوْ سَيُوجَدُ « (منْ هَذه الأمَّة) أيْ: أمَّة الدَّعْوَة والتي تشمل الكل، وهي غير أمة الإجابة التي استجابت للدين الحق قوله: (يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ): صفَتَان لـ« أحَدٌ »، أوْ بَدَلَان عَنْهُ، بَدَلُ البَعْض منَ الْكُل وتخصيص اليهود والنصارى بالذكر لأنهم بقايا أهل الكتاب. (ثُمَّ يَمُوتُ): فيه إشَارَةٌ إلَى أنَّهُ وَلَوْ تَرَاخَى إيمَانُهُ وَوَقَعَ قَبْلَ الْغَرْغَرَة نَفَعَهُ (وَلَمْ يُؤْمِنْ بالَّذي أُرْسلْتُ به) أيْ: منَ الدِّين المَرْضيِّ عند اللَّه.

قوله: (إلَّا كَانَ منْ أصْحَاب النَّار) أيْ مُلَازميهَا بالْخُلُود فيهَا، وَأمَّا الَّذي سَمعَ وَآمَنَ فَحُكْمُهُ عَلَى الْعَكْس، وَأمَّا الَّذي لَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يُؤْمنْ فَهُوَ خَارجٌ عَنْ هَذَا الْوَعيد، وَتَقْديرُهُ: لَيْسَ أحَدٌ يَسْمَعُ به ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمنْ، أوْ غَيْرُ مُؤْمن إلَّا كان منْ أصْحَاب النَّار. (ينظر: مرقاة المفاتيح: ٧٦/١) بتصرف.

من أهم ما يستفاد من الحديث:

١- عموم بعثته صلى الله عليه وسلم، وأن كل دين (شريعة) سابق على دين الإسلام فهو منسوخ به.

وهنا يرد على شبهة من يسأل: وهل معنى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أن الذي يكذب به ولا يؤمن بعدما وصلته الرسالة (كالوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم ممن مات على الكفر) لا يدخل الجنة؟ وهل مجرد الإقرار ببعثته كبعض من يدعي ذلك - يكفي للنجاة من النار أم لا بد من الإيمان به واتباعه؟

في جوابنا على هذا نقول:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في مجموع الفتاوى (١٢/٤٩): قد ثبت في الكتاب، والسنَّة، والإجماع: أن من بلغته رسالته صلى الله عليه وسلم فلم يؤمن به: فهو كافر، لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد؛ لظهور أدلة الرسالة، وأعلام النبوة.

قلت: وهو قول مجمل من شيخ الاسلام رحمه يحتاج إلى تفصيل لأن من أضر ما يوقع الناس في البدع العمومات والإجماليات الذي قد يفسر من بعض الناس خطأ فيقعون في المخالفات وهم لا يشعرون لذا سيأتي تفصيل لكلام شيخ الاسلام في موضعه في طيات المقال.

- وفي تقريره لذلك قال الإمام النووي- رحمه الله- عند شرحه لهذا الحديث على مسلم: «أَمَّا الْحَدِيثُ فَفِيهِ نَسْخُ الْمِلَلِ كُلِّهَا، ودليلنا على هذا مما قرره علماء السلف- بخلاف حديث الباب -: ما وصف الله به اليهود والنصارى في سورة الفاتحة باليهود (المغضوب عليهم) والنصارى (الضالين)، وإن كان المشتبه عليه يجهل هذا نقول له فماذا نفعل في صريح قوله تعالى في شأن النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المائدة/١٧، وقوله تعالى في شأن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠، ٣١).

وما سبق هو ما نقله وقرره من المعاصرين شيخنا فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأسبق الشيخ جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله في كتابه الماتع (بيان للناس) ط/جامعة الأزهر سنة ١٩٩٤م وقد تناول هذه القضية ببراعة علمية ووسطية دعوية مع غيرها من بعض القضايا المعاصرة فليراجعه ويستمتع به من أراد الزيادة.

وكذلك أكد عليه ووضحه من مشايخنا في الأزهر الشريف فضيلة الشيخ عطية صقر رئيس لجنة الفتوى وذلك بفتاوى الأزهر المجلد ٨/ص٢٨

إن تقريرنا وقولنا بعدما ذكر من الآيات الواضحات: لقد قام الإجماع على كفرهم إنما هو مجرد تحصيل لحاصل وتقرير لبدهي لا يحتاج إلى برهان.

وذكرنا لليهود والنصارى تحديدا لأنه قد يكونا هما موضع الشبهة وعينها، ثم نقول لمن لبس عليه من الناس وللذي لا يعلم ما نقلناه عن عقائد اليهود والنصارى الشركية: ما موقف هؤلاء من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ هل هم مؤمنون به، مصدقون له أم مكذبون له ولرسالته؟ لعله لا يخفى على أحد كفرهم بنبينا صلى الله عليه وسلم وقد قال

الله في شأن هؤلاء وأمثالهم: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا) (النساء ١٥٠/١٥١).

هذا و إننا بعد ذلك نقول: إذا كان هذا الوعيد في شأن اليهود والنصارى وهم أهل كتاب فما بالنا بالملحدين من غير هؤلاء؟! لاشك أن الحكم يشملهم من باب الأولى.

لذا وبعد هذه الآيات الواضحات فإننا نؤكد أنه لا ينفع قول من يقول: نؤمن برسولنا ولا شأن لنا برسولكم محمد صلى الله عليه وسلم نظل على ديننا ولاندين بالاسلام مع زعمهم الاقرار ببعثته، نقول لهم هذا قول مرفوض لأنه لو صدق بالنبي صلى الله عليه وسلم لاتبعه وآمن بدينه وفعله هذا لا يفسر إلا أنه نوع من أنواع الكذب والعناد والاستكبار وهو ككفر اليهود الذين شهدوا أن الرسول حق ولم يتبعوه كما لايغرنهم بذلهم المعروف للمسلمين فقد بذله أبوطالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي تعريفه لذلك يقول ابن القيّم في (مدارج السالكين ١/ ٣٣٧):

((وأما كفر الإباء والاستكبار: نحو كفر إبليس؛ فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباء واستكباراً، وهو الغالب على الكفار)).

وفي بيانه لذلك قال محدث العصر الشيخ الألباني -رحمه الله- في كتابه «فتنة التكفير»، والذي قرظه سماحة الشيخ العلامة: عبد العزيز بن باز- رحمه الله- قال في الفصل الثاني تحت عنوان كفر الرد: (لا بد لتحقيق الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من تصديقه والالتزام المجمل بالشريعة باطناً وظاهراً. وكما أنه لا يكفي لتحقيق الإيمان مجرد تحقيق الالتزام بالشريعة دون التصديق؛ فكذلك لا يكفي مجرد التصديق دون تحقيق الالتزام الإجمالي.

وذلك أن الإقرار بأن محمداً رسول الله يستلزم قبول ما جاء به تصديقاً وانقياداً، لأن قبول ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الخبر يكفي فيه مجرد الاعتقاد والتصديق، وأما الطلب فلابد مع التصديق من تحقيق الالتزام كما قال تعالى «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ»، وعلى هذا فكفر الرد إما أن يكون بالتكذيب والاستحلال المناقض للتصديق، وإما أن يكون بالتولي والإعراض المناقض للالتزام، سواء الالتزام الباطن أو الالتزام الظاهر. وكل هذا داخل في كفر العناد الذي يكون بعد تبين الحجة الرسالية وظهورها للمعين، بحيث لا يكون تكذيبه واستحلاله وتلبسه بما يناقض الالتزام المجمل عن تأول وشبهة يعذر بها.

ثم يقول رحمه الله في نفس السياق بنفس المصدر مبينا عقوبة هذا الذي عرف الحق وأعرض عنه: ((لكن من قامت عليه الحجة بالرسالة فعاند واستكبر وكذب الرسول ولم يرض باتباعه قد لا يوفق إلى الهداية ومعرفة الحق بعد جحوده أولاً.

بل إن من عقوبة الله للمعاند أن يضله سواء السبيل، جزاء وفاقاً لما اختاره هو من ذلك «قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا» (مريم/٧٥)، فينقلب كفر العناد الذي يكون عن بينة إلى كفر ضلالة أو كفر غواية، بحيث يعلم الكافر آيات وتقوم بها الحجة عليه، لكنه لا يوفق لقبولها، بل يقوم بقلبه ما يحسب معه أنه على حق، وكذلك المتخاذل عن الطاعة قد يزين له عمله السيئ، وهذه غاية الخذلان، نعوذ بالله من ذلك)).

ومما يستفاد من الحديث ومما هو من الأهمية بمكان لكونه من أهم عقائد أهل السنة والتي تمايزهم عن أهل البدع والضلالة:

أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح، وأن الجاهل معذور بجهله حتى تقام الحجة عليه.

وأن من بلغته الدعوة من الأعاجم ولم يفهمها فهو معذور كمن لم تبلغه الدعوة أصلا.

وذلك يستفاد بداية من قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث (لا يسمع بي أحد) فاشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم سماع المرء به لإقامة الحجة عليه، هذا فضلاً عن توافر أدلة الشرع الدالة على ما قررناه من عقيدة أهل السنة والجماعة في عذرهم للجاهل بجهله والتي منها قوله تعالى: «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (الإسراء: ١٥)، وغيرها من الآيات والأحاديث المتوافرة والتي سبق أن أفردنا لها مقالا بعنوان (الحمد لله هذا ديننا) في

مجلتنا الغراء.

ويقرر هذه العقيدة (شرط إقامة الحجة وعذر الجاهل بجهله) ويفصلها من علماء السلف شيخ الإسلام تقي الدين أبوالعباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (الشهير بابن تيمية) في مجموع الفتاوى (ج٣/٢٣٠) ، ط/دارالوفاء قائلا: ((وكُنْت دَائمًا أَذْكُرُ الْحَديثَ الَّذي في الصَّحيحَيْن في الرَّجُل الَّذي قَالَ: « «إذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُوني ثُمَّ اسْحَقُوني، ثُمَّ ذروني في الْيَمِّ فَوَاللَّه لَئنْ قَدرَ اللَّه عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا منْ الْعَالَمينَ، فَفَعَلُوا به ذَلكَ فَقَالَ اللَّه لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْت. قَالَ خَشْيَتُك: فَغَفَرَ لَهُ» . فَهَذَا رَجُلٌ شَكَّ في قُدْرَة اللَّه وَفي إعَادَته إذَا ذُرِّيَ، بَلْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ لَا يُعَادُ، وَهَذَا كُفْرٌ باتِّفَاق الْمُسْلمينَ، لَكنْ كَانَ جَاهلًا لَا يَعْلَمُ ذَلكَ وَكَانَ مُؤْمنًا يَخَافُ اللَّه أَنْ يُعَاقبَهُ فَغَفَرَ لَهُ بذَلكَ)) وحاصل ما تقدم: أن من وقع في الكفر جاهلاً أو متأولاً لا يكفَّر، حتى تقام عليه الحُجَّة الشرعيَّة، وتزال ما عنده من شُبَه أو تأويل باطل؛ فإن الحكم على المعيَّن بالكفر لا بد فيه من توفر الشروط، وانتفاء الموانع، وإقامة الحجة، والله أعلم.

هذا وإذا تقرر لدينا ضرورة إقامة الحجة فإنه يرد علينا سؤال مهمّ وهو: هل يشترط في إقامة الحجة فهمها أم أن إقامتها هو مجرد عرضها؟

والجواب: أن هذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم لكننا نرى أنه خلاف ظاهري لا جوهري، وأن خلاصة القول في المسألة أن الحجة إذا لم تُعرض بطريقة تفهم فما فائدتها؟

وفي هذا كلام نفيس لشيخ الإسلام رحمه الله في (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) (١١٤/٢) قال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: «فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ» قد علم أن المراد أنه يسمعه سمعًا يتمكن معه من فهم معناه، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى، فلو كان غير عربي لوجب أن يترجم له ما تقوم به عليه الحجة، ولو كان عربيا وفي القرآن ألفاظ غريبة ليست من لغته، وجب أن نبيّن له معناها، ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس ولم يفقه المعنى، وطلب منا أن نفسره له ونبين له معناه، فعلينا ذلك، وإن سألنا عن سؤال يقدح في القرآن أجبناه عنه، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالا يوردونه على القرآن، فإنه كان يجيبهم عنه».

و في تأكيده لذلك وبيان نوع هذا الفهم وأن المقصود به ليس الفهم التفصيلي وأن العبرة ليست فقط بإقرار المبلغ أنه فهم بل الأهم من ذلك تقدير المبلغ له أنه أفهمه يقول ابن القيم رحمه الله في (طريق الهجرتين (ص:٤١٢):

«العبرة في قيام الحجّة بأن يفهمها ذلك الشّخص المعيّن فهما يدرك به مخالفته للحجّة التي يكفر بخلافها، ولا يشترط فهمه لها فهما دقيقا، كما يفهمها أهل العلم والإيمان، كما لا يشترط إقراره بالفهم بل يرجع ذلك لتقدير المبلغ له هل فهمه أو لم يفهمه، لأنّ كثيرا من أهل الكفر والنّفاق ينكرون الحجّة بعد فهمهم لها وعلمهم بها كما أخبر الله تعالى بذلك عن قوم فرعون في قوله: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً»».

ولذا قال رحمه الله (في نفس المصدر السابق ص٤١٤) مبينا أن قيام الحجة ليس له ضابط ثابت وانما تختلف بحسب فهم الناس واختلاف الأزمنة والأمكنة مما يبين أن دين نا دين فهم ومعان وليس فقط دين مظاهر ومبان كما يدعي علينا البعض:

«إن قيام الحجّة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص؛ فقد تقوم حجة الله على الكفّار في زمان دون زمان؛ وفي بقعة وناحية دون أخرى؛ كما أنها تقوم على شخص دون آخر؛ إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون؛ وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له؛ فهذا بمنزلة الأصمّ الذي لا يسمع شيئا ولا يتمكّن من الفهم).

قلت: وفي جميع ما سبق عرضه من اشتراط الشارع قيام الحجة وفهمها ما يؤكد على رحمة هذا الدين وعموم بعثة نبي الرحمة للثقلين جميعًا، وأنه حجة من الله عليهم أجمعين.



من وصايا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حجة الوداع

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

كثيرا ما نسمع من نقلة السنة النبوية الصحيحة عن أحاديث متنوعة رُويت في حجة الوداع، وكلها بأسانيد صحيحة متصلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فيسأل سائل: أي هذه الأحاديث قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

والجواب: نبينا صلى الله عليه وسلم حج حجة واحدة، كانت أعظم حجة في التاريخ وأفضلها، ووافق يوم عرفة يوم جمعة، وفضلها ليس لأنها في يوم جمعة - وإن كان ليوم الجمعة فضل فعلا؛ لأنه عيد للمسلمين فاجتمع للناس عيدان -، ولكن فضلها لأن إمامها هو معلم البشرية الذي أقام فيها شعائر الله تعالى، وعظّم حرماته، وصدع بدينه، وبين للناس مناسكهم، وخطب ينذرهم ويعلمهم ويبشرهم.

وحج معه في هذه الحجة خلائق لا يحصون، فوعظهم النبي صلى الله عليه وسلم في مواضع عديدة، فمن ذلك وهو في طريقه إلى مكة، ومن ذلك يوم عرفات، ومن ذلك ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في منى، ولعل من أهم ما بين صلى الله عليه وسلم في هذه الحجة هو ما تكرر منه على عرفات وفي يوم النحر وفي أيام التشريق من طرق صحيحة من تغليظه على حرمة الدماء والأعراض والأموال.

وقد كنا عزمنا على التذكير ببعض ما ورد في هذه الخطبة العظيمة بما يتعلق بالتأكيد على حرمة هذه العظائم الثلاث والتحذير من الاستهانة بها لفرط ما نراه واقعًا يحياه الناس في هذه الأيام المتأخرة التي تتأذى فيها مسامعنا بمثل هذه الأخبار، فلما هممت بذلك وجدت أن شيخنا الشيخ زكريا حسيني رحمه الله قد سبقني من زمن قريب فقلت لنفسي: إن الشيخ قد كفانا والحمد لله، فننصح بمراجعتها والاطلاع عليها في هذا العدد.

ثم إنني عزمت على التذكير بحديث آخر من الأهمية بمكان قاله النبي صلى الله عليه وسلم بمنى في أيام التشريق وهو حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

قال الإمام الترمذي رحمه الله باب منه قال: حدثنا موسى بن عبد الرحمن (الكندي) الكوفي حدثنا زيد بن الحباب أخبرنا معاوية بن صالح حدثني سليم بن عامر قال سمعت أبا أمامة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يخطب في حجة الوداع فقال: ((اتقوا الله (ربكم)، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم)).

وهذا الحديث: تفرد بروايته من أصحاب الكتب الستة الإمام الترمذي (ت٢٧٩ هـ) رحمه الله (٢ / ٥١٦) وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الشيخ الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» ٢ / ٥٥٠ رقم (٨٦٧): «أخرجه الترمذي (٢ / ٥١٦) وابن حبان (٧٩٥) والحاكم (١ / ٩، ٣٨٩) وأحمد (٥/ ٢٥١- ٢٥٢) من طريق معاوية بن صالح قال حدثني سليم بن عامر قال: سمعت أبا أمامة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع فقال: فذكره. واللفظ للترمذي وقال: « حديث حسن صحيح.

و لفظ أحمد والحاكم: « اعبدوا الله «، وقال: « صحيح على شرط مسلم « ووافقه الذهبي. وهو كما قالا. ولفظ ابن حبان: « أطيعوا ربكم «)(انتهى من الصحيحة).

قلت: وأبو أمامة: هو صدي بن عجلان الباهلي، وأفاد الإمام الذهبي في ترجمته أنه: صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونزيل حمص.

روى علما كثيرا، وحدث عن عمر ومعاذ، وأبي عبيدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروي أنه بايع تحت الشجرة.

قال المدائني وجماعة: توفي أبو أمامة سنة ست وثمانين وقال غيره غير ذلك. (أفاده الإمام الذهبي في سير الأعلام ط/ مؤسسة الرسالة في ترجمة أبي أمامة صدي بن عجلان).

وفي ترجمته وعرضا لبعض من سيرته العطرة وشيئا من كراماته كما عدها الإمام الذهبي في تاريخه ((٦ /٢٢٩) عندما رزقه الله بثلاثمائة دينار عوضا عن ثلاثة أنفقها ولا يدري من أين أتت ((عن مولاة لأبي أمامة قالت: كان أبو أمامة يحب الصدقة، ولا يقف به سائلٌ إلا أعطاه، فأصبحنا يوماً وليس عنده إلا ثلاثة دنانير، فوقف به سائلٌ، فأعطاه ديناراً، ثم آخر فكذلك، ثم آخر فكذلك، قلت: لم يبق شيءٌ، ثم راح إلى مسجده صائماً، فرقدت له، واقترضت له ثمن عشاء، وأصلحت فراشه، فإذا تحت المرفقة (الوسادة) ثلاثمائة دينار، فلما دخل ورأى ما هيأت له حمد الله وتبسم، وقال: هذا خيرٌ من غيره، ثم تعشى، فقلت: يغفر الله لك جئت بما جئت به، ثم تركته بموضع مضيعة (أي: بموضع غير آمن تضيع فيه الأشياء)، قال: وما ذاك قلت: الذهب. ورفعت المرفقة، ففزع لما رأى تحتها وقال: ما هذا ويحك قلت: لا علم لي. فكثر فزعه))

ومن كراماته أيضًا أن الله أطعمه وهو نائم عندما امتنع عن طعام المشركين من قومه باهلة الذي لم يذكر اسم الله عليه فكانت الكرامة من أسباب استجابتهم له وايمانهم ونقله الذهبي في تاريخه (٢٢٨/٦) قال: وقال أبو غالب، عن أبي أمامة قال: أرسلني النبي صلى الله عليه وسلم إلى باهلة، فأتيتهم وهم على طعام لهم، فرحبوا بي وأكرموني، وقالوا: كل، فقلت: جئت أنهاكم عن هذا الطعام، وأنا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لتؤمنوا به، فكذبوني وردوني، فانطلقت من عندهم وأنا جائع ظمآن، قد نزل بي جهدٌ شديد، فنمت فأتيتُ في منامي بشربةٍ من لبنٍ، فشربت فشبعت وريتُ فعظم بطني، فقال القوم: رجلٌ من أشرافكم وخياركم رددتموه، اذهبوا إليه فأطعموه فأتوني بطعامهم وشرابهم، فقلت: لا حاجة لي في طعامكم وشرابكم، فإن الله قد أطعمني وسقاني، فنظروا إلى حالتي التي أنا عليها، فآمنوا بي وبما جئتهم به من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم)).

المعنى العام للحديث:

يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في أعظم حجة في الإسلام معلما مرشدا آمرا قائلا: (اتقوا الله ربكم) بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، مستحضرين في ذلك النية ومتبعين في أعمالكم السنة،

والتقوى أمر مجمل أتى بعده بشيء من التفصيل (وصلوا خمسكم) التي فرضها الله عليكم، (وأدوا زكاة أموالكم) ثم يكلل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الوصايا بوصية تعين المسلم على قيامه بما سبق من الوصايا وذلك للزومها للمحافظة على الجماعة واستقرارها فقال (وأطيعوا ذا أمركم) أي أولياء أموركم من الحكام والأمراء وكل من له ولاية عليكم، أطيعوهم جميعا بالمعروف فيكون جزاؤكم عندئذ تفضلاً من الله (تدخلوا جنة ربكم) وذلك هو الفوز العظيم.

الشرح التفصيلي مع شيء من الفوائد:

١- قول الترمذي: باب منه:

أي: من الباب المتقدم، والمعنى هذا باب آخر في فضل الصلاة لأن الباب الذي قبله هو: باب ما ذكر في فضل الصلاة.

٢- قوله صلى الله عليه وسلم: ((اتقوا ربكم)): والكلام في التقوى أمر واسع ولازال الناس يتواصون بها فالكلام فيها كثير والعمل به قليل فكثيرا ما تأخذ من الواحد حلو الكلام وإذا بك تصدم حين المحك بعمله وسلوكه وعلى أية حال لن يصرفنا تكرار الكلام أن نذكر بها مرة أخرى فالذكرى تنفع المؤمنين،

والتقوى هي وصية الله للأولين والآخرين قال تعالى ((ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله))، والكلام عن التقوى أكثر من أن يوفى نقلا، لكنه أهم من أن يتغافل تركًا فهي دليل الإيمان وثمرته، لذا نشير إلى بعضه ونحيل إلى بقيته في مظانه من كتب السلف ففيها من الخير الكثير، والتقوى وقاية للإنسان وهو معناها في اللغة ((١٥/ ٤٠١) من لسان العرب)).

وقال عمر بن عبدالعزيز: «ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، (أي: وارتكاب المحرمات)، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير».

قلت: (فالموفق هو من تقرب بالفرائض وهذه لابد منها ثم هو يزداد تقربا بما يتيسر من النوافل).

ولطلق بن حبيب كلمته المشهورة: «التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله» (أي تحقق في أعمالك الإخلاص والاتباع).

وقال ابن مسعود في قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) قال: «أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر».

وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات ومعنى ذكره فلا ينسي ذكر العبد بقلبه لأوامر الله في حركاته وسكناته وكلماته فيمتثلها ولنواهيه في ذلك كله فيجتنبها، ومن أجمل ما نظموه في ذلك:

خل الذنوب صغيرها
وكبيرها ذاك التقي
واصنع كماش فوق
أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة
إن الجبال من الحصى

((هذا وقد أفاده بمعناه الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص١٥٩ فليراجع لتمام الفائدة ففيه نفائس من المواعظ)).

٣- وقوله صلى الله عليه وسلم: (وصلوا خمسكم):

قال القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣ /٢٠): «أي صلواتكم الخمس المعلوم فرضيتها من الدين بالضرورة أضافها إليهم لأنها لم تجتمع لغيرهم» (انتهى).

وقال في تحفة الأحوذي: أضاف إليهم ليقابل العمل بالثواب في قوله جنة ربكم، ولينعقد البيع والشراء بين العبد والرب كما في قوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) الآية،... وهذه الصفقة يقابلها إضافة فضيلة هي أعلى منها وأتم، وهي الجنة المضافة إلى وصف الربوبية المشعر بمزيد تربيتهم وتربية نعيمهم بما فارقوا به سائر الأمم (قاله الطيبي))(انتهى).

٤- وقوله صلى الله عليه وسلم (وصوموا شهركم):

أي: شهر رمضان ولم يذكر اسمه لشرفه وشهرته ولا زال الناس يهنئون بعضهم بعضًا بقدومه بقولهم (مبارك عليكم شهركم)، وقال القاري في المرقاة (٣ /٢٠): (وصوموا شهركم) رمضان، والإضافة للاختصاص... والصوم إذلال النفس لله بإمساكها عما

تتشوف إليه نهارًا على وجه مخصوص))(انتهى).

٥- قوله صلى الله عليه وسلم: (وأدوا) أعطوا (زكاة أموالكم):

قال الحراني: «.. لم يشهد الله بالنفاق جهرا على أحد أعظم من شهادته على مانع الزكاة (قلت: وقد فرق العلماء بين تارك الزكاة مقرا بوجوبها أو غير مقر بوجوبها، فإن كان غير مقر فهو كافر بإجماع المسلمين، لإنكاره شيئا معلوما من الدين بالضرورة، وأما إن كان مقرا بوجوبها، لكنه لا يُخرجها بخلا، فليس بكافر على قول جماهير أهل العلم)، وقدم الصلاة اتباعا للفظ التنزيل، ولعموم وجوبها على كل مكلف، ولأن حسنها في نفسها بلا واسطة بخلاف غيرها وصرح بالمضاف في قوله (زكاة أموالكم) وأضمر في قوله (خمسكم) أي صلواتكم، وأبهم في قوله (شهركم) أي رمضان؛ للدلالة على أن الإنفاق من المال أشق وأصعب على النفس... ذكره الطيبي) (فيض القدير: ١ /١٦٨).

٦- وقوله: وأطيعوا أمراءكم:

قال في تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي (٣ /١٩٢)، وقوله: (وأطيعوا ذا أمركم) قال القاري: أي الخليفة والسلطان، وغيرهما من الأمراء، أو المراد العلماء، أو أعم أي كل من تولى أمرا من أموركم، سواء كان السلطان ولو جائرا ومتغلبا وغيره، ومن أمرائه وسائر نوابه، إلا أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولم يقل أميركم إذ هو خاص عرفًا ببعض من ذكر، ولأنه أوفق لقوله تعالى (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ) (النساء: ٥٩) (انتهى كلام القاري).

فائدة: (الخلاف في معنى ذا أمركم):

قال العيني في (عمدة القاري ص ٤٥٥ ج ٨): قوله (وأولى الأمر منكم) في تفسيره أحد عشر قولا:

ثم عدهم واختار القول الأخير فقال: الحادي عشر: عام في كل من ولى أمر شيء، وهو الصحيح، وإليه مال البخاري بقوله: (وأولي الأمر) (انتهى كلام العيني).

هذا ولأهمية هذا الأمر وارتباطه بالعواطف والمواقف في ذهن كثير من الناس بل ولأن كثيرًا من الناس يصنفون الناس بحسب اعتقادهم في هذه القضية ونحن نقول: يا قوم والله ما نتكلم فيها بضغط من أحد ولا ممالأة لأحد، فلا مصلحة لنا، فنحن محتسبون لا ناقة لنا ولا جمل إلا رجاء الطاعة، فلا عطاء سيُمنع ولا منصبًا سيُحجب، ولكننا نقول ما نعتقده مرضيا لله، وما يدفعنا لمثل هذا إلا القيام بواجب النصح ووظيفة الوقت.

إننا نتكلم في شأن الحكام بما نعتقده من هدي السلف، ودلت عليه النصوص، وأكده الواقع الذي عاشته الأمة على مر الدهور، وإن كان الواقع ليس حكمًا شرعيًا، ولكننا ذكرناه من باب الاستئناس للتنزل في مناقشة الآخر.

وخلاصة منهجنا تجاه الحكام هو: أننا كما أننا لا ننابذهم فإننا لا ننافقهم بل نناصحهم على قدر وسعنا، وعلى قدر قبولهم للنصيحة منا، مع مراعاة ضوابطها الشرعية المعروفة لدى الجميع، وتفاصيلها لدى أهل العلم، ثم إننا ندعو لهم بالهداية والتوفيق لطاعة الله واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ورعاية لمصالح البلاد والعباد، لذا فإننا نقول: إن الواجب على الرعية طاعتهم في غير معصية الله أما في معصية الله فلا تجوز طاعتهم، قال الله تعالى: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ» (النساء: ٥٩).

يقول الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- في تعليقه على هذه الآية: (فعطف طاعة ولاة الأمور على طاعة الله ورسوله وهذا يدل على أنها تابعة؛ لأن المعطوف تابع للمعطوف عليه لا مستقل،.....؛ فهم بشر يصيبون ويخطئون ولهذا جعل طاعتهم تابعة لطاعة الله ورسوله) (انتهى كلامه).

٦- (تدخلوا جنة ربكم):

الذي رباكم في نعمه وصانكم من بأسه ونقمه، قال الطيبي: «أضاف الصلاة والصوم والزكاة والطاعة إليهم ليقابل العمل بالثواب في قوله (جنة ربكم)، ولتنعقد البيعة بين الرب والعبد كما في قوله (إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) الآية كما سبق بيانه. (التيسير بشرح الجامع الصغير. للمناوي: ١ /٥٦). وفي هذا القدر الكفاية، والحمد لله رب العالمين.

باب السنة

أيهما خير؟ العزلة أم الخلطة؟

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

كثيرا ما يصل الحال ببعض الأخيار أنهم يفكرون في اعتزال الناس، وذلك لفرط ما يلاقونه من معاناة في زمن الغربة، ثم ما يلبث الواحد منهم يوازن بين المصالح والمفاسد في هذا القرار، وأيهما أخير له، وأفضل لدينه، وفي هذا الشأن

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

يروي لنا الإمام البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَرَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ

عزو الحديث للكتب الستة:

كتاب الر قاق باب العزلة راحة من خلاط السوء (٦٤٩٤) رواه البخاري في

قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ حَدَّثَهُ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ... وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ فذكره،

ثم قال البخاري:

تَابَعَهُ الزُّبَيْدِيُّ وَسُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ وَالنُّعْمَانُ عَنْ الزُّهْرِيِّ وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَطَاءٍ أَوْ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ يُونُسُ وَابْنُ مُسَافِرٍ وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وأخرجه في كتاب الجهاد (١٥/٤) (٢٧٨٦) بَاب أَفْضَلُ النَّاسِ مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد (باب فضل الجهاد والرباط) (١٨٨٨و أبوداوود في كتاب الجهاد في ثواب الجهاد (٢٤٨٧) (٣١٢/٢) وابن ماجة في باب العزلة) ٣٩٧٨) والترمذي/ باب أي الناس أفضل (١٨٦/٤) (١٦٦٠)

والنسائي/فَضْلُ مَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ(٣١٠٥)

ترجمة الإمام الزهري:

هوالإمام العلم محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن...، الإمام العلم، حافظ زمانه أبو بكر القرشي الزهري المدني نزيل الشام. وقد روى له الجماعة

ونحن إذ نترجم للإمام ابن شهاب فإنا نترجم له غير كونه إمام علم يتعلم من سيرته الكثير، لأن عليه مدار هذا الحديث كما رأيتم- فكل أسانيد الرواة تلتقي عنده-، ولأنه قد لمزه كثير من منكري السنة بأنه واضع للسنة، حيث إنه هو أول من دوَّن السنة النبوية المطهرة، ومع هذا فترجمتنا له ليست كما يوافق ضوابط التراجم العلمية وأصولها، لكننا نستل من سيرته بعضا مما يدلل على هذا الهدف العلمي التربوي، ومن ذلك ما رواه الذهبي في السير في ترجمته للإمام الزهري:

ففي علو همته وطلبه للعلم وملازمته وخدمته لشيوخه:

قال أبو الزناد: كنا نطوف مع الزهري على العلماء ومعه الألواح والصحف، يكتب كلما سمع.

وقال معمر عن الزهري، قال: مست ركبتي ركبة سعيد بن المسيب (شيخه) ثماني سنين.

وروى الزبير في " النسب " له: حدثني محمد بن حسن، عن

مالك، عن ابن شهاب، قال: كنت أخدم عبيدالله بن عبد الله، حتى إن كنت أستقي له الماء المالح، وكان يقول لجاريته من بالباب؟ فتقول: غلامك الأعيمش- فتظن أني غلامه- وإن كنت لأخدمه حتى لأستقي له وضوءه. (وانظره في حلية الأولياء)

وقال ابن أبي الزناد، عن أبيه، قال: كنا نكتب الحلال والحرام، وكان ابن شهاب يكتب كلما سمع، فلما احتيج إليه، علمت أنه أعلم الناس، وبصر عيني به ومعه ألواح أو صحف، يكتب فيها الحديث، وهو يتعلم يومئذ.

وقال إسحاق بن محمد الفروي: سمعت مالكا يقول: دخلت أنا وموسى بن عقبة، ومشيخة على ابن شهاب، فسأله إنسان عن حديث، فقال: تركتم العلم، حتى إذا صرتم كالشنان (القرب البالية) قد توهت، طلبتموه؟! والله لا جئتم بخيرا أبدا. فضحكنا.

وفي قوة حفظه وتثبته واسناده للرواية وتوثيقه يروي الذهبي:

عن ابن وهب، عن الليث، كان ابن شهاب، يقول: ما استودعت قلبي شيئا قط فنسيته،....

قال عثمان الدارمي، حدثنا موسى بن محمد البلقاوي، سمعت مالكا، يقول: حدث الزهري بمئة حديث، ثم التفت إلي، فقال: كم حفظت يا مالك؟ (أي بمجرد سماع مالك من الزهري) قلت: أربعين، فوضع يده على جبهته، ثم قال: إنا لله كيف نقص الحفظ!!

وعن معمر، عن الزهري: ما قلت لأحد قط: أعد علي.

وروى محمد بن الحسن بن زبالة، عن الدراوردي، قال: أول من دوَّن العلم وكتبه ابن شهاب.

قال الشافعي: قال ابن عيينة: حدث الزهري يومًا بحديث، فقلت: هاته بلا إسناد، قال: أترقى، السطح بلا سلم؟.

وبسنده إلى الزهري قال: لقد أدركت في المسجد سبعين ممن يقول: قال فلان، قال رسول الله، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال، لكان به أمينا.

وعن توثيق علماء السلف له فيكاد يبلغ مبلغ التواتر في معناه:

ينقل الذهبي عن عبد الوهاب الثقفي، عن يحيى بن سعيد الأنصاري قال: قال عمر بن عبد العزيز: ما ساق الحديث أحد مثل الزهري.

وعن أبي سلمة المنقري: حدثنا ابن عيينة، عن عمرو، قال: جالست ابن عباس، وابن عمر، وجابرا، وابن الزبير، فلم أر أحدا أنسق للحديث من الزهري.

وعن بقية: عن شعيب بن أبي حمزة، قيل لمكحول: من أعلم من لقيت؟ قال: ابن شهاب، قيل: ثم من؟ قال: ابن شهاب، قيل: ثم من؟ قال: ابن شهاب.

وعن ابن المديني: دار علم الثقات على ستة، فكان بالحجاز الزهري، وعمرو بن دينار، وبالبصرة قتادة، ويحيى بن أبي كثير، وبالكوفة أبو إسحاق والأعمش

وعن أبي صالح، عن الليث بن سعد، قال: ما رأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب، يحدث في الترغيب، فتقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة، كان حديثه

وعن صدقه وقوته في الحق وعدم مداهنته نجد ما يرد كيد الكائدين وادعاء الطاعنين في علمه وأنه وضع الحديث مداهنة للملوك فانظر إلى ما رواه الذهبي:

عن يعقوب السدوسي: حدثني الحلواني، حدثنا الشافعي، حدثنا عمي، قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبدالملك، فقال: يا سليمان: من الذي تولى كبره منهم؟ قال: عبد الله بن أبي ابن سلول، قال: كذبت، هو علي، فدخل ابن شهاب، فسأله هشام، فقال: هو عبد الله بن أبي، قال: كذبت هو علي، فقال: أنا أكذب لا أبا لك، فوالله لو نادى مناد من السماء، إن الله أحل الكذب ما كذبت، حدثني سعيد وعروة وعبيد وعلقمة بن وقاص، عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي، قال: فلم يزل القوم يغرون به، فقال له هشام: ارحل فوالله ما كان ينبغي لنا أن نحمل على مثلك، قال: ولم؟ أنا اغتصبتك على نفسي، أو أنت اغتصبتني على نفسي؟ فخل عني، فقال له: لا(يعني :لا نستغني عنك).

وعن عبادته وعمله بعلمه وإنفاقه فحدث ولا حرج، فقد أفاض في ذلك الإمام الذهبي في ترجمته له في سير أعلام النبلاء فلتراجع لتمام الفائدة.

شرح عبارات الحديث

١- قوله: باب العزلة راحة للمؤمن من خلاط السوء: أي أن فقه البخاري للحديث هو أن العزلة راحة للمؤمن من الاختلاط بأهل السوء.

٢- قوله جاء أعرابي: يقول الحافظ ابن حجر «لم أقف على اسمه وأن أبا ذر سأل عن ذلك، لكن لا يحسن أن يقال في حقه أعرابي».

٣- قوله أي الناس خير؟: أي خير عند الله، وورد بألفاظ أخرى كقوله أي الناس أفضل؟

٤- قوله: (قال رجل جاهد) هذا لا ينافي جوابه الآخر في الإيمان أن خير الناس من سلم الناس من لسانه ويده ولا غير ذلك من الأجوبة المختلفة لنفس السؤال لأن الاختلاف في ذلك بحسب اختلاف الأشخاص والأحوال والأوقات كما تقدم تقريره.

قلت: فلا يتمسكن محب للخير بشعبة واحدة من شعب الخير تعلمها، فيقف عندها لا يتجاوزها، بل قد ينكر على غيره الذي تميز بشعبة أخرى فنقول كله خيروأعمال الخير واسعة، وكل ميسر لما خلق له، طالما أن الكل يعمل تحت مظلة السنة.

٥- قوله: «ورجل في شعب من الشعاب.. إلخ» بكسر الشين المعجمة الطريق في الجبل، ومسيل الماء، وما انفرج بين الجبلين، هو محمول على أنه من لا يقدر على الجهاد فيستحب في حقه العزلة ليسلم ويسلم غيره منه، يقول الحافظ: والذي يظهر أنه محمول على ما بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم

٦- وقوله: «يعبد ربه ويدع الناس من شره»: يقول الحافظ: زَادَ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَيُقِيمُ الصَّلاَةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ فِي خَيْرٍ، وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَفَعَهُ: أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ؟ رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ الْحَدِيثَ وَفِيهِ أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِالَّذِي يَتْلُوهُ؟ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي غُنَيْمَةٍ يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ فِيهَا... وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ.

٧- فائدة: شرح معنى قول البخاري: تَابَعَهُ الزُّبَيْدِيُّ وَسُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ وَالنُّعْمَانُ عَنِ الزُّهْرِيِّ وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَطَاءٍ أَوْ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ يُونُسُ وَابْنُ مُسَافِرٍ وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أي أن ثلاثتهم: الأئمة (يُونُسُ وَابْنُ مُسَافِرٍ وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ) رووه أيضاً عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَطَاءٍ لكنهم لم ينصوا على روايته عن أبي سعيد فقالوا: عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا لا يتعارض مع رواية الأئمة السابقين عن الزهري والتي نصوا فيها على الصحابي أبي سعيد كما قال الحافظ: (لأن الذي حفظ اسم الصحابي مقدم على من أبهمه). «وانظر شرح الحديث في: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٧٥/٣٣) (فتح الباري- ابن حجر (٣٣١/١١-٣٣٢)

مما يستفاد من الحديث:

إن أول ما يرد بالذهن ويستفاد من الحديث هو سؤال يطرح نفسه: **أيهما أفضل العزلة أو الاختلاط بالناس؟** وهي مسألة مهمة لما يتعلق بها من مصالح تتعلق بالفرد والجماعة،

هو بن عبد الله بن عتبة كذا بالشك وكذا أخرجه أحمد عن عبد الرزاق، وقال في سياقه معمر يشك، وقد أخرجه مسلم عن عبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر فقال عن عطاء بغير شك، وكذا وقع لنا بعلو في مسند عبد بن حميد ولم يشك في قوله. (فتح الباري لابن حجر ٣٣٢/١١).

ثم قال البخاري: وَقَالَ يُونُسُ وَابْنُ مُسَافِرٍ وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وللجواب على هذا اختصارا في هذه الحلقة نحيل على جواب إمامين، واحد من القدامى، وواحد من المعاصرين، ثم إننا نتوسع في عرض مباحث مهمة تتعلق به، من خلال تراجم من خرجه من الأئمة في لقاء قادم إن شاء الله :

يقول الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/٣٣٢): «المُرَادُ بِخَيْرِيَّةِ الْعُزْلَةِ أَنْ تَقَعَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ.

وَأَمَّا زَمَنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ الْجِهَادُ فِيهِ مَطْلُوبًا حَتَّى كَانَ يَجِبُ عَلَى الْأَعْيَانِ إِذَا خَرَجَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَازِيًا أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعْذُورًا.

وَأَمَّا مَنْ بَعْدَهُ فَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ... وَأَمَّا الِاجْتِمَاعُ وَالِافْتِرَاقُ بِالْأَبْدَانِ فَمَنْ عَرَفَ الِاكْتِفَاءَ بِنَفْسِهِ فِي حَقِّ مَعَاشِهِ وَمُحَافَظَةِ دِينِهِ فَالْأَوْلَى لَهُ الِانْكِفَافُ عَنْ مُخَالَطَةِ النَّاسِ، بِشَرْطِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَالسَّلَامِ وَالرَّدِّ وَحُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ، مِنَ الْعِيَادَةِ وَشُهُودِ الْجِنَازَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالْمَطْلُوبُ إِنَّمَا هُوَ تَرْكُ فُضُولِ الصُّحْبَةِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ شَغْلِ الْبَالِ، وَتَضْيِيعِ الْوَقْتِ عَنِ الْمُهِمَّاتِ، وَيَجْعَلُ الِاجْتِمَاعَ بِمَنْزِلَةِ الِاحْتِيَاجِ إِلَى الْغَدَاءِ وَالْعَشَاءِ، فَيَقْتَصِرُ مِنْهُ عَلَى مَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، فَهُوَ أَرْوَحُ لِلْبَدَنِ وَالْقَلْبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

ثم يبرر لنا الحافظ ابن حجر سببا آخر للعزلة (هو في نظري) أهم مما سبق، وذلك لاتهام المرء فيه نفسه، يقول: «وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ فِي الرِّسَالَةِ طَرِيقُ مَنْ آثَرَ الْعُزْلَةَ أَنْ يَعْتَقِدَ سَلَامَةَ النَّاسِ مِنْ شَرِّهِ لَا الْعَكْسَ فَإِنَّ الْأَوَّلَ يُنْتِجُهُ اسْتِصْغَارُهُ نَفْسَهُ وَهِيَ صِفَةُ الْمُتَوَاضِعِ، وَالثَّانِي شُهُودُهُ مَزِيَّةً لَهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُتَكَبِّرِ» انتهى من الفتح.

٢- ثم يوافق ذلك ويفصله الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في تعليقه على فهم الإمام البخاري وترجمته على الحديث قائلا:

(العزلة راحة من خُلاَّط السوء)، وصدق-رحمه الله-؛ فإن العزلة راحة إذا لم يكن إلا اختلاطٌ مع أهل السوء، ولا شك أن الراحة خير من التعب، لا سيما التعب فيما لا يُرضي الله عز وجل.

وقد اختلف العلماء-رحمهم الله- أيهما أفضل العزلة أو الاختلاط بالناس؟

فقال بعض العلماء: (إن العزلة أفضل؛ لأنها أسلم لدين المرء)

وقال بعض العلماء: (بل الاختلاط بالناس أفضل لما يُتوقَّع من أمر بمعروف ونهي عن منكر ودعوة إلى الخير، وغير ذلك والصحيح:

أن الاختلاط بالناس أفضل؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم"، إلا إذا كان في الاختلاط شر على المرء في دينه، فحينئذ تكون العزلة خيرا، لكنها مُوَقَّتة، بمعنى: أنه إذا زالت الموانع اختلط بالناس؛ لأن الاختلاط بالناس فيه خير: دعوة للخير، أمر بمعروف، نهي عن منكر، معرفة لأحوال الناس، ائتناس بهم، إلى غير ذلك من المصالح الكثيرة،

والعزلة ينطوي الإنسان فيها على نفسه، وربما ينفتح عليه في هذه العزلة أبواب لا يستطيع سدها من الوساوس والتفكيرات السيئة حتى يذهب بذلك دينه ودنياه، ولهذا قيَّدها البخاري-رحمه الله- قال: (راحة من خُلاَّط السوء)، يعني: (لا مُطلقاً)، وقول من قال: (إن العزلة أسلم) فيه نظر؛ لأن كثيراً من الناس يبنون السلامة على التخلي عن الشيء، وهذا خطأ، فالتخلي عن الشيء قد لا يكون سلامة؛ لأنه إذا وجب عليك الخروج للناس والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم تكن العزلة سلامة، بل تكون العزلة ندامة ومسؤولية وإضاعة، فالتخلي عن الشيء ليس سلامة على كل حال، بل قد يكون فيه الندامة والملامة.....

ثم يبين الشيخ من خلال شرحه وفهمه للحديث متى تكون العزلة أفضل؟ فيقول:.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره)؛ يقول: وهذا في حال الفتن وحال الشر باختلاط الناس؛ فتكون العزلة في شعب من الشعاب خيراً من الاختلاط بالناس لما في الاختلاط من الفتنة والشر، فالجهاد في حال مشروعيته-وجوباً أو استحباباً- خيرٌ من العزلة، والعزلة في حالة الفتنة خير من الاختلاط. انتهى.

وللحديث صلة إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

أيهما خير؟ العزلة أم الخلطة؟

الحلقة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه

وبعد:

ففي لقائنا هذا نتناول بعض الأفكار التي قد يُلَبِّس بها البعض على الناس في شأن هذه القضية.

لقد تكلمنا في اللقاء الماضي في شهر الله المحرم عن شرح حديث أَبي سَعيد الخُدْرِيّ رضى الله عنه الذي قَالَ فيه:

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

«جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَرَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ».

وتناولنا فيه تخريج الحديث من الكتب الستة، ثم تناولنا بعضًا من المواقف التربوية مما رواه الإمام الذهبي في ترجمته للإمام الزهري مما يدل على إمامة الزهري وصدقه وتثبته، وقوته في الحق وعدم مداهنته، وكان في ذلك بعض رد على من اتهم كذبًا الإمام الزهري أنه واضع للسنة مؤلف لها، ولم يكن ذلك إلا لأنه أول مَن دوَّنها.

كما تناولنا باختصار شديد جواب أهل العلم عن أيهما أفضل العزلة أم الاختلاط؟

وفي لقائنا هذا نتناول ما أنكره بعض الناس من طرح هذه القضية بالمرة بل وأنكروها قائلين: وهل السنة والدين يدعوان الناس إلى الانطواء وكراهية الآخرين؟ وقالوا حتى لو صح هذا الطرح أهذا وقته؟ والأمة ممزقة ومفككة تحتاج معالجة ما هو أهم من ذلك بكثير فلا تضيعوا أوقاتنا.

ولسان حالهم ومقالهم أن المردود عقلاً لايصح نقلاً

ونقول في مثل هذا: إن هذه دعوى قديمة في معناها، حديثة متغيرة في مبناها ومقتضاها بتغير أحوال الناس وادعاءاتهم وثقافاتهم، وعمومًا هي كما يقولون: (شنشنة نعرفها من أخزم)، وهي مسألة متفرعة على مسألة إنكار النصوص بالاحتجاج بالعقل، والجواب عليها يحتاج إلى مساحة كبيرة ،لكننا، واختصارًا للوقت ،نقول: لا يتعارض نقل صحيح صريح مع عقل وفهم صحيح أبدًا، هذه واحدة فطالما صح النقل في مسألة ما فلا يجوز إنكارها ويكون المعول والاجتهاد

فقط على كيفية فهمها، والمسلم يسلم نفسه لله، ويدعو أن يرزقه الله الفهم، فإن رزقه فالحمد لله وإلا فهو مُطالَب بالتسليم ابتداء، وهل بعدما ذكرنا من صريح صحيح السنة نحتاج إلى مناقشة إثبات مسألة بسيطة كهذه؟! إنها قضية مجمع عليها في شرعنا وشرع من قبلنا أشار إليها القرآن في غير ما موضع هل بعد هذا كله ينكره من ينكره؟! فيا عجبًا من زمن تنكر فيه البدهيات! وهل عدم فهم السنة يستدعي إنكارها أم يتوجب تعلمها؟!

إلى أي عقل نحتكم؟!

إننا لو اتبعنا هذا المنهج من الوقوف أمام كل قضية متحاكمين إلى أصل سميناه: تحكيم العقل لن ننتهي بل وسنصل في النهاية إلى أحكام مختلفة بحكم درجات الأفهام والعقول المختلفة والسؤال المحير: إلى أيّ عقل نحتكم؟ ومن الذي سيرضى بحكم عقل الآخر؟! إننا لا ننكر تحكيم العقل في النصوص، ولكننا نريد أن نتفق على عقل واحد؛ لأن كل واحد لن يتنازل للآخر لعلمه يقينًا - وهو محق - أنه ليس أحد معصومًا، إذن لن نصل إلا إلى نتيجة حتمية وهي: أننا نتفق على عقل النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذي ارتضاه رب العباد ناقلاً مبلغًا للشرع نصًا وفهمًا، وهذه قضية بحثها الأئمة من قديم وأفاضوا في بحثها والجواب عنها، وأحيلك لمزيد من البحث والفهم في هذا على مثل كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: (درء تعارض العقل والنقل).

ومن النصوص في ذلك ما قد قرأت من حديث الباب وغيره وقبلها من إشارة القرآن في كثير من آياته كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: «وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا» (مريم: ٤٨، ٤٩)، وبحديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله؛ ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك». (سنن الترمذي وحسنه الألباني في الصحيحة رقم ٨٨٨).

ولقد جاء في العزلة خبر من قبلنا وبقي منها بقايا في شرعنا، وجاءت بها نصوص وآثار، وجاءت بضدها نصوص أيضًا وآثار، فكان أن تنازعهما طرفان من أهل العلم- رحمهم الله-، فبين مستحب لها على المخالطة، وبين مستحب للمخالطة على العزلة، والأمر فيه تفصيل.

هذا ولردنا على قولهم: «وحتى لو صح هذا الطرح أهذا وقته؟ والأمة متشرذمة مفككة تحتاج معالجة ما هو أهم من ذلك بكثير فلا تضيعوا أوقاتنا».

نقول لهم: ما بالكم والذي تكلم في هذه القضية وأثارها هو النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه وهو في معرض تأسيس الدولة الإسلامية، ألم يكن النبي محيطًا بالواقع ملمًا به؟! حاشا لله، أكان النبي مضيعًا للوقت بإثارته مثل هذا، ولكننا نقول: إنها قضية تربوية المقصد منها كغيرها من القضايا التربوية تربية المسلم والعلو بإيمانه إلى كماله، فإذا علا إيمان المسلم عبد ربه حق عبادته، وهو المقصد الأول من خلقه، ثم تأتي بعد ذلك اهتماماته الأخرى من القيام بواجبه نحو القضايا الكبيرة التي يذكرون.

السلف لم يكونوا جامدين تجاه القضايا

والناظر إلى تناول السلف لهذه القضية لا يجدهم يقفون جامدين أمام نص أو منغلقين على حكم، بل تجدهم يدورون مع ما يعلو به إيمان المسلم، وتتحقق مصلحته فأينما قوي إيمانه فثم فقههم رحمهم الله.

فتجدهم في فتاواهم يفرقون بين حال الإنسان في حالة الفتن، وبين ما ينبغي أن يكون عليه في غير الفتن، ففي الفتن يفتون بالعزلة، قال في (عمدة القاري شرح صحيح

البخاري (١ /٤٣٧)»: «قال الكرماني: المختار في عصرنا تفضيل الانعزال لندور خلو المحافل عن المعاصي. ا.هـ

و قال ابن كثير: «وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفًا على دينه، كما جاء في الحديث: «يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنمًا يتبع بها شعف الجبال ومواقع القَطْر؛ يفر بدينه من الفتن» ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس». اهـ تفسير ابن كثير (١٤٢/٥).

ولأنها ليست فتاوى جامدة كما أسلفنا نجدها تتغير مع تغير الأحوال ومع نظرتهم لواقع المستفتي:

لذا قال الغزالي رحمه الله: «إن وجدت جليسًا يذكّرك الله رؤيته وسيرته فالزمه ولا تفارقه (إحياء علوم الدين ٢٣٢/٢).

وكان الحافظ ابن حجر من أفضل من فصّل في ذلك وبيّن أنه يصعب التفضيل المطلق لأحدهما على الآخر، كما لا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر، فلكل منهما ما يناسبه. فقال الحافظ في الفتح: (١٣ /٤٢) بعدما عرض رأي النووي وتفريقه بين من خاف على نفسه الفتنة وبين من أمن قال: وقال غيره: يختلف باختلاف الأشخاص؛ فمنهم من يتحتم عليه أحد الأمرين، ومنهم من يترجح، وليس الكلام فيه بل إذا تساويا فيختلف باختلاف الأحوال، فإن تعارضا اختلف باختلاف الأوقات، فمن يتحتم عليه المخالطة من كانت له قدرة على إزالة المنكر فيجب عليه إما عينًا وإما كفاية بحسب الحال والإمكان، وممن يترجح من يغلب على ظنه أنه يسلم في نفسه إذا قام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وممن يستوي من يأمن على نفسه، ولكنه يتحقق أنه لا يطاع، وهذا حيث لا يكون هناك فتنة عامة، فإن وقعت الفتنة ترجحت العزلة لما ينشأ فيها غالبًا من الوقوع في المحذور، وقد تقع العقوبة بأصحاب الفتنة فتعم من ليس من أهلها كما قال تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»، ويؤيد التفصيل المذكور حديث أبي سعيد أيضًا «خير الناس رجل جاهد بنفسه وماله ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره».

وأفاض شيخ الإسلام رحمه الله مبينًا أن أحكام العزلة والخلطة ليست ثابتة مطلقًا فقال في (مجموع الفتاوى ١٠ /٤٢٥): وَأَمَّا قَوْلُهُ: هَلْ الْأَفْضَلُ لِلسَّالِكِ الْعُزْلَةُ أَوْ الْخُلْطَةُ؟ فَهَذِهِ « الْمَسْأَلَةُ » وَإِنْ كَانَ النَّاسُ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا؟ إمَّا نِزَاعًا كُلِّيًّا وَإِمَّا حَالِيًّا. فَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ: أَنَّ « الْخُلْطَةَ » تَارَةً تَكُونُ وَاجِبَةً أَوْ مُسْتَحَبَّةً وَالشَّخْصُ الْوَاحِدُ قَدْ يَكُونُ مَأْمُورًا بِالْمُخَالَطَةِ تَارَةً وَبِالِانْفِرَادِ تَارَةً. وَجِمَاعُ ذَلِكَ: أَنَّ « الْمُخَالَطَةَ » إنْ كَانَ فِيهَا تَعَاوُنٌ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى فَهِيَ مَأْمُورٌ بِهَا وَإِنْ كَانَ فِيهَا تَعَاوُنٌ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ فَهِيَ مَنْهِيٌّ عَنْهَا «اهـ.

ثم يتمم لنا الإمام ابن القيم هذه القضية بتعرضه في هذه المرة ليس إلى تصنيف الذي يختار، ولكن تصنيف الناس بحسب احتياجنا إليهم أي تتعلق بالآخر فنجده في (بدائع الفوائد (٢ /٤٩٨)) في بيانه لقاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان، ويستدفع به شره، ويحترز به منه، وذكر في ذلك عشرة أسباب؛ بدأها بالاستعاذة بالله من الشيطان، ثم ذكر من الأسباب المعينة اجتناب فضول المخالطة، فقال: إن فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة! وكم زرعت من عداوة! وكم غرست في القلب من حزازات تزول! لها الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه

الشر.

أحدها: مَنْ مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله تعالى وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: مَنْ مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها....» انتهى.

وحتى ما سبق من مخالطة تكون السلامة ثم يبدأ الخطر من بعد ذلك فيقول: فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب (أي من القسم الثاني) بقيت مخالطتهم من القسم الثالث (والذي هو بداية الضرر).

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا.. فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف، ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربًا عليك فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يحدث من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس وإن سكت فأثقل من نصف الرحى العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي -رحمه الله- أنه قال: «ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر»، ورأيت يومًا عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب والشيخ يحمله، وقد ضعف القوي عن حمله فالتفت إليّ وقال: مجالسة الثقيل حمى الرَّبْع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى، فصارت لها عادة أو كما قال. وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح عرضية ولازمة.

ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بدّ من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لأكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله الداعون إلى خلافها الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا» اهـ.

وها أنت ذا قد رأيت أن السلف لا يقفون جامدين أمام نص، بل يضعون نصب أعينهم هدفهم الأول وهو المقصد من الخلق ثم يدورون حول النص - طالما صح - يدورون حوله فهمًا لتطويعه لهذه القضية قضية العبودية، إذن فلا نتعجل بالاعتراض والإنكار والفلسفة التي تحيد بالمسلم عن طريق الحق والخير، ولننظر إلى أفهام السلف ،فقد رزقهم الله بصيرة مستنيرة بنور الطاعة والانقياد، وليكن شعارنا دائمًا هو قول المؤمنين: «سمعنا وأطعنا».

والحمد لله رب العالمين.

باب السنة

النذير العريان والطريق إلى الرحمن

الحمد لله الذي أرسل رسوله بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلى الله وسلم وبارك عليه كما وحد الله عز وجل وعرفنا به ودعا إليه ، وبعد:

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى في كتاب الاعتصام من صحيحه من حديث: أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلى الله عَلَيه وَسَلمَ قَالَ: "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّه به، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِه، فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ، فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِه، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ".

التخريج

رواه البخاري في كتاب الرقاق باب الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٢) ط الشعب (١٢٦/٨).

ورواه في كتاب الاعتصام باب وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم (٧٢٨٣) ط الشعب (١١٥/٩) قال حَدَّثنا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثنا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْد، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عن أبي موسى الأشعري، فذكره.

ورواه مسلم في كتاب مناقبه صلى الله عليه وسلم باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٥).

تعريف مختصر برجال الإسناد

شيخ البخاري الذي روى عنه البخاري هذا الحديث هو أَبُو كريب: وأبو كريب هوَ مُحَمّد بن الْعَلاَء بن كريب الْكُوفِي وَهُوَ شيخ مُسلم أَيْضا، وذكره البخاري في كتاب الرقاق باسمه في كتاب الاعتصام بكنيته وشيخه في هذا الحديث أَبُو أُسَامَة هو حَمَّاد بن أُسَامَة اللَّيْثِيّ وأبو أسامة يروي عن بريد، وبريد بضَم الْبَاء الْمُوَحدَة مصغر بِرد ابْن عبد اللَّه بن أبي بردة بضَم الْبَاء الْمُوَحدَة واسْمه عَامر، وَقيل: الْحَارِث، وبريد هَذَا يرْوى عَن جده أبي بردة، وأبو بردة يروي عن أبيه أبي مُوسَى عبد اللَّه بن قيس الأشْعَرِيّ رَضِي اللَّه تَعَالَى عَنهُ، فيا لها من ذرية مباركة بعضها من بعض

يتوارثون العلم والعبادة (وانظره في الفتح في شرحه للحديث في كتاب الرقاق). فهو من رواية الأبن عن جده عن أبيه.

من مناقب أبي موسى الأشعري رضي الله عنه:

هو الصحابي الجليل عبدالله بن قيس وقد اجتمعت له ولقومه صفة كانتَ علمًا على شخصيتهم جميعًا ألا وهي:رقة قلوبهم: وما أحوجنا إليها في هذه الأيام، وقد شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ قَوْمٌ أَرَقُّ مِنْكُمْ قُلُوبًا»، فَقَدِمَ الأَشْعَرِيُّونَ، وَفِيهِمْ أَبُو مُوسَى، فَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ الْمُصَافَحَةَ فِي الإِسْلامِ، فَجَعَلُوا حِينَ دَنَوَ الْمَدِينَةَ يَرْتَجِزُونَ وَيَقُولُونَ: غَدًا نَلْقَى الأَحِبَّةَ... مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ»، أخرجه البخاري.

تواضعه:

ولأن القلب هو قائد الجوارح فنلاحظ انطلاء ذلك على باقي صفاته ولعل هذا مما ظهر على صفاته لما كان أميراً فوجدناه خادماً متواضعاًلا أميرا مخدوماً لما ولاه عمر رضي الله عنه البصرة سنة سبعَ عشرة بعد عزل المغيرة، فجمع أهلها وخطب فيهم قائلاً: "إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم، أعلمكم كتاب ربكم، وسنة نبيكم، وأنظف لكم طرقكم"، فدهش الناس لأنهم اعتادوا ألا يفقههم الأمير ويثقفهم، لا أن يخدمهم وينظف لهم طريقهم.

أبو موسى والقرآن:

بل ولعل رقة قلبه ظهر أثرها في قراءته للقرآن مع جمال صوته فميزته به فعن أبي بُرْدَةَ عن أبي مُوسَى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي مُوسَى: «لَوْ رَأَيْتَنِي وأنا أَسْتَمِعُ لقِرَاءَتِكَ البَارِحَةَ! لَقَد أُوتيتَ مِزْمَاراً من مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»، (أخرجه مسلم وكان عمر يدعوه للتلاوة قائلاً: "شوقنا إلى ربنا يا أبا موسى).

الخوف من الله

بل وظهرت هذه الصفة في خوفه وعبادته فنجده صواماً من أهل العبادة المثابرين وفي الأيام القائظة كان يلقاها مشتاقًا ليصومها قائلاً: "لعل ظمأ الهواجر يكون لنا ريًا يوم القيامة"، فكان أبو موسى لا تلقاه إلا صائمًا في يوم حارٍ، بل ونجده يجتهد في عبادته حين يضعف الناس في آخر أيامهم ضارباً لنا المثل ودالاً لنا إلى الخير ولمّا قاربت وفاته زادَ اجتهاده، فقيل له في ذلك، فقال: "إنّ الخيل إذا قاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك"، وجاء أجل أبي موسى الأشعري، وكست محياه إشراقة من يرجو لقاء ربه وراح لسانه في لحظات الرحيل يردد كلمات اعتاد قولها دومًا: "اللهم أنت السلام، ومنك السلام"، ثم توفي بالكوفة في خلافة معاوية رضي الله عنهما.

المعنى العام للحديث:

(إنما مثلي ومثل ما أرسلت به) أي علاقة الشبه والنظير أنا وما أرسلت به والذي بعث الله به نبيه صلى الله عليه وسلم هو الهدى والعلم، ووجوب طاعته صلوات الله وسلامه عليه.

(كمثل رجل أتى قومه) التنوين في رجل للتعظيم، والقوم وإضافة قومه إليه تُشعر بنصحه لهم، وخوفه عليهم، واهتمامه بأمرهم (فقال إني أرى الجيش بعيني): أي: فحذّر قومه لما رأى هذا الجيش الذي يريد الغارة عليهم وقد رآه قبلهم وهم لم يبصروه بعد فحذرهم و اللام في الجيش للعهد، والمراد الجيش المعهود عداوته للمخاطبين.

(وإني أنا النذير العريان) وقد شبه نفسه وهو يحذرهم أنه نذير عريان، هذا القول مَثَل في الإنذار عند المخافة، وأصله- كما قال الشراح-: إن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يُوجب المخافةَ نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم؛ ليُخبرهم بما دهمهم، وإنما يفعل ذلك؛ لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظرًا، فهو أبلغ في استحثاثهم على التأهب للعدو، وقيل: معناه أنا النذير الذي أدركني جيش العدو فأخذ ثيابي، فأنا أُنذركم عريانًا أو أن ذلك حدث له دون أن يشعر وهو مهتم بالصياح لتحذير قومه وقد عُلم بقوله هذا أن الإنذار من صفاته صلى الله عليه وسلم.

(فالنجاء) أي فاطلبوا النجاء وأسرعوا في الهرب.

(فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا على مهلهم) فاستجاب لتحذيره طائفة من قومه وهم الطائفة الناجية التي استجابت لنصح هذا الناصح المحذر لهم فتحركوا ليلا وهو الإدلاج.

(فنجوا) أي لما صدقوا تحذيره واستجابوا لنصحه وتحركوا بعيداً عن غارة الجيش المغير نجوا منه.

(وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم)، وهذه هي الفرقة الثانية التي لم تصدق بالدعوة، ولم تستجب للنصح، فظلوا على حالهم دون استجابة فجاءهم التحذير الذي أنذرهم به منذرهم فأتاهم الجيش صباحا فاجتاحهم وأهلكهم.

(فذلك مثل من أطاعني فاتبع) بالفاء ولأبي ذر عن الحموي والمستملي (واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق).

قال الحافظ: قال الطيبي: هذا التشبيه من التشبيهات المفرقة شبه ذاته-صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ- بالرجل وما بعثه الله به من إنذار القوم بعذاب الله القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح وشبه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذب الرجل في إنذاره وصدقه.

(وانظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ٢٩/٢٥، ٧٥/٢٣، شرح القسطلاني (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢٧٦/٩، ٣٠٥/١٠)، (فتح الباري لابن حجر (٣١٦/١١)، قال النووي في شرحه على مسلم (٤٨/١٥) وشرح ابن عثيمين لكتاب الرقاق من صحيح البخاري ص ١٠٩)، زهر الأكم في الأمثال والحكم: ٩١/١).

بعض ما يستفاد من الحديث

١- الانتهاء عن المعاصي:

وهى ما استفاده من الحديث شيخ المحدثين البخاري رحمه الله وذلك من تبويبه عليه في كتاب الرقاق، والرقاق المقصود بها ما ترق به أو له القلوب، وعليه فكأن إمامنا البخاري يقول لنا أيها الناس إن الذي يقرأ هذا الحديث يرق قلبه؛ لأنه يسمع تحذير النبي له كتحذير النذير العريان لقومه، فيستجيب لهذا الإنذار فيفكر أول ما يفكر فيه أنه ينتهي عن المعاصي بالكلية، وهي أخص مراتب الاستجابة لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا نهيتكم عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) رواه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧)، وإلا فإن فعل الطاعات وترك المنكرات كله من الاستجابة لله ولرسوله وعليه فأول مراتب النجاة هو الانتهاء عن المعاصي بالكلية والانتهاء عن المعاصي؛ كما قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: إن الإنسان يجب أن يبادر بالانتهاء عنها، والمعاصي جمع معصية وهي مخالفة الأمر إما بترك المأمور، وإما بفعل المحذور، والواجب على العبد أن يكون مستقيماً بهذا ولهذا فيقوم بالأوامر ويدع النواهي (ينظر: شرح كتاب الرقاق لابن عثيمين ص ١٠٩).

٢- وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم:

وهي الفائدة الثانية التي تعلمناها من شيخ المحدثين رحمه الله تعالى؛ حيث بوَّب على الحديث بهذا التبويب في كتاب الاعتصام، والمفهوم من ذلك أن هذا الحديث يدلنا على وجوب الاعتصام والتمسك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ووجوب اتباعه وفي شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٣٣/١٠) قال المؤلف: "أمر الله عباده باتباع نبيه والاقتداء بسنته فقال: (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (الأعراف: ١٥٨)، وتوعد من خالف سبيله ورغب عن سنته فقال: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (النور: ٦٣)، وهذه الآيات مصدقة لأحاديث هذا الباب".

شبهة وجوابها

ولا يضرنا في هذا ما نسمعه ويطرح على آذاننا ممن فتح الإعلام لهم بابه على مصراعيه من طائفة منكري السنة، أولئك القوم الذين زعموا حبهم لها ليلبسوا بذلك علينا ديننا وإن

تعجب فاعجب من قولهم وإعلانهم في بياناتهم ومناقشاتهم أنهم يحبون نبيهم صلى الله عليه وسلم، بل قد تجد الواحد منهم يدلل على هذا بل ويصدر ما قاله أو كتبه كما قال بعضهم في صدر كتاب كتبه ينكر فيه الصحيح الثابت من كلام خير البرية في أصح كتابين بعد كتاب الله عز وجل (أي: في البخاري ومسلم) وسمى الكتاب «تجريد البخاري ومسلم من أحاديث لا تلزم» أي كأنه يجرد لنا وينقي لنا البخاري ومسلم من أحاديث ذكرها البخاري ومسلم من أحاديث لا تلزم المسلمين، فسبحان الله!!

والغريب أنه يصدر كتابه هذا بقوله: إلى حبيبي رسول الله، وإنني وغيري عندما يقرأ هذا التصدير قد يغتر بأمثال هؤلاء فتكون المشكلة أكبر لأن أمثال هؤلاء يصيرون بهذا ثقة لدى الناس فينطلي على الناس طعن هؤلاء على السنة النبوية وقريباً رأيت بنفسي رجلاً عقد درساً فضائياً على قناة شهيرة فتحت أبوابها لأمثال هؤلاء الطاعنين، رأيته بنفسي وقد صدر كلامه بمحبته لرسول الله فجذبني حديثه كما يجذب المحب لرسوله ثم إذا به يفاجأني بقوله وتقريره: إن سنة النبي صلى الله عليه وسلم ليس بواجب علينا اتباعها، وظل يتهجم على من قرر هذا الأصل ودلل عليه من علماء السلف من القدامى والمحدثين، بل والمعاصرين حتى انتهى بشيخ الأزهر السابق رحمه الله، فنقل قولا له قد نشر في جريدة الأهرام أفاد فيه إجماع علماء الإسلام على وجوب اتباع سنة النبي صلى الله عليه ثم ظل يعترض عليه كما اعترض وسخر من غيره.

وللرد على مثل هذا أكتفي بكلام رباني للشيخ ابن باز رحمه الله في تفريغ نصي لكلام له عن السنة النبوية ووجوب اتباعها قال: وقد أجمع علماء الإسلام على أن الأصول المجمع عليها ثلاثة: الأصل الأول: كتاب الله. والأصل الثاني: سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام. والأصل الثالث: إجماع أهل العلم.

وقد دل على هذا المعنى إجماع أهل العلم قاطبة، على وجوب الأخذ بها والإنكار على من أعرض عنها أو خالفها.

وفي نفس السياق يرد رحمه الله على من أنكر السنة من أمثال هؤلاء ممن سموا أنفسهم بالقرآنيين يقول: ونبتت نابتة بعد ذلك تسمى هذه النابتة الأخيرة القرآنية ويزعمون أنهم أهل القرآن، ولا يأخذون إلا بالقرآن فقط، وقد ضلوا عن سواء السبيل،..... فإن الله عز وجل أمر بطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام واتباع ما جاء به، ولو كان رسوله لا يتبع ولا يطاع لم يكن للأوامر قيمة، فدل ذلك على أن سنته صلى الله عليه وسلم واجبة الاتباع، وعلى أن طاعته واجبة على جميع الأمة، كما تجب طاعة الله تجب طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام.

٣- شفقته صلى الله عليه وسلم على الناس جميعاً، وهو ما يدعو ذلك إلى وجوب محبته:

وهي فائدة أفادها الإمام النووي في شرحه على مسلم (٤٨/١٥) في تبويبه على هذا الحديث من صحيح مسلم فقال: بَاب شَفَقَتِه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ عَلَى أُمَّته وَمُبَالَغَته فِي تَحْذِيرهمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ. وهذه الشفقة منقبة من مناقبه صلى الله عليه وسلم لذا وضعه النووي في كتاب مناقب النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه المنقبة وغيرها هي قائدنا إلى محبته صلى الله عليه وسلم.

محبته صلى الله عليه وسلم:

ألا تستدعي فرط محبته لنا وشفقته علينا ومبالغته في التحذير لنا مما يضرنا وإرشادنا لما ينفعنا ألا يستدعي ذلك كله محبتنا له عليه الصلاة والسلام؟! إن محبة رسول الله ليست واجبة فقط بل هي فطرة متمكنة من نفوس المؤمنين كيف لا وقد رأيناه بنا رءوفاً رحيمًا كما قال الله (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (التوبة:١٢٨)، ولذلك أرجأ استجابة دعوته شفاعة لأمته غدا يوم القيامة، وهذه المحبة لا يكمل إيمان المرء بدونها كما قال صلى الله عليه وسلم في الصحيحين من حديث أنس: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)، فصارت بذلك محبته مسألة عقدية وضرورة إيمانية والمحبة دليلها الطاعة، وهي طريقنا الأوحد إلى ربنا الرحمن تبارك وتعالى.

والحمد لله رب العالمين.

الكنز المفقود والاستجابة لسيد كل مولود (صلى الله عليه وسلم)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد:

فمع كلمات نورانية، وقاعدة إسلامية تقوم عليها المجتمعات الطاهرة النقية، حققها الإسلام في الوقت الذي عجزت فيه الفلسفات المعاصرة أن تحققها، وذلك من خلال حديث قليل المبنى عظيم المعنى رواه الإمام البخاري بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه، عَنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ».

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

عزو الحديث للكتب الستة:

رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس (٨/ ٩٥) (٦٤٤٦).

ومسلم في كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض (٢/ ٧٢٦) (١٠٥١).

ورواه الترمذي في جامعه (تحقيق شاكر) في أبواب الزهد، باب من قال إن الغنى غنى النفس(٤/ ٥٨٦) (٢٣٧٣).

ورواه ابن ماجه في سننه باب القناعة (٢/ ١٣٨٦) (٤١٣٧).

المعنى العام للحديث:

(ليس الغنى عن كثرة العرض) أي ليس الغنى الحقيقي النافع المحمود المعتبر ما حصل عن كثرة العرَض والمتاع الدنيوي، (ولكن الغنى غنى النفس) أي: المحمود المعتبر عند أهل الكمال هو استغناء النفس بما قسم لها، وقناعتها ورضاها به بغير إلحاح في طلب ولا إلحاف في سؤال، فكأنه غني». (أفاده ابن بطال وغيره).

الشرح التفصيلي:

في شرحه للحديث في كتاب (الأدب النبوي) لمحمد عبدالعزيز الخولي رحمه الله (ص: ١٧٨) كلام بليغ يبين فيه الفرق بين مفهوم الناس للغنى والمفهوم الشرعي له قال ما مفاده:

الغنى في عرف الناس:

والغنى في عرف الناس من كثر ماله، وعظمت ثروته، والصواب هو:

ما قد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الغنى ليس بسعة الثروة. ووفرة المال. وكثرة المتاع، (ولكن الغنى غني النفس).

وفقر القلوب هو الداء:

فقد جاء في بعض روايات هذا الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يا أبا ذر أترى كثرة المال هو الغنى؟ قال: قلت نعم يا رسول الله، قال: أفترى قلة المال هو الفقر؟ قال: قلت نعم يا رسول الله قال: إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب».

وخطورة هذا أن من كان فقير القلب كانت مقاييسه مختلفة، فكان المال عنده هو الغنى لذا: فإنه قد لا يبالي أربح المال من حلال أم من

حرام؛ لأن حب الدنيا قد استقر في قلبه فأفسد عليه هذا القلب، ومنعه القناعة برزقه.

وعلى هذا فالفقير حقًا هو فقير القلب وإن كثر ماله، وتشعبت أملاكه.

هذا وإن كان ذلك وصف الغنى، فكيف السبيل إليه؟

إن أول السبل هو الرضا بما قدر الله وأعطى، والثقة بأن ما عنده خير وأبقى، فثمرة الرضا بالقضاء والقدر كما أفاده (في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٨/ ٣٢٣٦)، استغناء القلب بإغناء الربِّ،... فَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ حَرِيصًا عَلَى جَمْعِ الْمَالِ، فَهُوَ فَقِيرٌ فِي حَقِيقَةِ الْحَالِ وَنَتِيجَةِ الْمَآلِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَمْوَالِ... وَمَا أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

عَزِيزُ النَّفْسِ مَنْ لَزِمَ الْقَنَاعَة
وَلَمْ يَكْشِفْ لِمَخْلُوقٍ قِنَاعَهُ

وَأَنْشَدَ أَبُو الطَّيِّب:

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ
مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

أهمية هذا الحديث:

هذا الحديث عجيب في صغر مبناه وعظم معناه؛ وذلك لأنه ليس مجرد حديث تربوي يذكر للمواعظ فقط، بل هو حديث مرتبط بكثير من أعمال الإيمان فلا يستفيد منه إلا مَن حقَّق هذه الأعمال الإيمانية، وتظهر هذه الأهمية من علاقة الآيات التي ساقها الإمام البخاري في صدر الباب:

قوله: وقال الله: « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ » (آل عمران: ١٧٨)، ثم بدأ في الكلام عن بعض صفات المؤمنين، ثم بيَّن أن هذا التكليف بأعمال الإيمان هو مما يُطاق، وليس ظلمًا للعباد، وأن المُعرض عن هذا التكليف المستصعب له الظانّ أن الرزق الذي رُزق به دليل على رضا الله وإن كان قد خالف حكم الله فيه، كل ذلك دليل أن قلوبهم في غمرة من هذا، أي: من الاستدراج المذكور

وعليه فخيرية المال ليست لذاته بل بحسب ما يتعلق به.. ولا يكون الإنسان غنيًّا بحق إلا أن يؤدي حق الله في المال، ولا يتأتى ذلك إلا بأعمال الإيمان، والتي منها ما ذكر في الآيات التي صدَّر بها البخاري بابه. (ينظر: الفتح: ١١/ ٢٧١).

ومما يستفاد من الحديث:

أن الله تبارك وتعالى رزق نبيه البيان، وآتاه جوامع الكلم؛ لذا كان من بركات كلام النبوة أنك تجده قليل المبنى غزير المعنى، فحديث مثل هذا لا تجده يصل لعشر كلمات بحروفه، ومع هذا ففوائده تكاد تملأ الدواوين.

ومن هذه الفوائد ما يحتاج إلى فتح العلماء وشرحهم، ومنه ما يفهمه كل قارئ مسلم بنظرته للحديث مستنبطًا منه ما يفتح الله عليه من مواعظ وعبَر -بعيدا عن الأحكام-، وإن المتصفح لما استنبطه العلماء من فوائد حول هذا الحديث ليجد أنه أفاد الزهد، كما نص الإمام الترمذي، وقصر الأمل كما أفاده البيهقي في «شعب الإيمان»، والرضا بقضاء الله والتسليم له كما أفاده البيهقي في «الآداب»، وذم الاقتصار على الدنيا وجمع المال كما أفاده الشجري في «ترتيب الأمالي الخميسية» وسخاوة النفس كما في «الأدب المفرد للبخاري»، والعزة والشرف كما أفاده القرطبي، والقناعة والعفاف والاقتصاد في المعيشة كما في شرح «رياض الصالحين»، غير أننا - تقديرًا للموقف - نكتفي بفائدتين عظيمتين هما من أهم ما طرح لنا هذا الحديث المبارك وهما:

- الاستجابة لمفاهيم الشرع، وإن خالفت ما نفهم.

- والقناعة والتعفف وهما ثمرتا الزهد.

أولاً: الاستجابة لمفاهيم الشرع وإن خالفت ما كنا عليه من قبل:

وأرجو- يا حبيبي- انتباهك رجاء نصحك ودعائك، إن المتتبع لسنة الله في خلقه في قصص إرسال الرسل إلى قومهم ليشعر بأهمية هذه السمة في تغيير حياة الناس مما هم عليه إلى ما أراده الشرع لهم فنجد الناس تجاه هذا ينقسمون إلى فريقين: واحد قوله: سمعنا وأطعنا، يستجيب لمفاهيم الشرع وتعاليمه وإن خالفت ما كان عليه، وهذا يحيا عن بينة، وفريق آخر يهلك عن بينة، وهو من عارَض تعاليم الشرع وأعرض عنه معتمدًا على ما كان عنده بفهم واكتساب خاص أو تقليدًا للآباء وقد يصل به الترك إلى الإعراض بالكلية فيكون كمن قال تعالى على لسانهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣).

إذن فالناس يتمايزون بهذه السمة - سمة تلقي تعاليم الشرع ومفاهيمه بالقبول أو بالرد -إلى فريقين؛ فريق طائع مهتد، وآخر عاص معرض، وهنا يكون الخلاف.

وهذا الخلاف درجات فقد يكون بداية من ردّ الدين بالكلية كما قال الكفار (إنا وجدنا آبائنا على أمة...)، وقد ينتهي بشكل أخف من أشكاله وهو ردّ مفهوم يريد الشارع أن يصححه لنا؛ كحديثنا الذي بين أيدينا، والذي يريد أن يصحّح لنا مفهوم (الغنى)، ومعناه وما يترتب عليه.

وهذا الأمر لأهميته نجد أن الشارع يحرص على توجيه الناس إليه في غير ما موضع فنجد النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يسأل عن أمر ما، ثم يجيب المسلمون بجواب، ثم يفاجئهم النبي صلى الله عليه وسلم بجواب مختلف؛ يربّيهم عليه، فيستجيب المؤمنون وكأنهم لم تكن عندهم في القضية جواب سابق؛ وذلك لكونهم قد استقرت في نفوسهم أنهم عبيد لله، والعبد شعاره وقوله: سمعنا وأطعنا، ومثاله: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رسول الله، قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ؛ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ». فيغير النبي مفهومهم عن المفلس، وهكذا فيتغير مفهوم المؤمنين في الحال بحسب ما جاء به الشرع.

إن هذه القضية -أعني: قضية استجابة المؤمن لتعاليم الشرع ومفاهيمه- وإن خالفت ما استقر عليه فهمه وتنشئته وتربيته؛ هذه القضية هي مفرق عظيم في حياة المجتمعات المؤمنة، وفي تربيتهم، وهي دليل إيمان عام، وإيمان خاص بأن تعاليم الشرع وأوامره ومفاهيمه وإن خالفت قناعاتنا، فإن في شرع الله الخير، وكما قال أهل العلم بعبارة أصولية: «أينما وُجدت المصلحةُ فثَمَّ شرع الله»، فمتى أمر الشرع وقرر ففي أمره الخير والمصلحة مهما كان عندنا من مفهوم خلاف ذلك، فلا بد من الاستجابة؛ لاعتقادنا أن المصلحة في مآلات الشرع، وإن كان الحال بخلاف ذلك، وما قصة أم موسى عنا ببعيدة، لما قال لها الله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ (القصص: ٧)، فهل يُعقل أن تلقي أمٌّ بولدها في البحر إن خافت عليه؟! فالظاهر من الحال أن مَن يلقى في اليم فإنه يغرق ويهلك، لكن المآل أن الله كتب لموسى عليه السلام النجاة بهذا، فكان المآل خيرًا، وهكذا حال المسلم.

وعودًا إلى حديثنا فالمفهوم المستقر لدى الناس جميعا أن الغني هو مَن عنده مال ومتاع، فجاء الإسلام ليغير هذا قائلاً: إن الغنى الحقيقي هو غنى النفس، وقد دللنا على هذا المفهوم الجديد من واقعنا، إذن فالمسلم يستجيب لهذا المفهوم وما يترتب عليه من سلوك، وإن كان يخالف ما يفهم سيرًا على القاعدة العامة أنه: «أينما وُجدت المصلحةُ فثَمَّ شرع الله».

ثانيا: القناعة:

وهي الكنز المفقود، فهي أهنأ العيش، وهي من صفات المؤمنين؛ لذا كانت من ثمرات الإيمان وترتب اكتسابها على الخوف من الواحد الديان

فقال نبينا العدنان فيما رواه الإمام أحمد عن زيد بن ثابت أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ، جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الدُّنْيَا، فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ». (صححه الألباني في الصحيحة).

والإنسان مهما رُزق من المال ولم يكن قنوعًا فلن يملأ عينه شيء.

ومن ثمرات القناعة:

وهذه السمة من جمالها أنها لو تحلى بها العامة لزالت من بينهم الضغائن والأحقاد، وحلت بينهم الألفة والمودة؛ إذ أكثر أسباب الخلاف والشقاق بين الناس بسبب الدنيا والتنافس عليها، وما ضعف الدين في القلوب إلا من مزاحمة الدنيا له، ولذلك كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: « اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يُسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع».

أما أهميتها للعلماء والدعاة فحدِّث ولا حرج، فباستقامة الدعاة والعلماء على هذه الخلال يحفظ الله البلاد والعباد؛ وذلك لأن بهم تُقام الحجة، ويظهر الدين، فلو أنهم أعطوا في دينهم الدَّنيَّة لضاعوا وأضاعوا العباد، ولو رزقهم الله خُلق القناعة فما يبالون بالدنيا ولا يحتاجون إلى أحد ولا يفكرون إلا في أخراهم، ومن وصاياهم في ذلك: أوصى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ابنه فقال: «يا بني، إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة؛ فإنها مال لا ينفد».

وقيل لبعض الحكماء: «ما الغنى؟» قال: «قلة تمنيك، ورضاك بما يكفيك».

وكان محمد بن واسع - رحمه الله تعالى - يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: «من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد».

ويقول عامر بن عبد قيس: «أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتهن مساءً لم أبالِ على ما أمسي، وإذا تلوتهن صباحًا لم أبالِ على ما أصبح.

(مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (فاطر:٢)، (وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ) (يونس: من الآية١٠٧)، (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) (هود:٦)، (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) (الطلاق: من الآية٧). (ينظر: التوكل لعبد الغني المقدسي ص٣٧).

ومن أفعالهم:

يقول صالح بن أحمد بن حنبل: دخلت على أبي يوماً في أيام الواثق، والله يعلم على أي حال نحن، (يعني: من الحاجة والشدة والفقر)، وقد خرج لصلاة العصر، وكان له لبد يجلس عليه، قد أتى عليه سنون كثيرة حتى بلي، وإذا تحته كتاب - يعني رسالة -، وفيه: بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق، وما عليك من الدَّيْن، وقد وجهت إليك بأربعة آلاف درهم على يد فلان، وما هي من صدقة، ولا زكاة، وإنما هو شيء ورثته من أبي، (وكانوا يرون أن الميراث من أطيب المكاسب؛ لأنه لا تبعة على الإنسان فيه)، يقول صالح: فقرأت الكتاب ووضعته في مكانه، فلما دخل قلت: يا أبت ما هذا الكتاب؟، فاحمر وجهه، وقال: رفعتُه منك، يعني: وضعه تحت هذا لئلا يراه صالح، ثم قال: تذهب لجوابه؟، فكتب إلى الرجل: وصل كتابك إليَّ ونحن في عافية، فأما الدَّيْن فإنه لرجل لا يُرهقنا، يعني: لا يطالبنا بإلحاح، وأما عيالنا ففي نعمة الله، فذهبت بالكتاب إلى الرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل، فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل مثل ذلك، يعني: أرسل مرة ثانية، فرَدَّ عليه بمثل ما رد، فلما مضت سنة أو نحوها ذكرناها، يقول: جلسنا نتذكر يوم أرسل الرجل الكتاب، فقال الإمام أحمد: «لو كنا قبلناها كانت قد نفدت الآن، وإنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها لأيام قلائل» (ينظر: سيرة الإمام أحمد بن حنبل: ص: ٤٤).

فتلك صفةٌ صنعت أحمدَ بن حنبل.

هذا وليس المراد من كلامنا ترك الكسب، بل الحلال منه مطلوب، وإنما الذي يتعارض مع القناعة أن يغشّ التاجر، وأن يتسخط الموظف، وأن يتنازل الداعية عن دعوته أو يميِّع مبدأه رغبةً في مال أو جاه، وأن يذلّ المرء نفسه لغير الله- تعالى- لحصول مرغوب، فذلك ما يجب الحذر منه، وفي هذا القدر كفاية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



صلاح الرفيق

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

فإن الموت هو الحقيقة الغائبة؛ فلما يفكر فيه الناس مع أنه واقع مشاهد، فالناس يرونه كل يوم، لا يخفى على أحد، حقيقة سلم بها كل مخلوق، وأيقن بها كل إنسان، جعله الله فاصلاً بين حياتين؛ الحياة الدنيا والحياة الآخرة، لذا كان من الحكمة اختيار الرفيق فيه.

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحديث:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "يتبع الميت ثلاثة: أهله وعمله وماله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله".

العزو:

رواه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠)، والنسائي في سننه (١٩٣٧).

الشرح:

ومعنى الحديث:

أن الرجل إذا مات تبعه إلى قبره ثلاثة: تبعه أهله، وهم أولاده وأقاربه وأهل صحبته ومعرفته، وتبعه ماله، ومنه عبيده وإماؤه ودابته، وتبعه عمله، وهو ما أسلفه من خير أو شر. فيرجع أهله وماله، ويبقى معه عمله. انظر: "مرقاة المفاتيح" (٣٢٣٥/٨)

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

" قَوْلُهُ (يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ) هَذَا يَقَعُ فِي الْأَغْلَبِ، وَرُبَّ مَيِّت لَا يَتْبَعُهُ إِلَّا عَمَلُهُ فَقَطْ، وَالْمُرَادُ مَنْ يَتْبَعُ جِنَازَتَهُ مِنْ أَهْله وَرُفْقَته وَدَوَابّه عَلَى مَا جَرَتْ به عَادَة الْعَرَب، وَإِذَا انْقَضَى أَمْرُ الْحُزْنِ عَلَيْهِ رَجَعُوا، سَوَاءٌ أَقَامُوا بَعْدَ الدَّفْنِ أَمْ لَا. وَمَعْنَى بَقَاءِ عمله: أَنَّهُ يَدْخُلُ مَعَهُ الْقَبْر.

وصحبة العمل للإنسان في قبره عقيدة تواترت بها الأدلة، بل صحت الأدلة أن عمل الإنسان قد يظهر للإنسان في صورة رجل يصحبه كما وَقَعَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ الطَّوِيلِ فِي صِفَةِ الْمَسْأَلَةِ فِي الْقَبْرِ عِنْدَ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ، قَالَ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ... وفيه: (قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ

يَجِيءُ بِالْخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ. فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي) (رواه أحمد (٣٦٢/٤) وصححه الألباني في "أحكام الجنائز" (١٥٦)).

وفي تفسيره للمال كيف يتبع صاحبه قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: " قال أهل العلم رحمهم الله تعالى: هذا في الميت الذي له أرقاء يتبعونه، والأرقاء أمواله يباعون ويشترون. وقال بعض العلماء: المراد بماله هو ما يكرم من أجله، يعني أن الناس غير أقاربه وغير أهله: يخرجون معه من أجل ماله إذا كان تاجرا، فعبر بالمال عن التابعين من أجل المال... فالمعنى إما أن يقال: إن المراد بالمال العبيد الأرقاء، أو يراد بالمال ما يكرم به من أجله، وهو كثرة الناس الذين ليسوا من أهل الميت. والله أعلم". (وانظر: مجموع فتاوى ورسائل العثيمين" (١٧/ ٤٢٩-٤٣٠).

التفصيل:

ولا يعنى من كلامنا أبدًا ذم الصاحبين الأوليين، ولكن نعني من كلامنا التفصيل فيهما وتوجيههما ليصيرا عملاً صالحًا وبيان ذلك ما قد بينه الحافظ ابن رجب الحنبلي في رسالة قيمة، شرح فيها هذا الحديث أفيد منها بما يلي: إن ابن آدم في الدنيا لا بد له من أهل يعاشرهم، ومال يعيش به، فهذان صاحبان يفارقانه ويفارقهما، فالسعيد من اتخذ من ذلك ما يعينه على ذكر الله تعالى، وينفقه في الآخرة، فأما من اتخذ أهلاً ومالاً يشغلانه عن الله تعالى، فهو خاسر، وقال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ » (المنافقون: ٩).

فإذا مات ابن آدم، وانتقل من هذه الدار، لم ينتفع من أهله وماله بشيء إلا بدعاء أهله له، واستغفارهم، وما ثبت من الشرع من الصدقة عن الميت، وبما قدمه من ماله بين يديه، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

صلاح الأصحاب:

فأما الصاحب الأول: الأهل، فأهله لا ينفعه منهم بعد موته إلا كما تقدم ذكره والله أعلم، وقد لا يفعل، وقد يكون الأجنبي أنفع للميت من أهله كما قال بعض الصالحين: أهلك يقتسمون ميراثك، وهو قد تفرد بحزنك يدعو لك، وأنت بين أطباق الثرى، فمن الأهل من هو عدو، كما قال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ » (التغابن: ١٤).

تمرُّ أقاربي جنبات قبري
كأنَّ أقاربي لا يعرفوني!!
ذوو الميراث يقتسمون مالي
ولا يألون إن جحدوا ديوني!!
وقد أخذوا سهامَهُمُ وعاشوا
فيا لله أسرع ما نسوني!!

وأما الصاحب الثاني: وهو المال.

روى مسلم في صحيحه من حديث مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي- صلى الله عليه وسلم- وهو يقرأ: «أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ» (التكاثر: ١)، قال: "يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟!

وروى البخاري من حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه-: أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: " أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر".

فالعاقل هو من قدم من ماله ما يحبه، فيفوز به في دار الإقامة، فإن من أحب شيئًا استصحبه. قال الحسن: بئس الرفيقان الدرهم والدينار؛ لا ينفعانك حتى يفارقانك!.

وقد أحسن من قال:

السقم في جسمي له تزداد
والعمر ينقص والذنوب تزادُ

وكان علي- رضي الله عنه- يقول في الليل: "آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق".

يا جامع المال ما أعددت للحُفَر
هَل يُغفل الزاد من أضحى على السفر؟!

أما الخليل الثالث: فهو العمل الذي يدخل مع صاحبه في قبره فيكون معه فيه، ومعه إذا بعث، و

معه في مواقف القيامة، وعلى الصراط، وعند الميزان، وبه تقسم المنازل في الجنة والنار، قال تعالى:

«مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ» (الروم: ٤٤).

فالعمل الصالح يكون مهادًا لصاحبه بعد الموت، حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا فراش ولا وساد ولا مهاد، بل كل عامل يفترش عمله ويتوسده من خير أو شر، وقال بعض السلف: اعمل للدنيا على قدر مكثك فيها، واعمل للآخرة على قدر مكثك فيها.

فائدتان من الحديث:

أولاً: صلاح الرفقاء باتباع الوحي (قرآنًا وسنة)؛ وإن كانت هذه مسلمة- أي أن الإنسان لا يبقى معه في قبره أنيس إلا عمله الصالح- لذا فهو أول ما يهتم به من الرفقاء وصلاح هذا الرفيق لا يكون إلا باتباع الوحي كتابًا وسنة.

وهذا ليس معناه إهمال الرفيقين الأوليين أبدًا، بل معناه توجههما أيضًا لأن يصيرًا عملاً ينتفع به فدعاء الأهل ينتفع به الميت والولد من كسب أبيه، وما تصدق من ماله وأنفق في سبيل الله قبل موته ينتفع به الميت، وما أوصى به في أوجه البر والخير حتى ولو تصدق به بعد موته ينتفع به من أوصى بل حتى لو نوى الصدقة، ومات وحال دون صدقته عذر ينتفع به إن شاء الله، فالأعمال بالنيات وهي مقبولة طالما اجتمعت مع النية موافقة السنة، وهما شرطا القبول والحمد لله، بل ينتفع من ماله بصدقة جارية يتصدق بها أبناؤه بهذه النية، وفي هذا كله يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

فسبحان الله حتى الرفيقين الأوليين اللذين يفارقان العبد قد تحولا إلى عمل لا يفارقه باتباع تعاليم الشرع (الوحي) فيهما كما في الحديث السالف؛ فإن أحسن تربية ابنه على شرع الله عز وجل فقد استثمره كعمل يؤانسه بعد أن يقبر.

الفائدة الثانية: لا يخفى على كل ذي قلب منصف ما يعانيه من كان همه من تربية أبنائه هو تحصيل الدنيا مناصبها ومظهرها على حساب الآخرة، لا يخفى على الجميع ما يعانيه أمثال هؤلاء من معاناة؛ لأنهم يرون رأي العين أن أبناءهم قد خسروا كل شيء، فلا حصلوا دنيا ولا عمروا آخرة بل ولا حتى قد حصلوا هم كآباء برهم، وأنى يتأتى هذا البر والولد لم يرب على الوحي الذي يعلم الناس البر حقيقته وكيفيته.

سأل أحد المعلمين تلميذه عن أبيه، وكان الأب قد كبر سنه ومرض، فقال الولد لمعلم الناس الخير ادع له، فأجاب المعلم: بماذا؟ فسكت الولد، وقال: لقد اشتد به المرض، ففهم المعلم أن الولد ربما يقصد ادع له بأن يريحه الله من المرض وقد كبر سنه فعلمه الشيخ قائلاً: لو كنت تقصد موته حتى ولو كان بقلبك فهذا ليس من البر، بل تمن له الراحة والشفاء، ولا تتمن له الموت مهما كبر، وظننت أن الموت مريحه، فلو أن ابنك مريض وأخبرك الأطباء أنه ميئوس من شفائه، ولكنك وجدت قليل أمل في شفائه، فلن تتوان عن الحركة والبحث والإنفاق لماذا؟ لأنك تحب ابنك حبًا حقيقيًا يدفعك لبره.

وهكذا لا تجد هذه المعاني إلا في تربية الوحي الذي يحيي قلوب العباد ويرققها.

بل ونرى أن أول من يصاب من جراء عدم تربية الأبناء على الشرع هم الآباء فتجد الولد يكبر فيتبجح في وجه والديه، لماذا ؟ لأنهما لم يربيا فيه أخلاقًا على الشرع، وإنما ربيا فيه جسدًا باليًا لا يقوم لدنيا ولا دين (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ) (طه: ١٢٤- ١٢٦).

إذن فمرد أمرنا كله لله وشرعه (وحيه) فلو صلح هذا القصد فينا لتحولت حياتنا (عباداتها وعاداتها) إلى أعمال صالحة تكون للمرء أنيسًا ورفيقًا لا يتركه.

براعة البخاري ودفاع عن السنة

وسبحان الله لنا هنا وقفة عجيبة لها ارتباط بموضوعنا كما أنها مرتبطة بفقه إمام من أئمة المسلمين يستهدفه الناس في هذه الأيام وما استهدفوه لذاته، ولكنهم فعلوا هذا معه لدوره تجاه السنة حتى صار علمًا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يريد أعداء الإسلام أن يأتوا الإسلام من قبله.

أما العالم فهو الإمام البخاري، وأما موضوع الوقفة فهو أننا قد اتفقنا أن حل الأمر كله مرده لاتباع الوحي، وللإمام البخاري في هذا عمل عجيب ألا وهو: أنه قسم كتابه المشهور المعروف لدى الصغير والكبير (بصحيح البخاري) قسمه إلى ٩٢ كتابًا من أبواب العلم المختلفة؛ ككتاب العلم وكتاب الصيام والصلاة والزكاة والحج...إلخ، ثم وفقه الله عز وجل إلى بدء هذا السفر العظيم بكتاب سماه (بدء الوحي) ثم ختمه بكتاب سماه (كتاب التوحيد)، فكأن الإمام البخاري أراد أن يقول لنا رسالتين:

١- إن الذي سأذكره لكم في هذا السفر العظيم ليس من عندي، ولا من تأليفي ولكنه وحي من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم لذا أبدأ بكتاب (بدء الوحي) وقول الله تعالى: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من قبلك).... وهو رد على من قال: إن البخاري وضع هذه الأحاديث من عنده.

٢- أن من أراد أن يموت على التوحيد والذي سمى به البخاري آخر كتاب في صحيحه (كتاب التوحيد)، والذي هو المقصد من خلق الله للعبيد من أراد أن يموت عيه فلا سبيل إليه إلا الوحي الذي نقلته لكم بين (كتاب بدء الوحي) وبين (كتاب التوحيد).

البشرى: (لا تحسبوه شرا لكم):

الله أكبر، والبخاري كسائر الخلق لا يعلم الغيب (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) فلم يكن يعلم البخاري أن الناس سيتهمونه بالوضع في هذه الأيام، ولم يكن يعلم أن الناس ستنكر الوحي ولكنه وفق لهذا التبويب وهذا الترتيب، ولا نرى هذا إلا من كرامات حفظ الله لدينه على أيدي أوليائه رحمهم الله، وبهذا أزف البشرى؛ فلا يجزع المسلم الذي يدمع فؤاده لما أصاب أهل الإسلام من ضعف، ولما رأى من اجتماع جيوش الأعداء على كتابنا الذي شرفنا الله به (كتاب الله) وعلى سنة رسول الله ينالون منهما في حملة شرسة ممنهجة منظمة من الخارج والداخل فنالوا من مؤسساتنا الرسمية والأهلية ومن علمائنا ومن تراثنا ومن تعاليمنا ومن ثوابتنا بمسميات كاذبة في مضمونها مرفوضة في شكلها مكشوفة للقاصي والداني لا يضرنا كل هذا؛ فالله ناصر دينه لا محالة قال تعالى: ((والله متم نوره ولو كره الكافرون)) علينا فقط أن نقوم بواجب عبادة الوقت وما ذلك إلا باتباع الوحي (كل الوحي) ثم يأذن الله بنصره وقتما يشاء ويأذن ((وما النصر إلا من عند الله)) بل إن هذه الحملة على نبي الإسلام وأهله هي من بشريات النصر (ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- في كتابه المشهور: "الصارم المسلول على شاتم الرسول" قال رحمه الله: ((حدثني العدول من أهل الفقه والخبرة أنهم كانوا يحاربون بني الأصفر-الروم- فتستعصي عليهم الحصون ويصعب عليهم فتحها ويحاصرونها أكثر من ستة أشهر، حتى إذا وقع أهل الحصن في عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم استبشرنا خيرًا بقرب فتح الحصن، يقول فوالله لا يمر يوم أو يومان إلا وقد فتحنا الحصن عليهم بإذن الله جل وعلا.

خاتمة: حديث كهذا ألا يذكرنا بالموت وما بعده؟!

قال تعالى: « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ » (ق: ١٩).

وقال تعالى: « وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » (المنافقون: ١٠-١١).

ومما يعين على ما سبق بيانه:

ومما يعين على ذلك زيارة القبور، وحضور مجالس الوعظ، وسماع أخبار الصالحين: فمن حضر مجالس الوعظ، وداوم على سماع أخبار الصالحين، وعلم ما كانوا عليه من الزهد في الدنيا والتطلع إلى الآخرة رق قلبه وصلح حاله ومن أقوى ما يعين على ذلك تلاوة كتاب الله عز وجل، والحمد لله رب العالمين.



خير الكلام .. وشُعَب الإيمان

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده، وبعدُ:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه" (متفق عليه).

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق



تخريج الحديث:

هذا الحديث خرجاه من طرق عن أبي هريرة، وفي بعض ألفاظها "فلا يؤذي جاره"، وفي بعض ألفاظها: "فليحسن قِرَى ضيفه"، وفي بعضها: "فليصل رَحِمه"، بدل ذكر الجار، وقد روى هذا الحديثَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم عائشةُ وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وأبو أيوب الأنصاري وابن عباس، وغيرهم من الصحابة.

وقد أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (ح ٦٠١٨)، وفي كتاب الرقاق بَابُ حِفْظِ اللِّسَانِ (٨/١٠٠).

وأخرجه مسلم رقم (٤٧)، ووضعه النووي في كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف.

وفي سنن أبي داود (٥١٥٤) كتاب الأدب، باب ما جاء في حق الجوار، وفي سنن الترمذي ت شاكر (٢٥٠٠) (أبواب صفة القيامة والرقائق والورع)، وفي السنن الكبرى للنسائي: عزاه المزي في «تحفة الأشراف» (١١٩٥١) إلى النسائي في الرقائق، وفي سنن ابن ماجه في كتاب الأدب باب حق الجوار(٣٦٧٢)، في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧١).

قاعدة: إذا صح الحديث ظهرت عليه دلائل الإعجاز (وقد توفر هذا في حديثنا).

أولا: هذا حديث صحيح بل وفي أعلى درجات الصحة؛ فقد اتفق عليه الشيخان فضلاً عن غيرهما، والحديث إذا صح تجد فيه شيئًا عجيبًا هو من دلائل النبوة وصدقها، وذلك أن الحديث الصحيح تجد فيه أمرين:

١- اشتماله على جميع شرائع الدين على الإجمال ثم إنه يقودك إلى المقصد من الخلق وهو قضية العبودية: فحديثنا يتكلم عن شرائع الدين جميعًا فتجده يتكلم عن (العقائد)، فهو يتكلم عن بعض شعب الإيمان والتي لا يكتمل

الإيمان الواجب إلا بها، فبدأ صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا يؤمن أحدكم.....، ثم هو قد تكلم عن (بعض الأحكام)، فتكلم في أحكام الصمت والكلام ومتى يتكلم العبد ومتى يصمت، ثم تكلم في (المعاملات) عندما تناول هذه الشعب الإيمانية الثلاث: (فليقل خيرا أو ليصمت، فليحسن إلى جاره، فليكرم ضيفه)، وهكذا فإن لكلام النبوة نورًا تظهر فيه دلائل الإعجاز وبواعث الإيمان، وكيف لا وهو نور الوحي، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

٢- الأمر الثاني هو أن الحديث إذا صح فإنه يوجز معاني كثيرة بحيث لو ترك العلماء العنان لأنفسهم ما انتهوا من شروحها حتى تمتلئ بها دواوينهم، ولو طبقنا ذلك في حديثنا نجد البخاري يضع الحديث في كتاب الرقاق فهو دافع لترقيق القلب وقربه من خالقه، ووضعه في كتاب الأدب فهو يعلم العبد الأخلاق والآداب، ثم وضعه النووي في كتاب الإيمان في تبويبه على صحيح مسلم، فهو مفيد في باب العقائد ووضعه ابن ماجه في كتاب الفتن فهو مفيد في كفّ اللسان عن الفتنة.... وهذا مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم: (بعثت بجوامع الكلم)، وكل ذلك دليل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم، وأنه لا ينطق عن الهوى.

دخول الأعمال في مسمى الإيمان:

ثانيًا: من أهم الفوائد أيضًا فائدة عقدية تربوية علمية وعظية، وهي مستفادة من قوله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.." إلخ، والسؤال: ما هو المقصود من هذا الاستهلال من النبي المختار بأداة الشرط من؟ هل معنى ذلك أن ما بعدها وهو الإيمان بالله لا يتحقق إلا بتحقق جواب الشرط (الثلاث شعب الإيمانية الواردة في الحديث)؟؟

والجواب: إن المقصود من هذا الحديث لا كما يتسرع البعض فيحكم ظنًا منه أن هذه الأعمال شرط في تحقق أصل الإيمان طالما جاءت بهذا اللفظ الذي يدل على الشرط، ولكن المقصود أن هذه الشعب الإيمانية الثلاث ونظيراتها مما جاءت بها الأحاديث نحو قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره بوائقه)، ونحو قوله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)... المقصود منها جميعا هو كمال الإيمان الواجب، وليس أصل الإيمان.

هذا ويتفرع على هذه الفائدة فائدة عقدية أخرى ألا وهي دخول الأعمال في مسمى الإيمان، ودليله فضلاً عن هذا الحديث قوله تعالى: «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ» (البقرة: ١٤٣)، والمراد بإيمانكم يعني صلاتكم كما ثبت في حديث البراء وغيره "أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال،..." فأنزل الله «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ»، ومن فقه البخاري رحمه الله أن وضع هذا الحديث في باب: الصلاة من الإيمان.

ومن الأدلة الظاهرة على دخول الأعمال في مسمى الإيمان حديث وفد عبد القيس وفيه: " آمركم بالإيمان بالله وحده "، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: "شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تعطوا الخمس من المغنم) فجعل كل هذه الأعمال مع الشهادة في معنى الإيمان.

وعليه فقد تقرر أن كل الأعمال التي حث عليها الشرع هي من شعب الإيمان، وأن كل هذه الشعب تدخل في مسمى الإيمان.

هذا ولا يفوتنا تلكم المسألة التربوية الخطيرة التي تتفرع على هذه المسألة العلمية التي قررناها من معنى استهلاله صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا يؤمن) والفائدة التربوية هنا ألا يتسرع العبد في الأحكام بل لا يقحم نفسه ابتداء فيما ليس مكلفًا به من أحكام على الآخرين، ومن هنا فنحن نناشد الجميع مذكرين ومنذرين يا أيها المتسرعون في الأحكام ما جعل الله لكم على العباد من سلطان، فلا تظلموا في ذلك أنفسكم فتكلفوها بما لا تطيق بما لم يكلفكم الله به، نقول هذا حتى ولو صح استدلالكم ولم تكونوا من أهل الاختصاص ممن كلفوا قضاء بهذا، فما بالكم وقد جمعتم بين السوءتين؛ أنكم قد جانبكم الصواب في استدلالكم فلستم من أهل الاختصاص، فضلا عن كونكم كلفتم أنفسكم بما لم يجعل الله لكم به سلطانا ولم يعقد لكم به وكالة فرويدا رويدا أيها العباد.

ثالثًا: عناية الإسلام بتقوية أواصر المجتمع:

وهل المجتمع إلا الجار الذي أوصانا به، أو الضيف الذي أمرنا الشارع بالإحسان إليه، أو الرحم الذي أمرنا بصلته بل وأمرنا بالإحسان إلى المجتمع كله حين أمر بحفظ اللسان، ونحن إذ نقف عند هذه الجارحة (جارحة اللسان) فلأن الشارع قد أولاها عناية خاصة فقضى فيها قضاءً شديدًا حيث قال جل ذكره: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨)، قال ابن كثير: الآية تفيد العموم، وقال القرطبي في تفسيره: قال: مجاهد يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه، وقال عكرمة: لا يُكتب إلا ما يؤجر به أو يؤزر عليه، وقيل يكتب عليه كل ما يتكلم به، فإذا كان آخر النهار مُحي عنه ما كان مباحاً نحو انطلق اقعد كل مما لا يتعلق به أجر أو وزر".

هذا وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الجارحة فقال لمعاذ: (وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)، بل وأرشد الشارع إلى أن أكثر النجوى بين الناس لا خير فيها كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النساء: ١١٤).

لذ أسقط علماء السلف أكثر الكلام ودعوا إلى تركه كما نقل أبو إسحاق الفزاري عن إبراهيم بن أدهم قال: "الكلام على أربعة وُجوه: فمن الكلام كلامٌ ترجو منفعته، وتخشى عاقبته (فيه نفع وضرر)، والفضل في هذا: السلامة منه. ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته ولا تخشى عاقبته (لا نفع فيه ولا ضرر)، فأقل ما لك في تركه خفّة المؤنة على بدنك ولسانك. ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته ولا تأمن عاقبته (فيه ضرر ولا نفع فيه)، فهذا قد كفي العاقل مؤنته. ومن الكلام كلام ترجو منفعته وتأمن عاقبته (فيه نفع ولا ضرر فيه)، فهذا الذي يجب عليك نشره. قال خلف بن تميم: فقلتُ لأبي إسحاق: أراهُ قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام؟ قال: نعم.

وكما حذر الله تعالى من هذه الجارحة فقد شرفها بأن جعل عبادة الذكر منوطة باللسان، ثم جعل هذه العبادة أفضل العبادات كما قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، فذكر الله أكبر من كل شيء.

فسبحان الله! إنسان يعيش ويعلم أن لسانه تحت هذه المراقبة فماذا عساه أن يفعل؟! إن إنسانا في يومياتنا التي نحياها في هذه الأيام وقد دخل مكانا ووجد تحذيرا يقول: احذر فالمكان مراقب أستحلفك الله كيف يتصرف؟ فسبحان من جعل لدى الإنسان رقيبًا عتيدًا!! أبعد هذا يتجرأ على ما يؤاخذ عليه؟!

مَن صمت نجا:

لذا كان فصل الخطاب في هذه القضية ما ذكره صلى الله عليه وسلم، حيث قال: "من صمت نجا". (رواه البخاري)، فكان السلف يميلون إلى الصمت وجعلوها خصلة تُتعلم، قال مورق العجْلي رحمه الله: "تعلمت الصمتَ في عشر سنين، وما قلتُ شيئًا قط-إذا غضبتُ- أندمُ عليه إذا زال غضبي".

وعزا البيهقي في الشعب لأبي العتاهية في ذلك قولا بليغا:

الصمت زين والسكوت سلامة
فإذا نطقت فلا تكن مكثاراً
فإذا ندمت على سكوتك مرة
فلتندمن على الكلام مراراً

قال أبو حاتم البستي في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص٤٣): "الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق وأقل من يندم إذا سكت".

وعن الأعمش عن إبراهيم قال: كانوا يجلسون فأطولهم سكوتًا أفضلهم في أنفسهم.

وقال فضيل بن عياض رحمه الله: "ما حجَّ، ولا رباطٌ ولا اجتهاد أشد من حبس اللسان، ولو أصبحت يُهمُّك لسانُك أصبحتَ في غمٍّ شديد".

وعن عمر بن عبد العزيز قال: "إذا رأيتم الرجل يُطيل الصمت ويهرب من الناس، فاقتربوا منه؛ فإنه يُلَقَّن الحكمة".

وقال عبد الله بن أبي زكريا: "عالجتُ الصمت عشرين سنة، فلم أقدر منه على ما أريد".

وعن مسلم بن زياد قال: "كان عبد الله بن أبي زكريا لا يكاد أن يتكلم حتى يُسأل، وكان من

أبشّ الناس وأكثرهم تبسُّمًا".

وقال خارجة بن مصعب: "صحبت ابن عون ثنتي عشرة سنة، فما رأيته تكلّم بكلمة كتبها عليه الكرامُ الكاتبون".

قال محمد بن واسع لمالك بن دينار: "يا أبا يحيى، حفظ اللسان أشدُّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم".

وما أحسن مقولة الإمام الجليل أبي محمد عبدالله بن أبي زيد إمام المالكية في زمنه: "جماع آداب الخير يتفرع من أربعة أحاديث:

قول النبي صلى الله عليه وسلم: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت " متفق عليه. وقوله صلى الله عليه وسلم: " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " حديث حسن رواه الترمذي وغيره والمحفوظ أنه مرسل.

وقوله صلى الله عليه وسلم للذي اختصر له الوصية: "لا تغضب". رواه البخاري.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". رواه البخاري.

(انظر: منحة العلام للفوزان ج١٠ ص ١٠٤).

ومن أجمل ما قيل في هذا قول الشافعي الإمام:

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى

وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرئ

فكلك عورات وللناس ألسن

وعينك إن أبدت إليك معايبا

فصنها وقل يا عين للناس أعين

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى

وفارق ولكن بالتي هي أحسن

رابعا: الإسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق:

هذا ويتفرع على الفائدة السابقه فائدة دعوية عظيمة وهي أن الإسلام جاء ليدعو الناس إلى القيم، ويحفز الناس على تمام مكارم الأخلاق، (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقد أخطأ فئام من الناس نهلوا من ثقافات غير المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم وأعجبوا بهم أخطأوا، عندما ظنوا أن الأخلاق هي عند هؤلاء تتعلم منهم.

يا قوم: إن نبينا الذي، جاء بالعقائد والأحكام والمعاملات جميعا، قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، فجعل آية النجاح في كل هذه المناحي والشعب، وثمرته هو ما يظهر على العبد من مكارم الأخلاق بمفهوم الشرع لا بمفهوم آخر مخالف للشرع مهما تظاهر هذا المفهوم الآخر وتسمى بمسميات خداعة يزعم فيها أن ما يفعلونه هو الأخلاق، إذن فالأخلاق هي ما قررته الشريعة أنه أخلاق، وديننا هو الدين الحق الخاتم الذي جاء لتمام مكارم الأخلاق، وهذه عقيدة بالنسبة لنا.

وعليه فإنه لا داعي أبدا لهذه الهزيمة النفسية والانحراف السلوكي الذي قاد فئامًا من الناس إلى تبني ثقافات وعادات ومناهج وسلوكيات بعضها حق وبعضها باطل بزعم أن هذه أخلاق أو رقي أو أي مسمى جديد لا يصلح تسطيره في مقال بحثي وعظي لا داعي لهذا حتى ولو عندهم بعض الحق فيما يقلدون ويقولون إنه أخلاق وما الداعي وعندنا النبع الصافي والشرع الوافي والتراث الكافي والصحيفة البيضاء التي نجد فيها، كامل الأخلاق والقيم.

خامسا: ديننا يأمر بوحدة المصدر:

وهى فائدة تتفرع على الفائدة السابقة، وإن قضية وحدة المصدر وقصره على ما صح من الشرع حتى لا تضل الأمة قد أرشد إليه الإسلام في غير ما حديث، ويكفينا في الدلالة على ذلك حديث عمر رضي الله عنه حينما كتب صحائف من التوراة فرآها عليه الصلاة والسلام فسأله عنها، فقال: إنه كان له صديق يهودي، وإنه نسخ منه بعض الصحائف من التوراة، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً، وقال: (أمتهوكون أنتم؟! كما تهوكت اليهود والنصارى! والذي نفسي بيده! لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا أن يتبعني) (حسنه الألباني في الارواء برقم ١٥٨٩)، فلا يجوز لأحد أن يكون متبعاً وإماماً، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز للمسلمين أن يأخذوا دينهم، ولا هدايتهم، ولا إرشادهم، ولا أخلاقهم، ولا كل شيء من الأشكال والتصورات والقيم والسلوك عن أي أمة أخرى لأن الله عز وجل أرسل إليهم الهدى كاملاً، واختصهم بالفضل عاماً شاملاً، فليسوا بحاجة إلى هدي آخر، ولا إرشاد قوم آخرين، فقد أخبرهم الله عز وجل بأنه أكمل لهم الدين، وأتم عليهم النعمة، ورضي لهم الإسلام دينا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. (المائدة:٣)،

والحمد لله رب العالمين.

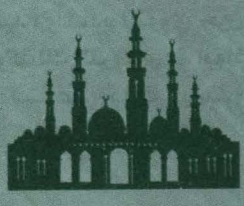


التوحيد قضية أمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فعلى مر السنين والأعوام وجمعية أنصار السنة المحمدية تتبنى قضية التوحيد، وأنها قضية الأمة جميعًا، ومنهجها نحو تبليغ رسالات الله، ولم تلتفت في طريقها نحو ذلك إلى نقد المخالفين الذين تفرقت بهم السبل الأخرى- بدعية أو سياسية مخترعة أو ما شابه ذلك- نحو هذا الهدف، وما هم بمدركيه بغير التوحيد.

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق



الحديث:

عَنْ مُعَاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا».

ثانيًا: تخريج الحديث:

هذا الحديث الصحيح رواه البخاري في:

١- كتاب التوحيد (باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله عز وجل (٧٣٧٣).

٢- وفي كتاب الاستئذان، باب من أجاب لبيك وسعديك.

٣- وفي كتاب الجهاد والسير (بَابُ اسْمِ الفَرَسِ وَالحِمَارِ) (٢٨٥٦).

- ورواه مسلم رقم (٤٨)، وبوَّب النووي عليه في كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة).

- ورواه الترمذي في أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٣).

- ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب ما يُرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٢٩٦).

ثالثًا: ترجمة راوي الحديث:

هو الصحابي الجليل معاذ بن جبل بن أوس الأنصاري الخزرجي- رضي الله عنه وأرضاه -، شهد العقبة الثانية، وغزوة بدر وما بعدها، آخى النبي- صلى الله عليه وسلم- بينه وبين عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-، وكان عمره حين أسلم ثماني عشرة سنة، هو أحد الأربعة الذين قال النبي-صلى الله عليه وسلم- عنهم: «خذوا القرآن عن أربعة»، وهو من قال فيه النبي-صلى الله عليه وسلم-: «.. وأعلمهم بالحلال والحرام

معاذ بن جبل».

فهو من علماء الأنصار وممن كانوا يُفتون على عهد النبي-صلى الله عليه وسلم-، ولذا بعثه النبي-صلى الله عليه وسلم- في آخر حياته إلى اليمن داعيًا ومعلمًا وقاضيًا. وعاد في خلافة أبي بكر، وولاه عمر على الشام بعد أبي عبيدة، ثم مات من عامه في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة عن أربع وثلاثين سنة- رضي الله عنه وأرضاه-. (انظر: أسد الغابة ٥/١٩٤، والإصابة ١٠/٢١٩).

ويكفي من مناقب معاذ أن يدخل تحت قول النبي صلى الله عليه وسلم فيمن شهد بدرًا (إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم).

وذلك في حديث قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه حينما أرسل الظعينة إلى قريش بخبر عزم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى مكة، والقصة مروية في البخاري (٤/١٥٥٧) فلتراجع.

رابعًا: المعنى العام للحديث:

كان معاذ رضي الله عنه يركب خلف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يسمى عفيرًا، فناداه: يا معاذ بن جبل! أتدري ما حق الله على العباد، وحق العباد على الله؟ فقال معاذ-متأدبًا طالبًا التعلم-: الله ورسوله أعلم. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذبهم، ثم استأذن معاذ أن يبشُر الناسَ بهذا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: لا حتى لا يتكلوا على ذلك.

خامسًا: إشكال والجواب عنه:

كيف نوفق الفهم بين الآية: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ) (المائدة: ٦٧)؛ حيث إن الآية تدل على وجوب تبليغ الرسول صلى الله عليه وسلم للرسالة، وبآخر الحديث يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل بعدم التبشير، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى معاذًا، فلماذا أخبر معاذ بهذا؟

الجواب:

أولًا: إن أمره صلى الله عليه وسلم بالكتمان ليس المقصود به الكتمان المطلق المؤبد، بل هو كتمان في زمان معين، ولم يستمر هذا الكتمان، بدليل أن معاذًا قد أخبر بهذا الحديث قبل موته، فقد جاء في نهاية هذا الحديث: «وأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا» رواه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٥٣).

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكتم هذا الأمر، بدليل أنه أخبر به معاذ بن جبل رضي الله عنه، غاية الأمر أنه منع نشره عند بعض الناس خوفًا على من لم يدرك مرامي الحديث، فكان النهي خاصًا بمن يخشى منه الاتكال وترك العمل؛ وهذه مفسدة ظاهرة، في حين أن فوات سماع هذا الحديث: لا يضيع شيئًا من العمل، ولا يُخشى منه مفسدة بينة، ولا شك أن فوات البشرى في حق هؤلاء، واستمرارهم على الجد في العمل، هو آمن لهم، وأرجى من المفسدة المذكورة، وعليه فلا تعارض بين النهي الوارد في الحديث والأمر الوارد في الآية.

ثانيًا: أما لماذا أخبر معاذ فذلك لأسباب منها: أن معاذًا فهم أن هذا الأمر ليس أمرًا مطلقًا كما أسلفنا، جاء في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (١/٩٨): «إنما رواه معاذ مع كونه منهيًا عنه؛ لأنه علم منه: أن هذا الإخبار يتغير بتغير الزمان والأحوال، والقوم يومئذ كانوا حديثي العهد بالإسلام لم يعتادوا تكاليفه، فلما تثبتوا واستقاموا أخبرهم» انتهى.

وأخبر أيضًا لأنه خشي الاستمرار في ذلك فيأثم بترك البلاغ؛ جاء في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (١/٩٣): «أي تجنبًا وتحرزًا عن الوقوع في إثم كتمان العلم» انتهى.

وعليه فلا تعارض بين الآية الكريمة والحديث الشريف، ولا بين الحديث وفعل معاذ رضي الله عنه.

سادسًا: من فوائد الحديث:

اجتمعت فيه فوائد عقدية وفقهية، وتربوية ودعوية، فسبحان من رزق نبيه البيان، ورزقه الحكمة والقرآن، وبعثه بجوامع الكلم.

١- أما العقدية فمن ذلك: الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وهو حق الله على العبيد، والمقصد من الخلق وهو ما أفاده البخاري حين وضع الحديث في كتاب التوحيد، وأفاده النووي حين جعله في كتاب الإيمان، وكذلك الترمذي في أبواب الإيمان، والعبارة التي دلت على ذلك (يعبدوا الله ولا

يشركوا به شيئًا) معناها: ليس فقط أن توجه كل أنواع العبادة لله عز وجل، والتي هي كل ما يحبه الله عزوجل ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والخفية؛ كما عرفها شيخ الإسلام، ليس هذا فحسب؛ لأن كثيرًا من الناس يفعل هذا وينقضه بشرك كمن يعتقد لله الصاحبة والولد، لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن قال: (يعبدوا الله) قال: (ولا يشركوا به شيئًا)، فنفى الشرك الذي ينقض هذه العبادة.

- ثم فائدة عقدية أخرى من قول معاذ رضي الله عنه (الله ورسوله أعلم)، وهي جواز التشريك في علم المسائل الشرعية، وذلك بخلاف المسائل القدرية كما ظهر (عندما جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما شاء الله وشئت...)، والعلة في ذلك أن علم المسائل الشرعية هي علم أوحى الله به إلى نبيه، وتميز به النبي صلى الله عليه وسلم دون البشر؛ لكونه يُوحى إليه، فصار علم الشرع الذي رزقه الله لنبيه مقرونًا بعلم الله، فهو منه وحده لا شريك له، فجاز التشريك في ذلك بالواو، وهذا بخلاف الغيب، فقد قرر الله عز وجل ذلك بقوله: (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (النمل: ٦٥)، وكذا بخلاف المسائل القدرية؛ كالمشيئة مثلاً فهي خالصة لله وحده، وليست للبشر، وللبشر منها مشيئتهم الشرعية التي أعطاها لهم الله كقوله تعالى: (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) (التكوير: ٢٨).

- ومن الفوائد العقدية قوله: «حق العباد على الله ألا يعذبهم»، أي: إن هم حققوا التوحيد، وهي بشارة عظيمة تواترت بمعناها الأدلة قرآنًا وسُنة.

لكن سبحان الله! وهل للعباد حق على خالقهم؟!

للجواب على ذلك نقول: اختلف الناس في هذا إلى طرفين ووسط، والوسط هم أهل السنة والجماعة.

ففريق قال: للمخلوق حق واجب على الله أوجبه العقل وهؤلاء هم المعتزلة.

وفريق قال: لا حق للعبد على الإطلاق، وهم الجهمية والأشاعرة، وبعض من أخطأ من المنتسبين إلى أهل السنة.

والأمة الوسط تقول: حق العبد على ربه هو ما أوجبه الله على نفسه تفضلاً على عبده، وذلك كقوله تعالى: (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ) (الأنعام: ٥٤)، وقال تعالى: (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) (الروم: ٤٧)، وقال في الحديث القدسي: (إني حرمت الظلم على نفسي..... الحديث) رواه مسلم.

هذا ونتبه على أمر مهم؛ كيف يجتمع هذا مع إجماع أهل السنة أن بعض عصاة هذه الأمة من الموحدين سيدخلون النار؟

نقول والله أعلم: هذا الحديث وما كان في معناه من الأحاديث الأخرى التي ورد فيها نفي العذاب عمن مات لا يشرك بالله شيئًا قد اختلف أهل العلم في تفسيرها.

قال النووي في شرحه للحديث في صحيح مسلم: «فحكي عن جماعة من السلف رحمهم الله، منهم ابن المسيب أن هذا كان قبل نزول الفرائض والأمر والنهي. وقال بعضهم: هي مجملة تحتاج إلى شرح ، ومعناه: من قال الكلمة، وأدى حقها وفريضتها. وهذا قول الحسن البصري. وقيل: إن ذلك لمن قالها عند الندم والتوبة ومات على ذلك. وهذا قول البخاري.

وهذه التأويلات إنما هي إذا حملت الأحاديث على ظاهرها. وأما إذا نزلت منازلها فلا يشكل تأويلها على ما بينه المحققون. فنقرر أولاً أن مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح وأهل الحديث والفقهاء أن أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأن كل من مات على الإيمان وتشهد مخلصًا من قلبه بالشهادتين؛ فإنه سيدخل الجنة، فإن كان تائبًا أو سليمًا من المعاصي دخل الجنة برحمة ربه، وحرم على النار بالجملة...» اهـ.

والحاصل أن العباد إذا قاموا بشهادة لا إله إلا الله وبمقتضياتها وحقوقها، وسلموا من الشرك بقسميه الأكبر والأصغر، ومن البدع والأهواء ومن المعاصي والذنوب. فهؤلاء لهم الأمن التام والاهتداء التام ويدخلون الجنة برحمة الله

تعالى، وأما من تلبس بشيء من الذنوب والمعاصي فهو تحت المشيئة إن شاء الله عز وجل عذَّبه بقدر ذنوبه، وإن شاء تجاوز عنه، ثم مآله إلى الجنة.

ثانيًا: ومن الفوائد الفقهية في الحديث: جواز إرداف الرجلِ الرجلَ وراءه، وكذلك جواز تسمية الدابة كما سَمى معاذ هذه الدابة (عفيرًا).

ثالثًا: ومن الفوائد التربوية:

- علاقة المعلم بتلميذه كيف رسمها لنا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يردف تلميذه خلفه على حمار، وكذلك وهو يناديه باسمه أكثر من مرة، وكذلك تواضع هذا المعلم العظيم.

- وعلاقة التلميذ بمعلمه وهو يجيب كما أجاب معاذ (لبيك يا رسول الله وسعديك)، ويرد كما رد معاذ: (الله ورسوله أعلم)، مع كونه يستطيع الجواب بما يتبادر إلى ذهن العامة فضلاً عن الخاصة كصحابي فقيه مثل معاذ، فكان يمكن أن يتأول القرآن فيقول: خُلقوا للعبادة، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، لكنه قال - من أدبه ورغبته في سماع معلمه-: (الله ورسوله أعلم)، فأين هذا الخُلق الآن وقد رأينا من بعض التلاميذ ما لو ترك لنفسه العنان لأجلس نفسه وأقام شيخه على خدمته!!

وظن بما تعلمه من بعض مما عند شيخه أنه قد حاز بذلك ما تساوت به الرؤوس، إننا بحاجة إلى مثل هذه الأخلاق، والتي هي من علامات التجرد أيضًا، فضلاً عن كونها من الأخلاق؛ وذلك لأنه حتى لو كان هذا الطالب قد فاق شيخه علمًا، فأين فضل شيخه الذي زرعه وسقاه؟! وما الفائدة من تطاوله عليه إلا كونه مرضًا في قلبه، يجب أن يسعى لعلاجه.

وسبحان الله! والله ما رأيت-في حدود معرفتي- واحدًا من هذه الشاكلة تم أمره إلى نجاح، بل كما تدين تدان، والجزاء من جنس العمل، فيلفظه القريب والبعيد، ودعواه إلى زوال، فسبحان مدبر الأمر الذي أمرنا بمكارم الأخلاق عمومًا، فضلاً عنها مع شيوخنا الذين علمونا.

وقصص السلف في هذا تقضي على ما بقي من حقي في صفحات المقال، فأحيلك عليها في مظانها لرغبتي في بسط الاطلاع عليها، فانظرها في مظانها، رحمنا الله وإياك. ومن هذه المصادر: (حلية طالب العلم لبكر أبو زيد، التبيان في بيان آداب حامل القرآن للنووي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، تعليم المتعلم طريق التعلم للزرنوجي، وشرحه لابن إسماعيل، جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر.

٢- ثم تأتي فائدة دعوية مهمة: وهي ألا يُنقل للناس ما لا تتحمله عقولهم وأفهامهم، فيكون ذلك داعيًا إلى حمله على محمل خطأ يضر بهم؛ وذلك من قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ (لا، فيتكلوا)، عندما سأله معاذ: (أفلا أبشر الناس). وهذا المنهج سار عليه الصحابة ومن تبعهم بإحسان فيما ليس تحته عمل أو حدّ من حدود الشريعة، ولا تدعو له ضرورة أو لا تتحمله عقول العامة أو في نقله ضرر على قائله أو سامعه، وقد قاله النووي، ونسبه إلى القاضي عياض، وذكر نحوه الحافظ ابن رجب أن أحاديث الرُّخص لا تُقال لعموم الناس حتى لا يتكلوا، ويقصروا في العمل.

وختامًا نقول: التوحيد قضية أمة:

هذا وإن كان الإمام البخاري لما صنَّف صحيحه بدأه بكتاب بدء الوحي، وانتهى بكتاب التوحيد، فكانت رسالة منه وفهمًا أن كل شرائع الدين وشعائره والتي وردت في سِفْره العظيم بين بدء الوحي وكتاب التوحيد، وهي جل شرائع الدين وشعائره؛ كلها ما كانت إلا لتحقيق التوحيد، والذي هو المقصد من الخلق وغاية التكليف؛ إذ هو العبودية دون إشراك، والتي هي حق الله على العبيد.

لذا فإنني أقول لمن يعتب على أنصار السنة تبنيها لهذه القضية؛ وجعلها أساس دعوتها أقول له: وهل تتحقق السعادة في الدنيا والآخرة إلا بتحقيق التوحيد، وقد قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦)، وقال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ (النساء: ١٤٧).

هذا فضلاً عن أننا كدعاة إلى الله لم نتعلم من مشايخنا غير هذا، فلا نحسن غيره من طرائق الدعوة المزعومة، ونحن ندين لله بهذا الطريق، وأنه هو الطريق الأوحد للصلاح والإصلاح، لذا فإننا نقول: (التوحيد قضية أمة)، والحمد لله رب العالمين.



أمة الإسلام بين ذهاب الصالحين وابتداع الغالين

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

لا تحيى الأمم، ولا ترقى الشعوب إلا بعظمائها، وعظماء أمَّة الإسلام هم أهل الصلاح والإصلاح، وبغياب هؤلاء يتصدر الغالون؛ فتضيع الأمة بين ذهاب هؤلاء وتصدر أولئك.

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحديث:

عَنْ مِرْدَاسٍ الأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صلى الله عليه وسلم-: «يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَتَبْقَى حُفَالَةٌ، كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ وَالتَّمْرِ، لاَ يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بَالَهُ».

العزو:

والحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب ذهاب الصالحين رقم (٦٠٧٠) ط ابن كثير ت البغا.

ترجمة راوي الحديث:

ومرداس الأسلمي: هو الصحابي الجليل: مرداس بن مالك، الأسلمي رضي الله عنه، ويكفيه شرفًا فوق صحبته أنه ممن بايع تحت الشجرة، وقد روى عنه قيس بن أبي حازم، وتفرد بذلك. (الإصابة في تمييز الصحابة: ٦/٦٠).

الشرح:

سبحان الله! من علامات الساعة ذهاب العلم كما في البخاري وغيره «لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم،.. الحديث» (صحيح البخاري ٩٨٩)، وذهاب العلم ينبئ بذهاب العمل، ومن علامات الساعة ذهاب الصالحين، وهو مستفاد من حديثنا، ومن حديث ابن عمرو رضي الله عنهما: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَأْخُذَ اللَّهِ شَرِيطَتَهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَبْقَى فِيهَا عَجَاجَةٌ لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلاَ يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا» (أخرجه أحمد (٦٩٦٤)، قال الهيثمي (١٣/٨): رواه أحمد مرفوعا وموقوفا ورجالهما رجال الصحيح. والحاكم (٨٣٤١) وقال: صحيح على شرط الشيخين).

ومن علامات الساعة أن أفضل القرون أولها، وشرها آخرها؛ كما في حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ.....) (صحيح البخاري ٢٥٠٩).

ولا شك أن قلة العلم معناها قلة الصالحين بقلة العمل والدعاء (كما أفاده الأزهري في تهذيب اللغة ٣/١٤٧» وعندئذ لا يباليهم الله باله ولا يعبأ بهم.

توضيح

هذا وإن كان قد تقرر ذلك ولأن من أصول دعوتنا ما أرشد إليه ديننا من التبشير لا التنفير؛ فإننا نشير إلى أن ذهاب الصالحين على سبيل الجملة وعلى فترات زمنية طويلة، وإلا فقد يرزق الله ببعض المتأخرين ممن هو أبر من بعض المتقدمين، فليس المقصود نفي الخيريّة عن أمتنا بالكلية

حتى لا يتسرب اليأس، وإلا فكما أن السنة أشارت إلى المرض فقد أرشدت إلى العلاج، وهو المراد ومسعانا من الكلام في مثل هذا.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «وتبقى حفالة كحفالة التمر لا يباليهم الله باله»: والحفالة هي الرديء من الشيء وهي حثالته وهؤلاء من البشر لا يباليهم الله باله، أي لا يرفع لهم قدرًا ولا يقيم لهم وزنًا واعتبارًا؛ لهوانهم عليه من تفريطهم في أمره وتجرؤهم على محارمه ونهيه (أفاده النووي في تهذيب الأسماء واللغات ١٧/١ بتصرف كبير، وانظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢١٦/١٧) وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (٢٤٩/٩)».

ومن فوائد الحديث:

أولا: صدق نبوته وحجية سنته، وقد اتضح ذلك مما سبق بيانه وعلا برهانه في الشرح والتذكرة والذكرى تنفع المؤمنين، وهو رد على منكري السنة ممن علت أصواتهم في هذه الأيام.

ثانيا: إن خيار هذه الأمة أولها، وهو رد على مَن تنقص من علماء السلف.

وإنَّ هذه الخيرية التي شهد بها نبينا تبقى لنا موطن إرشاد ودليل عمل وذلك دافع لنا إلى سلوك سبيلهم؛ سبيل المؤمنين، وإن الناظر إلى أحوالهم ليبصر بعين قلبه أن السبيل الأوحد لما وصلوا إليه من خيرية هو تحريهم لسبيل نبيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، تجد ذلك في آثارهم، أفعالهم، أقوالهم، بل ووصلت إلى المباح لهم في أيامهم من عادات أباح الله لكل أن يختار لنفسه ما شاء كعادات أكل وشرب ونحو ذلك مما هو حلال في أصله.

ومن قصصهم في ذلك:

قصة الخاتم من الذهب واستجابتهم على الفور:

ففي الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اصطنع خاتمًا من ذهب، وكان يَلبسه فيجعَل فصَّه في كفِّه، فصنَع الناس خواتيم، ثم إنه جلس على المنبر فنزعه، فقال: «إني كنتُ ألبس هذا الخاتم وأجعل فصَّه من داخل» فرمى به ثم قال: «والله لا ألبسه أبدًا» فنبَذ الناس خواتيمهم» (البخاري (٦٦٥١) ومسلم (٢٠٩١)». فسبحان الله! لبسوا الخاتم حين لبسه صلى الله عليه وسلم، وخلعوه على الفور حين خلعه.

وليس هذا فحسب بل وفي صحيح مسلم (٢٠٩٠) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- رأى خاتمًا في يد رجل فنزعه فطرَحه، وقال: «يَعمد أحدكم إلى جمرة من نارٍ فيجعلها في يده!»، فقيل للرجل بعدما ذهَب رسولُ الله-صلى الله عليه وسلم-: خذ خاتمك انتفع به، قال: «لا والله، لا آخُذه أبدًا؛ قد طرحه رسولَ الله- صلى الله عليه وسلم)، فترك الانتفاع ولا ببيعه مع جواز ذلك مبالغة في التأسي والمتابعة.

ومن ذلك الكثير مما يملأ الأفئدة مما امتلأت به الدواوين أمثال قصة خلع الصحابة لنعالهم، وهم في الصلاة؛ لمجرد أن رأوا النبي قد خلعها، ولم ينتظروا انتهاء الصلاة كي يسألوا، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «صَلَّى بِنَا رَسُول اللَّه- صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسلم- فَلَمَّا صَلَّى خَلع نَعْلَيْه فوضعهما عَن يسَاره، فَخلع الْقَوْم نعَالهمْ، فَلَمَّا قَضَى صلاَته قَالَ: مَا لكم خلعتم نعالكم؟ قَالُوا: رَأَيْنَاك خلعت فخلعنا» (مستدرك الحاكم ٩٥٥ وصححه ووافقه الذهبي).

ومن ذلك قصة أبي مسعود البدري عندما كان يضرب غلامه فوعظه النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو مسعود: (لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا)، وهي في صحيح مسلم (١٦٥٩).

ومن ذلك ما رواه أبو داود من حديث أم المؤمنين عائشة في قصة نزول آية الحجاب واستجابة نساء الصحابة من المهاجرين والأنصار، ومن ذلك قول جابر بن عبد الله في طعام الخل: «فما كان من شيء أحب إليَّ من الخل» لمجرد أن سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «نعم الإدام الخل» والحديث في سنن أبي داود ٣٨٢١، وصححه الألباني.

وكذلك قول أنس في طعام الدباء: (رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ مِنْ حَوَالَيْ الْقَصْعَة، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أحبُّ الدُّبَّاءَ مَنْ يَوْمئذ) (صحيح البخاري ١٩٨٦)، وذلك لمجرد أن رأى رسول الله يأكل الدباء. ومثل ذلك كثير، فلتراجع مثل هذه الآثار في مظانها.

ومن سمات هؤلاء الصالحين أنهم يتنكرون

لأنفسهم وزمانهم:

وإن تعجب بعد تلكم السيرة العطرة لهؤلاء الصالحين فاعجب من تنكرهم لأنفسهم وأزمنتهم مما يزيد المنصف حبًّا في سيرتهم، فيحتار بين ما يأخذ وما يذر من جميل صنيعهم، فلنعذر إذ نكتفي ببعض ما ورد عن أفضل قرن زكاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم).

ومن ذلك:

١- ما أورده في قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (٢/٢٢٩) عن حذيفة بن اليمان يقول: اليوم المنافقون أكثر منهم على عهد رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ كانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه، وقيل للحسن: إنّ قوماً يقولون لا نفاق اليوم. فقال: يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطرقات، وعنه وعن غيره: لو نبت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض» ا.هـ.

(ونحو ذلك كثير في مثل حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، وإعلام الموقعين لابن القيم، فلتراجع إن أمكن ذلك).

٢- وانظر إلى أبي الدرداء من الصحابة ينكر زمانه؛ كما في البدع لابن وضاح (٢/١١٩) عن عِيسَى بْن يُونُسَ، عَنِ الأَوْزَاعِيِّ، عَنْ حَبَّانَ بْنِ أَبِي جَبَلَةَ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: «لَوْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ إِلَيْكُمُ الْيَوْمَ مَا عَرَفَ شَيْئًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، إِلاَّ الصَّلاَةَ». قَالَ الأَوْزَاعِيُّ: فَكَيْفَ لَوْ كَانَ الْيَوْمَ؟ قَالَ عِيسَى: فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ الأَوْزَاعِيُّ هَذَا الزَّمَانَ؟ (وهو مروي أيضا في كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/١٦٢) عن أم الدرداء).

٣- وفي كتاب المسلسلات لابن الجوزي (ص: ٤٩) بسنده إلى الزهري، عن عروة، عن عَائِشَة، قالت: رحم الله لبيدًا إذ يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم

وبقيت في قوم كجلد الأجرب

قالت عائشة: رحم الله لبيدًا، كيف لو أدرك زماننا هذا؟ قال عروة: رحم الله عائشة، لو أدركت زماننا هذا، قال الزهري: رحم الله عروة، كيف لو أدرك زماننا. وهكذا إلى أن ينتهي إلى شيخه في إسناد مسلسل بهذه العبارة (كيف لو أدرك زماننا؟) فسبحان الله! إسناد من ثلاثة عشر رجلاً من أفاضل السلف يتنكرون لزمانهم بخلاف أم المؤمنين فما قولك في هؤلاء؟!

تصدر الغالين وابتداعهم:

وإنه مما ابتليت به الأمة مع ذهاب الصالحين نتيجة لذلك ومواكبة لغيابهم أن خرجت على هذه الأمة فئة من الناس خرجت على الأمة في أفكارها وتصوراتها ومساعيها، ومن العجب أنهم يتنكرون لهؤلاء الصالحين، ولا يعرفون أقدارهم مهما علت، قوم صرفوا همتهم ووجهوا طاقتهم، سبًّا وتجريحًا، وتنقيصًا وتسفيهًا لعلماء الأمة ورجالها، ألم يعلموا أن صنيعهم هذا هدم للدين؟! ألم يعلموا أنهم خالفوا بصنيعهم ما كان عليه إجماع علماء أمة الإسلام إذ يقول العلماء: «وعلماء السلف من السابقين والتابعين ومن بعدهم من أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يُذكَرُون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل»، ولقد وقفت على ما يزيد على الثلاثين كتابًا من كتب السلف ممن أوردوا هذه العبارة وما في معناها من ذلك (الإمام أحمد في كتاب الورع (ص: ٢٠٤)، (الطحاوي في «عقيدته» (٢/٧٤٠) وما رأينا لذلك مخالفًا منهم، فكان إجماعًا منهم على الخير الذي لا تجتمع الأمة على غيره.

ولا يكتفون بمدحهم بل ويحذرون من الوقيعة في أعراضهم، يقول الحافظ ابن عساكر-رحمه الله تعالى- في (تبيين كذب المفتري: ص ٢٨): «واعلم يا أخي- وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته- أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة..» أ هـ.

ألا يعلم هؤلاء الطاعنون في علماء الأمة بالباطل أنهم يخدمون مخططات غير المسلمين لتقويض استقرار المجتمعات الإسلامية؟! ألا يعلم هؤلاء أن العلماء هم ورثة الأنبياء، وأنهم خير معين على تشكيل ضمائر المجتمعات؟! فإذا طعنوا في علمائهم فهل بقي لهذه المجتمعات إلا البلبلة الفكرية والتصارع المجتمعي؟! هل يحبون لأمتهم أن تظل هكذا في جو لا يعين على

العبادة بحال؟!

إن تتبع آثار علماء المسلمين في تقييمهم للرجال ليجد أن المسألة عندهم محسومة لا ضبابية فيها، فوضوحها وضوح منهج مستقيم لا اعوجاج فيه.

قال ابن القيم في (إعلام الموقعين: ٢٨٣/٣) : «ومن له علم بالشرع والواقع، يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدمٌ صالحٌ، وآثار حسنةٌ، وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلّة، هو فيها معذورٌ بل مأجورٌ لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامتُه في قلوب المسلمين». اهـ.

وقال الذهبي رحمه الله في ترجمة «محمد بن نصر المروزي» في (سير النبلاء: ٤٠/١٤): « ولو أنا كُلَّمَا أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له، قمنا عليه وبدَّعْنَاه، وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر، ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلْق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة» اهـ..

فمن يبقى لأمة الإسلام إذا طُعن في علمائهم بغير حق؟، سيبقى قوم يتقمصون دورًا ليس بدورهم ويلبسون قميصًا ليس بقميصهم، فيفتون بغير علم فيحيدون بأنفسهم وعباد الله عن الجادة، ويقيمون الدنيا ويملئون الفضاء ضجيجا وتهويلاً يقطعون به أواصر أرحام علمية ومجتمعات دعوية قد تصل إلى عوام الناس أحيانًا يفعلون ذلك لا لشيء إلا لقلة فقههم بمسائل خلافية على أفضل تقدير لحالهم، أخطأوا فهمها تسرعًا وقد اتسموا بفعلهم هذا بغلو جاوز في موضوعهم الحد الذي نهى عنه الشارع بقوله (إياكم والغلو في الدين..) الحديث.) (الصحيحة١٢٨٣).

إن ذهاب الصالحين وعلمهم يعني غياب العدل وحلول الظلم والبغي، والنفوس الموبوءة بالغلو تترنح بين هذا وذاك. وكلاهما مهلك له ولمن سار خلفه بل هو خطر على المجتمع بأسره.

وبدعة الغلو قد يكون منشأها حظ للنفس؛ إذ طبيعة النفوس حب الرياسة، فتميل إلى التفرّد والتمايز عن عموم الخلائق حتى وإن كان في الديانة والغلو يصحبه غرور، ويلازمه الإعجاب بالرأي ولا شك أن ذلك عقوبة لصاحبه، كما وضّحه ابن الوزير رحمه الله بقوله: «الغالب على أهل البدع شدة العُجب بنفوسهم، وهي من عجائب العقوبات الربانية، وقد كثرت الآثار في أن إعجاب المرء بنفسه من المهلكات، ودليل العقوبة أنك ترى أهل الضلال أشد عُجباً وتهليكاً للناس، واستحقاراً لهم» (إيثار الحق على الخلق ص:٤٢٦ بتصرف).

وهذا الغرور واحتقار الناس يعطي لصاحبه حق الوصاية على الآخرين، وامتحانهم والتنقيب عما في صدورهم؛ كما كان على ذلك الخوارج ومن شابههم وهو انحراف عن الجادة بدأه الخوارج القدامى، وصار عليه خوارج العصر مع التباين في أصولهم فصارت بدعة الغرور والتسلط على الآخرين قاسما مشتركا بينهم.

روى الإمام أبو القاسم اللالكائي في« شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠٦٠/٥) » عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ: «سُؤَالُ الرَّجُلِ أَخَاهُ أَمُؤْمِنٌ أَنْتَ مِحْنَةٌ؛ بِدْعَةٌ كَمَا يُمْتَحَنُ الْخَوَارِجُ»

وكون (الامتحان دين الخوارج) مسألة استقرت عند السلف تقريرًا تراها في مصنفاتهم بلفظها وبمعناها، وقد وقفت في ذلك فيما لا يقل عن الستين مصدرًا في الفرق والمذاهب والعقائد والفتاوى والسير، ومن ذلك ما نص عليه الذهبي في ترجمته لإبراهيم بن الحسين بن ديزل) عنه أنه قال: «الامتحان دين الخوارج» (السير للذهبي:١٣/١٨٩).

ومن العجيب أن الغرور لدى الغلاة لا يقف عند حد، فتراهم لا يتورعون من فعل هذا مع أهل العلم مهما علا قدرهم، فقد فعلوه مع ترجمان القرآن ابن عم رسول الله الصحابي عبدالله بن عباس، يقول ابن المبرّد: (وكان نافع بن الأزرق (من الخوارج) يأتي ابن عباس فيساءله حتى أملّه، وجعل ابن عباس يظهر الضجر» (ينظر: الكامل:٢/١٦٨).

ومن هنا كانت المسؤولية:

فإذا كانت السمة الظاهرة هي غياب الصالحين وابتداع الغالين؛ فإن الأمة تضيع بين هذا وذاك، لذا يتعين على العلماء والدعاة أن يحملوا همَّ هذا الدين علمًا وعملاً ودعوة، وأن يُظهروه على حقيقته للخلق، وإن المتعيّن هو تقرير الوسطية، وتحقيق لزوم السنة النبوية، وترسيخ العلم الشرعي الذي يدعو إلى أحسن الأخلاق، والوسط بين طرفي الغلو والجفاء، وأنه رحمة للخلق كافة،

والحمد لله رب العالمين.

رمضان وتربية الأولاد

اعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

إن من أهم المهمات، وأوجب الواجبات وآكد الأمانات رعاية العبد لأبنائه،

ورمضان أفضل الشهور في الدهور، ففي بيئته الإيمانية تتضافر جميع الجهود لتحقيق مثل هذا الواجب الأسمى وغاية التربية القصوى كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

الحديث:

عن أبي علي معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة».

والحديث اتفق عليه الشيخان، فرواه البخاري في (كتاب الأحكام) (باب من استرعي رعية فلم ينصح) ح(٦٧٣١)، ورواه مسلم في (الإمارة) (باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الخائن) ح(٢١)، ورواه في كتاب (كتاب الإيمان) (باب استحقاق الوالد الغاش لرعيته النار) ح(٢٢٧).

الشرح:

وهذا الحديث الذي بين أيدينا يتكلم عن الرعية عموما لذا بوب عليه البخاري باب (من استُرعي رعية فلم ينصح) فجعله البخاري عامًا في أيّ رعية سواء كانت ولاية عامة كالحاكم أو خاصة كالرجل راع في بيته، وكذلك النووي في تبويبه على مسلم جعله مرة في (باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الخائن)، ومرة في (باب استحقاق الوالد الغاش لرعيته النار)، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن عقوبة من ولاه الله ولاية سواء كانت عامة أو خاصة فغش لرعيته، ولم يقم بحقهم جعل عقوبة ذلك النار عندما قال: (إلا حرم الله عليه الجنة) واختلف العلماء في تأويل (تحريم دخوله الجنة على قولين) كما نص على ذلك النووي في (شرحه على مسلم) فقال: (أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ، وَالثَّانِي حَرَّمَ عَلَيْهِ دُخُولَهَا مَعَ الْفَائِزِينَ السَّابِقِينَ، وَمَعْنَى التَّحْرِيمِ هُنَا الْمَنْعُ قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ ، مَعْنَاهُ بَيِّنٌ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ غِشِّ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ قَلَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِمْ وَاسْتَرْعَاهُ عَلَيْهِمْ وَنَصَبَهُ لِمَصْلَحَتِهِمْ فِي دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ....) انتهى. (ينظر: إرشاد الساري (١٠/٢٢٣)،

Upload by: altawhedmag.com

شرح النووي على مسلم (١٦٥/٢)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٤٤٨/٣٢))

الحديث ورعاية الأبناء

هذا وإن كان الحديث في الرعية عموما إلا أننا نخص منها اليوم رعاية الولد، فهم فلذات الكبد و أمانة علقها الله بأعناقنا وقد قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا» وأول مراتب أداء هذه الأمانة وقايتهم من النار وقد قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »(التحريم: ٦)، وقد تظاهرت الأدلة القطعية من نصوص رب البرية قرآنا وسنة شريفة على تأكيد هذا التكليف ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته» (صحيح البخاري: ٨٥٣) .

وإن كان البيت هو المدرسة الأولى لتربية الأبناء وتعبيدهم لرب العالمين والعبودية هي المقصد من هذه التربية إذ إنها المقصد من الخلق، وقد قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات الآية: ٥٦)، إن كان الأمر كذلك فإن حرمانهم منها ظلم وشقاء، يقول ابن القيم رحمه الله في ((تحفة المودود بأحكام المولود ط العلمية (١٠/١٨))؛((وكم ممن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه وإعانته له على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه ففاته انتفاعه بولده وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء» . اهـ.

رمضان وتربية الأبناء:

والبيئة الإيمانية الرمضانية العامة داخل البيت وخارجه هي منحة لمراجعة النفس في كل أحوالها ومن أهمها وأوجبها التربية عموما وتربية الأبناء خصوصا، إذ أن أحوال الشهر العبادية خير معين للآباء على هذا الواجب الآكد إذ هو شهر دعاء ودعوة وعبادة وتربية عليها ونيل ثمراتها.

وأول سبيل يعين العبد على هذه المهمة أن يوحد العبد ربه بإفراده بالدعاء، يدعوه تعالى أن يرزقه حسن القصد والعمل ثم التدبير والمعونة على تربية النفس والأهل، ثم الدعاء بالفلاح والنجاح، ومن أعظم ما يعين على التربية: التربية على التوحيد، فيعلم الولد أن لا إله إلا الله فلا معبود بحق إلا هو، وأن محمدًا رسول الله، فلا متبوع بحق سواه، ثم التربية العبادية من صلاة وصيام وقيام، وذكر وتلاوة قرآن، والتفكر في أحوال أهل الإسلام، ومداومة المحاسبة للنفس، يربيه على كل هذا، ثم التربية السلوكية فآية الاتباع وثمرته تخلقه بصالح الأخلاق؛ إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم (وفي رواية صالح) الأخلاق) (السلسلة الصحيحة للألباني ٤٥).

وكذا يعلمه أن هذا المقصد الأسمى يجده في شتى شعائر الدين، وآية ذلك الصيام وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ». (البُخاري: ١٩٠٣)؛ إذ إنه من أعظم البواعث على إيقاظ الروح والجسد جميعًا.

قد جاءكم بيان من ربكم:

البيان من رسول الله هو بيان من الله إذ قال الله: (... إن هو إلا وحي يوحى)(النجم ٤٣)، وقد قال رسول الله: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه،...الحديث».(مسلم:٤٨٠٩) فالآباء سبب في الحفاظ على نقاء فطرة الأبناء وبقائها على أصل إسلامها، وهذا ما أدركه المسلمون في أول أمرهم منذ عهد الصحابة الكرام، فاعتنوا بأبنائهم بتربية عقولهم وغرس الإيمان في قلوبهم أكثر من اعتنائهم بتربية أجسادهم.

Upload by: altawhedmag.com

عناية السلف بتربية الأبناء:

وماتع قصصهم وطيب ذكرهم في مثل هذا يملأ تصانيفهم ودواوينهم، ومن ذلك ما تقرأه في مثل: موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، الهدي النبوي في تربية الأولاد في ضوء الكتاب والسنة، أثر التربية الإسلامية في أمن المجتمع الإسلامي، والإجمال في تربية الأجيال، وكل ما ذكرت منشور بطبعاته الأصلية على الشبكة العنكبوتية فهو متاح للجميع، ولابن الجوزي في ذلك رسالة صغيرة الكم ماتعة الكيف كتبها لابنه وقد سماها: (لفتة الكبد في نصيحة الولد)، واسمها يعبر عن صدقها، فقلت أطرح بعضها ليشرح الله الصدر إلى كلها وهي متوفرة كأخواتها، يقول رحمه الله - ناصحًا بالحق و مبينًا العلة من الخلق -: (اعلم يا بني- وفقك الله للصواب أنه لم يتميز الآدمي بالعقل إلا ليعمل بمقتضاه، فاستحضر عقلك، وأعيي فكرك، واخل بنفسك، تعلم بالدليل أنك مخلوق مكلف، وأن عليك فرائض أنت مطالب بها، وأن الملكين يحصيان ألفاظك وأن أنفاس الحي خطاه إلى أجله، ومقدار اللبث في الدنيا قليل والحبس في القبور طويل، والعذاب على موافقة الهوى وبيل.. فأين لذة أمس؟ رحلت وأبقت ندما وأين شهوة النفس؟ كم نكست رأسًا وأزلت قدمًا!

وما سعد من سعد إلا بخلاف هواه، ولا شقي من شقي إلا بإيثار دنياه. فاعتبر بمن مضى من الملوك والزهاد أين لذة هؤلاء، وأين تعب أولئك؟ بقي الثواب الجزيل والذكر الجميل، والقالة القبيحة والعقاب الوبيل للعاصين، وكأنه ما جاع من جاع ولا شبع من تشبع..

والكسل عن الفضائل بئس الرفيق، وحب الراحة يورث من الندم ما يربو على كل لذة.. فانتبه يا بني لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك.. واجتهد في لحاق الكاملين مادام في الوقت سعة، واسق غصنك، ما دامت فيه رطوبة؟ واذكر ساعتك التي ضاعت فكفى بها عظة. وذهبت لذة الكسل فيها وفاتت مراتب الفضائل....واحذر أن يذهب نفس بغير شيء فترى في القيامة خزانة فارغة فتندم... واحذر من جليس السوء،...ولا تقنع بالدون، فقد قال الشاعر:

ولم أر في عيوب الناس شيئًا
كنقص القادرين على التمام

ومتى صحت التقوى رأيت كل خير، والمتقي لا يرائي الخلق ولا يتعرض لما يؤذي دينه، ومن حفظ حدود الله حفظه الله،... واعلم يا بني أن يونس عليه السلام لما كانت ذخيرته خيرا نجا بها من الشدة. قال الله عز وجل: (فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (الصافات: ١٤٣- ١٤٤). وأما فرعون لما لم تكن له ذخيرة خير لم يجد في شدته مخلصا فقيل له: (آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ). فاجعل لك ذخائر خير من تقوى تجد تأثيرها... وكما قيل:

يا من بدنياه انشغل
وغره طول الأمل
الموت يأتي بغتة
والقبر صندوق العمل» ا .هـ

ثمرة عناية السلف بالتربية

هذا ولما اعتنى سلفنا الصالح بتربية أبنائهم وجدنا بيوتهم مصابيح دجى ومفاريخ علم وتقى، لذا كانت بيوت الصحابة تخرِّج العلماء من الأبناء، بل ومن الموالي كنافع مولى ابن عمر رضي الله عنهم ومن الكفلاء الذي تربى مع زوج أمه كابن المسيب مع أبي هريرة وعبد الله بن محيريز الفقيه الزاهد المحدث تخرج في بيت أبي محذورة الذي كان زوجًا لأمه بعد موت أبيه (ينظر: افتتاحية مجلة التوحيد عدد بعنوان: (مسئولية الأسرة.. نحو تربية الأبناء) للشيخ صفوت نور الدين رحمه الله).

هذا وإن كان الإعداد للعدد الرمضاني يكون في أول شعبان فإننا نتوسل إلى ربنا الرحمن أن يبلغنا رمضان وأن يرزقنا فيه حسن القصد والإيمان والإحسان إنه خير مأمول وأكرم مسئول، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

باب السنة

أيسر العبادات وأوسع الرحمات

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فمهمتنا في هذه الدنيا تحقيق العبودية لرب البرية كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وعمل العبد لا ينقطع إلا بالموت، وعبادته لا تنقضي إلا بالموت، والعبادة ليست قصرًا على موسم معين أو شهر بعينه. فإذا كان رمضان قد انقضى بصيامه وقيامه، فإن عبادة العبد لا تنقضي بانقضاء الشهر، والله عز وجل قد تكرم على عباده بعبادة مع كونها من أيسر العبادات فهي من أجلها وأكبرها وأوسعها رحمة، ألا وهي عبادة الذكر كما قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ الفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ العُلاَ، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، قَالَ: «أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ إِلاَّ مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ؛ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ»، فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا، فَقَالَ بَعْضُنَا: نُسَبِّحُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَنَحْمَدُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: تَقُولُ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ».

العزو:

رواه البخاري في كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة (٨٠٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته رقم (٥٩٥).

فائدة تربوية من إسناد هذا الحديث:

في هذا الحديث عبيد الله (ابن عمر بن

الخطاب) تَابِعيّ صَغير روى عن سمي (مولى أبي بكر بن عبدالرحمن) وَلا يعرف لسمي رِوَايَة عَن أحد من الصَّحَابَة، فَهُوَ من رِوَايَة الْكَبِير عَن الصَّغير، وهذا جانب تربوي مهم ودليل تواضع وإخلاص عني به علماؤنا إذ قالوا: (قد يروي الكبير القدر أو السن، أو الكبير فيهما معا عمن دونه، كما قيل: «لا ينبل الرجل حتى يأخذ عمن هو فوقه، وعمن هو مثله، وعمن هو دونه). ومن الفائدة في معرفته ألا يتوهم انقلاب السند، أو يتوهم أن الراوي دون المروي عنه؛ نظرا إلى أن الأغلب كون المروي عنه أكبر من الراوي،.. وقد ذكروا مما يندرج تحت هذا النوع رواية الصحابي عن التابعي، كرواية العبادلة وغيرهم من الصحابة عن كعب الأحبار بعض ما كان يحدث به من أخبار السابقين. (ينظر منهج النقد في علوم الحديث ج١ص١٥٥).

الشرح:

(عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: جاء الفقراء) فيهم أبو ذر كما عند أبي داود، وأبو الدرداء كما عند النسائي (إلى النبي- صلى الله عليه وسلم-، فقالوا: ذهب أهل الدثور)، جمع: دثر، (بفتح الدال وسكون المثلثة) (من الأموال) بيان للدثور وتأكيد له؛ لأن الدثور يجيء بمعنى المال الكثير.

وبمعنى الكثير من كل شيء (بالدرجات العلا) في الجنة، أو المراد: علوّ القدر عنده تعالى (وبالنعيم المقيم) الدائم (يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم)، (ولهم فضل الأموال) بالإضافة لما سبق (يحجون بها ويعتمرون، ويجاهدون ويتصدقون).

(قال) عليه الصلاة والسلام: (ألا أحدّثكم بما) أي بشيء (إن أخذتم أدركتم).. إن أخذتم به أدركتم (من سبقكم) من أهل الأموال في الدرجات العلا،.. (ولم يدرككم أحد بعدكم) لا من أصحاب الأموال ولا من غيرهم، (وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه).. أي: من أنتم بينهم (إلا مَن عمل) من الأغنياء (مثله).

وهو أنكم (تسبّحون، وتحمدون، وتكبرون خلف كُلِّ صَلاَة ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ) قال سمي: (فاختلفنا بيننا) أي: أنا وبعض أهلي، هل كل واحد ثلاثًا وثلاثين أو المجموع (فقال بعضنا: نسبح ثلاثًا وثلاثين، ونحمد ثلاثًا وثلاثين ونكبر أربعًا وثلاثين)، قال سميّ: (فرجعت إليه) أي، أبي صالح والقائل أربعًا وثلاثين بعض أهل سميّ، وهو الأقرب لما ورد في مسلم، ولفظه: قال سميّ: فحدثت بعض أهلي هذا الحديث. فقال: وهمت. فذكر كلامه، قال: فرجعت إلى أبي صالح، إلا أن مسلمًا لم يوصل هذه الزيادة.

(فقال) أي: أبو صالح (تقول): (سبحان الله والحمد لله، والله أكبر، حتى يكون) العدد (منهن كلهن ثلاثًا وثلاثين). (وينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال: ٤٥٨/٢، وعمدة القاري: ١٢٨/٦، إرشاد الساري للقسطلاني: ١٣٧/٢).

ومما يستفاد من الحديث:

أولا: فضيلة الذكر وهو أمر لا يخفى من مثل هذا الحديث وغيره كما خرج الترمذي من حديث أبي الدرداء قال: قال صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبِّئُكم بخير أعمالكم، وأزكاها عندَ مليككُم، وأرفعها في درجاتكم وخيرٌ لكم من إنفاق الذَّهب والورق، وخيرٌ لكم من أن تلقَوا عدوَّكم فتضربوا أعناقَهم ويضربوا أعناقَكم؟ قالوا: بلى. قال: ذكْرُ الله تعالى. قال معاذُ بنُ جبل: ما شيءٌ أنجى من عذاب الله من ذكر الله) (صحيح الترمذي ٣٣٧٧)، ومثله في صحيح ابن ماجه من حديث أبي الدرداء وغير ذلك كثير فلتراجع في مظانها.

ويَشْمَل هذا الحديث الْفَرْض وَالنَّفْل، وَلَكن حمله أكثر الْعلمَاء على الْفَرْض؛ لأَنَّهُ وَقع في حَدِيث كَعْب بن عجْرَة عِنْد مُسلم التَّقْيِيد بالمكتوبة (مُعقِّبَاتٌ لا يخيبُ قائلُهن دُبُرَ كلِّ صلاة مكتوبة؛... الحديث) (مسلم: ٥٩٩)، فكأنهم حملُوا الْمُطلق على الْمُقَيد. (انظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ١٢٨/٦).

ولا يشترط فيها الترتيب وإن كان الترتيب أولى. قال في إرشاد الساري (١٣٧/٢): «ويبدأ بالتسبيح لأنه يتضمن نفي النقائص عنه تعالى، ثم يثنى بالتحميد؛ لأنه يتضمن إثبات الكمال له، ثم يثلث بالتكبير إذ لا يلزم من نفي النقائص وإثبات الكمال نفي أن يكون هناك كبير آخر)، وهذا هو الأولى وهو الموافق للحديث ، وإن كان الترتيب ليس شرطاً فقد وقع في غير ما رواية

تقديم التكبير على التحميد، ويستأنس له بقوله في حديث: « الباقيات الصالحات لا يضرك بأيهن بدأت».

وقد وردت روايات عديدة في عدد هذه الأذكار الثلاثة وما صح منها يجوز العمل به.

وما وقفت عليه مما صح في التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير أربعة: الصيغة الأولى: أن يسبِّحَ الله في دُبُر كلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثلاثينَ، ويحمده ثَلاثًا وَثلاثينَ، ويكبِّره ثَلاثًا وَثلاثينَ، ويقول تَمامَ المائة: لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير، فيكون المجموع مائة. لما روى مسلم (٥٩٧) عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وقد تكون هذه الصيغة: بسرد التسبيح ثلاثاً وثلاثين، ثم التحميد مثل ذلك، ثم التكبير مثل ذلك، وقد تكون بأن يجمعها جميعًا: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ثم يكررها مجموعة ثلاثاً وثلاثين مرة.

الصيغة الثانية:

أن يسبِّح اللهَ ثَلاثًا وَثلاثينَ، وَيحْمَدُهُ ثَلاثًا وَثلاثينَ، وَيكَبِّرُهُ أَرْبَعًا وَثلاثينَ، فيكون المجموع مائة. لما روى مسلم (٥٩٦) عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه.

الصيغة الثالثة:

أن يسبح الله ويحمده ويكبره ويهلله: خمسًا وعشرين، فيكون المجموع مائة. لما رواه النسائي (١٣٥٠) عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

الصيغة الرابعة:

أن يسبح الله عشراً، ويحمده عشراً، ويكبره عشراً. لما رواه أبو داود (٥٠٦٥) عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، صححه الحافظ ابن حجر في «تخريج الأذكار» (٢/٢٦٧)، وصححه الألباني في «الكلم الطيب» (١١٣).

وقد يرفع الصوت بها عقب الصلاة شريطة عدم التشويش.

وهى مسألة اختلف الفقهاء فيها، فمنهم من ذهب إلى أنه سنة، ومنهم من كره ذلك وقال: إن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يداوم عليه وإنما فعله للتعليم ثم تركه، وخلاصته أن هذا الخلاف قديم والأمر فيه سعة فمن فعله دون إزعاج للغير كما كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكما وصفه ابن عباس فهو سنة، ومن فعله خارجا على ذلك مبالغا فيه فقد خرج به إلى بدعة الغلو التي نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله للصحابة في قفولهم من خيبر حين رفعوا أصواتهم بالتكبير فيما رواه البخاري من حديث أبي موسى قال: (أيها الناس، أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، ولكن تدعون سميعًا بصيرًا).

وسبب اختلافهم ما أخبر به ابن عباس رضي الله عنهما: (كنا نعلم انقضاء صلاة رسول الله بالتكبير) (البخاري:٨٠٦، مسلم: ٥٨٣)

فممن ذهب إلى رفع الصوت بالذكر بعد الصلاة: الطبري وابن حزم وشيخ الإسلام وغيرهم ورجح ذلك من المعاصرين الشيخ ابن عثيمين (ينظر المحلى لابن حزم: ٣/١٨٠، وكشاف القناع للبهوتي ١/٣٦٦).

قال ابن عثيمين رحمه الله: الجهر بالذكر بعد الصلوات المكتوبة سنة، دل عليها ما رواه البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله..... والجهر عام في كل ذكر مشروع بعد الصلاة سواء كان تهليلاً، أو تسبيحًا، أو تكبيرًا، أو تحميدًا لعموم حديث ابن عباس،....» انتهى من «مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١٣/٢٤٧، ٢٦١).

وممن ذهب إلى أن ذلك كان للتعليم فقط: الشافعي والجمهور « انتهى من «الأم» (١/١٢٧).

ومما ورد من التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلاة ليس هو الذكر الوحيد: فقد صح في ذلك أحاديث كثيرة أخرى كما في مسلم من حديث ثوبان مولى رسول الله قال: (كان رسول الله إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثًا، وقال: اللهمَّ أنتَ السَّلامُ، ومنكَ السَّلامُ، تباركْتَ يا ذا الجلالِ والإكرام)، وغير ذلك كثير مما امتلأت به الكتب فلتراجع في مظانها في مثل (الأذكار للنووي ومثله للشوكاني

وكتاب الدعوات في صحيح البخاري وكتاب الذكر والدعاء في صحيح مسلم وغير ذلك).

هذا ومن فوائد الحديث كذلك أن المال الصالح للعبد الصالح أمر محمود؛ لأنه سيتصرف في ماله بعلمه وصلاحه، وكان أهل الأموال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على مثل هذا، ومنه ما كان من أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما خرج الترمذي من حديث عمر قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك عندي مالاً فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا. قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أبقيت لأهلك»؟ قلت: مثله وإن أبا بكر أتى بكل ما عنده فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك»؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسابقه إلى شيء أبدًا (قال الترمذي: حسن صحيح (٣٦٧٥)، وصححه الحاكم على شرط مسلم).

ونحو ذلك ما كان من عبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين، هذا وأخبار الأجواد المنفقين أموالهم في سبيل الله من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يطول ذكرها جدا.

واستبقوا الخيرات:

من أجل هذا كان الفقراء من الصحابة كلما رأوا أصحاب الأموال منهم ينفقون أموالهم فيما يحبه الله.. حزنوا لما فاتهم من مشاركتهم في هذه الفضائل؛ وذلك كما في حديث الشهر وكما ذكرهم الله في كتابه إذ قال تعالى: « لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ» (التوبة: ٩١- ٩٢)؛ نزلت هذه الآية بسبب قوم من فقراء المسلمين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى غزوة تبوك فطلبوا منه أن يحملهم فقال لهم: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فرجعوا وهم يبكون حزنًا على ما فاتهم من الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى مثل هذا يكون البكاء..

سهر العيون لغير وجهك باطل
وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

إنما يحسن البكاء والأسف على فوات الدرجات العلى والنعيم المقيم. (وينظر لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢٤٠) فقد أمتع في هذا).

وفعل هؤلاء الأصحاب لا يتعارض مع الرضا بالقضاء والقدر بل هو موافق لما علمهم إياه الحبيب عليه الصلاة والسلام إذ قال كما روى في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً، فسلطهُ على هلكته في الحق، ورجلٌ آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها).

ثم تأتي البشرى من الحكم العدل سبحانه وتعالى:

فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم تأسف أصحابه الفقراء وحزنهم على ما فاتهم من إنفاق إخوانهم الأغنياء أموالهم في سبيل الله تقربًا إليه وابتغاءً لمرضاته طيب قلوبهم ودلهم على عمل يسير يدركون به من سبقهم ولا يلحقهم معه أحد بعدهم، ويكونون به خيرًا ممن هم معه إلا من عمل مثل عملهم؛ وهو الذكر عقب الصلوات المفروضات كما سبق بيانه.

تأصيل:

ومن إكرام الله للأمة أن من نوى عمل خير ثم عجز عنه فتأسف عليه وتمنى حصوله كان شريكًا لفاعله في الأجر كما في الترمذي وغيره من حديث أبي كبشة الأنماري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «...إنما الدنيا لأربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً وعلمًا فهو يعمل بعلمه في ماله ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالاً، وهو يقول: لو كان لي مثل هذا لعملت فيه مثل الذي يعمل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهما في الأجر سواء.... الحديث» (صحيح الجامع ٣٠٢٤)، ولهذا الحديث صلة في شهرنا القادم إن شاء الله.

وأخيرًا أيها الحبيب قد أحسن الله إليك في رمضان فلا تنقض عهدك مع ربك وانته حيث نهاك تعالى إذ قال: « وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا » (النحل: ٩٢)، فالله نسأل أن يجعل أيامنا كلها رمضان،

والحمد لله رب العالمين.



هدي السلف في المداومة على العمل الصالح

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فمع تعاقب الليل والنهار، وانصرام الليالي والأيام، انقضى شهر رمضان، ثم تلاه متصلاً به شهر شوال، وقد حرص فيه الناس على اتصال الأعمال بأعمالهم الصالحة في شهر رمضان، وقدر الله الكوني في خلقه أنه إذا طال بالناس الأمد، وبعُد عهدُهم بشهرهم تسرب الملل إلى نفوسهم، ودبَّ الكسل في بعضهم، فكانت الذكرى عبادة الوقت والذكرى تنفع المؤمنين، ومن ذلك ما رواه إمام المحدثين الإمام البخاري - رحمه الله- إذ قال: بابُ القَصْدِ وَالمُدَاوَمَةِ عَلَى العَمَلِ، ثم قال: حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَشْعَثَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، قَالَ: سَمِعْتُ مَسْرُوقًا، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَيُّ العَمَلِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: «الدَّائِمُ» قَالَ: قُلْتُ: فَأَيُّ حِينٍ كَانَ يَقُومُ؟ قَالَتْ: «كَانَ يَقُومُ إِذَا سَمِعَ الصَّارِخَ»

التخريج:

رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦٠٩٦)، ورواه في كتاب التهجد، باب من نام من السحر (١٠٨٠)، ورواه في كتاب الإيمان بمعناه باب أحب الدين إلى الله أدومه (٤٣).

ورواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل، (٧٤١).

والحديث مروي في سنن أبي داود في الصلاة والصوم، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار، وفي الإيمان وشرائعه، وفي الصيام، وابن ماجة في الصيام والزهد؛ وغيرهم.

فائدة:

يكتفي المحدثون بتخريج الحديث من الصحيحين إذا كان فيهما؛ إذ إن ذلك فيه غنية وكفاية، لكنني أشرت إلى عناوين

الأبواب في غيرهما؛ إذ في ذلك إشارة لما استفادوه من الحديث.

الشرح:

قوله: باب الْقَصْدِ وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعَمَلِ: أي هذا باب يُذكر فيه ما يدل على القصد، وهو سلوك الطريق المعتدلة الموافقة للسنة التي لا إفراط فيها ولا تفريط، وذلك لتحقيق (المداومة على العمل) الصالح وإن قلّ. وَذَكَرَ البخاري في الباب ثَمَانِيَةَ أَحَادِيثَ أَكْثَرُهَا مُكَرَّرٌ، وَفِي بَعْضِهَا زِيَادَةٌ عَلَى بَعْضٍ، وَمُحَصَّلُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ: الْحَثُّ عَلَى مُدَاوَمَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَإِنْ قَلَّ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ.

وأول حديث في البَاب هو حديث عَبدان، وفيه قال: (حدّثنا عبدان) هو لقب عبد الله بن عثمان بن جبلة بن أبي رواد المروزي قال: (أخبرنا) ولأبي ذر بالإفراد (أبي) عثمان (عن شعبة) بن الحجاج (عن أشعث)، بالمعجمة والمثلثة، بينهما مهملة مفتوحة (قال: سمعت أبي) هو أبو الشعثاء سليم بن الأسود المحاربي (قال: سمعت مسروقًا) هو ابن الأجدع. (قال: سألت عائشة-رضي الله عنها- أي العمل كان أحب إلى النبي-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؟ قالت: الدائم)؛ الذي يستمر عليه عامله.

(قال) مسروق (قلت) لها: (فأي حين) أي كان يقوم-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يصلّي من الليل؟ (قالت: كان يقوم) من النوم (إذا سمع الصارخ)، وهو الديك، وهو يصرخ نصف الليل غالبًا. وقال ابن بطال: عند ثلث الليل. والصَّارِخُ هو الدِّيكُ، وَالصَّرْخَةُ الصَّيْحَةُ الشَّدِيدَةُ، وَجَرَتِ الْعَادَةُ بِأَنَّ الدِّيكَ يَصِيحُ عِنْدَ نِصْفِ اللَّيْلِ غَالِبًا؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بن نَاصِر. قَالَ ابن التِّين: وَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ ابن عَبَّاسٍ: نِصْفُ اللَّيْلِ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ. (وينظر: فتح الباري لابن حجر (١٧/٣)، و(شرح الحديث في إرشاد الساري للقسطلاني).

مما يستفاد من الحديث:

أن المداومة على العمل الصالح من خصائص عباد الله إذ وصفهم الله بهذا فقال «الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ» (المعارج: ٢٣).

وفي المداومة على العمل زيادة في الإيمان؛ إذ الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي والغفلات.

وفي المداومة على الأعمال سببٌ لمحبة ذي العزة والجلال؛ إذ يقول الله تعالى في الحديث القدسي: ".. ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه.. الحديث " (أخرجه البخاري ٦١٣٧)، ومحبة الرحمن من بشريات ولاية العبد وكرامته.

وفي المداومة على الأعمال تكميل لما ينقص من الفرائض والتكاليف؛ إذ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ أوَّل ما يُحاسَبُ به العبدُ يوم القيامة من عمله صلاته؛ فإنْ صلحت فقد أفلح وأنجح، وإنْ فَسَدتْ فقد خابَ وخسر، فإن انتُقص من فريضته شيءٌ قال الرب- عزّ وجلّ-: انظروا هل لعبدي من تطوُّع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك"، (أخرجه الترمذي ٤١٣ وصححه الألباني).

وفي المداومة على الأعمال رجاء حسن الخاتمة: يقول الحافظ ابن كثير: "لقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يُبعَث كل عبد على ما مات عليه) (صحيح مسلم ٢٧٨٧).

ويقول صلى الله عليه وسلم: (إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله، قيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه) (سنن الترمذي ٢١٤٢ وصححه الألباني).

وفي المداومة على الأعمال سبب لتكفير المعاصي والآثام؛ إذ قال ربنا تعالى ذكره: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) (هود: ١١٤).

ولا شك أن المداومة على الطاعات، بكل ما تقدم، سببٌ يُرجَى به دخول الجنات.

وأدلة الشرع تضافرت للمعونة على ذلك:

ومن أجل كل هذه الفضائل وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره؛ فإن الله قد شرع لنا ما يعيننا على تلكم المداومة؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم كما في الترمذي من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (من نام عن حزبه، أو عن شيء منه

فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل) (سنن أبي داود ١٣١٣ وصححه الألباني).

بل إن الله تفضل بالأجر على المستقيم ولو لم يعمل فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا مَرِضَ العبدُ أو سافر كتَب الله له ما كان يعمَلُ صَحيحًا مقيمًا) (صحيح البخاري ٢٨٣٤)؛ وذلك إذا تخلف عن العمل لعذر.

لذا كان من شأن العقلاء التماس الأسباب المعينة على المداومة، ومن ذلك:

أولاً: الاستعانة برب العزة والجلال والإكثار من الدعاء وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه رضوان الله عليهم كما قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (لا تدع أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) (سنن أبي داود ١٥٢٢ وصححه الألباني).

ثانيًا: التنويع بين العبادات والتدرج في الأعمال طالما وافق العبد السنة فكله خير، وأينما وجد العبد قلبه فثم شرع الله، وهو المراد، يقول ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين (ص: ٥٦) في شأن التنوع: (والنفس متى وقفت على فن واحد حصل لها ملل، فمن التلطف نقلها من فن إلى فن).

ثالثًا: ومما يعين على المداومة على العمل جمع الهمّ على الآخرة والجنة ونعيمها والنار وعذابها، ومقارنة ذلك جميعه بالدنيا وما فيها، وحصر الذهن في ذلك؛ كما ذكر صاحب كتاب علو الهمة قال: "الاجتهاد في حصر الذهن، وتركيز الفكر في معالي الأمور،... وهو توحيد الإرادة، يعني: إرادة همّ الآخرة بلا منافس؛ لأن الدنيا والآخرة ضرتان، إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

فمن أسباب الارتقاء بالهمة: نظرية حصر الذهن والتركيز تماماً فيما تريد أن تنجزه من الأمور، فالإنسان إذا لم يبادر بأن يشغل نفسه بالحق فإنها تشغله بالباطل، كما قال الحسن: "نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل".

فلا بد أن تكون النفس مشغولة، وإن لم تبادر أنت بشغلها بالحق فإنها تتفرق بك في أودية الدنيا.

سئل كثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط، مع أنه أمّ الناس في حمص حوالى ستين سنة كاملة في الصلوات الخمس، ولم يسهُ في صلاته قط، فسئل عن سبب هذا فقال: "ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله".

وهذه هي ثمرة من ثمرات حصر الذهن في مطلب واحد، وإرادة واحدة، وهي إرادة الآخرة وإرادة الله سبحانه وتعالى، فالتركيز بلا شك يثمر هذه النتائج العظيمة.

وقد رأينا مظاهر عجيبة للسلف الصالح رحمهم الله تعالى في موضوع التركيز في طلب الآخرة، فلم يشتتوا همتهم في الدنيا، فهذا الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب العربية ومنشئ علم العروض، كان إماماً مفرط الذكاء، والإمام الخليل بن أحمد بقدر ما هو صاحب الشهرة المعروفة في اللغة العربية والعروض، وقد يتصور أن هذه العلوم يكون عند أصحابها جفاء مثلاً، لكنه كان من العباد ومن الزاهدين ومن الخيرين،.. وقد كان متقشفاً متعبداً، قال النضر بن شميل: أقام الخليل في خُصَّ له بالبصرة، (يعني: في بيت من خشب أو بيت من شجر أو من قصب) قال: أقام الخليل في خص له بالبصرة ولا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال، وكان كثيراً ما ينشد:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد

ذخراً يكون كصالح الأعمال

فهو معدود من زهاد العالم القلائل، فرحمه الله تعالى، وكان يقول: "إني أغلق عليَّ بابي فما يجاوزه همي"، فكان الخليل بن أحمد يخرج من منزله واهتمامه بشيء محدد، هو طلب الآخرة، فكان ينشغل جداً وتجد شدة تركيز ذهنه في مقصد واحد وهو طلب الآخرة، فكان يخرج من المنزل ولا يشعر بنفسه إلا وهو في الصحراء، ولم يرد الصحراء وإنما شغله الفكر الذي هو فيه والاستغراق، حتى خرج إلى ما لا يقصده من

الأماكن؛ لشدة استغراقه في أمر محدد، فيذهل عما عداه.

خامسًا: صحبة الأخيار والاطلاع على سيرهم ومنه الوقوف على سير السلف ومن ذلك ما كان من أبي بكر وعمر وعبدالله بن عمرو وعلي بن أبي طالب وغيرهم من الصحابة، فلتطلع سيرهم في هذا في مثل كتاب (أسد الغابة في سير الصحابة).

ومنه ما ورد في شأن عمر بن عبد العزيز-رحمه الله تعالى- في أيام خلافته؛ تقول زوجته فاطمة: كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده، ثم يرفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه، ثم ينتبه، فلا يزال يدعو رافعاً يديه يبكي حتى تغلبه عينه، يفعل ذلك ليله أجمع.

وهذا مسروق الأجدع كان يصلي حتى تتورم قدماه، حتى إن امرأته كانت تبكي مما ترى من تعبه ومعاناته.

وأما عروة بن الزبير وهو من فقهاء المدينة فكان يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف في النهار، ثم يقوم به في الليل، لقد كان يقرأ بمعدل نصف القرآن في يومه وليلته، وما تركه إلا ليلة واحدة حينما قطعت رجله في سفرته المعروفة حينما ذهب إلى الشام.

وهذا عبد الرحمن بن مهدي كان وِرْده كل ليلة طوال السنة نصف القرآن، وهذا طلَق بن حبيب كان إذا افتتح سورة البقرة في الصلاة لا يركع حتى يبلغ العنكبوت-أي أكثر من نصف القرآن- وكان يقول: أشتهي أن أقوم حتى يشتكي صلبي.

وهذا منصور بن المعتمر يقول بعض جيرانه: هذا صبي صغير أو صبية كانوا يرون منصور بن المعتمر يصلي على سطحه يظنونه في الليل خشبة أو عموداً من طول قيامه، فلما مات فُقِدَ، فقال هذا الصبي أو الصبية لأبيه: أين الخشبة التي كانت في سطح منصور قائمة؟، قال يا بنية: ذاك منصور كان يقوم الليل!!

وهذا وكيع بن الجراح كان لا ينام حتى يقرأ جزأه من كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر.

وهذا سفيان الثوري -رحمه الله- جلس مع أصحابه مرة فصار يسألهم رجلاً رجلاً عن عملهم بالليل ماذا تعملون؟ فأخبروه جميعاً ثم سكت، فقالوا له: يا أبا عبد الله أخبرناك، فأخبرنا كيف تصنع؟ فقال: لها عندي أول نومة تنام ما شاءت لا أمنعها، فإذا استيقظت فلا أقيلها والله، أي أنه ينام نومة فإذا استيقظ فلا يقيل نفسه ولا يرجع إلى فراشه مرة ثانية.

وأما الإمام أحمد إمام أهل السنة والجماعة فكان-كما وصفه ابنه عبد الله- لا يفتر من الصلاة بين العشاءين، فيصلي بين المغرب والعشاء، ويصلي بعد العشاء في ورده من صلاة الليل، وكان ساعة يصلي العشاء الآخرة ينام نومة خفيفة، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو.

ورآه المروذي مرة يقوم لورده قريباً من نصف الليل حتى يقارب السحر، قال: ورأيته يركع فيما بين المغرب والعشاء، وكان يقرأ في كل يوم سبع القرآن.

وقد يقول بعضنا: قد رقت عظامي ووهنت، وبلغت من الكبر عتياً، فأقول: حتى مع الشيخوخة وتقدم العمر بالإنسان لم يكونوا يفرطون في طاعة الله-تبارك وتعالى.

والأحنف بن قيس بلغ سناً كبيرة، وضعف وشاب فكان يصوم، وكان أهله ومن حوله يقولون: إنك ضعيف، والصوم يضعفك!! فكان يقول: إني أعده لسفر طويل، وكان عامة صلاة الأحنف بالليل، وكان يضع أصبعه على المصباح ثم يقول: حس، ويقول: ما حملك يا أحنف على أن صنعت في يوم كذا كذا وكذا؟.

وبعضهم كان يقسم الليل أثلاثاً لكن بطريقة أخرى، فكانوا يقسمونه على أهل الدار يقوم هذا وينام الآخرون، ثم ينام هذا ويقوم الآخر، ثم ينام هذا ويقوم الثالث، وكان الحسن بن صالح مع أخيه ومع أمه قد قسموا الليل أثلاثا، فلما ماتت أمه قسموه على نصفين يصلي الحسن بن صالح شطراً، ويصلي أخوه الشطر الآخر، فلما مات عليٌّ كره الحسن بن صالح -رحمه الله- أن يقطع عادته من إحياء بيتهم بصلاة الليل، فكان يصلي الليل جميعاً يقوم بورده ويصلي الوقت الذي كان يصلي فيه أخوه وأمه. (ينظر عبادة السلف لصلاح عبدالموجود).

وفي هذا القدر الكفاية، والحمد لله رب العالمين.

مواسم الطاعات واستجلاب الرحمات

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فمن لطف الله بعباده أن تكرم عليهم بمضاعفة الحسنات، وغفران السيئات، والإثابة على الهم بفعل الخيرات والهم بترك السيئات، وعلى هذا جميعه تضافرت الأدلة الواضحات من الكتاب والسنة، ومنها ما رواه الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فيما يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

التخريج:

أخرجه البخاري - كتاب: الرقاق، باب: من هم بالحسنة أو سيئة، (٦٤٩١) (٨/ ١٠٣)، ومسلم - كتاب: الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، (١٣١)، (٢٠٧).

الشرح:

هذا حديث قدسي شريف بيّن فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) تفضل الله على عباده فقال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات»، وكتابته للحسنات والسيئات تشمل معنيين: المعنى الأول: كتابة ذلك في اللوح المحفوظ فإن الله تعالى كتب فيه كل شيء كما قال الله: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ «القمر: ٤٩» وقال تعالى: « وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ » (القمر: ٥٣) فالله سبحانه وتعالى كتب السيئات والحسنات في اللوح المحفوظ.

والمعنى الثاني: كتابته إياها إذا عملها العبد فإن الله تعالى يكتبها حسب ما تقتضيه حكمته، وحسب ما يقتضيه عدله وفضله.

فهاتان كتابتان: كتابة سابقة وكتابة لاحقة، ثم بين ذلك أي: ثم بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك كيف يكتب، فبين أن الإنسان إذا همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة، فإن عملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة كرجل هم أن يسرق ولكن ذكر الله فترك السرقة لله، فأثيب على ذلك كما جاء ذلك مفسراً في لفظ آخر: (فإنما تركها من جراي) أي: من أجلي (متفق عليه) ، فإن عمل السيئة كتبت سيئة واحدة ، ولولا هذا التفضل العظيم لم يدخل أحد الجنة؛ فالأعمال مع كونها سبباً لاستجلاب الرحمات فمهما عظمت لا تدخل صاحبها الجنة كما في الصحيح

Upload by: altawhedmag.com

(لا يُدْخلُ أحدكم عملُه الجنةَ) (صحيح البخاري) فجعل الله الهم بالحسنة حسنة، وجعل الإعراض عن الهم بالسيئة حسنة، بل ومن جميل إنعام الله وعظيمه أن السيئة التي تكتب ربما تغفر ففي صحيح مُسْلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: «يَقُولُ اللَّه: مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً، فَجَزَاؤُهَا مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ»..... (وانظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ١٢٢)، شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ١٩٩)، جامع العلوم والحكم ت الأرناءوط (٢/ ٣١٢) (شرح رياض الصالحين لابن عثيمين).

ما يستفاد من الحديث:

أولاً: تفضل الله على عباده فلا يهلك على الله إلا هالك، وهذا أمر تظاهرت عليه نصوص الشريعة وعقائد السلف فالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمائة ضعْف إِلَى أَضْعَاف كَثِيرَة، وَقَدْ دَلَّ عَلَيْه قَوْلُهُ تَعَالَى: «مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» (الأنعام: ١٦٠).

والمضاعفة فوق ذلك دل عليها قَوْلُهُ تَعَالَى: «مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ» (البقرة: ٢٦١) وكذلك من تفضله أن تكتب السَّيِّئَةُ بمثلها، مِنْ غَيْر مُضَاعَفَة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (الأنعام: ١٦٠) وَقَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: «كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ» إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا غَيْرُ مُضَاعَفَة، هذا وان كان من تفضل الله علينا أن السيئة غير مضاعفة في عموم الأحوال إلا أنها قد تعظم أحيانا رحمة بنا أيضا لتذكيرنا بشرف الزَّمَان والحالة هذه ونحن في ذي الحجة، وقد قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ» (التَّوْبَة: ٣٦).

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاس فِي هَذِه الْآيَة: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ» (التوبة: ٣٦) فِي كُلِّهِنَّ، ثُمَّ اخْتَصَّ مِنْ ذَلِكَ أَرْبَعَةَ أَشْهُر، فَجَعَلَهُنَّ حَرَمًا، وَعَظَّمَ حُرُمَاتِهِنَّ، وَجَعَلَ الذَّنْبَ فِيهِنَّ أَعْظَمَ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْأَجْرَ أَعْظَمَ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِه الْآيَة: اعْلَمُوا أَنَّ الظُّلْمَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ أَعْظَمُ خَطِيئَةً وَوِزْرًا فِيمَا سِوَى ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ الظُّلْمُ فِي كُلِّ حَالٍ غَيْرَ طَائِلٍ، وَلَكِنَّ اللَّه تَعَالَى يُعَظِّمُ مِنْ أَمْرِه مَا يَشَاءُ. ينظر: جامع العلوم والحكم ت الأرناءوط (٢/ ٣١٢).

ثانيا: ما معنى الهمّ الذي عناه الحديث؟

يقول ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/٣١٢): (هُوَ الْعَزْمُ الْمُصَمَّمُ الَّذي يُوجَدُ مَعَهُ الْحِرْصُ عَلَى الْعَمَل، لَا مُجَرَّدُ الْخَطْرَة الَّتي تَخْطُرُ، ثُمَّ تَنْفَسخُ مِنْ غَيْر عَزْم وَلَا تَصْميم.....، وَرُوِيَ مِنْ حَديث عَائشَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ. وَرُوِيَ عَنْ سَعيد بْن الْمُسَيَّب، قَالَ: مَنْ هَمَّ بِصَلَاة، أَوْ صيَام، أَوْ حَجٍّ، أَوْ عُمْرَة، أَوْ غَزْوَة، فَحيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلكَ، بَلَّغَهُ اللَّه تَعَالَى مَا نَوَى.....، فَإِنَّ الْهَامَّ بِعَمَل الْخَيْر كَفَاعله. وَمَتَى اقْتَرَنَ بِالنِّيَّة قَوْلٌ أَوْ سَعْيٌ، تَأَكَّدَ الْجَزَاءُ، وَالْتَحَقَ صَاحبُهُ بِالْعَامل) (انتهى).

وعليه: أولا: من همَّ بالحسنة فلم يعملها على وجوه (كما أفاده الشيخ الصالح محمد بن صالح العثيمين رحمه الله) في شرحه للحديث على رياض الصالحين (ص: ٣٦٨) : الوجه الأول: أن يسعى بأسبابها ولكن لم يدركها، فهذا يكتب له الأجر كاملاً، لقول الله تعالى: (وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ) (النساء:

Upload by: altawhedmag.com

الآية ١٠٠).

الوجه الثاني: أن يهم بالحسنة ويعزم عليها ولكن يتركها لحسنة أفضل منها، فهذا يثاب ثواب الحسنة العليا التي هي أكمل، ويثاب على همه الأول للحسنة الدنيا الوجه الثالث: أن يتركها تكاسلاً، فهذا يثاب على الهم الأول والعزم الأول، ولكن لا يثاب على الفعل لأنه لم يفعله بدون عذر، وبدون انتقال إلى ما هو أفضل.

ثانيًا: من هم بالسَّيِّئات من غير عملٍ لها فهو على أحوال:

١- فمن تركها لله، ففي حديث ابن عباس: أنَّها تُكتب حسنةً كاملة، وكذلك في حديث أبي هريرة وأنس وغيرهما أنَّها تُكتَبُ حسنةً، وفي حديث أبي هريرة قال: (إنَّما تركها من جرَّاي) (مسلم ١٢٩) يعني: من أجلي. وهذا يُكتَبُ له بذلك حسنة ؛ لأنَّ تركه للمعصية بهذا المقصد عملٌ صالحٌ.

فأمَّا إن همَّ بمعصية، ثم ترك عملها خوفاً من المخلوقين، أو مراءاةً لهم، فقد قيل: إنَّه يُعاقَبُ على تركها بهذه النيَّة ؛ لأنَّ تقديم خوف المخلوقين على خوف الله محرَّم. وكذلك قصدُ الرِّياءِ للمخلوقين محرَّم، فإذا اقترنَ به تركُ المعصية لأجله، عُوقِبَ على هذا الترك..

٢- وأمَّا إنْ سعى في حُصولها بما أمكنه، ثم حالَ بينه وبينها القدرُ، فقد ذكر جماعةٌ أنَّه يُعاقَب عليها حينئذٍ لحديث: (ما لم تكلَّمْ به أو تعمل)، لأن من سعى في حُصول المعصية جَهدَه، ثمَّ عجز عنها، فقد عَمِل بها، ودليله قولُ النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم -: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتلُ والمقتولُ في النَّار)، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتلُ، فما بالُ المقتول ؟! قال: (إنَّه كان حريصاً على قتل صاحبه) (رواه البخاري ٣١ ومسلم ٢٨٨٨).

ويدل عليه أيضا حديث أبي كبشة الذي قال فيه الرجل: (لو أنَّ لي مالاً، لعملتُ فيه ما عَمِلَ فلان) يعني: الذي يعصي الله في ماله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فهما في الوزر سواءٌ).

٣- ومن هم بها، ثم انفسخ عزمه، بعد ما نواها، فإن كانت مجرد خاطر بقلبه، لم يؤاخذ به، وإن كانت عملاً من أعمال القلوب، التي لا مدخل للجوارح بها، فإنه يؤاخذ بها، وإن كانت من أعمال الجوارح، فأصر عليها، وصمم نيته على مواقعتها، فأكثر أهل العلم على أنه مؤاخَذ بها.

قال النووي رحمه الله - بعد ما نقل القول بالمؤاخذة عن الباقلاني -: «قال القاضي عياض رحمه الله: عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين على ما ذهب إليه القاضي أبو بكر، للأحاديث الدالة على المؤاخذة بأعمال القلوب.

لكنهم قالوا: إن هذا العزم يكتب سيئة، وليست السيئة التي هم بها؛ لكونه لم يعملها وقطعه عنها قاطع غير خوف الله تعالى والإنابة، لكن نفس الإصرار والعزم معصية، فتكتب معصية؛ فإذا عملها كتبت معصية ثانية فإن تركها خشية لله تعالى كتبت حسنة، كما في الحديث إنما تركها من جراي فصار تركه لها لخوف الله تعالى ومجاهدته نفسه الأمارة بالسوء في ذلك وعصيانه هواه حسنة، فأما الهم الذي لا يكتب فهي الخواطر التي لا توطن النفس عليها ولا يصحبها عقد ولا نية وعزم) (ينظر: شرح مسلم للنووي ١٥١/٢، جامع العلوم والحكم: شرح الحديث السابع والثلاثين (٣٤٣/٢-٣٥٣)، طرح التثريب في شرح التقريب (٨/ ٢٣٠).

Upload by: altawhedmag.com

ثالثا: هل يستدل بقوله: « إن الله كتب الحسنات والسيئات: على الاستدلال بالقدر على المعصية؟

الجواب: لا، وفي جوابه على هذا السؤال أفاد الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى بقوله:هذا غلط، لا يحتج بالقدر على هذا، الرسول -صلى الله عليه وسلم- لما قال لهم: (ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار)، قال الصحابة يا رسول: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فسيُيَسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فسييسرون لعمل أهل الشقاوة)، ثم تلا قوله تعالى:« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ » (الليل: ٥-١٠).

وهل يمكنه أن يحتج بالقدر فيجلس ولا يأكل ولا يشرب ولا يتكسب إن كان صادقاً؟

الجواب: لا، وعليه فكما لا يستدل به العقلاء على طلب أحوال الدنيا فلا يستدل به على أحوال العبادة والآخرة. هذا وقوله «كَتَبَ» أي كتب وقوعها وكتب ثوابها، فهي واقعة بقضاء الله وقدره الكوني المكتوب في اللوح المحفوظ كما سبق بيانه، وذلك لسابق علمه تبارك وتعالى.

رابعا: من أسباب مضاعفة الحسنات بعد تفضل الله جل في علاه أمور منها:

إذا كانت مضاعفة الحسنات محض تفضل وانعام من الله تبارك وتعالى فإنه لاستجلاب الرحمات أسباب، أولها أن يحسن إسلام العبد بتحقيق ركني الإخلاص والمتابعة ثم بالاجتهاد في الفرائض، ثم النوافل؛ فقد قال الله تعالى في الحديث القدسي « ... وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ... » (صحيح البخاري). فالعمل الواجب أفضل من التطوع.

وكذلك بتحري أماكن المضاعفة إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» (متفق عليه).

وبه تقصد هذه المساجد بالزيارة والصلاة ثم يأتي سبب مضاعفة العمل باعتبار الزمان والتعرض لنفحات الدهر و ما توافرت فيه أدلة الشرع ومن ذلك ما كان في العشر الأوائل من ذي الحجة التي أهلت علينا بخيرها وبركتها و قول النبي صلى الله عليه وسلم فيها «مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ قَالُوا: وَلاَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: وَلاَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» هذا وفيها يوم تكرم الله فيه على عباده فقال صلى الله عليه وسلم « صيام يوم عرفه أحتسب على الله أنه يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده « (رواه مسلم). فتلكم النفحات وهذه الرحمات هي نوع من مضاعفة الأعمال التي هي محض إنعام من رب الأرض والسموات.

خاتمة: لا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ:

هذا وبَعْدَ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ التي كتبها الله على نفسه (كتب ربكم على نفسه الرحمة)، فلا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا مَنْ هَلَكَ، وَأَلْقَى بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَتَجَرَّأَ عَلَى السَّيِّئَاتِ، وَرَغِبَ عَنِ الْحَسَنَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: وَيْلٌ لِمَنْ غَلَبَ وُحْدَانُهُ عَشَرَاتِهِ، وَرَوَى الْكَلْبِيُّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، مَرْفُوعًا: «هَلَكَ مَنْ غَلَبَ وَاحِدُهُ عَشَرًا »(وينظر جامع العلوم والحكم).

وبعد ذلك، هلا استثمرنا مواسم الطاعات لاستجلاب الرحمات ومضاعفة الحسنات وغفران السيئات؟!

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



عام جديد ودعوة التوحيد

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد: يحل بنا عام جديد والليوم منه على العمل شهيد، ينادي: اغتنمني فإني إلى يوم القيامة لا أعود، وبداية الطريق وأول النجاح وسبيل السعادة هو تحقيق التوحيد الذي هو حق الله العبيد، وهو حاكم لكل معتقدات العبد وتصرفاته، ومنه أن تؤمن أن الله علام الغيوب، مطلع على سرائر القلوب، بصير بسرائر النيات وخفاء الطويات الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل وخلص عن شوائب الرياء والشركيات، ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري رحمه الله بسنده في كتاب الرقاق.

نص الحديث:

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ به، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ".

أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧) من طريقين عن سلمة بن كهيل، والسنن الكبرى للنسائي قوله: (والذين هم يراءون) سنن ابن ماجه برقم (٤٢٠٧).

شرح الحديث:

قوله- صلى الله عليه وسلم-: "من سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ به": "سَمَّعَ" بتشديد الميم، ومعناه: أظْهَرَ عَمَلَهُ للنَّاس رِيَاءً." سَمَّعَ اللهُ به" أي: فضَحه يومَ القيامة. والسمعة تكون في القول كما في (كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (٦٠٧/٣). وقال ابن حجر: وقال ابن عبد السلام: السمعة أن يخفي عمله ثم يحدث به الناس... وقال الخطابي: المعنى مَنْ عمل عملاً على غير إخلاص، يريد أن يراه الناس ويسمعوه جوزيَ على ذلك بأن يُشهِّر الله به ويفضحه ويُظهر ما كان يُبطنه، وقيل: مَنْ قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس ولم يرد به وجه الله فإنَّ الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم ولا ثواب له في الآخرة.

وقيل: المراد: مَنْ قصد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليُعَظِّموه وتعلو منزلته عندهم، حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاؤه على عمله، ولا يُثاب عليه في الآخرة.

وقيل: المعنى: مَنْ سَمَّع بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عيوبه وسمَّعَه المكروه. وقيل معنى سمَّع الله به شهره أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه في الدنيا أو في القيامة بما ينطوي عليه من خبث السريرة. فتح الباري(١١/٣٤٤-٣٤٥). (راجع: شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٦).

وفي تعليقه على الحديث ضمن شرحه لرياض الصالحين يقول الشيخ ابن عثيمين شرح رياض الصالحين (٦/٣٥١): "يعني من قال قولاً يتعبد به الله ورفع صوته بذلك حتى يسمعه الناس ويقولون فلان كثير الذكر كثير القراءة، وما أشبه ذلك فإن هذا قد سمع عباد الله يرائي بذلك نسأل الله العافية.

سمع الله به: أي فضحه وكشف أمره وبين عيبه للناس وتبين لهم أنه مُراءٍ، والحديث لم يقيد هل هو في الدنيا أو في الآخرة فيمكن أن يسمع الله به في الدنيا فيكشف عيبه عند الناس ويمكن أن يكون ذلك في الآخرة وهو أشد والعياذ بالله وأخزى كما قال الله تعالى: (وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ) (فصلت: ١٦).

وكذلك من راءى راءى الله به، يعني من عمل عملاً ليراه الناس ويمدحوه عليه فإن الله تعالى يرائي به ويبين عيبه للناس ويفضحه، والعياذ بالله، حتى يتبين أنه يرائي، وفي هذا الحديث التحذير الشديد من الرياء، وأن المرائي مهما كان ومهما اختفى لابد أن يتبين والعياذ بالله لأن الله

Upload by: altawhedmag.com

تعالى تكفل بهذا.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: "وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ":

الرياء في اللغة مأخوذ من مادة رأى التي تدل - كما يقول ابن فارس في مقاييس اللغة (٢/٤٧٢-٤٧٣)- على نظر وابصار بعين أو بصيرة،... وهو أن يفعل شيئاً ليراه الناس.

وفي الاصطلاح: إرادة العامل بعبادته غير وجه الله تعالى، كأن يقصد اطلاع الناس على عبادته وكماله، فيحصل له منهم نحو مال أو جاه أو ثناء. (كما في الزواجر عن اقتراف الكبائر:١/٤٣)، وينظر: فتح الباري(١١/٣٤٤).

وعليه فإن المعنى العام للحديث: من أظهر عمله للناس سماعًا أو رؤية رغبة في مدحهم عاقبه الله بنقيض قصده وفضحه من جنس ما عمل سماعًا أو رؤية.

مما يستفاد من الحديث:

أولاً: منافاة الرياء لكمال التوحيد:

لا شك أنه منافٍ لكمال التوحيد لذا فإن أضرّ شيء على العبد، أن يعمل عملاً، أو يقول قولاً، لا يريد به وجه الله، وكما أفاد بعض الصالحين يصف ذلك: «قول جميل ظاهره، قبيح باطنه، يسرّ غير ما يعلن، ويظهر خلاف ما يبطن، يسبح ويهلل، ويقرأ القرآن، يخطب ويعلم ويقوم الليل والناس نيام، وقلبه في الحقيقة مقفول، وبغير الله مشغول، فحسبه من الخير ثناء الناس عليه، واستمالة قلوبهم إليه، إذا قرأ جوَّد، وإذا وعظ بكى، وإذا خطب أو درس لم يلحن، وجاء بالعجب العجاب، فكان بذلك كالخادع المكار المزور الغرار، يقول بفيه ما ليس في قلبه، ويراني الناس بما يعمله لربه".

وبهذا الحديث وأمثاله يحذرنا النبي -صلى الله عليه وسلم- من الرياء والسمعة وأن يعمل المسلم عملاً يبتغي به الشهرة وثناء الناس عليه وربما إذا خلا بنفسه ارتكب العظائم، واقترف الجرائم وحاله كما قال الله: « وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا » النساء:١٤٢-١٤٣.

أو كما قال تعالى: « وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا » النساء:٣٨.

والآيات في مثل هذا لا يحصيها المقال وكذلك الأحاديث بخلاف حديث ابن عباس الذي بين أيدينا، وكذلك حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- "أن رجلاً أعرابياً أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله" متفق عليه.

ثانيًا: أن الرياء شهوة خفية:

ومن شديد خطره أنه شهوة خفية يتسلل إلى النفس من حيث لا يشعر صاحبه كما أفاد بعض السلف: «ولأن الرياء شهوة خفية فقد يعجز عن الوقوف على غوائله العلماء فضلاً عن عامة العباد والأتقياء، وانما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها، وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير واظهار العمل والعلم فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة، وتوصلت إلى اطلاع الخلق، ولم تقنع باطلاع الخالق وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في التقريظ والإطراء ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام، وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركة دعائه وحرصوا على اتباع رأيه، وفاتحوه بالخدمة والسلام وأكرموه في المحافل غاية الإكرام وسامحوه في البيع والمعاملات وقدموه في المجالس، وآثروه بالمطاعم والملابس وتصاغروا له متواضعين، وانقادوا له في أغراضه موقرين وهو يرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتصنعاً للخلق وفرحاً بما نالت من المنزلة والوقار وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين، وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ومهواة لا يرقى منها إلا

Upload by: altawhedmag.com

المقربون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة.

ثالثًا: حكم الرياء

والرياء شرك أصغر وذكره الذهبي ضمن الكبائر، وذكر أدلة ذلك من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، وعده ابن حجر الهيتمي الكبيرة الثانية بعد الشرك بالله، وقال: شهد بتحريمه الكتاب والسنة وانعقد عليه إجماع الأمة، ومن ثم كان الرياء من كبائر الكبائر المهلكة ولذلك سماه الرسول-صلى الله عليه وسلم-: "الشرك الأصغر" كما في صحيح الجامع (١٥٥٥)، وينظر: الزواجر (٤٤/٢)، الكبائر (ص١٥٤).

رابعًا: أقبح الرياء:

هذا وإن كان الرياء يقع أحيانًا بأعمال ليست من جملة الطاعات كالرياء بخفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ليُستَدلَّ بذلك عَلَى أَنَّهُ مُوَاظِبٌ عَلَى الصَّوْم وأن وقار الشرع هو الذي خفض من صوته أو ضعف الجوع هو الذي ضعف من قوته أو بإظهار النُّحُول وَالصَّفَار ليُوهمَ بذلك شدَّةَ الاجْتِهَاد وَعِظَمَ الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة ومنه الرياء بالهيئة والزي.

فإن أقبح أنواع الرياء ما تعلق بأصل الإيمان وهو شأن المنافقين، يلي ذلك المراءاة بأصول العبادات الواجبة، كأن يعتاد تركها في الخلوة، ويفعلها في الملأ خوف المذمة، وهذا يؤدي إلى أعلى أنواع المقت، يلي ذلك المراءاة بالنوافل التي يفعلها المرائي باعتياد أمام الناس ويرغب عنها في الخلوة، ويلي ذلك في القبح المراءاة بأوصاف العبادات كتحسنها وإظهار الخشوع فيها في الملأ والاقتصار في الخلوة على أدنى درجاته. راجع: الزواجر لابن حجر (٤٣/١-٤٦).

معالجة الرياء:

لا يستطيع أحد أن يقمع الرياء إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات، ويكون ذلك بتذكره تعرض المرائي للمقت عند الله يوم القيامة وخيبته- في أحوج أوقاته-إلى أعماله، وعندئذ تثور عنده كراهة للرياء تقابل تلك الشهوة؛ إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم، الشهوة تدعوه إلى القبول والكراهة تدعوه إلى الإباء والنفس تطاوع -لا محالة- أقواهما، ويتضح من ذلك أنه لا بد في رد الرياء الذي خطر أثناء العبادة من المعرفة والكراهة والإباء.

ومن الناحية العملية فإن دفع الرياء يستلزم من المرء أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله ولا تنازعه نفسه بطلب علم غيره الله به، وهذا وإن كان يشق في البداية إلا أنه يهون بالصبر عليه وبتواصل ألطاف الله -عز وجل- وما يمد به عباده من التأييد والتشديد. (ينظر الزواجر لابن حجر(٤٧/١)، و الفوائد لابن القيم (٢٢٦)، نضرة النعيم (٤٥٦٧/١٠).

ومن معالجته الاطلاع على أقوال السلف في ذلك:

قال الفضيل بن عياض: أدركنا أناسًا يراءون بما يعملون فصاروا الآن يراءون بما لا يعملون.

- أعربنا في القول.. وأخللنا في العمل.. حتى أصبح إخلاصنا يحتاج إلى إخلاص..

- قال أبو عثمان المغربي: الإخلاص.. نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.

- قيل في تعريف الإخلاص: أن تكون حركة العبد في سرّه وعلانيته لله تعالى، لا يمازجه شيء، لا نفس ولا هوى ولا دنيا.

- متى صحّ منك الود فالكل هيّن... وكل الذي فوق التراب تراب

- قيل لأحد السلف: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟

قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس، وطلب الدنيا، ورضا الخلق.

- قالت رقية العابدة: تفقّهوا في مذاهب الإخلاص.

- كان أيوب السختياني يقوم الليل كله فيخفي ذلك، فإذا كان الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة.

- كان ابن أبي ليلى إذا دخل أحد وهو يصلي اضطجع على فراشه.

- عن محمد بن إسحاق: كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به في الليل.

Upload by: altawhedmag.com

- وعن ابن عائشة قال: سمعت أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين.

- قالت سرّية الربيع بن خثيم: كانت أعمال الربيع سرًا، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف.. فيغطيه بثوبه.

- قال سفيان الثوري: البكاء عشرة أجزاء، تسعة لغير الله وواحد لله فإذا جاء الذي لله في السنة مرة فهو كثير.

- من شدة إخلاصهم رحمهم الله تعالى -

- كان أحد السلف إذا وعظ وتأثر.. خاف من الرياء فيمسح وجهه ويقول: ما أشد الزكام!!.

- قال ابن الجوزي: كان ابن سيرين يتحدث بالنهار ويضحك، فإذا جاء الليل فكأنما قتل أهل القرية.

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا
الليل هزتني إليك المضاجع

- قال الحسن البصري: إن كان الرجل ليجلس بالمجلس فتجيئه عبرته فيردّها، فإذا خشي أن تسبقه قام.

- عن عاصم قال: كان أبو وائل إذا صلى في بيته ينشج نشيجاً.. ولو جُعلت له الدنيا على أن يفعله وأحد يراه ما فعله.

- يقول محمد بن واسع: لقد أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته في وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته.. ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جنبه.

- وقال أيضا: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته لا تعلم.

- قال الشافعي: وددت أن الخلق تعلموا هذا- يقصد علمه- على أن لا ينسب إليّ حرف منه.

- قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله أحد أحب الشهرة.

- قال عبد الله بن داود: كانوا يستحبّون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح، لا تعلم به زوجته ولا غيرها.

- كان إبراهيم النخعي: لا يجلس إلى السارية في المسجد.. توقياً للشهرة.

- اشتهر إبراهيم بن أدهم ببلد فقيل: هو في البستان الفلاني فدخل الناس يطوفون ويقولون: أين إبراهيم بن أدهم.. فجعل يطوف معهم ويقول: أين إبراهيم بن أدهم؟!.

- كان ابن محيريز يقول: اللهم إني أسألك ذكراً خاملاً.

- دخل ابن محيريز حانوتاً وهو يريد أن يشتري ثوباً.. فقال رجل لصاحب الحانوت: هذا ابن محيريز فأحسن بيعه.. فغضب ابن محيريز وخرج وقال: إنما نشتري بأموالنا لسنا نشتري بديننا.

وَقَالَ الضحاك: لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ هَذَا لِوَجْهِ اللَّهِ وَلِوَجْهِكَ وَلاَ يَقُولَنَّ هَذَا لِلَّهِ وَلِلرَّحِمِ فَإِنَّ اللَّهَ تعالى لا شريك له.

وضرب عمر رجلاً بالدرة ثم قال له اقتص مني فقال لا بل أدعها لله ولك. فقال له عمر: ما صنعت شيئاً إما أن تدعها لي فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده. فقال: ودعتها لله وحده. فقال: فنعم إذن.

وقال الحسن: لقد صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى في الطريق، فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة.

ويقال: إن المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا مرائي! يا غادر! يا خاسر! يا فاجر! اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا.

وقال الحسن رضي الله عنه المرائي يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه.

وقال قتادة: إذا راءى العبد يقول الله تعالى: انظروا إلى عبدي يستهزئ بي.

وقال مالك بن دينار الفراء: ثلاثة قراء الرحمن، وقراء الدنيا، وقراء الملوك، وأن محمد بن واسع من قراء الرحمن.

وقال محمد بن المبارك الصوري: أظهر السمت بالليل فإنه أشرف من سمتك بالنهار لأن السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين. (ينظر: نزهة الفضلاء(١/٣٥٧)، ملتقى أهل الحديث- ٥ (٢١/٧١)، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١٠/٤٥٦٥).

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

لمثل هذا فليعمل العاملون

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الْحَمد لله الَّذي أذلّ بالْمَوْت رقَاب الْجَبابرَة، وكسر بصدمته ظُهُور الأكاسرة، وقصر ببغتته آمال القياصرة، فعلق بذلك أمل العبد على أخراه.

وَمن صفا مَعَ اللَّه صافاه، وَمن أوى إِلَى اللَّه آواه، وَمن فوَّض أمْرَه إِلَى اللَّه كفاهُ، وَمن بَاعَ نَفسه من اللَّه اشْتَرَاهُ بأن له الْجنَّة، تلكم من اللَّه وعظ صَادق وعهد سَابق، وَمن أوفى بعهده من اللَّه، فلاَ يزَال الْعَبْد خَائفًا على نَفسه حَتَّى يدْخلهُ اللَّه حماه ويبشره بحبه لقياه وبعد:

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

التخريج:

رواه البخاري عن الصحابة الأجلاء: عبادة بن الصامت وأبي موسى الأشعري وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم جميعًا، والتي بين أيدينا هي رواية عبادة بن الصامت رواها البخاري عنه في: كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦٥٠٧).

ورواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (رقم ٢٦٨٣ - ٢٦٨٤).

ورواه النسائي في الصغرى كتاب الجنائز باب: فيمن أحب لقاء الله (١٨٣٠)، وفي الكبرى في الرقائق من حديث أبي هريرة.

ورواه الترمذي في أبواب الجنائز باب فيمن أحب لقاء الله (١٠٤٨).

ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٩٨).

المعنى العام:

قضى الله عز وجل على خلقه بالموت كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠)، وجعل الله عز وجل هذا الموت بوابة خروج من سجن الدنيا وضيقها إلى سعة الآخرة ونعيمها؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم



Upload by: altawhedmag.com

كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر".

وقضى الله عز وجل على المحتضر الذي حضره أجله فشخص بصره وحشرج صدره واقشعر جلده، قضى الله عليه أن يرى مقعده من الجنة- رزقنا الله وإياكم- أو مقعده من النار- أعاذنا الله وإياكم- لكنه قد ختم على لسانه فلا ينطق، فإن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم يراها في انتظاره كما قال صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة: "الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحا قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيبة، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فما يزال يقال لها ذلك حتى تخرج)، فإن وجد هذه البشارات أحب لقاء الله وتمنى على من حوله- وإن كان لا ينطق- أن يسرعوا به إلى قبره إذ قد أحب الله لقاه فبشره بقبر فسيح؛ روضة من رياض الجنة وحاله كما قال صلى الله عليه وسلم عندما خُيِّر وهو على فراش الموت بين الدنيا والآخرة فاختار لقاء الله فقال: "بل الرفيق الأعلى". (كما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها).

وأما إن كان من الضالين ممن قضى الله أن يبشر بالحميم فإنه إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله فكره الله لقاءه ولهذا جاء في حديث المحتضر أن نفس الكافر إذا بُشرت بالغضب والسخط تفرقت في جسده وأبت أن تخرج كما في حديث البراء في مسند أحمد: "ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول.. الحديث"، وكما قال تعالى «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ» (الأنعام: ٩٣).

فالذي على هذه الحال يكره لقاء الله وقد كره الله لقاءه وأعد له جزاء ما قدمت يداه، بل يطلب الرجوع إلى الدنيا مرة أخرى ليصلح ما كان أفسد إذ يقول كما قال الله: «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ» (المؤمنون: ٩٩- ١٠٠).

ولقاء الله يكون بعد الموت وليس هو الموت الذي يكرهه الجميع جبلة، وهو الجواب على تعجب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كما في الحديث: "قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ".

مما يستفاد من الحديث مختصرا:

الأول: فيه أن كراهية العبد للموت حال حياته التي يرجى فيها التوبة والإحسان أمر مشروع، ولا يتنافى مع حبه للقاء الله والذي يكون حال الاحتضار.

الثاني: فيه بيان البشارة العظيمة الحقيقية للمؤمن عند احتضاره ومفارقته للدنيا بالنعيم الخالد في الجنة.

الثالث: فيه أن البشارة المعتبرة إنما تكون عند الاحتضار، لا في حياة الإنسان، إلا من ثبتت بشارته بالوحي.

الرابع: فيه أن الدنيا سجن للمؤمن، وجنة للكافر كما صح بذلك الحديث الشريف، وذلك بما أعد الله للمؤمن من نعيم وبما ينتظر الكافر من عذاب إذ جنة الإنسان هي مكان متعته.

الخامس فيه توضيح معنى (لقاء الله) بالنسبة للمؤمن والكافر، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

السادس: بدأ الله بأهل الخير في الذكر لشرفهم، وإن كان أهل الشرّ أكثر لقوله تعالى: «وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» (يوسف: ١٠٣).

السابع: وفيه أن المجازاة من جنس العمل؛ فإنه قابل المحبة بالمحبة والكراهة بالكراهة.

الثامن: وفيه أن المؤمنين والكافرين يلقون ربهم في الآخرة ثم تكون الرؤية الخاصة التي هي نعيم وإكرام في الجنة للمؤمنين فقط. (ينظر: "فتح الباري" (ج١١ ص٣٥٨-٣٦٠)، ((الدرر واللآلي بشرح صحيح البخاري للشيخ محمد علي الصابوني، ص٤٧٣).

وفيه غير ما تقدم: متى يكون الخوف ومتى يكون الرجاء، والفرق بين الغرور وحسن الظن بالله وهو ما نتمنى على الله تمامه في الحلقة القادمة إن شاء الله فضلاً عن مناسبة الحديث في الدفاع عن السنة في كيفية الجمع بين ما ظاهره التعارض من الأحاديث، والرد على المغرضين، ثم الختام بفهم السلف لمثل هذا الحديث وإذعانهم مع السنة ولقاء الله تعالى ورؤيته.

وفي هذا القدر كفاية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

لمثل هذا فليعمل العاملون

الحلقة الثانية

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

استكمالاً لما سبق الشروع في بيانه من التذكير بوقت الاحتضار والقدوم على الملك الجبار، وما ينبغي للعبد من الاستعداد والتوبة وحسن الرجوع والأوبة ليوم اللقاء والمثوبة أو اللقاء والعقوبة أعاذنا الله وإياكم من بوار السلع وسوء اللقاء.

ولا تزال الصحبة في ذلك مع حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه في البخاري وغيره من كتب السنن مما سبق بيان تخريجه في حلقتنا السابقة.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

مما يستفاد من الحديث غير ما سبق بيانه

أولاً: لقاء الله ورؤيته:

الكلام في اللقاء والرؤية من مسائل اعتقاد أهل السنة التي تحدو الأرواح إلى بلاد الأفراح، وفي تقريره لذلك يقول شيخ الاسلام ابن قيم الجوزية في كتابه الماتع (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٢٨٥»: "هذا الباب أشرف أبواب الكتاب، وأجلها قدرًا، وأعلاها خطرًا، وأقرها عينًا لأهل السنة والجماعة، وأشدها على أهل البدعة والضلالة، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا نالها أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم وحرمانه، والحجاب عنه لأهل الجحيم أشد عليهم من عذاب الحميم، اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون، وأنكرها أهل البدع المارقون والجهمية المتهوكون والفرعونية المعطلون والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون ومن حبل الله منقطعون، وعلى مسبة أصحاب رسول الله عاكفون، وللسنة وأهلها محاربون، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون» انتهى.

ولهذه الأهمية أفاض رحمه الله في تقرير عقيدة السلف في هذا، فخط على ما يزيد على الخمسين صفحة، وانتهى إلى أن اللقاء يقتضي الرؤية بعد المسير موافقًا في ذلك شيخه ابن تيمية حين قرر ذلك في مجموع الفتاوى (٣٤٢/٦) كما نقل إجماع أهل اللغة على أن اللقاء المعاينة بالأبصار ثم قال في نفس المصدر مقررًا ما دل عليه: «قد دل القرآن والسنة المتواترة وإجماع الصحابة وأئمة الإسلام وأهل الحديث عصابة الإسلام ونُزل الإيمان وخاصة رسول الله على أن الله سبحانه وتعالى يُرى يوم القيامة بالأبصار عيانا كما يرى القمر ليلة البدر صحوًا، وكما تُرى الشمس في الظهيرة».

والله تبارك وتعالى يلقاه المؤمنون والكفار: وفي تقريره لذلك في (مجموع الفتاوى ٤٦٦/٦) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وظاهر الأدلة يدل على أن الكفار يلقون ربهم ويرونه يوم القيامة، كما هو قول طائفة من السلف".

فقد أخبر القرآن أنه يلقاه الكفار ويلقاه المؤمنون، كما قال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا» (الانشقاق:٦-١٢).

وقد تنازع الناس في الكفار: هل يرون ربهم مرة ثم يحتجب عنهم، أم لا يرونه بحال، تمسكاً بظاهر قوله: «كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ» (المطففين:١٥)،

Upload by: altawhedmag.com

ولأن الرؤية أعظم الكرامة والنعيم، والكفار ليس لهم حظ في ذلك.

فقالت طوائف من أهل الحديث والتصوف: بل يرونه ثم يحتجب، كما دل على ذلك الأحاديث الصحيحة التي في الصحيح وغيره، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما مع موافقة ظاهر القرآن، قالوا: وقوله: «لَمَحْجُوبُون» يشعر بأنهم عاينوا ثم حجبوا، ودليل ذلك قوله: «إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ»، فعلم أن الحجب كان يومئذ. فيشعر بأنه يختص بذلك اليوم، وذلك إنما هو في الحجب بعد الرؤية، فأما المنع الدائم من الرؤية فلا يزال في الدنيا والآخرة، قالوا: ورؤية الكفار ليست كرامة ولا نعيماً؛ إذ اللقاء ينقسم إلى لقاء على وجه الإكرام، ولقاء على وجه العذاب، فهكذا الرؤية التي يتضمنها اللقاء.

ومما احتجوا به ما رواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال " قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال هل تُضارُّون في رؤية الشمس ليست في سَحَابة؟ قالوا: لا قال: والذي نفسي بيده، لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما،...الحديث".

وهذا الحديث معناه في الصحيحين وغيرهما من وجوه متعددة، يصدق بعضها بعضاً، وفيه أنه سئل عن الرؤية فأجاب بثبوتها، ثم أتبع ذلك بتفسيره وذكر أنه يلقاه العبد، والمنافق، وأنه يخاطبهم.

ولقاء الله لا يكون إلا بعد الموت خلافاً لمن ابتدع غير هذا، فلا يكون قبل يوم القيامة وكذلك رؤيته سبحانه خلافاً لمن ابتدع في ذلك فأثبت الرؤية في الدنيا أو أنكرها في الآخرة، يقول ابن القيم رحمه الله في حادي الأرواح) (ص: ٣٤٢): "والمنحرفون في باب رؤية الرب تبارك وتعالى نوعان؛ أحدهما من يزعم أنه يُرَى في الدنيا، ويُحاضر ويُسامر، والثاني من يزعم أنه لا يُرى في الآخرة البتة ولا يُكلم عباده وما أخبر الله به ورسوله وأجمع عليه الصحابة والأئمة يكذب الفريقين" انتهى.

وإن كانت الأدلة الوافرة قد قررت لقاء الله بعد الموت فإن نفيه قبل الموت صح الدليل فيه في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة مرفوعا في حديث طويل وفيه ".. واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا."

ثانيا: وكما أن اللقاء بعد الموت فليس هو الموت:

فقد أخرج مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيّ من طريق شُرَيْح بن هانئ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ (فَذكر أَصْل الْحَدِيث) قَالَ: فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ سَمِعْتُ حَدِيثًا إِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ هَلَكْنَا فَذَكَرَهُ، قَالَ: وَلَيْسَ مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَتْ لَيْسَ بِالَّذِي تَذْهَبُ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ إِذَا شَخَصَ الْبَصَرُ... أَيْ فَتَحَ الْمُحْتَضَرُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، فَلَمْ يَطْرِفْ وَحَشْرَجَ الصَّدْرُ... أَيْ تَرَدَّدَتِ الرُّوحُ فِي الصَّدْرِ وَاقْشَعَرَّ الْجِلْدُ وَتَشَنَّجَتْ... أَيْ تَقَبَّضَتْ وَهَذِهِ الأُمُورُ هِيَ حَالَةُ الْمُحْتَضَرِ، وَكَأَنَّ عَائِشَةَ أَخَذَتْهُ مِنْ مَعْنَى الْخَبَرِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْهَا سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ مَرْفُوعًا وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ أَيْضًا عَنْ شُرَيْحِ بن هَانِيء عَنْ عَائِشَةَ مِثْلَ رِوَايَتِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَادَ فِي آخِرِهِ: وَالْمَوْتُ دُونَ لِقَاءِ اللَّهِ، وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ مِنْ كَلاَمِ عَائِشَةَ فِيمَا يَظْهَرُ لِي (أي: لابن حجر) ذَكَرَتْهَا اسْتِنْبَاطًا مِمَّا تَقَدَّمَ... قَالَ الْخَطَّابِيُّ تَضَمَّنَ حَدِيثُ الْبَابِ مِنَ التَّفْسِيرِ مَا فِيهِ غُنْيَةٌ عَنْ غَيْرِهِ. (ينظر: فتح الباري: ١١/٣٥٩).

ثالثا: ولا تتعارض محبة لقاء الله مع حديث النهي عن تمني الموت:

إذ إن كراهة الموت لذاته أمر جبليّ؛ كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (كلنا يكره الموت)، ولكن البحث والجواب على ما سبق في كراهة الموت لما بعده وحال الإنسان في هذا ينقسم إلى حالين:

الأول: لحظة الاحتضار والنزع؛ إذ لا مزيد في الإحسان، وهنا يكون تمني الموت محمودًا، وكراهته مذمومة ليس لذات الموت، وإنما لما بعد الموت من محبة لقاء الله، وهو المراد بحب المؤمن للقاء الله. قَالَ النَّوَوِيّ: "المحبة والْكَرَاهَة الْمُعْتَبرَة هِيَ الَّتِي تكون عِنْد النزع فِي حَالَة لَا تقبل التَّوْبَة، فحينئذ يكْشف لكل إِنْسَان مَا هُوَ صائر إِلَيْهِ، فَأهل السَّعَادَة يحبون الْمَوْت ولقاء الله لينتقلوا إِلَى مَا أعد الله لَهُم. وَيُحب الله لقاءهم ليجزل لَهُم الْعَطاء والكرامة، وَأهل الشقاوة يكرهونه لما علمُوا من سوء مَا ينتقلون إِلَيْهِ وَيكرهُ الله لقاءهم أي: يبعدهم عَن رَحمته وَلَا يُرِيد لَهُم الْخَيْر" انتهى.

الثاني: حال حياته الدنيا المستمرة ويرجى منه العمل ومزيد الإحسان وهنا يكون تمني الموت مذمومًا ومنهيًا عنه كما في الحديث: "لا يتمنين أحدكم الموت؛ فإن كان محسناً فلعله يزداد، وإن

Upload by: altawhedmag.com

كان مسيئاً فلعله يُستعتب" أي: يتوب، ويصلح حاله. (ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١١٥٧/٣)، (عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٩٣/٢٣»، (شرح النووي على مسلم (٩/١٧)، (فتح الباري لابن حجر (٣٥٨/١١»، (شرح رياض الصالحين (٦٦٢/٦».

وفي الجمع بين الحديثين حديث النهي عن تمني الموت وحديث الحث على محبة لقاء الله، وشرح العلماء لهما، ودفع ما يوهم التعارض بينهما لهو رد على غير الفاهمين للسنة النبوية، وتذكير بالتوبة لمن تسرب الإنكار إلى قلبه والبحث في هذا الباب (أي باب مختلف الحديث وكذلك مشكله) من الأهمية بمكان؛ إذ هو دفاع عن السنة ضد من طرح شبهاته لرد السنة من هذا الباب، فقيض الله لدينه من العلماء الربانيين من يدحضون شبه هؤلاء فامتلأت أرحام المكتبات بمؤلفات لم تترك لأمثال هؤلاء سبيلاً، ومن ذلك: (كتاب اختلاف الحديث للإمام الشافعي (٢٠٤هـ)، ويعتبر هذا الكتاب أول مؤلَّف في هذا الفن، تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (٢٧٦هـ، ومما يحذر منه (مشكل الحديث وبيانه: لمحمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني (٤٠٦هـ)، والخاص بأحاديث العقيدة المتعلقة بالأسماء والصفات، فأورد جملةً منها زاعماً أن ظاهرها يوهم التشبيه والتجسيم، ثم ذهب يؤولها ويصرفها عن ظاهرها المراد منها، بما يتوافق مع مذهبه الأشعري، ويبوب في الغالب (ذكر خبر مما يقتضي التأويل ويوهم ظاهره التشبيه).

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

عبادة الأوفياء بين الخوف والرجاء

الحلقة الثالثة

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

أيها الأحباب، تصاحبنا في حلقتين خلتا مع حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ إذ ذكرنا بالحقيقة الغائبة، وما ينبغي تجاهها من حُسن المسير إليه؛ رجاء أن ننعم بيُمن القدوم عليه، فنفوز بذلكم الموعود على لسان سيد كل مولود صلى الله عليه وسلم، وتكلمنا في شرح الحديث، ومعناه، وبعض ما يُستفاد من مبناه.

ولا تزال الصحبة في لقاء ثالث أخير مع حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه في البخاري وغيره من كتب السنن.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

رواه البخاري (٦٥٠٧)، ورواه مسلم (رقم ٢٦٨٣- ٢٦٨٤).

وفيما يستفاد من الحديث غير ما سبق بيانه:

إن كان قد تقرر لدينا أن الكلام في اللقاء والرؤية من مسائل اعتقاد أهل السنة، وأن الله تبارك وتعالى يلقاه المؤمنون والكفار، وأن لقاء الله لا يكون إلا بعد الموت خلافًا لمن ابتدع غير هذا، وأن اللقاء ليس هو الموت، ولا تتعارض محبة لقاء الله مع حديث النهي عن تمني الموت، ولا مَعَ كراهية الموت التي تقع من كل إنسان.

إن كان قد تقرر كل ذلك؛ فإن من أهم ما يُستفاد من الحديث أن عبودية العبد تقتضي العيش بين مقام الخوف ومقام الرجاء محمولين على منزلة المحبة.

وقد ذكر الله- تعالى- الخوف مقرونًا بالرجاء في كتابه الكريم في مواضع كثيرة:

مخبرًا عن نفسه تعالى ذكره: «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (المائدة: ٩٨).

أو آمرا نبيه صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى: «نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ» (الحجر: ٤٩، ٥٠).

أو مادحاً من فعل ذلك من عباده المؤمنين كقوله تعالى ذكره «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» (الزمر: ٩).

وفي السنة كثير؛ منه حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه-: أن النبي- صلى الله عليه وسلم- دخل على شابٍّ وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟» قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن؛ إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف»؛ «صحيح الترغيب والترهيب" (٣٣٨٣)

وحديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي- صلى الله عليه وسلم-: «يقول الله- عز وجل-: وعزتي، لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إذا أمنني في الدنيا، أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا، أمنته يوم

Upload by: altawhedmag.com

القيامة»؛ صحَّحه الألباني.

هذا وقد استقام فهم الربانيين على هذا سلفًا وخلفًا؛ فنجد شيخ المحدثين البخاري الإمام رحمه الله يعقد في صحيحه بابًا بعنوان «باب الرجاء مع الخوف»، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرحه: قوله: «باب الرجاء مع الخوف» أي: استحباب ذلك، فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف، ولا في الخوف عن الرجاء، لئلا يفضي في الأول إلى المكر، وفي الثاني إلى القنوط، وكل منهما مذموم. (فتح الباري ١١/٣٠١).

وفي ربطه بين الخوف والرجاء يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في شرح الطحاوية، ت الأرناءوط (٢/٤٥٦) بعدما قرر ما سبق من عقيدة السلف قال: «فَالرَّجَاءُ يَسْتَلْزِمُ الْخَوْفَ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ لَكَانَ أَمْنًا، وَالْخَوْفُ يَسْتَلْزِمُ الرَّجَاءَ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ لَكَانَ قُنُوطًا وَيَأْسًا. وَكُلُّ أَحَدٍ إِذَا خِفْتَهُ هَرَبْتَ مِنْهُ، إِلاَّ اللهَ تَعَالَى، فَإِنَّكَ إِذَا خِفْتَهُ هَرَبْتَ إِلَيْهِ، فَالْخَائِفُ هَارِبٌ مِنْ رَبِّهِ إِلَى رَبِّهِ» انتهى، وغيره في كتاب الله وسنة نبيه وآثار السلف الكثير، والحمد لله.

وهذان المقامان- الخوف والرجاء- يحتاجان إلى المحبة إذ هي خلة عامة، وصفة لازمة لتحقيق عبودية العبد تجاه خالقه ومولاه فلا يحيا قلبه إلا بها، ولا تستقيم عقائده وجوارحه إلا في وجودها.

لذا قال طبيب القلوب شيخ الإسلام ابن القيم: في «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/٥١٣):

«القَلْبُ في سَيْرِه إلى الله عزَّ وجلَّ بمنْزلة الطَّائر، فالمحبَّةُ رَأسُهُ، والخَوْفُ والرَّجَاءُ جَنَاحَاهُ، فمَتَى سَلِمَ الرَّأسُ والجَنَاحَان فالطَّائرُ جَيِّدُ الطَّيَرَان، ومَتَى قُطِعَ الرَّأسُ مَاتَ الطَّائرُ، ومَتَى فُقِدَ الجَنَاحَانِ فهُوَ عُرْضَةٌ لكُلِّ صَائدٍ وكَاسِرٍ».

ونقلَ رحمهُ الله عن غيْرِهِ: أكْمَلُ الأحْوَالِ: اعْتِدَالُ الرَّجَاءِ والخَوْفِ، وغَلَبَةُ الحُبِّ، فالمحبَّةُ هيَ المَرْكَبُ، والرَّجَاءُ حَادٍ، والخَوْفُ سَائِقٌ، واللهُ المُوصِلُ بمَنِّهِ وكَرَمِهِ».

وهذه الثلاث- المحبة مع الخوف والرجاء- جعلها العلماء مناطًا للعبادة التي خلق الله لها الخلق، وأخذ بها عليهم الميثاق، أرسل بها رسله وأنزل كتبه، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار، والتي هي اسم جامع لكل ما يحب ويرضى».

إذ مناط العبادة غاية الحب مع غاية الذل، ولا تنفع عبادة بواحد من هذين دون الآخر؛ ولذا قال من قال من السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد. (ينظر: (معارج القبول (٢/٤٣٧) «شرح الطحاوية ت الأرناءوط (٢/٤٥٨)، مجموع الفتاوى «١٠/١٤٩»).

وقد اختلفت عبارات العلماء في تعريف الخوف والرجاء والمحبة ومن أظهره:

أن الخوف غمٌّ يلحق النفس؛ لتوقُّع مكروه وهو من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد، كما قال الله تعالى «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» (آل عمران: ١٧٥)، ومنزلة الخوف ليست قاصرة على المذنبين ففي الترمذي «عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَوْلُ اللهِ «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» (المؤمنون: ٦٠) أَهُوَ الَّذِي يَزْنِي، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَيَسْرِقُ؟ قَالَ: لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ» قَالَ الْحَسَنُ: عَمِلُوا وَاللهِ بِالطَّاعَاتِ، وَاجْتَهَدُوا فِيهَا، وَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَخَشْيَةً، وَالْمُنَافِقَ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا (صحيح سنن الترمذي، ٣/٢٨٧) (ينظر: المدارج (١/٥٠٧)

والرجاء هو حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب- وهو الله والدار الآخرة- وهو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى. والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. (وتفصيل ذلك في «مدارج السالكين» (١/٥٠٧-٥١٣).

أما المحبة فهي (كما عرفها في المدارج (٣/٨):

Upload by: altawhedmag.com

„الْمَنْزِلَةُ الَّتِي فِيهَا تَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ، وهى روح الإيمان وَالأعْمَال، وَالْمَقَامَاتُ وَالأحْوَال الَّتِي مَتَى خَلَتْ مِنْهَا فَهِيَ كَالْجَسَدِ الَّذِي لاَ رُوحَ فِيهِ وقد كثر في شأن هذه المنزلة- المحبة- المدعون فقضى الله على عباده واختبرهم بإقامة البينة على دعواهم بقوله: « قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » (آل عمران: ٣١) فكانت البينة التي عليهم (الاتباع) ولا تقبل الدعوى بغير بينة".

مفاهيم ينبغي أن توضح:

١- الخوف خوفان: محمود ومذموم:

المحمود: خوف يدل على تقوى الله، بالحرص على الطاعات، واجتناب المحرمات، والإكثار من نوافل العبادات، والإحسان إلى البريات، ومقامه في الحياة الدنيا المستمرة حال الصحة والعافية

والمذموم: هو خوف يقود إلى اليأس والفرق من العذاب، بلا أثر ينفع فهو من مداخل الشيطان لتقنيط الإنسان من رحمة الرحمن لينقطع عن الطاعة ولا شك أنه مذموم. فتأمل أخي الحبيب؟

٢- الرجاء وحسن الظن يختلف عن التمني والغرور:

„إذ التَّمَنِّي يَكُونُ مَعَ الْكَسَلِ. وَلاَ يَسْلُكُ بِصَاحِبِهِ طَرِيقَ الْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ والرَّجَاءُ „ يَكُونُ مَعَ بَذْلِ الْجُهْدِ وَحُسْنِ التَّوَكُّلِ.

فَالأوَّلُ كَحَالِ مَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ أَرْضٌ يَبْذُرُهَا وَيَأْخُذُ زَرْعَهَا.

وَالثَّانِي كَحَالِ مَنْ يَشُقُّ أَرْضَهُ وَيَفْلَحُهَا وَيَبْذُرُهَا. وَيَرْجُو طُلُوعَ الزَّرْعِ.

وَلِهَذَا أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ عَلَى أَنَّ الرَّجَاءَ لاَ يَصِحُّ إِلاَّ مَعَ الْعَمَلِ. „ مدارج السالكين (٢/٣٧).

وفي تأكيد الفرق بين حسن الظن والغرور، يقول الحافظ في الفتح: „المقصود من الرجاء أَنَّ مَن وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجيا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا غرور، وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل. ومن علامة الشقاء: أن تعصي وترجو أن تنجو". " فتح الباري" (١١/٣٠١، وينظر مثله في شرح النووي على مسلم. (١٧/٢١٠).

وفي تقريره لذلك يقول ابن القيم رحمه الله في „الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي „ (ص/٢٤): „ وقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساعده وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور „ انتهى.

وفي مناقشة ابن القيّم للمتمادين في عصيانهم ؛ اتكالاً على نصوص الرَّجاء وسعة مغفرة الله، ورحمته، وعفوه، وجوده، وأنَّ رحمَتَه سبقت غضبَه، وسردهم في ذلك ما يحفظون من الأدلة التي تدخلهم الجنة بغير حساب، يقول ابن القيم: „الأمْرُ هَكَذَا، وَاللهِ فَوْقَ ذَلِكَ وَأَجَلُّ وَأَكْرَمُ وَأَجْوَدُ وَأَرْحَمُ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَضَعُ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ اللاَّئِقِ بِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْحِكْمَةِ، وَالْعِزَّةِ وَالانْتِقَامِ، وَشِدَّةِ الْبَطْشِ، وَعُقُوبَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ، فَلَوْ كَانَ مُعَوَّلُ حُسْنِ الظَّنِّ عَلَى مُجَرَّدِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ لاشْتَرَكَ فِي ذَلِكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَوَلِيُّهُ وَعَدُوُّهُ، فَمَا يَنْفَعُ الْمُجْرِمَ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ وَقَدْ بَاءَ بِسُخْطِهِ وَغَضَبِهِ، وَتَعَرَّضَ لِلَعْنَتِهِ، وَوَقَعَ فِي مَحَارِمِهِ، وَانْتَهَكَ حُرُمَاتِهِ، بَلْ حُسْنُ الظَّنِّ يَنْفَعُ مَنْ تَابَ وَنَدِمَ وَأَقْلَعَ، وَبَدَّلَ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ، وَاسْتَقْبَلَ بَقِيَّةَ عُمُرِهِ بِالْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ، ثُمَّ أَحْسَنَ الظَّنَّ، فَهَذَا هُوَ حَسَنُ ظَنٍّ، وَالأوَّلُ غُرُورٌ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ". اهـ. (الجواب الكافي ص ٢٧).

وحدُّ الاعتدال في ذلك أن تغلب جانبَ الخوف عند الحاجة إليه، وتغلب جانب الرَّجاء عند الحاجة إليه، فالمرءُ عند كثرة العصيان مع شدَّة الخوف يحتاج إلى تغليب الرَّجاء على الخوف، أمَّا العصيان مع الأمْن، فصاحبه بحاجة إلى تغليب جانب الخوف على جانب الرَّجاء، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

الرشوة بين تغيير المسميات وتدمير المجتمعات

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

عن أبي حُميد الساعدي قال: استعمَل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني أسد يُقال له: ابن اللُّتْبِيَّة- قال عمرو وابن أبي عمر: على الصدقة- فلمَّا قَدِم، قال: هذا لكم، وهذا أُهْدِي لي، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فحَمِد الله وأثْنَى عليه، ثم قال: «ما بال العامل نَبعثه فيأتي، فيقول: هذا لك وهذا لي، فهلاَّ جلَس في بيت أبيه وأمِّه، فينظر أيُهْدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأتي بشيء إلاَّ جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيرًا له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تَيْعَر»، ثم رفَع يديه؛ حتى رأَيْنا عُفْرَتَي إبطَيه: «ألا هل بلَّغْت؟!» ثلاثًا.

تخريج الحديث:

أخرجه البخاري (٣/٤٢٨/١٥٠٠)، ولفظه: «رجلاً من الأسْد»، وفيه أيضًا: «فلمَّا جاء، حاسَبه»، وفي (١٣/١٧٥/٧١٧٤) باللفظ المذكور أعلاه، ومسلم (٦/١١)، وفيه: «رجلاً من الأسد»، وأبو داود (٢٩٤٦)، كلُّهم من طُرق عن ابن عُيينة، وشُعيب، ومَعْمَر عن الزُّهْري عن عُروة عن أبي حُميد الساعدي- رضي الله عنه.

المعنى العام للحديث

في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وظَّف رجلاً (صحابيًّا) من بني أسد وهم بطن من بطون الأزد يجمع صدقات بني سليم اسمه عبدالله كما قال بعض الشراح، وينسب إلى أمه وهي من قبيلة لتيب، وعرف الحديث عند المحدثين منسوبًا إليه بحديث ابن اللتبية.

ولما قدم أرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من يحاسبه فأعطاهم ما جمعه من الصدقات، لكنه أخبرهم أنه قد أهدي إليه معللاً ذلك أن الذي احتفظ به ليس من الصدقات، وإنما هو هدية أُهديت إليه من هؤلاء القوم الذين ذهب للجمع منهم، فلما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا، أنكره، وقام في الناس يعلمهم أن هذه الهدايا إنما جاءت إليه بسبب وظيفته وأنها سُحت ثم حذَّر عليه الصلاة والسلام من مثل هذا، مشددًا على أن الذي يأخذه يأتي بما أخذ يحمله يوم القيامة على رقبته ليعاقب ويفضح به، وزيادة في الفضيحة ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثلة لمن أخذ بعيرًا يأتي يحمل البعير، وهو يصدر رغاء (صوت البعير)، ولمن أخذ بقرة تصدر خوارًا ولمن أخذ شاة تيعر وهو صوتها، ثم رفع صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء رفعًا شديدًا مناجيًا ربه حتى رئي أسفل إبطيه وهو يقول «اللهم هل بلغت؟» (ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢٤/٢٥٢، وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ١٠/٢٤٤).

مما يستفاد من الحديث

أولاً: حرمة هدايا العمال وأنها نوع من أنواع الرشوة:

فإن الحديث وإن كان رواه البخاري في كتاب الأحكام باب: هدايا العمال وفي كتاب الهبة

Upload by: altawhedmag.com

وفضلها والتحريض عليها، باب من لم يقبل الهدية لعلة، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب تحريم هدايا العمال، إلا أن العلماء يستدلون به على تحريم الرشا، وذلك على أن هذه الهدايا للعمال تعتبر نوعًا من أنواع الرشا؛ لأنها قد تبطل حقًا أو تحق باطلاً.

وعليه فإن تغير المسمى لم يمنع الحرمة إذ «الأعمال بالنيات» كما تواتر لدى القاصي والداني، فلا يحلل الحرام ما قد يُلَبَّس به بعض المغررين في هذه الأزمنة الغابرة المتأخرة من تسمية هذه المعاملة هدية أو (محبة) أو (إكرام)، أو نحو ذلك مما يسمون، ودليل ذلك أن هذا المسئول الوالي لو ترك ولايته لما أهداه ولا أحبه ولا أكرمه الراشي بشيء، وهي آية الفصل بين الهدية والرشوة.

ويزيد الحكم وضوحًا ما قد تقرر لدى علماء الأصول من «أن العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني».

ولا شك أن هذه المعاملة هي عقد يجر نفعًا وإن لم يتلفظ طرفاه بذلك، وهذا النفع إن كان إبطالاً لحق أو إحقاقًا لباطل كان رشوة محرمة، وإن كان حقًا لا باطل فيه فلا يحتاج إلى إهداء فما فائدته إذن؟

هذا وتحريم الرشوة ثابت بالكتاب والسنة من غير ما سبق، ولا أوضح في هذا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في سنن الترمذي وغيره: «لعن الله الراشي والمرتشي»، وفي الباب عن عبد الله بن عمرو وأم المؤمنين عائشة وأم سلمة رضي الله عنهم أجمعين.

وزاد أحمد وغيره من حديث ثوبان لفظة « والرائش» وهو «الواسطة »، وهي زيادة منكرة؛ إذ إنها ثبتت من طريق ليث بن سليم، وهو ضعيف كما ذكر الألباني في الضعيفة (٣/٣٨١)، والواسطة لا شك أنها حرام بدونها إذ إنه تعاون على الإثم والعدوان المحرم إجماعًا.

ثانيًا: التفريق بين الرشوة والهدية:

لا شك أن الفرق بينهما شاسع والبون واسع إذ الأولى كبيرة من الكبائر؛ لأنها هبة يراد بها إحقاق باطل أو إبطال حق والثانية سنة يؤجر صاحبها عليها؛ إذ هي هبة لا مقابل لها، ولا دافع إلا ابتغاء الأجر، إذ قد حفز الشارع لها آمرًا كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «تهادوا تحابوا»، وقد أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٠٤)، وأصح منه في المبالغة في قبول الهدية مهما صغرت قيمتها ما رواه البخاري في كتاب النكاح باب من أجاب إلى كراع وفيه (.. ولو أهدي إلى كراع لقبلت) والكراع هو ما دون الكعب من الدابة كما شرحه الحافظ ابن حجر.

بل ومن مبالغة الشارع في أهمية الهدية أن وردت فيها من الأدلة ما يشعر بالوجوب وهو ما دعا إلى اختلاف الفقهاء في هذا الحكم، ومن ذلك ما صححه الألباني مما رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٢٨١، رقم ٣٥٥١) عن خالد بن عدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة، فليقبله ولا يرده؛ فإنما هو رزق ساقه الله إليه».

وعليه فيُسن للمسلم قبول الهدية ويحرم عليه قبول الرشوة، وإن كانت بمسميات أخرى كما في حديث الباب.

هذا، ولا يخفى من الأدلة الأخرى الواضحة الدلالة على حرمة هدايا العمال، وما قد تؤول إليه، فمن فساد ما صححه الألباني في الإرواء من حديث أبي حميد الساعدي «هدايا العمال غلول» أي خيانة.

ثالثًا: إهدار المال العام حرام:

والحديث يدل كذلك على حرمة المال العام إذ إن الأخذ لهذه الهدية المحرمة من موظفي الدولة قد قبلها وهو مكلف بعمل عام يأخذ

Upload by: altawhedmag.com

مقابله أجرًا، فقبوله للهدية لا محل له فإنه أخذها أجرًا، ثانيًا فلا يحل وإن أخذها ليسهل بها عملاً فهي الرشوة سالفة الذكر، وكلاهما خيانة للأمانة، وحرمة المال العام لا ينازع فيها مسلم عاقل؛ إذ تضافرت عليها أدلة الكتاب والسنة بما لا يترك للعاقل أن يتأول، ومن ذلك: قوله-تعالى-: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ » (الأنفال: ٢٧).

وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حقٍّ، فلهم النارُ يوم القيامة». (رواه البخاري، وغيره).

رابعًا: نماذج من فهم السلف وورعهم:

وقد فهم سلفنا الصالح هذا وتورعوا عنه وعن سُبُله جميعًا، فرفع الله بذلك قدرهم وأقام بين الأنام دولتهم، فكثرهم من قلة وأعزهم من ذلة، وليس أوضح من ذلك من رفض عبدالله بن رواحة رضي الله عنه لفتنة اليهود وتعرضهم له بالرشوة من حلي نسائهم ليميل نحوهم في القسمة إذ قد أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرص بينه وبين يهود خيبر كما في الموطأ من حديث سليمان بن يسار: أنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ إلَى خَيْبَرَ، فَيَخْرُصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُود خَيْبَرَ، قَالَ: فَجَمَعُوا لَهُ حُليًّا مِنْ حُلِيِّ نِسَائِهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا لَكَ، وَخَفِّفْ عَنَّا وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسْم. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُود، وَاللَّهِ إنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إلَيَّ، وَمَا ذَاكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، فَأَمَّا مَا عَرَضْتُمْ مِنَ الرَّشْوَةِ، فَإِنَّهَا سُحْتٌ وَإِنَّا لاَ نَأْكُلُهَا، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ «والتخريص هنا: هو تقدير المحصول.

وما أروع ما ورد عن أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين سيدنا عمر رضي الله عنه في مثل هذا مما يجعل الحليم حيران، ومنه منع عمر رضي الله عنه أهله من الاستفادة من المرافق العامة التي رصدتها الدولة لفئة من الناس، خوفاً من أن يحابي أهله به: قَالَ عَبْدُ اللَّه بْنُ عُمَرَ: اشْتَرَيْتُ إبِلاً وَأَنْجَعْتُهَا إلَى الْحِمَى، فَلَمَّا سَمِنَتْ قَدِمْتُ بِهَا، قَالَ: فَدَخَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب رَضِيَ اللَّه عَنْهُ السُّوقَ فَرَأَى إبِلاً سِمَانًا فَقَالَ: « لِمَنْ هَذه الإبِلُ؟ » قِيلَ: لِعَبْد اللَّه بْن عُمَرَ، قَالَ: فَجَعَلَ يَقُولُ: « يَا عَبْدَ اللَّه بْنَ عُمَرَ بَخٍ بَخٍ ابْنَ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: فَجِئْتُهُ أَسْعَى فَقُلْتُ: مَا لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: « مَا هَذه الإبِلُ؟ » قَالَ: قُلْتُ: إبِلٌ أَنْضَاءٌ اشْتَرَيْتُهَا وَبَعَثْتُ بِهَا إلَى الْحِمَى أَبْتَغِي مَا يَبْتَغِي الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: فَقَالَ: «ارْعَوْا إبِلَ ابْن أَمِير الْمُؤْمِنِينَ، اسْقُوا إبِلَ ابْن أَمِير الْمُؤْمِنِينَ يَا عَبْدَ اللَّه بْنَ عُمَرَ اغْدُ عَلَى رَأْسِ مَالِكَ وَاجْعَلْ بَاقِيَهُ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ» (السنن الكبرى للبيهقي: ٦/٢٤٣، ح١١٨١١).

- وغيرها كثير من ذلك ما جاء في كتاب الأموال لابن زنجويه (٢/٥٩١) عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: شَهِدْتُ جَلْوَلاَءَ، فَابْتَعْتُ مِنَ الْمَغْنَمِ بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا، فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ قَالَ لِي: لَوْ عُرِضْتَ عَلَى النَّارِ، فَقِيلَ لَكَ، افْدِه، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا؟ قُلْتُ: وَاللَّهِ، مَا مِنْ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، إلاَّ كُنْتُ مُفْتَدِيكَ مِنْهُ، فَقَالَ: كَأَنِّي شَاهِدُ النَّاسَ حِينَ تَبَايَعُوا، فَقَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَحَبُّ النَّاسِ إلَيْهِ، أَنْتَ كَذَلِكَ، فَكَانَ أَنْ يُرَخِّصُوا عَلَيْكَ بِمِائَةِ أَحَبَّ إلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُغْلُوا عَلَيْكَ بِدِرْهَمٍ، وَإِنِّي قَاسِمٌ مَسْؤُولٌ، وَأَنَا مُعْطِيكَ أَكْثَرَ مَا رَبِحَ تَاجِرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، لَكَ رِبْحُ الدِّرْهَمِ دِرْهَمًا، قَالَ: ثُمَّ دَعَا التُّجَّارَ فَابْتَاعُوهُ مِنْهُ بِأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ فَدَفَعَ إلَيَّ ثَمَانِينَ أَلْفًا وَبَعَثَ بِالْبَقِيَّةِ إلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ فَقَالَ: «اقْسِمْهُ فِي الَّذِينَ شَهِدُوا الْوَقْعَةَ، وَمَنْ كَانَ مَاتَ مِنْهُمْ فَادْفَعْهُ إلَى وَرَثَتِه» (وأصله في مصنف ابن أبي شيبة ٦/٥٥٦ ح ٣٣٧٧٩)، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

بشرى أولي الألباب بسبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (عُرضت عليَّ الأمم، فأجد النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت، فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب. قلت: ولِمَ؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون). فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم قال: (اللهم اجعله منهم). ثم قام إليه رجل آخر قال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: (سبقك بها عكاشة).

أولاً: العزو:

الحديث مروي في الكتب الستة في البخاري في أربعة مواضع:

في كتاب الرقاق في موضعين؛ باب: ومن يتوكل على الله فهو حسبه رقم (٦١٠٧) وباب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب (٦١٧٥).

وفي كتاب الطب في موضعين؛ باب: من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتوِ (٥٣٧٨)، وباب من لم يرقِ (٥٤٢٠).

وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٣٧١).

وأخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٤٦).

ثانيًا: المعنى العام:

من قصص الإسراء:

هذا الحديث هو مما وقع للنبي ليلة الإسراء كما عند الترمذي وعلى قول من ذهب إلى تعدد الإسراء والمعراج، وأنه وقع بالمدينة أيضًا غير الذي وقع بمكة؛ إذ إن الإسراء والمعراج الذي وقع بالمدينة ليس فيه ما وقع بمكة من استفتاح أبواب السماوات بابًا بابًا ولا من التقاء الأنبياء كل واحد في سماء ولا المراجعة معهم ولا المراجعة مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلوات ولا في طلب تخفيفها وسائر ما يتعلق بذلك، وإنما تكررت قضايا كثيرة سوى ذلك رآها النبي صلى الله عليه وسلم؛ فمنها ما وقع بمكة، ومنها بالمدينة بعد الهجرة، ومعظمها في المنام، والله أعلم.

أمة الإسلام بالنسبة للأمم:

الأنبياء يتفاوتون في عدد أتباعهم؛ إذ قال: (فأجد النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير قال: هؤلاء أمتك).

والسواد هو الشخص الذي يُرى من بعيد،

Upload by: altawhedmag.com

وصفه بالكثير إشارة إلى أن المراد بلفظ الجنس لا الواحد، فهم عدد كثير من الناس يُرى من بعيد كأنه سواد، فتمنى النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون أمته. فقيل: هذا موسى في قومه، ثم بشَّره الله بقوله: (ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير قال: هؤلاء أمتك).

وقد استشكل كونه -صلى الله عليه وسلم- لم يعرف أمته حتى ظن أنهم أمة موسى، وقد ثبت من حديث أبي هريرة كيف تعرف من لم تر من أمتك؟ فقال: «إنهم غُرّ محجلون من أثر الوضوء»، وأجيب بأن الأشخاص التي رآها في الأفق لا يدرك منها إلا الكثرة من غير تمييز لأعيانهم، وأما ما في حديث أبي هريرة فمحمول على ما إذا قربوا منه.

بشرى لأمة الإسلام:

واذ بالبشرى من الله (وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب).

فسأل النبي صلى الله عليه وسلم (ولِمَ؟) وفي رواية «ثم نهض - أي: النبي صلى الله عليه وسلم- فدخل منزله فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فأجابهم النبي عن صفات هؤلاء بقوله: (كانوا لا يكتوون ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون) هذه من صفاتهم مع تقواهم لله وايمانهم بالله واستقامتهم على دينه، فهم مع هذا (لا يسترقون) لا يسألون الناس أن يرقوهم، (ولا يتطيرون) لا يتشاءمون، (ولا يكتوون) لا يتعالجون بالكي وعلى ربهم يتوكلون. (ينظر: الفتح لابن حجر (١٠/١٥٥)، (١٠/١٩٥)، (١١/٣٠٥)، (١١/٤٠٦)، (١١/٤١٣).

رابعا: مما يستفاد من الحديث غير ما سبق:

١- الفرق بين المسترقي والراقي:

(لا يسترقون) أي لا يطلبون من غيرهم أن يرقيهم. هكذا ثبت في «الصحيحين» وفي رواية لمسلم زيادة: «ولا يرقون».

قال شيخ الإسلام: هذه الزيادة وهم من الراوي، لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: لا يرقون، لأن الراقي محسن إلى أخيه. وقد قال صلى الله عليه وسلم - وقد سئل عن الرقى - قال: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»، وقال: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا». قال: وأيضا فقد «رقى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم»، «ورقى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه».

قال: والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مستعطٍ ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن. قال: وانما المراد وصف السبعين ألفًا بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم، وأن هذا لا ينافي أصل توكلهم. (المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية: ١/١٨).

فيستبعد أن يكون من صفات السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب أنهم لا يرقون!

وقال: العلة أن الراقي يحسن إلى الذي يُرقى، فكيف يخرج من السبعين ألفاً وهو محسن؟!

والله يقول: «مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ» (التوبة:٩١)، وقال جل وعلا: «هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ» (الرحمن:٦٠).

هذا، وعلة عدم الاسترقاء قد تكون:

أولاً: لقوة اعتمادهم على الله عز وجل لا يطلبون من أحد رقيةً؛ لأنهم يعتمدون على الله اعتماداً تاماً.

ثانياً: أو لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله، لا يريدون أن يذلوا أنفسهم لغير الله

Upload by: altawhedmag.com

ويلجأوا إلى بشر.

ثالثاً: أو لا يريدون أن يفتحوا على أنفسهم أيَّ باب تعلق بغير الله.

هذا، وإن كان جواز الاسترقاء محل خلاف بين العلماء إلا أن الحاصل أن الرقية في حد ذاتها ليست ممنوعة، بل مشروعة، فلا مانع لصاحب العقيدة الصحيحة أن يرقي ويسترقي؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اعرضوا علي رقاكم، ولا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً).

وقد وفق النووي في شرح مسلم بين من أباح الاسترقاء ومن منعه؛ فقال: (إن جبرائيل رَقَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، وَذَكَرَ الأَحَادِيثَ بَعْدَهُ في الرُّقَى، وَفي الْحَدِيث الآخَر في الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَاب لاَ يَرْقُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَدْ يظن مخالفة لهذه الأحاديث ولا مخالفة، بَل الْمَدْحُ في تَرْك الرُّقَى الْمُرَادُ بِهَا الرُّقَى الَّتِي هِيَ مِنْ كَلاَم الْكُفَّار وَالرُّقَى المجهولة، والتي بغير العربية، وما لا يُعْرَفُ مَعْنَاهَا؛ فَهَذه مَذْمُومَةٌ لاحْتِمَال أَنَّ مَعْنَاهَا كُفْرٌ أَوْ قَرِيبٌ منْهُ أَوْ مَكْرُوهٌ، وَأَمَّا الرقى بآيات القرآن وبالأذكار المعروفة فلا نهى فيه بَلْ هُوَ سُنَّةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ في الْجَمْع بَيْنَ الْحَديثَيْن: إِنَّ الْمَدْحَ في ترك الرقى للأفضلية، وَبَيَانَ التَّوَكُّل وَالَّذي فَعَلَ الرُّقَى وَأَذنَ فيهَا لبَيَان الْجَوَاز مَعَ أَنَّ تَرْكَهَا أَفْضَلُ، وَبِهَذَا قَالَ ابن عَبْد الْبَرّ، وَحَكَاهُ عَمَّنْ حَكَاهُ وَالْمُخْتَارُ الأَوَّلُ، وَقَدْ نَقَلُوا بالإجْمَاع عَلَى جَوَاز الرُّقَى بالآيَات وَأَذْكَار اللَّه تَعَالَى، قَالَ الْمَازِرِيُّ: جَميعُ الرُّقَى جَائزَةٌ إِذَا كَانَتْ بكتَاب اللَّه أَوْ بذكْره، وَمَنْهيٌّ عَنْهَا إِذَا كَانَتْ بِاللُّغَة الْعَجَميَّة أَوْ بما لا يُدرى مَعْنَاهُ؛ لَجَوَاز أَنْ يَكُونَ فيه كُفْرٌ، وَقَدْ ذَكَرَ مُسْلمٌ بَعْدَ هَذَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: «اعْرِضُوا عَلَى رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يَكُنْ فيهَا شَيْءٌ».

وَأَمَّا قَوْلُهُ في الرِّوَايَة الأخرى يا رسول اللَّه؛ إِنَّكَ نَهَيْتَ عَنِ الرُّقَى؟ فَأَجَابَ الْعُلَمَاءُ عنه بِأَجوبة؛ أحدها كان نهى أولاً، ثم نَسَخَ ذَلكَ، وَأَذنَ فيهَا وَفَعَلَهَا، وَاسْتَقَرَّ الشَّرْعُ عَلَى الإِذْن، وَالثَّاني أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الرُّقَى الْمَجْهُولَةَ كَمَا سَبَقَ، وَالثَّالثُ أَنَّ النَّهْيَ لقَوْم كَانُوا يَعْتَقدُونَ مَنْفَعَتَهَا وَتَأْثيرَهَا بطَبْعهَا كَمَا كَانَتِ الْجَاهليَّةُ تَزْعُمُهُ في أَشْيَاءَ كَثيرَة.

أَمَّا قَوْلُهُ في الْحَديث الآخَر: «لا رُقْيَةَ إِلاَّ منْ عَيْن أَوْ حُمَة». فَقَالَ الْعُلَمَاءُ: لَمْ يُرِدْ به حَصْرَ الرُّقْيَة الْجَائزَة فيهمَا وَمَنْعَهَا فيمَا عداهما وإنما المراد لا رقية أحق وأولى مَنْ رُقْيَة الْعَيْن وَالْحُمَة لشدَّة الضَّرَر فيهمَا) انتهى (شرح النووي: ١٤/١٦٨).

٢- (ولا يتطيرون) التطير: التشاؤم بمعلوم، إما مرئي أو مسموع أو زمان أو مكان، أصله من الطير؛ لأن العرب كانت تتشاءم بالطيور، حتى لو أراد الإنسان منهم عملاً كسفر أو بيع أو زواج ونحو ذلك؛ أمسك طيراً فأطلقها، فإن ذهبت يميناً قال: هذا خير وبركة، وأقدم عليه، وإن ذهبت شمالاً قال: هذا شؤم وشر فتركه.

٣- لا يكتوون: يقول ابن عثيمين رحمه الله: لا يكتوون، أي لا يطلبون من أحد أن يكويهم؛ لأنهم لا يريدون أن يستذلوا لأحد لا بالرقية ولا بالكي، أما (لا يكوون) فهذا لا يضر بل هذا من الإحسان، وقد كوى النبي عليه الصلاة والسلام سعد بن معاذ في أكحله، فهناك فرق بين الذي يكوي وبين الذي يكتوي، الذي يكتوي هو الذي يطلب الكي، وأما الذي يكوي فهو الذي يفعله بغيره). انتهى.

وللبحث صلة إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين

الحلقة الثانية

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد التقينا في الحلقة السابقة مع حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من رواية شيخ المحدثين الإمام البخاري وغيره من المحدثين رحمة الله على الجميع، ونصه:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (عُرضت عليَّ الأمم فأجد النبي يمر معه الأمة، النبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده؛ فنظرت فإذا سوادٌ كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير قال: هؤلاء أمتك وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب. قلت ولِمَ؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: (اللهم اجعله منهم)، ثم قام إليه رجل آخر قال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: (سبقك بها عكاشة).

وتناولنا في الشهر السابق ما تيسر من الحديث تخريجًا وشرحًا، وإشارة إلى بعض الفوائد حتى انتهينا إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «وعلى ربهم يتوكلون»، ثم ها نحن قد قدر الله لنا اللقاء للوقوف على بعض فوائد هذه العبارة النبوية الشريفة؛ إذ إن ظاهرها أنها الصفة الرابعة من صفات أولئك الأخيار المبشرين- بعد كونهم لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون-.

وقلت: ظاهرها؛ لأنه يحتمل أن تكون هذه الجملة مفسِّرة لما تقدم من ترك الاسترقاء والاكتواء والطِّيَرة، فتكون من العام بعد الخاص، أو تكون صفة مستقلة بذاتها، وعلى أية حال فقد أسهب العلماء في التذكرة بالتوكل على الله ومعناه، والصلة بينه وبين الإيمان أصله وكماله بما لا يُستغرب على المتصف به أن تكون جائزته الإكرام من الله بهذه البشرى العظيمة.

معنى التوكل:

وحقيقة التوكل كما قاله الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم تحقيق الأرناؤوط (٢/٤٩٧):

هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفع المضارّ من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه. قال سعيد بن جبير: التوكل جماع الإيمان. وقال وهب بن منبه: الغاية القصوى التوكل. قال الحسن: إن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته. وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «من سره أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله» (أخرجه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي) انتهى.

فمن أراد أن يعيش قويًا فليتوكل على القوي المتين، ومن أراد الضعف والهوان فليتوكل على مَن خلق من طين.

علاقة التوكل بالإيمان:

ومن تعريفه تتضح علاقة التوكل بالإيمان؛ فالمتوكل على الله اعتمد قلبه على الواحد الأحد في كل شيء في الدنيا والآخرة، ومن

Upload by: altawhedmag.com

هذه حاله بحق يفرد ربه بالعبادة معرفةً وإثباتًا لربوبيته وأسمائه وصفاته وقصدًا وطلبًا لألوهيته بعبادته فلا يشرك مع ربه غيره، فهو الذي تخلص له النيات والأقوال والأفعال في سائر الأحوال فلا تتوجه إلا إليه ولا يُقصد بها أحد سواه، من أجل هذا ليس عجبًا أن يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»: « قال: فجعل التوكل على الله شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، (فإن تقديم المعمول يفيد الحصر؛ أي: وعلى الله فتوكلوا لا على غيره)، وكلما قوي إيمان العبد؛ كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان؛ ضعف التوكل، فإذا كان التوكل ضعيفًا؛ كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد، والله تعالى في مواضع من كتابه يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية؛ فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان لجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الرأس من الجسد؛ فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن؛ فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل » (ينظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، ص: ٤٢٨).

وعليه فالتوكل على الله من أعلى مقامات اليقين، وأشرف أحوال المقرَّبين، وهو نظام التوحيد وجماع الأمر، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، وهو مفتاح كل خير؛ لأنه أعلى مقامات التوحيد وعبادة لا تكون إلا للمعبود جل شأنه.

وفي «طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٣٣٥، ٣٣٦)، قال ابن القيم: «إن التوكل يجمع أصلين: علم القلب، وعمله، أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، وأما عمله فسُكونه إلى وكيله وطُمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمرَه إليه، ورضاه بتصرُّفه له فوق رضاه بتصرُّفه هو لنفسه».

ومن تتبع آيات الكتاب أبصَر بعين قلبه ارتباط التوكل بالإيمان فتتبعها رحمك الله، ولعل من أولها «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (المائدة: ٢٣)؛ إذ جعل التوكل شرطًا للإيمان ثم تجد من الآيات: « قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا » (الملك: ٢٩)، « إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (هود: ٥٦)، « وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ » (الفرقان: ٥٨)، وقوله تعالى: «قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ » (الرعد: ٣٠)، وقوله جل وعلا: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (آل عمران: ١٢٢).

علاقة التوكل بالقضاء والقدر:

إن القضاء والقدر والتوكل من أصول الإيمان، والقضاء والقدر أسبق وأعم من التوكل، والتوكل داخل في الإرادة الشرعية والقضاء والقدر داخل في الإرادة الكونية.

ولا يحصل التوكل حتى نؤمن بالقضاء والقدر، لذا تجد من الآيات التي تعلمنا الإيمان بالقضاء والقدر ذيلها رب العزة بالتوكل عليه كما قال تعالى: « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (التوبة: ٥١).

عوائق التوكل:

ولما كان التوكل من الإيمان فإن عوائق التوكل هي عوائق الإيمان ومن ذلك إجمالاً: الجهل بمقام الله من ربوبية وألوهية، وأسماء، والركون للخلق والاعتماد عليهم في قضاء الحاجات، فإن زادت العوائق حتى لفتت قلب العبد عن المسبب إلى السبب صارت قادحة في التوكل كقدحها في الإيمان، ومن ذلك تعلق القلب بغير الله تعالى.

وعلى ما سبق بيانه فتحقيق التوكل يكون

Upload by: altawhedmag.com

بتحقيق الإيمان.

بشرى المتوكلين:

والمتوكلون على الله وعدهم الله ببشريات تجدها في كتاب الله كثيرة فتتبعها رحمك الله منها: الكفاية من الله: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ» (الطلاق: ٣).

والمحبة كما في قوله تعالى: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ» (آل عمران: ١٥٩).

وجوائز أخرى كقوله تعالى: «وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (الشورى: ٣٦).

وقوله تعالى «نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (العنكبوت: ٥٨- ٥٩)، ثم بشارة النصر والتمكين قال تعالى: «إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ» (آل عمران: ١٦٠).

ثم هو من أهم أسباب الرزق التي تشغل كثيرًا من الناس، فعن عمر- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو أنكم توكلون على الله حقَّ توكله، لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا وتروح بطانًا» (أخرجه الترمذي والحاكم وصحَّحه، ووافقه الذهبي وغيرهم).

فكل الخيرات والعواقب الحسنة قد جمعها الله تعالى لهم.. وحسبك الكفاية من الله بعد تحقيق الإيمان.

فهم السلف:

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال له الناس: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، وقوله: «ونعم الوكيل»؛ أي: نعم الموكول إليه؛ كما قال تعالى: «وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ» (الحج: ٧٨).

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «هو حسب من توكَّل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن الخائف، ويُجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به، وتوكَّل عليه، وانقطع بكُليَّته إليه، تولاه وحفظه، وحرسه وصانه، ومن خافه واتَّقاه، أمَّنه مما يخاف ويَحذَر، وجلَب إليه ما يحتاج إليه من المنافع».

وقال رحمه الله: «ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوِّه، ولا يضره إلا بأذًى لا بد منه- كالحر والبرد، والجوع والعطش- وأما أن يضرَّه بما يبلغ به مراده، فلا يكون أبدًا، فلو توكَّل العبد على الله حقَّ توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن، لجعَل الله له مخرجًا، وكفاه رزقه ونصره». (تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، ص: ٤٣٣).

وقد دق توكُّل السلف على ربهم في أمور حياتية عجيبة، ومنه أن عامل إفريقية كتب إلى عمر بن عبد العزيز يشكو إليه الهوام (دواب الأرض المؤذية)- والعقارب، فكتب إليه: وما على أحدكم إذا أمسى وأصبح أن يقول: «وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ» (إبراهيم: ١٢)، قال أبو زُرعة: وهي تنفع من البراغيث. (التوكل على الله عز وجل لابن أبي الدنيا: ٢/٢١٩).

مراتب التوكل:

والمتوكلون على الله على مراتب؛ فمنهم الزاهدون الصابرون، ومنهم الراضون الصادقون، ومنهم المحبون لقضاء ربهم؛ كما قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/٥٠٩): (قال ابن أبي الدنيا: بلغني عن بعض الحكماء قال: التوكل على ثلاث درجات: أولها: ترك الشكاية، والثانية: الرضا، والثالثة: المحبة، فترك الشكاية درجة الصبر، والرضا سكون القلب بما قسَم الله له، وهي أرفع من الأولى، والمحبة أن يكون حبُّه لما يصنع الله به، فالأولى للزاهدين، والثانية للصادقين، والثالثة للمرسلين. انتهى.

وفي هذا القدر الكفاية، وللبحث صلة إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

الاستعداد لرمضان بين التوكل والأخذ بالأسباب

الحلقة الثالثة

اعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

في شهر شعبان، وفي انتظار سيد الشهور في الدهور، ونفحة لله عظمى في أيام الدهر، وكان هدي السلف في ذلك أنهم يسألون ربهم بلوغه قبله بشهور، ثم يستعدون لذلك بكل نفيس من أعمارهم وأعمالهم وأموالهم عبادة لربهم، ونحن بصدد استكمالنا لشرح حديث سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما نجيب عن العلاقة بين الأخذ بالأسباب في الاستعداد للشهر وبين التوكل على الله في تحصيل التقوى فيه.

الحديث من رواية شيخ المحدثين الإمام البخاري وغيره من المحدثين رحمة الله على الجميع عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (عُرضت عليَّ الأمم، فأجد النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت، فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب. قلت: ولِمَ؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون). فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم قال: (اللهم اجعله منهم). ثم قام إليه رجل آخر قال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: (سبقك بها عكاشة). واستكمالاً لبعض فوائد الحديث نقول وبالله تعالى التوفيق:

العلاقة بين التوكل والأخذ بالأسباب:

إن التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب، كما أن الأسباب لا يرتكن إليها بغير توكل عليه سبحانه، وفي بيانه للعلاقة بين التوكل والأخذ بالأسباب يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري(٤٠٩/١١):... قال جمهور علمائنا إن التوكل يحصل بأن يثق بوعد الله، ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح، وإغلاق الباب، ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعًا ولا تدفع ضرًا، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى، والكل بمشيئته فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح في توكله.. وقال أبو القاسم القشيري: التوكل محله القلب، وأما الحركة الظاهرة فلا تنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من قبل الله، فإن تيسر شيء فبتيسيره وإن تعسر فبتقديره. (وينظر كذلك جامع العلوم والحكم١/٤٩).

موقف الناس من الأسباب:

هذا وإن كانت هذه هي علاقة التوكل بالأسباب؛ فإن مواقف الناس من الأسباب على أقسام؛ منها: فريق يلتفت إلى الأسباب بالكلية، ويعتمد قلبه عليها من غير نظر لمسبباتها. وهذا شرك يبطله الكتاب والسنة والاجماع، إذ إن الأسباب قد تتخلف عن مسبباتها بإذن الله كما يشهد لذلك الحس.

وفريق آخر يناقضه: إذ ينفي تأثير الأسباب بالكلية (فلا يعتقد في تأثيره أصلاً)؛ وقد وصف العلماء هذا القول بأنه (نقص في العقل،

Upload by: altawhedmag.com

وهذا فاسد مخالف للكتاب والسنة والإجماع.

وفريق ثالث: يعرض عن الأسباب مع علمه بتأثيرها، ومثالهم غلاة الصوفية لزعمهم التوكل، وهذا قدح في الشرع: فهم لا يرون تحقيق التوكل إلا في ترك الأسباب بالكلية، فتركوا التكسب والعمل، ولهم في ذلك شبه واهية أجاب عنها العلماء في مظانها (الاكتساب في الرزق المستطاب لمحمد بن الحسن الشيباني، والحث على التجارة والصناعة والعمل للخلال، ولغيرهم من علماء السلف كثير، والحمد لله).

وفريق الحق هو ما قام علي قولهم الدليل وهو اعتقاد أهل السنة الوسط وهو: قيام الجوارح بالأسباب، واعتماد القلب على الله سبحانه وتعالى، وهو الحق الذي دل عليه الشرع والعقل، فأثبت للأسباب تأثيرًا، لكن ليس بذاتها، بل بما أودعه الله فيها من القوى الموجبة، وهي تحت مشيئته وقدرته، فإن شاء منع اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لأحكامها.

وفي بيانه لهذه العلاقة بين الأَسْبَاب وَالْمُسَبَّبَات في كتابه مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١١٩/٢) يقول شيخ الإسلام ابن القيم: "فَاعْلَمْ أَنَّ نُفَاةَ الأَسْبَابِ لاَ يَسْتَقِيمُ لَهُمْ تَوَكُّلٌ أَلْبَتَّةَ؛ لأَنَّ التَّوَكُّلَ مِنْ أَقْوَى الأَسْبَابِ في حُصُولِ الْمُتَوَكَّلِ فيه، وَقَضَى اللهُ بِحُصُولِ الشيء إِذَا فَعَلَ الْعَبْدُ سَبَبَهُ. فَإِذَا لَمْ يَأْتِ بِالسَّبَبِ امْتَنَعَ الْمُسَبَّبُ. وَهَذَا كَمَا قَضَى بِحُصُولِ الْوَلَدِ إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ.. فَإِذَا لَمْ يُجَامِعْ لَمْ يُخْلَقِ الْوَلَدُ. وَقَضَى بِحُصُولِ الشِّبَعِ إِذَا أَكَلَ، وَالرِّيِّ إِذَا شَرِبَ. فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ لَمْ يَشْبَعْ وَلَمْ يَرْوَ.. فَالتَّوَكُّلُ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْمَطْلُوبُ، وَيَنْدَفِعُ بِهَا الْمَكْرُوهُ. فَمَنْ أَنْكَرَ الأَسْبَابَ لَمْ يَسْتَقِمْ مِنْهُ التَّوَكُّلُ. وَلَكِنَّ مِنْ تَمَامِ التَّوَكُّلِ عَدَمَ الرُّكُونِ إِلَى الأَسْبَابِ، وَقَطْعَ عَلاَقَةِ الْقَلْبِ بِهَا؛ فَيَكُونُ حَالُ قَلْبِهِ قِيَامَهُ بِاللهِ لاَ بِهَا. وَحَالُ بَدَنِهِ قِيَامَهُ بِهَا). انتهى.

وآيات الكتاب في ربط التوكل بالأسباب وفيرة والحمد لله منها: قال تعالى: «وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ» (يوسف: ٦٧)، وقال تعالى: «هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ» (الملك: ١٥) وقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ» (النساء: ٧١)، «وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» (الأنفال: ٦٠).

ومن السنة: حديث الناقة المشهور عن أنس- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- على ناقة له، فقال: يا رسول الله، أدَعها وأتوكل؟ فقال: اعْقلها وتوكل. (رواه الترمذي وغيره).

لذا لا يختلط الاتكال أو التواكل الممنوع مع التوكل المشروع؛ إذ إن التواكل ترك للكسب، وانقطاع عن السعي ثم انتظار النتائج من الخلق أو القدر، وهذا السلوك خسَّة همَّة، وعدم مُروءة؛ لأنه إبطال حكمة الله التي أحكمها في الدنيا من ترتّب المسببات على الأسباب، وهو محرم إذ يصطدم مع النقل والعقل".

طائفة عاصرتها ممن فهموا التوكل خطأ:

وهم طائفة من الغالين ممن ضلوا الطريق إذ مخالفة الهدي النبوي كله شر، وهي طائفة تسمى الفرماوية نسبة لرجل يسمى الفرماوي، وهؤلاء قد اعتمدوا هذا السلوك الغالي مذهبًا، بل طعنوا في إيمان من أخذ بالسبب، وقد عجبت من تناقض هؤلاء مع أنفسهم؛ إذ إنهم مع ذمهم للعامل المتكسب المتسنن ومدحهم للمتواكل القعيد المبتدع يأكل الأخير من كسب الأول، وهكذا يصطدم حالهم مع مقالهم؛ إذ إن مقالهم مخالف للفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومخالف لهدي نبيهم صلى الله عليه وسلم لأصغر بصير بالسيرة؛ ألم يكن المهاجرون أهل تجارة والأنصار أهل زراعة في مجملهم؟ أليس هذا عمل؟ ألم يثبت بالقرآن أن الأنبياء أهل عمل يتكسبون منه؟ فلو انتظر الأولياء مائدة عيسى التي انتظرها أمثال هؤلاء لكان النبي ومن قبله الأنبياء

Upload by: altawhedmag.com

وخلفهم الأصحاب هم أحق الناس بذلك، ولهم بعد ذلك حكايات مضحكات لا مجال لها الآن.

صور من الهدي في التوكل واتخاذ الأسباب كثيرة منها:

• ترتيبات رسول الله- صلى الله عليه وسلم- للهجرة للمدينة من استئجار دليل مُشرك؛ ليدله على طريق الهجرة للمدينة، واختبائه بالغار وغيره، ومع هذا يكلل ذلك بدستور التوكل من سيد المتوكلين لأمته: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟"

• موقفه في غزوة بدر الكبرى. حتى إن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد أخذ بكل ما في وُسْعه من أسباب؛ كترتيب للجيش، وتعبئة للجند، واستكشاف للعدو. يعلمنا من الأسباب (أن النصر مع الصبر). لكنه من قبل ذلك ومن بعد يُحسن اللجوءَ إلى ربه، والتوكل عليه، فيعلمنا من التوكل (وما النصر إلا من عند الله)، قال في الفتح ٤٦/٨: "قال تقي الدين السبكي: "سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي صلى الله عليه وسلم، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش؛ رعاية لصورة الأسباب وسُنَّتها التي أجراها الله في عباده، والله تعالى هو فاعل الجميع".

استقبال رمضان ومظان التوكل:

هذا وإن كان التوكل بهذه المنزلة من الإيمان والأسباب فكانت مظان التوكل في كل شيء ليس فقط في جلْب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية؛ كالرزق والزواج، والذرية والعافية، والانتصار على العدو، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية ليس هذا فحسب، بل أهم منه التوكل على الله في شئون الآخرة، فيتوكل العبد على ربه في استقامة نفسه وإصلاحها من دفع الآثام والفواحش وفعل الطاعات والقربات، وكذلك في إقامة دين الله في الأرض ونصره، وإزالة الضلال عن عبيده، وهدايتهم، والسعي في مصالحهم، ودفْع فساد المفسدين، ورفْعه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من شعب الإيمان.

ثم ها نحن ذا في استقبال شهر رمضان، فهل يتوكل العبد على مولاه في تحصيل جميع ما سبق من شعب الإيمان، ثم هو يأخذ من الأسباب ما يقتضيه هذا التوكل، فتكتمل العلاقة بين السبب والمسبب التي يتم بها توكله على الله، ومن ذلك:

- الدعاء وخيره المأثور منه (اللهم بلغنا رمضان).

- ثم استحضار النية في الإكثار من الطاعات على الجملة؛ إذ (الأعمال بالنيات) فإن قضى العبد قضى وقد نال البشارة من الله كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في الحديث القدسي (إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة).

وأول نية تستحضر وعبادة تستقبل عبادة التوبة إلى الله فتكون صاحبة القسط الأوفر والمقام الأعلى، فندعو ربنا أن يوفقنا إليها ويعيننا عليها، ثم بعد ذلك نية الجد والاجتهاد في العبادة والسداد وفق الكتاب والسنة، ولا بأس أن يصحب ذلك تدريب عملي من صيام وقيام واجتهاد في تلاوة قرآن بتدبر وخشوع، ثم التدريب على الاجتهاد في صلة الأرحام والصدقة، ولين الكلام، والدعوة إلى الله.

ويعين على هذا القراءة والاطلاع على بعض الكتب الرمضانية أو المشاهدة والاستماع إلى مثل ذلك مما امتلأت به المساجد والمكتبات، ثم تعويد اللسان على العمل الجاد من ذكر واستغفار وتلاوة، ودعاء ودعوة وبيان، فتلك جارحة لا يمكن تركها إذ علق الله عز وجل بها أكبر عبادة فقال: (ولذكر الله أكبر).

والله تعالى نسأله أن يبلغنا رمضان، وأن يرزقنا فيه التوبة والإحسان، وأن يمنَّ علينا فيه بكرمه بالعتق من النيران، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



رمضان والسُّنة هَوِيَّة تجمع الأمة

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

لما كان شهر رمضان مناسبة زمنية تعود فيها الأمة على الجملة إلى ربها؛ إذ فرض الله علينا فيه ركن الصيام ثم جعله لعباده نفحة من نفحات الله إذ فيه تفتح أبواب الجنان وتغلق فيه أبواب النيران، وتسلسل فيه الشياطين، وينادي منادٍ كل ليلة: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ثم هو سبب من أسباب تكفير الذنوب إذا اجتُنبت الكبائر كما أنه تتضاعف فيه الأجور من الرب الرحيم الغفور؛ فالعمرة فيه تعدل حجة.

وكذلك من أهم خصائصه قيام لياليه؛ إذ وعد الله المسلمين بغفران الذنوب لمن قامها إيمانًا واحتسابًا، وفيها يجتمع الناس على قارئ بأجسادهم بل وبقلوبهم، ثم كان من خصائصه كذلك الاعتكاف في أخراه؛ إذ الأعمال بالخواتيم.

وهو شهر الجود والقرآن تدبرًا وفهمًا تعلمًا وتعليمًا، وجميع ذلك سنن أثبتت بوحي نبوي وعمل مصطفوي والحمد لله على إحسانه.

فرصة التغيير لواقع لا ينكر:

ومع انتظار الشهر المبارك ولا يزال واقع أمتنا وقد تكالبت عليها الأمم كما تتكالب الأكلة إلى قصعتها، ولم يكن ذلك من قلة بل من كثرة صارت كغثاء السيل؛ إذ هانت على نفسها، فهانت على غيرها فلما كان الواقع كذلك كان قدوم الشهر بعباداته فرصة للتغيير لتستعيد الأمة فيه بعض عزها إذ إن طريق النجاة لأمتنا واحد لا ثاني له، وصراطها مستقيم لا يقبل الاعوجاج، طريقها هو ما كان عليه رسول الله وأصحابه. كانوا على شريعة غراء ومحجة بيضاء، لسان حالهم أنهم كما اهتموا ببناء أمة اهتموا بأبسط سنة، كما أعدوا الجيوش ليعبد الناس رب العالمين علموا أنفسهم شرائع الدين، كذلك علموا أنفسهم البشاشة واللين، إذ كله سنة نبوية بها تستنزل الرحمات وتدفع الكربات، فكل الدين الذي أتى من عند الله يأخذونه بقوة ويدعون إليه بحكمة وموعظة حسنة، القشر عندهم يحمى اللب، والمقصد من كل مرضاة الرب.

فإذا فعلت الأمة ذلك كما كان يفعل الأصحاب خرجوا من مستنقع جحر الضب الذي يقلدون فيه غير المسلمين من الشرق والغرب، وأعادوا لأنفسهم

Upload by: altawhedmag.com

الهوية التي تجمعهم على المحجة البيضاء، ونجوا من الهاوية التي تفرق بهم عن سبيل الله.

رمضان والهوية الإسلامية:

ومع عبادات الشهر وإحياء سنن خاتم المرسلين المرسل للثقلين أجمعين- إذ لا دين إلا ما دعى إليه ولا موحد إلا من آمن به وشهد له- تكون فرصتنا لإظهار هويتنا الإسلامية.

وهوية الأمة عمومًا: إخبار عن حقيقتها وصفاتها الذاتية المميزة لها (ينظر: الهوية الإسلامية للدكتور جاسم المهلهل، والعودة إلى الهوية الإسلامية لأحمد أنور، الهوية الإسلامية في زمن العولمة للدكتور خليل نوري).

وهويتنا هي الكتاب والسنة؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما؛ كتاب الله وسنة رسوله" (الصحيحة رقم ١٧٦١).

نعم إنه دين الإسلام كما قال تعالى: «دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، وأخص الدين عقيدته: وإن كان الكتاب والسنة هو هوية هذه الأمة فإن عقيدة التوحيد هي أخص خصائص الوحيين (الكتاب والسنة) فكانت بذلك هي لب وهوية أمة الإسلام.

وفي بيانه لذلك في كتاب (هويتنا أو الهاوية) يفيد أن الهوية الإسلامية في المقام الأول هي انتماء للعقيدة، فالعقيدة الإسلامية التوحيدية هي أهم الثوابت في هوية المسلم وشخصيته، وهي أشرف وأعلى وأسمى هوية يمكن أن يتصف بها إنسان، فهي انتماء إلى: أكمل دين، وأشرف كتاب نزل على أشرف رسول إلى أشرف أمة، بأشرف لغة، بسفارة أشرف الملائكة، في أشرف بقاع الأرض، في أشرف شهور السنة، في أشرف لياليه وهي ليلة القدر، بأشرف شريعة وأقوم هدي) انتهى.

وفي القرآن الكريم مدح وتعظيم لهذه الهوية قال عز وجل: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» (آل عمران ١١٠)، وقال عز وجل: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» (المائدة: ٣)، وقال تعالى: «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» (البقرة: ١٣٨)، وقال جل جلاله: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقرة: ١٤٣).

ومن مميزات الهوية الإسلامية كذلك: أنها هوية تستوعب كل مظاهر الشخصية، وتحدد لصاحبها بكل دقة ووضوح هدفه ووظيفته وغايته في الحياة، قال تعالى: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» (الأنعام: ١٦٢- ١٦٣)، وقال سبحانه: «قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (يوسف: ١٠٨).

ثم هي مصدر للعزة المفقودة والكرامة المنشودة إذ قال تعالى: «لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (الأنبياء: ١٠)، وقال سبحانه: «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (المنافقون: ٨).

وقال عمر رضي الله عنه: "إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله" (السلسلة الصحيحة ٥١).

وقفة مع القوم:

ثم من عجب بعد هذا البيان من نبينا العدنان صلى الله عليه وسلم من قوم أراد الله أن يرفع به ذكرهم ثم هم يتنكرون لهذه السنة، يعيش الواحد منهم متهوكا حيرانا تتفرق نفسه إلى أهواء شتى تتجاذبها أو تمزقها فلا تجده يومًا حامدًا لربه قريرة عينه كما قال الله فيهم: «كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ» ولم يكن ذلك إلا بتخليهم عن هويتهم الإسلامية وذوابانهم في هويات متعددة فصار مذبذبًا بين كل، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فلم يذق حلاوة الاتباع.

حوار هادئ مع المخالفين:

إننا نسأل هؤلاء المذبذبين ألم تقرأوا قول الله في سورة الكافرون: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» (الكافرون: ٦)، بل ولم تقرأوا في صلاتكم في سورة الفاتحة: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» (سورة الفاتحة: ٦- ٧)، قال تعالى على لسان المؤمنين وهم يخاطبون الكافرين: «أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ» (يونس: ٤١)، وقال سبحانه: «وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ» (البقرة: ١٣٩)، أليس هذا قرآن وأنتم مسلمون ناهيكم عن السنة الصحيحة التي نقلت لنا تحري النبي صلى الله عليه وسلم لهم في أغلب شئونهم الخاصة بهم، حتى قالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه. (مسلم ٣٠٢). فيا قومنا أجيبوا داعي الله، وقد أدركتم الشهر الكريم.

حكم الانتماء إلى الهوية الإسلامية:

لذا ومن جميع ما سبق تتحقق فرضية الانتماء إلى الهوية الإسلامية كما قال أفضل الخلق وخاتم الرسل بحق صلى الله عليه وسلم: "والذي نفس

Upload by: altawhedmag.com

محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار" (صحيح مسلم: ١٥٣)، فصار بذلك ذلك الانتماء فرض كما أفاده في كتاب (الهوية أو الهاوية): إن الانضواء تحت (الهوية الإسلامية) والاندماج فيها ليس أمراً أختيارياً، ولا مستحباً، ولكنه فرض متعين على كل بني آدم المكلفين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال عز وجل: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» (الأعراف: ١٥٨)، وقال سبحانه: «وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ» (الأنعام: ١٩)، أي: ومن بلغه القرآن (ينظر الهوية أو الهاوية للدكتور المقدم).

الهوية الإسلامية وحب الوطن:

وصاحب الهوية الإسلامية هو أولى الناس بحب وطنه إذ تأمره هويته بذلك فطرة إذ قال صلى الله عليه وسلم (ما أطيبك من بلد! وما أحبك إليَّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك، ما سكنتُ غيرك»؛ رواه الترمذي، وثبت في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في الرقية: «باسم الله، تُربةُ أرضنا، وريقةُ بعضنا، يُشفى سقيمُنا بإذن ربنا»؛ رواه البخاري ومسلم.

فجعل الشفاء في شم تراب وطنه، وقال الجاحظ: "كانت العرب إذا غزَتْ، أو سافرتْ، حملتْ معها من تربة بلدها رملاً وعفرًا تستنشقه".

التكفير والتفجير دليل على فقدان الهوية الإسلامية:

وليس خفياً على أحد أن أمتنا فقدت قدراً كبيراً من هويتها وليس أدل على ذلك مما يتنامى إلى أسماعنا من أذاه من تكفير وتفجير وتخريب وتدمير حتى اجترؤوا على مقاتلة إخوانهم والاستيلاء على نفوسهم وأموالهم وبلادهم وصاروا يقاتلون إخوانهم المؤمنين بنوع مما كانوا يقاتلون به المشركين وربما رأوا قتال المسلمين آكد، ولا عجب فهذا يزيد المؤمن إيماناً؛ إذ وصف النبي- صلى الله عليه وسلم- الخوارج حيث قال: « يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان» فهل يفعل هذا صاحب وعي عنده أدنى قدر من الانتماء فضلا عن الصورة المثلى منه والتي هي الهوية الإسلامية.

ولا عجب أيضاً أن يكونوا هؤلاء المخربين هم صناعة لأعداء أمة الإسلام ليرمونا بسهم من أنفسنا ثم هم يطعنون في إسلامنا بهم وهم قد صنعوهم بأيديهم وعلى ذلك نقول عند غياب الهوية الإسلامية - كهوية حقيقية راسخة ذات جذور - في بلد مسلم يحدث افتراغ واغتراب ينشأ عنه تحقق تلك الخطط التخريبة والناشئة المغتربة التي لا صلة لأفعالها بالدين بل هي على خلافه بشهادة النقل والعقل والتاريخ.

وهذا هو الطريق:

وبذلك جعل النبي صلى الله عليه وسلم الطريق إلى هذه الهوية بتلك السمات أن عبَّد الناس لإله واحد لا شريك له وكانت هذه أول مخالفة للمشركين أنكروها على المؤمنين إذ قالوا: (أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب)، فقد رفع راية التوحيد والربانية وأعلن العبودية لله تعالى وكان بإمكانه صلى الله عليه وسلم أن يرفع رايات أخرى لا يختلف عليها الناس، فأبطل رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بذلك تعدد الهويات وتداخل الثقافات.

والحمد لله هذه دعوتنا:

وأنصار السنة هي دعوة مباركة لم تكن يومًا دعوة حزبية ولا تفريقية ولا حتى تقسيمية، بل ولا تطلعية، فقط غايتها مرضاة رب البرية وذلك لأنها خرجت من مشكاة نبوية إذ هي دعوة قائمة على الكتاب والسنة بفهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ توحيد الله علم عليها لا تقتصر على دعاتها ولا تحصي عددًا للمنتسبين إليها؛ إذ ليس لهم سجل يسجلون فيه أنفسهم فهذا تقسيم لا يعنيهم إذ لا يترتب عليه تفرقة لأنها هي دعوة معاني همها تحقيق كلمة التوحيد وهوية الإسلام كما فعل خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام فطالما حقق صاحبها معناها فهو منها.

ثم هم مع ذلك على مسافة واحدة مع الجميع يجتهدون وسعهم أن يتخلقوا مثل نبيهم وهكذا الإسلام وهويته التي تجمع أمتنا المباركة.

نداء وخاتمة:

وفرصة الشهر المبارك الذي جعله الله سيدًا في الطاعات والتي هي مع حسن النوايا واتباع السنن من مقبول العبادات تتحقق هوية الأمة؛ لذا فإننا نتوجه بنداء ليس فقط إلى العلماء العاملين وليس فقط إلى الدعاة المربين، بل إلى الأمة بأكملها منادين أن طريق النجاة عنوانه عقيدة ننجو بها من الشرك وسنة ننجو بها من البدعة وهوية من الوحيين تجتمع عليها الأمة، وفي هذا القدر الكفاية،

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

باب السنة

ملوك الأرض أمام ملك الملوك

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله الملك الجبار، العزيز الغفار، الأوّل بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء، لا يفنى ولا يبيد، ولا يكون إلا ما يريد، لا تدركه الأبصار ولا تبلغه الأوهام، حي لا يموت، قيوم لا ينام، أنعم على عباده بتعريفهم إياه، وأفضل عليهم بتيسير كلامه لهم، ومنَّ عليهم ببعثه رسولاً من أنفسهم، صلى الله وسلم عليه كما وحد الله ودعا إليه وبعد:

روى الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضى الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟!».

التخريج:

الحديث مروي في الصحيحين وغيرهما:

رواه البخاري في: ١- كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض ت- البغا (٢٣٨٩/٥)، ٢- (كتاب التفسير-باب قوله: والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة- صحيح البخاري (١٢٦/٦)، ٣- (كتاب التوحيد، باب قول الله ملك الناس (١١٦/٩).

ورواه الإمام مسلم في (كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢١٤٨/٤)، باب في صفات المنافقين- وفي سنن ابن ماجه (باب فيما أنكرت الجهمية (٦٨/١) ١٩٢).

الشرح:

الحديث مروي في البخاري في ثلاثة كتب، ولأننا نتعرض لكتاب الرقاق بالشرح، فإننا نتعرض للفظه في كتاب الرقاق وهي الرواية المذكورة سالفًا: قَوْلُهُ بَابُ يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَشَارَ إِلَى مَا وَقَعَ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ قَبْلَ آيَةِ النَّفْخِ «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» الْآيَةَ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً».

وقوله: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه»؛ قال عياض: هذا الحديث جاء في الصحيح على ثلاثة ألفاظ: القبض والطي والأخذ، وكلها بمعنى الجمع فإن السماوات مبسوطة والأرض مدحوة ممدودة، ثم رجع ذلك إلى معنى الرفع والإزالة والتبديل، فعاد ذلك إلى ضم بعضها إلى بعض وإبادتها». ينظر: (فتح الباري لابن حجر: ٣٧٢/١١).

وهي أفعال لله عز وجل يوم القيامة يفعلها بيده، وكلتا يديه يمين، يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتاب أصول الإيمان (ت الجوابرة، ص: ٦٣): «يثبت هذا الحديث أن الله سبحانه وتعالى يقبض الأرض بإحدى يديه، وطيه السماء بالأخرى، وهما يمينان لربنا سبحانه، لا شمال له، تعالى ربنا عن صفات المخلوقين علوًا كبيرًا».

وقوله في الحديث: «أنا الملك أين ملوك الأرض»؟: سؤال ليس فيه إشكال، فلئن سأل رب العزة سبحانه «لمن الملك اليوم» فقد كان الملك لله في هذا اليوم وفي غيره، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال، وهي مسألة عقدية نجد معناها في القرآن والسنة كثيرًا للتأكيد، قال تعالى في القرآن العظيم: «يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ» (سورة غافر: ١٦).

وفي بيانه لوقت السؤال والجواب يقول في زاد المسير (٣٣/٤): «واختلفوا في وقت قوله عزّ وجلّ له على قولين: أحدهما: أنه يقوله عند

Upload by: altawhedmag.com

فَناء الخلائق إذا لم يبقَ مجيب. فيَرُدّ هو على نفسه فيقول: لله الواحد القهّار، قاله الأكثرون.
والثاني: أنه يقوله يوم القيامة. وفيمن يُجيبه حينئذ قولان: أحدهما: أنه يُجيب نفسه وقد سكت الخلائق لقوله تعالى قاله عطاء.
والثاني: أن الخلائق كلّهم يُجيبونه فيقولون: «لله الواحد القهار»، قاله ابن جريج وينظر محاسن التأويل للقاسمي (٨/٣٠٥).

هذا وقد استشكل مثل هذا السؤال عند بعض الناس إذ كيف يسأل وهو علام الغيوب؟ والحق أنه لا إشكال في ذلك وبيان ذلك من وجوه:

الأول: أنه قد قيل: إن هذا السؤال وجوابه، إنما يكون بعد بعث الخلائق وحشرهم إلى رب العالمين، وأن الخلق كلهم يجيبونه، كما سبق نقله عن ابن جريج، وحينئذ، فلا إشكال.
وقد روي هذا القول عن ابن مسعود رضي الله عنه، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/٢٨٠) إلى عبد بن حميد، وحينئذ، فالسؤال والجواب على ظاهره، وقد أجاب الخلائق ربهم عن سؤاله الثاني: أنه إذا قُدّر أن الجواب ليس من الخلائق، وإنما السائل، والمجيب: هو رب العالمين، كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إذا هلك من في السموات ومَنْ في الأرض، فلَمْ يَبْقَ إلاّ الله قال: لمن المُلْكُ اليَوْمَ، فلا يُجيبُهُ أحدٌ، فيَرُدُّ على نَفْسِه: لله الواحد القهّار»؛ فليس في ذلك إشكال أيضًا؛ فإن مقاصد السؤال البلاغية أوسع بكثير من مجرد الاستفهام عن أمر لم يكن معلومًا للسائل؛ كما في الصحيحين من حديث أبي هُرَيْرَةَ عندما يسأل الله الملائكة عن حال العباد: «كيف تركتم عبادي..» الحديث. يسألهم وهو أعلم بهم.
فليس القصد من السؤال هنا: الاستعلام عن حال العباد، كما هو مقرر معلوم، وكما في الحديث نفسه (وهو أعلم بهم)، وإنما الحكمة من ذلك: بيان شرف هؤلاء العباد، والتنويه بعظيم شأنهم، والإشادة بفضلهم عند الملائكة.
ومن مقاصد السؤال، ما قد يكون عكس ذلك، والسائل يعلم يقينًا أن المسؤول لا يجيبه. كما في صحيح مسلم (٢٨٧٣) من حديث عمر رضي الله عنه: «إنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ، بِالأَمْسِ، يَقُولُ: (هَذَا مَصْرَعُ فُلاَنٍ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللهُ)، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَؤُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَجُعِلُوا فِي بِئْرٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: (يَا فُلاَنُ بْنَ فُلاَنٍ، وَيَا فُلاَنُ بْنَ فُلاَنٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللهُ حَقًّا)، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لاَ أَرْوَاحَ فِيهَا؟ قَالَ: (مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا)».
وفي صحيح البخاري (٣٩٧٦) قَالَ قَتَادَةُ: «أَحْيَاهُمُ اللهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ، قَوْلَهُ، تَوْبِيخًا، وَتَصْغِيرًا، وَنَقِيمَةً، وَحَسْرَةً، وَنَدَمًا»، وهذا أمر شائع في لسان العرب.
ومقامنا هنا مقام إظهار كبريائه وعظمته، وأن من كان ينازعه الملك في الدنيا، بقوله ودعاواه وأكاذيبه، لا يملك -في ذلك اليوم العسير- شيئًا من أمره، ولو بمجرد القول والدعوى باللسان، ولا يقوى أن يتقدم بين يدي رب العالمين بقول، ولا فعل.
ونحو ذلك قرره العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله في التحرير والتنوير (٢٤/١١٠) وزاد: «وَيَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الاسْتِفْهَامُ كِنَايَةً عَنِ التَّشْوِيقِ إِلَى مَا يَرِدُ بَعْدَهُ مِنَ الْجَوَابِ».

مما يستفاد من الحديث:

ومما يستفاد من الحديث بخلاف ما سبق بيانه:
١- إثبات صفة القبض لله، وأن الله يقبض ويطوي، وهي من الصفات الفعلية.
٢- وفيه إثبات اسم الملك لله، قال تعالى: «وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ» (الزمر:٦٧).
٣- وفيه إثبات عظمة الرب عز وجل، وأن هذه المخلوقات العظيمة لا تساوي شيئاً بالنسبة لعظمة الله، وجاء في الحديث الآخر: (أن الله تعالى يجعل السماوات يوم القيامة على أصبع،

Upload by: altawhedmag.com

والأرضين على أصبع، والماء والثرى على أصبع، والجبال على أصبع، وسائر خلقه على أصبع، ثم يهزهن بيده، ويقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟).

وفي الحديث الآخر: (ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم)، والخردلة هي الحبة الصغيرة.

٤- ثم هو رد على من ضلَّ في باب الصفات كالجهمية، وهم طائفة من المبتدعة يخالفون أهل السنة في كثير من الأصول كمسألة الرؤية وإثبات الصفات. يُنسَبون إلى جهم بن صفوان من أهل الكوفة كما أفاده الإمام ابن ماجه من تبويبه على الحديث.

٥- ثم هو يفيد في أن الاعتقاد بما في هذا الحديث من مسائل عقدية هو من جماع توحيد الله عز وجل، كما أفاده في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/٦)(٢)؛ إذ بوب عليه قائلاً: بَابُ جُمَاعِ تَوْحِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَأَنَّهُ حَيٌّ قَادِرٌ عَالِمٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ مُتَكَلِّمٌ مُرِيدٌ بَاقٍ.

٦- ومما يستفاد من الحديث غير ما سبق أمر يستدعي التأمل؛ إذ الحديث مخرج من الإمام البخاري في كتاب التفسير؛ فهو تفسير لقول الله تبارك وتعالى في سورة الزمر «والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة»، ثم هو بعد ذلك مخرج عنده في كتاب التوحيد فهو مقرِّر لبعض المسائل العقدية، ثم هو مخرَّج أيضًا في كتاب الرقاق، وهذا معناه أن علوم الشرع جميعًا قرآنًا وسنة سواءً عقيدة وشريعة إنما هي متكاملة خادمة في آخر الأمر في ترقيق القلب وتعبيده لرب العالمين، وهو المطلب الأوحد من خلق الإنسان الذي إليه تؤول كل المطالب المشروعة.

وقفة أخيرة:

هذا وإن كانت لنا وقفة فلتكن مع اسم الله الملك؛ إذ صارت فتنة ملوك الأرض لعباد الله مرئية بين مفتتن بقوتهم فصار في جانبهم، فقبلهم بكل ما هم عليه إن بحق أو بباطل، فنسي بذلك أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وبين منتفع من صحبتهم فيراهم قد ملكوا الدنيا فسار لهم خادمًا يرجو من خدمتهم نوالاً.

والحق أن يعطى كل ذي حق حقه، فلا إفراط يرفع عبدًا عن قدره ولا تفريط لا يعطي لإنسان حقه، ومدار كل على حنيفية سمحة وشرع مرتضى من ملك الملوك.

واسم الله الملك معناه: أن الله سبحانه هو الملك، الذي له غاية الجلالة والمهابة، الذي ينفذ أمره في ملكه؛ قال الله تعالى: «هو الله الذي لا إله إلا هو الملك»، قال الله سبحانه: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء». قال أميَّة بن أبي الصلت:

لك الحمدُ والنَّعماءُ والفضْلُ ربَّنا
ولا شيْءَ أعلَى منكَ جداً وأمْجدُ
مليْكٌ على عرْشِ السَّماءِ مهيْمنٌ
لعزَّتِه تعْنُو الوجوهُ وتسْجُدُ

وإن من يتأمل خطاب القرآن - كلام الله- يجد الرب سبحانه وتعالى ملكاً له الملك كله، وله الحمد كله، أزمَّة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه..... منفرداً بالخلق والتدبير، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها وصاعدة إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

يُذكِّر عباده بفقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين ويَذكرُ غناه عنهم.. وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته.. وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم وغافر زلاتهم (ينظر: الفوائد، للإمام ابن القيم ص ٢٨).

هو الملك الحق المبين القاهر، الذي قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزته كل عزيز.

مليكٌ على عرش السماء مهيمنٌ
لعزته تعنو الوجوه وتسجد

(ينظر: الصلاة وحكم تاركها، للإمام ابن القيم ١/٢٠٤- ٢٠٧).

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

تعطير اللسان وصون الجوارح والأركان

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن وراد كاتب المغيرة بن شعبة أن معاوية كتب إلى المغيرة أن اكتب إليَّ بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فكتب إليه المغيرة: إني سمعته يقول عند انصرافه من الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. ثلاث مرات. قال: وكان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات، ووأد البنات».

التخريج:

الحديث بهذا اللفظ مروي في البخاري في كتاب الرقاق باب ما يكره من قيل وقال (صحيح البخاري تحقيق البغا (٥/٢٣٧٥)، (٦١٠٨) ورواه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه صحيح البخاري تحقيق البغا (٦/٢٦٥٨) بدون ذكر العدد، ثم هو مروي من غير لفظ الذكر بعد الصلاة في صحيح مسلم في كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه.

بين يدي الحديث:

بعد رمضان وشوال ولا تزال قلوب المؤمنين تعلوها رحمات الله الواسعة التي أدركتهم من نفحات أيام دهره، لا تزال تعلو وجوههم أنوار الطاعة التي منَّ عليهم ربهم بها وتفضَّل، وقد أحلَّ بهم شهر ذي القعدة وهم في استقبال ركن الحج الأكبر، كلها كرامات ورحمات ومنَن بعضها تلو الآخر، ولا يسع المسلمَ إلا الشكرُ، وشكرُ المؤمن لربه يستوجب التعرض لنفحاته بمزيد الطاعات، والصلة بربه بمزيد القربات، والبعد عما يستوجب بُعْد القلب عن طريق سيره إلى الله، وشرع الله كله كذلك. وتزداد الوظيفة ويظهر أثر ذلك أكثر في رقائق الشرع مما يلي القلب؛ فكان من ذلك حديثنا من كتاب الرقاق في صحيح الإمام البخاري رحمه الله وقدس روحه ونوَّر ضريحه بروضة من رياض الجنة، وأول ما يلفت النظر فيه أن يرسل أحد الخلفاء- معاوية رضي الله عنه- إلى أحد عماله- المغيرة بن شعبة رضي الله عنه واليه على الكوفة في سنة إحدى وأربعين إلى أن مات سنة خمسين أو في التي بعدها- كتب معاوية إليه يستوعظه ويطلب حديثه، فلم تشغلهم شئون الولاية وأمور الحكم عن تذاكر أمور الآخرة؛ إذ الآخرة خير وأبقى، والولاية وأمورها بلاغ للآخرة وأحوالها وأهوالها واللافت كذلك أن المغيرة لم يكن وقت التحديث مع معاوية رضي الله عنهما فيكون طلب الموعظة والتحديث على ما به من خير من أمثال هؤلاء الأكابر يكون أمرًا مستساغًا، إلا أنه أرسل إليه يستوعظه، ويرد عليه المغيرة بكتاب يكتبه كاتب المغيرة-واسمه وارد- فيكتب إليه عبارات سمعها المغيرة من رسول الله وقد يكون المغيرة سمعها في مجلس واحد أو في أكثر من مجلس، فتصرف فيها المغيرة، وجمعها لمعاوية في سياق واحد؛ يعظه بها، وهو من تصرُّف الرواة المشروع والمألوف، المهم أنه سمعها وكلها عبارات تعلوها أنوار الطاعة واتصال القلب وعبوديته، وتلكم أول فائدة.

المعنى العام للحديث:

تضمن هذا الحديث جملة من الآداب؛ حيث بدأه بذكر لعله من أفضل ما يُقال على الإطلاق إن لم

Upload by: altawhedmag.com

يكن هو الأفضل؛ إذ هو كلمة التوحيد فهو أوله وأعلاه وأجله وأتقاه.

ثم نهى فيه صلى الله عليه وسلم عن ثلاث أشياء:

- عن عقوق الأمهات؛ لما لها من حق كبير على ولدها، فقد حملته كرهًا، ووضعته كرهًا، وسهرت عليه.

- ونهى عن منع الحقوق الواجبة، والبخل في ذلك.

- كذلك نهى عن وأد البنات وهو دفنهن أحياء مما كانت يفعله بعض العرب في الجاهلية.

ثم بيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك الأمور التي يكرهها الله من عباده:

فأولها: قيل وقال مما يعمد إليه بعض الناس من تسقُّط لأخبار الغير ونشرها، يتكلمون في كل ما لا يعنيهم. فلا شغل لهم في المجالس إلا أن يقولوا: قال فلان، وقيل لفلان.

والثاني: فهو كثرة السؤال والإلحاح فيه بغير ضرورة داعية.

والثالث: فهو تبذير الأموال وإتلافها في غير مصلحة دينية ولا دنيوية.

الشرح:

١- قوله: «باب ما يكره من قيل وقال»: أي هذا باب ما يدل على كراهة القيل والقال، وهو الإكثار بما لا فائدة فيه من الكلام والخوض في أخبار الناس، وحكايات ما لا يعني من أحوالهم وتصرفاتهم. واختلفوا في حقيقة اللفظين على قولين: أحدهما: أنهما فعلان. والثاني أنهما اسمان مجروران منونان.

ولا يخفى أن الخوض في الكلام وكثرته سببٌ من أسباب قساوة القلب لاسيما مما ابتُليت به العامة في هذه الأزمان من الخوض في العلماء والأعيان، والخاصة والعامة، مما يضر بحال العبد في دنياه وأخراه، والمؤمن يتعبد إلى ربه بقول الخير كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».

وذكر الحافظ ابن حجر وجهًا آخر لهذه العبارة قال: هو أن يذكر للحادثة عن العلماء أقوالاً كثيرة، ثم يعمل بأحدها بغير مرجِّح أو يطلقها من غير تثبت ولا احتياط لبيان الراجح» انتهى.

وخلاصته فكل ما لا يثقِّل موازين العبد يوم القيامة فالمختار للعبد أن يبتعد عنه.

٢- أما عن قوله رضي الله عنه: إني سمعته يقول عند انصرافه من الصلاة (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير) ثلاث مرات؛ فهذا نوع من أذكار الصلاة، وقد أجمع العلماءُ على استحباب الذكر بعد الصلاة عمومًا، وجاءت فيه أحاديث كثيرة صحيحة منها ما ورد في سنن الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أيّ الدعاء أسمع؟ قال: «جَوْفُ اللَّيْلِ الآخِرِ، وَدُبُرُ الصَّلَوَاتِ المَكْتُوبَاتِ».

ومن هذه الأذكار ما هو استغفار، ومنه ما هو تسبيح وتكبير وتحميد وتهليل، وتعوذ بالله، وطلب مغفرة منه سبحانه أو غير ذلك، ومنه ما هو عام بعد كل صلاة أو خاص لبعض الصلوات كالمغرب والعشاء، وحديثنا حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه هو مما يقال عقب كل صلاة، واللفظ الوارد في حديثنا هو لفظ مختصر؛ إذ إنه ورد في الصحيحين بلفظ أتم من هذا عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من الصلاة وسلّم قال: «لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ». (متفق عليه).

وفي مسلم عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، أنه كان يقول دُبُرَ كلّ صلاة حين يسلم: «لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَة كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّه، لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه وَلاَ نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ، وَلَهُ الثَّناءُ الحَسَنُ، لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ. قال ابن الزبير: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهلّل بهنّ دُبُرَ كُلِّ صلاة. (فلتراجع هذه الأذكار في مظانها ففيها من الخير ما لا يحصيه إلا الله تعالى).

وفي قوله: (ثلاث مرات) نظرٌ؛ إذ قال ابن رجب في

Upload by: altawhedmag.com

فتح الباري (٧/٤١٧): «وهذه زيادةٌ غريبة»، وكان نسبها لأحمد والنسائي.

والبخاري إنما أخرجها في باب (ما يكره من قيل وقال)، في كتاب الرقاق.

وأما في باب (الذكر بعد الصلاة)، من كتاب الأذان، وباب (الدعاء بعد الصلاة)، من كتاب الدعوات؛ فأعرض عن هذه الرواية، وأخرج رواياتٍ أخرى للحديث؛ ليس فيها (ثلاث مرات)، وهذان البابان عقدهما البخاري قصدًا لما يُقال بعد الصلاة، وأخرج فيهما ما يعتمده ويصححه من ذلك.

وأما قوله: (كثرة السؤال): فقيل الإكثار من السؤال عما لم يقع، ولا تدعو إليه حاجة أو الإلحاف في الطلب، والسؤال عما لا يعني السائل، وقيل: المراد بالنهي المسائل التي نزل فيها «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم»، وقيل الإكثار من تفريع المسائل؛ لذا فقد كره جماعة من السلف السؤال عما لم يقع؛ لما يتضمن من التكلف في الدين والتنطع والرجم بالظن من غير ضرورة، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن ذلك؛ ففي الصحيح: «كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها».

وقيل: المراد به سؤال الناس أموالهم، وما في أيديهم، وأيضًا تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن ذلك، وعليه فالسؤال عن كل ما لا يعني الإنسان هو مما هو داخل في النهي؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (ينظر شرح النووي على مسلم).

بل ومما ابتُليت به الأوساط العلمية أن يتبنى بعض السائلين منهج السؤال بنية إعنات المسئول واختباره وهو مما يخالف الأدب النبوي، بل ربما يصطدم مع الإخلاص الذي يتعبد الله به عباده، ولا شك أن ذلك لا يناقض طلب العلم المرجو؛ فقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كثير السؤال؛ فقد قيل له: بم أدركت العلم؟ قال: «أدركت العلم بلسان سؤول، وقلب عقول وبدن غير ملول»، لكن إذا كان قصد السائل إعنات المسئول فذلك هو المنهي عنه.

وقوله: (إضاعة المال): فهو صرفه في غير وجوهه الشرعية، وتعريضه للتلف، وسبب النهي أنه إفساد، والله لا يحب المفسدين، ولأنه إذا أضاع ماله تعرض لما في أيدي الناس.

أو بذله في غير مصلحة عمومًا لا دينية ولا دنيوية؛ لأن الله تعالى قال: «وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا» (النساء: ٥)، فالمال قيام للناس تقوم به مصالح دينهم ودنياهم؛ فإذا بذله الإنسان في غير ذلك فهذا إضاعة له وأقبح من ذلك أن يبذله في محرم فيرتكب محظورين.

وقوله: "عقوق الأمهات": فحرام، وهو من الكبائر بإجماع العلماء، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على عدّه من الكبائر، وكذلك عقوق الآباء من الكبائر، وإنما اقتصر هنا على الأمهات؛ لأن حرمتهن آكد من حرمة الآباء، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم حين قال له السائل: من أبر؟ قال: "أمك ثم أمك" ثلاثًا، ثم قال في الرابعة: "ثم أباك"، ولأن أكثر العقوق يقع للأمهات، ويطمع الأولاد فيهن.

وقوله: "وأد البنات" بالهمز، فهو دفنهن في حياتهن؛ فيمتن تحت التراب، وهو من الكبائر الموبقات؛ لأنه قتل نفس بغير حق، ويتضمن أيضًا قطيعة الرحم، وإنما اقتصر على البنات، لأنه المعتاد الذي كانت الجاهلية تفعله.

وقوله: "ومنعا وهات"، وفي الرواية الأخرى: "ولا وهات" فهو بكسر التاء من "هات"، ومعنى الحديث: أنه نهى أن يمنع الرجل ما توجه عليه من الحقوق، أو يطلب ما لا يستحقه.

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "حرم ثلاثًا وكره ثلاثًا" دليل على أن الكراهة في هذه الثلاثة الأخيرة للتنزيه، لا للتحريم. والله أعلم. (ينظر شرح النووي للحديث في شرحه على مسلم).

وختامًا؛ فلعل هذه الأيام المباركات هي أيام نفحات وذكر ورحمات، فقد خرج العبد من رمضان بما فيه من ركن الصيام ثم ها هو يستعد لاستقبال ذي الحجة بما فيه من ركن الحج الأكبر، فاللهم ارزقنا شرف العبودية لك والتقرب إليك؛

إنك ولي ذلك والقادر عليه.

Upload by: altawhedmag.com

باب السنة

أضحية العيد ودعوة التوحيد

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله الذي جعل شعائر الدين آية على وحدانيته، وطريقًا لتوحيده بربوبيته وألوهيته، ومن ذلك مقدم الشهر المبارك ذي الحجة بما فيه من أيام العيد؛ إذ جعل فيها الفرحة والتوسعة ونسك الأضحية عبادة لله دليلاً على التوحيد وإكرامًا للعبيد.

وسنة الأضحية هي سنة إبراهيم إمام الموحدين، عليه وعلى نبينا أفضل التسليم، والقيام بها بنية العبودية هو عبادة الوقت وشرف للعبد وتوحيد للرب.

الحديث:

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: قال صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي؛ فليمسك عن شعره وأظفاره"، وفي رواية لمسلم: "فلا يمس من شعره وبشره شيئًا".

التخريج:

الحديث رواه الجماعة إلا البخاري؛ إذ أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو مريد التضحية أن يأخذ من شعره أو أظفاره شيئاً رقم (١٩٧٧) ١٥٦٥/٣، والترمذي وصححه في كتاب الأضاحي، باب ترك أخذ الشعر لمن أراد أن يضحي رقم (١٥٢٣) ١٠٢/٤، وكذلك أخرجه النسائي وأبوداوود وابن ماجه.

ثانيًا: المعنى العام للحديث:

(إذا دخل شهر ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فلا يأخذ من شعرة ولا من أظفاره شيئا). وفي رواية: (ولا من بشرته شيئًا). فالذي يريد الضحية سواء كان رجلاً أو امرأة وهو الذي يبذل المال في شراء الضحية، لا يأخذ من شعره، لا من شعر الرأس ولا من غيره ولا من أظفاره شيئاً.

ثالثًا: ما يستفاد من الحديث:

١- فائدة حديثية:

هذا الحديث رواه الجماعة إلا البخاري فما السبب؟ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "واختلف فيه على سعيد بن المسيب فرواه عبد الرحمن بن حميد وابن مسلم هكذا موصولاً، ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه مسدد في مسنده من طريقه ورواه عثمان بن محمد الأخنسي عن سعيد موقوفاً عليه، وكأن البخاري لم يخرجه لهذه العلة لكنها ليست بتلك القادحة والله أعلم. (الأمالي المطلقة للحافظ ابن حجر ص١٢- ١٤). (ينظر: قلت وأكثر الرواة رووه بأسانيد صحيحة مرفوعًا.

قلت: ويكفي من المتصل ما رواه مسلم في صحيحه من طريق سفيان عن عبد الرحمن بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، سمع سعيد بن المسيب يحدث عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الحديث".

٢- حكمها:

الأضحية مشروعة باتفاق أهل العلم، واختلفوا في كونها واجبة أو سنة على قولين، والصواب قول الجمهور وعامة

Upload by: altawhedmag.com

أهل العلم أنها سنة مؤكدة في حق الموسر، ولا تجب عليه، وبهذا قال أكثر العلماء وذلك خلافاً لمن قال بالوجوب، بل وخلافاً لشرذمة هادمة ظهرت في هذه الأيام الغابرة المتأخرة تنادي بالتخلي عن هذا النسك وأمثاله بحجة الإنسانية، وأن ذلك من الوحشية. قال ابن قدامة رحمه الله: "وأجمع المسلمون على مشروعية الأضحية". المغني (١٣/٣٦٠).

وروى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه عن ابن عمر تعليقاً قال: وقال ابن عمر: "هي سنة ومعروف" الفتح (١٢/٩٨)، وقال ابن حزم رحمه الله في المحلى(٧/٣٥٨): "لا يصح عن أحد من الصحابة أنها واجبة وصح أنها غير واجبة عن الجمهور، ولا خلاف في كونها من شعائر الدين".

٣- أن المضحي لا يأخذ من شعره وبشره وأظافره شيئاً من بداية ذي الحجة وحتى ذبح أضحيته، وأن النهي في الحديث يحمل على الكراهة وليس على التحريم؛ قال النووي في شرح المهذب: "مذهبنا أن إزالة الشعر والظفر في العشر لمن أراد التضحية مكروه كراهة تنزيه حتى يضحي".

وقال نحو ذلك في شرحه لمسلم بعدما نقل اختلاف أهل العلم، ثم ذكر استدلال الشافعي على مذهبه بحديث أم المؤمنين عائشة قالت: "كنت أفتل قلائد هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقلده ويبعث به ولا يحرم عليه شيء أحله الله حتى ينحر هديه"، متفق عليه.

وقال: "البعث بالهدي أكثر من إرادة التضحية، فدل على أنه لا يحرم ذلك، وحمل أحاديث النهي على كراهة التنزيه"، انتهى كلام النووي.

فإن فعل شيئاً من ذلك، استغفر الله، ولا فدية عليه.

وإذا نوى المسلم الأضحية أثناء أيام العشر أمسك عن أخذ شعره وظفره من حين نيته ولا شيء عليه قبل النية، والله أعلم.

٤- أن نسك الأضحية أفضل من الصدقة في العيد على الفقراء؛ إذ هو من عبادات الوقت، وأن الله تعالى خص هذه الأيام بهذه العبادة. فعن سعيد بن المسيب قال: "لأن أضحي بشاة أحب إليَّ من أن أتصدق بمئة درهم". عبد الرزاق المصنف(٤/٣٨٨).

وقال الإمام النووي رحمه الله: "مذهبنا أن الأضحية أفضل من صدقة التطوع، للأحاديث الصحيحة المشهورة في فضل الأضحية، ولأنها مختلف في وجوبها، بخلاف صدقة التطوع، ولأن الأضحية شعار ظاهر". المجموع (٨/٤٢٥).

وأفاده شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (٢٦/٣٠٤).

٥- أن أكل المضحي من الأضحية وإطعام الأهل منها مشروع بل هو في ذاته عبادة؛ إذ أفتى بعض أهل العلم أن الأكل منها أفضل من الصدقة، قال شيخ الإسلام: "والأكل من الأضحية أفضل من الصدقة". مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦/٣٠٤)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "...كُلوا وأطعِمُوا وادَّخِرُوا". البخاري.

٦- ولا يجوز بيعها ولا بيع جلدها، ولا يعطى الجزار من لحمها شيئاً كأجر، عن علي رضي الله عنه قال: "أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقومَ على بُدنه، وأن أتصدقَ بلحمها وجُلودها وأجِلتها، وأن لا أُعطيَ الجزارَ منها، قال: نحنُ نُعطيه من عندنا". متفق عليه، البخاري (١٧١٧)، ومسلم (١٣١٧) واللفظ له.

٧- أن الأضحية تكون عن الواحد وأهل بيته مما يعول وليس على أهل بيته ترك الشعر والظفر؛ إذ قد تعلق الحكم بالمضحي نفسه، عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: "كان الرجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحي بالشاة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس فصار كما ترى". رواه الترمذي وقال: حسن صحيح. وعلى هذا العمل عند أهل العلم.

قال الشوكاني: ".. أنها تجزئ عن أهل البيت، وإن كانوا مئة نفس". نيل الأوطار، والسيل الجرار "، ومن يضحى عنه فلا شيء عليه؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضحي عن أهل بيته ولم يأمرهم بشئ من ذلك.

٨- أن الله تعبد عباده بما سن لهم نبيه صلى الله عليه وسلم ومن ذلك: أنه جعل الأضحية في أربعة أنواع، فمن تعريف الأضحية إذ هي اسم لما يذبح من الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، يوم النحر وأيام

Upload by: altawhedmag.com

التشريق بشرائط مخصوصة تقرباً إلى الله تعالى فلا يضحى بغيرها خلافًا لمن قال يضحى ببقرة الوحش أو بظبي أو بديك أو لحم مذبوح أو نحو ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ (الحج: ٣٤)، قال النووي رحمه الله: "نقل جماعة إجماع العلماء عن أنَّ التضحية لا تصحُّ إلاَّ بالإبل أو البقر أو الغنم؛ فلا يجزىء شيء غير ذلك"-وأفضله ما كان فيه نفع الفقراء-.

وللأضحية شروط أهمها:

١- أن تكون من بهيمة الأنعام كما تقدم.

٢- أن تبلغ السن وتكون من الغنم، والماعز ما تم سنة فإن لم يجد فجذعة من الغنم، وهو ما تم له ستة أشهر، ومن البقر ما تم له سنتان، ومن الإبل ما تم له خمس سنين.

٣- خالية من العيوب إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم (أربع لا تجزئ) اتفق الفقهاء على أن أربعة عيوب لا تجزئ في الأضحية وهي: العوراء، والمريضة، والعرجاء، والكبيرة، كما دلت عليه السنة المطهرة؛ لحديث عبيد بن فيروز قال: قلت للبراء بن عازب حدثني بما كره أو نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأضاحي. فقال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والعجفاء التي لا تنقي"، رواه الترمذي، وصححه الألباني رحمه الله.

فإن كان العور يسيرًا، وكذلك العرج اليسير، أو كسر شيء يسير من القرن، أو قطع يسير من الأذن أو وسم في الأذن، فإنه لا يضر ولا يعد نقصًا أو عيبًا.

واختلف العلماء في الأضحية بالخنثى، والصواب الجواز؛ لأنه ليس من العيوب الواردة، ولا تجوز الأضحية بما كان أعم من هذه العيوب، كالعمياء ومقطوعة اليد وغيرها.

- ومن ذلك أن من ذبح قبل صلاة العيد أو وقتها فليست أضحية، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل ذلك فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء". متفق عليه.

- وتجوز المشاركة في الأضحية إذا كانت من الإبل أو البقر فقد دلت عليه السنة، وتجزئ عن سبعة، لقول جابر رضي الله عنهما: "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نشرك في الإبل، والبقر سبعة في واحد منهما" رواه مسلم.

- ويسن لمن يحسن الذبح أن يذبح أضحيته بيده رجلاً كان أو امرأة، ويقول: بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عن فلان.. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح كبشاً وقال: بسم الله والله أكبر،.. الحديث "، وإن كان لا يحسن الذبح أحضر من يحسن ذلك.

وعن المسيب بن رافع: "أن أبا موسى كان يأمر بناته أن يذبحن نسائكن بأيديهن". البخاري معلقًا، انظر فتح الباري (١٠/١٩).

- ويستحب أن تذبح الأضاحي في المصلى، وعلى من يقوم بالذبح أن يحدِ شفرته، ويسمي الله ويكبر. فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذبح وينحر بالمصلى". رواه البخاري، إظهارًا لهذه الشعيرة العظيمة، وهي سنة مهجورة.

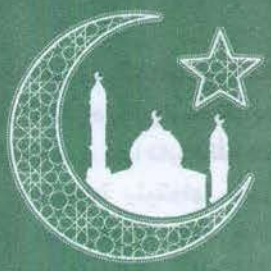
وعن نافع قال: "كان عبدُ الله ينحرُ في المنحر". قال عبيد الله: يعني منحر النبي صلى الله عليه وسلم" صحيح البخاري.

- ولا يخص الميت بالأضحية إلا أن يوصي؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلَم لم يضح عن أحد من أمواته بخصوصه، ولم يرد عن أصحابه في عهده أن أحدًا منهم ضحى عن أحد من أمواته. إلا إذا كان يضحي عن الميت تنفيذًا لوصيته، قال تعالى: ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٨١).

- ويجوز شراء الأضحية دينًا لمن استطاع التسديد، وإذا تزاحم الدَيْن مع الأضحية قدم سداد الدين لأنه أبرأ للذمة. فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وبه أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٦/٣٠٥).

وفي هذا القدر الكفاية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



باب السنة

بداية العام والبشارة بالرضوان

الحمد لله الرحمن الرحيم، وسعت رحمته كلَّ شيء من العالمين، وعد الذين أحسنوا بالحسنى وزيادة، فبشر أهل الجنان بعد تفضله عليهم بالرضوان، ولما كان من سنة نبينا البشارة وحسن الظن، قصدنا في مستهل عامنا تبشير المحسنين، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة: ٧٢).

إعداد د. مرزوق محمد مرزوق

وفي السنة: روى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لأَهْل الجَنَّة: يَا أَهْلَ الجَنَّة؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْط أَحَدًا منْ خَلْقكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطيكُمْ أَفْضَلَ منْ ذَلكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْء أَفْضَلُ منْ ذَلكَ؟ فَيَقُولُ: أُحلُّ عَلَيْكُمْ رضْوَاني، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا".

التخريج:

اتفق عليه الإمامان فضلاً عن الترمذي من أصحاب الكتب الستة، وهذا بيانه:

١- رواه البخاري: في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (١١٤/٨)، وفي كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة صحيح البخاري (١٥١/٩) (٧٥١٨).

٢- ورواه مسلم ط الجيل: في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (٧٢٤٢) (١٤٤/٨).

٣- وفي سنن الترمذي ت شاكر (٦٨٩/٤) (٢٥٥٥).

شرح الحديث:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة " أي إن الله تعالى ينادي أهل الجنة بنسبتهم إليها تذكيراً لهم بهذه النعمة العظيمة التي أنعم بها عليهم"، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك "، أي: إجابة بعد إجابة، وإسعاداً بعد إسعاد " فيقول: هل رضيتم؟ " أي: هل رضيتم بما أعطاكم ربكم من الجنة ونعميها؟ أو هل رضيتم عن ربكم؟ " فيقولون: وما لنا لا نرضى " يعني أي مانع لنا من الرضا، وقد غمرتنا بفضلك وإحسانك وأعطيتنا ما لم يكن يخطر لنا على بال، " وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؛ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ " أي: وهل هناك نعيم أعظم من النعيم الذي نحن فيه"؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً "، أي: فيقول

Upload by: altawhedmag.com

الله تعالى لهم: نعم هناك ما هو أعظم نعمة، وأكثر سعادة من الجنة وما فيها، وهو الرضوان الإلهي الذي لا يساويه شيء من نعم الله، فإذا أردت أن أمنحكم السعادة العظمى، وقد أردت لكم ذلك منحتكم الرضوان الدائم الذي لا سخط بعده. (وينظر: منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣٠٢/٥)، فتح الباري لابن حجر (٤٢٢/١١)، فيض القدير (٣١١/٢) للمناوي، مشارق الأنوار على صحيح الآثار للقاضي عياض).

مما يستفاد من الحديث:

- أن نعيم أهل الجنة لا يعدله نعيم، ولا تساويه سعادة أخرى.

- وأن الله يعطي أهل الجنة ما يرضيهم.

- دلالة على أن من صفات أهل الجنة الرضا بدلالة الحديث؛ وكذلك لقول الرجل الذي هو أدنى أهل الجنة منزلة بعدما أنعم الله عليه " رَضِيتُ، رَبِّ".

- وأن رضوان الله على أهل الجنة هو أفضل عطاء؛ فهو أفضل ما يعطي الله أولياءه قال الله تعالى: «وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ» (التوبة: ٧٢)، رضوان من الله يُحله على أوليائه، هو أكبر مما في الجنة من أنواع النعيم من المطاعم، والمشارب، والملابس، ونحوها.

- وفيه أن السعادة (أي الروحانية) أفضل من الجسمانية، ومنها سماع كلام رب العالمين وأعظم منه خطابهم إياه بتقريره نعمه عليهم، وتعريفه إياهم فضله لديهم.

- وفيه تقرير لمسائل عقدية منها:

١- أن الله عز وجل يتكلم، ومنه إثبات صفة الكلام لله عز وجل.

٢- وإثبات صفة الرضا لله عز وجل.

وهذه الصفة وأمثالها من الصفات كالحب والغضب والكراهية والسخط والمقت الذي هو أشد البغض، كلها ثابتة لله عز وجل، أهل السنة والجماعة يثبتونها على حقيقتها، ويمرُّونها كما جاءت؛ وذلك خلافًا لغيرهم من المبتدعة المعطلة من المعتزلة والأشاعرة والجهمية ممن ينفون حقيقتها ويؤلونها على غير ما هي عليه.

هذا وقد يوصف المخلوق بهذه الصفات، كما قال الله في شأن الرضا «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» في آية واحدة، ولكن ليس الرضا كالرضا، فليست صفة الخالق كصفة المخلوق، ولا صفة المخلوق كصفة الخالق، فيجب إثبات ما أثبته الله لنفسه، بلا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

والتَّحريف: معناه: تغيير ألفاظ الأسماء والصِّفات، أو تغيير معانيها، كقول بعض المبتدعة: أنَّ معنى الغضب في حقِّ الله إرادة الانتقام، وأنَّ معنى الرَّحمة كذلك إرادة الإنعام؛ وكلّ هذا تحريف.

والتَّعطيل: معناه: سلب الصِّفات ونفيها عَنِ الله تعالى؛ فالجهميَّة وأشباههم قد عطَّلوا الله عَنْ صفاته فلذلك سمُّوا بالمعطِّلة، وهو باطل؛ إذْ لا يعقل وجود ذات بدون صفات، والقُرآن والسُّنَّة متضافران على إثبات هذه الصِّفات على وجه يليق بجلال الله وعظمته.

والتَّكييف: معناه: بيان الهيئة الَّتي تكون عليها الصِّفات، فلا يُقال: كيف استوى؟ كيف يده؟ كيف وجهُه؟ ونحو ذلك، إذ القول في الصِّفات كالقول في الذَّات يحتذى حذوه ويُقاس عليه، فكما أنَّ له ذاتًا ولا نعلم كيفيَّتها، فكذلك له صفات ولا نعلم كيفيَّتها، إذ لا يعلم ذلك إلاَّ هو مع إيماننا بحقيقة معناها.

هذا ونفي الكيفية يعني نفي العلم بالكيفية، فصفاته سبحانه وتعالى لها كيفية

Upload by: altawhedmag.com

لكن لا يعلم أحد من الخلق كيفيتها إلا هو، ولهذا نقول: نفي العلم بالكيفية، ولا نقول: نفي الكيفية.

وأمَّا التَّمثيل: فمعناه: التَّشبيه، فلا يُقال: ذات الله مثل ذواتنا، أو شبه ذواتنا، وهكذا، فلا يُقال في صفاته: إنَّها مثل صفاتنا أو شبه صفاتنا، بل على المؤمن أنْ يلتزم قوله تعالى «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» و«هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا»، والمعنى لا أحد يساميه، أيْ: يشابهه.

فائدة:

قال شَيْخُ الإسْلام ابْن تيميَّة رَحِمَهُ الله: "إذا قالَ لك نُوْوِّل معنى الغضب: إرادة الانتقام، والرَّحمة: إرادة الإنعام؛ فقل: وهل هذه الإرادة تشبه إرادة المخلوق، أم أنَّها إرادة تليق بجلاله وعظمته؟ فإنْ قالَ الأوَّل فقد شَبَّه، وإنْ قالَ الثَّاني فقُل: ولم لا تقل رحمة وغضب يليقان بجلاله وعظمته، وبذلك تحُجُّه وتَخْصِمُهُ". (ينظر: التَّنبيهات اللَّطيفة على العقيدة الواسطيَّة" للإمام عبد الرَّحمن بن ناصر السَعديّ/تعليق: الشيخ ابن باز- رَحِمَهُمَا الله تَعَالَى-/ص: ١٧، ١٨).

شبهة منتشرة في هذه الأيام:

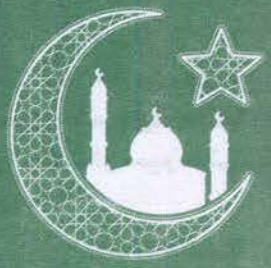
يقولون: أكثرتم من الكلام في مسائل التوحيد وتركتم واقع الأمة وهي في حرب مع أعدائها ولا تجد طعامها فأين فقه الأولويات فيما تدعون إليه؟

واننا نقول: لمن قال ذلك: وهل تردى واقع الأمة إلا بسبب ضعف التوحيد عند أهلها، إن الإيمان بأنه تعالى يرضى، ويغضب، ويكره، ويمقت يوجب للعبد خوفًا، ورجاء، ويوجب له أن يطلب رضاه، وفي الحديث الصحيح: "أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"، فإذا تعلقت نفس العبد بذلك فخاف من الله ولم يخش إلا هو، فقدَّم أمره على كل أمر، وشرعه على كل شرع، فهل تراه يظلم أو يجهل أو يسرق أو يكذب أو يتعدى على غيره بأي درجة من درجات التعدي مهما هانت، وهل تراه يجبن عند لقاء العدو إذا استدعى الأمر الشرعي ذلك؟، هل تراه يفعل هذا وقد استقرت في نفسه عقيدة الخوف من الله، ثم إنه إذا استقرت عنده عقيدة الرجاء أيضًا فهل تراه وهو العاقل الرشيد يترك بابًا من أبواب الخير لا يطرقه مهما كان هينًا في ظاهره وهو يعلم أن رحمة الله قريب منه، فلا يتخلف عن الإحسان ليل نهار على قدر وسعه، فيتقن عمله ويخدم مجتمعه ويحسن خلقه ويجبر خواطر غيره من المخلوقين، فضلاً على تقربه بالتعبد بشرائع الدين لرب العالمين فيصلي ويصوم ويتصدق ويقوم ويتلو ويدعو، ثم هو يدل الناس على ربهم، فيعملهم كيف يتوكلون عليه، وكيف يدعونه ويدعون إليه، كيف يرضون بقدره وقضائه وكيف يؤمنون بأسمائه وصفاته، لا يخضعون إلا له فترتفع رؤوسهم بدعوة التوحيد، وتهدأ نفوسهم بثمرة الإيمان، كل ذلك لتحقق مسائل التوحيد في نفوسهم ولتصحيح عقيدة الإيمان بربهم.

أقول لهؤلاء: إنَّ للعلم والإيمان بأسماء الرب وصفاته آثاراً على القلب، وآثاراً على سلوك العبد تورث الموفقين من عباد الله محبته سبحانه، وخوفه، ورجاءه، والتوكل عليه؛ كل هذا من آثار الإيمان بأسمائه وصفاته، وهل يرجى من المجتمع الناجح الفاهم لواقعه أكثر من هذا؟ اللهم لا، وعليه فجوابنا إذن: دعوة التوحيد هي الحل.

نسأل الله أن يصلح أحوالنا وأحوال أمتنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

Upload by: altawhedmag.com



باب السنة

الفوائد والدرر من حديث موسى والخضر

إعداد د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

فقد كانت قصة موسى مع الخضر عليهما السلام من روائع القصص؛ لما ورد فيها من عجائب الأخبار في صحيح الآثار بل وفي الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وبرز فيها من الفوائد العقدية والفقهية والتربوية ما لا يحيط به عنوان واحد للقصة، وقد تحيرت في عنوان للحديث أو القصة؛ إذ إن بها معاني ربما لا يحيط بها عنوان واحد، ولعل هذا ما دفع إمام المحدثين البخاري رحمه الله أن يضعها في ثلاثة مواضع من صحيحه إذ في كل مكان فائدة مختلفة، فاجتهدت في اختيار عنوان مجمل يكشف عن دُرره في كوامنه.

الحديث:

روى البخاري رحمه الله بسنده إلى سعيد بن جبير رحمه الله قال: قلت لابن عباس إن نوفًا البكالي يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر؟ فقال كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم: (قام موسى النبي خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب وكيف به؟ فقيل له احمل حوتاً في مكتل فإذا فقدته فهو ثم، فانطلق وانطلق بفتاه يوشع بن نون، وحمل حوتاً في مكتل حتى إذا كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما وناما فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وكان لموسى وفتاه عجباً، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما.

فلما أصبح قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. ولم يجد موسى مسّاً من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به، قال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة؟ فإني نسيت الحوت؟ قال: موسى ذلك ما كنا نبغي

Upload by: altawhedmag.com

فارتدا على آثارهما قصصًا.

فلما انتهيا إلى الصخرة إذا رجل مسجى بثوب أو قال تسجى بثوبه فسلم موسى، فقال: الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ فقال أنا موسى فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبراً؛ يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه لا أعلمه. قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما فعرف الخضر فحملوهما بغير نول، فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه فقال موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت- فكانت الأولى من موسى نسيانًا-.

فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ قال: ألم اقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟- قال ابن عيينة: وهذا أوكد- فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجد فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه، قال الخضر بيده فأقامه فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال: هذا فراق بيني وبينك). قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله موسى لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما).

أولاً: التخريج:

١- رواه الإمام البخاري في ثلاثة كتب من صحيحه:

أ- كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله رقم (١٢٢) (١/٥٦).

ب- كتاب الأنبياء: باب حديث الخضر مع موسى، (٣/١٢٤٦)، (٣٢٢٠).

ج- كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف (٤/١٧٥٢)،(٤٤٤٨)،(٤٤٤٩)، (٤٤٥٠)

٢: أخرجه مسلم في الفضائل باب من فضائل الخضر عليه السلام رقم ٢٣٨٠.

٣: سنن الترمذي ت شاكر (٥/٣٠٩) رقم (٣١٤٩) أبواب تفسير القرآن.

ثانيًا: مفردات الحديث:

- (نوف البكالي) هو تابعي جليل من أهل دمشق فاضل عالم لاسيما بالإسرائيليات وكان ابن امرأة كعب الأحبار رحمه الله.

- (كذب عدو الله) أي أخبر بما هو خلاف الواقع. ومراد ابن عباس رضي الله عنهما الزجر والتحذير لا المعنى الحقيقي لهذه العبارة.

- (فعتب) لم يرض منه بذلك وأصل العتب المؤاخذة.

- (بمجمع البحرين) ملتقى البحرين وفي تسمية البحرين أقوال.

- (مكتل) وعاء يسع خمسة عشر صاعًا.

- (فانسل) خرج برفق وخفة.

Upload by: altawhedmag.com

- (سرباً) مسلكًا يسلك فيه.
- (نصباً) تعبًا.
- (مساً) أثراً وفي رواية (شيئاً).
- (مسجى) مغطى.
- (وأنى بأرضك السلام) كيف تسلم وأنت في أرض لا يعرف فيها السلام.
- (نول) أجر.
- (فعمد) قصد.
- (الأولى) المسألة الأولى.
- (زكية) طاهرة لم تذنب.
- (وهذا أوكد) أي قوله.
- (ألم أقل لك) لزيادة لك فهذا أوكد في العتاب.
- (استطعما) طلبا طعاماً.
- (ينقض) يكاد يسقط.
- (قال الخضر بيده) أشار بها.
- (من أمرهما) من الأعاجيب والغرائب) (ينظر: تعليقات البغا على صحيح البخاري: ١/٥٦، ٤/١٧٥٤).

ثالثاً: فوائد الحديث

من أولَّ ما يستفاد من الحديث: هو أن استقبال الشرع يحتاج إلى نية وتسليم وافتقار وعقل؛ لذا لا يوقف أمام ما تشابه منه إلا موقف العابد الدارس المؤمن بربه والمتبع لنبيه، ويكون من دينه كما أراد الله له أن يكون، لا موقف الشاك المتربص لدعاة السوء أدعياء العقلانية والعلمانية زعموا وما صدقوا، وما أكثر هؤلاء في هذه الأزمنة المتأخرة الغابرة.

لذا فإن عبارة مثل التي قالها الصحابي الجليل ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق التابعي الجليل نوف البكالي: (كذب عدو الله) يتلقاها أهل الإيمان بما ذكرنا من أحوالهم تجاه الشرع، ويتلقاها أهل الزيغ والطغيان بالتشكيك في كل شيء، في الراوي والمروي في السند والمتن ثم في السنة والدين كله.

وعليه فإن المراد من هذه العبارة صار شبهة أسارع إلى إزالتها من القلوب لدفع التهمة عن التابعي الجليل نوف البكالي وهو مؤمن، وكان عالماً قاضياً إماماً لأهل دمشق أن يتهم بكونه عدواً لله، وكذلك عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتهم تابعياً كهذا أن يكون كذلك.

والجواب عنَ قوله: (كذب عَدو الله) أن ذلك وَقع من ابْن عَبّاس على طَريق الإغلاظ على الْقَائل، بخلاَف قَوْله، وألفاظ الْغَضَب تَجِيء على غير الْحَقِيقَة في الْغَالب، وَابْن عَبّاس قَاله على وَجه الزّجر عَن مثل هَذَا القَوْل، لا أنَهُ يعْتَقد أنه عَدو لله ولدينه حَقِيقَة، إنَمَا قَاله مُبَالغَة في إنْكاره، وَكَانَ ذَلكَ في حَال غضب ابْن عَبّاس لشدّة الْإنْكَار، وَحَال الْغَضَب تطلق الألْفَاظ وَلاَ يُرَاد بهَا حقائقها.

وَقَالَ ابْن التّين: لم يرد ابْن عَبّاس إخْرَاج نوف عَن وَلاَيَة الله، وَلَكن قُلُوب الْعلمَاء تنفر إذا سَمعت غير الْحق، فيطلقون أمْثَال هَذَا الْكَلاَم لقصد الزّجر والتحذير مِنْهُ وَحَقِيقَته غير مُرَادة.

وهناك تأويل آخر قاله بعض أهل العلم، وهو أن المراد كذب شيطانه. (ينظر شرح النووي على مسلم: ١٨٤٧/٤). وللحديث صلة إن شاء الله مع باقي ما يُستفاد من هذه القصة المباركة، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

الفوائد والدرر من حديث موسى والخضر (عليهما السلام)

الحلقة الثانية

إعداد د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد ابتدأنا في الحلقة السابقة في الكلام عن قصة موسى والخضر عليهما السلام، وذكرنا أنها من روائع القصص لما ورد فيها من صحيح الآثار وعجائب الأخبار، وقد برز فيها من الفوائد العقدية والفقهية والتربوية ما ينبغي أن تشكر نعمته وتتفقد فوائده، وقد ذكرنا في الحلقة السابقة الحديث وتخريجه من الكتب الستة ثم ذكرنا غريب الحديث وبدأنا في ذكر بعض ما يستفاد منه؛ فذكرنا من ذلك أن أهل الإيمان يستقبلون نصوص الشرع بالتسليم والإذعان لا كما يستقبله أهل الزيغ والطغيان، وأن ألفاظ الغضب قد تجيء على غير الحقيقة في الغالب لذا ينظر إلى حقيقتها بعين الاعتبار، ثم ها نحن ذا نستكمل ما تيسر من الدرر بعد إعادة عرض حديث موسى والخضر عليهما السلام.

الحديث:

روى البخاري رحمه الله بسنده إلى سعيد ابن جبير رحمه الله قال: قلت لابن عباس إن نوفًا البكالي يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر؟ فقال كذب عدو الله حدثنا أبيُّ بْنُ كَعْب، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ بِهِ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ فَانْطَلَقَ، وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلاَ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ، وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا وَنَامَا فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا فَلَمَّا أَصْبَحَ، قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ (أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ) فَسَلَّمَ مُوسَى فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ فَقَالَ: أَنَا مُوسَى فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الْخَضِرُ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاَّ كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ فَقَالَ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ: لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ فَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا فَانْطَلَقَا، فَإِذَا غُلاَمٌ

Upload by: altawhedmag.com

يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلاَهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَقَالَ مُوسَى: أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ، فَأَقَامَهُ قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْنَا لَو صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا).

واستكمالاً لبعض ما يستفاد من الحديث، نقول:

التواضع سلعة غالية وعبادة مفقودة:

وقد أمر الله بها أنبياءه، فعن عياض بن حمار رضي الله عنهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد) رواه مسلم.

فإذا كان الله قد أمر بها نبيه صلى الله عليه وسلم كان العباد من دون الأنبياء أحوج لها وحالهم أدعى لاقتنائها، فأخلاقنا هي سلعتنا الغالية وبضاعتنا الرائجة، أكرمنا الله بها نحن أمة الاسلام على وجه الخصوص كما أنها ميراث الأنبياء عموما وقد قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠)، ونبي الله موسى من أولي العزم من الرسل منزلته عالية ودرجته مرفوعة فهو من سادة عباد الله المتواضعين غير أن الله تبارك وتعالى أراد كونًا أن ينطق نبي الله بما نطق به لمن سأله عن أعلم من في الأرض لِحكَم لا يحصيها إلا الله، وموسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وهو كليم الله، ونزلت عليه التوراة ويعده العلماء في المرتبة الثالثة بين الأنبياء والمرسلين بعد سيدهم محمد وأبيهم إبراهيم عليهما الصلاة والتسليم، ومن كانت هذه حاله فحاشاه أن يكون عنده شيء من الكبر، وقد تكبد المشاق تواضعًا للقاء العبد الصالح وما استنكف عليه وعلى نبينا الصلاة و السلام.

هذا والتواضع يكون لله بمعنى الخضوع عقيدة وانقياداً ولا يكون إلا لله.

تواضع لرب العرش علك ترفع

فما خاب عبد للمهيمن يخضع

ويكون لعباد الله أدبًا وسلوكًا وكلاهما عبادة، وهذا سمت طيب النفس رفيع المكانة.

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر

على صفحات الماء وهو رفيع

وكما قال غيره:

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة

فإن رفيع القوم من يتواضع

ثم إنه مما يعين على هذا أن يعلم العَبد حقيقة أمره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧).

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا

فكم تحتها قوم هموا منك أرفع

العلم فريضة شرعية وضرورة حياتية:

وطلب العلم الشرعي فريضة شرعية والنافع من العلم عموما ضرورة حياتية، والآيات والأحاديث في تأصيل هذا لا حصر لها كقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨)، وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: سمعت رَسُول الله يقول: (من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر) رَوَاهُ

Upload by: altawhedmag.com

أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرمِذِيُّ.

ثم كان من فضل هؤلاء العلماء أن أمر الناس بالرجوع إليهم في حالة جهلهم أو خلافهم، كما كان من سعيد بن جبير مع ابن عباس رضى الله عنهما وكما قال الله: (فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ) (النحل: ٤٣)، وكما قال الله (وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ) (النساء: ٨٣).

الرحلة في طلب العلم من شيم السلف الصالح:

هذا، ولما كان فضل طلب العلم كذلك؛ نالت الرحلة في طلبه هذا الفضل وزيادة، مهما كانت درجة طالبه، إذ العلم بحر لا ساحل له، فقد رحل إليه الأنبياء والمرسلون، وقصص السلف في ذلك وافرة وليس أدل من أن يصنف السلف في ذلك مصنفات مستقلة كما فعله الخطيب في كتابه (الرحلة في طلب الحديث)؛ فليراجعه من شاء فهو ماتع في بابه.

من آداب العالم والمتعلم:

وللعالم والمتعلم آداب عنى بها العلماء أكثر من عنايتهم بالتحصيل إذ الخلق غاية والتحصيل وسيلة إليه كما قال صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وقد امتلأ الحديث ببعض منها: كخدمة أهل الفضل وصبر المعلم على تلميذه وصبر الطالب على شيخه والتماس الأعذار من كل وغيره كثير في مظانه مثل: (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، واقتضاء العلم العمل له كذلك، جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر، تعليم المتعلم طريق التعلم للزرنوجي ومن المعاصرين حلية طالب العلم للشيخ بكر أبي زيد رحمه الله).

ومن الفوائد العقدية:

- أن الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام فقد قبل ابن عباس خبر أبي بن كعب وهو يحدثه عن أخبار الأنبياء، وأخبار الأنبياء من علم الغيب الذي هو جزء من العقيدة، وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم الآحاد من المسلمين يبلغون الناس عقيدة التوحيد، وفي مثل ذلك رسالة بهذا العنوان للشيخ الألباني رحمه الله وقد منَّ الله عليَّ برسالة دكتوراه بعنوان: دور الحديث النبوي في التأصيل العقدي والرد على المخالفين، وما أكثرهم وتشعب حججهم في هذا الزمان! وقد انتهينا فيها بإشراف عميد كلية الدراسات الإسلامية بالأزهر الشريف ومناقشة رئيس قسم العقيدة بالأزهر والشريعة بدار العلوم إلى أن السنة النبوية حجة بمفردها في العقائد والأحكام.

- معجزات الأنبياء حق:

كما أجرى الله لموسى معجزة الحوت المملح الميت والتي فيها كذلك دليل مشاهد على عقيدة البعث، والتي ينكرها اللادينيون.

- الأنبياء بشر:

الخضر بشر لا يعلم الغيب؛ إذ لا يعلم الغيب إلا الله، لذا طلب من موسى أن يعرفه بنفسه.

- والنسيان في حق الأنبياء جائز؛ إذ هم من جملة البشر، فقد نسي موسى ويوشع أمر الحوت حتى جاوزا المكان، غير أنه لا يجوز في حق الله إذ قال تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) (مريم: ٦٤).

- صلاح الآباء سبب من أسباب صلاح الأبناء: وتلكم فائدة تربوية وعبرة حياتية جعلتها في خاتمة البحث هدية، وهذا كما حصل مع الأيتام، والشواهد على ذلك في الحياة المعاصرة كثيرة، ومن دليله غير ما ذكرنا كما قال الله: (وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا) (النساء: ٩).

والحمد لله رب العالمين

Upload by: altawhedmag.com

عذرًا رسول الله

إعداد: د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فبتوالي الأحداث التي تجعل الحليم حيران، وبعدما كتبت مقالاً جديدًا لباب السنة يناسب الحدث الأليم بمسجد الروضة بعد الذي قد كتبت قبل الحدث، فقد تتابع علينا حدث آخر يتوقف أمامه القلب والعقل معًا، ففي الحدث الأول نجد أفعالاً من غير البشر يعتدون على أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المصلين، وفي الحدث الثاني قد تنامى إلى أسماعنا والمجلة ماثلة للطبع فلم أتمكن من المشاركة فيه إلا بعبارة مختصرة وفيها: أنَّ قومًا بهتًا يفعلون كأسلافهم من قبل يتعدون على أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى مقدساتهم في القدس الشريف، ثم نجد أهل البهتان بعد هذا الظلم الدائم لأتباع النبي العدنان أولاً وآخرًا نجد أن المتهم هو الإسلام، فلم أجد بعد ذلك كله اعتذارًا عن نفسي وأمتي إلا أن أقول: عذرًا رسول الله.

الحديث:

أخرج الإمامان البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحُرَقة من جهينة، فصبَّحنا القوم، فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكفَّ عنه الأنصاري، وطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا، بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي: «يا أسامة، أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟!» قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذًا، قال: فقال: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟!» قال: فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

وفي رواية لمسلم: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح، قال: «أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم: أقالها أم لا».

وفي رواية له أيضًا: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!» قال: يا رسول الله، استغفر لي، قال: «وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!» قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!».

أولاً: تخريج الحديث:

١- أخرجه الإمام مسلم حديث (٩٦) في كتاب الإيمان باب تحريم قتل الكافر إذا قال لا إله إلا الله.

٢- وأخرجه الإمام البخاري رحمه الله في «كتاب المغازي»، «باب بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة» حديث (٤٠٢١).

٣- وأخرجه أبو داود في «كتاب الجهاد»، «باب على ما يقاتل المشركون» حديث (٢٦٤٣).

٤- وانفرد مسلم رحمه الله برواية «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!» حديث (٩٧)

ثانيًا: من ألفاظ الحديث:

(الحرقة من جهينة): الحرقة بضم الحاء وفتح الراء والقاف، ويقال: الحرقات كما في الرواية الأخرى، وهم بطن من جهينة، سموا بذلك لواقعة كانت بينهم وبين بني مرة بن عوف، فأحرقوا بني

upload by: altawhedmag.com

مرة بالسهام، وأكثروا من قتلهم، ومكان إقامتهم عن المدينة النبوية (١٥٢) كيلو تقريبًا.

وجهينة: اسم لقبيلة من قضاعة، قبيلة حجازية كبيرة واسعة الانتشار في زمانها، أشهر بلادهم ينبع. (انظر: معجم البلدان (١٩٤/٢)».

ثالثًا الشرح:

هذا حديث شريف في باب إجراء أحكام الناس على الظاهر كما أورده الإمام النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في واقعة حصلت لأصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم- حيث قد بعثهم النبي صلى الله عليه وسلم في بعث إلى الحرقة من جهينة وفيهم أسامة بن زيد رضي الله عنهما فقتل أسامة-رضي الله تعالى عنه- رجلاً بعدما قال: لا إله إلا الله.

قال: إلى الحرقة من جهينة، فصبحنا القوم على مياههم، يعني: أتيناهم في وقت الصباح، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري، وطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبي- صلى الله عليه وسلم-، في بعض الروايات أنه طعنه بالرمح، ثم بعد ذلك تتابعوا على ضربه حتى مات، فلما لقي النبي- صلى الله عليه وسلم- كان البشير قد سبقه بالخبر، فذكر ذلك للنبي-عليه الصلاة والسلام-، يقول: فقال لي: «يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟»، وهذا استفهام إنكار، ينكر عليه النبي- صلى الله عليه وسلم-، قلت: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً، يعني: متعوذاً بهذه الكلمة فراراً من القتل، فقال: «أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟»، فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.(انظر: فتح المنعم (٣٢١/١)

رابعًا: من فوائد الحديث:

أولاً: إجراء أحكام الدنيا على الظاهر والله يتولى السرائر:

كما أفاده الإمام النووي من عنوان بابه على الحديث في رياض الصالحين، وفيه ردٌ على من يتجرأ على تكفير الموحدين بغير ناقض شرعي وبأصول واهية ما أنزل الله بها من سلطان، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأسامة: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم: أقالها أم لا» فلا يطلع على ما في بواطن الناس إلا الله عز وجل، وعليه يقال: (في الدنيا يؤخذ بالظواهر، ولا يؤخذ بالبواطن، وأما في الآخرة فيؤخذ بالبواطن ولا يؤخذ بالظواهر)؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ (الطارق: ٩).

ثانيًا: عذر المتأول ممن هو أهل لذلك:

إذ لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالقصاص من أسامة؛ لأنه قتل الرجل الذي أسلم بنطقه لكلمة التوحيد، وظاهر الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم بإسلامه؛ إذ كان رضي الله عنه متأولاً؛ فقتله حينئذ يكون قتل خطأ وشبهة؛ لأنه ظن أن هذا الرجل يعتبر كافرًا حتى لو أظهر كلمة التوحيد؛ لاحتمال أنه أظهرها خوفًا، وأنه لا يكون مسلمًا بهذا، فقتله بناءً على هذا الاعتقاد.

وكذلك لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بالدية والكفارة للمقتول ما دام قتله كان خطأً وشبهة، لأنه كان مأذونًا له في الأصل بقتل هذا الرجل، فلا يضمن ما أتلف من نفس ولا مال، وقيل: إن تلك الواقعة من أسامة كانت قبل نزول آية الدية والكفارة. (ينظر: شرح النووي لمسلم حديث (٩٥، ٩٦)، وانظر المفهم (٢٩٤/١، ٢٩٨)، وانظر الفتح «كتاب الديات»، «باب قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ (النساء: ٩٣)» حديث (٦٤٧٢)، وانظر فتح المنعم (٣١٧/١، ٣٢٤).

ثالثًا: حرمة الدماء:

أما عن حرمة الدماء فلو حرر مسلم فيها لما وفّى حق البلاغ؛ إذ قد رأينا لوم النبي صلى الله عليه وسلم لأسامة رضي الله عنه، ومن ذلك كذلك ما قاله الله سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: ٣٢)؛ قال الإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله في (الزواجر جـ٢ صـ١٩٤): «جعل قتل النفس الواحدة كقتل جميع الناس؛ مبالغةً في تعظيم أمر القتل الظلم

upload by: altawhedmag.com

وتفخيمًا لشأنه».

ومنه أن شدد الله تعالى على من تعدى على حرمات الناس ولو بإرهابهم فضلاً عن قتلهم إذ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣)، وهو مستند العلماء في حد الحرابة أحد حدود الإسلام الستة.

ومنه أن شرع الله القصاص كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩)؛ قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة؛ فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يُقتل؛ (تفسير ابن كثير جـ٢ صـ١٦٦).

ومن السنة ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات (هي المهلكات)، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» (البخاري: ٢٧٦٦، مسلم حديث: ٨٩).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه (مطمئن النفس في سعة من رحمة الله)، ما لم يصب دمًا حرامًا (ظالما أنه لم يقتل نفسًا بغير حق)»؛ (البخاري حديث: ٦٨٦٢).

والترويع حرام: فليست الدماء فقط بل وحذر رسول الإنسانية من مجرد الترويع كما أسلفنا في آية الحرابة وما كان من السنة النبوية: فعن عبد الرحمن ابن أبي ليلى، قال: حدثنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، أنهم كانوا يسيرون مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه، ففزع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلمًا»؛ (صحيح أبي داود، للألباني حديث: ٤١٨٤).

وعن أبي هريرة، يقول: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: «من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه، حتى يدعه وإن كان أخاه لأبيه وأمه»؛ (مسلم حديث: ٢٦١٦).

قال الإمام النووي رحمه الله: «هذا الحديث فيه تأكيد حرمة المسلم، والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه والتعرض له بما قد يؤذيه. وقوله صلى الله عليه وسلم: «وإن كان أخاه لأبيه وأمه»؛ مبالغة في إيضاح عموم النهي في كل أحد سواء من يتهم فيه، ومن لا يتهم، وسواء كان هذا هزلاً ولعبًا، أم لا؛ لأن ترويع المسلم حرام بكل حال، ولأنه قد يسبقه السلاح؛ (مسلم بشرح النووي ٨صـ٤١٧).

دماء غير المسلمين حرام:

هذا وليست الحرمة قاصرة على دماء المسلمين فحسب، بل الدماء المعصومة أربعة: المسلم، والذمي، والمعاهد، والمستأمن، قال صلى الله عليه وسلم كما رواه عنه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «من قتل معاهدًا لم يرح (أي لم يشم) رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا» (البخاري حديث ٣١٦٦)

قال الإمام ابن حجر العسقلاني: «قوله صلى الله عليه وسلم: «من قتل معاهدًا»، المراد بالمعاهد: هو من له عهدٌ مع المسلمين سواءٌ كان بعقد جزية، أو هدنة من سلطان، أو أمان من مسلم» (فتح الباري، لابن حجر العسقلاني جـ١٢ صـ٢٧١).

وكذلك لم تكن معاهدة عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع نصارى بيت المقدس عنا ببعيدة: وكان مما كتبه فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبدالله عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء (بيت المقدس) من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم». (تاريخ ابن جرير الطبري جـ ٢صـ ٤٤٩)

وما كان من مثلها من معاهدة عمرو بن العاص مع أهل مصر (ينظر: المرجع السابق جـ ٢صـ٥١٤)

أفبعد ذلك يظلم رسول الله فيتهم أتباعه؟! عذرًا رسول الله.

وفي هذا القدر كفاية.

والحمد لله رب العالمين.

upload by: altawhedmag.com

تذكير الأحباب بالفرق بين العرض ومناقشة الحساب

إعداد: د. مرزوق محمد مرزوق

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد..

فلا تزال القلوب تذوب من كمد لما ألَمَّ بأمة الإسلام من أهوال وآلام، لكننا نرجو أن تكون سحابة صيف توشك أن تنتهي، فليس ضياع القدس بحديث شهر قد عبر، ولا استحلال الدماء المعصومة بجرح واندمل، ولا ما يشابه هذه الأخطار، لكننا نستبشر إن شاء الله؛ إذ إن مع العسر يسرًا، والنصر مع الصبر، ولكنها أسباب يجريها الله عز وجل، وعبادة وقت يكلف بها أولياءه، فليست الأماني بكافية، فلابد من حساب النفس لتشخيص الداء (من يعمل سوءا يجز به)، فبم كسبت أيدينا ويعفو ربنا عن كثير، ولقد رجوت أن تكون وقفة الحساب في الدنيا، كما أنها سبب في الرحمة من مناقشة الحساب في الآخرة، أن تكون سببًا في رفع بلاء الدنيا أيضاً ، فكان حديث أمنا عائشة رضي الله عنها في الصحيحين وغيرهما.

الحديث:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حُوسِبَ يوم القيامة عُذِّبَ. فقلت: أليس قد قال الله عز وجل «فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا»؟ فقال: ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض؛ من نُوقِشَ الحساب يوم القيامة عُذِّبَ».

التخريج:

الحديث متفق عليه؛ رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب (٤٩٣٩) (٦٥٣٦)، ورواه مسلم في كتاب التفسير باب: في قوله تعالى: «فسوف يحاسب حساباً يسيراً» (٢٨٧٦)

المعنى العام:

قوله صلى الله عليه وسلم: «من حوسب عُذِّب» هو من الاستقصاء في المحاسبة والمطالبة بالجليل والحقير وترك المسامحة، فلما سمعت أم المؤمنين ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم استشكل عليها الأمر، فكيف من يحاسب يُعذَّب وقد قال الله: (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا)، لذا قالت رضي الله عنها: أليس يقول الله-تعالى-: (فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا)؟

ولأحمد من وجه آخر عن عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا» فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: «أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، وأن هذا اليسير هو العرض؛ إن من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هَلَك».

لذا رد عليها النبي صلى الله عليه وسلم مبينًا لها أن ذلك هو العرض، وأن مَن نُوقِشَ الحساب فليس حسابه باليسير

altawhedmag.com

فهو المعذَّب، والله أعلم. ينظر فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٥/٦٥٤١)، وفتح المنعم شرح صحيح مسلم، والصواعق المرسلة (٣/١٠٥٤).

بعض ما يستفاد من الحديث:

الأول: الحديث حجة في إثبات الحساب وإثبات العرض وهما مسألتان عقديتان ثابتتان بالكتاب والسنة والإجماع، ولو لم تثبتا إلا بمثل هذا الحديث لكفى؛ إذ الحديث النبوي عمومًا حجة بنفسه في العقائد والأحكام؛ خلافًا لمن أنكر ذلك.

الثاني: أن مجرد مناقشة الحساب والسؤال عن الصغيرة والكبيرة نوع من العذاب حتى ولو عُفي عن صاحبه بعد ذلك؛ قال الحافظ في الفتح: «قال عياض: قوله: «عُذِّب» له معنيان: أحدهما: أن نفس مناقشة الحساب وعرض الذنوب والتوقيف على قبيح ما سلف والتوبيخ تعذيب، الثاني أنه يفضي إلى استحقاق العذاب؛ إذ لا حسنة للعبد إلا من عند الله لإقداره عليها وتفضله عليه بها وهدايته لها، ولأن الخالص لوجهه قليل، ويؤيد هذا الثاني قوله في الرواية الأخرى «هلك»، وقال النووي: «التأويل الثاني هو الصحيح، لأن التقصير غالب على الناس فمن استقصى عليه ولم يُسامح هلك».

الثالث: وفيه من آداب العالم والمتعلم: جواز مراجعة المتعلِّم للعالم، وصبر العالم على المتعلم.

الرابع: وقد أخرته للتفصيل فيه- هو بيان الفرق بين العرض ومناقشة الحساب: وفي هذا أستعين بالله وأستغفره وأقول:

الناس يوم القيامة في حسابهم على أقسام:

١- منهم من يدخل الجنة بلا جزاء ولا حساب... كما جاء في حديث السبعين ألفًا، كما قال صلى الله عليه وسلم (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب؛ هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) رواه البخاري وغيره واللفظ للبخاري. وزاد الترمذي «مع كل ألف سبعون ألفًا وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل». وقال الألباني: صحيح.

ولا يشترط أن يكون هؤلاء هم أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد ورد في السنة ما يدل على أن ممن يحاسب قبل دخول الجنة من هو أفضل من هؤلاء السبعين ألفًا، قال الحافظ في الفتح: (ج١٥/ح٦٥٤١): وقد أخرج أحمد من حديث رفاعة الجهني: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب، واني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن الجنة».

٢- ومنهم من يحاسب حسابًا عسيرًا ومناقشتهم مناقشة ذنوب.. وهؤلاء هم الكفار والمشركون... يناقشهم الله أعمالهم حتى يزيد ندمهم وتعظم خيبتهم ثم يدخلهم النار.

٣- أما عموم المسلمين... فينقسم حسابهم إلى أقسام:

- قسم غلبت حسناته على سيئاته... فهؤلاء تعرض أعمالهم على الله ويقررهم بها.. فيقرون بذنوبهم ويعترفون فيسترها الله عليهم ويغفر لهم بفضله ورحمته.

- وأهل الأعراف.. وهم أناس تساوت حسناتهم وسيئاتهم.. فهؤلاء مردهم إلى رحمة الله تعالى.. إن شاء عفا عنهم وان شاء عذَّبهم.

- قسم غلبت سيئاته حسناته وقد استحقوا عقاب الله.. لكنهم تحت المشيئة.. إن شاء عذبهم وان شاء عفا عنهم. ينظر (فتح الباري ١١/٤٠٢) وعليه:

altawhedmag.com

١- العرض العام وهو للصالح والطالح.

٢- العرض بغير حساب وهو لطائفة من المؤمنين (سبعون ألفًا يدخلون الجنة).

٣- العرض مع الحساب اليسير وهو (فأما من أوتى كتابه بيمينه....).

- العرض مع الحساب والمناقشة ويلزمه العذاب وهو نوعان: الأول: لعصاة المؤمنين الذين كتب الله لهم العفو ومن ذلك حديث النجوى (يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول: أعلمت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقرره، ثم يقول له: إني سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم)، فهذه المناقشة وهذا الاعتذار نوعٌ من التوبيخ والعذاب. قال المناوي في شرح الجامع الصغير: (من نُوقِشَ الحساب) أي عُوسِرَ فيه (عُذِّبَ) أي تكون نفس تلك المضايقة عذابًا أو سببًا مفضيًا للعذاب ا.هـ

- والثاني: العرض مع الحساب والمناقشة ما يكون هلاكًا كما هو الحال مع مَن يُعذَّب من عصاة المؤمنين غير المعفو عنهم أو مع الكافرين، وتختلف مناقشة من يعذب من عصاة المؤمنين عمن يعذب من الكافرين؛ إذ الكافرون لا حسنات لهم، فتكون مناقشتهم مجرد إيقافهم على أعمالهم.

قال الشيخ محمد خليل هرّاس-رحمه الله- في شرحه على الواسطية، عند شرحه لقول المؤلف: «يُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِه المُؤْمِن، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِه؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة.وَأَمَّا الكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا». (وهذا مع اختلاف درجات العذاب).

- هذا وننبه على فائدتين ليستا من الحديث لكن تتعلقان بعفو الله عزوجل:

الفائدة الأولى: ليس معنى العفو أن تضيع حقوق العباد ففي الحساب تؤدَّى كلُّ الحقوق لأصحابها؛ حتى يصل العدل أن تُقضَى حقوق البهائم إليها، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لتؤدُنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقَاد للشاة الجَلْحَاء من الشاة القَرْناء)) مسلم (٢٥٨٢)

الفائدة الثانية: وليس معنى العفو أنه استحقاق للعبد؛ فإن العبد مهما كان محسنًا فإن دخوله الجنة تفضُّل من الله - عز وجلَّ- وامتنان على عباده؛ إذ إن دخول الجنة برحمة الله.

وختامًا: فإننا لازلنا نذكّر أنفسنا واخواننا أن المخرج من الفتن والأزمات التي تلم بالأمة عامة وبالفرد خاصة إنما هي بتحقيق الإيمان ابتداءً، والذي من وسائله الوقوف على مثل هذه الدقائق التي من شأنها أن يراجع العبد نفسه إذ يتصور والأرض تشرق بنور ربها ويتجلى الله للقضاء بين عباده وكلهم يُعرَضُون على الملك الجبار لا تخفى منهم خافية، والخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض من الأولين والآخرين في أرض المحشر ينتظرون فصل القضاء وما زالت الشمس فوق الرؤوس متعامدة وما زال الناس يلجمهم العرق، والقلوب، واجفة، والأبصار خاشعة.

فانظر يا أخي في هول ذلك اليوم وشدته، وقد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطُمست الشمس والقمر وأظلمت الأرض لخمود سراجها، فبينما هم كذلك، تتنزل ملائكة من أرجاء السماء لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والكل ينتظر عفو الله العفوَ؛ فاللهم اشملنا بعفوك يا أرحم الراحمين، وأدخلنا الجنة مع عبادك الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

altawhedmag.com

والآخرة خير وأبقى

إعداد د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن متاع الدنيا واقع مشهود، ونعيم الجنة غيب موعود، والناس تصدق بالشهادة أكثر من الغيب، فكيف إذا كان الموعود يُنال بعد الموت؟ من أجل ذلك قارن جل وعلا بين الآخرة والأولى، وبيَّن أن نعيم الجنة خيرٌ وأبقى فقال تعالى: « وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » (الأعلى:١٧)، ومن السنة ما رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عَنْ سَهْلِ بن سعد قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

التخريج:

- صحيح البخاري ت البغا (٢٣٥٨/٥) (٦٠٥٢) كتاب الرقاق: باب مثل الدنيا في الآخرة.

- وفي سنن الترمذي ت بشار (٢٣٢/٣) باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله، وقال: حسن صحيح.

- ولبعضه شاهد في صحيح مسلم (١٤٩٩/٣) من حديث أنس في الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة (ولغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما عليها).

مفردات الحديث:

- (موضع سوط): قدر موضعه.

- والسوط: ما يُضرَب به من جلد ونحوه).

- (الغدوة): زمن ما بين طلوع الشمس إلى الزوال.

- (روحة): زمن ما بين الزوال إلى الليل، والمعنى قضاء مثل هذا الوقت في سبيل الله أكثر ثوابًا من التصدق بالدنيا وما فيها أو خير لمن فعل ذلك مما لو ملك الدنيا وما فيها.

المعنى العام للحديث:

يبين رسول الله منزلة الدنيا من الآخرة، بأن جعل موضع سوط من الجنة أو غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، وإنما أراد ثواب الغدوة أو الروحة في الآخرة؛ لينبِّه أمته على هوان الدنيا عند الله تعالى وضعَتها، فهي كما وصفها تعالى «لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ» (الحديد: ٢٠) الآية.

(ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٤٠١/٢٩)، (شرح صحيح البخارى لابن بطال (١٤٨/١٠).

مما يستفاد من الحديث:

أولا: من أصول الإيمان: الإيمانُ بالجنة والنار، وأنهما المآل الأبدي للخلق، والجنة دار النعيم التي أعدَّها الله للمؤمنين؛ قال الله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ» (البينة: ٧-٨)، وقال تعالى: « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » (السجدة: ١٧).

ثانيا: الترغيب في الغدوة والروحة في سبيل

Upload by: altawhedmag.com

الله: فالوقت الذي يمضيه المجاهد في سبيل الله وقتٌ نَفيسٌ لا يقدر بثمن؛ فمقام بضع ساعات في الجهاد يعدلُ الدنيا وما فيها.

قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم: «فضل الغدوة والروحة في سبيل الله وثوابهما خير من نعيم الدنيا كلها لو ملكها الإنسان، وتصور تنعمه بها كلها؛ لأنه زائل ونعيم الآخرة باقٍ، قال القاضي: وقيل في معناه ومعنى نظائره من تمثيل أمور الآخرة وثوابها بأمور الدنيا: أنها خير من الدنيا وما فيها لو ملكها إنسان، وملك جميع ما فيها، وأنفقه في أمور الآخرة، قال هذا القائل: وليس تمثيل الباقي بالفاني على ظاهر إطلاقه». والله أعلم.

ثالثًا: الآخرة خير وأبقى من الأولى:

ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما كان يلفتُ الأنظار إلى هذه الموعظة، ومن ذلك ما نحن بصدده من هذا الحديث الشريف المبارك فمن أدرك الفوز في الدار الآخرة فقد أدرك الفوز العظيم، ومَن فاتته الآخرة، ووافى ربه يوم القيامة مقصرًا فذلك هو الخسران المبين قال تعالى: «قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (الزمر: ١٥)، فالعاقل مَن لم تشغله الفانية عن الباقية، ثم هو يقبل على صلاح آخرته مع قيامه بما يحتاج إليه من أمر معاشه، كما قال تعالى «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا» (القصص: ٧٧).

من أجل هذا كان يتنافس على هذا الفاهمون؛ كما قال تعالى: (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون). وقد فهم الصحابة والسلف موعظة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا يتنافسون على الآخرة.

ومن دلائل أفعالهم في ذلك ما رواه أبو ذر رضي الله عنه: أن ناسًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: ((أوَليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن لكم بكل تسبيحة صدقةً، وكل تكبيرة صدقةً، وكل تحميدة صدقةً، وكل تهليلة صدقةً، وأمر بالمعروف صدقةً، ونهي عن منكر صدقةً، وفي بُضْع أحدكم صدقةً))، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: ((أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ))؛ رواه مسلم.

والشاهد هو المنافسة بين الصحابة رضي الله عنهم على ما يقرّبهم إلى الله تعالى.

ومن أقوالهم رضي الله عنهم كما رواه أبو نعيم في الحلية: عن موهب بن عبد الله قال: لما استُخلف عمر بن عبد العزيز، كتب إليه الحسن البصري كتاباً، بدأ فيه بنفسه: «أما بعد، فإن الدنيا دار مخيفة، إنما أهبط آدم من الجنة إليها عقوبة؛ واعلم، أن صرعتها ليست كالصرعة، من أكرمها يُهَن، ولها في كل حين قتيل؛ فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه، يصبر على شدة الدواء، خيفة طول البلاء؛ والسلام». (حلية الأولياء: ١٤٨/٢).

وعن جابر - يعني: الجعفي - قال: «قال لي محمد بن علي: يا جابر، إني لمحزون، واني لمشتغل القلب؛ قلت: ولم حزنك، وشغل قلبك؟ قال: يا جابر، إنه من دخل، وقلبه صاف خالص، دين الله شغله عما سواه؛ يا جابر، ما الدنيا، وما عسى أن تكون؟ هل هو إلا مركب ركبته، أو ثوب لبسته، أو امرأة أصبتها؛ يا جابر: إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار؛ إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة، وأكثرهم لك معونة؛ إن نسيت ذكّروك، وان ذكرت أعانوك، قوالين بحق الله، قوامين بأمر الله، قطعوا محبتهم بمحبة

Upload by: altawhedmag.com

الله عز وجل؛ ونظروا إلى الله عز وجل وإلى محبته بقلوبهم، وتوحشوا من الدنيا لطاعة مليكهم، وعلموا أن ذلك منظور إليهم من شأنهم؛ فأنزل الدنيا بمنزل نزلت به، وارتحلت عنه؛ أو كمال أصبته في منامك، فاستيقظت، وليس معك منه شيء؛ واحفظ الله تعالى ما، استرعاك من دينه وحكمته». (حلية الأولياء: ١٨٢/٣).

• وخطب عمر بن عبد العزيز فقال: «إن الدنيا ليست بدار قرار، داركم كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الظعن؛ فكم عامر موثق، عما قليل مخرب؟ وكم مقيم مغتبط، عما قليل يظعن؟ فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة، بأحسن ما يحضركم من النقلة، وتزودوا، فإن خير الزاد التقوى؛ إنما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب، بينا ابن آدم في الدنيا ينافس فيها، وبها قرير العين، إذ دعاه الله بقدره، ورماه بيوم حتفه، فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه؛ إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، إنها تسر قليلاً، وتجر حزناً طويلاً». (حلية الأولياء: ٢٩٢/٥).

وعن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه، قال: «دخلت على أبي بكر رضي الله تعالى عنه في مرضه الذي توفي فيه، فسلمت عليه؛ فقال: رأيت الدنيا قد أقبلت ولما تقبل، وهي جائية، وستتخذون ستور الحرير، ونضائد الديباج، وتألمون ضجائع الصوف الأزرى، كأن أحدكم على حسك السعدان؛ ووالله، لئن يقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير حد، خير له من أن يسبح في غمرة الدنيا». (حلية الأولياء ٣٤/١). وعن شميط بن عجلان قال: «كل يوم ينقص من أجلك وأنت لا تحزن، وكل يوم تستوفي من رزقك؛ قد أعطيت ما يكفيك، وأنت تطلب ما يطغيك؛ لا بقليل تقنع، ولا من كثير تشبع؛ فكيف يستبين للعالم جهل من قد عجز عن شكر ما هو فيه، وهو مغتر في طلب الزيادة؟ أم كيف يعمل للآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته، ولا تنقضي فيها رغبته؟ فالعجب كل العجب؛ لمصدق بدار الحق، وهو يسعى لدار الغرور». (حلية الأولياء: ١٢٩/٣).

وكما قال ابن القيم رحمه الله في رائعته في وصف الجنة:

فحي على جنات عدن فإنها
منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو، فهل ترى
نعود إلى أوطاننا ونسلم
وحي على روضاتها وخيامها
وحي على عيش بها ليس يسأم
وحي على يوم المزيد وموعد
المحبين، طوبى للذي هو منهم
وحي على واد بها هو أفيح
تربته من أذفر المسك أعظم
ومن حولها كثبان مسك مقاعد
لمن دونهم هذا الفخار المعظم
يرون به الرحمن جل جلاله
كرؤية بدر التم لا يتوهم
أو الشمس صحواً ليس من دون
أفقها ضباب ولا غيم هناك يغيم
فبادر إذا ما دام في العمر فسحة
وعدلك مقبول وصرفك قيم
فما فرحت بالوصل نفس مهينة
ولا فاز قلب بالبطالة ينعم
فجدّ وسارع واغتنم ساعة السري
ففي زمن الإمكان (تسعى وتغنم)
وسر مسرعاً فالسير خلفك مسرع
وهيهات ما منه مفر ومهزم
فيا مسرعين السير بالله ربكم
قفوا بي على تلك الربوع وسلموا

نسأل الله أن يغفر لنا ويجعلنا من أهل الجنة، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

نعمة الكلام وترويض اللسان

إعداد د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإنَّ من أعظم نعم الله على عباده جارحة اللسان، والتي أناط الله بها نعمة الكلام، وعلق بها أسهل العبادات وأعلاها، ووعد المتعبد بها بأعلى الدرجات وأرقاها، ثم حذَّر المفرطين فيها المستهينين بها من أحطِّ الدركات وأدناها؛ كما في حديث الشهر الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله وغيره.

أولاً: الحديث:

عَنْ أبي هريرة عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: «إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

ثانيا: التخريج:

رواه من أصحاب الكتب الستة:

١- الإمام البخاري في "صحيحه" (٣٠٨/١١ رقم ٦٤٧٧ و٦٤٧٨) في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، واللفظ له.

٢- وله شاهد لبعضه في صحيح مسلم (٢٢٩٠/٤ رقم ٤٩ و٥٠) في الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، ولفظه: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب».

٣- وشاهده في سنن الترمذي، ط بشار (١٣٧/٤) كتاب الزهد، باب قلة الكلام، رقم (٢٣١٩) من حديث بِلاَل بْن الحَارِث المُزَنِي رضي الله عنه.

٤- وابن ماجه في أبواب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة ت الأرناؤوط (١١٣/٥) من حديث الحارث رضي الله عنه.

ثالثا: الشرح:

قَوْله: (إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ) أي: إن العبد ليتكلم بالكلمة مما يُرْضِي الله، أو من توفيق الله له. (لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً) أي: لا يلتفت إليها خاطره، ولا يعتد بها ولا يُبالي بها، ومعنى البال هُنَا القلب. قَوْله: (يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ) يرفعه الله بها درجات في الجنة (وَإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ) مما لا يرضي الله به مما يعارض الشرع (لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) ينزل بسببها في قاع النار ساقطا. (ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٧٢/٢٣)، شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٨٥/١٠)، إكمال المعلم بفوائد مسلم (٥٣٧/٨)) وغيرهم).

مما يُستفاد من الحديث:

أولاً: نعمة الكلمة:

اللسان عضو صغير خلقه الله، جعل خلقته دليلاً على وحدانيته، صغيرٌ حجمه جليلٌ أمره، عظيمٌ عند الواحد الديان؛ إذ هو طريق إلى الجنان أو إلى الخسران، معاذ الله.

هذا ومن دلائل وحدانيته فيه أن خلق

Upload by: altawhedmag.com

الله لكل ناطق من الحيوان لسانًا، وجعل لكلٍّ لغته ومنطقه، وعلم اللغات، وسمع الأصوات، ولا يختلف عليه صوت من صوت، ولا يشكل عليه منطق عن آخر قال تعالى: « وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ » (الروم: ٢٢).

ومع هذا فإن العبد تجاه ذلك اللسان بين كلمتين؛ كلمة من رضوان الله، وكلمة من سخط الله خسران، كما في حديث الشهر.

ثانيًا: الكلمة بداية النجاة:

والكلمة هي أول طريق النجاة إذ هي الوسيلة الأولى لتحقيق التوحيد، فلا إسلام بغير نطق بالشهادتين ابتداءً، ثم ما يتلو ذلك من ضوابط أخرى منوط بها اللسان كالإقرار والإنكار وغير ذلك من الأحكام، ثم هي من أهم وسائل تحقيق معنى الأمة التي تتوحد بها على كلمة التوحيد،

كما أنها من أهم وسائل الدعوة إلى الله؛ إذ هي من أهم معبرات الحكمة والموعظة الحسنة التي أمر بها الله (ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) (سورة النحل ١٢٥).

وبعد هذا كله؛ فالكلمة سبيلٌ إلى كسب قلوب الخلق لدعوتهم إلى الحق، وليست قصص النبي صلى الله عليه وسلم في السنة بقليلة، كتعامله مع الأعراب من بال منهم في المسجد وغيره.

ثالثًا: الكلمة جهاد:

والكلمة الطيبة سيفٌ به يُجاهد المسلم، فبها تقوم الحجة، ويرتد الباطل، وتنفتح القلوب بل والبلدان.

ولا يخفى أن فتح البلدان بالكلمة قدَّمه الشارع على فتحها بالسيوف والسنان، فما فُتحَتْ المدينة المنورة إلاَّ بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وقد أسلم معظم أهل المدينة على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه، ثم كانت بيعة العقبة المباركة، وتبعها هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام للمدينة التي فتحت قلبها لدين الله قبل أبوابها، بل ومثاله في عصرنا كثير وكثير، وإلا فما هذه الملايين الكثيرة التي ملأت أمريكا وبعض أوربا وشرق آسيا والصين وقد أدخل الله في قلبها الإسلام، وما وصل إليها سيف ولا سنان.

فمتى أُحيطت الكلمة بسياج الشرع آتت أكلها وهو ما بينَّه لنا الله عز وجل كنحو تعليمه لألين الخلق كما قال تعالى: « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ » (آل عمران: ١٥٩).

فألف الله بسببها بين قلوب الأنصار كما قال تعالى: « وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (الأنفال: ٦٣)؛ فكانت نواة لأول ديار الإسلام.

سياج الشرع والعقل لست أعني به لين الكلام وحلوه فقط، بل كما يلين في مواضع يشتد في أخرى، كما قال المتنبي:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مُضِرّ كوضع السيف في موضع الندى

فكل له موضعه، فالقصد الحقيقي منه عبادة البيان.

رابعًا: الكلمة أمانة:

فالكلمة إذن ليست شيئًا يمكن أن يُلفظ فيُهْمَل، بل هي مسجَّلة مكتوبة ومشهودة، فلا تضيع ولا تُنْسَى؛ كما قال جل في علاه: «عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى » (طه: ٥٢)، وقال تعالى ذكره: «إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا » (الإسراء: ٣٦).

ثم وصية النبي صلى الله عليه وسلم المشهورة لسيدنا معاذ رضي الله عنه وفيها ".. وهل يكب الناسَ على وجوههم أو قال

Upload by: altawhedmag.com

على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.." (رواه الترمذي)، وكما لا يخفى حديث المفلس ونحو ذلك، فضلاً عن حديث الشهر.

خامسًا: خطورة الكلمة:

هذا والكلمة مع كونها نعمة إذا كانت من رضوان الله؛ فهي نقمة إذا كانت من سخطه على العاصي؛ إذ كل مسطَّر عليه ما بين كاتب وشهيد، قال تعالى: « مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » (ق: ١٨).

وقال تعالى: « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ » (النور: ٢٤، ٢٥).

بل ومن الخطورة أن الله تعالى يعاقب خير مجتمع على ظهر الأرض لمجرد كلمة قللت توكل بعضهم على ربه حين قالوا يوم غزوة حنين: لن نُغْلَب من قلة. نحن كُثيرون. فقال تعالى: «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ » (التوبة: ٢٥).

وبكلمة من رأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول همَّت طائفتان أن تفشلا في غزوة أحُد عندما عاد بثلث الجيش وهو على عين عدوه قال تعالى: «إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (آل عمران: ١٢٢).

وبكلمة ظهرت آيات النفاق على من قال الله في شأنه: « وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا » (الأحزاب: ١٢)؛ وذلك أن طعمة بن أبيرق ومعتب بن قشير وجماعة نحو من سبعين رجلاً قالوا يوم الخندق: كيف يَعِدُنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز؟ لما فشا في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قوله ذلك عندما سمَّى وضرب الصخرة. (تفسير القرطبي لسورة الأحزاب، ص٤١٩).

ونحو ذلك مما حذَّر الله منه من خطورة كلام المنافقين على المؤمنين في تفشيلهم وفتنتهم كما في غزوة تبوك « لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » (سورة التوبة: ٤٧)، وعليه فإن من خطورتها قيام حروب وخراب بيوت، وارتداد عن الدين، وإزهاق أرواح. فاللهم عفوك يا عفوّ.

الخاتمة:

والخلاصة أنَّ الكلمة سلاحٌ له حدّ حادّ إلى الجنة، وآخر يؤدي إلى النار، فإن كانت من رضوان الله على الطائعين كانت الكلمة الطيبة الصالحة العامرة المأجورة بالجنان، وإن كانت من سخط الله على المعرضين كانت الخبيثة الباطلة الهادمة المعاقبة بالنيران.

هذا وانتبه يا أيها الحبيب فأنت في رجب، وهذه منَّة من الله، والله نسأل أن يبلغنا بعده شعبان ورمضان؛ فرجب غرس لرمضان كما قال بعض السلف: "السنة مثل الشجرة، وشهر رجب أيام توريقها، وشعبان أيام تفريعها، ورمضان أيام قطفها، والمؤمنون قُطّافها، جدير بمن سوَّد صحيفته بالذنوب أن يبيضها بالتوبة في هذا الشهر، وبمن ضيَّع عمره في البطالة أن يغتنم فيه ما بقي من العمر" (ينظر في ذلك: وظائف شهر رجب من لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، للحافظ ابن رجب رحمه الله).

فهلا بدأنا من يومنا في ترويض جارحة اللسان لعبادة الرحمن بالذكر والدعاء والاستغفار وتلاوة القرآن، وما استطعنا من شُعَب الخير من عبادات، أناط الله بها اللسان، أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يحفظ علينا ديننا وكتابنا وسنة نبينا وقلوبنا وألسنتنا، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

الإيمان والقرآن.. نور على نور

إعداد د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن حبيب الأمة شهر رمضان المبارك شهر جعله الله علمًا على الطاعات ومناخًا تزيد فيه القربات، وكان على رأس ذلك ما افترضه الله من الصيام وما يتسنن به عباد الله من القرآن والقيام، ثم الصدقات وسائر العبادات وكلها شعب من شعب الايمان التي يزيد بالطاعات وينقص بالمحرمات، وفي هذه البيئة الطيبة بيئة سيد الشهور في الدهور نتناول قضية من أهم القضايا وأولاها ومن أصول التربية وأعلاها؛ أعني قضية تعلم الايمان قبل القرآن، ثم ثمرة ذلك عندما يأتي بعده القرآن وتعلم الايمان قبل القرآن منهج نبوي ومسلك تربوي في تربية الجيل الأول الذي حقق للأمة مجدها وسطر لها تاريخها وقبل ذلك سبب لسعادة العبد في الدارين؛ وكان ذلك بعضًا مما يستفاد من حديث حذيفة ابن اليمان رضي الله عنهما في الصحيحين وغيرهم

أولا: المتن:

قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ؛ حَدَّثَنَا أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ؛ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ». ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ. فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ. فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ. كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ (ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ) فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا. حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ». وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ. لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينُهُ، وَلَئِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ لأُبَايِعَ مِنْكُمْ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا".

ثانيا: تخريج الحديث:

أخرجه البخاري في "كتاب الرقاق" "باب رفع الأمانة" حديث (٦٤٩٧)، وأخرجه مسلم حديث (١٤٣)، وأخرجه الترمذي في "كتاب الفتن" "باب ما جاء في رفع الأمانة" حديث (٢١٧٩)، وأخرجه ابن ماجه في "كتاب الفتن" "باب ذهاب الأمانة" حديث (٤٠٥٣).

ثالثا: شرح ألفاظ الحديث:

قوله: (حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم حَدِيثَيْنِ): معناه حدثنا في الأمانة حديثين وهما المذكوران في هذا السياق والمراد قوله: "الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ"، وبالثاني قوله: "ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ... إلى آخره"، وإلا فإن حذيفة رضيَ الله عنه روى كثيراً من الأحاديث في الصحيحين وغيرهما. (انظر شرح النووي لمسلم ٣٤٧/٢، بتصرف يسير).

قوله: (أَنَّ الأَمَانَةَ): الأمانة هي كل أوامر الشرع ونواهيه؛ كما قال تعالى: « إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا »

altawhedmag.com

(الأحزاب: ٧٢).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٤٨٩/٦)- بعدما ذكر مجموعة من أقوال علماء السلف في تفسير لفظ " الأمانة "-:

" وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها: التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عُوقِبَ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله، وبالله المستعان " انتهى من "تفسير ابن كثير".

وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى كذلك في تفسيره (٢٠٤/١٩ - ٢٠٥) قال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قاله الذين قالوا: إنه عُنِيَ بالأمانة في هذا الموضع جميع معاني الأمانات في الدين، وأمانات الناس. وذلك أن الله لم يَخُصَّ بقوله (عَرَضْنَا الأَمَانَةَ) بعض معاني الأمانات لما وصفنا " انتهى من " تفسير الطبري".

ونقل القرطبي رحمه الله تعالى كذلك نفس المعنى وعزاه إلى الجمهور في " تفسير القرطبي " (٢٤٤/١٧): "والأمانة تعمّ جميع وظائف الدّين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور". وهذا هو معناها الواسع المراد. والله أعلم.

قوله: (ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ): المراد من رفع الأمانة ذهابها، أو ذهاب أهلها حتى يكون الأمين في حكم النادر كما أشار إلى هذا في سياق الحديث.

قوله: (يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ): أي: تنزع في حال غفلة وضعف في الإيمان، أو يحمل على ظاهره فيكون المقصود سرعة رفع الأمانة من القلب أثناء النوم في ليل أو نهار.

قوله: (فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ): الوكت: هو الأثر اليسير، والمعنى أن الأمانة تذهب حتى ما يبقى منها إلا اليسير.

قوله: (فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ): و(الْمَجْل): ارتفاع في الجلد يظهر في اليد من العمل بفأس ونحوه، ويصير مثل القبة ويمتلئ ماء.

قوله: (فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً): أي انتضح، وانْتَبَرَ الجرح وانتفط إذا ورم وامتلأ ماء، والمقصود من هذه التشبيهات بيان تدرج ذهاب الأمانة شيئاً فشيئاً.

قوله: (فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ): أي يبيعون ويشترون، وهنا اختار حذيفة رضي الله عنه فرعًا من أفرع الأمانة، وهو أمانة المعاملات كمثال على الأمانة والا فالأمانة هي المفهوم الشامل الذي تقدم.

(لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ): فيه بيان لغياب الأمانة.

قوله: حتى يقول الناس إن في بني فلان رجلاً أمينًا: وذلك لندرة الأمناء.

(مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ): (مَا أَجْلَدَهُ) أي: ما أقواه، (مَا أَظْرَفَهُ) أي ما أحسن وجهه وهيئته ولسانه، (مَا أَعْقَلَهُ) أي: ما أقوى عقله وذهنه وتفكيره وتمييزه بين الحسن والقبيح.

(وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ): المراد: المبالغة في الصغر أي حتى الذي اختاروه هذا معتقدين أمانته ليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فلم تتحقق الأمانة.

(وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ): يقصد به زمن الصدر الأول في الإسلام حين كانت الأمانة مستقرة في القلوب، فالمؤمن يدفعه إيمانه لدفعها، والنصراني أو اليهودي يدفعه من يتولاه ومبادئه.

(لا أبالي أيكم بايعت): أنني في ذلك الزمن لا أبالي في مبايعتي لأحد بيعي وشرائي لاستقرار الأمانة.

(وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ لأُبَايِعَ مِنْكُمْ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا): أي وأما الآن فإنني لا أثق إلا في قلة من الناس، وحذيفة رضي الله عنه توفي سنة (٣٦) من الهجرة، فما بالنا لو أدركنا حذيفة؟! فإلى الله المشتكى، وهو المستعان. (ينظر شرح الحديث: شرح النووي على مسلم، إبهاج المسلم بشرح صحيح مسلم (كتاب الإيمان) للدكتور عبدالله الفريح).

مما يُستفاد من الحديث:

altawhedmag.com

أولاً: تعهد العبد لإيمانه وخوفه على نفسه من الشر:

وذلك من وقفتنا مع سلوك راوي الحديث ومنهجه التربوي؛ إذ أن حذيفة رضي الله عنه هو أمين سر رسول الله وهو الخبير بأمر الفتن كذلك؛ وذلك أن منهج تعهده لنفسه، وإيمانه كان مبنيًا على الحذر من الشر؛ إذ قال رضي الله عنه: (كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني.. الحديث) (رواه البخاري في كتاب الفتن)؛ فمعرفة الشر لتوقيه منهج إيماني سلفي كان الصحابة يتبنونه، انتهى (ينظر سير أعلام النبلاء ج٢/ص٣٦١).

ثم هو بعد ذلك يخاف على نفسه فيتعهد إيمانه!

وهذا المنهج لم يكن من نصيب حذيفة فحسب، بل هو منهج منتشر بين أفضل جيل عرفته البشرية، ومن ذلك ما صح من سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما أدراك ما عمر؟! وهو يسأل حذيفة ويستحلفه: أوسماني رسول الله من المنافقين؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسَرَّ لحذيفة بأسماء المنافقين، فمن عمر الذي يخشى على نفسه النفاق؟!

بل وقد طال هذا المنهج- أعني منهج تعهد الإيمان واتهام النفس- طال أفضل الأمة بعد نبيها، بل أفضل الخلق بعد الأنبياء، ثاني اثنين إذ هما في الغار؛ خليفة رسول الله المبشر بأبواب الجنة جميعا، طال أبا بكر ومعه كاتب الوحي حنظلة بن الربيع رضي الله عنهما؛ ففي صحيح مسلم في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة (٢٧٥٠)؛ عن حنظلةَ رضي الله عنه قال: "لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلتُ: نافق حنظلة! قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافَسْنا الأزواج والأولاد والضَّيْعات، فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم... الحديث) انطلقا يشكيان أنفسهما إلى رسول الله، فليكن لنا في سلفنا خير أسوة في خير شهر.

الفائدة الثانية: تعلم الإيمان قبل القرآن وفرصته الكبرى في شهر رمضان

رمضان شهر القرآن وذلك صار كالمعلوم بالضرورة شهرة بين العباد، لكننا نتمنى على الله أن يكون القرآن لنا هذا العام نور على نور كما كان لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

إذ في تفسير قوله تعالى: «نور على نور» قال ابن كثير رحمه الله: "كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه" وهو ما حكى معناه غير واحد من السلف في تفسير قوله تعالى: «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء» وفي وقوله تعالى: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون»، قال بعضهم: فضل الله الإيمان، ورحمته القرآن.

ثم يتضح هذا المنهج جليًا مما تظاهرت معانيه عن غير واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عن أصحابه؛ إذ كانوا يتعلمون الإيمان قبل القرآن، ويقرءون القرآن بمنهج زيادة الإيمان.

فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقول: " لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يُؤْتَى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم، فيتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيتُ اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمرُه ولا زاجرُه، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، فينثره نثر الدقل" يعني التمر الرديء" (رواه البيهقي: ٥٠٧٣).

والحمد لله رب العالمين

altawhedmag.com



حجة بالغة وعمر مبارك

باب السنة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد انقضى الشهر الكريم، وبانقضائه ينقضي جزء من الأجل، فالإنسان أيام ، إذا ذهب يوم ذهب بعضه، وذهاب البعض ذهاب للكل، وبمرور الشهور والدهور يبلغ الإنسان أجلاً كما أنه يكون عليه حجة؛ فهو له عمر مبارك.

روى الإمام البخاري بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعذر الله إلى امرئ أخَّر أجَلَه حتى بلَّغه ستين سنة).

أولا: التخريج:

صحيح البخاري تـ البغا (٥/ ٢٣٦٠)، كتاب الرقاق، باب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ؛ لقَوْله: «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ» (فاطر: ٣٧).

ثانيا: الشرح:

شرح عنوان الباب:

١- قوله بابٌ: (أي هذا بابٌ) بالتنوين يذكر فيه (من بلغ) من العمر (ستين سنة فقد أعذر الله) عز وجل (إليه في العمر). وأعذر: أي أزال الله عذره فلم يبق له اعتذار كأن يقول: لو مدّ لي في الأجل لفعلت ما أمرت به.. إذ لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له فلا ينبغي له حينئذ إلا الاستغفار والطاعة والإقبال على الآخرة بالكلية؛ لقوله عز وجل: «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ» (فاطر: ٣٧)، وهو توبيخ من الله، أي فيقول الله تعالى لهم توبيخًا.

وقوله تعالى: (وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ): قال

إعداد د. مرزوق محمد مرزوق

الحافظ في الفتح ج١١/ ٢٤٠: «وقد اختلف أهل التفسير فيه؛ فالأكثر على أن المراد به الشيب؛ لأنه يأتي في سن الكهولة فما بعدها، وهو علامة لمفارقة سن الصبا الذي هو مظنة اللهو، وقال علي: المراد به النبي صلى الله عليه وسلم. وقال بعضهم: إنها الآفات، وكله محتمل. (انتهى بتصرف من فتح الباري).

شرح الحديث:

(قوله: أعذر الله إلى امرئ أخَّر أجَلَه) أي: أطال حياته (حتى بلَّغه ستين سنة) أي: لم يبق فيه موضعًا للاعتذار؛ حيث أمهله إلى طول هذه المدة، ولم يعتذر، يقال: أعذر الرجل إذا بلغ أقصى الغاية في العذر.

ومنه قولهم: أعذر مَن أنذر، أي أتى بالعذر وأظهره، وهو مجاز عن القول؛ فإن العذر لا يتوجه على الله، وإنما يتوجه له على العبيد، وحقيقة المعنى فيه أن الله لم يترك شيئًا في الاعتذار يتمسك به، قال ابن بطال: إنما كانت الستون حدًّا لهذا؛ لأنها قريبة من معترك المنايا، وهي سن الإنابة والخشوع وترقب المنية؛ فهذا إعذار بعد

Upload by: altawhedmag.com

إعذار لطفًا من الله تعالى بعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم، ثم أعذر إليهم فلم يعاقبهم إلا بعد الحجج الواضحة، وإن كانوا قد فُطِرُوا على حب الدنيا وطول الأمل، لكنهم أُمِرُوا بمجاهدة النفس في ذلك؛ ليمتثلوا ما أمروا به من الطاعة وينزجروا عما نهوا عنه من المعصية.

ثالثًا: مما يُستفاد من الحديث:

أولاً: الاتعاظ بمراحل العمر:

والعمر الذي يلام المكلف ويوبَّخ عند تقصيره فيه لا يقتصر على عمر الستين. بل هو يشتمل على كل عمر يتمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه. فليس معنى الحديث أنه موعظة لمن بلغ الستين فقط، بل هو لكل مَن قدر على الإنابة، فلا يدري العبد متى سيموت، ولكل مرحلة من مراحل العمر وظائفها، ثم كلها بعد ذلك سنّ إنابة وتقوى لمن فَقُهَ سُنَّةَ الحياة الدنيا إذ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ (الحج: ١- ٢)، وتكرر معناها كثيرًا بما لا يحيط به مقال، فما خص بها رسول الله كبيرًا ولا صغيرًا، يقول ابن حجر رحمه الله تعالى: وقوله «أو لم نعمركم» متناول لكل عمر تمكّن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر إلا أن التوبيخ في حق المتطاول أعظم، واختلف في مقدار العمر المراد هنا، فعن علي بن الحسين زين العابدين سبع عشرة سنة. وعن وهب بن منبه أربعون سنة.

وقال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله عز وجل، وعن ابن عباس ستون سنة.. ولأبي الفرج بن الجوزي الحافظ جزءٌ لطيف سماه «تنبيه الغمر بمواسم العمر»؛ ذكر فيه أنها خمسة: الأول من وقت الولادة إلى زمن البلوغ، والثاني إلى نهاية شبابه خمس وثلاثين، والثالث إلى تمام الخمسين وهو الكهولة، قال: وقد يقال له كهل لما قبل ذلك، والرابع إلى تمام السبعين؛ وذلك زمان الشيخوخة، والخامس إلى آخر العمر، قال: وقد يتقدم ما ذكرنا من السنين ويتأخر. (ينظر فتح الباري ج١١/ ٢٤٠).

فإن كان الإنسان مطالبًا بالإنابة في جميع ما يعقل من عمره فلماذا الستون؟

وغاية ذلك فيما يبدو أن الستين فيها يظهر الشيب، وهي منحنى من منحنيات العمر، وإن امرأ بلغ الستين ولم يفقه أنه سيلقى الله، ويخلص في العمل، ويجعل أكثر وقته في الطاعة، لا حُجة له أبداً عند الله تبارك وتعالى، ولا يعني ذلك أبداً أن من دون الستين لهم الحجة على الله، فليس لأحد حجة على الله بعد إرسال الرسل، وانزال الكتب.

فإذا عُمِّرَ الإنسان حتى بلغ ستين سنة؛ فقد أقيمت عليه الحجة، ونُفي عنه العذر؛ لأن ستين سنة يبقى الله الإنسان إليها؛ يعرف من آيات الله ما يعرف.

حجة بالغة وعمر مبارك:

هذا وإن كان كل من بلغ الحلم فقد كُلِّف، غير أن صاحب هذه السن قد بلغته حجة بالغة، وقد بلغ هو عمر جميل مبارك؛ إذ مع خبرته ودربته وإنابته ورقته لا يزال قادرًا على العطاء.

السنّ عاملٌ من عوامل التقدير:

وإن شئت قلت (مكانة كبار السن في الإسلام) كما سمّاه د. كامل القيسي في كتاب ماتع رقيق عنوَنَه بهذا العنوان، وبيَّن فيه مكانة كبير السن في القرآن ومكانة كبير السن في السنة النبوية، وكان من أهم ما استند إليه من أدلة السنة حديث الشهر، إذ الحديث يحمل في طياته معنى غاية الخبرة بالحياة والعلم بغاية الخلق؛ فإن كان الله عز وجل الذي خلقهم قد جعل هذا السن هو سن الإنابة والاعتبار فلقد صار هذا السن

Upload by: altawhedmag.com

كذلك هو السن الجميل الذي يقدر فيه صاحبه من قبيل الخلق؛ إذ قد تعب أصحابه وخدموا وأفنوا أعمارهم لصغارهم وبذلوا فحري بالصغير أن يحترم كبيره وعندنا في هذا محجة بيضاء وشريعة غراء؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم مرشدًا للصغير أن يحترم الكبير، فقال: (كَبِّر، كَبِّر...) الحديث أخرجه البخاري.

إن إقامة الحجة خُلُق تربوي فضلاً عن كونه أصلاً شرعيًا؛ فالله عز وجل لا يُسأل عما يفعل لكنه يقيم الحجة على عباده، وهذا أصل من أصول الدين.

فقه السلف للغاية من الخلق:

لذا ولغيره من نور الوحيين علم سلفنا الصالح غاية خلقهم، واتعظوا من نور وحي نبيهم؛ فلم تكن مثل هذه الآثار لتمر عليهم دون معرفة غايتها أو يحفظوها دون تحقيق المراد منها. يقول (علي سعيد حسين) في كتابه (يا صاحب الستين ص١٣)، وما بعدها بتصرف: «ولقد فطن سلفنا الصالح إلى أمر الستين؛ فأولوها عناية زائدة خاصة بها، واستقبلوها خير استقبال.

فهذا البخاري رحمه الله يبوب في صحيحه عن الستين عامًا فقال: باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله تعالى: «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ» (فاطر: ٣٧).

وبوَّب النووي في رياض الصالحين: باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر، قال الله تعالى: «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ» (فاطر: ٣٧)، قال ابن عباس رضي الله عنهما والمحققون: معناه أو لم نعمركم ستين سنة (رياض الصالحين).

وقال المناوي في فيض القدير: «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، أي بسط عذره على مواضع التملق به وطلب العذر إليه كما يقال لمن فعل ما نهي عنه ما حملك على هذا؟ فيقول: خدعني فلان وغرني كذا ورجوت كذا وخفت كذا) (فيض القدير للمناوي).

والإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم.

لما كان هذا العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة كما ورد بذلك الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك» رواه الترمذي وابن ماجه (تفسير ابن كثير والحديث صحيح، في صحيح الجامع).

وفي الحديث إشارة إلى أن استكمال الستين مظنة لانقضاء الأجل، وأصرحُ من ذلك ما أخرج الترمذي بسند حسن إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة - رضي الله عنهم - رفعه: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك». (ينظر الكتاب الماتع: يا صاحب الستين لعلي بن سعيد حسين) ص١٣ وما بعدها، وينظر فتح الباري ج١١/ ٢٤٠)).

ومن آثار السلف كذلك:

١- قال عليّ- رضي الله عنه-: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة. ألا وإنّ الدّنيا ارتحلت مدبرة. (البخاري- الفتح ١١/ ٢٤٠).

٢- وعن أبي ذرّ الغفاريّ- رضي الله تعالى عنه- عندما دخل عليه رجل فجعل يقلّب بصره في بيته فقال: يا أبا ذرّ! أين متاعكم؟ فقال: إنّ لنا بيتا نتوجّه إليه، فقال: «إنّه لا بدّ لك من متاع ما دمت هاهنا»، فقال: إنّ صاحب المنزل لا يدعنا هاهنا. (جامع العلوم والحكم: ٣٣٢).

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



من أصول الديانة حفظ الأمانة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد انقضى شهر القرآن؛ أفضل شهر على أهل الإيمان، وأشرّه على أهل النفاق والخسران، ثم انقضى شوال وما فيه من نفحة الأيام الست التي جعل الله صيامها تمامًا لصيام الدهر لمن صام رمضان، فالحمد لله على إحسانه والشكر له على توفيقه وامتنانه، و ها هو شهر ذي القعدة؛ شهر مبارك يقعد المتحاربون فيه عن حربهم استعدادًا لحجهم ونُسُكهم، فهو شهرٌ حرَّمه الله فزاد تحريم الظلم بتحريمه تحريمًا.

وإن من ظلم الإنسان لنفسه، وما يلقى به حتفه أن يترك محاسبتها، ولنا في محاسبة النفس لتزكيتها ومعرفة الفتن لاجتنابها لنا في ذلك من أسلافنا أسوة.

وكنا قد ابتدأنا في الشهر الكريم شرح حديث حذيفة رضي الله عنه عن الأمانة، ورفعها، فتكلمنا في رمضان عن مطلع الحديث عن الإيمان قبل القرآن، وأن القرآن للمؤمنين نور على نور.

ثم يقدر الله لنا لباقي الحديث التمام:

إعداد: د. مرزوق محمد مرزوق

الحديث:

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ. حَدَّثَنَا «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ. ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ. فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ». ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ. فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ. فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ. كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ (ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ) فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ. لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا. حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ». وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ. لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينُهُ. وَلَئِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ. وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ لأُبَايِعَ مِنْكُمْ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا.

التخريج والشرح:

يُنْظَر مجلة التوحيد عدد رمضان؛ منعًا للتكرار وحفاظًا على وقت إخواننا الأخيار.

من فوائد الحديث استكمالًا لما ذكر في رمضان:

فائدة: أن كل مولود يولد على فطرة الاسلام:

كما قال صلى الله عليه وسلم: (الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال)، وأن الذي يغير هو الذي يخالف الفطرة.

Upload by: altawhedmag.com

عَنْ أبي هريرة، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه، وَيُنَصِّرَانِه، وَيُمَجِّسَانِه، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: «فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» (سورة الروم آية ٣٠). (صحيح مسلم/ كتاب القدر رقم: ٤٨٠٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومثل الفطرة مع الحق مثل ضوء العين مع الشمس، وكل ذي عين لو تُرِكَ بغير حجاب لرأى الشمس، والاعتقادات الباطلة العارضة من تهوُّد وتنصر وتمجُّس مثل حجاب يحول بين البصر ورؤية الشمس، وكذلك أيضًا كل ذي حسّ سليم يحب الحلو إلا أن يعرض في الطبيعة فساد يحرفه حتى يجعل الحلو في فمه مرًا، ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالعقل، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، ولكنَّ سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام بحيث لو ترك من غير مغيّر لما كان إلا مسلمًا، وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع.. هي فطرة الله التي فطر الناس عليها». انتهى. (مجموع الفتاوى ٤/٢٤٧).

فائدة: لا دين إلا ما دل عليه الكتاب والسنة:

فالدين كما أنه فطرة هو مستمد كذلك من الكتاب والسنة، ولا دين إلا بذلك؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ. فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ».

وعليه فكل ادعاء لدين بعيد عن الكتاب والسنة باطل، وهذا ردٌّ على كثير من الغالين الذين ينحرفون عن دين الاسلام بأهوائهم بعيدًا عن الدليل الشرعي مهما حَسُنَ ظاهر فعلهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» (متفق عليه)، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ».

وقد ذكر العلماءُ عند قوله تعالى: «يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» (البقرة: ٢٥٧) أنه سبحانه وتعالى جَمَع الظلمات التي هي طُرُقُ الباطل، وأفرَدَ النور فجعله واحدًا، وهو طريق الحق، فدلَّ ذلك أن طرُق الباطل كثيرة، وطريق الحق واحدٌ وهو طريق الشرع الذي كان عليه سلفنا الصالح؛ فلا نجاة للعبد إلا بتركه لطرق الباطل، واتِّباع سبيل الحقّ الأوحد الذي كان عليه رسول الله وأصحابه، فقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي. وفي بعض الروايات: هي الجماعة. رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، وصححه على شرط مسلم.

فائدة: والحديث دليل من دلائل النبوة:

حيث حدَّث صلى الله عليه وسلم أصحابه عن رفع الأمانة؛ فأدرك بعض أصحابه رضي الله عنهم شيئًا من ذلك ومنهم حذيفة رضي الله عنه كما في حديث الباب، وأدرك الناس من بعدهم كثيرًا من ذلك.

قال ابن بطال رحمه الله: «هذا الحديث من أعلام النبوة؛ لأنَّ فيه الإخبار عن فساد أديان النَّاس وقلة أمانتهم في آخر الزمان، ولا سبيل إلى معرفة ذلك قبل كونه إلا من طريق الوحي» (شرح البخاري لابن بطال ١٠/٣٨).

وقد تواتر النقل لشكوى السلف من تدهور حال الزمان؛ فقد ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة (٣/٣٢٧-في ترجمة لبيد

Upload by: altawhedmag.com

بن ربيعة) أن ابن منده (ت ٣٩٥) وسعدان بن نصر (ت ٢٩٥) أخرجا من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: رحم الله لبيدًا إذ يقول:

ذَهَبَ الذينَ يُعَاشُ في أكنافهم
وَبَقِيتُ في خَلفٍ كجلد الأجرب

قالت عائشة: كيف لو أدرك زماننا هذا؟ ولهذا قال عروة: رحم الله عائشة، كيف لو أدركت زماننا هذا؟، ثم قال الحافظ ابن حجر: واتصلت السلسلة (أي قولهم: رحم الله فلانًا، فكيف لو أدرك زماننا؟!) هكذا إلى سعدان، وإلى ابن منده. انتهى، وإذا كان الأمر كذلك فهل لأمثالنا أن يقول فكيف لو أدرك أسلافنا زماننا؟!

فائدة: عدم الاغترار بالظاهر:

فقد ذم الحديث اغترار بعض الناس بالمظاهر الخارجية في حكمهم وثنائهم على الآخرين، مع ضعف حقيقتهم في الإيمان والأمانة والصلاح والإحسان، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ! مَا أَظْرَفَهُ! مَا أَعْقَلَهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ».

وفي ذلك توجيه للعناية بالجوهر؛ إذ الاسلام مظهر وجوهر، وكلاهما مهم، لكنَّ الحديث ذمَّ مَن اعتنى بالظاهر فقط، فتظاهر بالعقل والجَلَد والظرف، وترك الباطن الذي أساسه استقامة القلب (وليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان).

فائدة: الافتقار إلى الرب في تعهُّد القلب:

ففيه إرشاد أن يتعهد الإنسان قلبه خوفًا عليه إذ قد (ينام الرجل النومة فتنزع الأمانة من قلبه)، والتعهد هدي الصالحين؛ إذ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الصالحين المصطفى من رب العالمين يخاف على نفسه فيدعو كما ثبت في صحيح مسلم: (اللهم يا مصرّف القلوب صرّف قلبي على طاعتك) وكما ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (اللهم إني أسالك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد). (السلسلة الصحيحة)

وكذلك الخليل ابراهيم كما قال الله «وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» (النساء: ١٢٥) لا يأمن على نفسه فيدعو (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ) (إبراهيم: ٣٥)؛ فمع منزلة سيدنا إبراهيم عليه السلام والذي كان أمة، والذي قاوم الشرك وكسر الأصنام بيده حتى ألقي في النار، مع ذلك يخاف على نفسه من الوقوع في الشرك؛ إذ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، لذا قال بعض السلف: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟»، الذي خاف على نفسه الوقوع في الشرك؛ فاللهم سلِّم.

فائدة: غربة الدين:

ومن ذلك ما كان من ارتفاع الأمانة من القلوب حتى لا يبقى من أهل الأمانة إلا رجال معدودون، ولا شك أن فقدان خُلُق الأمانة دليلٌ على فساد الزمان؛ لأن كثيرًا من الحقوق التي لله تعالى والتي للناس متعلقة بالأمانة.

وقد أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك كما ورد عن جمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود- كما بدأ- غريبًا، فطوبى للغرباء».

ولهذا جاء في أحاديث متعددة مدح المتمسك بدينه في آخر الزمان، وأنه كالقابض على الجمر، وأن للعامل منهم أجر خمسين ممن قبلهم؛ لأنهم لا يجدون أعوانًا على الخير.

وفي هذا القدر كفاية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com





العدل بين الأبناء من أصول الشريعة الغرَّاء

الحلقة الأولى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن عبادة تحقيق العدل من مطالب الشريعة الغراء، والمتعبَّد بها قد تعبَّد لله بصفة من صفات رب الأرض والسماء، وإذا كانت عبادة العدل عبادة تخص جميع مناحي الحياة؛ فقد عمدنا في شهرنا من خلال حديثنا إلى جانب من جوانبها وهو العدل في العطية بين الأبناء، وحديثنا الشريف في هذا المقال حديث الصحابي الجليل النعمان بن بشير رضي الله عنهما عمدة في هذا.

إعداد: د. مرزوق محمد مرزوق

أولاً: الحديث

عن النعمان بن بشير أن أباه أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (إني نَحَلْتُ ابني هذا غلامًا كان لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكل ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فارجعه)، وفي لفظ: (فانطلق أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليُشْهِدَه على صدقتي، فقال: أفعلت هذا بولدك كلهم؟ قال: لا، قال: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، فرجع أبي فرَدَّ تلك الصدقة).

ثانيًا: التخريج

أولاً: الحديث متفق عليه (إذ رواه الشيخان البخاري ومسلم رحمهما الله)

ثانيًا: للحديث مواضع عدة في الصحيحين وغيرهما وبألفاظ مختلفة متممة للمعنى.

التخريج من الكتب الستة:

أخرجه البخاري ٥/٢١١، كتاب الهبة: باب الإشهاد في الهبة حديث ٢٥٨٧.

ومسلم ٣/١٢٤٣، كتاب الهبات: باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة، حديث ١٣-١٨/١٦٢٣.

وأبو داود ٣/٨١١، كتاب البيوع والإجارات: باب الرجل يُفَضِّل بعض ولده في النَّحل، حديث ٣٥٤٢.

والنسائي ٦/٢٥٩-٢٦٠، كتاب النَّحل: باب اختلاف الناقلين لخبر النعمان بن بشير في النحل.

وابن ماجه ٢/٧٩٥، كتاب الهبات: باب الرجل ينحل ولده، حديث ٢٣٧٥، كلهم من طريق الشعبي عن النعمان فذكره.

ثالثًا: بعض الألفاظ الزائدة المتممة للفوائد على سياق البخاري السالف ذكره والمعزوة إلى الكتب الستة أيضًا:

- في رواية للبخاري رقم (٢٦٥٠): (لا تُشْهِدْني عَلَى جَوْرٍ).

Upload by: altawhedmag.com

- وفي رواية لمسلم (١٦٢٣) عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما قَالَ: انْطَلَقَ بِي أَبِي يَحْمِلُنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْهَدْ أَنِّي قَدْ نَحَلْتُ النُّعْمَانَ كَذَا وَكَذَا مِنْ مَالِي، فَقَالَ: أَكُلَّ بَنِيكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَ مَا نَحَلْتَ النُّعْمَانَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: (فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي)، ثُمَّ قَالَ: (أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً) قَالَ: بَلَى. قَالَ: (فَلَا إِذًا).

وللحديث شاهد من حديث جابر:

أخرجه مسلم ٣/١٢٤٤، كتاب الهبات: باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة: حديث ١٦٢٤/١٩، وأبو داود ٨١٢/٣، كتاب البيوع: باب في الرجل يفضل بعض ولده في النحل حديث ٣٥٤٥، عن جابر قال: قالت امرأة بشير: "انحل ابني غلامك، وأشهد لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن ابنة فلان سألتني أن أنحل ابنها غلامي وقالت لي: أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه، فقال: "له إخوة"؟ فقال: نعم، قال: "أفكلهم أعطيت مثل ما أعطيته"، قال: لا، قال: "فليس يصلح هذا"، وإني لا أشهد إلا على حق.

ثالثا: تعريف مختصر بالراوي الأول ووالديه رضي الله عنهم:

١- النعمان بن بشير هو الصحابي الجليل النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس بن زيد الأنصاري الخزرجي، ويكنى أبا عبد الله أحد صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان أول مولود وُلِدَ في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهرًا، فأتت به أمه (عمرة بنت رواحة) تحمله إلى النبي صلى الله عليه وسلم عليه فبشرها بأنه سيعيش حميدًا و يُقتل شهيدًا ويدخل الجنة. (ينظر البداية والنهاية ٢٤٤/٨)

٢- وبشير والد النعمان رضي الله عنه: هو ابن سعد بن ثعلبة بن الجلاس- بضم الجيم وتخفيف اللام- الخزرجي، صحابي شهير من أهل بدر وشهد غيرها، ومات في خلافة أبي بكر سنة ثلاث عشرة، ويقال: إنَّه أوَّل من بايع أبا بكر من الأنصار، وقيل: عاش إلى خلافة عمر. (ينظر ترجمته في تهذيب الكمال للحافظ المزي).

٣ - وعمرة المذكورة رضي الله عنها هي بنت رواحة بن ثعلبة الخزرجية أخت عبد الله بن رواحة الصحابي المشهور، ووقع عند أبي عوانة من طريق عون بن عبد الله أنها بنت عبد الله بن رواحة، والصحيح الأول، وبذلك ذكرها ابن سعد وغيره، وقالوا: كانت ممن بايع النبي صلى الله عليه وسلم من النساء. (أسد الغابة ت ٧١٢٦، الثقات ج ٣/ ٣٢٤).

هذا وقد روى هذا الحديث عن النعمان عددٌ كثير من التابعين، وقد وقعت روايته في الصحيحين وغيرهما كما تقدم ذكره.

رابعا: المعنى العام للحديث:

النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه، تزوج أبوه امرأة هي عمرة بنت رواحة رضي الله عنها، وهي أخت الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ردَّ نَحْلَة أعطاها غلامًا، وفي رواية حائطًا بستانًا.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "ولعله أعطاه البستان والغلام من أجل أن يعمل في البستان؛ فقالت أمه عمرة بنت رواحة رضي الله عنها، وهي فقيهة

Upload by: altawhedmag.com

لا أرضى أن تُعطي ابني هذا (أي: دون إخوانه) حتى تُشهد النبي صلى الله عليه وسلم فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشهده على ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم له ألك بنون؟ قال: نعم. قال أعطيتهم مثل ما أعطيت النعمان؟ قال: لا. قال رد، يعني رد ما أعطيت. ثم قال: أشهد على هذا غيري. وهذا تبرؤ منه وليس إباحة له على أن يُشهد على ذلك، ولهذا قال أشهد على هذا غيري؛ فإني لا أشهد على جَوْر، ثم قال: أتريد أن يكونوا لك في البرّ سواءً؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: إذاً سوِّ بينهم؛ لأنك إذا فضَّلت أحدهم على الآخر صار في نفس المفضَّل عليه شيء، وصار لا يبر والده، ثم قال: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم" (ينظر شرح الشيخ الصالح محمد الصالح العثيمين رحمه الله للحديث في شرحه على رياض الصالحين بتصرف).

خامسا: بعض ما يُستفاد من الحديث إجمالاً:

١- النَدب إلَى التَّأليف بَين الإخوة وَترك مَا يُوقع بَينهم الشحناء وَيُورث العقوق للآباء.

٢- فيه مشروعية استفصال الحاكم والمفتي عما يحتمل الاستفصال، لقوله: "ألك ولد غيره"، فلما قال: "نعم" قال: "أفكلهم أعطيت مثله"، فلما قال: "لا" قال: "لا أشهد" فيفهم منه أنه لو قال: نعم. لشهد.

٣- فيه: جَوَاز تَسْمِيَة الْهِبَة صَدَقَة.

٤- فيه: أن للأم كلامًا في مصلحة الْوَلَد.

٥- فيه: الْمُبَادرَة إلَى قبُول قَول الْحق وأمرَ الْحَاكم والمفتي بتقوى الله كل حَال.

٦- ترك التشدد والتنطع: وذلك أن عمرة طلبت من زوجها أن يُشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منحة زوجها لولدها. يقول ابن حجر نقلاً عن بعض العلماء: "هذا من شؤم التشدد والتنطع، فلو أنها قبلت عطاء زوجها لولدها لمضى الغلام في عطية الوالد، لكنها تعنتت وتشدَّدت وطلبت أن يشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم".

٧- فيه: البعد عن تحمُّل الشَّهَادَة فيمَا لَيْسَ بمباح.

٨- فيه أن للإمام الأعظم أن يتحمل الشهادة، وتظهر فائدتها إما ليحكم في ذلك بعلمه عند من يجيزه، أو يؤديها عند بعض نوابه.

٩- فيه جواز تسمية الهبة صدقة، وأن للإمام كلامًا في مصلحة الولد، والمبادرة إلى قبول الحق، وأمر الحاكم والمفتي بتقوى الله في كل حال.

١٠- وقال المهلب: فيه أن للإمام أن يرد الهبة والوصية ممن يعرف منه هروبًا عن بعض الورثة، والله أعلم. (ينظر فتح الباري ج٥/٢٥٥).

وللحديث صلة في الحلقة الثانية لبحث ما ييسره الله من باقي الفوائد مثل:

كيفية التملك المشروع للعطية. وهل العدل في العطية يقتضي التسوية بين جميع الأولاد؟ ومشروعية رجوع الوالد فيما وهب للولد، ومشروعية أكل الوالد من مال الولد بالمعروف، هل إن كانت الْعَطيَّة من الأب للصغير هل يحْتَاج إلى الْقَبْض؟ وهل يتميز الولد العامل مع أبيه عن باقي إخوته بهبة خاصة؟

نسأل الله التيسير لتفصيل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



العدل بين الأبناء من أصول الشريعة الغرَّاء

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه، ومن والاه وبعد:

فقد تكلمنا في ختام عامنا الهجري عن عبادة بها تستقيم المعاملات وتستقر المجتمعات، ألا وهي صفة العدل وقد اختصت مقالتنا بعبادة العدل بين الأبناء، وعوَّلنا فيها على حديث سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما؛ إذ هو العمدة الذي يبدأ به الباحثون حين يتعرض أحدهم لبحث هذه المسألة، وقد تعرضنا له في شهر ذي الحجة تخريجًا وبيانًا لمعناه العام، ثم بعض ما يُستفاد منه على سبيل الإجمال، وتتمة للفائدة نستكمل ما ييسره الله عز وجل لنا من فوائد أخرى، ولعلها مما يلامس واقع الناس اليوم.

أولاً: الحديث:

عن النعمان بن بشير أن أباه أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (إني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكلَّ ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فارجعه"، وفي لفظ: (فانطلق أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليُشهده على صدقتي، فقال: أفعلت هذا بولدك كلهم؟ قال: لا، قال: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة).

التخريج: الحديث متفق عليه، وسبق تخريجه تفصيلاً في عدد ذي الحجة.

وفيما يلي بعض ما يستفاد من الحديث فوق ما تقدم ذكره في شهرنا الماضي:

الفائدة الأولى: الشريعة دعوة للحياة

ومناسبة هذه الفائدة هو ما انتشر بين الناس من خلافات في المعاملات لا سيما في تقسيم التركات؛ لذا فإننا نذكر أن البشر لو تُركوا للمشاعر والانفعالات ما استقامت كثير من أمور الحياة، وأن الاستجابة لشرع الله عز وجل هي استجابة لدعوة الحياة، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ

Upload by: altawhedmag.com

تُحْشَرُونَ) (الأنفال: ٢٤)، مهما عارض ظاهر الشرع تقدير العباد للأمور؛ إذ رب العباد عالم بما خلق كما قال تعالى (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك: ١٤)، وهنا ضرب لنا الصحابة الكرام من النعمان وأمه وأبيه رضي الله عنهم أجمعين ضربوا لنا أروع الأمثلة وأعلاها في استجابتهم لأمر الله؛ إذ انتهوا حيث أمرهم رسول الله فور علمهم بالحكم، بل وبلغوا عنه للناس حينما روى النعمان هذا الحديث؛ فالحمد لله على نعمة الإسلام ورزقه لنا بأصحابه الكرام.

الفائدة الثانية: حكم الرجوع في الهبة كما رجع فيها والد النعمان:

وهنا يختلف الحكم العام للرجوع في الهبة عن رجوع الوالد في هبته:

أولا: حكم الرجوع في الهبة عمومًا

اختلف الفقهاء في جواز رجوع الواهب إذا وهب لولده أو لأجنبي؛ وسبب اختلافهم في ذلك هو تعارض الأدلة الواردة في المسألة من حيث الظاهر، واختلاف الفقهاء في تأويلها، والجمع والتوفيق بينها. وبسط هذه المسائل الفقهية بسطًا علميًا ييسره الله عز وجل في أبواب الفقه من حيث عرض أدلة المختلفين ومناقشتها والترجيح بينها، لكننا في باب السنة ولتمام الفائدة نخلص الى مختصر الفائدة الفقهية من الحديث، وهي كما قال جماهير العلماء أن الأصل في الهِبَة اللزوم، إلا في هبة الوالد لولده، ويُنسَب هذا الرأي إلى المالكيَّة والشافعية والحنابلة والظاهرية؛ شريطة القبض في المنقول كالمكيل والموزون، (ينظر: الأم للشافعي (٤/٦٣)، الكافي لابن قدامة (٢/٤٦٩)، والمحلى لابن حزم (٩/١٢٧))

وذلك خلافًا لما قاله الحنفية أنَّ الأصل الرجوع في الهِبَة إلا لمانع؛ إذ استدلال الحنفية ومن وافقهم بنوه على دليل لا يصح أو إجماع لم يثبت في معارضة الأدلة الصحيحة وأصول الشريعة الثابتة، وكما قال شيخ الاسلام ابن تيمية: "الأصل في العقود الرضا، ونتيجتُها هو ما أوجباه على أنفسهما بالتعاقُد" (ينظر الفتاوى: ٣/٤٨٥).

فلا تترك الأحكام لمقاصد الأفراد؛ لما في ذلك من العبث، والشرع منزَّه عن ذلك.

ومن أدلة الجمهور على الذي اخترناه حديثا ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم جميعًا، فعن ابن عباس أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «مثل الذي يَرجع في صدقته كمثل الكَلب يقيء ثم يعود في قيئه، فيأكله»، وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «العائد في هِبَته، كالعائد في قيئه». (ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/٣٥)، وصحيح مسلم بشرح النووي (٦/٧١).

ثانيًا: أما ما يتعلق بهبة الوالد؛ فالظاهر هو جواز رجوع الوالد في هبته لولده:

وذلك ظاهر من حديث النعمان وما سبقه من روايات مختلفة أن بشير والد النعمان رضي الله عنهما كان قد وهبه قبل ذلك شيئًا ثم عاد فيه وأظهر من ذلك، عن ابن عمر وابن عباس كذلك رضي الله عنهم قال صلى الله عليه وسلم: "لا يحل للرجل أن يعطي عطية، ثم يرجع فيها، إلا الوالد فيما يعطي ولده؛ مَثل الذي يعطي العطية، ثم يرجع فيها، كمثل الكلب أكل حتى إذا شبع قاء، ثم عاد إلى قيئه" (رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله).

وهو مذهب الجمهور: مالك والشافعي وأحمد في أظهر الروايات عنه.

قال في (عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ٨/٢٩٤) تعليقًا على الحديث، قال الشافعي: "لا يحلُّ لمَن وهَبَ هبةً أن يَرجع فيها، إلا الوالد، فله أن يرجع فيما أعطى ولده، واحتجَّ بهذا الحديث".

Upload by: altawhedmag.com

وشرط جواز رجوع الأب في هبته لولده: ألا يتعلق بها حق للغير، فتكون العين باقية في ملك الولد ولم يترتب عليها التزامات، فلو أن الولد وهبها أو باعها، أو عبداً أعتقه، أو جارية أولدها، فإنه لا يملك إرجاعها؛ لأنها انتقلت من ملك الولد إلى ملك الغير.

فائدة: العطية لا يثبت تملكها إلا بالقبض

واستدلوا في صحة الهدية بالقبض بحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، بأن أباها كان قد منحها جذاذ خمسين وسقًا، فلما لم تَحُزْهُ، ومرض مرض الموت قال: (يا ابنتي! والله لا أحد أعز عليَّ فقرًا من بعدي منك، ولا أحد أحب إليَّ غنىً من بعدي منك، وكنت قد نحلتك جذاذ خمسين وسقًا ولو كنت حزتيه لملكتيه)، وفي رواية: (ولو كنت حرثتيه لملكتيه) فعلى رواية: (حزتيه) يكون الفرض جذاذ خمسين وسقًا من تمر جاف بذاته، وعلى رواية: (حرثتيه) يكون قد منحها نخلاً يؤتي ثمرة مقدار خمسين وسقًا، وعلى كلا الحالتين لما لم تقبض ما منحته-سواء كان تمرًا موثقًا أو نخلاً يأتي بهذا القدر من الأوسق- فإنها لا تملكه. ثم قال: (وهو الآن مال وارث؛ فاقتسموه أنت وأخواك وأختاك)، أي: أسماء وبنت أخرى من امرأة كان تزوجها بالمدينة، وكان يسكن معها في السنح، قالت: (أي أختين يا أبي وليس لي إلا أخت واحدة؟ قال: ابنت زيد بن فلان، إنها حامل وأراها حامل بأنثى)، فجاءت كما قال رضي الله عنه، فقالوا: لو لم يشترط القبض في الهدية والهبة لنفذت هبة أبي بكر لابنته عائشة، ولما لم تقبضها رجعت الهبة إلى مال الواهب، وأصبح مال وارث.

هذا وقال بعضهم: الهبة تصح ويقع التمليك لها بمجرد العقد، وعند الحنابلة التفصيل بين المنقول من مكيل وموزون وحيوان، وبين الثابت من عقار وغيره، فقالوا: لا تثبت الهدية في المنقولات إلا بالقبض، وما عداها تثبت بالتخلية.

فائدة: وهنا تتبدى لنا مسألة مما يلامس الواقع، وهي: إذا زوَّج الرجل في حياته أحد أبنائه هل يوصي للصغير؟

فبعض الناس يزوج أولاده الكبار وله أولاد صغار فيوصي لهم بعد موته بمقدار المهر، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:

"وهنا مسألة: لو كان لرجل عدة أبناء منهم الذي بلغ سن الزواج فزوجه، ومنهم الصغير، فهل يجوز لهذا الرجل أن يوصي بشيء من ماله يكون مهراً للأبناء الصغار؛ لأنه أعطى أبناءه الكبار؟

الجواب: لا يجوز للرجل إذا زوج أبناءه الكبار، أن يوصي بالمهر لأبنائه الصغار، ولكن يجب عليه إذا بلغ أحد من أبنائه سن الزواج، أن يزوجه كما زوج الأول، أما أن يوصي له بعد الموت: فإن هذا حرام، ودليل ذلك قول النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث) (ينظر " مجموع فتاوى ابن عثيمين " (١٨/٤١١) انتهى

فلو مات الأب، فليس لباقي الأبناء الذين لم يزوجهم الأب في حال حياته نصيب في التركة، إلا الميراث المقدر لهم شرعًا، وهذه تحتاج إلى الإذعان والرضى بشرع الحكيم الرحمن.

و جاء في " فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الأولى " (١٦/٢٢٦) في سؤال قريب من هذا قالوا: " يجب عليك (أي على الأب) أن تزوج من احتاج إلى الزواج من أبنائك، إذا كان لا يقدر على الزواج من ماله، وأنت قادر على ذلك، وتقوم بتكاليف زواجه، ولا تدفع للأبناء المتزوجين والذين يقدرون على الزواج بأموالهم، مثل ما دفعت في تزويج هذا الابن المحتاج؛ لأن هذا يعتبر من الإنفاق الواجب، وليس هو من العطية التي تجب فيها التسوية

Upload by: altawhedmag.com

بين الأولاد" انتهى.

فائدة: صفة التسوية بين الأبناء

هل يجب التسوية بين الابناء تسوية مطلقة أم يعطوا كما الميراث؟

الجواب: اختلفوا في ذلك على قولين: جاء في كتاب المغني لابن قدامة (كتاب الهبة والعطية، مسألة فاضل بين أبنائه في العطية ص٢٥٩) قال: ولا خلاف بين أهل العلم في استحباب التسوية، وكراهة التفضيل. قال إبراهيم: كانوا يستحبون أن يسووا بينهم حتى في القُبَل. إذا ثبت هذا، فالتسوية المستحبة أن يقسم بينهم على حسب قسمة الله تعالى الميراث، فيجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وبهذا قال عطاء، وشريح، وإسحاق، ومحمد بن الحسن. قال شريح لرجل قسم ماله بين ولده: اردده إلى سهام الله تعالى وفرائضه. وقال عطاء: ما كانوا يقسمون إلا على كتاب الله تعالى. وقال أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن المبارك: تعطى الأنثى مثل ما يعطى الذكر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبشير بن سعد: " سَوِّ بينهم". وعلل ذلك بقوله "أيسرك أن يستووا في برك؟ قال: نعم. قال: فَسَوِّ بينهم". والبنت كالابن في استحقاق برها، وكذلك في عطيتها. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سووا بين أولادكم في العطية، ولو كنت مؤثرًا لأحد لآثرت النساء على الرجال" رواه سعيد في "سننه"، ولأنها عطية في الحياة، فاستوى فيها الذكر والأنثى، كالنفقة والكسوة.

يقول ابن قدامة: ولنا أن الله تعالى قسم بينهم، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وأولى ما اقتدى بقسمة الله، ولأن العطية في الحياة أحد حالي العطية، فيجعل للذكر منها مثل حظ الأنثيين، كحالة الموت. يعني الميراث.

(ويحقق ذلك) أن العطية استعجال لما يكون بعد الموت، فينبغي أن تكون على حسبه، كما أن معجل الزكاة قبل وجوبها يؤديها على صفة أدائها بعد وجوبها، وكذلك الكفارات المعجلة، ولأن الذكر أحوج من الأنثى، من قبل أنهما إذا تزوجا جميعًا فالصداق والنفقة ونفقة الأولاد على الذكر، والأنثى لها ذلك، فكان أولى بالتفضيل؛ لزيادة حاجته، وقد قسم الله تعالى الميراث، ففضل الذكر مقرونا بهذا المعنى فتعلل به، ويتعدى ذلك إلى العطية في الحياة.

قال: وحديث بشير قضية في عين، وحكاية حال لا عموم لها، وإنما ثبت حكمها فيما ماثلها، ولا نعلم حال أولاد بشير، هل كان فيهم أنثى أو لا؟ ولعل النبي صلى الله عليه وسلم قد علم أنه ليس له إلا ولد ذكر. ثم تحمل التسوية على القسمة على كتاب الله تعالى. ويحتمل أنه أراد التسوية في أصل العطاء، لا في صفته، فإن القسمة لا تقتضي التسوية من كل وجه وكذلك الحديث الآخر، ودليل ذلك قول عطاء: ما كانوا يقسمون إلا على كتاب الله تعالى. وهذا خبر عن جميعهم، على أن الصحيح من خبر ابن عباس أنه مرسل.

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله: " يجب على الوالد العدل بين أولاده ذكورهم وإناثهم حسب الميراث، ولا يجوز له أن يخص بعضهم بشيء دون البقية إلا برضى المحرومين إذا كانوا مرشدين، ولم يكن رضاهم عن خوف من أبيهم، بل عن نفس طيبة ليس في ذلك تهديد ولا خوف من الوالد، وعدم التفضيل بينهم أحسن بكل حال، وأطيب للقلوب، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم) متفق على صحته" انتهى. "فتاوى الشيخ ابن باز" (٢٠/٥١).

قلت: وكل هذا فيما يتعلق بالعطية غير المسببة، أما التي بسبب كمعونة ضرورية أو علاج مرض أو إنفاق على طالب علم فلا يقيد فيها الوالد بتسوية، فيعطي كلاً حسب حاجته في حياة والده، فلا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى. والله أعلم.

وفي هذا القدر كفاية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



إنّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن من إكرام الله لعبده أن يرزقه قلبًا واعيًا ونفسًا متزنة مع ما أمره الله به من إيمان، وإن من الأحاديث المرشدة لذلك ما رواه إمام المحدثين؛ الإمام البخاري رحمه الله وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا».

بقلم

د. مرزوق محمد مرزوق



التخريج:

الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا ٦١٢٠.

واتفق عليه الشيخان من رواية أنس رضي الله عنه في البخاري في الكتاب والباب السابق برقم (٦٤٨٦)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب توقيره وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه رقم (١٣٢٧).

وأخرجه الترمذي في جزء من حديث، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً»، (٥٥٦/٤)، رقم: (٢٣١٣)،

وجزء من حديث طويل رواه ابن ماجه في كتاب الزهد باب الحزن والبكاء رقم (٤١٩٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

الشرح:

هذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي وردت بسياقات عديدة، وفي مناسبات متعددة كما وجهها أهل العلم وعن كثير من الصحابة، وكل هذه الأحاديث تحتوي على هذه العبارة الكريمة، والتي نحن بصددها في الباب: (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» (٣١٩/١١): «والمراد بالعلم هنا ما يتعلق بعظمة الله، وانتقامه ممَّن يعصيه، والأهوال التي تقع عند النزع، والموت، وفي القبر، ويوم القيامة، ومناسبة كثرة البكاء وقلة الضحك في هذا المقام واضحة، والمراد به التخويف» انتهى من الفتح.

وقال القرطبي رحمه الله في المفهم» (٥٥٧/٢): «وقوله صلى الله عليه وسلم: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا)؛ يعني ما يعلم هو من أمور الآخرة وشدة أهوالها، ومما أعد في النار من عذابها وأنكالها، ومما أعد في الجنة من نعيمها وثوابها، فإنه صلى الله عليه وسلم قد كان رأى كل ذلك مشاهدةً وتحقيقًا، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، قليل الضحك، جُلُّه التبسم» انتهى.

ومن أفيد سياقات هذا الحديث ما رواه الترمذي (٢٣١٢) عن أبي ذر رضي الله عنه وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٢) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ

Upload by: altawhedmag.com

إلى الله).

قال المباركفوري رحمه الله في «تحفة الأحوذي» (٦٠١/٦): «قوله: (إني أرى ما لا ترون) أي: أبصر ما لا تبصرون». (ينظر: تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي (٦٠١/٦) في شرحه لباقي السياق).

مما يستفاد من الحديث:

أولاً: فضل إيمانه صلى الله عليه وسلم على إيمان من سواه:

ففي الصحيحين من حديث أنس قوله صلى الله عليه وسلم: «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له...»؛ الحديث؛ فكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم ما لم يعلموا، ومع ذلك لم يحصل له ما ذكر، يمكن تفسيره بأنه صلى الله عليه وسلم أعطاه الله من قوة الإيمان وكماله ومن التوازن الإيماني والانضباط الشعوري ما جعله يجمع بين عبادة الخوف والرجاء بما لا يقدر غيره عليه، وكذلك يمكن تفسيره بأن الحديث جاء في معرض الوعظ والحث على الخوف من الله.

ثانيًا: لا يعلم الغيب الا الله:

قوله صلى الله عليه وسلم: «إني أرى ما لا ترون»، وذلك مما يطلعه الله عز وجل عليه من أمر الغيب، فالغيب لا يعلمه إلا الله كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (سورة النمل: ٦٥)؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب، وإنما يُطلعه ربه على ما يشاء منه، كما قال الله- عز وجل-: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا» (الجن:٢٦-٢٧). (ينظر شرح الشيخ ابن عثيمين للحديث في شرحه لرياض الصالحين).

فهذا رسول الله لا يعلم من الغيب إلا ما علَّمه الله إيَّاه، وعليه فإن من دونه من البشر لا يعلم الغيب من باب أولى، وهو من أوضح الردود على مَن غالى في عباد الله من الصالحين أو غيرهم من الإنس والجن، فأعطاهم ما لم يعطه الله لخير خلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فاعتبروا يا أولي الألباب.

ثالثًا: الحياة لا تصلح إلا بالإيمان باليوم الآخر:

فإذا علم الناس من أحوال وأهوال اليوم الآخر ما أخبرت الشريعة به على سبيل الإجمال كحديث الباب (لو تعلمون ما أعلم.....الحديث) أو على سبيل التفصيل كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحوال الآخرة كل ذلك مما يلزم العبد بالعمل بمقتضى هذا الإيمان فيستمتع بالرضا بالقضاء والقدر ولا يرضى لنفسه أن يظلمها بالإعراض عن شرع الله سواء بمعصية الله أو يظلمها بالتعدي على حقوق عباد الله كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ (سورة طه: ١٢٤- ١٢٥).

لذا فالحياة بغير هذا الإيمان غابة، وما يعيشه الناس من ظلم وتعاسة في مشارق الأرض ومغاربها ليس إلا من غياب هذا الركن من أركان الإيمان

رابعًا: وفي فهم الحديث شبهة لتعارضه مع جملة أحاديث أخرى وبيان ذلك:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: «لو تعلمون ما أعلم: لبكيتم كثيرًا، ولضحكتم قليلاً»، هو نفسه الذي كان أكثر الناس تبسُّمًا!! فقد جمع الإمام البخاري أحاديث كثيرة للنبي صلى الله عليه وسلم وبوَّب لها: (باب التبسم والضحك)، وفي ذلك دليل على الابتسامة التي كان يحرص عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك جمع الإمام مسلم في صحيحه أحاديث بوب لها الإمام النووي في كتاب الفضائل: (باب تبسمه وحسن عشرته صلى الله عليه وسلم).

وللجمع بين الحالين فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يحثهم على كثرة البكاء بقوله له: «لبكيتم كثيرًا...»، وإنما أراد تذكيرهم بأهوال اليوم الآخر، وبمواقع الفتن في الدنيا، مما يستدعي الهم والحزن، لكنه صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم بسنته العملية أن العلم بأهوال يوم القيامة وشدته والعلم بفتن الدنيا وما ينتظر أمته منها لا يمنعانه من عظيم الرجاء في ربه عز وجل، ومن عظيم الأمل في رحمته ونظر عنايته بخلقه عز وجل وأن من أكمل أحوال العبد أن يجمع بين العبادتين (الخوف والرجاء)، وأن أكمل وصف لذلك هو ما كان عليه أفضل الخلق صلى الله عليه وسلم.

والحاصل: أن عبادة تواصل الأحزان- وهو من الكيفيات النفسية- بسبب الخوف من غضب الله لا ينافي عبادة كثرة تبسمه؛ كما لا ينافي عبادة الرجاء في رحمة الله، والتي ثبت تغلبها على غضبه؛ كما في البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) (آل عمران: ٢٨)، رقم: (٧٤٠٤)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم: (٢٧٥١) من. حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي).

وفي هذا القدر كفاية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



سمات الأولياء وطريق الأنبياء

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: فمع حديث جليل القدر، عظيم النفع، نتأمل في بعض ألفاظه ومعانيه، ونستضيء بهديه، ونسأل الله أن يوفقنا لسلوك سبيل أهل الرشاد.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ".

بقلم

د. مرزوق محمد مرزوق



أولا: تخريج الحديث:

أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).

ثانيا: صحة الحديث:

الحديث صحيح، والحمد لله. وفي كيفية تصحيح العلماء للحديث مذهبان:

١- الأول: الجزم بصحته مطلقًا، واعتماد ثبوته بهذا السند الذي رواه البخاري به، وعلى رأس هؤلاء من الأئمة شيخ المحدثين البخاري الإمام وغيره من المتقدمين فضلاً عن تصحيح أكثر المتأخرين بل بالغ في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: "هذا حديث شريف قد رواه البخاري من حديث أبي هريرة وهو أصح حديث روي في صفة الأولياء".

٢- الثاني: تصحيح الحديث بشواهده! مع الحكم بضعف إسناد البخاري وممن ذهب إلى هذا: الشيخ الألباني وعزاه للذهبي كذلك. (ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١٦٤٠).

وعلى أية حال فالحديث منَّة من الله على المؤمنين، وله منزلة عظيمة في نفوس السلف.

ثالثا: منزلة الحديث عند العلماء:

وَسَمَه العلماء بأفضل حديث روي في الولاية كما أسلفنا عن شيخ الإسلام.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "هذا حديث قدسي جليل؛ قَالَ الطوفي: هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ فِي السُّلُوكِ إِلَى اللهِ، وَالْوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَطَرِيقِهِ؛ إِذِ الْمُفْتَرَضَاتُ الْبَاطِنَةُ وَهِيَ الْإِيمَانُ، وَالظَّاهِرَةُ وَهِيَ الْإِسْلَامُ، وَالْمُرَكَّبُ مِنْهُمَا وَهُوَ الْإِحْسَانُ فِيهِمَا، كَمَا تَضَمَّنَهُ حَدِيثُ جِبْرِيلَ، وَالْإِحْسَانُ يَتَضَمَّنُ مَقَامَاتِ السَّالِكِينَ مِنَ الزُّهْدِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَغَيْرِهَا" (ينظر فتح الباري: ١١ / ٣٤٥).

وقال الشوكاني رحمه الله في مقدمة كتابه (قطر الولي على حديث الولي، ص٢٢): "فإنه لما كان حديث (من عادى لي وليًا) قد اشتمل على فوائد كثيرة النفع، جليلة القدر لمن فهمها حقّ فهمها، وتدبرها كما ينبغي، أحببت أن أفرد هذا الحديث الجليل بمؤلف مستقل، أنشر من فوائده ما تبلغ إليه الطاقة ويصل إليه الفهم، وما أحقه أن يُفرد بالتأليف، فإنه قد اشتمل على كلمات كلها دُرر، الواحدة منها تحتها من الفوائد ما ستقف على البعض منه، وكيف لا يكون كذلك وقد حكاه عن الربّ سبحانه من أوتي جوامع الكلم، ومن هو أفصح من نطق بالضاد، وخير العالم بأسره، وأجل خلق الله، وسيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم؟. ولم يستوف شرّاح الحديث رحمهم الله ما يستحقه هذا الحديث من الشرح! فإن

Upload by: altawhedmag.com

ابن حجر رحمه الله لم يشرحه في فتح الباري إلا بنحو ثلاث ورقات مع أن شرحه أكمل شرح للبخاري، وأكثرها تحقيقا، وأعمها نفعاً". انتهى.

رابعا: فائدة تربوية من تخريج البخاري له:

أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب التواضع، ومناسبة ذلك أن عبادة التواضع هي من سمات أولياء الله تعالى، وأنه كلما سما العبد بنفسه تواضعًا لله كلما رفعه الله قربًا منه تعالى، ولا سبيل إلى ذلك إلا بهدي سيد المرسلين في تحقيق أوامر الشرع، وذلك خلافًا لمن ابتدع للولاية طريقًا يرفع فيه عن العباد ويهدم تكاليف لم يرفعها الله عن رسوله صلى الله عليه وسلم بل غالى المبتدع في بدعته حتى جعل لبعض الأولياء صفات لا تنبغي إلا لله تعالى؛ فاعتبروا يا أولي الألباب.

خامسا: شرح الحديث:

قَوْله: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا" المعاداة ضد الموالاة، والولي ضد العدو، المُرَاد بِوَلِيّ اللَّه: الْعَالِم بِاَللَّهِ، الْمُوَاظِب عَلَى طَاعَته، الْمُخْلِص فِي عِبَادَته؛ وَهَذِهِ صِفَة الْمُؤْمِن التَّقِيّ؛ ومعنى قَوْله: "عَادَى لِي وَلِيًّا" أَيْ: اتَّخَذَهُ عَدُوًّا، قَوْله: "فَقَدْ آذَنْته بِالْحَرْبِ" أَيْ: أَعْلَمْته أنه محارب لي، وفي هَذَا تَهْدِيد شَدِيد؛ لأَنَّ مَنْ حَارَبَهُ اللَّه أَهْلَكَهُ، فَغَايَة الْحَرْب الْهَلَاك، وَاَللَّه لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى: فَقَدْ تَعَرَّضَ لإِهْلَاكِي إِيَّاهُ.

وَقَالَ الطُّوفِيُّ: "لَمَّا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ مَنْ تَوَلَّى اللَّهَ بِالطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى تَوَلَّاهُ اللَّهُ بِالْحِفْظِ وَالنُّصْرَةِ". انتهى.

فأولياءُ الله تجبُ موالاتُهم، وتَحرُمُ معاداتُهم، كما أنَّ أعداءهُ تجبُ معاداتُهم، وتحرم موالاتُهم، قال تعالى: «لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ» (الممتحنة: ١).

ثم ذكر أسباب الولاية فقال: "وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْت عَلَيْهِ" يَدْخُل تَحْت هَذَا اللَّفْظ جَمِيع فَرَائِض الْعَيْن وَالْكِفَايَة..؛ قال ابن رجب: "لَمَّا ذكر أن معاداة أوليائه محاربة له، ذكر بعد ذلك وصف أوليائه الذين تحرُم معاداتُهم، وتجب موالاتُهم، فذكر ما يتقرَّب به إليه، وأصل الولاية: القربُ، وأصل العداوة: البعدُ، فأولياء الله هُمُ الذين يتقرَّبون إليه بما يقرِّبهم منه، وأعداؤه الذين أبعدهم عنه بأعمالهم المقتضية لطردهم وابعادهم منه، فقسم أولياءه المقربين إلى قسمين؛ أحدهما: من تقرَّب إليه بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات، وترك المحرَّمات؛ لأنَّ ذلك كُلَّه من فرائض الله التي افترضها على عباده. والثاني: من تقرَّب إليه بعد الفرائض بالنوافل، فظهر بذلك أنَّه لا طريق يُوصل إلى التقرُّب إلى الله تعالى، وولايته، ومحبته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله، فمن ادَّعى ولاية الله والتقرُّب إليه، ومحبَّته بغير هذه الطريق؛ تبيَّن أنَّه كاذبٌ في دعواه".

قَوْله: "وَمَا يَزَالُ يَتَقَرَّب إِلَيَّ" التَّقَرُّب: طَلَب الْقُرْب، قَوْله: "بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّتُه" الْمُرَاد بِالنَّوَافِلِ جَمِيع مَا يُنْدَب مِنْ الْأَقْوَال وَالْأَفْعَال، وَالْمَعْنَى: إِنَّهُ إِذَا أَدَّى الْفَرَائِض وَدَامَ عَلَى إِتْيَان النَّوَافِل مِنْ صَلَاة وَصِيَام وَغَيْرهمَا أَفْضَى بِهِ ذَلِكَ إِلَى مَحَبَّة اللَّه تَعَالَى.

قَوْله: "كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ":

" قِيلَ: الْمَعْنَى كُلِّيَّته مَشْغُولَةٌ بِي فَلَا يُصْغِي بِسَمْعِهِ إِلَّا إِلَى مَا يُرْضِينِي، وَلَا يَرَى بِبَصَرِهِ إِلَّا مَا أَمَرْتُهُ بِهِ؛ قال ابن رجب: "فمتى امتلأ القلبُ بعظمة الله تعالى، محا ذلك من القلب كل ما سواه، ولم يبقَ للعبد شيءٌ من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه، فحينئذ لا ينطق العبدُ إلا بذكره، ولا يتحرَّك إلا بأمره، فإنْ نطقَ نطق بالله، وإنْ سمعَ سمع به، وإنْ نظرَ نظر به، وإنْ بطش بطش به، فهذا هو المرادُ بقوله: " كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا"؛ ومن أشار إلى غير هذا، فإنما يُشير إلى الإلحاد من الحلول أو الاتحاد، والله ورسوله بريئان منه.

وقيل في قوله: (كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها"، إنه على حذف مُضاف، والتقدير: كنت حافظ سمعه الذي يسمع به، فلا يسمعُ إلا ما يحل استماعُه، وحافظ بصره كذلك إلخ"؛ قال الخطابي: "هذه أمثال، والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يُباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبَّة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله". ا.هـ.

وقَوْلُه: "وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّه": أَيْ مَا سَأَل؛ قَوْله: "وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ" أي: مما

Upload by: altawhedmag.com

يخاف؛ فذكر السؤال الذي به حصول المطلوب، والاستعاذة التي بها النجاة من المهروب، وأخبر أنه جل وعلا يعطي هذا المتقرب إليه بالنوافل ما سأل ويعيذه مما استعاذ؛... فيصير مجابَ الدعوة لكرامته على ربه.

قَوْله: "وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ".

أَخْبَرَ أَنَّهُ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَيَسُوءُهُ، وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَسَاءَتَهُ؛ قيل: هذا خطابٌ لنا بما نَعْقِل، والرَّبُّ مُنَزَّهٌ عَنْ حَقِيقَتِه، بَلْ هُوَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِه: "وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُه هَرْوَلَة"؛ وقد عَبَّرَ ابن رجب عَنْ هَذَا بِأَنَّ الْمَوْتَ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ، وَهُوَ مُفَارَقَةُ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ، وَلَا تَحْصُلُ غَالِبًا إِلَّا بِأَلَمٍ عَظِيمٍ جِدًّا كَمَا جَاءَ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سُئِلَ وَهُوَ يَمُوتُ فَقَالَ: كَأَنِّي أَتَنَفَّسُ مِنْ خُرْمِ إِبْرَةٍ، وَكَأَنَّ غُصْنَ شَوْكٍ يُجَرُّ بِهِ مِنْ قَامَتِي إِلَى هَامَتِي؛ وَعَنْ كَعْبٍ أَنَّ عُمَرَ سَأَلَهُ عَنِ الْمَوْتِ فَوَصَفَهُ بِنَحْوِ هَذَا؛ فلما كان الموت بهذه الشدَّة، والله تعالى قد حتَّمه على عباده كلهم، ولا بدَّ لهم منه، وهو تعالى يكرهُ أذى المؤمن ومساءته، سمَّى ذلك تردُّدًا في حقِّ المؤمن. ا.هـ (ينظر فتح الباري: ١١ / ٣٤٥). (وكذلك جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب شرحه للحديث).

شبهة والجواب عنها:

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن معنى تردد الله في هذا الحديث؟

فأجاب: هذا حديث شريف، قد رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء، وقد ردَّ هذا الكلام طائفة، وقالوا: إنَّ الله لا يُوصَف بالتردد، وإنما يتردد من لا يعلم عواقب الأمور، والله أعلم بالعواقب، وربما قال بعضهم: إنَّ الله يعامل معاملة المتردد.

والتحقيق أنَّ كلام رسوله حق، وليس أحد أعلم بالله من رسوله، ولا أنصح للأمة منه، ولا أفصح ولا أحسن بيانًا منه، فإذا كان كذلك؛ كان المتحذلق والمُنْكِر عليه من أضلِّ الناس وأجهلهم وأسوئهم أدبًا، بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يُصان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الظنون الباطلة والاعتقادات الفاسدة؛ ولكنَّ المتردِّد منا-وإن كان تردُّده في الأمر لأجل كونه لا يعلم عاقبة الأمور- لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنْزلة ما يوصف به الواحد منا؛ فإن الله ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ ثم هذا باطل، فإن الواحد منا يتردد تارة لعدم العلم بالعواقب، وتارة لما في الفعلين من المصالح والمفاسد، فيريد الفعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة، لا لجهل منه بالشيء الواحد الذي يُحَبُّ من وَجْهٍ ويُكْرَهُ من وجه؛ كما قيل:

الشَّيْبُ كُرْهٌ وكُرْهٌ أَنْ أُفَارِقَه
أَعَجَبٌ لشيءٍ على البغضاء محبوبُ

وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب، وفي الصحيح: "حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ" (مسلم: ٢٨٢٢)، وقال تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ» (البقرة: ٢١٦)؛ ومن هذا الباب يظهر معنى التردد المذكور في هذا الحديث، فإنه قال: "وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ"؛ فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوبًا للحق محبًّا له، يتقرب إليه أولاً بالفرائض وهو يحبها، ثم اجتهد في النوافل التي يحبها ويحب فاعلها، فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق، فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين بقصد اتفاق الإرادة؛ بحيث يحب ما يحبه، ويكره ما يكرهه محبوبه، والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه، فلزم من هذا أن يكره الموت؛ ليزداد من محاب محبوبه، والله عز وجل قد قضى بالموت، فكل ما قضى به فهو يريده، ولا بد منه؛ فالرب مريد لموته لما سبق به قضاؤه، وهو مع ذلك كارهٌ لمساءة عبده، وهي المساءة التي تحصل له بالموت، فصار الموت مرادًا للحق من وجه، مكروهًا له من وجه، وهذا حقيقة التردد، وهو أن يكون الشيء الواحد مرادًا من وجه مكروهًا من وجه، وإن كان لا بد من ترجح أحد الجانبين، كما ترجح إرادة الموت، لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته.... إلى أن قال: والمقصود هنا: التنبيه على أنَّ الشيء المعين يكون محبوبًا من وجه مكروهًا من وجه، وأن هذا حقيقة التردد، وكما أنَّ هذا في الأفعال؛ فهو في الأشخاص، والله أعلم. ا.هـ من مجموع الفتاوى بتصرف يسير (١٨ / ١٢٩- ١٣٥).

وللحديث صلة في العدد القادم إن شاء الله؛ في بيان بعض ما يُستفاد من الحديث، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



باب السنة

كرامات الأولياء

الحلقة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد :

فقد تكلمنا في شهرنا الماضي في حلقة أولى حول حديث البخاري رحمه الله الذي تفرد بروايته عن باقي اصحاب الكتب الستة

بقلم

د. مرزوق محمد مرزوق



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ".

ثم بينا مذاهب أهل العلم في الحكم على الحديث وبينا أنها ثلاثة مسالك، وأن الصواب صحته، وهو مذهب شيخ المحدثين رحمه الله

ثم بينا قدر هذا الحديث عند علماء السلف وأنه من أرجى ما ورد من الأحاديث في الولاية أو أصح ما جاء في صفات الأولياء كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأنه أصلٌ في السُلوك إلى اللَّه وَالْوُصول إلى مَعْرِفَته وَمَحَبَّته وَطَرِيقه كما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح وعزاه إلى الطوفي رحمهم الله جميعاً.

ثم تناولناه بالشرح العام فليتفضل القارئ الكريم بمراجعته مشكوراً مأجوراً .

ثم ها نحن اليوم نتناول بعضاً من فوائده والجواب على بعض ما يرد عليه من شبهات، إن اتسع المقام.

بعض ما يستفاد من الحديث :

ما يستفاد من الحديث :

١- إثبات أن لله تعالى أولياء وبيان فضلهم وذلك خلافاً لمن غالى في الدين وأنكر الأولياء وفضلهم.

٢- بيان أن معادة الأولياء لولايتهم هو معادة للدين لذا جعله الله عز وجل من كبائر الذنوب فكان وعيدهم من الله تعالى هو إيذانهم بحرب الله لهم.

ولعله لا يخفى على المنصفين ما تتعرض له شريعة رب العالمين ومن يتولاها ما يتعرضون له من كيد في مشارق الأرض ومغاربها حتى صار إنكار المعلوم بالضرورة من ثوابت الدين

Upload by: altawhedmag.com

صار أمراً مألوفاً بل ومقنناً في بعض بلدان المسلمين، ثم تضخمت الغربة والمعادة للدين وأوليائه حتى خرجت علينا الفتنة من داخل بيوت المسلمين تفرق بين الوالد المتدين والابن الراضع من ثقافات المشككين الكارهين عن طريق وسائل الاتصال المنتشرة في هذه الأزمنة الغابرة المتأخرة والتي حولناها بأيدينا وأيدي أعدائنا من نعمة إلى نقمة ، أو العكس فتنة بين ابن هداه الله لسنة النبي الكريم وبين موروثات أب ورثها من آبائه ألفاهم عليها أو استعمار استعمر عقله فانقاد له قلبه، والحاصل من هذا كله فريق يعادي أولياء الله وسيرهم ويقنن لعداوتهم وهجرهم، فيا أولي الألباب وعيد الله ليس بالهين (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب).

٣- بيان طريق الولاية الصحيح وأنه لا يكون إلا بما كان في الكتاب والسنة فيتقرب إلى الله بطاعته بأداء الفرائض ثم بمزيد التقرب إلى الله بالإلحاح عليه سبحانه بنوافل الطاعات ولا ثمة طريق يقبل لهذه الفرائض والنوافل ومن ثم لثبوت هذه الولاية إلا من طريق صحيح الوحي .

هذا وبناء على ما سبق فقد تقرر بذلك ما عليه السلف الصالح من المتقدمين والمتأخرين من وسطية ارتضاها لهم رب العالمين كما قال الله تعالى (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) البقرة ١٤٣) ، وقوله صلى الله عليه وسلم عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم : (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة) (علقه البخاري في كتاب الإيمان ، باب الدين يسر) ، فهم وسط بين فريقين :

الأول: فريق فأنكر الولاية وعادى الأولياء وعلى خلاف هؤلاء كان سلفنا يقرون بالولايات ويوالون أولياء الله من الصالحين والصالحات يحبونهم ويعادون أعداءهم ولا ينصرونهم بل ويدعونهم بالتي هي أحسن إلى سبيل المؤمنين وسماحة الدين وترك ما هم عليه من مخالفة لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

والفريق الثاني: فريق غالى في الأولياء حتى جعلوهم يقاربون الأنبياء بل زادوا عليهم حتى جعلوا لهم من صفات رب الأرض والسماء ومن ذلك ما ذكره ابن عربي الطائي الصوفي (ولا يختلط مع ابن العربي المالكي العالم السني المتوفى سنة ٥٤٣هـ) ما ذكره وغيره مما تتلوث العيون لرؤيته والآذان لسماعه من ادعائهم للألوهية واعتقادهم الحلول والاتحاد (ينظر لهذا المخالف : كتابه فصوص الحكم لمن أراد) ، وينظر ترجمته والحكم على كلامه مختصراً في كتاب سير أعلام النبلاء لشيخ الاسلام الحافظ الذهبي رحمه الله (جـ ٢٣ ص ٤٨) ، ثم جعلوا لهم من الكرامات ما يجوز وصفه بالمضحكات المبكيات ومن ذلك ما أفاض به شاهد من أكابرهم (الشعراني) في كتابه الموسوم بالطبقات الكبرى فذكر فيه من المضحكات ما لو ذكروها على كونها طرائف لصارت مضحكة لكنها صارت من المبكيات لأنهم يذكرونها على أنها عقائد ومن ذلك (ما نقله شيخنا عبدالرحمن الوكيل رحمه الله في كتابه هذه هي الصوفية) في ترجمة أحد أوليائهم) إبراهيم العريان) إنه كان يطلع المنبر، ويخطبهم عرياناً، فيحصل للناس بسط عظيم) انتهى فكان ذلك كله غلوا في الدين وصل عند بعضهم إلى نقضهم لتوحيد رب العالمين وكان من مظاهره ما يراه القاصي والداني من احتفالات بدعية ومخالفات شرعية عند قبور الأموات بحجة موالاة الأولياء فخالفوا بذلك الهدي الكريم حتى لوكان أولياؤهم من الصالحين فما بالنا وفيهم الكسير والعوير ومجهول الحال والعين بل ومن ليس فيه خير.

فالشريعة نهت عن الغلو في الدين وكل

Upload by: altawhedmag.com

غلو هو انحراف عن امر رب العالمين.

قال صلى الله عليه وسلم : «أيها الناس! إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» (أخرجه أحمد:١/٢١٥، والنسائي:٢٦٨)، وقال ابن تيمية رحمه الله في بيان هذا الحديث: "قوله: «إياكم والغلو في الدين» عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال". والغلو: مجاوزة الحدّ بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمّه على ما يستحق (الاقتضاء:١/٢٨٩). فالغلو والإفراط كالتقصير والتفريط، كلاهما مجاوزة للشرع المنزل، وعدول عن الصراط المستقيم؛ ولذا قال مخلد بن الحسين رحمه الله: "ما ندب الله العباد إلى شيء إلا اعترض فيه إبليس بأمرين بأيّهما ظفر، إما غلوّاً فيه وإما تقصيراً عنه" (حلية الأولياء:٨/٢٦٦).

فيثبتون الولاية لأولياء الله خلافاً لمن أنكرها من الغلاة.

ثم هم يثبتونها من طريق الشرع خلافاً لمن إدعاها من المفرطين من طريق مخالفة الشرع وتعطيله.

٤- فيه بيان لأهمية الفرائض وأنها مقدمة على النوافل، وفي ذلك من الفوائد ما لا يتسع لبسطه المقام لكن أقله ما يترتب على ذلك عند الأصوليين من الأحكام، ثم ما يترتب عليه أيضاً من تقديم الأوليات في ضروب الحياة عند أولي الأفهام، ومن ذلك ما يتعرض له الناس من فتن الزمان عندما يتعارض أمامهم ظاهر تقدمهم في المستحب من شئون الحياة مع حقيقة وقوفهم على ما افترضه عليهم من ثوابت الدين فحينئذ تتقدم الفريضة على النافلة والله المستعان

٥- وفيه بيان كذلك أنه بعد تحقيق الإيمان تكون زيادة الولاية بزيادة العبادة لا بتعطيلها ورفعها كما زعم بعضهم رفع التكاليف وأن المعصية في حقه معفوة (ينظر: فضائح الباطنية ص ٤٦. ط مؤسسة دار الكتب الثقافية الكويت).

فيا أيها الأحباب المنصفين لو رفعت التكاليف ألم يكن أولى بها سيد الخلق أجمعين الذي زاد في العبادة من النوافل فضلاً عن الفرائض بما لا يقدر عليه بشر ثم هو يجيب في ذلك على المشفق عليه (أفلا أكون عبدا شكوراً ..) وذلك جواباً عن صلاته أو (إني أبيت فيطعمني ربي ويسقين) وذلك جواباً عن مواصلة صيامه ، وعليه فالْعَبْدَ مهما بلغ من الدَّرَجَاتِ لَا يَنْقَطِعُ عَنْ الطَّلَبِ مِنْ اللَّهِ ، لِمَا فِيهِ مِنْ الْخُضُوعِ لَهُ وَإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ وطلب المحبة والتوفيق.

٦- تفاضل الأعمال وتفاضل أجورها فمن فريضة إلى نافلة ثم بين نافلة ونافلة ولا يدري العبد بأي سبب تكون المغفرة فلا يحقرن من المعروف شيئاً فيعطينا ذلك من الفوائد فائدتين أولاهما الاستمرار في الطاعات النوافل بعد الفرائض والصبر عليها فلا ندري متى تكون رحمة الله ، وثانيهما ألا نحقر من المعروف شيئاً فمع ندب الشارع لكثرة الطاعات النوافل بعد فرائض العبادات لكنه علمنا كذلك أن أحداً لن يدخل الجنة بعمله فقال صلى الله عليه وسلم: «واعلموا أنه لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله»، وثم فائدة أخرى من ذلك أن ينظر العبد إلى النافلة أنها سبب من أسباب الرحمة والنجاة لا أن ينظر إليها على كونها واجبة فتفعل أم مستحبة فتهمل.

٧- وفي الحديث إثبات صفة المحبة لله تعالى لقوله: «أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»، «حَتَّى أُحِبَّهُ».

٨- الدلالة على ما ذهب إليه أهل السنة و الجماعة من أن الإيمان يزيد و ينقص ، لأن الأعمال من الإيمان ، فإذا كانت تتفاضل في محبة الله لها ، يلزم من هذا أن الإيمان يزيد وينقص بحسب تفاضلها.

فاللهم بعفوك وكرمك وجودك يا أرحم الراحمين ارزقنا جميل طاعتك والقرب إليك وعظيم محبتك إنك بكل جميل كفيل وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

Upload by: altawhedmag.com



إكمال الهداية من حديث الولاية

الحلقة الأخيرة

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد تكلمنا في حلقتين خلتا حول حديث الولاية الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله، والذي تفرد بروايته عن باقي أصحاب الكتب الستة؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» (صحيح البخاري ٦٥٠٢).

وفي الحلقة الأولى بينا مذاهب أهل العلم في الحكم على الحديث، وبيَّنَّا أنها ثلاثة مسالك، وأن الصواب صحته، وهو مذهب شيخ المحدثين؛ البخاري رحمه الله.

ثم بينا قدر هذا الحديث عند علماء السلف، وأنه من أرجى ما ورد من الأحاديث في الولاية، أو أصح ما جاء في صفات الأولياء؛ كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية، وأنه أصلٌ في السُّلوك إلى اللَّه والوُصول إلى مَعْرفته ومَحبَّته وطَريقه؛ كما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح، وعزاه إلى الطوفي-رحمهم الله جميعًا-.

ثم تناولناه بالشرح العام، وذكر الفوائد وبعض الشبهات، فليتفضل القارئ الكريم بمراجعته مشكورًا مأجورًا.

وفي الحلقة الثانية: تكلمنا عن بعض الفوائد من الحديث، والتي من أهمها: أن معاداة الأولياء لولايتهم هو معاداة للدين وأنه من كبائر الذنوب.

ثم بيَّنَّا مذهب أهل السنة في الاعتقاد في الولاية، وأنهم وَسَط بين من أنكرها من الغلاة في الدين، وبين مَن أفرط فيها من الغالين في

Upload by: altawhedmag.com

عباد الله المخلوقين. ثم بيَّنَّا المذهب الحق لمعرفة طريق الولاية الصحيح، وأنه لا يكون إلا بما كان في الكتاب والسنة؛ فيثبتون الولاية لأولياء الله خلافًا لمن أنكرها من الغلاة، ثم هم يثبتونها من طريق الشرع؛ خلافًا لمن ادَّعاها من المفرطين من طريق مخالفة الشرع وتعطيله.

ثم بيَّنَّا أنه بعد تحقيق الإيمان تكون زيادة الولاية بزيادة العبادة لا بتعطيلها ورفعها كما زعم بعضهم رفع التكاليف، وأن المعصية في حقه معفوَّة (ومن ذلك ينظر: فضائح الباطنية ص ٤٦. ط مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت).

ثم بيَّنَّا عقيدة أهل السنة في فهمهم للإيمان، وأنه يزيد وينقص مع الأعمال، وأن أهله يتفاضلون فيه، وكذلك أثبتنا من العقائد صفة المحبة التي أثبتها الله عز وجل لنفسه؛ فعلى من أراد مراجعة بعض ما كان في العددين السالفين تفضلاً منه فجزاه الله خيرًا، ثم من أراد الزيادة على ما سطرناه لأهمية ومناسبة الحال؛ فليرجع إلى ما كان من مصادر أصلية استفدنا منها، وعزونا إليها في صلب المقال.

ثم ها نحن أولاء ننتهي ببيان بعض ما يشتبه حول هذا الحديث الأنور:

الشبهة الأولى:

كيف يوصف الله بالتردد؟!

اعتمد أهل العلم على هذا الحديث في إثبات صفة «التَّرَدُّد»، وقالوا: بأنها صفةٌ فعليةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله تعالى على ما يليق به.

وخلاصته: أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فتردُّده ليس كتردد المخلوقين مثل سائر صفات رب العالمين، وقد بيناه بتفصيل مناسب في الحلقة الماضية فليراجع.

الشبهة الثانية:

استدل به المخالفون من غلاة الصوفية ومن تبعهم على عقيدة الحلول والاتحاد الكفرية، والتي تفيد أن الله تعالى إنما يحل في الولي، فيكون الولي مظهرًا من مظاهر الله تعالى، أو يكون الولي عين الله تعالى؛ فيكون يد الولي وسمعه وبصره: يد الله وسمعه وبصره؛ وعليه فإن طلب المدد من الولي والاستغاثة به هو في الحقيقة طلب من الله تعالى واستغاثة به؛ لأن الله قد حلّ في الولي» انتهى معنى كلامهم.

أقول: هذا كلامهم الباطل فانتبه يرحمك الله.

ومن أشهر من قال بهذا من ظالميهم، الحلاج، وابن عربي؛ فليراجع كلامهم في كتبهم لمن أراد الوقوف على نصوصهم

والجواب على هذه الفرية الكفرية المهلكة:

رد أولو العلم هذه الفرى، واستدلوا بنفس الحديث على بطلان قول هؤلاء فانظر رحمك الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وطيب ثراه: «وَهَذَا الْحَدِيثُ يَحْتَجُّ بِهِ أَهْلُ الْوَحْدَةِ وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ؛ مِنْهَا:

١- أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ» فَأَثْبَتَ نَفْسَهُ وَوَلِيَّهُ وَمُعَادِي وَلِيِّهِ وَهَؤُلَاءِ ثَلَاثَةٌ.

٢- ثُمَّ قَالَ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»؛ فَأَثْبَتَ عَبْدًا يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالْفَرَائِضِ ثُمَّ بِالنَّوَافِلِ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى يُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَّهُ كَانَ الْعَبْدُ يَسْمَعُ بِهِ. وَيُبْصِرُ بِهِ وَيَبْطِشُ بِهِ وَيَمْشِي بِهِ.» انتهى.

هذا وقد أجاد شيخ الاسلام الحافظ ابن حجر رحمه الله وأجزل له المثوبة والأجر في توضيح المعنى فقال في «فتح الباري» (٣٤٣/١١): «وَقد اسْتُشْكِلَ: كَيْفَ يَكُونُ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا سَمْعَ الْعَبْدِ وَبَصَرَهُ إِلَخْ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجُهٍ:

Upload by: altawhedmag.com

أحدُهَا: أنَّهُ وَرَدَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، وَالْمَعْنَى: كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ فِي إِيثَارِهِ أَمْرِي فَهُوَ يُحِبُّ طَاعَتِي وَيُؤْثِرُ خِدْمَتِي كَمَا يُحِبُّ هَذِهِ الْجَوَارِحَ.

ثَانِيهَا: أَنَّ الْمَعْنَى كُلِّيَّتُهُ مَشْغُولَةٌ بِي فَلَا يُصْغِي بِسَمْعِهِ إِلَّا إِلَى مَا يُرْضِينِي وَلَا يَرَى بِبَصَرِهِ إِلَّا مَا أَمرتُه بِهِ.

ثَالِثُهَا: الْمَعْنَى أَجعَل لَهُ مَقَاصِدَهُ كَأَنَّهُ يَنَالُهَا بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، إِلخ.

رَابِعُهَا: كُنْتُ لَهُ فِي النُّصْرَةِ كَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدِهِ وَرِجْلِهِ فِي الْمُعَاوَنَةِ عَلَى عَدُوِّهِ.

خَامِسُهَا: قَالَ الْفَاكِهَانِيُّ وَسَبَقَهُ إِلَى مَعْنَاهُ ابن هُبَيْرَةَ: هُوَ فِيمَا يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، وَالتَّقْدِيرُ: كُنْتُ حَافِظَ سَمْعِهِ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يَحِلُّ اسْتِمَاعُهُ، وَحَافِظَ بَصَرِهِ كَذَلِكَ، إِلخ.

سَادِسُهَا: قَالَ الْفَاكِهَانِيُّ: يَحْتَمِلُ مَعْنًى آخَرَ أَدَقَّ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى سَمْعِهِ مَسْمُوعَهُ؛ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ قَدْ جَاءَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ، مِثْلُ فُلَانٌ أَمَلِي بِمَعْنَى مَأْمُولِي، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ إِلَّا ذِكْرِي وَلَا يَلْتَذُّ إِلَّا بِتِلَاوَةِ كِتَابِي وَلَا يَأْنَسُ إِلَّا بِمُنَاجَاتِي وَلَا يَنْظُرُ إِلَّا فِي عَجَائِبِ مَلَكُوتِي وَلَا يَمُدُّ يَدَهُ إِلَّا فِيمَا فِيهِ رِضَايَ وَرِجْلَهُ كَذَلِكَ، وَبِمَعْنَاهُ قَالَ ابن هُبَيْرَةَ أَيْضًا. وَقَالَ الطُّوفِيُّ: اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ مِمَّنْ يُعْتَدُّ بِقَوْلِهِ أَنَّ هَذَا مَجَازٌ وَكِنَايَةٌ عَنْ نُصْرَةِ الْعَبْدِ وَتَأْيِيدِهِ وَإِعَانَتِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُنَزِّلُ نَفْسَهُ مِنْ عَبْدِهِ مَنْزِلَةَ الْآلَاتِ الَّتِي يَسْتَعِينُ بِهَا وَلِهَذَا وَقَعَ فِي رِوَايَةٍ (فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي) قَالَ: وَالِاتِّحَادِيَّةُ زَعَمُوا أَنَّهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّ الْحَقَّ عَيْنُ الْعَبْدِ، وَاحْتَجُّوا بِمَجِيءِ جِبْرِيلَ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ! قَالُوا: فَهُوَ رُوحَانِيٌّ خَلَعَ صُورَتَهُ وَظَهَرَ بِمَظْهَرِ الْبَشَرِ، قَالُوا: فَاللَّهُ أَقْدَرُ عَلَى أَنْ يَظْهَرَ فِي صُورَةِ الْوُجُودِ الْكُلِّيِّ أَوْ بَعْضِهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا!!

سابعها: وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: هَذِهِ أَمْثَالٌ، وَالْمَعْنَى: تَوْفِيقُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يُبَاشِرُهَا بِهَذِهِ الْأَعْضَاءِ وَتَيْسِيرُ الْمَحَبَّةِ لَهُ فِيهَا بِأَنْ يَحْفَظَ جَوَارِحَهُ عَلَيْهِ وَيَعْصِمَهُ عَنْ مُوَاقَعَةِ مَا يَكْرَهُ اللَّهُ مِنَ الْإِصْغَاءِ إِلَى اللَّهْوِ بِسَمْعِهِ وَمِنَ النَّظَرِ إِلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ بِبَصَرِهِ وَمِنَ الْبَطْشِ فِيمَا لَا يَحِلُّ لَهُ بِيَدِهِ وَمِنَ السَّعْيِ إِلَى الْبَاطِلِ بِرِجْلِهِ. وَإِلَى هَذَا نَحَا الدَّاوُدِيُّ وَمِثْلُهُ الْكَلَابَاذِيُّ وَعَبَّرَ بِقَوْلِهِ: أَحْفَظُهُ فَلَا يَتَصَرَّفُ إِلَّا فِي مَحَابِّي لِأَنَّهُ إِذَا أَحَبَّهُ كَرِهَ لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيمَا يَكْرَهُهُ مِنْهُ.

سابعها: قَالَ الْخَطَّابِيُّ أَيْضًا: وَقَدْ يَكُونُ عَبَّرَ بِذَلِكَ عَنْ سُرْعَةِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَالنُّجْحِ فِي الطَّلَبِ وَذَلِكَ أَنَّ مَسَاعِيَ الْإِنْسَانِ كُلَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِهَذِهِ الْجَوَارِحِ الْمَذْكُورَةِ.

تاسعها: قَالَ بَعْضُهُمْ: وَهُوَ مُنْتَزَعٌ مِمَّا تَقَدَّمَ لَا يَتَحَرَّكُ لَهُ جَارِحَةٌ إِلَّا فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ فَهِيَ كُلُّهَا تَعْمَلُ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ) انتهى بتصرف يسير.

ثالثا: استشكال وُقُوعِ الْمُحَارَبَةِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ مَعَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ فِي أَسْرِ الْخَالِقِ!

قال ابن حجر: «وَقَدِ اسْتُشْكِلَ وُقُوعُ الْمُحَارَبَةِ وَهِيَ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ مَعَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ فِي أَسْرِ الْخَالِقِ! وَالْجَوَابُ أَنَّهُ مِنَ الْمُخَاطَبَةِ بِمَا يُفْهَمُ فَإِنَّ الْحَرْبَ تَنْشَأُ عَنِ الْعَدَاوَةِ وَالْعَدَاوَةُ تَنْشَأُ عَنِ الْمُخَالَفَةِ وَغَايَةُ الْحَرْبِ الْهَلَاكُ وَاللَّهُ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى فَقَدْ تَعَرَّضَ لِإِهْلَاكِي إِيَّاهُ فَأَطْلَقَ الْحَرْبَ وَأَرَادَ لَازِمَهُ أَيْ أَعْمَلُ بِهِ مَا يَعْمَلُهُ الْعَدُوُّ الْمُحَارِبُ. قَالَ الْفَاكِهَانِيُّ: فِي هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِأَنَّ مَنْ حَارَبَهُ اللَّهُ أَهْلَكَهُ، وَهُوَ مِنَ الْمَجَازِ الْبَلِيغِ؛ لِأَنَّ مَنْ كَرِهَ مَنْ أَحَبَّ اللَّهُ خَالَفَ اللَّهَ، وَمَنْ خَالَفَ اللَّهَ عَانَدَهُ وَمَنْ عَانَدَهُ أَهْلَكَهُ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فِي جَانِبِ الْمُعَادَاةِ ثَبَتَ فِي جَانِبِ الْمُوَالَاةِ: فَمَنْ وَالَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ أَكْرَمَهُ اللَّهُ. وَقَالَ الطُّوفِيُّ: لَمَّا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ مَنْ تَوَلَّى اللَّهَ بِالطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى تَوَلَّاهُ اللَّهُ بِالْحِفْظِ

Upload by: altawhedmag.com

وَالنُّصْرَةِ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْعَادَةَ بِأَنَّ عَدُوَّ الْعَدُوِّ صَدِيقٌ وَصَدِيقَ الْعَدُوِّ عَدُوٌّ فَعَدُوُّ وَلِيِّ اللَّهِ عَدُوُّ اللَّهِ فَمَنْ عَادَاهُ كَانَ كَمَنْ حَارَبَهُ وَمَنْ حَارَبَهُ فَكَأَنَّمَا حَارَبَ اللَّهَ».

رابعًا: استشكال بأن النوافل هي التي ينتج عنها محبة الله للعبد والفرائض مقدمة عليها فكيف لا تنتج المحبة!

أفاد ذلك الامام الشوكاني رحمه الله نقلا عن ابن حجر رحمه الله في شرحه الماتع للحديث في كتابه (قطر الولي في حديث الولي)

قال ابن حجر: «قَوْلُهُ (بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبْتُهُ) فِي رِوَايَةِ الْكُشْمِيهَنِيِّ (أُحِبُّهُ) ظَاهِرُهُ أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ تَقَعُ بِمُلَازَمَةِ الْعَبْدِ التَّقَرُّبَ بِالنَّوَافِلِ، وَقَدِ اسْتُشْكِلَ بِمَا تَقَدَّمَ أَوَّلًا أَنَّ الْفَرَائِضَ أَحَبُّ الْعِبَادَاتِ الْمُتَقَرَّبِ بِهَا إِلَى اللَّهِ فَكَيْفَ لَا تُنْتِجُ الْمَحَبَّةَ!

قلت: وكان من أفضل ما أجاب به رحمه الله قوله: وَقَالَ ابن هُبَيْرَةَ: يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ مَا تَقَرَّبَ إِلَخْ أَنَّ النَّافِلَةَ لَا تُقَدَّمُ عَلَى الْفَرِيضَةِ؛ لِأَنَّ النَّافِلَةَ إِنَّمَا سُمِّيَتْ نَافِلَةً لِأَنَّهَا تَأْتِي زَائِدَةً عَلَى الْفَرِيضَةِ فَمَا لَمْ تُؤَدَّ الْفَرِيضَةُ لَا تَحْصُلُ النَّافِلَةُ، وَمَنْ أَدَّى الْفَرْضَ ثُمَّ زَادَ عَلَيْهِ النَّفْلَ وَأَدَامَ ذَلِكَ تَحَقَّقَتْ مِنْهُ إِرَادَةُ التَّقَرُّبِ، انْتَهَى.

والله من وراء القصد،

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

باب السنة

حال العبد بين خوف المذنبين ورجاء المحسنين

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

روى الإمام البخاري في صحيحه: عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ».

التخريج:

رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك) ٥/ ٢٣٨٠ رقم ٦١٢٣).

شرح الحديث:

قوله: (الجنة أقرب لأحدكم من شراك نعله): الشراك: هو السير الذي يدخل فيه إصبع الرجل، ويطلق أيضًا على كل سير وقي به القدم.

قال ابن بطال: فيه أن الطاعة موصلة إلى الجنة، وأن المعصية مقربة إلى النار، وأن الطاعة والمعصية قد تكون في أيسر الأشياء.

وقال ابن الجوزي: معنى الحديث أن تحصيل الجنة سهل؛ بتصحيح القصد وفعل الطاعة، والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية.

وقال ابن حجر: «فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه ولا في قليل من الشر أن يجتنبه؛ فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها ولا السيئة التي يسخط عليه بها. ((ينظر فتح الباري ١١/ ٣٢١ بتصرف يسير، وأفاده العيني في عمدة القاري ٢٣/ ٧٨).

قلت: ويشهد لذلك حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ» (رواه البخاري: ٦٤٨٧)، وما قصة المتهم بالنفاق في غزوة تبوك لكلمة قالها عنا ببعيدة؛ إذ روى أئمة الحديث عن

Upload by: altawhedmag.com

عبد الله بن عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: «قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلس يومًا: ما رأيتُ مثلَ قُرَّائنا هؤلاء، لا أرغبَ بُطونًا، ولا أكذبَ ألسنةً، ولا أجبنَ عند اللِّقاء! فقال رجلٌ في المجلس: كذبْتَ، ولكنَّك مُنافقٌ، لأُخبرنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فبلغ ذلك النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونزل القرآنُ، قال عبدُ الله: فأنا رأيتُه مُتعلِّقًا بحَقَبِ ناقة رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَنكُبُه الحجارةُ، وهو يقولُ: يا رسولَ الله، إنَّما كنَّا نخوضُ ونلعَبُ، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: (أبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ). (صحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تحقيق تفسير ابن جرير ١٤/٣٣٤)، وقرائنا يقصد بهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من فقهائهم وقرائهم.

وقال الشنقيطي رحمه الله: نزلت هذه الآية بإطباق المفسرين في غزوة تبوك في قوم استهزأوا بالله وآياته ورسوله» (ينظر العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٥/٦١٤)، ثم كان العقاب من الله: « لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ »(التوبة: ٦٦).

وكذلك نقول: وهل يذكر القارئ الكريم أن إبليس لعنه الله نزل من مرتبة العز بسجدة تركها؟ وأن آدم هبط من الجنة بلقمة أكلها، «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (النور: ٦٣).

فائدة:

درء التعارض بين حديث أبي هريرة السابق (والذي فيه لا يلقي لها بالاً)، وبين حديث: (إنما الأعمال بالنيات)، إذ (لا عمل إلا بنية)؛ إذ قوله: (لا يُلقي لها بَالاً) فكيف يجمع بينهما؟

الجواب:

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١١/ ٣١١): «قوله: (لا يلقي لها بالاً) أي: لا يتأملها بخاطره ولا يتفكر في عاقبتها ولا يظن أنها تؤثر شيئًا، وهو من نحو قوله تعالى: (وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم)، وقال في السخط مثل ذلك». انتهى.

وعليه فإنه لا يعني أنه لم يقصد الكلمة ولم ينوها، وإنما المراد أنه لم يتثبت فيها، ولم يظن أنها تبلغ ما بلغت.

مما يستفاد من الحديث:

١- براعة البخاري في ترتيب صحيحه، ومن ذلك:

قوله في هذا الباب: (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله) هذه الترجمة حذفها ابن بطال، وذكر الحديثين اللذين فيها وهما: حديث: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله»، وقوله صلى الله عليه وسلم: «أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرُ أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلُ»، ذكر الحديثين في الباب الذي قبلها. (قلت: أي في باب حفت النار بالشهوات)، وفيه حديث أبي هريرة: «حُجبت النار بالشهوات والجنة بالمكاره». والمناسبة ظاهرة، وهي أن الجنة مع أنها حُفَّت بالمكاره والنار حُفَّت بالشهوات إلا أن كل واحدة منهما أقرب للعبد من شراك نعله؛ مَن التزم بما يرضي الله سبحانه، ومَن لم يلتزم؛ لذا وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديث بعده: قال « أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرُ أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلُ »: فكل شيء لا يؤدي إلى رضا الله باطل مهما كان ظاهره.

هذا، وقد انعقد إجماع الأمة على أن التراجم التي وضعها الإمام البخاري في كتابه تنمُّ عن فَهْم عميق ونظر دقيق في معاني النصوص، حتى اشتهر بين أهل العلم قولهم: «فقه البخاري في تراجمه».

وتناول المؤلف في هذا الكتاب سائر أحكام الشرع؛ العملية والاعتقادية.

وقد أتت مادة كتاب (صحيح البخاري) المسمى: «الجامع الصحيح المختصر من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه»، مقسمة على (٩٧) كتابًا بدأها بكتاب بدأ الوحي،

Upload by: altawhedmag.com

فكتاب الإيمان، فكتاب العلم، ثم دخل في كتب العبادات؛ الوضوء.. إلخ، وختم الكتاب بكتاب التوحيد يسبقه كتاب الاعتصام بالسنة.

وابتداء البخاري رحمه الله جامعه بكتاب بدء الوحي، فكأنه يقول: أبدأ كتابي لكم والذي كله من الوحي الذي أوحي به لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بكتاب الإيمان، والذي يدعو إليه هذا الوحي، ثم كتاب العلم، ثم تأتي فروع الدين من العلم بهذا الوحي تترى حتى تنتهي بكتاب «الاعتصام بالسنة»، والتي كانت هي الوحي، وهي مصدر جميع ما سبق من شرائع الدين، ثم يختم بكتاب التوحيد الذي هو ثمرة الوحي كله وغاية الخلق.

وفيما سبق بعض رد على المتجرئين على سنة النبي عامة وعلى البخاري ورواة السنة ونقلتها خاصة؛ ذلك هو البخاري إمام نقلة السنة يا عباد الله.

٢- إن الرسول صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم؛ فالحديث مبناه صغير ومعناه كبير خطير، يذخر بفرائد الفوائد واللطائف والشواهد.

٣- رحمة الله الواسعة، وأن هذا الدين يسر؛ وذلك من إخباره صلى الله عليه وسلم أن الجنة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله وأنه قدم ذلك على قوله: «والنار مثل ذلك»؛ فالذي يتأمل الإسلام العظيم يجد السهولة واليسر في كل جوانبه وأحكامه، فعقائده ميسرة، وعباداته سهلة، وأخلاقه رفيعة، كما قال تعالى: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) (الحج: ٧٨) وقال تعالى: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (البقرة: ١٨٥).

٤- وضوح الطريق؛ فالحلال بيّن والحرام بيّن، والمشتبه علاجه معلوم؛

وبيان ذلك أن الطاعة موصلة إلى الجنَّة، وأن المعصية مقربة إلى النَّار، وأن الطاعة والمعصية قد تكون من أيسر الأشياء، وسلعة الله وإن كانت غالية إلا أنها سهلة ميسورة، بَيَّن رب العزة ثمنها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى!»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». (البخاري ٦٨٥١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)): الصحيحة (٢٣٣٥).

٥- التواصي بالصبر؛ وبيان ذلك أن هذه الجنة القريبة لا يرجى دخولها إلا بالصبر على الطاعات التي شرع رب الأرض والسموات من طريق خاتم الأنبياء، وكذا بالصبر على اجتناب المحرمات مما نهى عنه رب الأرض والسماوات.

٦- عقيدة الخوف والرجاء جناحان يطير بهما العبد إلى الله، فلا تستقيم دنياه ولا أخراه إلا بهما، وأفضل ما يوعظ العبد به ما يكون ترغيباً وترهيباً، وبيان هذه العقيدة السلفية الصحيحة الناجعة كما في هذا الحديث المبارك.

وللعلماء في ذلك درر؛ منها ما نقله صاحب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص (١٠٥) يقول: قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف يَنْكَفُّ عن المناهي، وبالرجاء يُكثر من الطاعات.

وذكر القرطبي رحمه الله قول سهل بن عبد الله، قال: «الخوف والرجاء زمامان على الإنسان، فإذا استويا استقامت أحواله، وإن رجح أحدهما بطل الآخر (انتهى من فتح المجيد بتصرف).

والله تعالى نسأله الستر والقبول،

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



زهرة الدنيا بين المشروع والممنوع

الحمد لله ولي الصالحين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين وآله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

ففي مسيرتنا في رياض باب السنة، ومن كتاب الرقاق شرحًا واستفادة من سِفْر شيخ المحدثين إمام العرب والعجم أجمعين البخاري رحمه الله يروي بسنده إلى الإمام الزهري في باب ما يُحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها قال:

بقلم

د. مرزوق محمد مرزوق



قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ كَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ فَوَافَتْهُ صَلَاةَ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآهُمْ.

وَقَالَ: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ»؟ قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ».

أولًا: التخريج:

١- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، ح٦٠٨٧. وفي كتاب الجزية وباب الجزية والموادعة مع أهل الحرب (٣٠١٥).

٢- صحيح الإمام مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة، بَابُ مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، ح٥٣٩٥).

٣- سنن الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (٢٤٦٢).

٤- سنن ابن ماجه في كتاب الفتن رقم (٢٤٩٨).

ثانيًا: الشرح:

قول البخاري رحمه الله: (بَابُ مَا يُحْذَرُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا والتنافس فيه) المراد بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا بَهْجَتُهَا وَنَضَارَتُهَا وَحُسْنُهَا. و(التنافس) من النفاسة وهي الرغبة في الشيء، ومحبة الانفراد به والمغالبة عليه وكل ذلك مذموم (ينظر: حاشية البخاري تعليق مصطفى البغا (٩٠/٨) ينظر عمدة القاري (ج ١٣ ص ٣٩) وينظر إرشاد الساري شرح القسطاني (ج٥ ص٢٣٨).

Upload by: altawhedmag.com

وذكر رضي الله عنه في الباب سبعة أحاديث ما بين التحذير من التنافس على زهرة الدنيا وأن رسول الله أوتي مفاتيح الخير، وأن خير القرون قرنه، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وأن من عاش من هؤلاء الأخيار في هذه القرون المفضلة على ما بهم من ضيق في العيش أو ابتلاء في النفس والمال إلا أن عيشهم هو أوسط عيش ارتضاه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه كما ذكر خباب رضي الله عنه على ما مرَّ به من بلاء: «إِنَّ أَصْحَابَنَا الَّذِينَ مَضَوْا لَمْ تَنْقُصْهُمُ الدُّنْيَا شَيْئًا، وَإِنَّا أَصَبْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ شَيْئًا، لاَ نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ» (أحد أحاديث الباب، فلتراجع هذه الأحاديث في باب ما يُحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها من كتاب الرقاق من صحيح البخاري رحمه الله لترى براعة البخاري الإمام في الجمع بين هذه الأحاديث متفقة المنهج مختلفة الظاهر تحت باب واحد؛ فكأنه أجاب بالجمع بينها على الممنوع والمشروع من زهرة الدنيا، وسيأتي مزيد تفصيل لهذا إن شاء الله.

شرح حديث الباب مختصرا:

قال ابن شهاب (محمد بن مسلم الزهري): حدثني (عروة بن الزبير) بن العوّام (أن المسور بن مخرمة) بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة (أخبره أن عمرو بن عوف) بالفاء الأنصاري (وهو حليف) بفتح الحاء المهملة وكسر اللام (لبني عامر بن لؤي كان) عمرو بن عوف (شهد بدرًا مع رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أخبره أن رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها)، أي: بجزية أهلها (وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو صالح أهل البحرين وأمّر عليهم) بتشديد الميم (العلاء بن الحضرمي) عبد الله بن مالك بن ربيعة وكان من أهل حضرموت سنة تسع من الهجرة (فقدم أبو عبيدة) بن الجراح سنة عشر (بمال من البحرين) وكان مائة ألف وثمانين ألف درهم، وقيل ثمانين ألفًا (فسمعت الأنصار بقدومه فوافته صلاة الصبح مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما انصرف) عليه الصلاة والسلام (تعرّضوا له فتبسّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رآهم وقال: (أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة وأنه جاء بشيء) من الدراهم؟ (قالوا: أجل) نعم (يا رسول الله قال: فأبشروا وأمّلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم)، (أي لا أخشى عليكم الفقر رغم حبي وخوفي وإشفاقي عليكم)، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها) أي: فترغبوا فيها كما رغبوا فيها (وتلهيكم) عن الآخرة (كما ألهتهم) عنها.

مما يستفاد من الحديث:

أولاً: النظر إلى عواقب الأمور وعدم الاغترار بزهرة الدنيا:

إن هذا الحديث دعوةٌ للتأمُّل في عواقب الأمور؛ لأن مَن رُزِقَ بصيرةً يرى بها نهاية الطريق قبل أن يسلكه، نال الخير، ونجا من الشر، ومَن لم يرَ العواقب، عاد عليه بنقيض قصده، وقد أمر الله جل وعلا بالاعتبار فقال: «فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ» (الحشر: ٢).

وما أجمل ما قاله واعظ السلف الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر في فصل البصر في العواقب ص٢٥: "من عاين بعين بصيرته تناهي الأمور في بداياتها، نال خيرها، ونجا من شرها. ومن لم ير العواقب غلب عليه الحس، فعاد عليه بالألم ما طلب منه السلامة، وبالنصب ما رجا منه الراحة... فراقب العواقب تسلم، ولا تَمِلْ مع هوى الحس فتندم).

وقال ابن بَطَّال في شرحه للصحيح (ج١١ ص٢٤٥): (إِنَّ زَهْرَةَ الدُّنْيَا يَنْبَغِي لِمَنْ فُتِحَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِهَا وَشَرِّ فِتْنَتِهَا فَلَا يَطْمَئِنَّ إِلَى زُخْرُفِهَا وَلَا يُنَافِسُ غَيْرَهُ فِيهَا).

ثانيًا: محبة المال فطرة وهي بين مشروع وممنوع:

من الأمور الفطرية والغرائز الربانية التي وضعها الله ابتلاءً للبشر، وجعل لها مصرفين؛ مصرفًا مذمومًا، ومصرفًا محمودًا؛ أما محبة المال فحب المال أمر جبلّي، لكن إن كان استعماله في طاعة الله، فهذا مصرف مشروع وعليه يؤجر العبد، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «وإنك مهما أنفقتَ من نفقةٍ فإنها صدقةٌ، حتى

Upload by: altawhedmag.com

اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك». (البخاري كتاب الوصايا: ٢٥٥٠).

وأما المصرف الآخر المذموم فيشتمل على كل الذي مآله الانشغال عن ذكر الله ومن ذلك قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ». وقوله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الدُّنيا خَضِرَةٌ حُلوةٌ، وإنَّ رجالًا يَتخوَّضونَ في مالِ اللَّهِ ورسولِه بغيرِ حقٍّ لَهُمُ النَّارُ يومَ القيامةِ» (البخاري ٣١١٨).

وليس قصد الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك، انصراف أمته عن كسب المال من وجوهه الشرعية، وصرفه في أبوابه المشروعة، لا يقصد هذا؛ فهو يعلم صلى الله عليه وسلم ما للمال من أهمية في قوة الإسلام والمسلمين، وغير ذلك من أعمال البر والخير، وما قصص المنفقين من الأعلام عنا ببعيدة، وان شئت فاقرأ عن أبي بكر الذي أنفق ماله كله في سبيل الله، وعمر الذي أنفق نصفه دفعة واحدة، ثم أعياه منافسة الصديق «يقول الفاروق رضي الله عنه: "أمَرَنا رسول الله- صلَّى الله عليه وسلَّم- يومًا أن نتصدَّق، فوافَق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسْبِق أبا بكر إن سبقتُه يومًا، فجِئْت بنصف مالي، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «ما أبقيتَ لأهلك؟»، فقلت: مثلَه، قال: وأتى أبو بكر بكلِّ ما عنده، فقال له رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «ما أبقيتَ لأهلك؟»، قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلتُ: لا أُسابقك إلى شيءٍ أبدًا" (الترمذي برقم (٣٨٢٩)، وقال حسَن صحيحٌ).

وعثمان الذي ما ضره شيء ببشارة رسول الله بعدما جهَّز جيش العسرة؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم: (مَن جهَّز جيش العسرة فله الجنة، فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه) (رواه البخاري)، حتى أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على ما فعل عثمان رضي الله عنه فقال: (ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم) (رواه الترمذي وصححه الألباني)، وغيرهم كعبدالرحمن بن عوف، بل وبلال بن رباح على ضيق ذات يده رضي الله عنهم أجمعين.

فلم يقصد رسول الله الإعراض عن هذا المال النافع للمسلمين، بل ولعموم خلق الله؛ وإنما قصد صلى الله عليه وسلم ما يترتب عليه من الطغيان والتنافس المؤدي إلى الهلاك والحرمان.

لذا كانت زهرة الدنيا من آخر ما حذَّر منه صلى الله عليه وسلم؛ ففي الصحيحين عن عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فقال: "إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم"، قال عقبة: فكان آخر ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر.

وقد سمى الله تعالى المال خيرًا في مواضع كثيرة من القرآن فقال تعالى: «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» (العاديات:٨) وقال: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ» (البقرة: ١٨٠)، وقال تعالى عن سليمان عليه السلام: «إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي» (ص: ٣٢).

ولما سأل سائل النبي صلى الله عليه وسلم هل يأتي الخير بالشر؟ صمت حتى ظنوا أنه أوحي إليه. فلما نزل عليه جواب ما سئل عنه قال: "أين السائل؟ " قال: ها أنا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الخير لا يأتي إلا بالخير"، وفي رواية لمسلم فقال: "أو خير هو؟ "، وفي ذلك دليل على أن المال ليس بخير على الإطلاق، بل منه خير ومنه شر، ثم ضرب مثل المال ومثل من يأخذه بحقه وينفقه في حقه، ومن يأخذه من غير حقه وينفقه في غير حقه؛ فالمال في حق الأول خير، وفي حق الثاني شر؛ فتبين بهذا أن المال ليس بخير مطلق، بل هو خير مقيد؛ فإن استعان به المؤمن على ما ينفعه في آخرته كان خيرًا له وإلا كان شرًا له). (انتهى بتصرف من لطائف المعارف لابن رجب (٣٠٧/١).

وللحديث صلة إن أحيانا الله عز وجل في الشهر القادم في استكمال ما يتيسر من الفوائد.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



التخلق بالرحمة واللين عبادة لرب العالمين

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله ولي الصالحين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين وآله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

ففي شهر رجب تفضل الله علينا بالبحث حول حديث من أحاديث باب عنون له شيخ المحدثين البخاري رحمه الله (باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها) ضمن كتاب الرقاق قال: ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ كَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ فَوَافَتْهُ صَلاَةَ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآهُمْ.

وَقَالَ: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ»؟ قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ». (صحيح البخاري ٣٠١٥ح، صحيح الإمام مسلم ح٥٣٩٥).

والحمد لله تناولناه تخريجًا وشرحًا وذكر بعض مما يستفاد منه فكان مما ذكر من فوائده إجمالاً:



Upload by: altawhedmag.com

أولاً: النظر إلى عواقب الأمور وعدم الاغترار بزهرة الدنيا.

ثانيًا: محبة المال فطرة وهي بين مشروع وممنوع.

فليراجع تكرمًا من متابع مجلتنا الغراء.

واستكمالا لما في الحديث من فوائد نقول وبالله تعالى التوفيق:

ثالثا: الحديث دليل من دلائل النبوة:

فقدْ وقعَ ما أخْبَر به صلَّى الله عليه وسلَّم؛ إذ فُتحتْ الدُّنيا بعدَه وبُسطتْ، وها نحن نرى منها ما لم يره أسلافنا ثم حَصَل التنافس والتقاتُلُ ممَّا يزيد المؤمن إيمانًا صلَّى الله عليه وسلَّم ودلائل النبوة من أهم ما يزيد إيمان المؤمنين (للاستزادة في مثل ذلك ينصح بمظانها كدلائل النبوة للبيهقي، ومثله لأبي نعيم، وقبله إثبات النبوة للشافعي الإمام، وثبوت النبوات لشيخ الاسلام ابن تيمية، رحمة الله على الجميع) ينظر فتح الباري ٦/٢٦٣.

رابعًا: من صفات القائد والداعية الفطنة والذكاء وفهم إخوانه:

وذلك واضح من فعل النبي صلى الله عليه وسلم عندما رأى الأنصار تعرَّضوا له بعد صلاة الصبح، ففطن لما يريدون وسبيل ذلك الافتقار الى الله.

خامسًا: أهمية تأمير الأمراء على الأقطار والبلدان:

كما في حديثنا إذ ولَّى النبي صلى الله عليه وسلم على البحرين العلاء بن الحضرمي؛ فالأمير يجتمع إليه الناس، ويجمع الله به الكلمة، وغيره مما لا يتسع بسطه في حالتنا هذه.

سادسًا: من أساليب البيان في الدعوة إلى الله طريقة السؤال والجواب:

إذ تشد انتباه المدعو، وها قد رأينا نبينا صلى الله عليه وسلم يفعل هذا.

سابعا: جواز التأكيد بالقسم أحيانًا كوسيلة من وسائل إقناع المخاطب، وقد فعلها النبي وهو الصادق المصدوق.

ثامنًا: من أصناف المدعوين: أهل الصلاح والتقوى:

فليست الدعوة قاصرة على أهل المعاصي فقط، بل الذكرى تنفع المؤمنين.

تاسعًا: التخلق بخلق الرحمة واللين في دلالة العباد على الدين: وقد أخَّرتها لأهميتها، ونحن على أعتاب شهر كريم، فليسمح إخواني لي بهذه التوسعة لاسيما وقد افتقر العالم بأثره لمثل هذه الأخلاق التي خسر العالم كثيرًا بتخلفهم عنها.

وذلك من قول الصحابي عمرو بن عوف رضى الله عنه واصفًا رسول الله: (فتبسم حين رآهم)؛ فتبسمه صلى الله عليه وسلم يبعث الراحة في نفوس الآخرين، ويفتح لهم فرصة العرض والطلب، ويرفع مؤنة السؤال والحرج، وهكذا يكون الدعاة إلى الله دعاة بالرحمة واللين؛ كما كان سيد المرسلين، ولا شك أن التبسم نوع من أنواع الرحمة والحالة هذه، قال القرطبي رحمه الله في تفسيره ج٤/ ص٢٤٨: (وغلظ القلب عبارة عن تجهُّم الوجه، وقلة الانفعال في الرغائب، وقلة الإشفاق والرحمة).

ولم ينكر صلى الله عليه وسلم إقبال الناس من أجل المال؛ إذ هي طبيعة البشر.

Upload by: altawhedmag.com

هذا واتصالاً بالفائدة السابقة فإن الموفَّق من ينتقي العبر ويضعها في مكانها وزمانها وطريقة التعبير عنها كما كان يفعل المصطفى صلى الله عليه وسلم لما وجد نفوسًا قد تهيأت لسماع ما يقال، ووجد البيان مناسبًا للحال بيَّن، وما كان لرسول الله أن يؤخر البيان عن وقت الحاجة إليه، غير أنه لا تفارق أخلاقه ما أمره الله به (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) (آل عمران: ١٥٩) وذلك في وعظه، ووعده ووعيده.

إننا وخاصة في هذه الأيام نحتاج إلى هذا الداعية صادق اللهجة، بَرّ الخلق، كريم العطايا؛ كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بل وفوق ذلك صاحب عفو ممتد ليس لديه حسابات إلا الجنة، بضاعته نفسٌ باعها لله؛ حيث (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) (التوبة:١١١) لا يتعدى حدود الله، وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما خُيِّر النبي صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم؛ فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تُنتهك حرمات الله فينتقم لله) (ح ٦٢٨٨).

ثم هو بعد ذلك يطلب الأرفق للناس فلا يُعنتهم كقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لم يبعثني معنتًا، ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا" (مسلم ٢٧٩٥).

وما حديث الأعرابي الذي بال في المسجد عن الناس ببعيد والنبي صلى الله عليه وسلم يرفق به آمرًا أصحابه: "دعوه وهريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوبًا من ماء؛ فإنما بُعثتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسِّرين" (البخاري ٢٥٠).

هذا ومن الرفق تقبّل الميسور من أخلاق الناس، والرضا بظواهرهم وعدم الشق عن سرائرهم، ومنه قبول أعذارهم، والغض عن هفواتهم، ثم بعد ذلك الاجتهاد في إصلاحهم بالحسنى.

عشرًا: تعين صفة الرحمة على الراعي من باب أولى

والراعي هو ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته. الحديث) متفق عليه، فكلنا راع، وكل بحسب، وإن أشد ما يكون العنف شرًّا وضررًا حين يكون على مَن ولاك الله أمره، وآتاك سلطانًا عليه، وإن جعل هذا السلطان سبيلاً للتسلط والعنف، يجرّ إلى كراهية الخلق لمن تسلط عليه ونفرته؛ حتى لو كنت آمرًا بالخير داعيًا إليه.

هذا ومن صور رحمته صلي الله عليه وسلم تسامحه مع أهل مكة حين فتحها مع ما كان منهم، ورحمته بكبار شانئيه، لم يكن ذلك كله من سيرته عنا ببعيد، مع التأكيد على أن رحمته وإحسانه ليس من باب إقرار غير المسلم على كفره، ولكن من باب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وإعطاء الحقوق لأهلها كما يأمره دينه الحق.

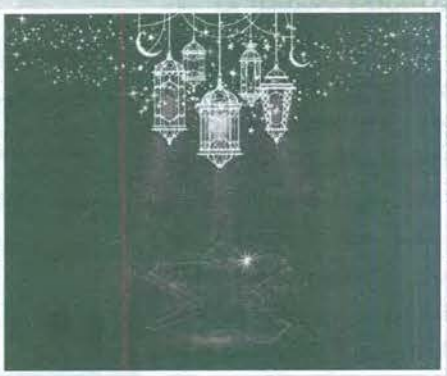
فكيف وبعدما تقدم من معاملة الإسلام للخلق، يجورون بوصفهم للإسلام بالإرهاب، فالعدل يا عباد الله.

والحمد لله أولاً وآخرًا

Upload by: altawhedmag.com



بهجة القرآن



بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فقد حاولت وعلى منهج مجلتنا الغراء أن أوظف باب السنة لخدمة الشهر الفضيل وكيفية الاستفادة منه، ولما كان القرآن عَلَمًا على شهرنا بعد الصيام، وقد أفاض فيه دعاة المسلمين عامة وامتلأت به مجلتنا خاصة-وهي بذلك جديرة- فقلت تتميمًا لجهدهم وتبشيرًا بثمرة وعظهم، وأن الناس سيُقبلون على كتاب الله زرافات ووحدانًا كما هو المشهور في رمضان، فقلت أشفع هذه الاستجابة المباركة متممًا بدعوة منقية لها مما قد يلحق ببهائها من غبش، فكان حديثنا الشريف الذي بين أيدينا، والذي رواه عن نبينا صلى الله عليه وسلم محذرًا من الفتن صاحبه حذيفة رضي الله عنه:

قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِدْئًا لِلْإِسْلَامِ، غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشِّرْكِ، الْمَرْمِيُّ أَمِ الرَّامِي؟ قَالَ: بَلِ الرَّامِي».

تخريج الحديث والحكم عليه:

لما كان الحديث في غير الصحيحين احتجنا للحكم عليه، ولما قد حكم عليه أحد من كبار علماء الحديث اكتفينا بنقل بحثه مختصرًا بغير إخلال ولا تطويل لذلك نقول: (حسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة في المجلد السابع وقال: أخرجه البخاري في «التاريخ «(٤/٣٠١/٠٧/٢٩)، وأبو يعلى في «مسنده الكبير» كما في «تفسير ابن كثير» (٢/٢٦٥) و«المطالب العالية» (٤/٢٧٣/٤٤٢٣)-، ومن طريق أبي يعلى: ابن حبان في «صحيحه» (١/١٤٨/٨١)، والبزار في مسنده « (١/٩٩/١٧٥) من طرق عن محمد بن بكر عن الصلت (بن بهرام)، حدثنا الحسن، حدثنا جندب البجلي في هذا المسجد أن حذيفة حدثه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:... فذكره. وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد،

Upload by: altawhedmag.com

والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين، ولم يُرْمَ بشيء إلا الإرجاء، وقد وثقه أحمد وابن معين وغيرهما». اهـ.

وأقول: لا شك أن الصلت بن بهرام ثقة، ولكن هل هو راوي هذا الحديث عن الحسن- وهو البصري-؟! هذا فيه نظر،... ثم بحث الشيخ الألباني رحمه الله الفرق بين راويين هما (الصلت) ابن مهران والصلت بن بهرام.... ثم قال الألباني رحمه الله: وعليه «فالصلت هنا اثنان: ابن بهرام، وقد وثقه جماعة كما تقدم، وابن مهران، وهو غير مشهور.. ثم قال رحمه الله: وسواء كان هذا أو ذاك، فالحديث حسن إن شاء الله تعالى.

قلت: وللحديث شواهد كثيرة صحيحة منها ما رواه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠)- واللفظ له- عن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ».

الشرح:

هذا حديث عظيم القدر إذ إنه يصف لنا حالاً من أشد الأحوال هو حال رجل قرأ القرآن ورأى الناسُ عليه نوره وأثره، وكان عونًا للإسلام وأهله ومدافعًا عنهم، ثم إذا به يغير ذلك ويفارق الإسلام ويترك القرآن ويقتل جاره ويتهمه بالشرك، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم: من أحق بالشرك، هذا الرجل الذي قتل جاره واتهمه بالشرك أم الجار؟ فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الرجل الذي اتهم جاره بالشرك هو أحق بما اتهم به جاره.

مما يستفاد من الحديث:

أولاً: الحديث دليل من دلائل النبوة:

فيه إخبار منه صلى الله عليه وسلم بما هو كائن وحدث ما أخبر به الصادق المصدوق وقد سبق في علم الله سبحانه أن سيكون في هذه الأمة من سيكفر المسلمين ويسفك دماءهم، وينتهك حرماتهم بغير سلطان من الشرع، فصدق رسول الله فيما بلغ عن ربه وهو باب من أوسع أبواب زيادة الإيمان.

ثانيا: الخوف من سوء الخاتمة والدعاء بالثبات:

فمثل هذا الرجل الذي تخوفه علينا النبي صلى الله عليه وسلم كان من شأنه أنه قرأ القرآن أي: حفظ حروفه وأتقن قراءتها، بل وكان رِدْءًا ناصرًا للإسلام ومع ذلك فقد حدث له ما حدث من انتكاسة وصلت إلى انسلاخه من الإسلام سواء بالكلية كفرًا أو انسلاخًا من صحيح تعاليمه، فقضى على نفسه بما رمى به المسلمين، وعليه-ونحن في هذا الشهر الفضيل- وقد اجتهد الناس فيه إقبالاً على كتاب ربهم وأنعم الله عليهم بأنواع الطاعات وإغلاق باب المخالفات ننصح أنفسنا وإياهم ألا يأمنوا بعد هذا الخير على أنفسهم، إمامهم في هذا سيد المتقين فيما رواه عنه أنس رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ».

> لا تُعجب بإيمانك، وعملك، وصلاتك، وصومك، وجميع قُربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك، فإنه من خَلْق ربك وفضله عليك، فمهما افتخرت بذلك، كنت كالمفتخر بمتاع غيره.

والأحاديث والآثار في ذلك وافرة فلتراجع من باب التذكرة ومنه في كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي رحمه الله يقول: يقول الإمام القرطبي رحمه الله في كتابه (التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص٣٤) قال: «لا تُعجَب بإيمانك، وعملك، وصلاتك، وصومك، وجميع قُرَبِك، فإن ذلك وإن كان من كسبك، فإنه من خَلْق ربك وفَضْله عليك، فمهما افتخرتَ بذلك، كنتَ كالمفتخِر بمتاع غيره، وربما

Upload by: altawhedmag.com

سُلب عنك، فعاد قلبُك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرُها يانع عَميم، فأصبحت وزهرها يابس هَشيم؛ إذ هبَّت عليها الريحُ العَقيم، كذلك العبد يُمسي وقلبُه بطاعة الله مُشرق سليم، فيُصبح وهو بمعصيته مُظلم سقيم، ذلك فعلُ العزيز الحكيم، الخلاَّق العليم»؛ اهـ. (وينظر كذلك البدور السافرة في أحوال الآخرة للإمام السيوطي رحمه الله ص٣٨).

ثالثا: التحذير من فتنة التكفير:

فلا يخفى على قارئه ما في الحديث من هذه الفائدة وقد تصدرت هذه الفائدة تبويب كثير من أهل العلم على الحديث فهي من أظهر ما يستفاد منه، وهذه الفتنة جرم يقع فيه صاحبه غالبًا لأمرين:

الأول: جهل وسببه قلة علم ابتداء أو فهم خاطئ لما تعلم، ومرد ذلك أن الطالب ينفرد بنفسه يعلمها فينعزل على كتبه يقرأها دون وعي ولا بصيرة، والله أمرنا بالرجوع إلى أهل الذكر أو يلجأ إلى مثله يعلمه خطأ، وقد خالف بهذا أمر الله للمؤمنين حين قال جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: ٤٣).

وبهذا الجهل لا نستغرب من هؤلاء فهمهم حين كان مرجعهم في تعليمهم وتفهيمهم غير المتخصصين من أمثالهم فأفتوهم بغير علم فضلوا وأضلوا؛ فخربوا وقتلوا وهدموا.

والسبب الثاني: الهوى وهذا من أخطر الصفات، فصفاتهم قريبة من صفات المنافقين إذ هم على علم بما يقولون لكنهم في دين الله يبتدعون وعلى الله يتقولون، وعلى حسب مصالحهم ومذاهبهم يتلونون، عنوانهم شهواتهم من أجلها يعادون إخوانهم ويؤاخون من أجلها أعداءهم، ولا أقول ذلك في المسائل الخلافية التي تحتمل الاجتهاد، ولكن في المسائل المحسومة التي لا تقبل إلا التسليم والانقياد، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

فوجدنا من جراء ذلك بلوى تكفير المسلمين بغير حق، وما ترتب عليه من استحلال للدماء والأموال، بل ولا أبالغ إن قلت: واستباحة الأعراض فكل ذلك مما يخافه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته عامة وقارئ القرآن خاصة.

واذا كان الشيء بالشيء يذكر فهناك فئة جديدة ضلت فخرجت على أمة الإسلام بنوع جديد من أنواع التعدي لا أقول كسابقتها خرجت بتكفير وتخريب، لكن أقول خرجت على علماء الأمة وعوامها بتفسيق وتبديع والتاريخ شاهد على أمثالهم فكانوا معول هدم أينما وجدوا ولا تزال دعوات المصلحين تصرخ تنادي بتطهير الأمة من أمثال هؤلاء إذ لا تزال أفكارهم سببًا في إرهاب العباد وخراب البلاد.

> إن من أخطر الطوائف على أمة الإسلام أصحاب الهوى إذ هم على علم بما يقولون، وعلى الله يتقولون، وعلى حسب مصالحهم ومذاهبهم يتلونون.

رابعًا: والحديث دعوة للعلم والفهم، لذا وضعه ابن حبان رحمه الله في كتاب العلم فليس أخطر على الأمة من جاهل يضللهم.

خامسا: إن من توفيق الله للعبد انشغاله بنفسه وبما كلفه الله به والله عز وجل لم يجعل قضاء الحكم على عباده في أيدي عوامهم بل كلف بذلك شرعًا خواصهم من العلماء، لذا فليس من التوفيق أن يكلف الإنسان نفسه بما لم يكلفه به ربه لا سيما في مثل هذه الأبواب الخطيرة ثم هو يقصر في تكليف الله له جزمًا، ويعين الإنسان على كل ما سبق الدعاء في هذه الأيام المباركات، وفي هذا القدر كفاية.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن كان شهر الخيرات قد انقضى فقد بارك الله في العمر وبقي الخير وربه ورب كل شيء، لذا كان من توفيق الله للعبد وبشرى قبول العمل أن يوفق العامل في عمله لله ويستقيم على تقربه من مولاه، ومن ذلك حديث الشهر:

روى الإمام البخاري بسنده عَنْ سُمَيٍّ مَوْلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنْ الْأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ. قَالَ أَلَا أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ؛ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ: تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا فَقَالَ بَعْضُنَا نُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: تَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ».

التخريج من الكتب الستة:

١- صحيح البخاري، أبواب صفة الصلاة باب الذكر بعد الصلاة (٨٤٣).

٢- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩٥)

وفي سنن أبي داوود: عن أبي هريرة أنه حدثهم: أن أبا ذر قال: يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور... فذكره بنحوه إلى أن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تكبر دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وتسبح ثلاثا وثلاثين، وتحمد ثلاثا وثلاثين، وتختموا بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير). (١٥٠٤).

شرح الحديث:

قوله: (جاء الفقراء):

سُمِيَ منهم.. أبو ذر الغفاري أخرجه أبو داود

Upload by: altawhedmag.com

من حديث أبي ذر نفسه، وسمي منهم أبو الدرداء عند النسائي وغيره من طرق عنه، ولمسلم من رواية سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أنهم قالوا: « يا رسول الله » فذكر الحديث، والظاهر أن أبا هريرة منهم. وفي رواية النسائي عن زيد بن ثابت قال « أمرنا أن نسبح » الحديث كما سيأتي لفظه.

قوله: (الدثور): جمع دثر بفتح ثم سكون هو المال الكثير،...

قوله: (بالدرجات العلى) بضم العين جمع العلياء وهي تأنيث الأعلى، ويحتمل أن تكون حسية، والمراد درجات الجنات، أو معنوية والمراد علو القدر عند الله.

قوله: (والنعيم المقيم) وصفه بالإقامة إشارة إلى ضده وهو النعيم العاجل، فإنه قل ما يصفو، وإن صفا فهو بصدد الزوال.... قوله: (ويصومون كما نصوم) زاد في حديث أبي الدرداء المذكور « ويذكرون كما نذكر»، وللبزار من حديث ابن عمر « صدقوا تصديقنا، وآمنوا إيماننا».

قوله: (ولهم فضل أموال) كذا للأكثر بالإضافة، وفي رواية الأصيلي «فضل الأموال» وللكشميهني « فضل من أموال».

قوله: (يحجون بها) أي ولا نحج،....

قوله: (ويتصدقون) عند مسلم من رواية ابن عجلان عن سمي « ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق».

قوله: (فقال ألا أحدثكم بما إن أخذتم به) في رواية الأصيلي « بأمر إن أخذتم « ... وفي رواية مسلم « أفلا أعلمكم شيئًا « وفي رواية أبي داود فقال يا أبا ذر، ألا أعلمك كلمات تقولهن.

قوله: (أدركتم من سبقكم) أي: من أهل الأموال الذين امتازوا عليكم بالصدقة، والسبقية هنا يحتمل أن تكون معنوية وأن تكون حسية...

قوله: (وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيهم) بفتح النون وسكون التحتانية.... وعند مسلم من رواية ابن عجلان ولا يكون أحد أفضل منكم.... وكذا قوله إلا من عمل مثل عملكم أي: من الفقراء، أو من الأغنياء فتصدق، أو أن الخطاب للفقراء خاصة لكن يشاركهم الأغنياء في الخيرية المذكورة فيكون كل من الصنفين خيرًا ممن لا يتقرب بذكر ولا صدقة.

قوله: (تسبحون، وتحمدون، وتكبرون) كذا وقع في أكثر الأحاديث تقديم التسبيح على التحميد وتأخير التكبير، وفي رواية ابن عجلان تقديم التكبير على التحميد خاصة، وفيه أيضًا قول أبي صالح يقول: الله أكبر وسبحان الله، والحمد لله، ومثله لأبي داود من حديث أم الحكم، وله من حديث أبي هريرة تكبر، وتحمد، وتسبح، وكذا في حديث ابن عمر.

يقول الحافظ ابن حجر: وهذا الاختلاف دالّ على أن لا ترتيب فيها، ويستأنس لذلك بقوله في حديث الباقيات الصالحات: «لا يضرك بأيهن بدأت»، لكن يمكن أن يقال: الأولى البداءة بالتسبيح لأنه يتضمن نفي النقائص عن الباري- سبحانه وتعالى-، ثم التحميد لأنه يتضمن إثبات الكمال له، إذ لا يلزم من نفي النقائص إثبات الكمال، ثم التكبير إذ لا يلزم من نفي النقائص وإثبات الكمال أن يكون هنا كبير آخر، ثم يختم بالتهليل الدال على انفراده- سبحانه وتعالى- بجميع ذلك.

قوله: (خلف كل صلاة): أي: أن الذكر المذكور يقال عند الفراغ من الصلاة، فلو تأخر ذلك عن الفراغ فإن كان يسيرًا بحيث لا يعد معرضًا أو كان ناسيًا أو متشاغلاً بما ورد أيضًا بعد الصلاة كآية الكرسي فلا يضر، وظاهر قوله « كل صلاة « يشمل الفرض والنفل، لكن حمله أكثر العلماء على الفرض، قال في الفتح: وقد وقع في حديث كعب بن عجرة عند مسلم التقييد بالمكتوبة، وكأنهم حملوا المطلقات عليها، وعلى هذا هل يكون التشاغل بعد المكتوبة بالراتبة بعدها فاصلاً بين المكتوبة والذكر أو لا؟ محل النظر، والله أعلم.

قوله: (ثلاثًا وثلاثين):

قلت: يحتمل أن يكون المجموع للجميع ويحتمل أن يكون كل ذكر ثلاثا وثلاثين وهو اختيار الحافظ؛ قال في الفتح: «والأظهر أن المراد

Upload by: altawhedmag.com

أن المجموع لكل فرد فرد، فعلى هذا ففيه تنازع أفعال في ظرف ومصدر، والتقدير تسبحون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين وتحمدون وتكبرون كذلك».

قلت: وسيأتي الإشارة اليها تفصيلاً في استكمال الشرح إن شاء الله.

قوله: (حتى يكون منهن كلهن) بكسر اللام تأكيدًا للضمير المجرور.

قوله: (ثلاث وثلاثون) بالرفع وهو اسم كان، وفي رواية كريمة والأصيلي « ثلاثًا وثلاثين »، وتوجه بأن اسم كان محذوف والتقدير حتى يكون العدد منهن كلهن ثلاثًا وثلاثين، وفي قوله «منهن كلهن » الاحتمال المتقدم: هل العدد للجميع أو المجموع، وفي رواية ابن عجلان ظاهرها أن العدد للجميع لكن يقول ذلك مجموعًا، وهذا اختيار أبي صالح، لكن الرواية الثابتة عن غيره الإفراد، قال عياض: وهو أولى، ورجح بعضهم الجمع للإتيان فيه بواو العطف والذي يظهر أن كلاً من الأمرين حسن، إلا أن الإفراد يتميز بأمر آخر، وهو أن الذاكر يحتاج إلى العدد، وله على كل حركة لذلك- سواء كان بأصابعه أو بغيرها- ثواب لا يحصل لصاحب الجمع منه إلا الثلث. (ينظر: فتح الباري (٢/٣٨١)، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ص٢٢٠ وما بعدها).

مما يستفاد من الحديث إجمالاً:

أولا: المُسَابقَة إلَى الأعْمَال المحصلة للدرجات العَالِيَة لمبادرة الأغْنيَاء إلَى العَمَل بمَا بَلغهُمْ، وَلم يُنكر عَلَيْهِم النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم.

ثانيا: فضل الذكر عامة عقيب الصَّلَوَات؛ لأنَّهَا أوْقَات فاضلة ترتجي فِيهَا إجَابَة الدُّعَاء. قَال الحافظ ابن رجب: وقد دَّل الحديث على فضل التسبيح والتحميد والتكبير خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين. وفضل الذكر.

ثالثا: أن العَمَل القَاصر قد يُسَاوي المُتَعَدِّي، خلافًا لمن قَالَ: إن المُتَعَدِّي أفضل مُطلقًا قلت: وَمِمَّا يُؤَيدهُ أن الثَّوَاب الَّذي يُعْطيه الله تَعَالَى لَا يستَحقهُ الإنْسَان بِحَسب الأذْكَار، وَلَا بِحَسب إعْطَاء الأمْوَال، إنَّمَا هُوَ «فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ» (المَائدَة: ٥٤، الحَديد: ٢١، وَالجُمُعَة: ٤).

رابعا: يُفهم مِنْهُ أنه لَا بَأس أن يغبط الرجل الرجل على مَا يَفْعَله من أعمال البر، وَأنه يتَمَنَّى أن لو فعل مثل مَا فعله، ويتسبب في تَحْصيله لذَلك أو لما يقوم مقَامه من أعمال البر، وَقد قَالَ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم في الحَديث الصَّحِيح: (لَا حسد إلاَّ في اثْنَتَيْنِ.)

خامسا: حرص الصحابة رضي الله عنهم على فعل الخير، وتنافسهم في ذلك. والحُزْن على فَوات مَوَاسِم الخيرات، وعلى فَوات الطَّاعات.

قال ابن رجب: فَكَان الفقراء يَحزنُونَ على فوات الصَّدقة بالأموال التي يَقدِرُ عليها الأغنياء، ويَحْزنُون على التخلُّف عن الخروج في الجهاد؛ لعَدَم القُدْرَة على آلَته. اهـ.

سادسا: التَّنَافُس في أمور الآخرة، هو التنافس المحمود، بخلاف التنافس على الدنيا، فإنه سبب الهلاك، وفي الحديث: « أخشى عليكم أن تُبْسَط عليكم الدنيا كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم، فَتَنَافَسُوها كما تَنَافَسُوها، وتهلككم كما أهلكتهم ». رواه البخاري ومسلم.

سابعا: النَّظر في أمور الدِّين إلى من هو أعلى، والنَّظر في أمور الدنيا إلى من هو أقلّ.

كما روى مسلم عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «انْظُرُوا إلَى مَنْ أسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أجْدَرُ أنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ -قَالَ أبُو مُعَاوِيَةَ- عَلَيْكُمْ».

لأنَّ النَّظر في أمور الدِّين إلى من هو أعلى يَحْمِل صاحبه على عُلو الهمَّة والتنافس في الخيرات، والنظر إلى من هو أقلّ في أمور الدنيا يَحْمِل الإنسان على شُكْر النِّعْمَة. ويُنْظر شرحه في « جامع العلوم والحِكَم » لابن رجب. (ينظر: شرح أحاديث عمدة الأحكام شرح الحديث ١٣٣ لعبد الرحمن بن عبدالله السحيم، وينظر شرح الحديث في جامع العلوم والحكم ص لابن رجب (ص٢٢٠ وما بعدها).

وللحديث صلة إن شاء الله.

Upload by: altawhedmag.com



التوحيد هو المنحة الكبرى

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن من نعمة الله الكبرى ومنحته العظمى أن جعل نعمة التوحيد هي أول واجب على العبيد، وهي أول ما يثبت للعبد به الإسلام، وهي آخر كلام للموفَّق من الأنام يخرج به من الدنيا، ومن ذلك ما اتفق عليه الشيخان ورواه الإمام مسلم بسنده.

الحديث:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ حَدَّثَنِي مَحْمُودُ بْنُ الرَّبِيعِ عَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَلَقِيتُ عِتْبَانَ فَقُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ قَالَ: أَصَابَنِي فِي بَصَرِي بَعْضُ الشَّيْءِ، فَبَعَثْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ- صلى الله عليه وسلم- أَنِّي أُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنِي فَتُصَلِّيَ فِي مَنْزِلِي فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى قَالَ: فَأَتَى النَّبِيُّ- صلى الله عليه وسلم- وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَخَلَ وَهُوَ يُصَلِّي فِي مَنْزِلِي وَأَصْحَابُهُ يَتَحَدَّثُونَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ أَسْنَدُوا عُظْمَ ذَلِكَ وَكُبْرَهُ إِلَى مَالِكِ بْنِ دُخْشُمٍ قَالُوا: وَدُّوا أَنَّهُ دَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، وَوَدُّوا أَنَّهُ أَصَابَهُ شَرٌّ فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ- صلى الله عليه وسلم- الصَّلاَةَ وَقَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟». قَالُوا: إِنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ وَمَا هُوَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ: «لاَ يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَيَدْخُلَ النَّارَ أَوْ تَطْعَمَهُ» قال أنس: فأعجبني هذا الحديث. فقلت لابني: اكتبه، فكتبه.

التخريج:

الحديث متفق عليه، والسياق السابق هو سياق الإمام مسلم رحمه الله في كتاب الإيمان، وقد أخرجه البخاري في:

١- كِتَاب الرِّقَاقِ، بَاب الْعَمَلِ الَّذِي يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، برقم ٦٠٨٥.

٢- كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتاله، باب ما جاء في المتأولين برقم ٦٥٧٢.

٣- كتاب الأطعمة باب الخزيرة برقم ٥١٠٩ وباب برقم ٣٨١٨.

٤- كتاب التهجد باب صلاة النوافل جماعة



Upload by: altawhedmag.com

برقم ١١٤٥.

٥- كتاب الصلاة باب المساجد في البيوت برقم ٤١٧.

وأخرجه مسلم رحمه الله في موضعين واللفظ له في كتاب الايمان:

١- كتاب المساجد ومواضع الصلاة، بَابُ الرُّخْصَةِ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجَمَاعَةِ بِعُذْرٍ برقم ١٠٩٩.

٢- كتاب الايمان، بَابُ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ بِالْإِيمَانِ وَهُوَ غَيْرُ شَاكٍّ فِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، برقم ٧٧.

المعنى العام:

حديث عتبان بن مالك الصحابي الجليل الأنصاري الخزرجي الذي شهد بدرًا، حدث بقوله صلى الله عليه وسلم «لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه: وسمع بهذا الحديث محمود بن الربيع... فجاء إلى عتبان فقال له: بلغني عنك حديث وأحب أن أسمعه منك.

فأخذ عتبان يسوق الحديث بطوله، فقال ما شرحه مستفادًا من روايات الحديث الأخرى عند البخاري: كنت إمام قومي، أنتقل عند كل فريضة إلى مسجد محلتهم فأصلي بهم، فضعف بصري فأصبحت أتعثر في طريق المسجد، فأردت أن أعوض ما يفوتني من الصلاة في المسجد بالصلاة في مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله! قد أنكرت بصري، وأنا إمام قومي، فإذا كانت الأمطار وسال الوادي بيني وبينهم لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، ووددت يا رسول الله أنك تأتيني، فتخط لي مكانًا في بيتي فتصلي فيه، فأتخذه مصلى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سأفعل إن شاء الله.

فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر حين ارتفع النهار، وانضم إليهما في الطريق عمر، فلما وصلوا المنزل استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن عتبان بالدخول فدخلوا فلم يجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل البيت، ولكنه قال: أين تحب أن أصلي من بيتك؟ فقال عتبان: هنا، وأشار إلى ناحية منه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقام من حضر من الصحابة فصفوا، فكبر فصلى بهم ركعتين، ثم جلسوا يتحدثون وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي، فتناولوا بحديثهم مالك بن دخشم، وهو من قوم عتبان واتهموه بالنفاق كما في بعض روايات الحديث، وأنه ممن تولى كبره كما قال الله تعالى في المنافقين، ثم تناولوه فمن قائل: وددنا أن رسول الله دعا عليه فهلك، ومن قائل: وددنا أنه أصابه شر.

هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع، فلما قضى الصلاة قال: لا تقولوا هذا، ثم بيَّن رسول الله مكانة هذا الصحابي فقال صلى الله عليه وسلم: أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله».

قال النووي رحمه الله: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ بْنَ دُخْشُمٍ هَذَا مِنَ الْأَنْصَارِ وَذَكَرَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ اخْتِلَافًا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي شُهُودِهِ الْعَقَبَةَ. قَالَ: وَلَمْ يَخْتَلِفُوا أَنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْمَشَاهِدِ. قَالَ: وَلَا يَصِحُّ عَنْهُ النِّفَاقُ، فَقَدْ ظَهَرَ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِهِ مَا يَمْنَعُ مِنِ اتِّهَامِهِ، ثم قال رحمه الله: وَقَدْ نَصَّ النَّبِيُّ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى إِيمَانِهِ بَاطِنًا وَبَرَاءَتِهِ مِنَ النِّفَاقِ بِقَوْلِهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ- رَحِمَهُ اللَّهُ-.

أَلَا تَرَاهُ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى فَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَهُ بِأَنَّهُ قَالَهَا مُصَدِّقًا بِهَا مُعْتَقِدًا صِدْقَهَا مُتَقَرِّبًا بِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَشَهِدَ لَهُ فِي شَهَادَتِهِ لِأَهْلِ بَدْرٍ بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ. فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُشَكَّ فِي صِدْقِ إِيمَانِهِ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-. (شرحه على مسلم ج١ ص ١٩٧-٢٠٠).

ثم بين صلى الله عليه وسلم بيانه العظيم منحة الله العظمى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وهو الشاهد والفائدة الكبرى من حديثنا الشريف؛ قال: «لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه النار».

وحدث محمود بن الربيع أنس بن مالك بهذا

Upload by: altawhedmag.com

الحديث فسُرَّ به واستبشر، وقال لابنه: اكتبه، فكتبه، فأخذ أنس يحدث به؛ فالحمد لله رب العالمين.

بعض ما يستفاد من الحديث مختصرا:

١- مدى حرص الصحابة على تتبُّع الأحاديث والانتقال إلى راويها الأول لسماعها منه، وهو هدي السلف.

٢- جواز استدعاء المفضول للفاضل لمصلحة تُعْرِض.

٣- إجابة الفاضل دعوة المفضول، ومنه زيارة العلماء والفضلاء والكبراء أتباعهم، وأنه من دعي منهم أجاب إذا أمن من الفتن.

٤- استصحاب الزائر بعض أصحابه إذا علم أن المستدعي لا يكره ذلك.

٥- اجتماع أهل الجهة لملاقاة الإمام أو العالم إذا ورد منزل بعضهم ليستفيدوا منه.

٦- افتقاد من غاب عن الجماعة.

٧- ذكر مَن يُتَّهم بريبة أو نحوها للأئمة وغيرهم للتحرُّز منه، ولا يعد ذلك غِيبة.

٨- إن على الإمام أن يتثبت من ذلك، ويحمل الأمر فيه على الوجه الجميل.

٩- إن مَن نسب مَن يُظهر الإسلام إلى النفاق ونحوه بقرينة تقوم عنده لا يكفر بذلك ولا يفسق، بل يُعذر بالتأويل، وذلك كما كان من الصحابة رضي الله عنهم وصوَّب لهم النبي صلى الله عليه وسلم خطأهم.

١٠- فضل الذَّبّ عمن ذُكِرَ بسوء وهو بريء منه في غيبته لا سيما لو كان غائبًا.

١١- جواز اتخاذ موضع معين في البيت للصلاة.

١٢- حُسن خُلقه صلى الله عليه وسلم وتواضعه مع جلالة قدره وعلو منزلته.

١٣- ويؤخذ من رواية البخاري من قوله: «قد أنكرت بصري وأنا أصلي لقومي» جواز إمامة الأعمى.

١٤- وأنه كان في المدينة مساجد للجماعة سوى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٥- ويؤخذ من قوله في رواية البخاري أيضًا: فقام صلى الله عليه وسلم فكبر، فقمنا فصففنا، فصلى ركعتين ثم سلم يؤخذ من هذه الفقرة: جواز صلاة النافلة في جماعة.

١٦- وأن الإمام إذا زار قومًا أمَّهم.

١٧- يؤخذ من رواية البخاري من قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» الرد على غلاة المرجئة القائلين بأنه يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد.

١٨- أنه لا يدخل النار من شهد أن لا إله إلا الله، ولبحثها صلة إن شاء الله تفصيلاً في حلقة تالية.

١٩- جواز كتابة الحديث وغيره من العلوم الشرعية، وأجيب عن النهي عن كتابة الحديث بأنه كان خوفًا من اختلاطه بالقرآن، ولئلا يتكل الصحابة على الكتابة، ويفرّطوا في الحفظ مع التمكن منه. وكان بين الصحابة والتابعين خلاف في جواز كتابة الحديث، وكرهها كثير منهم، ثم استقر الإجماع وانعقد على جواز كتابته، بل على استحبابها، بل لا يبعد وجوبها على من خشي النسيان ممن يتعين عليه التبليغ. ولبحثها صلة إن شاء الله تفصيلاً في حلقة قادمة. وينظر (شرح النووي للحديث في شرحه على مسلم، وينظر: فتح المنعم على صحيح مسلم ج١ ص١٢٣)

وللبحث صلة إن شاء الله نفصّل فيه ثلاث مسائل تتعلق بالحديث، وهي:

المسألة الأولى: فضْل كلمة التوحيد؛ وهل تكفي وحدها في دخول الجنة؟

المسألة الثانية: حُكْم اتّخاذ الموضع الذي صلّى فيه النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم مُصَلًّى يُتَبَرَّكُ به؟

المسألة الثالثة: إجراءُ أحكامِ المسلمين على الظّاهر.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



التوحيد هو المنحة الكبرى

الحلقة الثانية

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد مَنَّ الله علينا بحديثنا الشهر السالف بعنوان (التوحيد هو المنحة الكبرى) والذي وعدنا باستكماله في هذا الشهر.

أولاً: الحديث من طريق أنس بن مالك:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ حَدَّثَنِي مَحْمُودُ بْنُ الرَّبِيعِ عَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَلَقِيتُ عِتْبَانَ فَقُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ قَالَ: أَصَابَنِي فِي بَصَرِي بَعْضُ الشَّيْءِ، فَبَعَثْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنِّي أُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنِي فَتُصَلِّيَ فِي مَنْزِلِي فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى قَالَ: فَأَتَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَخَلَ وَهُوَ يُصَلِّي فِي مَنْزِلِي وَأَصْحَابُهُ يَتَحَدَّثُونَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ أَسْنَدُوا عُظْمَ ذَلِكَ وَكُبْرَهُ إِلَى مَالِكِ بْنِ دُخْشُمٍ قَالُوا: وَدُّوا أَنَّهُ دَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، وَوَدُّوا أَنَّهُ أَصَابَهُ شَرٌّ فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الصَّلاةَ وَقَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟». قَالُوا: إِنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ وَمَا هُوَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ: «لاَ يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَيَدْخُلَ النَّارَ أَوْ تَطْعَمَهُ» قال أنس: فأعجبني هذا الحديث. فقلت لابني: اكتبه، فكتبه.

والحديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري برقم ٦٠٨٥، ومسلم برقم ١٠٩٩.

هذا وقد تفضل الله علينا في الحلقة السابقة بذكر تخريجه مفصلاً، وبيان المعنى العام من الحديث، ثم بذكر بعض من الفوائد الإجمالية المختصرة، ثم أخرنا مناقشة ثلاثة مسائل يحسن فيها بعض التفصيل لرفع ما قد يحيط بها من إشكال وهي:

١- فضل كلمة التوحيد.

٢- ضوابط اتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

٣- ضوابط التعامل بالظاهر.

أولاً: فضل كلمة التوحيد وتوجيه العلماء لأحاديث تثبت فضلها:

وما أدراك ما كلمة التوحيد! فلا يخفى فضلها؛ إذ في حديث عتبان رضي الله عنه ما يدل على أن الله يحرم وجه قائلها على النار، وأنه يدخل الجنة، وقد تواردت في ذلك أحاديث كثيرة كلها تدور حول هذا المعنى، وهي ما تسمى بأحاديث الوعد، فضلاً عن أحاديث أخرى يفيد ظاهرها وعيدًا يتعارض

Upload by: altawhedmag.com

مع هذا الوعد، غير أنه في الحقيقة لا تعارض بينها كما هي عقيدة المسلم تجاه صحيح سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وللتوفيق بين الأحاديث جميعًا، نقول:

أجاب فضيلة الشيخ ابن باز رحمه الله في فتاواه (٢٠٧/٢٨) قال: «والأحاديث كلها يفسِّر بعضها بعضًا، والمعنى أن من قال: لا إله إلا الله صادقًا من قلبه، مخلصًا لله وحده، وأدَّى حقها بفعل ما أمر الله، وترك ما حرم الله، ومات على ذلك دخل الجنة، وعصم دمه وماله حال حياته إلا بحق الإسلام.

.. ومن أتى شيئًا من المعاصي.. ومات على ذلك ولم يتب؛ فهو تحت مشيئة الله، إن شاء الله غفر له فضلًا منه وإحسانًا من أجل توحيده وإيمانه بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وسلامته من الشرك، وإن شاء عذَّبه على قدر المعاصي التي مات عليها، ثم يُخرجه الله من النار، بعد التطهير والتمحيص ويُدخله الجنة؛ لقول الله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ» (النساء:٤٨)؛ فأخبر سبحانه أنه لا يغفر الشرك لمن مات عليه، وأما ما دونه فهو مُعلَّق بمشيئة الله، فقد يعفو سبحانه عنه فضلًا ورحمة منه سبحانه.. والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهذا الذي ذكرناه هو قول أهل السنة والجماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعهم بإحسان، نسأل الله أن يجعلنا منهم والله ولي التوفيق. (انتهى كلامه بتصرف يسير).

وعليه نقول لا تعارض بين هذه الأحاديث جميعًا؛ لإمكان الجمع بينها، وكما هو معلوم أن إعمال الأدلة أولى من إهمالها، وأن دعوى النسخ التي صار إليها بعض أهل العلم حين أفادوا (أن هذه الأحاديث المذكورة في الوعد وما في معناها كانت قبل نزول الفرائض والحدود)، هذه الدعوى بعيدة؛ لأن كثيرًا منها كانت متأخرة؛ أي: بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود كما ذكره في كتاب (معارج القبول ص٤٢٨).

هذا، وقد أفاد الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم (٢١٩/١): أن «مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح.. أن أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأن كل من مات على الإيمان وتشهد مخلصًا من قلبه بالشهادتين، فإنه يدخل الجنة، فإن كان تائبًا أو سليمًا من المعاصي، دخل الجنة برحمة ربه وحُرِّم على النار. وإن كان من المخلطين بتضييع ما أوجب الله تعالى عليه أو بفعل ما حرَّم عليه فهو في المشيئة لا يقطع في أمره بتحريمه على النار ولا باستحقاقه الجنة لأول وهلة، بل يُقطع بأنه لا بد من دخوله الجنة آخرًا. والله أعلم».

٢- **فائدة:** هل يُتَّخذ الموضع الذي صلى فيه النبي مكانًا يُتبرك به، وذلك كما هو ظاهر فعل الصحابي الجليل عتبان بن مالك رضي الله عنه عندما أراد أن يتخذ المكان الذي صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم مسجدًا: وللجواب نقول: حمل العلماء فعل عتبان على عدة أوجه كلها مؤتلفة غير متعارضة:

- ورد في الفتح: «يحتمل أن يكون عتبان إنما طلب بذلك الوقوف على جهة القبلة بالقطع» (هامش فتح الباري، ٥٢٢/١)، وذلك بتحديد النبي لها.

- والاحتمال الآخر: ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى، ٤٦٨/١٧)؛ حيث قال: "فإنه قصد أن يبني مسجدًا وأحب أن يكون أول من يصلي فيه النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يبنيه في الموضع الذي صلى فيه؛ فالمقصود كان بناء المسجد"، وبيَّنه بصورة أوضح في اقتضاء الصراط المستقيم، ٧٥٤/٢):

- ثم إذا انضاف إلى ذلك أن أهل بيت عتبان رضي الله عنه لم يُنقل عنهم أنهم فعلوا ذلك، ولا أحدٌ من الصحابة تبعه في ذلك وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم ما طلبه عتبان مع أنَّ فيهم أبا بكر وعمر وغيرهما، بل لم يُنقل عنهم حرصهم على ما هو أيسر من ذلك كالتنفُّل في محرابه صلى الله عليه وسلم، بل ولا ما هو أيسر من ذلك كله لم يُنقل عن أمهات المؤمنين أنهن كنَّ يفعلن ذلك، وقد كن معه في البيوت.

- قلت: بل ويزيد الأمر تأكيدًا على ما نقلنا من تقرير السلف لذلك ما ورد من إنكار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على من قصد الصلاة في مكانٍ صلَّى فيه النبي صلى الله عليه وسلم؛ فعن المَعرور بن سُوَيد الأسديِّ قال: وافيتُ الموسم مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلمَّا انصرَف إلى المدينة، وانصرفتُ معه، صلَّى لنا صلاة الغداة، فقرأ فيها: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ» و«لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ»، ثم رأى أناسًا يذهبون ذهابًا، فقال: أين يذهبون هؤلاء؟ قالوا: يأتون مسجدًا هاهنا صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إنما أهلك مَن كان قبلكم بأشباه هذه؛ يتَّبعون آثار أنبيائهم، فاتَّخذوها كنائسَ وبِيَعًا،

Upload by: altawhedmag.com

ومَن أدركتْه الصلاةُ في شيءٍ من هذه المساجد التي صلَّى فيها رسولُ الله، فليُصلِّ فيها، ولا يَتعمَّدْنها" (وصححه الألباني في تخريج فضائل الشام ص: ٤٩)، وعمر رضي الله عنه هو ممن ذهب من الصحابة مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت عتبان بن مالك رضي الله فلو فقه عمر هذا من فعل النبي عند عتبان لكان أولى بالاتباع، وهو مَن هو مِن الصحابة، وعليه فكل ما في الأمر مما يظهر لنا من فعل عتبان ملخصه هو:

أن عتبان كلَّ بصرُه، فأراد أن يصلي في بيته ويطمئن من إقرار النبي لفعله أولاً، ثم يطمئن للقبلة كذلك وهو ضرير وكذلك أن يكون المسجد مكان صلاة رسول الله واعتقادًا منه وهي عقيدة كل مسلم أن اختيار الله لنبيه هو أفضل اختيار حتى وإن وقع ذلك اتفاقًا ولم يأمر به رسول الله، وأن الصورة التي يفعلها عتبان مثل الذي فعل النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يتجاوزه إلى ما لا يشرع من تبرك ونحو ذلك، فلا يُعظَّم الا ما عظَّمه الشرع ولا يفعل ما كان مفضيًا لبدعة كما هو حال كثير ممن يعظمون الأماكن والمشاهد الآن مما لم يشرعه الله. (للمزيد يُنظَر: الحوادث والبدع للطرطوشي (ص: ١٥٩- ١٦١) بعضه مستفاد منه)

هذا ويتفرع على مسألة عتبان رضي الله عنه هذه مسألة أعم وهي: هل تُعظَّم البقع التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم عمومًا؟ وللجواب عن ذلك ننقل جواب شيخ الإسلام ابن تيمية في المجلد العاشر (فصل في الاقتداء بالرسل) قال: "وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم على وجه التعبُّد، فهو عبادة يُشرَع التأسي به فيه.

فإذا خصَّص زمانًا أو مكانًا بعبادة، كان تخصيصه بتلك العبادة سُنة؛ كتخصيصه العشر الأواخر بالاعتكاف فيها، وكتخصيصه مقام إبراهيم بالصلاة فيه، فالتأسي به أن يُفعَل مثل ما فعل، على الوجه الذي فعل... وذلك إنما يكون بأن يقصد مثلما قصد... أما لو فعل فعلًا بحكم الاتفاق مثل نزوله في السفر بمكان،... ونحو ذلك، فهل يستحب قصد متابعته في ذلك؟ كان ابن عمر يحب أن يفعل مثل ذلك. وأما الخلفاء الراشدون، وجمهور الصحابة، فلم يستحبوا ذلك؛ لأن هذا ليس بمتابعة له؛ إذ المتابعة لابد فيها من القصد، فإذا لم يقصد هو ذلك الفعل، بل حصل له بحكم الاتفاق كان في قصده غير متابع له" (يُنظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٠ فصل في الاقتداء بالأنبياء).

مسألة: إجراء أحكام المسلمين على الظاهر

وهو مستفاد من حكمه صلى الله عليه وسلم على مالك بن الدخشم، وهي من المسائل المهمة في مذهب أهل السنة في الحكم على الناس، وهو من باب التكليف بما هو مُستطاع؛ إذ لا يَعرف ما في القلوب إلا الله، يقول الإمام الشاطبي في (الموافقات ج٢٧١): (إن أصل الحكم بالظاهر مقطوع به في الأحكام خصوصًا، وبالنسبة إلى الاعتقاد في الغير عمومًا؛ فإن سيد البشر مع إعلامه بالوحي يجري الأمور على ظواهرها في المنافقين وغيرهم، وإن علم بواطن أحوالهم، ولم يكن ذلك بمخرجه عن جريان الظواهر على ما جرت عليه).

واستند أهل السنة في تقريرهم لهذا الأصل العظيم إلى أدلة كثيرة؛ منها:

١- قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (سورة النساء:٩٤)

٢- واستدلوا بقوله-صلى الله عليه وسلم-: "أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله" (متفق عليه).

والشاهد من الحديث قوله: "وحسابهم على الله".. وقال الحافظ في الفتح: (أي: أمر سرائرهم.. وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر) (فتح الباري١/٧٧).

٣- واستدلوا أيضًا بقصة أسامة رضي الله عنه المشهورة عندما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سرية إلى الحرقات من جهينة؛ قال شيخ الإسلام في تعليقه على هذا الحديث ".. فإن الإيمان الذي عُلقت به أحكام الدنيا، هو الإيمان الظاهر وهو الإسلام؛ فالمسمى واحد في الأحكام الظاهرة) (يُنظر: كتاب الإيمان، ص٢٩٨).

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



شهر الله ومفتتح عام هجري جديد

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

روى الإمام مسلم بسنده إلى حُمَيْد بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَرْفَعُهُ، قَالَ: سُئِلَ: أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ؟ وَأَيُّ الصِّيَامِ أَفْضَلُ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ؟ فَقَالَ: "أَفْضَلُ الصَّلَاةِ، بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَأَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ، صِيَامُ شَهْرِ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ".

التخريج:

أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصيام، ح رقم (١١٦٣).

وأخرجه الترمذي في جامعه؛ حديث رقم ٤٤١.

وأخرجه أبو داود في سننه؛ حديث رقم ٢١١٥.

فائدة في إسناد الحديث:

قَوْلُهُ: (عَنْ حُمَيْد بْن عَبْد الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ) قال الإمام النووي في شرحه على مسلم (٢٢٧/٨): "اعْلَمْ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يَرْوِي عَنْهُ اثْنَانِ كُلُّ وَاحِد مِنْهُمَا حُمَيْدُ بْنُ عَبْد الرَّحْمَنِ أَحَدُهُمَا هَذَا الْحِمْيَرِيُّ، وَالثَّانِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْف الزُّهْرِيُّ). قَالَ الْحُمَيْدِيُّ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الصَّحِيحَيْنِ: كُلُّ مَا فِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِم حُمَيْدُ بْنُ عَبْد الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فَهُوَ الزُّهْرِيُّ إِلَّا فِي هَذَا الْحَدِيث خَاصَّةً حَدِيث أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ رَاوِيَهُ حُمَيْدُ بْنُ عَبْد الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَهَذَا الْحَدِيثُ لَمْ يَذْكُرْهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَلَا ذَكَرَ لِلْحِمْيَرِيِّ فِي الْبُخَارِيِّ أَصْلًا وَلَا فِي مُسْلِم إِلَّا فِي هَذَا الْحَدِيثِ".

المعنى العام

يُرغِّبُ النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث في الإكثار من الصيام في هذا

Upload by: altawhedmag.com

الشهر، حيث وصفَهُ بأنه أفضل الصيام بعد الفريضة، ووصْفُهُ بذلك يقتضي أفضليته على غيره، وتقديمه على ما سواه من صيام التطوع، وأفضل الصلاة أجرًا بعد الفريضة صلاة قيام الليل.

الشرح:

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ) تَصْرِيحٌ بِأَنَّهُ أَفْضَلُ الشُّهُورِ لِلصَّوْمِ، وَقَدْ سَبَقَ الْجَوَابُ عَنْ إِكْثَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ صَوْمِ شَعْبَانَ دُونَ الْمُحَرَّمِ، وَذَكَرْنَا فِيهِ جَوَابَيْنِ أَحَدُهُمَا لَعَلَّهُ إِنَّمَا عَلِمَ فَضْلَهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، وَالثَّانِي لَعَلَّهُ كَانَ يَعْرِضُ فِيهِ أَعْذَارٌ مِنْ سَفَرٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِمَا.

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ) فِيهِ دَلِيلٌ لِمَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَيْهِ أَنَّ تَطَوُّعَ اللَّيْلِ أَفْضَلُ مِنْ تَطَوُّعِ النَّهَارِ، وَفِيهِ حُجَّةٌ لِأَبِي إِسْحَاقَ الْمَرْوَزِيِّ مِنْ أَصْحَابِنَا وَمَنْ وَافَقَهُ أَنَّ صَلَاةَ اللَّيْلِ أَفْضَلُ مِنَ السُّنَنِ الرَّاتِبَةِ.

وَقَالَ أَكْثَرُ أَصْحَابِنَا الرَّوَاتِبُ أَفْضَلُ؛ لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْفَرَائِضَ، وَالْأَوَّلُ أَقْوَى وَأَوْفَقُ لِلْحَدِيثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (وينظر شرح النووي على مسلم (٨/٢٢٧)، وعون المعبود شرح سنن أبي داوود ٢٤٢٩).

مما يستفاد من الحديث:

١- المحرم من الأشهر الحرم عمومًا، وفضلها معروف؛ إذ قال الله تعالى: « إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ » (التوبة: ٣٦). وعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: " أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ" (أخرجهُ البخاري ١٧٤١، ومسلمٌ ١٦٧٩).

٢- وفي تسميته شهر الله قال الحافظُ ابنُ رجبٍ في " لطائف المعارف" (ص٨١ - ٨٢) تعليقا على الحديث: "وقد سمى النبي صلى اللهُ عليه وسلم المحرمَ شهرَ اللهِ، وإضافتهُ إلى الله تدلُّ على شرفه وفضله، فإن اللهَ تعالى لا يضيفُ إليه إلا خواصَّ مخلوقاته، كما نسبَ محمداً وابراهيمَ واسحاقَ ويعقوبَ وغيرَهم من الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم وسلامهُ إلى عبوديته، ونسبَ إليه بيتهُ وناقتهُ، ولما كان هذا الشهرُ مختصّاً بإضافته إلى اللهِ تعالى، وكان الصيامُ من بين الأعمالِ مضافاً إلى اللهِ تعالى، فإنهُ لهُ من بين الأعمالِ، ناسبَ أن يختصَّ هذا الشهرُ المضافُ إلى اللهِ بالعملِ المضافِ إليه، المختصِّ به، وهو الصيامُ".ا.هـ.

٣- الندب إلى صيام غالب شهر محرَّم، وقيدت ذلك بالأغلبية أو الأكثرية، مع أن ظاهر الحديث صيامه كله؛ لعدم ورود السنة بذلك، وكما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلَّا رَمَضَانَ..».

وقد أجاب الإمامُ النووي عن إكثارِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم من صومِ شعبان دون المحرم.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإنه قد ذهب جمهورُ الفقهاءِ من الحنفيةِ والمالكيةِ والشافعيةِ إلى استحبابِ صومِ الأشهرِ الحرمِ.. إذ قد ثبت عن ابنِ عمرَ أنه كان يصومُ الأشهرَ الحرمَ. أخرجهُ عبدُ الرزاقِ في "المصنف" (٤/٢٩٢)، وإسنادهُ صحيحٌ.

٤- أن الحكم بالأفضلية على عمل من الأعمال، أو قول من الأقوال، أو حال من الأحوال مصدره النص الصحيح الصريح من الكتاب والسنة، يقول ابن عبد البر: "والفضائل لا تُدرك بنظر، ولا مدخل فيها لقياس، فإن الله تعالى مُنْعِم متفضّل، له أن يتفضل بما شاء، على من يشاء، فيما يشاء من الأعمال، ولا مُعقّب لحُكمه، ولا رادّ

Upload by: altawhedmag.com

لفضله، وبيان ذلك هنا: أنه لولا ورود النص بأفضلية صيام شهر محرَّم، وترتيب مزيد ثواب على صيام بعض أيامه -كعاشوراء- لم يَجُز لنا الحكم بشيء من ذلك.

وعليه فلا يُصار إلى تخصيص شهر من الشهور، أو يوم من الأيام، أو ليلة من الليالي بعبادة معيَّنة إلا بنص. (وينظر وظيفة شهر الله المحرم ليوسف الحمادي).

مسائل تتعلق بصوم المحرم

١- أيهما أفضل صوم المحرم أم صوم شعبان؟

قال الشيخُ ابنُ عثيمين في "الشرح الممتع" (٦/٤٦٧): "واختلف العلماءُ - رحمهم اللهُ - أيهما أفضلُ صوم شهر المحرم، أم صوم شعبان؟

فقال بعضُ العلماءِ: شهرُ شعبانَ أفضلُ؛ لأن النبي صلى اللهُ عليه وسلم كان يصومهُ إلا قليلاً منهُ، ولم يُحفظ عنهُ أنه كان يصومُ شهرَ المحرم، لكنهُ حث على صيامه بقوله: "إنهُ أفضلُ الصيام بعد رمضان".

قالوا: ولأن صومَ شعبانَ ينزلُ منزلةَ الراتبةِ قبل الفريضة، وصومَ المحرم ينزلُ منزلةَ النفلِ المطلق، ومنزلةُ الراتبةِ أفضلُ من منزلةِ المطلق، وعلى كلٍ فهذان الشهران يُسنُ صومهما، إلا أن شعبانَ لا يكملهُ". اهـ.

٢- سُئل الشيخُ ابنُ عثيمين في "فتاويه" (٢٠/٢٢) سؤالاً نصهُ: "صيامُ شهرِ محرم كله هل فيه فضلٌ أم لا؟ وهل أكونُ مبتدعاً بصيامه؟

فأجاب - رحمهُ اللهُ -: "بعضُ الفقهاءِ يقولون: يُسَنُ صيامُ شهرِ اللهِ المحرمِ كله، ويستدلون بقوله صلى اللهُ عليه وسلم: "أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ"، ولكن لم يرد فيما أعلمُ أنه يصومهُ كله، وأكثر ما يكونُ صيامهُ من الشهورِ بعد رمضان شهر شعبان، كما جاء في الحديثِ الصحيح عن عائشةَ رضي اللهُ عنها، ولا يقالُ لمن صامهُ كلهُ: إنهُ مبتدعٌ؛ لأن الحديثَ المذكورَ قد يحتملُ هذا؛ أعني صيامهُ كله كما ذكرهُ بعضُ الفقهاءِ". اهـ.

٣- وفي فضل صيام عاشوراء:

هو اليوم الذي نجى الله تعالى فيه موسى من الغرق كما في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَدَهُمْ يَصُومُونَ يَوْمًا يَعْنِي عَاشُورَاءَ فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ وَهُوَ يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ فَصَامَ مُوسَى شُكْرًا لِلَّهِ. فَقَالَ: أَنَا أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ، فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ.

وقال النووي في "المجموع" (٦/٤٣٣-٤٣٤): "... قَالَ أَصْحَابُنَا: عَاشُورَاءُ هُوَ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنَ الْمُحَرَّمِ، وَتَاسُوعَاءُ هُوَ التَّاسِعُ مِنْهُ، هَذَا مَذْهَبُنَا، وَبِهِ قَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ. ودليل فضل صيامه ما ورد عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَحَرَّى صِيَامَ يَوْمٍ فَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَهَذَا الشَّهْرَ يَعْنِي شَهْرَ رَمَضَانَ) (أخرجه البخاري في "صحيحه" ٢٠٠٦).

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ مرفوعاً: (... وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ) (أخرجه مسلم في "صحيحه" ١١٦٢).

قال النووي في "المجموع" (٦/٢٨-٤٣١): "قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ: وَكُلُّ مَا يَرِدُ فِي الْأَخْبَارِ مِنْ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ فَهُوَ عِنْدِي مَحْمُولٌ عَلَى الصَّغَائِرِ دُونَ الْمُوبِقَاتِ؛ هَذَا كَلَامُهُ.

فائدة:

يستحب صوم التاسع والعاشر جميعاً، وهذا لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صام العاشر ونوى صيام التاسع: فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ) (أخرجه مسلم في "صحيحه" ١١٣٤).

قال النووي في "المجموع" (٦/٤٣٣-٤٣٤):

Upload by: altawhedmag.com

وَذَكَرَ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرِهِمْ فِي حِكْمَةِ اسْتِحْبَابِ صَوْمِ تَاسُوعَاءَ أَوْجُهًا: (أَحَدُهَا) أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ فِي اقْتِصَارِهِمْ عَلَى الْعَاشِرِ،

(الثَّانِي) أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ وَصْلُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ بِصَوْمٍ، كَمَا نُهِيَ أَنْ يُصَامَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَحْدَهُ، ذَكَرَهُمَا الْخَطَّابِيُّ وَآخَرُونَ.

(الثَّالِثُ) الِاحْتِيَاطُ فِي صَوْمِ الْعَاشِرِ خَشْيَةَ نَقْصِ الْهِلَالِ، وَوُقُوعِ غَلَطٍ فَيَكُونُ التَّاسِعُ فِي الْعَدَدِ هُوَ الْعَاشِرُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ. اهـ. (انتهى ملخصًا من لطائف المعارف (١١٣-١٢٠)؛ ونداء الريان: (١/٤٩٨-٥٠٠). ومن شاء الوقوف على أدلة كل حالة فليرجع إليهما).

خامسًا: بدع عاشوراء:

كان مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب- رضي الله عنهما- في يوم عاشوراء من شهر المحرم على المشهور. (البداية والنهاية: ٨/١٣٧).

فانقسم الناس إلى طائفتين:

• طائفة تتخذ يوم عاشوراء يوم مأتم وحزن ونياحة، وتظهر فيه شعار الجاهلية من لطم الخدود، وشق الجيوب، والتعزي بعزاء الجاهلية.. وانشاد قصائد للحزن، ورواية الأخبار التي فيها كذب كثير، والصدق فيها ليس فيه إلا تجديد الحزن والتعصب، وإثارة الشحناء والحرب، وإلقاء الفتن بين أهل الإسلام، والتوسل بذلك إلى سبّ السابقين الأولين.. وشر هؤلاء وضررهم على أهل الإسلام لا يحصيه الرجل الفصيح في الكلام. (مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٢٥/١٦٥-١٦٦).

• وطائفة أخرى من الجهال تمذهبت بمذهب أهل السنة، قصدوا غيظ الطائفة الأولى، وقابلوا الفاسد بالفاسد، والكذب بالكذب، والبدعة بالبدعة، فوضعوا الأحاديث في فضائل عاشوراء، والأحاديث في شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء. (الموضوعات من الأحاديث المرفوعات: (٢/٥٦٧)؛ مجموع الفتاوى: (٢٥/١٦٦).

والطائفتان مبتدعتان خارجتان عن السنة. ونحن براء من الفريقين. فأهل السنة يفعلون في هذا اليوم ما أمر به النبي-صلى الله عليه وسلم- من الصوم، ويجتنبون ما أمر به الشيطان من البدع. (الموضوعات: (٢/٥٦٧)؛ المنار المنيف في الصحيح والضعيف: (٨٩).

كذلك لم يرد فيما يفعله الناس في يوم عاشوراء من الكحل، والاغتسال، والحنّاء، والمصافحة، وطبخ الحبوب، وإظهار السرور، وغير ذلك؛ لم يرد في شيء من ذلك حديث صحيح عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، ولا عن أصحابه، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين، ولا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا روى أهل الكتب المعتمدة في ذلك شيئًا، لا عن النبي-صلى الله عليه وسلم- ولا الصحابة ولا التابعين، لا صحيحًا ولا ضعيفًا، لا في كتب الصحيح ولا في السنن ولا المسانيد، ولا يعرف شيء من هذه الأحاديث على عهد القرون الفاضلة. (مجموع الفتاوى: ٢٥/١٦٠-١٦١).

ومن حديث التوسعة على الأهل فتخصيص هذا اليوم بهذا بدعة أيضًا: "مَن وسَّع على عياله وأهله يوم عاشوراء، أوسع الله عليه سائر سنته"، قال فيه الألباني: طرقه كلها واهية، وبعضها أشد ضعفًا من بعض. (ضعيف الترغيب والترهيب: ١/٣١٣).

وأما ما يفعلونه اليوم من أن عاشوراء يختص بذبح الدجاج وغيرها، ومن لم يفعل ذلك عندهم فكأنه ما قام بحق ذلك اليوم، وكذلك طبخهم فيه الحبوب، وغير ذلك، ولم يكن السلف رضوان الله عليهم يتعرضون في هذه المواسم ولا يعرفون تعظيمها إلا بكثرة العبادة والصدقة والخير واغتنام فضيلتها، لا بالمأكول، بل كانوا يبادرون إلى زيادة الصدقة وفعل المعروف. (المدخل: ١/٢٨٠).

وللحديث صلة إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



إمتاع الأخيار بنبأ أصحاب الغار

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن في قصة أصحاب الغار وإنجاء الله لهم من ذلك الهلاك المحقق من أمتع قصص السنة التي يثبّت الله بها الموحدين؛ فلما انقطعت بهم الأسباب إلا سبب الإيمان فكان الإخلاص لله هو السبب الأوحد للنجاة.

الحديث:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "بَيْنَما ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ المَطَرُ، فأَوَوْا إلى غَارٍ في جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ على فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عليهم، فقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللَّهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فَقالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إنَّه كانَ لي وَالِدَانِ شيخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عليهم، فَإِذَا أَرَحْتُ عليهم، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُما قَبْلَ بَنِيَّ، وَإِنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَومِ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُما قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كما كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بالحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِما أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُما من نَوْمِهِما، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذلكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذلكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا منها فُرْجَةً، نَرَى منها السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ منها فُرْجَةً، فَرَأَوْا منها السَّمَاءَ. وَقالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إنَّه كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ ما يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حتَّى آتِيَهَا



Upload by: altawhedmag.com

بِمِئَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِئَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً. فَفَرَجَ لَهُمْ. وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أُجَيرًا بِفَرَقِ أُرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عليه فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللَّهُ مَا بَقِيَ. وَزَادُوا فِي حَدِيثِهِمْ: وَخَرَجُوا يَمْشُونَ".

التخريج:

الحديث مخرج في الصحيحين وعند أبي داوود من أصحاب السنن واللفظ السابق لمسلم رحمه الله وبيان التخريج كالتالي:

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي برقم ٢١٢٩.

وفي كتاب الإجارات، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، فعمل فيه المستأجر فزاد، أو من عمل في مال غيره، فاستفضل برقم ٢١٧٩.

وكتاب المزارعة باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم، وكان في ذلك صلاح لهم برقم ٢٢٣٦.

وفي كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار برقم ٣٣٠٦.

وفي كتاب الأدب، باب إجابة دعاء من بر والديه برقم ٥٦٥٣.

٢- وأخرجه مسلم في كتاب الرقاق باب قِصَّةِ أَصْحَابِ الْغَارِ الثَّلَاثَةِ وَالتَّوَسُّلِ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ حديث رقم ٥٠٥٥.

٣- وأبو داود في سننه في كتاب البيوع، بَابٌ فِي الرَّجُلِ يَتَّجِرُ فِي مَالِ الرَّجُلِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، برقم ٢٩٩١.

المعنى العام:

هذا الحديث يحكى لنا قصة لثلاثة نفر ممن كانوا قبلنا يقول: (بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر) في رواية انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، وكذا عند البخاري.

(فأووا إلى غار في جبل) أي التجئوا إلى غار (وهو نقب في الجبل) يحميهم من المطر، (فانحطت على فم الغار صخرة من الجبل فانطبقت عليهم. وفي رواية للطبراني: إذ وقع حجر من الجبل مما يهبط من خشية الله حتى سد فم الغار ...).

فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها؛ لعل الله يفرجها عنكم. وفي رواية للبخاري فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق...

- فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران (أي: أب وأم وذكر الوالد من باب التغليب) وامرأتي ولي صبية صغار أرعى عليهم فإذا أرحت عليهم (أي: عدت وهو من الرواح) حلبت فبدأت بوالداي فسقيتهما قبل بني، وانه نأى (أي: بعد) بي ذات يوم الشجر

Upload by: altawhedmag.com

فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي (أي يصيحون بالبكاء) فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم (حالي وحالهم) حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها (أي: من الصخرة) فرجة نرى منها السماء؛ ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء..

- وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها؛ فأبت حتى آتيها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها، فلما قعدت بين رجليها (أي استعدادًا لفعل الفاحشة الحرام) قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه (أي: ذكرته وخوفته بالله ألا يجامعها إلا بزواج مشروع)؛ فقمت عنها (أي: تركتها خوفًا منك ولم أفعل الفاحشة)، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة ففرج لهم) فرجة أخرى لكنها لا تمكنهم من الخروج)، (وفي رواية أخرى: فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين أي حتى وقعت في سنة قحط فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار)، قلت: والظاهر من الجمع بين الروايات الصحيحة أن المرأة كانت عفيفة فأبت في أول الأمر لكنها ضعفت حين ألمت بها ملمة، فاشترطت المبلغ المذكور في رواية الإمام مسلم فلم تكن موافقة في أول الأمر، والله أعلم).

- وقال الثالث: اللهم إني كنت قد استأجرت أجيرًا بفرَق أرز (والفرق هو مكيال يعادل ستة عشر رطلاً أي حوالي سبع كيلو جرامات تقريبًا)، فلما قضى عمله قال أعطني حقي فعرضت عليه فرقه فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا ورعاءها فجاءني فقال اتق الله ولا تظلمني حقي، قلت اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها، فقال اتق الله ولا تستهزئ بي فقلت إني لا أستهزئ بك خذ ذلك البقر ورعاءها فأخذه فذهب به (أي: أخذ الأجير كل الربح المنبثق من فرق الأرز بعد استثماره هذه السنين الطوال حتى انبثق منه كل هذا) قال: فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي؛ ففرج الله ما بقي. وخرجوا من الغار يمشون كما في بعض الروايات.

مما يُستفاد من الحديث:

١- سيق هذا الحديث في شرع من قَبْلَنَا، وشرع من قبلنا إذا ثبت بطريق صحيح من كتاب الله أو سُنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، ولم يرد في شرعنا ما يبطله أو ينسخه، فإنَّ ما عليه الأكثرون أنَّه بهذا الاعتبار حُجَّة يقتضي العمل به لوجوب العمل بجميع نصوص الكتاب والسُّنَّة الصحيحة (ينظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٩/ ٦-٧).

٢- الإخلاص حرّك الحجر، الإخلاص هو كل شيء، فلا تجعل نصيبًا من عبادتك لأحد، اجعلها كلها لله قال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري

Upload by: altawhedmag.com

تركته وشركه) (رواه مسلم: ٥٣٠٠).

٣- فضل بر الوالدين بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من السنة؛ كقوله صلى الله عليه وسلم: (الوالد أوسط أبواب الجنة فأضع ذلك الباب أو احفظه) (صحيح سنن ابن ماجة ١٦٣/٨)، وغيره الكثير فليراجع.

٤- فضل أداء الأمانة، ثم حسن العهد والسماحة في المعاملة؛ كما فعل صاحب العمل.

٥- الأصل أنه لا يجوز التصرف في مال الغير بغير إذنه، لكن إن تُصُرِّفَ فيه لمصلحة راجحة فإن هذا موقوف على إجازة مالكه، وما حصل من أرباح فأرباح أموالهم لهم.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥٧٨/٢٠): مع أن القول بوقف العقود مطلقًا هو الأصح في الحجة، وليس ذلك إضرارًا أصلاً، بل صلاح بلا فساد، فإن الرجل قد يرى أن يشتري لغيره أو يبيع له، أو يستأجر له أو يوجب له، ثم يشاوره، فإن رضي وإلا لم يصبه ما يضره.

٦- مشروعيَّة التَّوسُّل إلى الله بالعمل الصَّالح، خلافًا لمن يسلكون طرق التوسل البدعية غير المشروعة التي انتشرت هذا الزمان.

فضل عبادة الافتقار الى الله والتبرؤ من الحول والقوة إلا بالله؛ إذ الافتقار المطلق هو حقيقة العبودية ولبُها كما قاله ابن القيم في [مدارج السالكين، (٤٣٩/٢) فليراجع.

٧- الدعاء مع حسن الظن بالله من أقوى أسباب النجاة؛ كما قال جليسهم الصالح الذي أحسن بربه الظن: "لا ينجيكم اليوم إلا أن تدعوا الله..".

وهكذا تنجلي بإذن الله الأزمات كما تنجلي بالفجر الظلمات.

وكما قال القائل:

ولرب ضائقة يضيق بها الفتى
ذرعًا، وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فُرِجَتْ، وكنت أظنها لا تفرج

فسبحان الذي يسمع النداء ويكشف البلاء عن عباده المضطرين « أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ » (النمل:٦٢).

٨- لا يغتر العبد بما يتشدق به الناس من الشعارات الجميلة التي تخفي وراءها تفكك عرى الدين، فكاد أن يقع المحذور من القريب المخالط لابنة عمه.

٩- من أجلّ العبادات العفة عن المحرمات، وكذلك تعظيم الحرمات، وهي من دلائل تقوى القلوب كما قال تعالى: (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ)(الحج:٣٢).

١٠- من ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه، وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنك لن تدع شيئًا لله عز وجل إلا بدلك الله به ما هو خير لك منه) قال الألباني: "وسنده صحيح على شرط مسلم" الضعيفة (٦٢/١) ((ينظر: شرح النووي على مسلم ٤٩/٤)، وينظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم شرحه للحديث، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري بتصرف)).

وختامًا: فإن في نبأ أهل الغار إظهارًا لشأن التوحيد والخبيئة الصالحة؛ فلعمر الله! للصدق طوق نجاة في أمواج البلاء المتلاطمة. والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



الدُّنيَا حُلوَةٌ خَضِرَةٌ

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد جعل الله هذه الدنيا دار ممر لا مقر، والتواء لا استواء؛ إذ جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، وجعل بلاءها لعطاء الآخرة سببًا؛ فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء.

الحديث:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ الدُّنيَا حُلوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ اللهَ مُستَخلِفُكُم فيها، فيَنظُرَ كيفَ تَعمَلُونَ، فاتَّقُوا الدُّنيا، واتَّقُوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فِتنَةِ بَني إسرائيلَ كانَتْ في النِّساءِ».

أولًا: تخريج الحديث:

أخرجه مسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء (٤/ ٢٠٩٨)، رقم: (٢٧٤٢).

ثانيًا: التعريف براوي الحديث:

هو: الصحابي الجليل سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد الخدري، وهو مشهور بكنيته، استُصغر بأُحد، واستُشهد أبوه بها، وأوَّل مشاهده الخندق، وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة (١٢) غزوة.

وكان رضي الله عنه من أفاضل الصحابة، حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُننًا كثيرة، وله في كتب الحديث ألف ومائة وسبعون (١١٧٠) حديثًا.

وكان من نجباء الأنصار وعلمائهم، وقد روى له جماعة من الصحابة وجماعة من التابعين، وتُوفي أبو سعيد يوم الجمعة سنة أربع وسبعين (٧٤)، ودفن بالبقيع في المدينة المنورة. (ينظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر

Upload by: altawhedmag.com

(٢/ ٤٤)، «أسد الغابة» (٢/ ٢٨٩)، «الإصابة» لابن حجر (٢/ ٣٢).

ثالثًا: مفردات الحديث:

حلوة خضرة: حلوة الطعم، نضرة خضراء المنظر؛ كالفاكهة الخضراء الحلوة.

مستخلفكم: جعلكم خلائف فيها تتوارثونها، يخلف بعضكم بعضًا.

اتقوا الدنيا واتقوا النساء: احذروا فتنة الدنيا وفتنة النساء.

رابعًا: الشرح:

- «إن الدنيا حلوة خضرة» حُلوةٌ في مذاقها، خَضِرةٌ في مرآها، فأطيب ما يُذاق، وأفضل ما يُذاق الحلو، وأفضل الألوان الخُضرة، فهذه الدُّنيا تتشكل للنَّاس وتستهويهم وتغرُّهم بزُخرفها، فتبدو كأنها حُلوةٌ خَضِرة، وإلا مثل هذا لا ينطلي على من عرف حقيقة الدُّنيا، وأنها ملعُونة؛ لكنها تبدُو للنَّاس بهذا الشكل حُلوةٌ خَضِرة؛ لكنَّ الله-جل وعلا- مُستخلفكم فيها، جعلكم خلائف يخلُفُ بعضكم بعضًا، وطلب منكم عمارتها، لتتمكَّنوا من عبادة ربِّكم.

- «مُستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملُون؟» يختبركم ماذا أنتُم عاملُون على ظهر هذه الدُّنيا؟ هل أنتُم عاملُون ما يُرضي الله-جل وعلا- أو ما يُغضبُه؟

- «فاتقوا الدُّنيا» احذَرُوها؛ لأنها تظهر لكُم بمظاهر تستهويكم؛ لكنْ اعرفُوا حقيقتها، وأنها دار مَمر وعُبور وليست دار مقر، كرجُلٍ استظلَّ بظلِّ دوحة، مثل هذا يُطيل الأمل؟ لا.

- «واتَّقُوا النِّساء» لا شكَّ أنَّ النِّساء فتنة، وإذا خرجت المرأة استشرفها الشيطان، وتبعتها الأنظار؛ فعلى المرأة أنْ لا تكون سببًا في إضلال النَّاس وإغوائهم، عليها إذا خرجتْ أنْ يكُون خُرُوجُها لحاجة، وإلا فالأصل هُو القرار في البيت، كما قال الله-جل وعلا-: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» (سورة الأحزاب: ٣٣)؛ لكنْ إذا خرجت المرأة، تخرج تفلة، غير مُتطيِّبة، وبالمقابل على الرَّجُل أنْ يغُضَّ بصرَهُ ويصرفهُ عن النِّساء.

- «واتَّقُوا النِّساء؛ فإنَّ أوَّل فتنة بني إسرائيل كانت في النِّساء» أوَّل فتْنتهم كانت في النِّساء، ثُمَّ بعد ذلك استدرجُوا في المعاصي بعد هذه الفتْنة، وزاولُوا غيرها من الفتن إلى أنْ خرجُوا من دينهم. والله المستعان (ينظر شرح النووي على مسلم ١٧/ ٢١١. بتصرف).

خامسًا: مما يستفاد من الحديث:

١- حرصه-صلى الله عليه وسلم- على توجيه أمته، وهي عقيدة تدعو العبد إلى محبته صلى الله عليه وسلم واتباعه.

٢- بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم وحسن بيانه:

إذ يخبر الرسول-صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث أن: «الدنيا حلوة خضرة» فجمع فيها بين الصفتين حلاوة الطعم ونضارة المنظر وخضرته، والنفس بطبعها تميل إلى ما كان كذلك، وإنما ذكر الرسول-صلى الله عليه وسلم- ذلك حتى ينبّه إلى الأمر المهم في الحديث بعد ذلك.

٣- التحذير من فتنة الدنيا عامة وبيان حقيقتها: «فاتقوا الدنيا»، أي: بالحذر من الاغترار بها؛ وكما قال الله «وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ» (الحديد: ٢٠)، والركون إليها؛ فرغم كوننا قد أمرنا بعمارتها إلا أنها ليست غاية لذاتها تفنى فيها الأعمار كما هي عموم البلوى الآن.

٤- التحذير من فتنة النساء خاصة وإن كانت من الدنيا:

وقد بيَّن الشارع أن من أسباب عظم هذه الفتنة هو ما جُبلت عليه نفوس الناس من الميل للمرأة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى:

Upload by: altawhedmag.com

«وفي الحديث أن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن، ويشهد له قول الله تعالى: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ» (آل عمران:١٤)، فجعلهن من حب الشهوات، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع، قبل الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، وقبل فتنة الأولاد، قبل جميع الفتن، بدأ الله بهن في الذكر: حُبُّ الشهوات من النساء، ومع أنها ناقصة العقل والدين فإنها تحمل الرجال على تعاطي ما فيه نقص العقل والدين كشغلهم عن طلب أمور الدين، وحملهم على التهالك على طلب الدنيا، وذلك أشد الفساد.

وقال الإمام النووي-رحمه الله تعالى-: «وتدخل في النساء الزوجات وغيرهن، وأكثرهن فتنة الزوجات، ودوام فتنتهن وابتلاء أكثر الناس بهن» (شرح مسلم ١٧/٥٥).

ونقول: لا يخفى بالطبع أن لكل قاعدة شواذ غير أننا نتكلم عن عموم الطباع والأحوال، وما قصة الراهب العابد الذي انقطع عن الدنيا كلها وترك ملذاتها للعبادة؛ فلما خلا بامرأة كان منه ما كان من كبائر الزنا والقتل وغيرهما؛ فليست هذه القصة عن القارئ ببعيدة.

٥- الاعتبار بالأمم السابقة: (فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء).

سادسا: شبهة وردها:

أرادوا من المرأة إفساد أمة الإسلام؛ فرفعوا رايات باطلة؛ أخرجوا بها المرأة، فبها يستمتعون ولأمة الإسلام يهدمون، فكان من ذلك:

خروج المرأة للعمل بغير ضابط شرعي، ولم يكن خروجها إلا لعلل ما أنزل الله بها من سلطان؛ كأن يغرر بها المغررون فيقولون لها: لا بد من إثبات ذاتك، أو من تأمين نفسك تجاه الجميع حتى زوجك، أو لدواعي رقي المجتمع، أو نحو ذلك من عناوين ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.

وهذا مما ابتُليتْ به الأمة؛ إذ لما خرجت المرأة للعمل دون حاجة، ولمجرد إثبات ذاتها كما أوهموها وزعموا فإنها بذلك أخذت مكان رجل فأقعدته في البيت، وهو المكلف بالإنفاق على أسرته.

وقد بيّن النبي-صلى الله عليه وسلم- في خروج المرأة عمومًا بيانًا واضحًا، وقال-صلى الله عليه وسلم-: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها»؛ فكيف إذا خرجت تزاحم الرجال، أو تعمل في أماكن مختلطة؟!

هذا وخروجها من بيتها يعرّضها للابتزاز والأذى، ولعل هذا هو مقصد هؤلاء المغرورين بخروجها ولا تخفى الإحصائيات المنشورة في بلاد المسلمين، وفي غيرها من تعرُّض المرأة للأذى بخروجها من بيتها، وهي الجوهرة المصونة التي أمر الإسلام بصيانتها وجعل من قوامة الرجل عليها أن يقوم على خدمتها كما بيّنه بعض المفسرين من قوله تعالى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» (النساء: ٣٤).

وأما عن دعواهم من خروجها أنه تطوُّر، وأنه بُعد عن الجمود والتخلف؛ فنقول: فليبين لنا هؤلاء ويخبرونا بأجدادهم الذين أخرجوا جداتهم مختلطين بالرجال، هل صاروا بهذا في مصاف الدول المتقدمة، أم أنهم رجعوا في ذيول المتخلفين؟ فلم يجدوا أنفسهم لا مع هؤلاء السعداء من المتبعين للهدي الكريم كانوا، ولا حتى مع من قلدوهم من المخالفين لحقوا.

من مائة سنة ونساؤهم متبرجات، ولا

Upload by: altawhedmag.com

زالوا في العالم الثالث كما يسميه الأعداء، ولا زال عندهم بطالة وعندهم تخلف، وعندهم فقر يعيشه أغلب المجتمع، خرجت المرأة وتبرجت، وفعلت كل ما تريد، الجدة متبرجة فما بالك بالحفيدة!، وما زالوا على وضعهم.

وأخيرًا: هدي النبي الكريم ومن تبعه بإحسان خوف السلف من فتنة النساء؛ ومن ذلك: ومن أجل فتنة النساء اتخذ الشارع سائر الإجراءات الكفيلة بحماية الرجل من الوقوع في فتنة المرأة، ومن ذلك:

غض البصر: قال -صلى الله عليه وسلم-: «يا عليُّ لا تُتبع النَّظرةَ النَّظرةَ؛ فإنَّ لكَ الأولى وليستْ لكَ الآخرةُ» (أخرجه أبو داود ٢١٤٩، والترمذي ٢٧٧٧، وحسنه الألباني).

وعن جرير بن عبد الله قال: «سألتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن نظرِ الفُجاءةِ؛ فأمرَني أنْ أصرِفَ بصري. (صحيح مسلم ٢١٥٩).

ولما رأى الفضل ينظر إلى امرأة وضيئة صرف وجهه إلى الشق الآخر؛ فقد روى الترمذي أن جارية شابة من خثعم استفتت النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقالت: إن أبي شيخٌ كبيرٌ، قد أدركته فريضةُ الله في الحجِّ، أفيُجزئُ أن أحُجَّ عنه؟ قال: حُجِّي عن أبيكِ. قال: ولوى عُنُقَ الفضلِ، فقال العباسُ: يا رسولَ اللهِ، لمَ لويْتَ عُنُقَ ابنِ عمِّكَ؟ قال: رأيتُ شابًّا وشابَّةً، فلم آمَنِ الشيطانَ عليهما» (سنن الترمذي ٨٨٥، وقال: حسن صحيح).

وقال صلى الله عليه وسلم: «إيَّاكُمْ والدُّخولَ على النِّساءِ» فقالَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصارِ: يا رَسولَ اللَّهِ، أفَرَأيْتَ الحَمْوَ؟ قالَ: «الحَمْوُ المَوْتُ» (صحيح البخاري ٥٢٣٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامْرَأةٍ إلَّا ومَعها ذُو مَحْرَمٍ، ولا تُسافِرِ المَرْأةُ إلَّا مع ذي مَحْرَمٍ» (صحيح مسلم ١٣٤١).

هذا وفي معنى النظر كذلك وصف المرأة للرجل الأجنبي حتى كأنه ينظر إليها، ولهذا نهينا عنه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تُباشِرُ المَرْأةُ المَرْأةَ، فَتَنْعَتَها لِزَوْجِها كأنَّهُ يَنْظُرُ إلَيْها» (صحيح البخاري ٥٢٤٠)، وهذه أصل في سد الذرائع، وأن وصف المرأة لرجل أجنبي عنها يؤدي إلى الافتتان بالموصوفة.

وكان السلف رحمهم الله في غاية الحرص على هذه المسألة، قال سفيان: كان الربيع يغض بصره، فمرت به نسوة، فأطرق إطراقاً شديداً، حتى ظن النسوة أنه أعمى، فتعوذت النساء بالله من العمى.

ومنه ما قاله حسان بن أبي سنان لما خرج إلى العيد ورجع، قالت له امرأته: كم من امرأة حسنة قد نظرت اليوم! فلما أكثرت عليه، قال: «ويحك؛ ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت من عندك حتى رجعت إليك».

وفي هذا القدر كفاية، ونسأل الله القبول، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



من أجلّ سمات العابدين: الافتقار لربّ العالمين

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله مسدي النعم، دافع النقم، مجيب الدعوات، ومقيل العثرات، والصلاة والسلام على خير البريات وآله وصحبه والتابعين والتابعات ومن تبعهم بإحسان إلى أن يرث الله الأرض والسموات، وبعد: فمع حديث جليل عظيم النفع:

الحديث:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضى الله عنهما، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ».

ثانيا: التخريج

الحديث أخرجه الإمام مسلم، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء، برقم ٢٧٣٩. وأبو داود في سننه برقم ١٥٤٥.

فائدة:

قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث في صحيح مسلم: «وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عبيد الله بن عبدالكريم أَبِي زُرْعَةَ الرَّازِيِّ أَحَدِ حُفَّاظِ الْإِسْلَامِ، وَأَكْثَرِهِمْ حِفْظًا، وَلَمْ يَرْوِ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْهُ غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ، وَهُوَ مِنْ أَقْرَانِ مُسْلِمٍ. تُوُفِّيَ بَعْدَ مُسْلِمٍ بِثَلَاثِ سِنِينَ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ».

مفردات الحديث:

- (زوال نعمتك): النعمة: أي: النعم الظاهرة والباطنة؛ لأنه مفرد مضاف يفيد العموم.

- (تحوُّل عافيتك): أي: تبدُّل العافية بضدها من عافية إلى مرض وبلاء، والفرق بين الزوال والتحوّل: أن الزوال: ذهاب الشيء من غير بدل، والتحوّل: إبدال الشيء بالشيء كإبدال الصحة بالمرض،

Upload by: altawhedmag.com

والغنى بالفقر.

- (فجاءة نقمتك): الفجأة: البغتة، والنقمة: العقوبة.

- (وجميع سخطك): السخط: الكراهية للشيء، وعدم الرضا به، وهي صفة من صفات الله الفعلية العظيمة التي تليق به جلّ وعلا، وهي لا شك ليست كصفاتنا؛ كما قال الله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) (الشورى:١١). (ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ص٣٢٢).

المعنى الاجمالي للحديث:

- من لُطف الله سُبحانه وتعالى بالعَبْد إدامةُ النعمة عليه، وعدم زوال العافية عنه، وابْتعاد النِّقَم المفاجئة عنه، وحفْظه من جَميع سُخْط الرَّبّ سُبحانه وتعالى.

قال المناوي رحمه الله في «فيض القدير» (٢/١١٠): «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك»: أي ذهابها، ويعم النعم الظاهرة والباطنة، والاستعاذة من زوال النعم، تتضمن الحفظ عن الوقوع في المعاصي؛ لأنها تزيلها.

«وتحول عافيتك»: أي: تبدُّلها، فكأنه سأل دوام العافية، وهي السلامة من الآلام والأسقام.

«وفجاءة نقمتك»: بغتة غضبك وعقوبتك.

«وجميع سخطك»: أي سائر الأسباب الموجبة لذلك، وإذا انتفت أسبابها حصلت أضدادها» انتهى

(ينظر: تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، ص٤٢١).

الشرح:

هذا حديث عظيم اشتمل على هذه الجمل الأربع:

- اللهم إني: يعني يا الله، والميم عوض عن يا النداء في قوله: يا الله. اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك.

- قوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ»: الاستعاذة هي طلب العوذ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى في بدائع الفوائد (٢/٢٠٠): «اعلم أن لفظ عاذ وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه»، وهذا يشمل جميع النعم التي ينعم الله بها على العبد، فيسأل الله سبحانه وتعالى أن يزيده منها، وأعظم النعم نعمة الإسلام، ولهذا يشرع للعبد أن يسأل الله سبحانه وتعالى أن يثبته عليه، وأن يزيده منه.

- قوله: وتحوُّل عافيتك»: أن تتحول من حال إلى حال.

- قوله: «وفجاءة نقمتك»: فجأة النقمة أو فجاءة النقمة من بلاء أو مصيبة يأتي على فجأة بخلاف ما إذا سبقه شيء بأن لم يكن فجأة فإنه يكون أخف، وربما كان سببًا في توبة العبد ورجوعه.

واستعاذ صلى الله عليه وسلم من فجاءة نقمة الله تعالى؛ لأنه إذا انتقم من العبد فقد أحلّ به من البلاء ما لا يقدر على دفعه، ولا يُستدفع بسائر المخلوقين، وإن اجتمعوا جميعًا» (ينظر: تحفة الذاكرين للشوكاني رحمه الله ص٤٢١).

- «قوله: وجميع سخطك»، وهذا أيضًا من أعظم الدعوات أن يستعيذ

Upload by: altawhedmag.com

العبد من جميع سخطه سبحانه وتعالى، وأعظم سخطه أن يأتي العبد ما حرَّم الله، وأن يشرب قلبه من فتن الدنيا التي ما أكثر ما يختبر بها الإنسان لا سيما في هذه الأزمنة الغابرة المتأخرة.

كما قال عليه الصلاة والسلام من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما يقول: «كنَّا عند عمر، فقال: أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن؟ فقال قومٌ: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعْنُونَ فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل، قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة؛ ولكن أيكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التي تموجُ موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القومُ، فقلت: أنا، قال: أنت، لله أبوك! قال حذيفة: سمعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تُعْرَضُ الفتن على القلوب؛ كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أشربها نُكت فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مُرْبادًّا؛ كالكوز مُجخِّيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أُشْرِبَ من هواه» (أخرجه مسلم).

ولذلك يلجأ العبد إلى ربه أن يقيه هذه الآثام، وأن يحبب إليه الإيمان، وتلك لعمر الله من أعظم النعم كما قال تعالى: (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ) (الحجرات:٧). [وينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٠٠)، شرح الشيخ عبدالمحسن الزامل على بلوغ المرام).

مما يستفاد من الحديث

- من أجل القُربات أن يفتقر العبد إلى رب الأرض والسموات.
- من أعظم النعم التي يخشى المسلم من فواتها نعمة الإسلام.
- الأفضل في الدعاء أن ندعوا بالمأثور؛ فقد أوتي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم فضلاً عن هداية الله لنبيه لخير الهدى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وَمِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَيْبًا: مَنْ يَتَّخِذُ حِزْبًا لَيْسَ بِمَأْثُورٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنْ كَانَ حِزْبًا لِبَعْضِ الْمَشَايِخِ، وَيَدَعُ الْأَحْزَابَ النَّبَوِيَّةَ الَّتِي كَانَ يَقُولُهَا سَيِّدُ بَنِي آدَمَ، وَإِمَامُ الْخَلْقِ، وَحُجَّةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ» انتهى من «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥٢٥).

- من نعم الله على الإنسان أن يستقيم أمره وتدوم عافيته.
- من أعظم أسباب سلب النعم أن يستهين العبد بأمر مولاه أو يفرط في هدي نبيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم.

قال ابن القيم: «وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؛ فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه ولا يغيّرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ) (الرعد:١١)، ومن تأمل ما قصَّ الله تعالى في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم؛ وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل

Upload by: altawhedmag.com

عصره وما أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب.

فما حُفظتْ نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له» انتهى.

- نعمة العافية من أعظم النعم بعد نعمة الإيمان والإسلام، روى الترمذي في سننه من حديث رفاعة بن رافع، قال: قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه على المنبر ثم بكى، فقال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الأول على المنبر ثم بكى فقال: «سَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ» (متفق عليه).

قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد (٤/ ١٩٧) تعليقًا على الحديث المذكور: «فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه، فجمع أمر الآخرة في كلمة، وأمر الدنيا كله في كلمة».

وروى البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح، عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل سأله عن أفضل الدعاء: «سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة، سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة؛ فإذا أعطيت العافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت».

- ويتضح من جملة الحديث ما أوتي صلى الله عليه وسلم من جوامع الكلم.

فائدة:

من سمات المفتقر إلى الله أن يقر بنعم مولاه، وذلك مفهوم من دعائه صلى الله عليه وسلم.

وما أجمل ما نظمه شيخ الإسلام في بيان افتقار العباد لرب الأرض والسموات، ونختم به قال:

أنا الفقير إلى رب البريات
أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي
والخير إن يأتنا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة
ولا عن النفس لي دفع المضرات
وليس لي دونه مولى يدبرني
ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقنا
إلى الشفيع كما قد جاء في الآيات
ولست أملك شيئًا دونه أبدًا
ولا شريك أنا في بعض ذرات
ولا ظهير له كي يستعين به
كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصفُ ذات لازم أبدًا
كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي
وهذه الحال حالُ الخلق أجمعهم
وكلهم عنده عبدٌ له آتي
فمن بغى مطلبًا من غير خالقه
فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله ملء الكون أجمعه
ما كان منه وما من بعد قد ياتي
والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



إذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتظِرِ الساعة

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

روى شيخ المحدثين الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: بينما النبيُّ صلى الله عليه وسلم في مجلسٍ يُحدِّثُ القومَ، جاءهُ أعرابيٌّ فقالَ: متى السَّاعةُ؟

فمضى رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم يُحدِّثُ، فقالَ بعضُ القومِ: سمعَ ما قالَ فكرهَ ما قالَ.

وقال بعضُهم: بلْ لمْ يسمعْ، حتى إذا قضى حديثهُ.

قالَ: أينَ -أُراهُ- السَّائلُ عنِ السَّاعةِ؟

قالَ: ها أنا يا رسولَ اللَّه.

قالَ: فإذا ضُيِّعتِ الأمانةُ فانْتظرِ السَّاعةَ.

قالَ: كيفَ إضاعتُها؟

قالَ: إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِه فانْتظرِ السَّاعةَ.

التخريج

رواه البخاري في موضعين من صحيحه:

١- في كتاب العلم باب: من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل، رقم (٥٩)، وهو السياق السالف، وهو الأتم إذ ذُكر فيه قصة الأعرابي.

٢- وفي كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، رقم: (٦١٣١).

المعنى العام للحديث:

هذا الحديث الشريف الحديث يتضمَّن قصة أعرابيٌّ دخل مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجده مشتغلًا بحديث ما، فسأله سؤالًا خارج سياق ذلك الموضوع، فواصل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حديثه، ولم يلتفت إلى الأعرابيّ، هنا تساءل بعضُ الصحابة عن سبب إعراض النبيِّ صلى الله عليه وسلم عن سؤاله،

Upload by: altawhedmag.com

فقال بعضهم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال البعض الآخر: بل لم يسمع، والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم سمع سؤال السائل؛ لكنه أخّر الإجابة إلى أنْ يُنْهي الموضوع الذي كان بصدده، والدليل على ذلك أنه أجابه لمّا فرَغ من حديثه، حيث توجه صلى الله عليه وسلم للسائل مجيبًا: إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة، فسأله السائل عن كيفية إضاعتها؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إذا وُسِّد (أي: عُهِد) بالأمر إلى غير أهله: فكَلَّف به مَن ليس أهلاً له فلا يؤدي أمانة التكليف.

شرح الحديث:

قوله صلى الله عليه وسلم:

(إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة): بضم الضاد المعجمة، وكسر التحتية المشددة، وهو جواب عن سؤال الأعرابي حيث قال: متى الساعة؟ كما في الحديث المذكور.

قال الأعرابي: كيف إضاعتها يا رسول الله؟

قال عليه الصلاة والسلام: (إذا وُسِّد: أي فُوِّض (الأمر) المتعلق بالدين كالخلافة، والإمارة، والقضاء، وغيرها (إلى غير أهله): قال الحافظ في الفتح: قال الكرماني أجاب عن كيفية الإضاعة بما يدل على الزمان؛ لأنه يتضمن الجواب لأنه يلزم منه بيان أن كيفيتها هي الإسناد المذكور.. والمراد من «الأمر» جنس الأمور التي تتعلق بالدين؛ كالخلافة، والإمارة، والقضاء، والإفتاء، وغير ذلك، وقوله «إلى غير أهله» قال الكرماني: أتى بكلمة «إلى» بدل اللام ليدل على تضمين معنى الإسناد.

وقوله (فانتظر الساعة): الفاء للتفريع أو جواب شرط محذوف، أي إذا كان الأمر كذلك فانتظر الساعة. (ينظر فتح الباري ٣٤١/١١، وإرشاد الساري شرح صحيح البخاري للقسطلاني ص٤٩٤/١٥).

مما يستفاد من الحديث:

١- عموم لفظ الأمانة: والأمانة: ضدُّ الخيانة:

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): «أي جنس الأمور التي تتعلَّق بالدِّين.. قال الكفوي: «الأمانة: كلُّ ما افترض الله على العباد فهو أمانةٌ، كالصلاة والزكاة، والصيام وأداء الدَّيْن، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتْمُ الأسرار» [ينظر: الكليات للكفوي (١٧٦) بتصرف .

«وقال بعضُ أهل العلم: الأمانة في الحديث هي المذكورة في قول الله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)(الأحزاب:٧٢-٧٣) ، قال القرطبي رحمه الله في تفسيره لسورة الأحزاب: «والأمانة تعمُّ جميعَ وظائف الدِّين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور»، وقال الشيخ عبدالرحمن بن حبنكة الميداني: «الأمانة أحدُ الفروع الخُلُقية لحبِّ الحق وإيثاره، وهي ضدُّ الخيانة».

> قال القرطبي: الأمانة تعمُّ جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور. وقيل: الأمانة أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره، وهي ضد الخيانة.

هذا، ولا تقتصر الأمانة على العفَّة عن الأموال، بل العفَّة عن كل ما ليس للإنسان به حقٌّ هي أيضًا داخلةٌ في حدود الأمانة، أو أثر من آثارها، ومن الأمانة إعطاءُ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فالعدل من الأمانة، والجور والظُّلم من الخيانة، ومن الأمانة الاهتمام بأنْ يحفظ المستأمنون ما تحتَ أيديهم من حقوقٍ لغيرهم، حتى يؤدُّوها إلى أصحابها، وهي على حالتها

Upload by: altawhedmag.com

حينما استؤمنوا عليها، ما لم يكن مرورُ الزمن يُغيِّر منها بصفة طبيعيّة.

ومن مجالات الأمانة المتعدّدة أيضًا: الأمانةُ في العقيدة، والأمانة في العبادة، والأمانة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمانة في توفية الكيل والميزان، والأمانة في البيع والشراء، والأمانة في تأدية الدّين. [ولمزيد الفائدة في بيانها ينظر كتاب الأخلاق الإسلامية وأسسها (١/٦٤٦ -٦٤٧) بتصرف .

٢- وجوب تعلم الأدب قبل العلم: يجب أن يتقدم أدب طلب العلم على العلم نفسه إذ علم بلا أدب جور على العلم

٣- أهمية الرفق والصفح في الدعوة إلى الله تعالى: وهو ما ظهر منه صلى الله عليه وسلم حينما علّمه ولم ينهره بعدما أعرض عنه قليلاً ليؤدبه.

وسنة النبي صلى الله عليه وسلم تفوح بمثل هذا كثير: كحديث الأعرابي الذي بال في المسجد، وترفق النبي به مُعلّمًا حتى ورد في دعاء الأعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف، قال: «اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا».

وكذلك حديث معاوية بن الحكم السلمي رضى الله عنه عندما شمّت رجلاً في الصلاة: فقال معاوية مُعلّقًا على تعليم النبي صلى الله عليه وسلم له: «ما رأيت معلمًا أفضل منه».

والحديث المشهور قال صلى الله عليه وسلم: «ما كان الرفق في شيءٍ إلا زانه، وما نُزِعَ من شيء إلا شانه»؛ قال نحو هذا الكلام لعائشة رضي الله عنها لما كانت تسرع بالجمل، قال: (يا عائشة ! عليك بالرفق) حتى مع الدواب.

٤- كراهة قطع حديث المعلّم حتى ينتهي: المعلم أثناء شرحه لا شك أنه يرتب حديثه بمنهجية وأولويات في الشرح والطرح، وقطع كلام المعلّم قد يفوت بعض هذه المقاصد على المعلم، فضلاً عن تشويشه على المتعلمين.

٥- كراهة سؤال المعلم عن شيء خارج عن الدرس:

وهو الأولى حتى لا ينفرط الأمر، ويحدث التشتيت؛ وإلا فالحكمة ضالة المؤمن، ولا بأس من السؤال؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم أجابه.

> من الحكمة في الجواب على السائل أن يكون مما يفيده ولا يفرع عليه الأمور، مما لا فائدة منه.

٦- الإعراض عن السائل تعليمًا له وتأديبًا إذ احتيج إلى ذلك، وهو نوع من أنواع التأديب المهذّب اللائق كما فعله صاحب الخُلق العظيم.

٧- فقه الأولويات في تقديم الأولى في الحديث، وهو كما فعله رسول الله إذ أتم حديثه أولاً.

٨- من الحكمة في الجواب على السائل أن يكون مما يفيده ولا يفرع عليه الأمور، مما لا فائدة منه؛ فالسائل لما سأل عن الساعة أجابه النبي صلى الله عليه وسلم مما يترتب عليه عمل، والعمل الذي دعا هنا النبي إليه التمسك بأداء الأمانات؛ إذ حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الصفة المضادة، وهي التفريط في الأمانة.

٩- للمتعلّم الحقُّ في الاستفسار عن شيء لم يفهمه من جواب المعلم.

١٠- وجوب محافظة العالم على هيبته ليصل علمه للناس؛ فقد وجدنا النبي صلى الله عليه وسلم لما أعرض عنه ثم علمه أعرض في وقار، ثم علمه في رحمة؛

Upload by: altawhedmag.com

وهو خلق الإسلام الوسط.

١١- إن الحديث من دلائل الإيمان؛ وبيانه أن النبي صلى الله عليه وسلم تنبأ بزمن الرويبضة، وهم من يتوسدون الأمور بغير تأهيل كما قال صلى الله عليه وسلم: (إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)، وما ذلك الآن ببعيد من الناس، وهو كما قال في الحديث الآخر المرادف والمفسر لبعض معناه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيأتي على الناس سنواتٌ خدّاعاتٌ؛ يصدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكذَّبُ فيها الصادقُ، ويُؤتمنُ فيها الخائنُ، ويُخوَّنُ فيها الأمينُ، وينطقُ فيها الرُّوَيْبضةُ.

قيل: وما الرُّوَيْبضةُ؟

قال: الرَّجلُ التافهُ في أمر العامّة) (صحيح الجامع ٣٦٥٠).

فكلها التي نراها عيانًا من دلائل صدقه صلى الله عليه وسلم مع ما يحياه العبد من حسرة يتمنى القلب فيها أن لو كان نسيًا منسيًا.

فهذا رويبضة يكتب عنوانًا: فرعون كان مؤمنًا.

وآخر ينشر قصة عنوانها: إبليس كان شهيدًا؛ أي: ضحية.

وثالث ينشر رزيلة بعد نشر أخيه كلام الكفر، وربما لا يدري ما ينشره، وليس عجيبًا أن يجد هؤلاء من يسمع لهم ويجد الصادقون من يكذبهم، وقد أخبر به الصادق المصدوق وما تصدر كل هؤلاء إلا من قبيل قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله»، وإن قضاء بضعة ساعات وربما دقائق أمام شاشات الفضائيات تكون كافية لإدراك معنى الرويبضة حين تراه أمامك يتحدث في أمر العامة بكل ثقة وجرأة، وهو في معيار الأخلاق والدين حقيقة لا يساوي شيئًا ولا يزن في ميزان التقوى نقيرًا.

ولو تحدثنا عن الزمن الذي يظهر فيه الرويبضة، ويكثر فهو بلا شك زماننا هذا؛ لأن الرويبضات قد كثروا فيه بشكل عجيب، واحتلوا أماكنهم في الفضائيات والمنتديات؛ ليقتحموا بيوت الناس بلا استئذان، وليضطر المرء إلى سماع ترهاتهم وأكاذيبهم في أحيان كثيرة رغم أنفه.

هذه هي السنوات الخداعات التي إذا قال الصادق كلمته لا يصدقه أحد، بل ويصدق الكاذب بدلًا منه، وتزيف الأدلة للكاذب ليبدو كأنه صادق، ونحن نشهد في الإعلام من الكذب المغلف بغلاف الصدق، نشهد منه الكثير الكثير ويقع فيه فخاخ الكذابين الكثير من الناس التي لا تحكم عقلها، ولا تراجع ما تسمعه أو تراه، وتصدق كل شيء بسذاجة نهى عنها الإسلام في الأصل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيأتي على الناس سنواتٌ خدّاعاتٌ؛ يصدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكذَّبُ فيها الصادقُ، ويُؤتمنُ فيها الخائنُ، ويُخوَّنُ فيها الأمينُ، وينطقُ فيها الرُّوَيْبضةُ. قيل: وما الرُّوَيْبضةُ؟ قال: الرَّجلُ التافهُ في أمر العامّة) (صحيح الجامع ٣٦٥٠).

وفي هذه السنوات أيضًا تتضارب الأحوال بين الخائن والأمين، فالذي يحمي حمى الدار والأرض والعرض توجه له الشبهات بطريقة أو بأخرى؛ بينما الذي ينتهك العرض والأرض والدم يكون هو الشريف وهو الأمين بطريقة لا يعلمها المستغفلون؟!

ينطق الرويبضة، إنسان تافه لا قيمة له سوء بعض كلمات يحفظها، يستند إلى ركن باطل إذا تحدث، ويصدقه الناس، فهذا الزمن هو زمن الرويبضة التافهين الذي يوقعون الناس في شباك الشيطان التي ينسجونها عوضًا عنه. نسأل الله السلامة والعافية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



تذكير الأنام بالحكمة في تعليم الإسلام

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

روى الإمام مسلم رحمه الله بسنده إلى معاوية بن الحكم السُلمي رضى الله عنه: قال: بينا أنا أُصلي مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذ عَطس رجلٌ من القوم، فقلتُ: يرحمك الله، فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثُكل أُمِياه! ما شأنكم تنظرون إليّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلمّا رأيتهم يُصمّتونني، لكنّي سكت، فلمّا صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ معلّمًا قبله ولا بعده أحسنَ تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إنّ هذه الصّلاة لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنّما هو التسبيحُ والتكبير، وقراءة القرآن»، أو كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قلت: يا رسول الله، إنّي حديثُ عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنّ منّا رجالًا يأتون الكُهّان؟ قال: «فلا تأتهم». قال: ومنّا رجال يتطيّرون؟ قال: «ذاك شيءٌ يجدونه في صدورهم، فلا يصدنّكم». قال قلت: ومنّا رجال يخطّون؟ قال: «كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ، فمن وافق خطّه فذاك». قال: وكانت لي جاريةٌ ترعى غنمًا لي قبل أُحُد والجوانية، فاطلعتُ ذات يوم، فإذا الذّئبُ قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجلٌ من بني آدم، آسفُ كما يأسفون، لكنّي صككتُها صكّة، فأتيتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعظّم ذلك عليّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها»، فأتيتُه بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السّماء، قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها، فإنّها مؤمنة».

التخريج:

١- رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصّلاة، ونسخ ما كان من إباحة، ح رقم: ٣٣.

٢- مسلم في كتاب السلام، بابُ تحريم الكهانة وإتيان الكُهّان، حديث رقم ٤٢٥١.

٣- أبو داود في سننه، بابُ في الخطّ وزجر

Upload by: altawhedmag.com

الطير، حديث رقم ٣٤٦٥. وفي: باب في الرقبة المؤمنة، حديث رقم ٢٩٠٧. وفي: تفريع أبواب الركوع والسجود، حديث رقم ٨٢٤.

٤- النسائي في الصغرى، الكلام في الصلاة، حديث رقم ١٢٠٩.

شرح مفردات الحديث:

قوله: (واثكل أمياه) الثُكل بضم الثاء وإسكان الكاف وبفتحهما جميعًا لغتان، كالبُخل والبَخل، حكاهما الجوهري وغيره، وهو فقدان المرأة ولدها، وامرأة ثكلى وثاكل، وثكلته أمه بكسر الكاف، وأثكله الله تعالى أمه.

وقوله: (أمياه) هو بكسر الميم (أي أمي).

قوله: (فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم) يعني: فعلوا هذا ليسكتوه، وهذا محمول على أنه كان قبل أن يشرع التسبيح لمن نابه شيء في صلاته.

قوله: (فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه) فيه: بيان ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عظيم الخُلق الذي شهد الله تعالى له به.

قوله: (فوالله ما كهرني) أي: ما انتهرني.

قوله صلى الله عليه وسلم: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) فيه: تحريم الكلام في الصلاة، سواء كان لحاجة أو غيرها، وسواء كان لمصلحة الصلاة أو غيرها، فإن احتاج إلى تنبيه أو إذن لداخل ونحوه سبح إن كان رجلًا، وصفقت إن كانت امرأة، هذا مذهبنا ومذهب مالك وأبي حنيفة - رضي الله عنهم - والجمهور من السلف والخلف.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) فمعناه: هذا ونحوه، فإن التشهد والدعاء والتسليم من الصلاة وغير ذلك من الأذكار مشروع فيها، فمعناه: لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ومخاطباتهم، وإنما هي التسبيح وما في معناه من الذكر والدعاء وأشباههما مما ورد به الشرع.

قوله: (إني حديث عهد بجاهلية) قال العلماء: الجاهلية ما قبل ورود الشرع، سموا جاهلية لكثرة جهالاتهم وفحشهم.

> والطيرة محمولة على العمل بها لا على ما يوجد في النفس من غير عمل على مقتضاه عندهم.

وقوله: (إن منا رجالًا يأتون الكهان قال: فلا تأتهم) قال العلماء: إنما نهى عن إتيان الكاهن؛ لأنهم يتكلمون في مغيبات قد يصادف بعضها الإصابة، فيخاف الفتنة على الإنسان بسبب ذلك؛ لأنهم يلبسون على الناس كثيرًا من أمر الشرائع، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم فيما يقولون، وتحريم ما يعطون من الحلوان، وهو حرام بإجماع المسلمين، وقد نقل الإجماع في تحريمه جماعة منهم أبو محمد البغوي رحمهم الله تعالى.

قوله: (ومنا رجال يتطيرون قال: ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم)، وفي رواية: (فلا يصدنكم) قال العلماء: معناه أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة ولا عتب عليكم في ذلك، فإنه غير مكتسب لكم فلا تكليف به، ولكن لا تمتنعوا بسببه من التصرف في أموركم، فهذا هو الذي تقدرون عليه، وهو مكتسب لكم فيقع به التكليف، فنهاهم - صلى الله عليه وسلم - عن العمل بالطيرة والامتناع من تصرفاتهم بسببها، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة في النهي عن التطير.

والطيرة هي محمولة على العمل بها لا على ما يوجد في النفس من غير عمل على مقتضاه عندهم.

قوله: (ومنا رجال يخطون قال: كان نبي من الأنبياء عليهم السلام يخط فمن وافق خطه فذاك) اختلف العلماء في معناه، فالصحيح أن معناه: من وافقه خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح، والمقصود: أنه حرام، لأنه لا يباح إلا بيقين

Upload by: altawhedmag.com

المُوافقة، وليس لنا يقينٌ بها.

قولُه: (وكانت لي جارية ترعى غنمًا لي قبل أحُد والجوانية) هي بفتح الجيم وتشديد الواو، وبعد الألف نونٌ مكسورةٌ ثم ياءٌ مشددةٌ، هكذا ضبطناه، والجوانية - بقرب أحد - موضعٌ في شماليِّ المدينة.

قولُه: (آسف) أي أغضب وهو بفتح السين.

قولُه: (صككتُها) أي لطمتُها. (ينظر: شرح الإمام النووي للحديث في شرحه لصحيح مسلم بتصرف).

المعنى العام للحديث:

معاوية بن الحكم السلمي صحابي جليل حديث عهد بإسلام، لا يعلم أن الكلام في الصلاة يُبطلها، يصلي خلف النبي صلى الله عليه وسلم، فيسمع مصليًا يعطس، فيُشمّته وهو في الصلاة، ويقول له: يرحمك الله، ورأى الصحابة ينظرون إليه نظرة استنكار ودهشة، وظن معاوية في نفسه أنه لم يأت شيئًا يُنكر، فنظر فيهم نظرة استغراب كذلك وقال: فقدتني أمي -وهو دعاء اعتادته العرب عند الدهشة-.

ثم قال معاوية وهو في الصلاة: ماذا فعلت لكي تنظروا إليَّ هذه النظرات؟ فأخذوا يضربون أفخاذهم ببطن أكفهم ثم يقلبونها، فلما رأى معاوية أن الاستنكار يزداد سكت وأتم صلاته.

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة استدعاه، وكلمه وكان معلمًا رحيمًا له: فقال له: إن الصلاة لا يحل فيها كلام الناس، وانما هي تسبيح وتكبير وقراءة القرآن.

فكان من أثر ذلك: أن اطمأن معاوية رضى الله عنه للحديث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعذبه: فاستخرج ما في نفسه، وبدأ يسأل ليتعلم، فقال: يا رسول الله، إني حديث عهد بالإسلام (أي: فالتمس العذر لي إذا أثقلت في سؤالي).

ثم قال معاوية: منا رجال يتكهنون ورجال يأتون الكهان الذين يزعمون علم الغيب فيسمعون ويعتقدون؟ فعلمه صلى الله عليه وسلم لا تأت الكهان، ولا تسمع منهم، ولا تعتقد صحة ما يزعمون.

ثم قال معاوية: ومنا رجال يتطيرون أي: يتفاءلون بأمر ويتشاءمون من آخر، فما حكم التطير؟ فعلمه صلى الله عليه وسلم: ما يقع في الصدر من الانقباض أو الانبساط أمرٌ غير مكتسب لا حساب عليه، ولكن على المسلم ألا يعمل على مقتضى التشاؤم، فلا يحل له أن يمتنع من القيام بمصلحة لما حصل في نفسه من التشاؤم.

> التسبيح والتكبير وقراءة القرآن والتشهد والدعاء والتسليم من الصلاة وغير ذلك من الأذكار مشروع فيها، ولا يصلح فيها شيء من كلام الناس ومخاطباتهم.

ثم قال: ومنا رجال يخطون على الرمل وغيره ويدّعون أنهم يعرفون الغيب عن طريق هذه الخطوط: فعلمه صلى الله عليه وسلم: أنه كان نبي من الأنبياء قد أعطاه الله علم بعض الغيب عن طريق هذه الخطوط: لكن لا نبي بعدي، ومدعي علم الغيب بهذه الخطوط كاذب ومنجم، وقد يوافق قوله واقعًا صدفة لا علمًا، فلا تصدقوهم في مزاعمهم.

ثم قال معاوية: وكانت لي أمة جارية ترعى غنمًا لي بين منطقة أحُد والجوانية، فأهملت الحراسة فأكل الذئب شاة من غنمي وأنا إنسان يغضب كما يغضب البشر، فغضبت ولطمتها لطمة قوية.

فكيف أكفر عن ذنبي؟ قال: ائتني بها.

فأتاه بها، فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرف إيمانها قال لها: أين الله؟ قالت في السماء.

قال لها: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. فشهد لها النبي صلى الله عليه وسلم بالايمان، وقال أعتقها فإنها مؤمنة (ينظر: شرح الحديث من كتاب فتح المنعم شرح صحيح الإمام مسلم).

وفي هذا القدر الكفاية، وللبحث صلة الشهر القادم: إن شاء الله.

Upload by: altawhedmag.com



تذكير الأنام بالحكمة في تعليم الإسلام

الحلقة (٢)

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فلا يزال حديثنا موصولاً حول حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، والذي ابتدأناه في الحلقة السابقة، والذي اشتمل على جمل من الفوائد الفقهية والتربوية والعقدية واستكمالاً لما سبق نستأنف، فنقول وبالله التوفيق:

الحديث:

عن معاوية بن الحكم السُّلمي رضي الله عنه: قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلتُ: يرحمك الله، فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثُكل أُمّياه! ما شأنكم تنظرون إليّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلمّا رأيتهم يُصمّتونني، لكنّي سكت، فلمّا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ معلّمًا قبله ولا بعده أحسنَ تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: "إنَّ هذه الصَّلاةَ لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنّما هو التسبيحُ والتكبير، وقراءة القرآن"، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: يا رسول الله، إنّي حديثُ عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنَّ منّا رجالًا يأتون الكُهّان؟ قال: "فلا تأتهم"، قال: ومنّا رجال يتطيّرون؟ قال: "ذاك شيءٌ يجدونه في صدورهم، فلا يَصدنّكم"، قال قلت: ومنّا رجال يخطُّون؟ قال: "كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ، فمَن وافق خطّه فذاك". قال: وكانت لي جاريةٌ ترعى غنمًا لي قبل أُحُد والجوانية، فاطلعتُ ذات يوم، فإذا الذّئبُ قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجلٌ من بني آدم، آسفُ كما يأسفون، لكنّي صككتُها صكّة، فأتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظّم ذلك عليّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: "ائتني بها"، فأتيته بها، فقال لها: "أين الله؟" قالت: في

Upload by: altawhedmag.com

السماء، قال: "مَن أنا؟" قالت: أنت رسول الله، قال: "أعتقها، فإنها مؤمنة".

والحديث أخرجه الإمام مسلم (رقم: ٣٣، ورقم٤٢٥١) وغيره كما بيناه في الحلقة السابقة من مجلتنا الغراء؛ فليراجع تكرمًا.

هذا وقد سلف في العدد الماضي ذكر المعنى العام للحديث؛ فضلاً عن مفرداته. ثم نختم في حلقتنا هذه بما يتيسر ذكره من فوائد.

مما يستفاد من الحديث:

١- فيه بيان ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خصوصًا ومنهج الإسلام عمومًا من عظيم خُلق الحكمة في تعليم الجاهل، وتذكير الناسي وتفهيم المخطئ، والرفق في عموم الدعوة إلى الله تعالى، ورفق النبي صلى الله عليه وسلم.

ونماذج سماحة الشريعة وحكمة الإسلام في تعليم الناس كثيرة، ومن ذلك ما كان من قوله صلى الله عليه وسلم للمسيء في صلاته: "ارجع فصلِّ" (متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه) تعليماً له، لكنه لم يقل له: كل صلاتك هذه السنوات التي مضت بهذه الطريقة لا تصح، أعدها وكما هو معلوم أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز.

وكذلك ما كان من الأعرابي الذي بال في المسجد فقال له عليه الصلاة والسلام مُعلمًا ومربيًا رحيمًا رفيقًا: (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، وانما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن) متفق عليه، حتى وجدنا أثر ذلك على الأعرابي معبرًا عنه ".. فقام النبي صلى الله عليه وسلم إليّ بأبي هو وأمي، فلم يسبّ، ولم يؤنّب ولم يضرب" (رواه أحمد)، وفي بعض روايات الحديث قال الأعرابي: "اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا" وذلك من شدة حبّه لرسول الله (ينظر: البخاري مع الفتح، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ١٠/٤٣٨، (رقم ٦٠١٠) بتصرف).

ونماذج رفقه وحكمته في تعليمه صلى الله عليه وسلم كثيرة، وهو أصل عظيم من أصول

> كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيم الحكمة في تعليم الجاهل، وتذكير الناسي وتفهيم المخطئ، والرفق في عموم الدعوة إلى الله تعالى.

الدعوة إلى الله عز وجل.

٢- وفيه النهي عن الكلام في الصلاة:

هذا وظاهر الأمر بتحريم الكلام في الصلاة كان بالمدينة بعد الهجرة؛ لأن زيد بن أرقم مدنيّ، وهو يخبر أنهم كانوا يتكلمون خلف الرسول صلى الله عليه وسلم في الصلاة إلى أن نُهوا، ويؤيد هذا الظاهر اتفاق المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨) نزلت بالمدينة.

ولكنّ هذا الظاهر مُشكل مع حديث ابن مسعود؛ وفيه أنه لما رجع من الحبشة كان تحريم الكلام في الصلاة، وكان رجوعه من الحبشة قبل الهجرة قطعًا.

وأفضل جَمْع بين الروايتين، أن كلتيهما صحيحة؛ حيث إنّ حديث زيد رواه الجماعة إلا ابن ماجه، وحديث ابن مسعود متفق عليه، وليس من السهل أن يرد أحد الحديثين، وإذا تأملنا حديث ابن مسعود وجدناه لا يحمل نهيًا للصحابة عن الكلام، وكل ما فيه أنه لم يرد، وأنه قال: إن الصلاة تشغله صلى الله عليه وسلم عن الكلام. وهذا غير صريح في نهي الأمة عن الكلام في الصلاة. بخلاف حديث زيد؛ فإنه صريح في النهي عن الكلام في الصلاة بالمدينة، فلا تعارض بين الحديثين، ونسخ ما كان من جواز الكلام في الصلاة كان بالمدينة. (ينظر: شرح الإمام النووي للحديث في رياض الصالحين، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار للشوكاني، أبواب ما يبطل الصلاة وما يكره

Upload by: altawhedmag.com

ويباح فيها، باب النهي عن الكلام في الصلاة).

٣- النهي عن تشميت العاطس في الصلاة.

قال النووي: وتفسد به الصلاة إذا أتى به عالمًا عامدًا.

قلت وهو الأرجح خلافًا لمن تمسك بظاهر الألفاظ حين يقول: يرحمك أو يرحمه، أو نحو ذلك.

٤- وفي ضربهم على أفخاذهم دليلٌ على جواز الفعل في الصلاة، ولا تبطل به الصلاة، وأنه لا كراهة فيه إذا كان لحاجة. (قاله النووي رحمه الله في شرحه للحديث). قلت: ولا شك أن ذلك قبل أن يشرع التسبيح لمن نابه شيء في صلاته؛ إلا إذا كان التسبيح غير مُغنٍ فلا يُكره الفعل القليل، والله أعلم.

٥- وفيه النهي عن إتيان الكهان:

قال النووي: قال العلماء: إنما نهى عن إتيان الكهان لأنهم يتكلمون في مغيبات قد يصادف بعضها الإصابة، فيخاف الفتنة على الإنسان بسبب ذلك؛ لأنهم يُلبِّسون على الناس كثيرًا من أمر الشرائع، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم فيما يقولون، وتحريم ما يعطون من الحلوان، وهو حرام بإجماع المسلمين، قال الخطابي أيضًا في حديث "من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم"؛ قال: كان في العرب كهنة يدَّعون أنهم يعرفون كثيرًا من الأمور، فمنهم من كان يزعم أن له رئيًا من الجن يُلقي إليه الأخبار، ومنهم من يدَّعي استدراك ذلك بفهم أعطيه، ومنهم من يسمى عرافًا، وهو الذي يزعم معرفة الأمور بمقدمات أسباب استظل بها كمعرفة من سرق الشيء الفلاني، ومعرفة من يُتَّهم به المرأة، ونحو ذلك، ومنهم من يُسمَّى المنجم كاهنًا.

قال: والحديث يشتمل على النهي عن إتيان هؤلاء كلهم والرجوع إلى قولهم وتصديقهم فيما يدعونه.

قال النووي: هذا كلام الخطابي، وهو نفيس اهـ. (ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ج٥/ ٢٠).

> انعقد الإجماع على تحريم إتيان الكهان وتصديقهم وتحريم أخذهم للحلوان.

٦- وفيه المنع من الخط؛ وإن كان ليس بقوة تحريم التطير وإتيان الكهان فلا تلتبس حرمته؛ إذ على الأقل هو ممنوع من جهة النهي عن ادعاء الغيب. وفيما يلي حاصل كلام العلماء فيه: يقول النووي: "اختلف العلماء في معناه، والصحيح أن معناه من وافق خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة، فلا يباح، والمقصود أنه حرام، لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها، وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم فمن وافق خطه فذاك.

ولم يقل: هو حرام بغير تعليق على الموافقة لئلا يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط، فحافظ النبي صلى الله عليه وسلم على حرمة ذلك النبي مع بيان الحكم في حقنا، فالمعنى أن ذلك النبي لا منع في حقه، وكذا لو علمتم موافقته، ولكن لا علم لكم بها. (ينظر سنن النسائي ٣/ ١٢، ١٣).

٧- ويؤخذ منه مشروعية القول والاعتقاد بأن الله في السماء مكانًا وأنه بعلمه في كل مكان، وقد قبله منها صلى الله عليه وسلم: وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (الملك: ١٦-١٧)، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ (الزخرف: ٨٤).

٨- وفيه دليلٌ على أنَّ الكافر لا يصيرُ مؤمنًا إلا بالإقرار بالله تعالى وبرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلا تصح دعوات

Upload by: altawhedmag.com

من قالوا: يصح إيمان قوم وهم لا يؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم ولو آمنوا بجميع من قبله من الأنبياء والمرسلين، وكما قال الله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (آل عمران:١٩).

٩- وفيه دليلٌ على إجراء الأمور على ظاهرها، وأنَّ من أقرَّ بالشهادتين، واعتقد ذلك جزمًا كفاهُ ذلك في حكمنا بصحة إيمانه ابتداءً، وكونه من أهل القبلة، ولا يُكلَّف مع هذا إقامة الدليل والبرهان على ذلك.

١٠- وفيه أن إعتاق المؤمن أفضل من إعتاق الكافر: قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: "وأجمع العلماء على جواز عتق الكافر في غير الكفارات، وأجمعوا على أنه لا يجزئ الكافر في كفارة القتل كما ورد به القرآن، واختلفوا في كفارة الظهار واليمين والجماع في نهار رمضان، فقال الشافعي ومالك والجمهور: "لا يجزئه إلا مؤمنة: حملاً للمطلق على المقيَّد في كفارة القتل"، وقال أبو حنيفة والكوفيون: "يجزئه للكافر للإطلاق: لأنها تسمى رقبة". (ينظر: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٥/٢٣، ٢٤، ٢٥) بتصرف، وكذلك ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (شرح سنن النسائي ١٤/٢٦٣) بتصرف.

وفي هذا القدر كفاية.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



سبيل الجنان في طاعة رسول الإسلام

بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

لما انتشر في الآونة المتأخرة من خلل في عقائد كثير من الناس لا سيما ما كان من جدل بينهم حول ثابتة هي أصل الدين، والتي بعدها يُنظر في باقي شعب الإيمان؛ إذ هي بوابة الدخول إليه، ألا وهي الشهادتان، ولا تنفك الثانية عن الأولى، فمن لم يرض بالله ربًا لم يرض بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم رسولاً. لما كان ذلك لا سيما بين أوساط الشباب؛ لم يكن لمجلة التوحيد، والممنون عليها من الله برفع رايته؛ أن تتخلى عن دورها في بيان دينها الذي ترجو به من ربها واسع رحمته سبحانه.

الحديث:

روى الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان بسنده إلى يحيى بن يعمر قال: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ - أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ - فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ



Upload by: altawhedmag.com

لأحدهم مثل أحد ذهبا، فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.

قال: ثم انطلق فلبثت مليا، ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم".

تخريج الحديث:

- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، حديث رقم ٣٤.

> "الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك."

- أبو داود في سننه - باب في القدر - حديث رقم ٤١٣٨.
- الترمذي في جامعه - باب ما جاء في وصف جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان والإسلام - حديث رقم ٢٦٥٢.
- النسائي في الصغرى - باب نعت الإسلام - حديث رقم ٤٩٥٠.
- ابن ماجه في سننه - باب في الإيمان - حديث رقم ٦٢

المعنى العام للحديث:

في مدينة البصرة بالعراق ابتدأ معبد الجهني رأس القدرية يدعو لبدعته في الدين، ويقول: إن الله لم يقدّر الأشياء أزلاً، ولم يسبق علمه بها قبل وقوعها.

ففزع جماعة من أهل السُّنة المخلصين من التابعين، راوي الحديث يحيى بن يعمر ومعه حميد بن عبد الرحمن، وقالوا نذهب إلى البلد الحرام للحج والعمرة، ولعلنا نُوفّق إلى لقاء واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فنسأله عما يقول معبد الجهني وأتباعه.

فلمّا وصلا إلى مكة كان من تقدير الله لهم -ولنا لنتعلم-: أن وُفّق لهم لقاء الصحابي الجليل الفقيه عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- فأسرعا إليه يحيطان به؛ أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وسلما عليه.

Upload by: altawhedmag.com

> جبريل جاء ليعلّم الناس حُسن السؤال وما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.

وتكلم يحيى بن يعمر لما شعر أن صاحبه سيكل الكلام إليه، وهذا من أدبهما فقال: يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر جهتنا بالبصرة قومٌ عُرفوا بإتقانهم للقرآن وبالتبحر في العلم والتباحث فيه وظهروا ببدعةٍ لم نسمعها في ديننا؛ يزعمون أنه لا قدر وأن علم الله مستأنف بعد حصول الحوادث ووقوعها؛ فماذا ترى فيهم؟

قلت: (انظر يا رعاك الله لم ينكروا وجود الله ولا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام، لكن أنكرو ركنًا من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقدر، وأن الله علم وأراد وخلق وقدّر).

قال ابن عمر: إذا رجعتم إلى هؤلاء الضالين فأخبروهم أنني بريء منهم ومن قولهم، وأنهم لا ينتسبون إلى هدي رسول الله الذي هو طريقتنا؛ فهم بقولهم براءٌ مني، والله الذي لا أحلف بغيره لو ملك أحدهم مثل جبل أُحد ذهبًا فتصدق به أو أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر.

ثم ساق لهم حديث سؤال جبريل، مستدلاً به على أن الإيمان بالقدر جزءٌ من الإيمان الشرعي، وأنه لا يتم إيمان مؤمن من غير أن يؤمن بالقدر خيره وشره. (قلت: فما بالكم بمن لا يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يجد له من المدافعين المتأولين، بل وربما المدعين علمًا، فريقًا، فيا عجباه!!).

قال ابن عمر رضي الله عنهما:

حدثني أبي عمر بن الخطاب أنه كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم من الأيام فدخل عليهم رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام ففسّره له بأعمال الجوارح الظاهرة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

فسأله عن الإيمان: فأجابه بأنه التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشرّه حلوه ومرّه.

وسأله عن الإحسان في العبادة، فأخبره بأنه إتقانها ومراقبة الله فيها، واستشعار أنه يراك في السر والعلن.

فسأله عن وقت الساعة، فقال: إنها غيبٌ اختصّ الله بعلمه.

وسأله عن أشراطها وعلاماتها الصغرى فأخبره بما يفيد انقلاب الأوضاع الصحيحة، وسوء الأحوال من كثرة العقوق والتطاول في البنيان.

ثم ولّى الرجل ولم يعثروا له على أثر، فأخبرهم صلى الله عليه وسلم بأنه جبريل جاء ليعلّم الناس حُسن السؤال وما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.

وفي هذا القدر الكفاية، وللبحث صلة في الشهر القادم -بإذن الله- حول شرح مباحث الحديث، وما يُستفاد منه، والرد على بعض المخالفين من الفرق التي خالفت عقائد المسلمين، ثم مناقشة ما ألمّ بالناس اليوم من إنكارٍ لثوابت الدين.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

تهنئة وترحيب ومواقف تُدَرَّس

د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

فانطلاقًا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس». [رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني.

فلولا هذا ديانةً ما ترتب عليه من واجب الشكر وفاءً، ولولا هذا كله ما تكلفنا هذه السطور.

أمَّا الترحيب فبرجل تكلف رئاسة تحرير مجلة التوحيد، وأقول: تكلَّف؛ لأنه ما زاد بما تكلف به إلا عناءً، لكنه احتسب ذلك لله تعالى، وعليه فقد تشرَّف بالأجر الذي يرجوه من الله جل وعلا؛ ذلك هو الأستاذ حسين القراط، وهو امتداد لأخيه ورفيقه، وأخي الأكبر، وأستاذي وحبيبي في الله؛ ذلكم هو الأستاذ جمال سعد حاتم، حفظه الله، الذي رافقته عبر سنوات، ولا أزال.

ولأخي الكبير والإنسان القدير الأستاذ جمال حق الشكر، وهذا ليس للذِّكر، فهو لا يحتاج لذلك، ولم أره يومًا حريصًا عليه، بل هذا حقه علينا، وبيان لبعض مواقفه الطيبة.

فأتقدم بخالص الشكر والتقدير نيابةً عن مشايخي وإخواني في جمعية أنصار السنة، فلو لم أشكره لحسبتُ نفسي مقصرًا، فرأيت الإعلان بشكره كفاية أرفع بها الحرج عن نفسي وباقي إخواني ومشايخي في جمعية أنصار السنة.

وأمَّا مواقفه فهي كثيرة، فقد كان يعتبر جمعية أنصار السنة بمثابة لحمه ودمه، والعمل من خلالها هو طريقه للجنة، وقد رأيناه مجتهدًا في عمله، ولم تكن المادة يومًا مبتغاه.

فهو أستاذٌ كبيرٌ، وصحفي ألمعي، وكاتب إسلامي مميز، وإداري محنك لمجلة من أقدم المجلات الإسلامية تاريخًا وأثبتها قدمًا، وأصحها منهجًا، ظل رئيسًا لتحريرها، ومديرًا لأعمالها لسنوات طويلة.

فالحمد لله على منهج أنصار السنة الذي صنع رجالاً لهم جهود مقدَّرة اقتدت بمشايخ الجماعة وعلمائها عبر تاريخها الطويل.

ثم للأستاذ والأخ وافر الشكر على ما قدَّم من قدوة لأبناء أنصار السنة، فلئن كان قبل ذلك رئيسًا لتحرير المجلة، فلقد صار مستشارًا لتحريرها.

فالحمد لله أولاً وآخرًا.

Upload by: altawhedmag.com

باب السنة

شهر رمضان وكمال الإيمان



بقلم
د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعدُ:

فقد أظلنا شهر كريم مبارك ينتظره المسلمون في كل عام؛ فيتضرعون إلى ربهم ليبلغهم إياه، وذلك هدي سلفي مبارك منذ أن أرسل نبي الإسلام، ينتظرونه ليهجروا فيه المعاصي والذنوب، ويتقربوا فيه لعلام الغيوب؛ ويتعبدوا فيه إلى بارئهم، ويرجوا فيه رحمة خالقهم؛ يتخلصوا فيه من المساحات السوداء، ويتوسعوا في المساحات البيضاء، يلملموا ما تبعثر منهم، ويكتشفوا جوانب الخير في داخلهم ويعدّوا عدتهم فيه من العام للعام.

وإن كان هذا في كل رمضان من كل عام؛ إلا أن احتياج الناس لذلك أكثر إلحاحًا في هذا العام، وقد ألمَّ بالبشرية ما ألمَّ من سنن الله في الأنام لذا، واستكمالاً لما سبق بيانه من حاجة الناس إلى نبي الإسلام نقول: رمضان فرصة لاستكمال شعب الإيمان.

الحديث:

روى الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان بسنده إلى يحيى بن يعمر قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ: مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا، وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ- أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ- فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ؟!

قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ.

ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

Upload by: altawhedmag.com

عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد: أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

قال: صدقت.

قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان.

قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان.

قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: فأخبرني عن الساعة.

قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

قال: فأخبرني عن أماراتها.

قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.

قال: ثم انطلق فلبثت مليا، ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.»

هذا وقد أسلفنا في شهر شعبان الحديث حول هذا الحديث المبارك تخريجا وحول معناه العام كذلك.

وهذا الحديث المبارك من أكمل أحاديث العقائد، وقد بوب عليه الإمام النووي بابا بعنوان: «باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على الثبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه».

ثم قال: قال أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله بعون الله نبتدئ وإياه نستكفي وما توفيقنا إلا بالله جل جلاله فذكره.

وعليه يمكن ذكر ما يستفاد من الحديث فيما يلي:

أولا: وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وأنه ركن من أركان الإيمان كما ورد في الحديث.

وإثبات القدر معناه: أن الله تبارك وتعالى قدّر الأشياء في القدم، وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدّرها سبحانه وتعالى. (ينظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم في شرحه للحديث).

وقال النووي رحمه الله: قال الخطابي (يعني في كتابه معالم السنن): وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله تعالى العبد وقهره على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من اكتساب العبد وصدور أفعاله عن تقدير منه سبحانه وخلق لها خيرها وشرها. (ينظر: شرح مسلم للنووي ١/١٣٨، ١٣٩ ط دار الكتب العلمية).

وبما سبق بيانه فقد بطلت عقيدة معبد الجهني المذكور في صدر الحديث ومتابعيه أن الله تعالى لم يقدّر الأشياء أزلا، ولم يتقدم علمه بها، وإنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها.

والذي قاله ابن عمر رضي الله عنهما دليل على بطلان منهج هؤلاء كذلك.

هذا وقد انقرض من القدرية نفاة العلم انقراضا كليًا فيما نعلم.

هذا والعلماء يطلقون لفظ القدرية في العصور المتأخرة على الجهمية الذين يقولون: بحدوث العلم، بمعنى أن الله تعالى إذا أراد إيجاد شيء أحدث لنفسه علمًا قبل إيجاده ذلك بزمان، فهم يتفقون مع القدرية السابقين في حدوث العلم، وإن اختلفوا في تقديم العلم على الوقوع وتأخره عنه.

كما يطلق العلماء لفظ القدرية أيضا على المعتزلة لأنهم يقولون: إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية، والخير من الله والشر من غيره، فهم ينفون القدر في بعض الأمور. (ينظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم في شرحه للحديث).

ثانيا: اعتقاد نزول جبريل عليه السلام في صورة رجل:

وجبريل عليه السلام كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صور وأحوال مختلفة:

فأحيانا كان يأتي مثل: صلصلة الجرس، وأحيانا

Upload by: altawhedmag.com

كان ينزل جبريل ويتراءى للنبي صلى الله عليه وسلم في صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها؛ فيسد الأفق، وأحيانا كان يتمثل جبريل بصورة دحية الكلبي الصحابي المشهور بحسن صورته، وأحيانًا كان يتمثل جبريل بصورة رجل غريب.

ثالثًا: حقيقة كل من الإيمان، والإسلام، والنسبة بينهما.

وهذه نقطة تحتاج إلى تفصيل؛ إذ فيها اختلف العلماء في حقيقة كل من الإيمان والإسلام، وفي زيادة الإيمان ونقصانه، وفي العلاقة بين الإيمان والإسلام، واختصارًا للقول وجمعًا بين الروايات نلخص كلامهم في أربعة مذاهب رئيسة:

المذهب الأول: القائلون بأن حقيقة الإيمان بسيطة لا تقبل التركيب، وهي التصديق، فالإيمان المطلق عندهم هو التصديق، فأخرجوا من مسمى الإيمان القول، والعمل، فيصح إيمان من صدق بقلبه، وإن لم ينطق بلسانه من غير علة، وهؤلاء هم غلاة المرجئة، وقد وافقهم عليه بعض متأخري الأشعرية، قال الشيخ إبراهيم اللقاني في جوهرة التوحيد:

وفُسِّر الإيمان بالتصديقِ
والنطقُ فيه الخُلْفُ بالتحقيقِ
فقيل شرط كالعملْ وقيل بلْ
شطرٌ والإسلام اشرحنَّ بالعملْ

فالنطق عند هؤلاء شرط لإجراء الأحكام في الدنيا، وعمل الجوارح عندهم شرط كمال في الإيمان خارج عن مسمى الإيمان.

المذهب الثاني: مذهب المرجئة من الفقهاء القائلون بأن الإيمان حقيقة مركبة من تصديق القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح خارج من مسمى الإيمان، وهو مذهب حماد بن أبي سليمان ومن تابعه كأبي حنيفة، وقد وافقهم على هذا القول: وابن كلاب، والحسين بن الفضل البجلي.

المذهب الثالث: قول الكرامية، اتباع ابن كرام وقد انفردوا بهذا القول، فقالوا: الإيمان مجرد قول اللسان، فلم يدخلوا فيه معرفة القلب، ولا تصديقه، ولا عمل الجوارح، تعلقًا بنحو قوله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله؛ فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم»؛ وهذا الزعم واضح البطلان، فقد أجمعت الأمة على أن المنافقين كفار، وإن كانوا قد أعلنوا الشهادتين بألسنتهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (التوبة: ٨٤).

المذهب الرابع: القائلون بأن الإيمان حقيقة مركبة من: اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح والأركان.

وهؤلاء ثلاث فرق: الخوارج، والمعتزلة، وأهل السنة والجماعة.

والفرق بين مذهب الخوارج والمعتزلة، وبين مذهب أهل السنة: أن الإيمان عند الخوارج، والمعتزلة كل واحد لا يقبل التبعض ولا التجزؤ، فإذا ذهب بعضه ذهب كله.

ولذا فمن أخل عندهم بالعمل، أو واقع كبائر الذنوب ومات مصرًا على ذلك، فقد زال إيمانه بالكلية، فيخرج من الإيمان، ويدخل في الكفر عند الخوارج.

ويخرج من الإيمان، ولا يدخل الكفر عند المعتزلة، فيكون في منزلة بين الكفر والإيمان، وهي التي سموها: المنزلة بين المنزلتين.

فكل من الفريقين ينفي الإيمان عن أهل المعاصي وشبهتهم قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»... إلخ الحديث.

وهذا الزعم من الفريقين باطل لمعارضته الآيات الكثيرة والأحاديث البالغة في موضوعها حد التواتر؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ (الحجرات: ٩)؛ فقد أثبت لهم وصف الإيمان مع معصية الاقتتال، ونفي الإيمان عن الزاني محمول على نفي كمال الإيمان، والخلود في الآيتين محمول على المكث الطويل؛ جمعًا بين النصوص.

وعند أهل السنة والجماعة الإيمان يقبل التبعض والتجزؤ، ولذا قالوا بزيادته ونقصانه فخالفوا بذلك سائر الفرق.

وقد وافق أهل السنة على قولهم بعض الأشعرية، قال ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (١/ ١٣٠): «وإلى مذهب السلف ذهب الإمام الشافعي، ومالك، وأحمد، والبخاري، وطوائف من أئمة المتقدمين والمتأخرين.

ومن الأشاعرة: الشيخ أبو العباس القلانسي، ومن محققيهم الأستاذ أبو منصور البغدادي،

Upload by: altawhedmag.com

والأستاذ أبو القاسم القشيري، وهؤلاء يصرحون بزيادة الإيمان ونقصانه».

وجمهور العلماء والمحدثين يقولون: إن التصديق نفسه يزيد وينقص، وبعضهم يرى أنه يزيد ولا ينقص.

قال ابن بطال: التفاوت في التصديق على قدر العلم والجهل، فمن قلّ علمه كان تصديقه مثلاً بمقدار ذرة، والذي فوقه في العلم تصديقه بمقدار برة أو شعيرة، إلا أن أصل التصديق الحاصل في قلب كل أحد منهم لا يجوز عليه النقصان، ويجوز عليه الزيادة بزيادة العلم والمعاينة.

ويؤيده حديث أنس «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»، وفي رواية لأنس «من إيمان» بدلاً من كلمة «من خير»، وجاء في البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عز وجل: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان».

وقال النووي: الأظهر-والله أعلم- أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان الصدّيقين أقوى من إيمان غيرهم؛ بحيث لا تعتريهم الشُبَه، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيّرة وإن اختلفت عليهم الأحوال، وأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم فليسوا كذلك، فهذا ما لا يمكن إنكاره ولا يتشكك عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا يساويه تصديق آحاد الناس.

قال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ (الفتح: ٤)، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ (التوبة: ١٢٤).

ثانيًا: حقيقة الإسلام: أما الإسلام فهو الاستسلام، فإن قصد به استسلام القلب وإذعانه كان بمعنى الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات: ٣٥، ٣٦).

وإن قصد استسلام الجوارح بما في ذلك النطق يتحقق الإسلام دون الإيمان، كما في المنافقين، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ (الحجرات: ١٤).

والإيمان المنجي لا يتم بدون عمل الجوارح، والإسلام المنجي لا يتم بدون التصديق القلبي.

فحينما يفسر الإيمان بالتصديق، والإسلام بعمل الجوارح، فهو تفسير بحسب الأصل الظاهر، كما في حديث سؤال جبريل الذي نحن بصدده.

وحينما يفسر الإيمان بالتصديق والعمل، ويفسر الإسلام بالأمرين فهو تفسير بالكمال الشرعي المنجي من النار، وحينما يفسر الإيمان بالعمل فهو تفسير بلوازمه وخواصه، كما في حديث وفد عبد القيس الآتي وحينما يفسر الإسلام بالتصديق، فهو تفسير بشرطه الأساسي الذي يتوقف عليه.

وهذا التحليل موافق لرأي الحافظ ابن حجر، إذ قال في نهاية المطاف: والذي يظهر من مجموع الأدلة أن لكل منهما حقيقة شرعية، كما أن لكل منهما حقيقة لغوية، لكن كل منهما مستلزم للآخر بمعنى التكميل له، فكما أن العامل لا يكون مسلمًا كاملاً إلا إذا اعتقد، فكذلك المعتقد لا يكون مؤمنًا كاملاً إلا إذا عمل، وحيث يطلق الإيمان في موضع الإسلام، أو العكس، أو يطلق أحدهما على إرادتهما معًا، فهو على سبيل المجاز، ويتبين المراد بالسياق. اهـ. وظاهر الحديث الذي نحن فيه أن المؤمن هو من صدق بجميع ما ذُكر، وهو كذلك ولا يعارض هذا ما ذكره الفقهاء من إطلاق الإيمان على من آمن بالله ورسوله؛ لأن المراد من الإيمان برسول الله الإيمان بوجوده وبما جاء به عن ربه، فيدخل فيه جميع ما ذكر.

رابعًا: حقيقة الإحسان وأنه مرتبة أعلى من الإسلام والإيمان وثمرة لهما وهو أن تعبد الله كأنك تراه.

خامسًا: نفي علمه صلى الله عليه وسلم بموعد الساعة؛ إذ هي من الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وختامًا؛ ومع رياح رمضان المبارك فلا يفوتنك شهر الخير إلا وقد استكملت فيه عرى الإيمان، ثم تفاضلت فيه على ما كنت عليه من قبل؛ وذلك بالجد في التقرب إلى الله؛ فبالأعمال يتفاضل المؤمنون. وفي هذا القدر الكفاية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



بشّروا ولا تُنفّروا

إعداد:
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فإن من آكد أصول الدين وما دعت إليه شريعة رب العالمين ومحاسن سنة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم: الأمر بالبشارة والتيسير والنهي عن التعسير والتنفير؛ فمن آكد محاسنه إزالة المشقة والعنت، ونشر التيسير وبعث الرضا في النفوس، ولقد امتلأت صحاح كتب السنة بما يفيد ذلك ويدل عليه ويأمر بذلك ويرشد إليه، ومن ذلك: ما اتفق عليه الشيخان رحمهما الله تعالى من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا».

التخريج:

أولاً: رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا حديث رقم: ٥٧٩٦.

ثانيًا: ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، حديث رقم ٣٣٦٧.

الشرح:

هذا حديث عظيم من جوامع كلام النبي الأمين صلى الله عليه وسلم قصير مبناه عظيم معناه اشتمل على جمل أربع كل منها لا تستغني عن الأخرى في بيان المنهج وجلاء طريق المحبين.

هذه أربع جُمل:

أولاهم: قوله صلى الله عليه وسلم: "يسّروا"؛ أي: اسلكوا كل ما فيه اليسر والسهولة؛ في عبادتكم ومعاملاتكم بل في كل شرائعكم؛ إذ قد جعلكم ربكم كذلك، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣).

فالتيسير على نفسك وغيرك بنية الطاعة عبادة؛ إذ ذلك يريده الله -عز وجل- منا،

Upload by: altawhedmag.com

ويريده بنا، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)؛ وعليه فكل ما كان أيسر فهو أسنّ وأفضل ما لم يكن إثمًا؛ لأن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- تقول: "ما خُيِّر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا"، أما إذا كان فعل العبادة لا يتأتّى إلا بمشقة، وهذه المشقة لا تسقطها عنك، ففعلتها على مشقة، فهذا أجر يَزداد لك، فإن إسباغ الوضوء على المكاره مما يَرفع الله به الدرجات، ويُكفر به الخطايا، وهنا يأتي الأصل الذي يقول: "الأجر على قدر المشقة"، وعليه فلا تعارض إذ اجتمع النص الصريح والفهم الصحيح، لكن كون الإنسان يذهب إلى الأصعب مع إمكان الأسهل، فهذا خلاف الأفضل على أقل تقدير؛ فالأفضل اتّباع الأسهل في كلّ شيء.

وانظر إلى الصوم وقد كان منا قريب ولا يزال، قال فيه الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "لا يزال الناس بخيرٍ ما عجّلوا الفطر"، وفي حديث آخر أن النبي أخّر السحور، وكان بينه وبين الصلاة قدر خمسين آية، لماذا؟ لأن تأخير السحور أقوى على الصوم مما لو تقدّم، والمبادرة بالفطر أسهل وأيسر على النفس، لا سيما مع طول النهار وشدة الظمأ، فهذا وغيره من الشواهد يدل على أن الأيسر أفضل؛ فأنت يسّر على نفسك كذلك أيضًا في مزاولة الأعمال، فإذا رأيت أنك إذا سلكت هذا العمل، فهو أسهل وأقرب، ويحصُل به المقصود، فلا تُتعب نفسك في أعمال أخرى أكثر من اللازم وأنت لا تحتاج إليها، بل افعَل ما هو أسهل في كل شيء، وهذه قاعدة أن اتّباع الأسهل والأيسر هو الأرفق بالنفس والأفضل عند الله.

"ولا تُعسروا"؛ يعني: لا تسلكوا طرق العسر؛ لا في عبادتكم، ولا في معاملاتكم، ولا في غير ذلك؛ فإن هذا منهي عنه، فلا تعسّر؛ وفي الموطأ من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، قال: كان أبو إسرائيل رجلاً من بني فهر، فنذر ليقومن في الشمس حتى يصلي النبي -صلى الله عليه وسلم- الجمعة وليصومن ذلك اليوم، فرآه النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: "ما شأنه"؟ فأخبروه، فأمره أن يجلس ويتكلم ويصوم، ولم يأمره بكفارة. والرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول: "لا تُعسروا".

"وبشّروا"؛ يعني: اجعلوا طريقكم دائمًا البشارة، بشّروا أنفسكم، وبشّروا غيركم؛ يعني: إذا عملت عملاً، فاستبشر وبشّر نفسك، فإذا عملت عملاً صالحًا، فبشّر نفسك بأنه سيُقبَل منك إذا اتّقيت الله فيه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧)، وإذا دعوت الله، فبشّر نفسك أن الله يَستجيب لك؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)؛ ولهذا قال بعض السلف: "مَن وُفّق للدعاء، فليُبشر بالإجابة"؛ لأن الله قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)، فأنت بشّر نفسك في كل عمل.

وهذا يؤيده أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يكره الطِّيرة، ويُعجبه الفأل؛ لأن الإنسان إذا تفاءَل نشط واستبشر، وحصل له خيرٌ، وإذا تشاءَم فإنه يتحسّر وتضيق نفسه، ولا يُقدِم على العمل، ويعمل وكأنه مُكره، فأنت بشّر نفسك، كذلك بشّر غيرك.

فيا عباد الله لا تهزمنكم دعاوى الهدامين ولا حِيَل المفلسين من المخالفين لا سيما في هذه الأزمنة الغابرة المتأخرة، وما قد أحاط بالعالم كله وليس فقط بديار المسلمين؛ فأمة محمد صلى الله عليه وسلم أمة محفوظة منصورة ما نصرت الدين واتبعت سنة النبي الأمين.

"ولا تُنفروا"؛ يعني: لا تنفروا الناس عن صالح الأعمال وصوره كثيرة حاضرة وأول ما ننصح فيها ننصح لأنفسنا إذ المشهور بين الناس أن السالكين طريق السنة قد يقعون في مثل هذه الأخطاء بحسن نية من فرط حبهم للعبادة وحرصهم على الطاعة لكن النوايا وحدها لا تكفي كما هو مقرر لدى سلفنا الصالح؛ إذ لا

Upload by: altawhedmag.com

بد مع النية الصالحة من سنة صحيحة.

وما قصة معاذ بن جبل رضى الله عنه عن الذهن ببعيدة، فإن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- كان إذا صلى مع النبي -صلى الله عليه وسلم- صلاة العشاء، ذهب إلى قومه، فصلى بهم تلك الصلاة، فدخل يومًا من الأيام في الصلاة، فشرَع في سورة طويلة، فانصرف رجل وصلَّى وحده، فقيل: نافق فلان، فذهب الرجل للنبي -صلى الله عليه وسلم- ثم إن معاذًا أتى إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال له: "أفتَّان أنت يا معاذ؟!"، وكذلك الرجل الآخر قال له الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "إن منكم مُنفِّرين، فأيكم أمَّ الناس، فليُخفف".

وما حديث الثلاثة الذين أحبوا الله ورسوله وباعوا لله أنفسهم حين أرادوا أن يكونوا من سادة العباد فسألوا عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ثم هم تقالوها رغبة ورهبة وحبًا، لكنهم لمَّا تقالوها وقعوا في المحذور من حيث لا يشعرون إذ غاب عن هؤلاء لحظتها أن خير الهدي هدي محمد وأمثله بلا زيادة ولا نقصان وحديثهم مشهور معروف من حديث أنس رضي الله عنه "جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقالوا: وأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ؟ قدْ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قالَ أحَدُهُمْ: أمَّا أنَا فإنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أبَدًا، وقالَ آخَرُ: أنَا أصُومُ الدَّهْرَ ولَا أُفْطِرُ، وقالَ آخَرُ: أنَا أعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلَا أتَزَوَّجُ أبَدًا، فَجَاءَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ إلَيْهِمْ، فَقالَ: أنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وكَذَا، أما واللَّهِ إنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَن رَغِبَ عن سُنَّتِي فليسَ مِنِّي" (البخاري ٦٠٦٣).

فيا أيها الحبيب سرْ إلى الله -عز وجل- على مثل هذه الأصول الأصيلة والسرج المنيرة، تسلم من كل سوء وغيلة.

مما يستفاد من الحديث:

١- من واجب المؤمن أن يحبِّب الناس بالله ويرغبهم في الخير.

٢- ينبغي للداعي إلى الله أن ينظر بحكمة إلى كيفية تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس.

٣- التبشير يولِّد السرور والإقبال والاطمئنان للداعي ولما يعرضه على الناس.

٤- التعسير يولِّد النفور والإدبار والتشكيك في كلام الداعي.

٥- سعة رحمة الله بعباده وأنه رضي لهم دينًا سمحًا وشريعة ميسرة.

٦- وَفِيه الأمر للولاة بالرفق، وَهَذَا الحَدِيث من جَوَامِع الْكَلم لاشْتِمَاله على خيري الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، لأن الدُّنْيَا دَار الْأَعْمَال، وَالْآخِرَة دَار الْجَزَاء، فَأمر رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فِيمَا يتَعَلَّق بالدنيا بالتسهيل، وَفِيمَا يتَعَلَّق بِالْآخِرَةِ بالوعد بِالْخَيرِ والإخبار بالسرور تَحْقِيقا لكَونه رَحْمَة للْعَالمين في الدَّارَيْنِ (ينظر عمدة القاري).

٧- وفي الحديث بيان للفرق بين سبيل المؤمنين وسبيل المخالفين؛ إذ من قواعد شريعتنا الغراء أن الضرر يُزال، وأن المشقة تجلب التيسير، وعليه يسير كل مُحبّ لله ورسوله، ثم يخالفه الأدعياء ممن يزعمون محبة على غير هديه يختبئون في عباءات المحبين، ثم تراهم في طليعة المارقين من الدين، وما أكثر هؤلاء على شتات مذاهبهم فمنهم الناذر صومًا بلا إفطار -وكذبوا-، ومنهم الناذر عيشة بلا اغتسال يقولونه زهدًا، ومنهم المترهبن كالنصارى، ومنهم المكثر لما ابتدع من الأفكار أو الأذكار والأحوال وسائر شُعَب الدين مما تراه في كتب الفرق وغيرها مما اعتنى بمناقشة المخالفين المبتدعين.

وفي هذا القدر الكفاية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



المؤمن أمره كله خير

إعداد:
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

التخريج: صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٥٤٥٢.

شرح الحديث:

عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ:

أمر المؤمن وحاله تستدعي العجب؛ وذلك أنه يؤجر في الأحوال كلها فهو سعيد في كل أحواله، في حال الضراء، وفي حال السراء، فالمؤمن يدور بين هذا وهذا، وهو مأجور، والله عز وجل يقيض له من الأسباب التي يحصل له فيها رفع الدرجات، ومغفرة الذنوب، وتكثير الحسنات، سواء كان ذلك مما يُجريه عليه من الأمور السارة التي تستوجب الشكر أو من الأمور التي تصعب على المرء والتي من شأنها تستوجب الصبر، ولهذا ذكر النبي المؤمن؛ إذ هو الذي من شأنه أن يؤدي عبادة الشكر والصبر، فهو يعرف نعمه عليه وفي جميع أحواله يلتجئ إليه، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ:

وأما الكافر فإنه جحود، ينكر نعمة الله عز وجل عليه، ومن ثم فإنه يضيف عبودية الشكر إلى غير الله تبارك وتعالى، فيعبد معه إلهاً آخر؛ فالكافر إذا أعطي العافية في بدنه، والمال فإن ذلك يكون زاداً له للبعد من الله، ولذلك قال الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ

Upload by: altawhedmag.com

مُهِينٌ) [آل عمران: ١٧٨]، فهؤلاء لا يزال الواحد منهم في غيّه، وبُعده، وإعراضه عن ربه تبارك وتعالى، وكلما ازداد نعمة كلما ازداد بُعداً من الله، فهذه النعم التي يغدقها الله عزوجل على هؤلاء الكفار إنما تكون لمزيد العذاب، والإثم الذي ينتظرهم.

إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ:

أي: أصابه شيء يسره من عافية في بدنه، ومن نعمة تُسدى له في مشرب، أو مطعم، أو ملبس، أو ولد، أو غير ذلك مما يحصله الإنسان من المسارّ، وغير ذلك، مما يسره ويستلذ به يؤجر الإنسان عليه إذا شكر الله تبارك وتعالى على هذه النعمة، فيكون ذلك من قبيل العبودية القلبية، التي تتصل بعبودية اللسان والجوارح، فيكون شاكراً لله تبارك وتعالى بقلبه، فيقوم ذلك بقلبه استشعاراً لإفضال الله، وإنعامه عليه، ثم أيضاً يكون ذلك بلسانه، بالثناء على الله، وبشكره وحمده على ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وكذلك أيضاً يكون ذلك بالجوارح، بتعبيدها لربها وخالقها، فكلما ازداد الإنسان نعمة كلما ازداد عبودية وشكراً لله تبارك وتعالى.

ولهذا كان النبي صلي الله عليه وسلم أعبد الناس لله تبارك وتعالى، ولما سألت عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها النبي صلي الله عليه وسلم عن هذا الاجتهاد في العبادة، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكان يقوم الليل حتى تَرِم قدماه صلي الله عليه وسلم، أجابها بهذا الجواب: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ فعنها رضي الله عنها أن النبي صلي الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكورا» متفق عليه.

> إنعام الله علينا وهدايته لنا إلى طريق التوحيد الخالص ومعرفة العلم النافع يستوجب لوناً من الشكر؛ وذلك ببذله، والقيام بوظائفه عملاً وتعليماً وإلا كان حجة علينا لا لنا

فإن مغفرة الذنوب تستدعي لوناً من شكر الله تبارك وتعالى من قبل العبد، فصار يتقرب إلى الله بهذه العبادة الشاقة على النفوس، حتى تتفطر قدماه من طول الوقوف وكثرة التعب صلي الله عليه وسلم، وقل مثل ذلك إذا هداك الله إلى نعمة التوحيد.

هذا ولنفسي وأمثالي أقول: إن إنعام الله علينا وهدايته لنا إلى طريق التوحيد الخالص ومعرفة العلم النافع يستوجب لوناً من الشكر؛ وذلك ببذله، والقيام بوظائفه عملاً وتعليماً وإلا كان حجة علينا لا لنا فلو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله أحبار اليهود، ولا يغرن طالب العلم ما تفضل الله عليه به من وضوح الطريق فتلك النعمة تحتاج لحق الله فيها لتقييدها وحقه جل وعلا هو القيام بعبادة شكره على وجه يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه

هذا ومثله نقول في نعمة العافية والشباب، ونحو ذلك، ولذا قال النبي صلي الله عليه وسلم: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس؛ الصحة والفراغ» (رواه البخاري من حديث ابن عباس رضى الله عنهما).

وقال صلي الله عليه وسلم : «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: وذكرها العمر والشباب والمال» (رواه الترمذي من حديث أبي برزة ٤/ ٦١٢).

وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ:

والضراء هي الأمر الذي يتضرر به الإنسان

Upload by: altawhedmag.com

ويتألم له في نفسه، أو أهله، أو في ماله، أو في ولده، وإن كان ذلك يسيراً؛ لأن النبي صلي الله عليه وسلم قال: حتى الشوكة يشاكها المؤمن يكفر الله بها من خطاياه.

فإذا عرف العبد ما تقدم فإنه يكون متقلباً بين عبادتي الشكر والصبر، ولذلك كان السلف يستشعرون هذا المعنى، فهذا معاذ بن جبل وقد مات بالطاعون لما أصابه طاعون عمواس الذي بدأ في بلدة عمواس بفلسطين ثم انتشر في الشام وحصد من الأرواح ما حصد كان معاذ رضى الله عنه يقوم على المنبر بفلسطين، ويقبّل بثرة الطاعون أمام الناس شاكراً لله صابراً.

فلقد ضرب الصحابة أروع المثل في أداء عبادة الصبر على البلاء والوباء وكذلك الشكر على فضل الصبر وعلى حقيقة التوكل، الذي يملأ القلوب تعلّقاً وثقة وإيماناً بالله تعالى وحسن الظن به من جهة، ويشحذ الهمم والإرادات والعقول للعمل بالأسباب الممكنة لدفع الضرر من جهة أخرى، وحاولوا فهم طبيعة هذا الوباء، ومسبباته، والاجتهاد في أسباب تلافيه، والعمل بكل ما هو ممكن للتصدي له وكل ذلك من حقوق العبودية في مثل هذه الأحوال.

واليوم وقد ألم بالعالم ما ألم به من الوباء والبلاء فالمؤمن هو الرابح الوحيد في ذلك إذ أمره كله خير في سرائه وضرائه.

كلام لابن القيم في مقامي الشكر والصبر:

يقول: فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الشكر ج٢ ص٢٣٣

> الإيمان يحمل صاحبه على الشكر في السراء، والصبر في الضراء، وهو في كلا الحالتين كاسبٌ للخير.

وهي من أعلى المنازل وهي فوق منزلة الرضى وزيادة فالرضى مندرج في الشكر إذ يستحيل وجود الشكر بدونه وهو نصف الإيمان كما تقدم والإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر وقد أمر الله به ونهى عن ضده وأثنى على أهله ووصف به خواص خلقه وجعله غاية خلقه وأمره ووعد أهله بأحسن جزائه وجعله سببا للمزيد من فضله وحارسا وحافظا لنعمته وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته واشتق لهم اسما من أسمائه فإنه سبحانه هو الشكور وفي مقام الصبر ص ١٥٢ج٢ يقول: ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة الصبر.

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا».

وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان. فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. (ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم، فتح المنعم شرح صحيح مسلم لموسى شاهين لاشين).

مما يستفاد من الحديث:

١- الحث على الإيمان الذي من شأنه سعادة الدارين وخيرهما؛ إذ الإيمان يحمل صاحبه على الشكر في السراء، والصبر في الضراء، وهو في كلا الحالتين كاسبٌ للخير.

٢- إنَّ فضيلة الإيمان وشأنه على العبد ليستْ كغيره، بما يَبعثُ في صاحبه من التَّصرُّفات الحميدة، من الشُّكر، والصَّبر، وغيرهما من حميد الأخلاق؛ فالمسلم يتقلَّب بين مقام الشكر، ومقام الصبر، ويعلم أنَّ كلَّ ما يأتي من الله خير، وأن ما من شدةٍ إلا ستفرج، وما من حزنٍ إلا سيأتي

Upload by: altawhedmag.com

بعده فرج.

٣- يجتمع للمؤمن عند السراء نعمتين، هما: نعمة حصول أمر يحبه، ونعمة التوفيق للشكر، أما عند الضراء فإنه يجتمع عليه ثلاث نعم، هي: نعمة تكفير السيئات، ونعمة هوان الضراء عليه، ونعمة كونه في إحدى مراتب الصبر.

فكلُّ إنسانٍ: في قضاء الله وقدَره بين أمرين: مؤمنٍ وغير مؤمنٍ، فالمؤمنُ على كلِّ حالٍ ما قدَّر اللهُ له فهو خيرٌ له، إنْ أصابتْه الضَّراءُ صبرَ على أقدار الله، وانتظر الفرجَ من الله، واحتسبَ الأجرَ على الله؛ فكان ذلكَ خيرًا له.

وإن أصابتْه سرَّاءُ شكر الله بالقيام بحق هذه النعمة من لهج لسانه بالذكر والشكر ثم طاعة الله في ذات النعمة بالقيام بحق الله فيها وأما غير المؤمن والعياذ بالله فهو لا شاكرو لا صابر بل جاحد أو متضجر كافر.

٤- شكر المسلم لا يتوقف عند حدّ الأقوال: «الحمد لله»، و«الشكر لله»، وإنما يكون مترجماً إلى أفعال، فهو يفعل بنعم الله خيراً، وينفقها فيما يرضيه، وكيفما يحب، وبعيداً عمّا حرّم، وبهذا الشكر يكون قد رزق بنعمتين، نعمة الدنيا بفرحته، ونعمة الدين بشكر الله عليها.

٥- الكافر في كل أموره على شر، فإن أصابته ضراء لم يصبر عليها، وإنما يتضجر، ويبدأ بالدعاء بالثبور والويل، ويسبّ الدهر والزمن، وقد يصل به الأمر لسبّ الله عزو جل، كما إن أصابته سراء لم يشكر الله، ليهيئ بذلك عقابه في الآخرة.

٦- الصبر على البلاء خصلة من خصال الإيمان، فمن يصبر عند الضراء ويحتسب أجره عند الله، وينتظر فرجه فعليه أن يعلم أنه مؤمنٌ. يعتبر الشكر على الخير والسراء سببٌ من أسباب زيادة النعم، وتوفيق من الله.

> الصبر على البلاء خصلة من خصال الإيمان، فمن يصبر عند الضراء ويحتسب أجره عند الله، وينتظر فرجه فعليه أن يعلم أنه مؤمنٌ.

٧- توفيق الله للعبد للشكر أو الصبر نعم تحتاج هي الأخرى إلى عبودية الشكر، وهكذا يحتاج الشكر لشكر فيعيش المؤمن متقلبًا في نعم الله أبدًا، وليس ذلك إلا للمؤمن.

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله في شرحه لرياض الصالحين: «إذا شكر الإنسان ربه على نعمة فهذا من توفيق الله له، وهو من أسباب زيادة النعم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وإذا وفّق الله الإنسان للشكر، فهذه نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثالثة، وهكذا؛ لأن الشكر قلّ من يقوم به، فإذا منّ الله عليك وأعانك عليه فهذه نعمة، ولهذا قال بعضهم:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة
عليّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله
وإن طالت الأيام واتصل العمر

(ينظر: شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين رحمه الله، شرح الدكتور خالد بن عثمان السبت لصحيح مسلم، وكذلك الدرر السنية لعلوي السقاف).

وهكذا فإن أمر المؤمن كله خير وليس ذلك إلا للمؤمن، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



الكتاتيب القرآنية والتربية النبوية

إعداد:
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ الْمُفَصَّلَ هُوَ الْمُحْكَمُ، قَالَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُحْكَمَ

التخريج:

صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن، باب تَعْلِيمِ الصِّبْيَانِ الْقُرْآنَ، حديث رقم ٤٧٦٦.

تنويهان:

الأول: وأكرّر من باب التذكرة أننا قد اشترطنا على أنفسنا الاكتفاء بتخريج الحديث المشروح من الكتب الستة توسطًا لمنهج أهل الفن؛ إذ بعضهم يرى الاكتفاء بذلك، وبعضهم يرى التوسع وتخريج الحديث من كل مصادره الأصلية، وغيرهم يكتفي بالصحيحين أحدهما أو كليهما.

لذا اكتفيت بعزوه للبخاري؛ إذ لم أقف عليه في غيره من الكتب الستة، وإن كان في غيرهم كالطبراني وعند الحاكم في المستدرك.

الثاني: وقد حفّزني للبدء في شرح هذا الكتاب ما قرأته حديثًا من شرح لحديث منه لشيخنا سماحة الشيخ زكريا حسيني رحمه الله؛ عندما تعرّض لحديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ما أذن الله لشيءٍ كأذنه لنبي يتغنّى بالقرآن يجهر به»؛ ومعنى الأذن: الاستماع للشيء، يعني: ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي حسن الصوت، وفي رواية أخرى يتغنى بالقرآن، يعني: يجهر به، وانتهى فيه رحمه الله إلى ما خطه بيمينه أكرره لإفادتنا وصدقة له قال: «ومن ذلك يتبين لك أخي المسلم أن الله تعالى سميع بسمع، لا كما تقول المعتزلة سميع بلا سمع، ولا كما تقول الجهمية سميع بمعنى عليم، ولا كما تقول الأشاعرة سميع بلا أذن؛ فأما الأذن فإن لفظها لم يرد لا في كتاب ولا في سنة مضافًا إلى الله تعالى لا إثباتًا ولا نفيًا، فيجب علينا أن نسكت عنها ولا نلفظ

Upload by: altawhedmag.com

بها مضافة إلى ربنا جل وعلا لا إثباتًا ولا نفيًا، كما هو مقرّر أن ما أثبته الله عز وجل لنفسه أو أثبته له رسوله وجب علينا أن نثبته، وما نفاه الله عز وجل عن نفسه أو نفاه عنه رسوله وجب علينا أن ننفيه، وما لم يرد في الكتاب أو السنة لا إثباتًا ولا نفيًا وجب علينا أن نُمسك عنه ولا نتكلم به. والله عز وجل يعصمنا من الزلل، ويقينا الخطأ والخطل في الاعتقاد والعمل.

شرح الحديث:

١- قوله رحمه الله: باب تعليم الصبيان القرآن: أي: هذا بابٌ في بيان جواز تعليم الصبيان القرآن، وكأنه أشار بذلك إلى الرد على من كره ذلك، وقد جاءت كراهية ذلك منهجًا تربويًا لا دليل لبعضهم (الفتح).

والتعليم في الصغر أدعى إلى ثبوته ورسوخه عندهم كما قيل: التعليم في الصغر كالنقش في الحجر. وقال بعضهم مما ذكره ابن الجوزي في كتابه: (تنبيه الغمر بمواسم العمر)، وبعدما ذكر أن مواسم العمر خمسة، وأن أولها مرحلة الصبا وأن هذه المرحلة وهذا الموسم يتعلق أكثر بالوالدين)، قال رحمه الله:

إن الغصون إذا قوّمتها اعتدلت ... ولا يلين إذ قوّمته الخشب

قد ينفع الأدب الأحداث في مهل ... وليس ينفع في ذي الشيبة الأدب

وقال القسطلاني: وعند ابن سعد بإسناد صحيح أن ابن عباس قال: «سلوني عن التفسير؛ فإني حفظت القرآن وأنا صغير».

وفي تهذيب النووي أن سفيان بن عيينة حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين، وقد جاء كراهية تعليم الصبيان القرآن عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي من جهة حصول الملال له، والحق أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص.

> التعليم في الصغر أدعى إلى ثبوته ورسوخه عندهم كما قيل: التعليم في الصغر كالنقش في الحجر.

(ينظر إرشاد الساري شرح صحيح البخاري للقسطلاني المصري ج ١١ ص٣٠٩، ط دار الكتب العلمية).

فائدة:

وقصص السلف وتابعيهم من المعاصرين في ذلك ماتعة، ومناهج التربويين في طريقة التعليم ماتعة واسعة ولله الحمد، ولعله من حفظ الله لكتابه الذي وعد به، وانتشار دور التعليم والتحفيظ المقننة مبشرة يصل إليه إن شاء الله من نوى لله تعليم أبنائه.

ومطابقته للتَّرجمة من حيث إن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، قرأ المحكم من القرآن وعمره عشر سنين، ويُطلق عليه الغلام.

٢- قوله: وعن سعيد بن جبير: إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم: القائل هنا هو ....الذي سمع من سعيد التابعي تلميذ ابن عباس.

٣- قوله: (قرأ المحكم) وهو الذي لا نسخ فيه، ويُطلق المحكم على ضد المتشابه في اصطلاح أهل الأصول، وهذا سعيد بن جُبير فسر المفصل بالمحكم، وغيره فسره بأنه من الحجرات إلى آخر القرآن على الصحيح، وسُمي بالمفصل للسور التي كثرت فصولها فيه.

٤- قوله: (وأنا ابن عشر سنين)، وقد اختلف فيه، ففي رواية البخاري في الصلاة من وجه آخر: أنه كان في حجة الوداع قد ناهز الاحتلام، وفي رواية أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عنه: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ختين وكانوا لا يختنون الغلام حتى يدرك، وفي لفظ: (وأنا ابن خمس عشرة سنة).

وقال في إرشاد الساري شرح صحيح البخاري ج١١ ص٣٠٩ ط دار الكتب: «عن سعيد بن جبير قال: كان الذي تدعونه المفصل) بفتح الصاد المهملة المشددة الذي كثرت فصوله من السور، وهو من الحجرات إلى آخر القرآن على الصحيح

Upload by: altawhedmag.com

من عشرة أقوال (هو المحكم) الذي ليس بمنسوخ (قال) سعيد بن جبير: (وقال ابن عباس) رضي الله عنهما: (توفي رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم).

واستشكل القاضي عياض قوله: «وأنا ابن عشر» بما مر في الصلاة من وجه آخر أنه كان في حجة الوداع ناهز الاحتلام، وعنه أنه كان عند الوفاة النبوية ابن خمس عشرة.

وقال الفلاس ابن ثلاث عشرة.

وعند البيهقي أربع عشرة، وحكى الشافعي ست عشرة، وعند البيهقي أيضًا عنه أنه قال: قرأت المحكم على عهده -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأنا ابن اثنتي عشرة، وأجاب عياض باحتمال أن يكون قوله: «وأنا ابن عشر سنين» راجعًا إلى حفظ القرآن لا إلى الوفاة النبوية.

فالتقدير توفي النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقد جمعت المحكم وأنا ابن عشر سنين: ففيه تقديم وتأخير، وتعقبه العيني بأن الجملتين يعني قوله «وأنا ابن عشر سنين»، وقوله «وقد قرأت المحكم» وقعتا حالين، والحال قيد: فكيف يقال فيه تقديم وتأخير. اهـ.

وأجاب في الفتح بأنه يمكن الجمع بين مختلف الروايات بأنه كان حين الوفاة النبوية ابن ثلاث عشرة، ودخل في التي بعدها، فمن قال خمس عشرة جبر الكسرين، ومن قال ثلاث عشرة ألغى الكسر في التي بعدها، ومن قال عشرا ألغى الكسر أصلاً. اهـ.

وقال الحافظ في الفتح: واختُلف في أول المفصل مع الاتفاق على أنه آخر جزء من القرآن على عشرة أقوال ذكرتها في باب الجهر بالقراءة في المغرب وذكرت قولا شاذا أنه جميع القرآن (ينظر الفتح ١٠٣ المجلد التاسع ط دار الكتب العلمية).

> من البشائر ولله الحمد ما نراه ونسمعه في بلادنا وكثير من البلاد الإسلامية من نشاط المدارس الدعوية المقننة في تعليم كتاب الله عز وجل، وما نرى من ثمار لهذا النشاط.

والخاتمة بشرى:

فمن البشائر ولله الحمد ما نراه ونسمعه في بلادنا وكثير من البلاد الاسلامية من نشاط المدارس الدعوية المقننة في تعليم كتاب الله عز وجل، وما نرى من ثمار لهذا النشاط من الأعداد المتكاثرة التي نراها، فضلاً عن الذي سمعنا ونسمع. وكل ذلك إنما هو بفضل الله أولاً، ثم بفضل مثل هذه المناشط التي تعتني بتحفيظ القرآن من مدارس ودور تحفيظ، والمنتشرة في ربوع البلاد، فجزى الله كل من أذن وساهم لهذا الخير الجاري أن ينتشر، وان ذلك إنما يبشر بسلامة المنهج وحسن اتباع السلف.

هذا ولتمام الخير واتباع السنة فيه فإننا نتمنى على الله من هؤلاء المخلصين -كما استعملهم الله لتعليم كتابه- أن يعتنوا كذلك بتربية النشء على فهم القرآن، وتشجيعهم على تدبر معانيه، فإن الكثير إذا حفظ وتخرج توقف بعد ذلك، وربما نسي أو ظل يراجع ويجاهد نفسه جهادًا على تذاكره، ولو تفطن هؤلاء لتدبره ما نسوه، بل لسهل عليهم حفظه، ولتذوقوا معانيه وفرحوا به فرحًا عظيمًا.

أهمية فقه القرآن وفهمه:

وكذلك، لو تنبه القائمون على هذه المحاضن لتعليم النشء تدبر القرآن لوجدوا الإجابة الشافية الكافية لتساؤلاتهم الكثيرة حول ضعف إيمان بعض الطلاب في الحلق، وسوء أخلاق بعضهم وتساهل البعض، إلى غير ذلك مما نسمعه كلما جلسنا والتقينا.. أما السلف الصالح فقد تنبهوا إلى هذا، وفهموا أن المقصود من تلاوة القرآن ليس مجرد التلاوة وتحريك اللسان به دون فهم أو بيان، قال تعالى: «ومِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» (البقرة:٧٨). قال الشوكاني قيل:

Upload by: altawhedmag.com

(الأماني: التلاوة) أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة دون تفهم وتدبر. وقال ابن القيم: ذم الله المحرفين لكتابه، والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة وهي الأماني.

ولما راجع عبد الله بن عمرو بن العاص النبي صلى الله عليه وسلم في قراءة القرآن لم يأذن له في أقل من ثلاث ليالٍ، وقال: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث» (النووي، الأذكار ص١٣٩)؛ فدل على أن فقه القرآن وفهمه هو المقصود بتلاوته لا مجرد التلاوة.

وروى حذيفة رضي الله عنه: «أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فكان يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوُّذ تعوّذ»، فهذا تطبيق نبوي عملي للتدبر ظهر أثره بالتسبيح والسؤال والتعوذ. وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها ورُزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يُرزقون العمل به. وفي هذا المعنى قال ابن مسعود: إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به» (الجامع لأحكام القرآن، ١/٣٩-٤٠ وانظر مجلة المجتمع عدد ١٢١٦).

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم لا يتجاوزون العشر آيات حتى يعلموا ما فيهن من العلم والعمل، كما نقل أبو عبد الرحمن السلمي عن عثمان وابن مسعود وأبي كعب رضي الله عنهم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا» (الجامع لأحكام القرآن، ١/٣٩، وعزاه إلى كتاب أبي عمرو الداني البيان، والطبري، ١/٦٠).

> ذم الله المحرفين لكتابه، والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة وهي الأماني.

وهذا يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتعلمون التفسير مع التلاوة، «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (النحل:٤٤)، فكان البيان منه صلى الله عليه وسلم بالألفاظ والمعاني، «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» (محمد:٢٤)، والله تعالى يقول: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ» (ص:٢٩). وتدبروا هذا الموقف الذي يرويه المطلب بن عبد الله قال: «قرأ ابن الزبير رضي الله عنهما آية، فوقف عندها أسهرته حتى أصبح، فدعا ابن عباس رضي الله عنهما فقال: إني قرأت آية وقفت الليلة عندها فأسهرتني حتى أصبحت: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» (يوسف:١٠٦)؟ فقال ابن عباس: لا تسهرك إنما عني بها المشركون. ثم قرأ: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» (لقمان:٢٥)، فهم يؤمنون هنا ويشركون بالله» (مختصر قيام الليل للمروزي، ص ١٤٩).

وفي موطأ مالك رحمه الله أنه بلغه: «أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها» (الموطأ ١/٢٠٥؛ وابن سعد في الطبقات عن أبي مليح عن ميمون عن ابن عمر).

وعن مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورًا» (انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/٤٠؛ وتهذيب سير أعلام النبلاء ١/٣٥، وابن سعد في الطبقات ٤/١٢١).

ولمزيد من الفائدة ينظر كتاب (أبناؤنا في حلقات التحفيظ)، وفي هذا القدر الكفاية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



ري الظمآن ببعض فضائل القرآن

إعداد:
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله على عظائم المنن وعموم النعم وصلى الله وسلم على سيد البشر وخاتم الأنبياء وصحابته الأنجم الزاهرة، وأهل بيته النجب الطاهرة وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد:

الحديث:

عن أبي موسى الأشعري، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مثل الذي يقرأ القرآن: كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأ القرآن: كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن: كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن: كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها".

أولا: التخريج:

أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب: فضل القرآن، باب: قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم - حديث رقم: ٧١٦١.

وباب: ذكر الطعام - حديث رقم ٥١٣٤.

وباب: إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به - حديث رقم: ٤٧٨٩.

مسلم في صحيحه - باب فضيلة حافظ القرآن - حديث رقم: ١٣٨١.

النسائي في الصغرى- مثل الذي يقرأ القرآن من مؤمن ومنافق - حديث رقم: ٤٩٩٨.

الترمذي في جامعه - باب: ما جاء في مثل المؤمن القارئ للقرآن وغير القارئ - حديث رقم: ٢٩٢٥.

ابن ماجه في سننه - باب: في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - حديث رقم: ٢١٥.

وأخرجه البخاري أيضا في التوحيد عن موسى بن إسماعيل.

وأخرجه مسلم في الصلاة عن هدبة، وعن غيره وأخرجه أبو داود في الأدب عن مسدد به وعن

Upload by: altawhedmag.com

عبيد الله بن معاذ، وأخرجه الترمذي في الأمثال عن قتيبة به وأخرجه النسائي في الوليمة وفي فضائل القرآن عن عبيد الله بن سعيد وفي الأيمان عن عمرو بن علي.

وأخرجه ابن ماجه عن محمد بن المثنى ومحمد بن بشار.

ثانيا: شرح المفردات:

١- الأترجة: وهي بضم الهمزة والراء بينهما مثناة ساكنة وآخره جيم ثقيلة. وقد تخفف. ويزاد قبلها نون ساكنة. ويقال: بحذف الألف مع الوجهين فتلك أربع لغات وتبلغ مع التخفيف الى ثمانية. وهي من أحسن الثمار الشجرية وأنفسها عند العرب. قلت: وهي نوع من الحمضيات شبيه بالليمون والبرتقال.

٢- الريحانة: كل بقلة طيبة الريح. وهو ما يستراح اليه. وقيل: هي كل نبت طيب الريح من أنواع المشموم.

٣- الحنظلة: نبات ثمرته في حجم البرتقالة ولونها. فيها لب شديد المرارة. ويمتد على الأرض كالبطيخ وثمره يشبه ثمر البطيخ. لكنه أصغر منه جدا. ويضرب المثل بمرارته. (ينظر: فتح الباري لابن حجر. ١/ ١٢٦. وتحفة الأحوذي للمباركفوري. ٨/ ١٣٣- ١٣٤).

شرح الحديث:

هذا حديث بوب له الامام البخاري بعنوان: باب فضل القرآن على سائر الكلام: أي: هذا باب في بيان فضل القرآن على سائر الكلام. وقد وقع لفظ مثل لفظ هذه الترجمة (كما نبه عليه في الفتح) في حديث أخرج الترمذي وغيره معناه بأسانيد لا تخلو من مقال وفيه: "وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه".

> "خص صفة الإيمان بالطعم وصفة التلاوة بالريح: لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن إذ يمكن حصول الإيمان بدون القراءة."

ثم يذكر الإمام البخاري الحديث والذي هو بمثابة مثل يضربه النبي صلى الله عليه وسلم ليبين ويقسم الناس فيه بخصوص علاقتهم بالقرآن: وانهم على أربعة أنواع:

١- الأول: قوله: "مثل الذي يقرأ القرآن كالأترجة": وهي نوع من أنواع الثمار لها فوائد وقبول حقيقي طبي ونفسي فضلاً عما كُتب لها من قبول بسبب الحديث لمن يعرفه.

وقوله: "طعمها طيب وريحها طيب". قيل: خص صفة الإيمان بالطعم وصفة التلاوة بالريح: لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن إذ يمكن حصول الإيمان بدون القراءة. وكذلك الطعم ألزم للجوهر من الريح فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه.

٢- والثاني: قوله: "والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها": أي وان هذا المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها حلو: إذ إنه مؤمن يعمل بالقرآن لكن لا رائحة له فائحة: إذ هو مقصر تجاه القرآن فلا تشم رائحته الذكية.

وقوله يقرأ القرآن على صيغة المضارع ليس المراد منها حصولها بل المراد منها الاستمرار عليها وأن القراءة دأبه وعادته وقد شبه المؤمن الذي لا يقرأ القرآن بالثمرة في حلاوة مذاقها. وان كان لا ريح لها. لأنه زين باطنه بالعمل بالقرآن . وان لم يزين ظاهره بتلاوته.

٣- والثالث: قوله: "ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر".

٤- والرابع: "ومثل الفاجر": أي: المنافق "الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها". شبهه النبي صلى الله عليه وسلم بالحنظلة. وفيها ما فيها من المذاق المر: ولذا قال: "لا رائحة لها. وطعمها مر". وفي رواية للترمذي: "ريحها مُرٌّ

Upload by: altawhedmag.com

وطعمها مُرٌّ". واستشكلت هذه الرواية من جهة أن المرارة من أوصاف الطعوم، فكيف يُوصف بها الريح؟! والإجابة بأن الريح لما كان كريها، استُعير له وصف (المرارة). فتلكم هي أصناف أربعة: مؤمن يقرأ القرآن ويعمل به، ومؤمن يعمل به ويقصر في قراءته، ومنافق أو مُراء يقرأ القرآن ولا يعمل به، وفاجر لا يقرأ ولا يعمل. نسأل الله السلامة.

ومما يستفاد من الحديث:

١- وفي هذا الحديث فضيلة حامل القرآن، ومطابقته للترجمة من حيث ثبوت فضل قارئ القرآن على غيره؛ فيستلزم فضل القرآن على سائر الكلام، وكذلك استحباب ضرب الأمثال للبيان وتقريب الفهم. قال النووي في شرحه على صحيح مسلم: "هذا الحديث فيه فضيلة حافظ القرآن، واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح المقاصد".

وقال شارح مشكاة المصابيح: "إن هذا التشبيه والتمثيل في الحقيقة وصف لموصوف اشتمل على معنى معقول صرف لا يبرزه عن مكنونه إلا تصويره بالمحسوس المشاهد. ثم إن كلام الله المجيد له تأثير في باطن العبد وظاهره، وإن العباد متفاوتون في ذلك، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير وهو المؤمن القارئ ومنهم من لا نصيب له البتة وهو المنافق الحقيقي، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه وهو المرائي أو بالعكس، وهو المؤمن الذي لا يقرؤه، وإبراز هذه المعاني وتصويرها في المحسوسات ما هو مذكور في الحديث ولم يجد ما يوافقها ويلائمها أقرب ولا أحسن ولا أجمع من ذلك؛ لأن المشبهات والمشبه بها واردة على التقسيم الحاصر. اهـ. (ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ٩/٦٦-٦٧. وانظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، ٢٠/ ٣٨).

٢- الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن وهو أدب عظيم من آداب الإسلام التي كان يُعلمها النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه. قال ابن حجر: قوله: "طعمها طيب وريحها طيب". قيل: خص صفة الإيمان بالطعم، وصفة التلاوة بالريح؛ لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن؛ إذ يُمكن حُصول الإيمان بدون القراءة. وكذلك الطعم ألزم للجوهر من الريح؛ فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه.

٣- الحكمة في تخصيص الأترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح (كالتفاحة مثلا): وذلك لأسباب كثيرة: منها: أن الأترجة يتداوى بقشرها وهو مفرح بالخاصية، ويستخرج من حبها دهن له منافع. وقيل: إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترج، فناسب أن يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين، وغلاف حبه أبيض فيناسب قلب المؤمن. وفيها أيضا من المزايا كبر جرمها وحسن منظرها وتفريح لونها ولين ملمسها. وفي أكلها مع الالتذاذ طيب نكهة ودباغ معدة وجودة هضم، ولها منافع أخرى مذكورة في المفردات.

٤- وأما سبب التمثيل بالتمرة للمؤمن غير القارئ: لأن التمرة تراها من بعيد فلا تشم لها رائحة، فلا نفع في أن تراها من بعيد، لكن نفعها في أن تأكلها، فإذا أكلتها وجدت فائدتها، فكذلك الإنسان المؤمن الذي لا يقرأ القرآن.

٥- وأما الريحانة فإنها تشبه المنافق، تشم رائحتها الجميلة من بعيد، ولكن عندما تتذوقها تجد طعمها مرا، وكذلك المنافق الفاجر، فإنك قد تنتفع من المنافق الذي يقرأ القرآن بشيء، فلعله يقرأ القرآن بصوت جميل، فيعجبك صوته أو يؤثر فيك كلام الله جل وعلا بسبب تلاوته له، ولعلك تسأله عن أماكن الآيات فيجيبك، ولكنه لا يعمل بشيء مما ورد في القرآن، فيستبيح لنفسه أن يكذب وينافق ويرائي ويخادع ويخون، ولا يراقب الله جل وعلا في تصرفاته.

٦- وأما الحنظلة فإنها تشبه المنافق الفاجر الذي لا يقرأ القرآن؛ لأنه لا ريح لها وطعمها مر.

Upload by: altawhedmag.com

فاتفق معها في مرارة الطعم وعدم وجود الرائحة، لفساد مخبره ومظهره. (ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ٩/٦٦-٦٧. وانظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، ٢٠/ ٣٨).

٧- قراءة الفاجر والمنافق مهما ظهر حسنها فلا تقبل عند الله: قال ابن بطال: "معنى هذا الباب أن قراءة الفاجر والمنافق لا ترتفع إلى الله ولا تزكو عنده، وانما يزكو عنده ما أريد به وجهه، وكان عن نية التقرب إليه، وشبهه بالريحانة حين لم ينتفع ببركة القرآن، ولم يفز بحلاوة أجره، فلم يجاوز الطيب موضع الصوت وهو الحلق، ولا اتصل بالقلب، وهؤلاء هم الذين يمرقون من الدين (فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ١٣/٥٣٦).

وقال العيني رحمه الله: (اعلم أن هذا التشبيه والتمثيل في الحقيقة وصف اشتمل على معنى معقول صرف لا يبرزه عن مكنونه إلا تصويره بالمحسوس المشاهد، ثم إنّ كلام الله المجيد له تأثير في باطن العبد وظاهره، وان العباد متفاوتون في ذلك، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير، وهو المؤمن القارئ ومنهم من لا نصيب له البتة وهو المنافق الحقيقي، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه وهو المرائي، أو بالعكس وهو المؤمن الذي لم يقرأه، وابراز هذه المعاني وتصويرها في المحسوسات ما هو مذكور في الحديث، ولم يجد ما يوافقها ويلائمها أقرب ولا أحسن ولا أجمع من ذلك؛ لأن المشبهات والمشبه بها واردة على التقسيم الحاضر).

لأن الناس إما مؤمن أو غير مؤمن، والثاني إما منافق صرف أو ملحق به، والأول إما مواظب عليها، فعلى هذا قسّ الأثمار المشبّه بها، ووجه التشبيه في المذكورات مركب منتزع من أمرين محسوسين: طعم وريح، وقد ضرب النبي المثل بما تنبته الأرض ويخرجه الشجر للمشابهة التي بينها وبين الأعمال: فإنها من ثمرات النفوس فخصّ ما يخرجه الشجر من الأترجة والتمر بالمؤمن، وبما تنبته الأرض من الحنظلة والريحانة بالمنافق، تنبيهًا على علو شأن المؤمن وارتفاع علمه ودوام ذلك، وتوقيفًا على ضعة شأن المنافق واحباط عمله وقلة جدواه. (عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ٢٠/ ٣٨).

٨- أنه قد يقع من بعض المؤمنين انصراف عن تلاوة القرآن وسماعه، وهذا من هجره، قال الإمام ابن القيم: "هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وان قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) (الفرقان:٣٠).

وعليه ينبغي للمسلم أن يكون له وِرْدٌ يوميٌ من كتاب الله تعالى، يحافظ عليه، ويقضيه إذا فاته، وان تيسّر له أن يختم القرآن كل ثلاثة أيام، أو كل أسبوع، أو كل شهر، أو كل أربعين يومًا؛ فهو خير، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "اقرأ القرآن في أربعين". وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥١٢). (ينظر: الفوائد: لابن القيم ص٨٢، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣١٨، تفسير الآية ٣٠ من سورة الفرقان).

فاللهم أنر قلوبنا ووجوهنا وبيوتنا وقبورنا بنور القرآن العظيم.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



إلى الإخلاص يا عباد الله

إعداد:
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

الحديث:

عن أبي عَبْد اللَّه جابر بْن عَبْد اللَّه الأنْصَارِيّ رضِيَ اللَّهُ عنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مع النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّم في غَزَاة فَقَالَ: "إنَّ بالْمَدينَة لرجَالاً مَا سرْتُمْ مسيراً، ولا قطَعْتُمْ وَادياً إلاَّ كانُوا معكُم حَبَسَهُمُ المَرَضُ".

روايات أخرى:

وفي رواية: "إلاَّ شركُوكُمْ في الأجْر".

وفي رواية عَنْ أنَس رَضِيَ اللَّهُ عنْهُ قَالَ: رَجَعْنَا منْ غَزْوَة تَبُوكَ مَعَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّم فَقَالَ: "إنَّ أقْوَاماً خلْفَنَا بالمدينة مَا سَلَكْنَا شعْباً ولا وَادياً إلاَّ وهُمْ معَنَا؛ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ".

تخريج الحديث:

١. رواية جابر رضي الله عنه أخرجها مسلم، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر (٣/ ١٥١٨)، رقم: (١٩١١).

٢. وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجهاد بَابُ مَنْ حَبَسَهُ الْعُذْرُ عَنِ الْجِهَادِ - حديث رقم ٢٧٧٨.

٣. رواية أنس رضي الله عنه أخرجها البخاري بلفظ آخر في كتاب الجهاد والسير، باب من حبسه العذر عن الغزو (٣/ ١٠٤٤)، رقم: (٢٦٨٤) ولفظ البخاري بسنده عن أنس، قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلمد. فقال: "إنَّ أقوامًا خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا؛ حبسهم العذر".

٤. وأخرجه أبو داود (٢٥٠٨) بلفظ آخر عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد تركْتُمْ بالمدينة أقوامًا ما سرتُمْ مسيرًا ولا أنفقتُمْ من نفقةٍ ولا قطعتُمْ من وادٍ إلَّا وهُم معكُم قالوا: يا رسول اللَّه وكَيف يكونون معنا وهُم بالمدينة؟ قال: حبسَهُمُ المرضُ".

Upload by: altawhedmag.com

راوي الحديث:

أبوعبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري الخزرجي السلمي بفتح اللام لنسبته إلى سلمة بن سعد.

روي عنه أنه قال: "غزوتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة، ولم أشهد بدرًا ولا أحدًا، منعني أبي، فلما قُتل أبي لم أتخلف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزوة قط" (مسلم ١٨١٣).

من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتًا، وقال ابن سعد: شهد جابر العقبة مع السبعين، وكان أصغرهم.

وعنه قال: أنا وأبي وخالي من أصحاب العقبة، وكان أبوه يومئذ أحد النقباء.

وكان من ساداتهم وفضلائهم المتحفين بحبّ رسول الله.

وعنْ جابرٍ قال استغفر لي رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ليلةَ البعيرِ خمسًا وعشرين مرّةً (قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ).

وقال جابر: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية: "أنتم اليوم خير أهل الأرض، وكنا ألفاً وأربعمائة".

وقال جابر: عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا لا أعقل، فتوضأ وصبّ عليّ من وضوئه فعقلت.

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف وخمسمائة وأربعون حديثاً، اتفقا منها على ستين، وانفرد البخاري بستة عشر، ومسلم بمائة وستة وعشرين، ومن مناقبه في ذلك يروى أنه رحل في حديث القصاص إلى مصر ليسمعه من عبد الله بن أنيس.

تُوفي بالمدينة بعد أن كُفّ بصره سنة ثلاث وسبعين وهو ابن أربع وتسعين سنة، وصلى عليه أبان بن عثمان، وكان والي المدينة، وجابر آخر الصحابة موتًا بالمدينة رضي الله عنه.

(مستفاد من سير أعلام النبلاء من ترجمة جابر ٣/١٩٠، والإصابة لابن حجر، وأسد الغابة لابن الأثير).

شرح الحديث

١- قوله: (كنا مع النبي في غزاة) هي غزوة تبوك كما صرحت به رواية البخاري رحمه الله.

وفي "النهاية" غزا يغزو غزوًا فهو غازٍ، والغزوة: المرة من الغزو، والاسم الغزاة.. اهـ (وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الموعود إشارة وتطييباً لخاطر أولئك النفر الذين أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون ما يحملهم عليه من رواحل للمشاركة في الغزو وكان بعضهم فقراء، وبعضهم من ذوي الأعذار التي لا يتمكنون معها من الخروج معه، فيقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم: لا أجد ما أحملكم عليه، فيتولون ويرجعون إلى أهليهم تفيض أعينهم من الدمع، ألا يجدوا ما ينفقون، فكانت هذه البشارة من النبي صلى الله عليه وسلم لأمثال هؤلاء خاصة ولباقي المسلمين عامة.

٢- قوله: "ما سرتم مسيرًا": أي: سيرًا، أو في مكان سيرٍ؛ فهو مصدر ميمي أو اسم مكان.

٣- قوله: "ولا قطعتم واديًا": قال الأصفهاني في مفرداته (٨٦٢): أصل الوادي: الموضع الذي يسيل فيه الماء، ومنه سُمّي المفرجُ بين الجبلين وادياً. وجمعه: أودية. اهـ.

قال ابن علان في دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ١/٣٥-: فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٢٠- ١٢١).

٤- (إلا كانوا معكم) أي: شركوكم في الأجر كما

Upload by: altawhedmag.com

في الرواية الثانية: "وكان لهم مثل أجركم": لصحة نيتهم في مباشرة كل ما باشره إخوانهم المجاهدون.

٥- قوله: "حبسهم المرض": (أي: منعهم (المرض): فلصحة النية أعطاهم الله مثل أجر المباشر للعمل.

وليس المقصود: أنّ الأجر لا يحصل إلا لمن حبسه المرض فقط: بل يشمل كل من حبسه عذر، ويدل على ذلك رواية البخاري حيث قال: "حبسهم العذر". والعذر هو: الوصف الطارئ على المكلف المناسب للتسهيل عليه.

قال ابن حجر: والمراد بالعذر: ما هو أعمّ من المرض، وعدم القدرة على السفر، وقد رواه مسلم من حديث جابر بلفظ: "حبسهم المرض". وكأنه محمول على الأغلب. اهـ.

٦- وقوله في رواية (إلا شركوكم) بكسر الراء (في الأجر) بدل قوله: إلا كانوا معكم. وقال النووي: قال أهل اللغة: شركه -بالكسر- بمعنى: شاركه. اهـ.

٧- قوله: "خلفنا": قال ابن حجر: بسكون اللام: أي: وراءنا. وضبطه بعضهم: بتشديد اللام وسكون الفاء. اهـ.

٨- قوله في رواية البخاري: "شعباً": قال الراغب الأصفهاني في مفرداته (٤٥٥): والشِّعْب من الوادي: ما اجتمع منه طرف وتفرّق طرف.

وقال القسطلاني: بكسر الشين المعجمة، وسكون العين المهملة، بعدها موحدة: طريقاً في الجبل.

(ينظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان، نشر دار الكتاب العربي: ١/٣٥، نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، نشر: مؤسسة الرسالة، بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، للهلالي، نشر: دار ابن الجوزي).

فوائد الحديث:

١- النية وأثرها: قال النووي: "في هذا الحديث فضيلة النية في الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات: فعرض له عذرٌ منعه، حصل له ثواب نيته، وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك، وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم كثر ثوابه". اهـ. وسيأتي مزيد بحث لهذه الفائدة إن شاء الله.

٢- الحثّ على تعلم النية: قال الإمام ابن رجب: "وكان بعض السلف يحب أن يتعلم الناس أحكام النيات، كما قال يحيى بن أبي كثير: " تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل" (جامع العلوم ص ٧٠).

وقال ابن أبي جمرة (وهو من شراح البخاري): " وددتُ أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يُعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد في تدريس أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أُتي على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك". ولا أحبّ أن أضيّع صدق كلامهم بعيب كلامي لكنه كلام من ذهب أرجو أن يكون محلاً للدراسة من إخواني، ونسأل الله أن يرزقنا بركته.

٣- فيه حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد، وعدم تخلفهم عنه بغير عذر ومثاله أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة: ٩٢).

٤- وفيه أنّ النية الصالحة تبلغ ما يبلغ العمل، وأنّ من فضل الله عز وجل إثابة العبد إذا عجز عن القُربة والطاعة مع عزمه عليها.

٥- وفيه أنه ينبغي للداعية إلى الله استثمار الفرص في الدعوة، فقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ورغّبهم في إصلاح النية أثناء رجوعه من غزوة تبوك إلى المدينة خاصة بعد فضائل الأعمال.

٦- وفيه أنّ من خصائص دين الإسلام: اليُسر، والسماحة، ورفع الحرج: حيث رفع الحرج عمن منعه من الخروج للجهاد عذرٌ.

٧- مسألة: سؤال هل يحصل لمن نوى العمل الصالح وتخلف عنه هل يحصل له أجر؟

الجواب: يمكن تقسيم من تخلف عن العمل

Upload by: altawhedmag.com

الصالح بعد أن نواه وهمَّ به إلى قسمين:

القسم الأول: من كان من عادته القيام بالطاعة في حال عدم العذر، ثم عجز عنه، مع رغبته فيه، فإنه يُكتب له أجر العمل كاملاً.

والدليل على ذلك: ما خرَّجه البخاري (٢٩٩٦) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مرض العبد أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً".

القسم الثاني: من ليس من عادته عمل هذه الطاعة في حال عدم العذر؛ ولكنه همَّ بعملها، وهذا أحد حالين:

الحالة الأولى: أن يهم بالطاعة ثم يتركها كسلاً وتهاوناً؛ فهذا يُثاب على الهمّ الأول، ولكن لا يُثاب على الفعل؛ لأنه لم يفعله بدون عذر.

والدليل على ذلك: حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: قال: "إنَّ الله عز وجل كتب الحسنات والسيئات؛ ثم بيّن ذلك: فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة...".

الحالة الثانية: أن يقترن بالنية قولٌ أو سعيٌ بأسبابها، ولكن لم يدرك هذا العمل؛ فهذا وقع فيه نزاع بين أهل العلم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه يُكتب له الأجر كاملاً مع المضاعفة، وهو اختيار القرطبي في أحكام القرآن (٥ / ٣٢٥)، شرح صحيح مسلم في المفهم (٣/ ٧٤٥).

القول الثاني: أنَّ له أجر النية فقط، وهو اختيار السبكي الكبير فيما نقله ابن حجر في الفتح (٦/ ١٥٩).

القول الثالث: أنه يكتب له أجر النية مع العمل دون المضاعفة، وهو اختيار ابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم ص٣٠٩، قال ابن رجب رحمه الله: "فالمضاعفة يختص بها من عمل العمل دون مَن نواه، ولم يعمله، فإنهما لو استويا من كل وجه لكتب لمن همَّ بحسنة ولم يعملها عشر حسنات، وهو خلاف النصوص كلها".

وهذا القول هو الأحظى بالأدلة الأوضح في دلالتها والأكثر في عددها كتابًا وسُنة، نكتفي منها بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٩٥).

وجه الاستدلال: أن الله سبحانه نفى في هذه الآية التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين، ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر بدرجة، وتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر بدرجات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: القاعدون المفضَّل عليهم المجاهدون درجة هم القاعدون من أهل الأعذار، والقاعدون المفضَّل عليهم المجاهدون درجات هم القاعدون من غير أهل الأعذار وهو ما تعرض له ابن القيم رحمه الله في كتابه الماتع (طريق الهجرتين: ص٩٣٦)، وقد أطال الكلام حولها فليراجع تفضلاً للفائدة.

واختصارًا لما قال فإنه قد ذكر الأدلة والاعتراضات، ثم ذهب إلى أن العازم على الجهاد وغلبه عذره، وأقعده عنه، ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها، وإنما أقعده العجز؛ فهذا الذي تقتضيه الأدلة أنَّ له مثل أجر المجاهد..

ومن ذلك قوله: "لأن قاعدة الشريعة أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل، أو مقدمات الفعل نُزِّل صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التامّ..."، ثم استشهد على كلامه. (ينظر: جامع العلوم ص ٣٠٩، طريق الهجرتين ص٩٣٦).

والحمد لله رب العالمين

Upload by: altawhedmag.com



العِبَر في انتقام اللّه ممّن سخر من سيّد البشر

الحلقة الأولى

إعداد:
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فلما ظهر علينا في هذه الفترة -كسابقتها كثير- شرذمة من أنامل حاقدة وصور آثمة ونفوس سافلة تحاول النيل من أطهر الخلق وسيد الأنبياء؛ فكان ذلك جرحا ألم بجميع المسلمين فوجب البيان.

والبيان فطرة وديانة؛ إذ ندين بذلك حبا وعقيدة، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم تمتلئ بمثل هذه المعاني، والتي تبين تكفل الله عز وجل بكفاية نبيه والانتقام له؛ فالبشرى يا عباد الله، ومن ذلك:

الحديث:

عن أنس رضي الله عنه، قال: كان رجل نصرانيًا فأسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم، فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له فأماته الله فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم، نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فعلموا: أنه ليس من الناس، فألقوه.

التخريج:

هذا الحديث متفق عليه إذ روي في:

١- صحيح البخاري كتاب: المناقب باب علامات النبوة في الإسلام حديث رقم: ٣٤٥٢.

٢- صحيح مسلم - كتاب: المنافقين حديث رقم: ٥١١٦.

توطئة:

نحن في رحاب حديث من صحيح السنة ودلائل النبوة يرويه تارة شيخ المحدثين في كتاب: مناقب سيد المرسلين، وتارة تلميذه وقرينه الإمام مسلم في كتاب: المنافقين؛ فكأنهم يقولون معًا: هذا الحديث الشريف وإن كان بيانًا لحال المنافقين وبعض صفاتهم؛ فهو من مناقب سيد المرسلين،

Upload by: altawhedmag.com

ومن دلائل نبوة خاتم النبيين، فلولا اشتعال قلوب المرجفين وغليانها حقدًا وحسدًا وغيرةً ما كان لنا أن نشمّ طيب عَرْف عود محبة الله لنبيه ونصرته له؛ فالمِنْحة وليدة المِحْنة، والبشرى عاقبة المسلمين.

شرح الحديث:

قال في هدي الساري شرح صحيح البخاري (كتاب المناقب) ج ٨ ص ١١٠: عن أنس-رضي الله عنه- أنه قال: (كان رجل نصرانيًا) لم يُسمّ، وفي مسلم أنه من بني النجار (فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران فكان يكتب للنبي-صلى الله عليه وسلم-) الوحي؛ (فعاد نصرانيًا) كما كان، ولمسلم من طريق ثابت عن أنس فانطلق هاربًا حتى لحق بأهل الكتاب فرفعوه (فكان يقول) لعنه الله: (ما يدري محمد إلا ما كتبت له؛ فأماته الله)، ولمسلم: فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم (فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض) بفتح الفاء في الفرع، وقال السفاقسي وغيره بكسرها أي: طرحته ورمته من داخل القبر إلى خارجه؛ لتقوم الحجة على من رآه ويدل على صدقه-صلى الله عليه وسلم- (فقالوا) أي أهل الكتاب (هذا) الرمي (فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم) وللإسماعيلي: لما لم يرض دينهم (نبشوا عن صاحبنا) قبره (فألقوه) خارجه (فحفروا له فأعمقوا) بالعين المهملة أبعدوا (فأصبح) ولأبي ذر: فأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا فأصبح (وقد لفظته الأرض، فقالوا: (هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم) سقط لما هرب منهم لأبي ذر (فألقوه) خارج القبر (فحفروا له فأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا فأصبح قد) ولأبي ذر: قد (لفظته الأرض فعلموا أنه ليس من الناس)، بل من رب الناس (فألقوه) وفي رواية ثابت عند مسلم: فتركوه منبوذًا.

هذا ومطابقة الحديث للتَّرْجمة من حيثُ ظهرت معجزة النبي-صلى الله عليه وسلم- في لفظ الأرض إياه مرات؛ لأنه لما ارتدّ عاقبه الله تعالى بذلك لتقوم الحجة على من يراه ويدل على صدق الشارع. و(ينظر: فتح الباري للحافظ ابن حجر رحمه الله: ج٦/ ص ٧٢٣)، وكذلك (عمدة القاري شرح صحيح البخاري) في شرحه للحديث.

مما يستفاد من الحديث:

أولا: الابتلاء من سنة الله عز وجل في عباده؛ إذ يبتلى المرء على قدر دينه، الأمثل منهم فالأمثل، فكان أشد الناس بلاء الأنبياء وبيانه من القرآن؛ قال تعالى: «كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ» (الذاريات:٥٢-٥٣)، وقال تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ» (الأنعام:١١٢)، وقال تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا» (الفرقان:٣١)، ودليله من السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل..."؛ الحديث، وهو صحيح.

فيا أيها المسلمون: بشراكم اليوم ببشرى رسول الله لكم على ما بكم من غيظ وحزن.

ثانيًا: ومن البشريات أن يعتقد المسلم-كما يعتقد الشهادتين والقرآن- يعتقد أن الله ناصر دينه ومنتقم لنبيه العدنان صلى الله عليه وسلم.

ودليل ذلك ما استفدناه من هذا الحديث؛ إذ هذا الحديث دليل من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم؛ قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية في "الصارم المسلول على شاتم الرسول" (ص٢٣٣) معلقًا على القصة: "فهذا الملعونُ الذي افترى على النبي صلى اللهُ عليه وسلم أنه ما كان يدري إلا ما كتب له؛ قصمهُ اللهُ وفضحهُ بأن أخرجهُ من القبر بعد أن دُفن مراراً، وهذا أمرٌ خارجٌ عن العادة، يدلُ كلَ أحد على أن هذا عقوبة لما قالهُ، وأنه كان كاذباً، إذ كان عامةُ الموتى لا يصيبهم مثل هذا، وأن هذا الجُرم أعظمُ من مجرد الارتداد؛ إذ كان عامةُ المرتدين يموتون ولا يصيبهم مثل هذا، وأن اللهَ منتقمٌ لرسوله صلى اللهُ عليه وسلم ممن طعن عليه وسبهُ، ومظهرٌ لدينه، ولكذب الكاذب إذا لم يمكن للناس أن يقيموا عليه الحد".ا.هـ.

وهناك أدلة لا تُحصى كثرة، ومن ذلك:

١- قال عز وجل: "إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ" (الكوثر:٣)، وقال أيضًا: "إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ" (الحجر: ٩٥)، قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية في "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" (٦/٢٧٦):

Upload by: altawhedmag.com

"وقد سمى أهل العلم بعض من كفاه الله إياه من المستهزئين، وكانوا معروفين مشهورين عند الصحابة بالرياسة والعظمة في الدنيا فذكروهم ليعرف هذا الأمر العظيم الذي أكرم الله نبيه به... "ا.هـ.

وقال أيضا رحمه الله في "الصارم المسلول" مقررًا قاعدة تؤكد ما اعتقدناه، ذاكرًا من التجارب بخصوص سبّ النبي صلى الله عليه وسلم ما استفدناه فيقول: "ونظير هذا ما حدثناه أعدادٌ من المسلمين العدول أهل الفقه والخبرة عما جربوه مرات متعددة في حصر الحصون والمدائن التي بالسواحل الشامية، لما حُصر فيها بنو الأصفر في زماننا قالوا: كنا نحن نحصر الحصن أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر، وهو ممتنعٌ علينا حتى نكادَ نيأس منه، حتى إذا تعرّض أهلهُ لسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم والوقيعة في عرضه تعجلنا فتحه وتيسر، ولم يكد يتأخر إلا يوما أو يومين أو نحو ذلك، ثم يفتحُ المكانُ عَنْوةً، ويكونُ فيهم ملحمةٌ عظيمةٌ، قالوا: حتى إنا كنا لنتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه، مع امتلاء القلوب غيظًا بما قالوه فيه".

- وفي زماننا تروى قصة لسلفنا شيخ أنصار السنة رحمه الله الشيخ أحمد شاكر عن والده ذاكرًا لعقوبة حلت بمن انتقص الرسول في ذلك الزمان، وهي لأحد خطباء مصر، وكان فصيحا متكلما مقتدراً وأراد هذا الخطيب أن يمدح أحد أمراء مصر عندما أكرم طه حسين، فقال في خطبته: جاءه الأعمى-يقصد به طه حسين وأنه جاء لهذا الأمير- فما عبس بوجهه وما تولى!

فما كان من الشيخ محمد شاكر- والد الشيخ أحمد شاكر وكان من علماء الأزهر- إلا أن قام بعد الصلاة، يعلن للناس أن صلاتهم باطلة، وعليهم إعادتها؛ لأن الخطيب كفر بما شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم، (وقد شكلت لجنة من الأزهر آنذاك وقرروا أن هذا الخطيب عرّض بجناب النبي صلى الله عليه وسلم إذ هو عبس وتولى، والملك الذي أراد مدحه كان أفضل فلا عبس ولا تولى، هكذا قال هو.

يقول أحمد شاكر: "ولكن الله لم يدع لهذا المجرم جرمه في الدنيا، قبل أن يجزيه جزاءه في الأخرى، فأقسم بالله لقد رأيته بعيني رأسي-بعد بضع سنين، وبعد أن كان عاليا منتفخا، مستعزاً بمن لاذ بهم من العظماء والكبراء- رأيته مهينا ذليلا، خادما على باب مسجد من مساجد القاهرة، يتلقى نعال المصلين يحفظها في ذلة وصغار، حتى لقد خجلت أن يراني، وأنا أعرفه وهو يعرفني، لا شفقة عليه، فما كان موضعاً للشفقة، ولا شماتة فيه فالرجل النبيل يسمو على الشماتة، ولكن لما رأيت من عبرة وعظة".

ونقول بعيدًا عن جدليات أن الخطيب يعذر أو لا يعذر، لكننا ذكرنا القصة لاستخلاص العبرة ممن تجرأ على التنقص من رسول الله.

فائدة: حكم السب ومناطه:

أولاً: جُرم الطاعن على الرسول صلى الله عليه وسلم الساب له أعظم من جرم المرتد. ودليل ذلك: لما تمكن النبي صلى الله عليه وسلم من ابن أبي السرح أهدر دمه لما طعن في النبوة وافترى عليه الكذب، مع أنه قد أمّن جميع أهل مكة الذين قاتلوه وحاربوه أشد المحاربة، ومع أن السُّنة في المرتد أنه لا يُقتل حتى يستتاب إما وجوبًا أو استحبابًا.

ثم إن إباحة النبي صلى الله عليه وسلم دمه بعد مجيئه تائبًا مسلمًا وقوله: "هلا قتلتموه". ثم عفوه عنه بعد ذلك دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له أن يقتله وأن يعفو عنه ويعصم دمه، وهو دليل على أن له-صلى الله عليه وسلم- أن يقتل من سبه وإن تاب وعاد إلى الإسلام".

وقال ابن تيمية في الصارم المسلول ج٣ ص٩٧٨.. وما بعدها: قال القاضي عياض: "جميع من سبّ النبي أو عابه أو ألحق به نقصًا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرّض به أو شبّهه بشيء على طريق السبّ له والازراء عليه أو البغض منه والعيب له فهو ساب له، والحكم فيه حكم الساب يُقتل، ولا نستثني فصلاً من فصول هذا الباب عن هذا المقصد ولا نمتري فيه تصريحًا كان أو تلويحا، وكذلك من لعنه أو تمنى مضرة له أو دعا عليه أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عيبه في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزورا، أو عيّره بشيء مما يجري من البلاء والمحنة عليه أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه: قال هذا كله إجماع من العلماء وأئمة

Upload by: altawhedmag.com

الفتوى من لدن أصحابه وهلم جرا".

وقال شيخ الاسلام: "ولا فرق في ذلك بين أن يقصد عيبه والإزراء به أو لا يقصد عيبه لكن المقصود شيء آخر حصل السب تبعًا له أو لا يقصد شيئًا من ذلك، بل يهزل ويمزح أو يفعل غير ذلك: فهذا كله يشترك في هذا الحكم إذا كان القول نفسه سبًا (فإن الرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب..)

وقال «ومن قال (مجرد قول) ما هو سب وتنقص له: فقد آذى الله ورسوله وهو مأخوذ بما يؤذي به الناس من القول الذي هو في نفسه أذى وإن لم يقصد أذاهم... ألم تسمع إلى الذين قالوا: «إنما كنا نخوض ونلعب»: فقال الله تعالى: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴿٦٥﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم» (التوبة:٦٥-٦٦)، وهذا مثل من يغضب فيذكر له حديث عن النبي أو حكم من حكمه أو يدعى لما سنه فيلعن ويقبح ونحو ذلك... وقد قال تعالى: «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» (النساء:٦٥)؛ فأقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه ثم لا يجدوا في نفوسهم حرجًا من حكمه فمن شاجر غيره في أمره وحرج لذكر رسول الله حتى أفحش في منطقه، فهو كافر بنص التنزيل، ولا يُعذر بأن مقصوده ردّ الخصم؛ فإن الرجل لا يؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما وحتى يكون الرسول أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين. اهـ

هذا وما سبق من الحكم بوجوب القتل هو حكم في الدنيا حتى لا تكون الأمور فوضى بخصوص صيانة جناب النبوة فيفتري كل سفيه، ثم يبادر بإعلان توبة كاذبة أو صادقة: فالله أعلم بها. فكأن عقابه في الدنيا أنه يُقتل بأمر أولياء الأمور، وتوبته توكل في الآخرة إلى ربه ونتبّه على هذا لأمرين:

الأول: حتى لا يلتبس على القارئ ما يلبسه بعض المخالفين بسؤالهم كيف يغفر الله للكافر بالله إذا تاب ولا يغفر لهذا الساب؟ فالجواب ما سبق بيانه.

والثاني: أن تطبيق الأحكام الشرعية تكون لأولياء الأمور، ولا تُترك لعوام الناس وإلا كانت المفاسد أعظم، ولصارت الأمور فوضى.

هذا، وللحديث بقية في شفاء صدور الموحدين ببيان منزلة سيد المرسلين في شهرنا القادم إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

باب السنة

وضوح البيان بتعظيم قدر النبيّ العدنان صلى الله عليه وسلم

إعداد:
د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد بدأنا في شهرنا الخالي -ربيع الآخر- شرح حديث صحيح من دلائل الإعجاز النبوي المبارك وكان مناسبة اختياره هو المساهمة في بيان بعض حقوق نبينا صلى الله عليه وسلم كقليل مساهمة في الرد على شانئيه ممن يظهر حقدهم حينا بعد حين، فضلاً عن أن بيان سنته صلى الله عليه وسلم هو دور من أدوار باب السنة عمومًا، ولما كانت الحلقة الأولى مشتملة في الغالب على بيان انتقام الله عز وجل لنبيه؛ فكان اسمها: العبر في انتقام الله ممن سخر من سيد البشر، ولما كانت الحلقة الثانية من شرح الحديث قد اشتملت في غالبها على بيان ما يجب من محبة النبي وتعظيم قدره كان عنوانها كما هو الحال، والله أسأل أن تكون سبب شفاعة لمحبيه وليتكرم القارئ الحبيب -بغير كلفة- بمتابعة مجلة التوحيد في عددها السابق.

هذا واستكمالاً لما سبق نقول وبالله التوفيق:

الحديث:

عنْ أنس رضي اللَّهُ عنْهُ، قال: كانَ رجُلٌ نصرانيًا فأسْلم، وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكْتُبُ للنبيِّ صلى اللَّهُ عليه وسلم، فعاد نصرانيًا، فكان يقُولُ: ما يدري محمدٌ إلا ما كتبْتُ لهُ فأماتهُ اللَّهُ فدفنُوهُ، فأصبح وقدْ لفظتْهُ الأرْضُ، فقالُوا: هذا فعْلُ محمدٍ وأصْحابه لما هرب منْهُمْ، نبشُوا عنْ صاحبنا فألْقوْهُ، فحفرُوا لهُ فأعْمقُوا، فأصبح وقدْ لفظتْهُ الأرْضُ، فقالُوا: هذا فعْلُ محمدٍ وأصْحابه، نبشُوا عنْ صاحبنا لما هرب منْهُمْ فألْقوْهُ، فحفرُوا لهُ وأعْمقُوا لهُ في الأرْض ما استطاعُوا، فأصبح وقدْ لفظتْهُ الأرْضُ، فعلمُوا: أنهُ ليْس منْ النَّاس، فألْقوْهُ. (صحيح البخاري ٣٦١٧).

التخريج:

هذا الحديث متفق عليه، وقد تقدم تخريجه وشرحه تفصيلاً في العدد السابق، وفيما يتعلق بفوائد الحديث تتقدم بيان فائدتين هما:

Upload by: altawhedmag.com

١- أن الابتلاء سُنّة من سُنَن الله عز وجل.

٢- وأن الله -تبارك اسمه وتعالى شأنه- ناصر دينه ومنتقم لنبيه لا محالة، ثم بينّا حكم السبّ ومناطه، وأنه أشد من الردة، وبيّنا كذلك أن هذه الأحكام النظرية يتولى إقامة حدودها العملية ولي أمر المسلمين، ولا تُترك لعوامهم؛ وذلك صيانة للمجتمع المسلم من الفوضى.

ثم ها نحن اليوم نستكمل مما ييسره الله تبارك وتعالى ويفتح به.

ومما يستفاد من الحديث أيضًا

٣- وجوب الحذر من الفتن خوفًا من النكوص:

إذ في أخبار الناكصين على أعقابهم عبر للمعتبرين، وآيات للمتعظين. قال الحق سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة النور: ٦٣). وهاء الغائب عائدة على خاتم الأنبياء والمرسلين، وأمره أمرٌ من رب العالمين.

وما أخبار هذين الرجلين الناكصين المفتونين عنا ببعيدة؛ فقد آمنا بالنبي صلى الله عليه وسلم وشاهداه، وحضرا تنزّل الوحي، فسبق عليهما -بما قدّما- الكتاب فنكصا على عقبيهما، وارتدّا عن إيمانهما، وماتا على ردتهما، نعوذ بالله تعالى من الردى بعد الهدى. فلا يغترّ عاملٌ بعمله فيظن أنه في مأمن ومنجاة؛ فما أضعف الإنسان إذا تسلط عليه الشيطان، فاستبدل الكفر بالإيمان!.

أما أحدهما: فكان قارئًا للقرآن، كاتبًا للوحي، قد شرّفه النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المهمة الجليلة، ولكنّه لم يكن أهلاً للعز والشرف، وخبره يرويه أنس بن مالك رضي اللّه عنْه كما تقدم في حديث الشهر سالف الذكر.

وأما الآخر: فربيعة بن أمية الجمحي، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم، ثم شرب الخمر في خلافة عمر رضي الله عنه، فهرب خوفًا من إقامة الحد عليه إلى الشام، ثم لحق بالروم فتنصر.

أكرمه النبي صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه، فكان معه في حجة الوداع يلقي على الناس خطابات النبي صلى الله عليه وسلم لهم؛ كما روى عبّاد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم قال: «كان ربيعة بن أمية بن خلف الجمحيّ هو الذي يصرخ يوم عرفة تحت لبة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اصرخ، وكان صيتًا، أيها الناس، أتدرون أي شهر هذا؟ فصرخ، فقالوا: نعم، الشهر الحرام، قال: فإن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا» (رواه الطبراني وصححه ابن خزيمة).

ورغم هذه الكرامة التي اختُص بها من النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنه وقع في المعصية زمن عمر رضي الله عنه، وشرب الخمر، فكان ذلك سبب ردته، وهذا يبيّن خطر الكبائر والموبقات على العبد، فسبحان مُقلّب القلوب، تقلب قلبه بمعصية قادته إلى الكفر وهو لا يشعر، وقد قيل في الخمر: إنها أُم الخبائث؛ لأنها تجمع الشر لشاربها، وتُزيّن له سوء عمله وذلك بتغطية عقله، فإذا غطى عقله بالخمر تغطّى قلبه بالران فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه.

وللنكوص أسباب كثيرة، وقد يحدث لأهون الأسباب؛ لشبهة أو شهوة.

هذا ولا شك أن من أعظم أسباب الفتن التي يموج فيها المسلمون اليوم وما يلاقونه في مشارقها ومغاربها من قتل وتشريد وتخويف وتهديد لا شك أن من أعظم أسباب ذلك: مخالفة الأمر النبوي الكريم واتباع الهوى.

إن قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة النور: ٦٣). تهديد صريح للذين يخالفون أمره، أي سبيله وسنته وشريعته ليحذرْ أولئك. وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا وظاهرًا أن تصيبه فتنة يزيغ بها قلبه ويلتبس عليه بها شأنه فيصيبه في الدارين عذاب أليم.

ذكر الإمام الشاطبي رحمه الله (في كتاب

Upload by: altawhedmag.com

الاعتصام ج١ ص٩٩) قال: حكى ابن العربي عن الزبير بن بكار، قال: "سمعت مالك بن أنس، وأتاه رجل، فقال: يا أبا عبد الله! من أين أحرم؟ قال: من ذي الحُليفة، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد. فقال: لا تفعل. قال: فإني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل. قال: فإني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل؛ فإني أخشى عليك الفتنة. فقال: وأي فتنة هذه؟! إنما هي أميال أزيدها. قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم! إني سمعت الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة النور: ٦٣).

ثم قال الشاطبي: "وهذه الفتنة التي ذكرها مالك رحمه الله في تفسير الآية هي شأن أهل البدع وقاعدتهم التي يؤسسون عليها بنيانهم، فإنهم يرون أن ما ذكره الله في كتابه وما سنّه نبيه صلى الله عليه وسلم دون ما اهتدوا إليه بعقولهم".

هذا هو لازم فعلهم وقولهم، وان لم يصرّحوا به تصريحًا، والابتداع والزيغ عن الصراط المستقيم هو من تلك الفتن التي قد تصيب من يخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٥).

قلت: فما بالنا اليوم وقد جعل القوم أنفسهم ندًا لرسول الله، وهذا على أقل وصف وتقدير وإلا فالأمر أعظم والحال جدّ خطير.

فنعوذ بالله تعالى من الحور بعد الكور، ويا مُقلّب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٨).

٤- تعظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته:

ومن أهم ما يُستفاد أن ينمّي المرء في قلبه تعظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته: وذلك بالأخذ بأسباب ذلك ورعاية مظاهره. ومنه:

أ- تجريد التوحيد لله سبحانه وتحقيق العبودية: إذ هي دعوة الأنبياء عمومًا وتمام دعوة خاتم الأنبياء خصوصًا: إذ لا يصلح للعبد شأن لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا تستقيم للأمم أحوال في صغيرها ولا في كبيرها إلا بتجريد التوحيد وتحقيق العبودية.

والعاقل من أدرك أنه واقع تحت القدرة وأنه خُلق بحكمة ولحكمة، ومن وقع تحت القدرة كان عبدًا شاء أم أبى، فلا يصلح من خُلق عبدًا أن يكون غير هذا، ولو حاول أو أراد لصار سلعة كاسدة.

وعلى أيّ حال فالأمر كما قال أهل العلم: العبودية نوعان: عبودية قهر واجبار، وعبودية انقياد واختيار، وكما قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب العبودية: "المخلوقون كلهم عبادُ الله: الأبرار منهم والفجار، والمؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار: إذ هو ربهم كلهم ومليكهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته.. فهو سبحانه ربّ العالمين وخالقهم ورازقهم، ومُحييهم ومميتهم.. سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه، لكنّ أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك وآمنوا به: بخلاف من كان جاهلاً بذلك: أو جاحدًا له مستكبرًا على ربه" (ينظر كتاب العبودية ص: ٥٠ - ٥١).

والله تبارك وتعالى لما خيّر الجماد فعرض عليه العبوديتين: اختار الجماد عبودية الطاعة والانقياد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (سورة فصلت: ١١).

هذا وللعبودية قانون معروف يعرفه أهل العلم والتقى خلاصته أن لا يُحرّك العبدُ ساكنًا ولا يُسكّن متحركًا بغير إذن مولاه، وهذا شأن العبد الوفي، ولا يتأتى ذلك إلا بمحبة ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم بأبي هو وأمي.

وهذا يجرنا إلى لازم من لوازم هذا التوحيد وهذه العبودية، ودليل من دلائل محبة النبي وتعظيم قدره: ألا وهو متابعة الحبيب عليه الصلاة والسلام، ويختصرها الإمام العلم سفيان

Upload by: altawhedmag.com

الثوري بقوله: "إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل" (ذكره الخطيب رحمه الله في الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع). وهذا باب واسع نختصر منه ما يكفي من إشارة وهي ثاني الفوائد.

٥- من أهم وأكثر علامات محبة النبي صلى الله عليه وسلم: متابعته والاقتداء به:

قال القاضي عياض - رحمه الله - في كتابه "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" في بيان علامات محبته صلى الله عليه وسلم: "اعلم أنّ من أحبّ شيئاً آثره وآثر موافقته، والا لم يكن صادقاً في حبه، وكان مدّعياً. فالصادق في حب النبي -صلى الله عليه وسلم- من تظهر علامة ذلك عليه، وأولها الاقتداء به، واستعمال سُنّته، واتباع أقواله وأفعاله، والتأدب بآدابه في عُسْره ويُسره، ومنشطه ومكرهه. وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١)" انتهى.

تعصي الإله وأنت تزعم حبه

هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته

إن المحب لمن يحب مطيع

آيات وأحاديث أفعال وأقوال كلها ناطقة شاهدة بما سبق بيانه ووضح برهانه: أنّ من وحّد الله أحبه، ومن أحبه أحبّ النبيّ، ومن أحبّ النبيّ أطاعه، ومن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه فقد أبى. قال رسول الله النبي صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ أمّتي يدْخُلون الجنّة إلا مَن أبى. قالوا: يا رسول الله، ومَن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنّة، ومَن عصاني فقدْ أبى" (صحيح البخاري: ٧٢٨٠).

ولذا يتضح أن من أشد الخطر ما يجاهر به نابتة من المعاصرين ممن تجرؤوا على هدي النبي الأمين وأصحابه الغُرّ الميامين تجرؤوا بجهل أو عن عمد مقلدين لدعاوى قديمة حديثة لا يخفى قديمها على أقل مطلع على كتب جهلة المتعالمين كما لا يخفى حديثها بأقل متابعة لقنوات فضائية ونُصب إعلامية مجهولة الهوية سعى أصحابها إلى أكل العيش فأكلوه سحتًا على حساب لحوم ودماء الأولياء والصالحين بل ولا أبالغ إن قلت: أكلوه بظاهر معاداتهم لرب العالمين، غرهم بذلك حلم الحليم، لكنه إذا أوعد أنفذ، وإذا أخذ لا يُفلت: فأخذه أخذ عزيز مقتدر، نسوا أو جهلوا أنهم تحت القدرة مذلولين شاءوا أم أبوا، جهلوا أو تجاهلوا أن مظاهر الاستكبار- التي تتبدى على كلامهم عن متابعته صلى الله عليه وسلم هي أعظم إثمًا من أعمال ظاهرة خالية عن هذا الفجور كالقتل والزنا وإن كانت كبائر مستبشعة وآثامًا فتاكة، لكن بقي إثم هؤلاء المتفرنجين المتعالمين المتجرئين على قدسية الشريعة ومقام النبوة أشد من هذه الكبائر خطرًا، وأعظم من هذه المستبشعات فتكًا، فيا أهل القبلة! حنانيكم بأنفسكم: فلا تزال بارقة الأمل تملأ قلوبنا بعودتكم إلى رشدكم والله متم نوره ولو كره الكافرون.

هذا وأفضل تقدير لحال هؤلاء هو جهلهم بمفهوم الحرية التي يزعمون وفي محرابها يتعبدون وعليها يقاتلون، وعليه فإننا نقول لهم: يا أيها الناس! إن الاسلام هو الداعي الأول والراعي الأصدق لمفهوم الحرية على وجهها الصحيح التي منحها الرب جل وعلا لعباده والتاريخ ودواوين الإسلام شاهدة على هذا، وليس ثمة وقت لبسطها، فليرجع إليها تكرمًا في مظانها.

لكننا لا يسعنا الآن إلا البيان والإعلان أن التحاكم إلى سُنة النبي عليه الصلاة والسلام ليس أمرًا اختياريًا بل هو لازم من لوازم الإيمان كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء:٦٥)، ويقول سبحانه: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (النساء: ٥٩).

وفي هذا القدر كفاية، وللحديث حلقة أخيرة بعد عناء اختصار يناسب مجلتنا المباركة، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



بين الادعاء والصدق في محبَّة خير الخلق صلى الله عليه وسلم

الحلقة الثالثة والأخيرة

إعداد:
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله الذي زين قلوب أوليائه بمحبة رسوله وألزم قلوب المحبين باتباع شرعه، وصلاة وسلامًا دائمين على عبده ورسوله وصفيه من خلقه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه، وبعد:

فقد بدأنا في شهر ربيع الآخر شرح حديث صحيح من دلائل الإعجاز النبوي وكان اختياره مناسبة لما بدا من شرذمة حاقدة جاهلة على من أرسله الله رحمة لها ولغيرها من العالمين وكانت المساهمة بيانًا لبعض حقوقه صلى الله عليه وسلم وبشرى بانتقام الله له، ثم خُتم الرحيق ببعض مواقف من محبة أصحابه له.

هذا، واستكمالاً لما سبق نقول وبالله تعالى التوفيق:

الحديث:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ، وَقَرَأَ البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا، فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ، نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَعَلِمُوا: أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ، فَأَلْقَوْهُ. (صحيح البخاري: ٣٦١٧).

التخريج: هذا الحديث متفق عليه، وقد تقدم تخريجه وشرحه تفصيلاً في الحلقة الأولى في شهر ربيع الآخر، وفيما يتعلق بفوائد الحديث تقدم في الحلقتين السابقتين بيان ما يلي:

- أن الابتلاء سنة من سنن الله عز وجل.
- وأن الله -تبارك اسمه وتعالى شأنه- ناصرٌ دينه ومُنتقم لنبيه لا محالة.
- ثم بيّنا حُكم السَبّ ومناطه، وأنه أشد من الردة وبينا كذلك أن هذه الأحكام النظرية يتولى إقامة حدودها العملية ولي أمر المسلمين، ولا يُترك لعوامهم؛ وذلك صيانة للمجتمع المسلم من الفوضى.
- وبيّنا كذلك وجوب الحذر من الفتن خوفًا من

Upload by: altawhedmag.com

النكوص.

إذ في أخبار الناكصين على أعقابهم عبر للمعتبرين، وآيات للمتعظين، كما قال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣).

- ثم دللنا على وجوب تعظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم واجتهاد العبد في تنمية ذلك في قلبه. فليراجع جميعه تفضلاً.

ثم ها نحن اليوم نختم بما ييسره الله تبارك وتعالى، ويفتح به من بيان: دورنا تجاه هذه المحنة، ثم يكون مسك الختام بذكر نماذج من محبة سلفنا الكرام لنبينا عليه الصلاة والسلام.

ومما يستفاد من الحديث استكمالاً لما سبق:

أولاً: وجوب محبة النبي صلى الله عليه وسلم والدفاع عنه:

ودلالتها من الحديث هي محبّة الله ونصرته له صلى الله عليه وسلم والتي توجب على الخلق محبته. ومكنون في صدور المؤمنين أنّ حُبّ النبي هو أسمى العلاقات، وأرفع المقامات، وهو سلوة الفؤاد وهو إخلاص وصفاء ونقاء، نعم.. وبحبه تُغفر الزلات وتُقال العثرات وتُرفع الدرجات، ودليل ذلك ما ثبت أنه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! متى الساعة؟ قال: «وماذا أعددت لها»؟ قال: لا شيء إلا أني أحبُّ الله ورسولهُ. فقال: «أنت مع مَنْ أحببْتَ». (رواه البخاري: ٣٦٨٨).

وهذه المحبة ليست كما يتفرق المخالفون في خيالات الهوى والآراء من وجْد صوفي أو تصوّر علماني وانما هي محبّة شرعية عقدية منبعها الكتاب والسنة. لذا فإننا نقول: لا شك أن محبته صلى الله عليه وسلم والدفاع عن سُنّته واجب حتمي على المؤمنين فلا يختلف في ذلك اثنان ولا ينتطح فيه عنزان. لكنّ الخلاف الواقع في ترجمة هذه المحبّة إلى عمل فلا يقتصر الإيمان على الاعتقاد والادعاء دون العمل. وهو واضح لدى أهل السنة والجماعة من علماء الملة؛ إذ الإيمان قولٌ وعملٌ واعتقادٌ. وعلى هذا فلو توفر الاعتقاد والقول ولا نشك فيه عند عقلاء المؤمنين فهي فطرة فطر الله عليها القلوب فلو توفر هذا وهو واقع فماذا بقي إذن مما وجب؟ نقول: بقي الشرط الثالث وهو العمل بهذه المحبة يا عباد الله: فالمحبة ليست نافلة بل هي فريضة واجبة.

عن عبد الله بن هشام قال: "كُنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو آخذٌ بيد عُمر بن الخطّاب، فقال له عُمر: يا رسول الله، لأنْتَ أحبُّ إليَّ من كُلّ شيء إلا من نفسي، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: لا، والذي نفسي بيده، حتّى أكون أحبّ إليك من نفسك فقال له عُمر: فإنّه الآن، والله، لأنْتَ أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: الآن يا عُمر». (رواه البخاري: ٦٦٣٢). وبذلك يُعلم أن محبته صلى الله عليه وسلم أصلٌ من أصول الدين.

ثانيا: دلائل محبة النبي صلى الله عليه وسلم:

فإن كانت المحبة واجبة فهي تحتاج إلى برهان يدل عليها، ومن ذلك:

١- أن الله أمر بتعزيره وتوقيره قال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ (الفتح: ٩).

قال شيخ الاسلام رحمه الله: "التعزير اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه، والتوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار" (الصارم المسلول: ص٤٢٢).

هذا وقد رتّب الله تعالى الفلاح العام في الدنيا والآخرة على من حقّق هذا الأدب تجاه النبي الكريم وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧). وعليه فقد علم وجوب تعظيمه وتوقيره ولا يكون إلا من مُحبّ. (ينظر: المنهاج في شعب الايمان للحليمي، ص٤٢٢).

٢- ومن أهم دلائل محبّته صلى الله عليه وسلم:

- أن نُحقّق محبّته اعتقادًا وقولاً وعملاً كما أسلفنا، ثم نقدّمها على محبة النفس والولد والناس أجمعين. كما جاء في حديث عمر السابق. وكذلك يقول الله -تعالى-: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ

Upload by: altawhedmag.com

تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ (التوبة: ٢٤).

يقول القاضي عياض عن هذه الآية: "فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها -صلى الله عليه وسلم-؛ إذ قرع -سبحانه- من كان ماله وأهله وولده أحبّ إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله -تعالى-: (فتربّصوا حتّى يأتي اللّهُ بأمره)، ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله" (الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٨).

وعن أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين" (رواه مسلم: ٤٤).

- ومن أظهر دلائلها الاتباع وتحريم الابتداع قوله صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ" (متفق عليه من حديث أمّنا عائشة رضي الله عنها)؛ فهذا الحديث يحتوي قاعدة من قواعد الإسلام وأصلاً عظيمًا من أصوله، فما خالف أمرنا مردود وما وافقه مقبول، قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم: "وهذا الحديث أصلٌ عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها كما أنّ حديث: الأعمال بالنيّات ميزان للأعمال في باطنها، فكما أنّ كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كلّ عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله، فهو مردودٌ على عامله، وكلّ من أحدث في الدّين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس من الدين في شيء". اهـ

وقال كذلك: "فهذا الحديث يدلّ بمنطوقه على أنّ كلّ عملٍ ليس عليه أمر الشارع، فهو مردود، ويدلّ بمفهومه على أنّ كلّ عمل عليه أمره، فهو غير مردود. والمراد بأمره هاهنا: دينُه وشرعُه، كالمراد بقوله في الرواية الأخرى: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ"، فالمعنى إذًا: أنّ من كان عملُه خارجاً عن الشرع ليس متقيداً بالشرع، فهو مردود". اهـ

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: "وهذا الحديثُ معْدودٌ من أُصول الإسلام، وقاعدةٌ من قواعده، فإنّ معْناه: من اخْترعَ من الدّين ما لا يشْهدُ له أصلٌ من أُصوله فلا يلْتفتُ إليه".

وقال النّوويُّ (في شرحه لصحيح مسلم): "هذا الحديثُ مما ينْبغي حفْظُهُ واسْتعْمالُهُ في إبْطال المُنْكرات وإشاعة الاسْتدْلال به كذلك". اهـ.

وقبل السنة الكتاب وكله يهدي لما أسلفنا، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الحشر: ٧). وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ (النور: ٥٤)، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠). وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣١-٣٢).

ثالثًا: نماذج من مواقف الصحابة رضوان الله عليهم تبين محبتهم له:

وأولها العملي: فهي مواقف عملية لذلكم الجيل الفريد أثبتوا بها أن الإيمان بالنبيّ ومحبته أصل عظيم في قلوبهم عبّروا عنه بألسنتهم ودلّلوا عليه بجوارحهم:

- فهذا أبو أيوب الأنصاري: رضي الله عنه لما نزل عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، فنزل النبيّ صلى الله عليه وسلم في السُّفل، وأبو أيوب في العلو، قال: فانتبه أبو أيوب ليلة، فقال: نمشي فوق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنحوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم -أي: كلمه في أن يصعد إلى العلو-، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: السُّفل أرفق، فقال: لا أعلو سقيفة أنت تحتها، فتحول النبيّ صلى الله عليه وسلم في العُلوّ، وأبو أيوب في السُّفل، فكان يصنعُ للنبيّ صلى الله عليه وسلم طعامًا فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه فيتتبّعُ موضع أصابعه، فصنع له طعامًا فيه ثوم، فلما ردّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقيل له: لم يأكل، ففزع وصعد إليه، فقال: أحرامٌ هو؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: لا ولكنّي أكرهه، قال: فإنّي

Upload by: altawhedmag.com

أكرهُ ما تكرهُ، أو ما كرهت. قال: وكانَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يؤتى -يعني: يُوحى إليه-. (مسلم ٢٠٥٣) وفعل أبي أيوب تضمّن محبة وتوقيرًا واتباعًا وايثارًا.

- بل حتى في مباحاتهم مما هو جبلي كالمطعوم والمشروب تشكّلت طبائعهم بطبعه صلى الله عليه وسلم محبةً له: فهذا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما لما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "نعم الإدام الخل، قال جابر: أخذ رسولُ الله بيدي ذات يوم إلى منزله، فأخرج إليه فلقًا من خُبز، فقال: ما من أُدم؟ فقالوا: لا إلا شيءٌ من خل، قال: فإنّ الخلّ نعم الأُدم. قال جابر: فما زلتُ أحبُّ الخلّ مُنذُ سمعتُها من نبيِّ الله. وقال طلحة: ما زلتُ أحبُّ الخلّ مُنذُ سمعتُها من جابر. (رواه مسلم ٢٠٥٢)، ومنه الكثير في كتب السنة فليراجع تفضلاً.

- ونماذج قولية: أما عن أقوالهم المعبّرة عن مكنون صدورهم فحدّث ولا حرج، يعجز المرء أمامها كأنهم ليسوا من بني آدم مع أنهم قبل إسلامهم لم يكونوا على شيء بل كانوا ضُلالاً فهداهم الله بصدقهم.

- فهذا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول للعباس: "يا عباسُ والله لإسلامُك يوم أسلمت أحبُّ إليَّ من إسلام أبي لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفتُ أنَّ إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم من إسلام الخطاب" (جزء من حديث في المسند ٢٣٩٢، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في قصة إسلام أبي سفيان يوم فتح مكة).

- وهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: "وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم، ولا أجلّ في عيني منه، وما كُنتُ أطيقُ أنْ أملأ عينيَّ منه إجلالاً له، ولو سُئلتُ أنْ أصفهُ ما أطقتُ؛ لأني لم أكُنْ أملأُ عينيَّ منه" (رواه مسلم: ١٢١).

- وسئل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟، قال: "كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ" (الشفا: ٢/ ٥٦٨)

- وسأل أبو سفيان بن حرب -وهو على الشرك حينذاك- زيد بن الدثنة رضي الله عنه حينما أخرجه أهل مكة من الحرم ليقتلوه -وكان قد أسر يوم الرجيع- أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وانك في أهلك؟، قال: "والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي". فقال أبو سفيان: "ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحُب أصحاب محمد محمدًا" (البداية لابن كثير ٤/ ٦٥، وأخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٣٢٦، ولكن في أمر خُبيب).

وما أجمل ما قاله قيس بن صرمة الأنصاري:

نُعادي الذي عادى من الناس كُلهم
جميعًا وإن كان الحبيب المصافيا
بذلنا له الأموال من جُل مالنا
وأنفُسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلمُ أنَّ اللهَ لا شيء مثلهُ
وأنَّ كتاب اللهِ أصبح هاديا

(روضة المحبين لابن القيم رحمه الله: ص٢٧٧).

والحمد لله أولاً وآخرًا.

Upload by: altawhedmag.com



الرضا بالقضاء والقدر عبادة وسعادة

الحلقة الثانية

إعداد:
د. مرزوق محمد مرزوق



الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين؛ سيدنا محمد رسول الله وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه ومن والاهم إلى يوم الدين.

وبعد: فلقد بدأنا في شرح حديث صهيب رضي الله عنه في شهر سابق، ولأهمية الحديث وما يتعلق من أحوال تمر بها البلاد ويحتاج إليها العباد رأيت استكماله مختصرًا بما لا يورث الكلام ملالاً، ولا يبتر الفوائد خللاً، وبما يُرجى أجره اتباعًا ويُتقى وزره هوى مطاعًا، والله المستعان.

الحديث:

عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ".

التخريج:

صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم: ٥٤٥٢.

معنى الحديث مختصرًا للفائدة؛ إذ قد تقدّم شرحه مفصلاً فليراجع تفضلاً:

كل حال المؤمن خير؛ فهو سعيد في كل أحواله؛ إذ هو في جميعها مأجور، في سرائه وضرائه، فالمؤمن يتردد بين هذا وذاك، وذلك اتباعًا لما وصف للمؤمنين على لسان خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم؛ فالله عز وجل يقيّض له من الأسباب ما يحصل له بها في ذنوبه تكفيرًا ووضعًا، وفي درجاته سموًا ورفعة، وكله من الرحمن فضلاً، سواء كان ذلك مما يُجريه عليه رب العزة من أمور سارة تستوجب لله شكرًا أو من أمور

Upload by: altawhedmag.com

ظاهرها بلاء يستوجب من العبد صبرًا، ولهذا ذكر النبي المؤمن؛ إذ هو الذي من شأنه أن يؤدي عبادة الشكر والصبر، فهو يعرف نعمه عليه وفي جميع أحواله يلتجئ إليه، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن بخلاف غير المؤمن فهو جحود إذا رُزق بنعمة جذوع إذا ابتلي ببلية؛ فلا يزال في بُعده وغيه واعراضه وكفره؛ فالحمد لله على نعمة الاسلام. (ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم، فتح المنعم شرح صحيح مسلم لموسى شاهين لاشين بتصرف في الألفاظ والعبارات).

> المؤمن يؤدي عبادة الشكر والصبر، فهو يعرف نعم الله عليه وفي جميع أحواله يلتجئ إليه.

مما يستفاد من الحديث

أولاً: حُسن الظن بالله:

إنَّ من أهم ما يُستفاد من هذا الحديث المبارك هو حُسن الظن بالله تعالى وهي عبادة قلبية وواجب من واجبات التوحيد الحتمية ولولاها ما رضي العبد بقضاء ربه فلا صبر ولا شكر والناظر لهذه العبادة العظيمة يرى رأي البصير أنها تنقل المؤمن المستنير من غياهب الظلمات والقنوط إلى أنوار العطايا والمنح والفرح فيرى في كل قضاء الله خيرًا، فيشكر على ما كان ظاهره الخير، ويصبر على ما ظاهره الشر، ثم يشكر على هذا الصبر فيكون في كافة أحواله مؤمنًا شاكرًا.

والمتأمل في أحوال المؤمنين في أوقات بلائهم يرى من جميل صبرهم ورفيع إيمانهم ودليله على حسن ظنهم يرى من جميع ذلك عجبًا، ومن ذلك:

١- حُسن ظن فتية الكهف بربهم، واستعلائهم وفرارهم بإيمانهم إلى كهف لم تكن فيه من قبل حياة وعددهم قليل قد لا يزيد على السبعة، والدنيا حولهم كافرة ولهم متنكرة، ثم هم مع هذا ينتظرون من الله ما وعدهم؛ إذ قد قال لهم وقوله الحق: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ (سورة الكهف: ١٦)، فكان التدبير من الله بما لا يخطر على قلب بشر؛ حيث لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا، ثم يقومون فيجدون أنفسهم بين أحفاد مطارديهم مكرمين فسبحان العليم الحكيم. (فلتراجع القصة بتفاصيلها في تفسير سورة الكهف).

٢- حُسن ظنّ نبي الله أيوب بربّه لما صبر على البلاء حتى صار مضرب المثل في الصبر؛ صبر ثمانية عشر عامًا؛ فقد أهله وماله وصحته وجماله حتى رفضه القريب والبعيد إلا اثنين من خُلص أصحابه كانا يغدوان عليه ويروحان وزوجته وهو مع هذا صابر شاكر (كما رواه ابن حبان وصححه الحاكم عن الزهري عن أنس)، فكان من خبر الاثنين الخُلص أن قال أحدهما للآخر في يوم من الأيام: "ما أرى إلا أن أيوب أذنب ذنبًا عظيمًا وإلا لكُشف عنه هذا البلاء"؛ فقال أيوب: لا أدري ما تقولان، غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع الى بيتي فأكفّر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق.. إلى آخر القصة". (وكذا أورده العلامة الألباني في الصحيحة)؛ فلم يشغله مرضه عن حُسن ظنّه بربّه وصبره، فيكفّر ليس عن نفسه بل عن غيره؛ كراهة أن يُحنث في اسم الله العظيم.

ومن قصص السلف ما يمتلئ بهذا بيانًا

Upload by: altawhedmag.com

ويدلل ببيانه على إيمانه؛ فلا يتسع المقام لذكره؛ فالحمد لله على كل حال.

من أجل هذا كان جُلّ حال هؤلاء السادة شكرًا؛ إذ هم تجاه قدر ربهم شاكرين لما ظاهره نعمة أو صابرين شاكرين لما غير ذلك؛ لعلمهم أن قضاء الله كله خير فهنيئًا لهم.

لذا كان من أحوالنا ما يستوجب وقفة تستدعي حُسن ظن بالله لوعده لنا فيستوجب هذا الفهم شكرًا أمر به شرعنا وتعلمناه من أسلافنا، هذا الشكر لا نحتاج فيه إلى الخضر في كل موقف يصحبنا ليفسره لنا ولا لكل قضاء ظاهره مشكل علينا فيشرحه لنا، وهذا هو التسليم الواجب. (ينظر: مدارج السالكين للعلامة ابن القيم رحمه الله، منزلة الصبر ٢ج ص١٥٢).

ومما يستفاد كذلك من الحديث إجمالاً غير ما سبق بيانه:

١- الحث على الإيمان الذي من شأنه سعادة الدارين وخيرهما؛ إذ الإيمان يحمل صاحبه على حميد الأخلاق يتقلب بين مقام الشكر في السراء، ومقام الصبر في الضراء، وهو في كلتا الحالتين كاسبٌ للخير ثم هو على يقين من ربه أن بعد العسر يسرًا، وبعد الشدة فرجًا، وما عليه في ذلك إلا شرط الإيمان قلبًا وقالبًا.

٢- شكر المسلم لا يتوقف عند حدّ الأقوال، وإنما يكون مترجمًا إلى أفعال، فهو يفعل بنعم الله خيرًا، يقوم بحق هذه النعمة من لهج لسانه بالذكر والشكر ثم طاعة الله في ذات النعمة بالقيام بحق الله فيها؛ فلما كان الشكر إيمانًا فقد استوجب القول والعمل والاعتقاد.

> **توفيق الله للعبد للشكر سبب لزيادة النعمة، وتوفيقه للصبر سبب لتفريج الكربة.**

٣- وأما غير المؤمن والعياذ بالله فهو لا شاكر ولا صابر، بل جاحد أو متضجر كافر، في كل أموره على شر، فإن أصابته ضراء لم يصبر وإن أصابته سراء لم يشكر المنعم، وصرف ما لله من حق العبادة لغيره، فعبدوا الطبيعة والبهيمة والصنم والفأرة وعبدوا الهوى والشيطان، فصار بذلك عن ذكر ربه معرضًا يعيش بسبب إعراضه دنياه ضنكًا ثم هو في أخراه أعمى ينسى قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (سورة طه: ١٢٤-١٢٦).

٤- الشكر والصبر من خصال الإيمان، وإن شئت فقل: الدين شكر وصبر كما قاله ابن القيم، وما عدا ذلك خارج عن الإيمان، وتوفيق الله للعبد للشكر سبب لزيادة النعمة، وتوفيقه للصبر سبب لتفريج الكربة، وبعد ذلك فهذه وتلك نعم تحتاج هي الأخرى إلى عبودية الشكر، وهكذا يحتاج الشكر لشكر فيعيش المؤمن متقلبًا في نعم الله أبدًا، وليس ذلك إلا للمؤمن. (ينظر: مدارج السالكين- منزلة الشكر ج٢ ص٢٣٣، وكذلك: الدرر السنية لعلوي السقاف).

همسة هي الخاتمة:

إن إنعام الله علينا وهدايته لنا إلى طريق العلم النافع والتوحيد الخالص والمنهج الصحيح كل ذلك يستوجب بذله شكرًا، والقيام بوظائفه عملاً، وإلا كان حُجّة علينا

Upload by: altawhedmag.com

لا لنا؛ فتفضل الله علينا من وضوح الطريق نعمة تستوجب شكرها لتقييدها تستوجب تواضعًا وانكار ذات، وعبادة ودعوة ودعاء وتضرعًا، فلا يغرّن العامل عمله، ولا يغلبن الجاهل هواه، وذلك خلافًا لمن كانت قبلته طريقته يترك بها دينه وعراه متبعًا شيخه وشهوته، ثم هو لجهلاء متبعيه مضللاً وعلى ألسنتهم يوصف واصلاً، ولعريهم وكشف عوراتهم يكون مكرمًا وليس ما كتبه الشعراني الصوفي الضال عن المنصفين ببعيد فليطلع على بعضه في كتابه كرامات الأولياء ليحذر ويحذر منه.

وليس أدل على صحيح شريعتنا شريعة الإسلام وبطلان طريقتهم طريقة غير الفاهمين ليس أدل على ذلك من هدي سيد المتعبدين صلى الله عليه وسلم؛ لما غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقوم حتى تتورم قدماه لربه على النعمة شكرًا وعلى مشقة الوقوف صبرًا؛ فعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أن النبي كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا" (متفق عليه).

> "إنعام الله علينا وهدايته لنا إلى طريق العلم النافع والتوحيد الخالص والمنهج الصحيح كل ذلك يستوجب بذله شكرا، والقيام بوظائفه عملا."

هذا وفي كل قضاء الله خير؛ ففي بلاء العالم بهذا المرض المستحدث خير للمؤمنين على ما كان من فقد حبيب يكون إن شاء الله بنيته وعقيدته واقتدائه من رسوله بسنته يكون إن شاء الله شهيدًا؛ فسبحان الله لقد أنفق الدعاة إلى الله أعمارهم وأعمالهم يدعون إليه، ويدلون الناس عليه وهذا منهم معروف يُذكر ليشكر، وشكرنا لهم يكون دعاء، والله تبارك تعالى يعلم ويرى؛ فجزاهم الله خيرًا، غير أننا بعد ذلك نعتبر بمخلوق لا يُرى، ولا تكمل أركان كينونته كائنًا حيًا فيوصف أنه مادة نووية لا عقل لها ملفوفة في غلاف كما قال أهل التخصص، فسبحان القوي الشديد الفعّال لما يريد قال في محكم التنزيل ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣).

وفي هذا القدر الكفاية، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

Upload by: altawhedmag.com



Upload by: altawhedmag.com



باب السنة

الحلقة 1

أخلاق المسلمين وحاجة العالم إليها

إعداد: د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد خلق الخلق لتوحيد رب البرايا، ثم رتب عليه ما يكون من شرائع وشعائر وكريم السجايا ،ثم الصلاة والسلام على المبعوث للخلق قدوة وهداية، وبعد :

أولا : الحديث :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إنما بعثت لأتمم مكارم (و في رواية صالح) الأخلاق .

ثانيا : تخريج الحديث والحكم عليه :

(صحيح) صححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" ١/ ٧٥: قال :

(رواه البخاري في " الأدب المفرد " رقم (٢٧٣) ، وابن سعد في " الطبقات "(١/ ١٩٢) ، والحاكم (٢/ ٦١٣) ، وأحمد (٢/ ٣١٨) ، وابن عساكر في" تاريخ دمشق " (٦/ ٢٦٧ / ١) من طريق ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا.

وهذا إسناد حسن ، وقال الحاكم: " صحيح على شرط مسلم " ، و وافقه الذهبي.

وابن عجلان ، إنما أخرج له مسلم مقرونا بغيره.

ثالثا : شرح الحديث :

كانت العربُ تتخلَّقُ ببعضِ من محاسنِ الأخلاقِ بما بقي عندهم من شريعة إبراهيم عليه السَّلامُ وظلوا على بعضها ، غير أنهم قد ضلُّوا بالكفرِ عن كثيرٍ منها؛ فبُعثَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليعيد الناس لأصل خلقتهم فطرة ثم يتمم مكارمها صلاحًا ، وهذا بنص حديثنا الشريف :

يقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّما بُعثْتُ"، أي: أرسلتُ للخلقِ، "لأتمِّمَ"، أي: أكمِّلَ ما انتقصَ، "مكارمَ الأخلاقِ"، أي: الأخلاقَ الحسنةَ والأفعالَ المستحسنةَ التي جبلَ اللهُ عليها عبادَه؛ من توجيه العبوديةِ لله وما يترتب عليها من العلم اعتقادًا وعملاً شرائع وشعائر ،

Upload by: altawhedmag.com

فينمى حسنها نماء يأمر به ، ويمنع سيئها منعًا ينهى عنه .(وينظر : الموسوعة الحديثية بالدرر السنية)

رابعا : مما يستفاد من الحديث :

أولا :الدِّينُ كُلُّهُ خُلُقٌ. فمَنْ زاد عليْكَ في الخُلُقِ زاد عليْكَ في الدِّينِ (قالَه ابن القيم في مدارج السالكين في ماهية الأخلاق ٢/ ٢٩٤).

فقد اتفق الجميع القاصي والداني على دور الأخلاق وفضلها وجميل السجايا ومدحها. فكما يقال: لا يختلف عليه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان اتفقوا جميعًا على ذلك لكنهم على اختلاف قلوبهم وما آمنت وعقولهم وما سلمت اختلفوا في ماهية الأخلاق وتعريفها

فماهي الأخلاق للجواب:

تلخيصًا لمسالك السلف ومباحثهم ثم تقارير الخلف نقول : لا يمكن أن تكون الأخلاق ما تعارف عليه القوم من إعطاء الدنية في الدين أو المعاداة لرب العالمين أو الموالاة لغير المسلمين حتى إذا دخلوا جحر ضب دخل مدعي التخلق وراءهم فأعلن الكثير منهم عن كون التفريط في اتباع الحق - مهما كانت ضوابطه حكيمة ومواعظه حسنة . حتى ولو كان الحق عقيدة احتيج إلى بيانها حين وقتها - أعلنوا أن هذا التفريط إن كان للتقارب مع المخالفين فهو لحسن معاملتهم وجوارهم أو لعدم إحراجهم أو لأي مقصد يحتاج إلى ملاطفتهم أعلنوا

كانت العرب تتخلق ببعض من محاسن الأخلاق بما بقي عندهم من شريعة إبراهيم عليه السلام

أن هذا التفريط هو الأخلاق بزعمهم. وليس أدل على ما قلناه من واقع الناس في هذه الأزمنة الغابرة المتأخرة التي يحياها العالم هذه الأيام وترفعًا عن ضرب الأمثلة الملوثة للأسماع والآذان نقول إجمالًا خُوِّن الأمين وأؤتمن الخائن فتبدلت المبادئ والعقائد وطمست الأدلة والشواهد وصار الرويبضة خطيبًا وأمسى الواعظ غريبًا ولاغرابة فقد صدق الوعد الحق إذ أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم كما في سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : (سيأتي على الناس سنواتٌ خدّاعاتٌ يصدّقُ فيها الكاذبُ ويُكذّبُ فيها الصّادقُ ويُؤتمنُ فيها الخائنُ ويُخوّنُ فيها الأمينُ وينطقُ فيها الرُّوَيْبضةُ قيل وما الرُّوَيْبضةُ قال الرّجلُ التّافهُ يتكلّمُ في أمرِ العامّةِ).

القول الحق :

فالحق الذي عليه الخلق هو ما قرره لهم ربهم وشرعه لهم نبيهم وبلغه عنه أصحابه ومنه رواية أمهم في وصفها لرسولنا وزوجها (كان خلقه القرآن) وأصدق الوصف وصف أقرب المعاشرين وهي زوجة النبي الأمين صلى الله وسلم وبارك عليه ورضي عنها وأصحابه ومن صح نسبه من الآل إليه .

معنى الخلق :

فإن كان الخلق في لغة العرب هو الطَّبع والسجيَّة فهو مرادف للفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة -رضي الله عنه- فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم.

وقال الفيروزآبادي في القاموس المحيط (ص: ٧٩٣) : "الخُلق: بالضم، وبضمتين: السجية والطَّبع، والمروءة والدين".

وقال ابن منظور : الخُلق: بضم اللام وسكونها، وهو الدين والطبع والسجية (لسان العرب (١٠/٨٦) .

وحاصل ما تقدم فالأخلاق هي الدين لغة . ثم بعد ذلك هي الدين شرعا . وبيان ذلك أنه : عند النظر والاستقراء لنصوص الشارع نجد أن الاستخدام الشرعي للفظ "الخُلق" . لم يختلف كثيرًا

Upload by: altawhedmag.com

عن الوضع اللغوي لهذه الكلمة.

- فمن الكتاب : قوله تعالى على لسان قوم هود:

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٧)

"قال في كتاب (روح المعاني) : أي: ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا عادة الأولين الذين تقدمونا من الآباء وغيرهم) (١٦٧/١١).

وقال القرطبي أي : دين الأولين فخُلُق الأولين هنا بمعنى دينهم وعادتهم وأخلاقهم ومذهبهم. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه وقتادة والفراء وابن الأعرابي ومحمد بن يزيد وغيرهم (ينظر : الجامع لأحكام القرآن: (١٣: ١٢٥، ١٢٦)).

وكذلك قوله تعالى ذكره مخاطبا عبده ورسوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

قال الطبري رحمه الله (٢٩/٢٤): "يقول - تعالى ذكره - لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم: وانك يا محمد، لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدّبه به، وهو الإسلام وشرائعه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل".

وكذا عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد والضحاك قولهم في تفسير: (خُلُقٍ عظيم): أي: دين عظيم، وهو الإسلام.

يتفق المعنى اللغوي مع المفهوم الشرعي مع الإطلاق الاصطلاحي أن الأخلاق هي الدين فمن زاد في الخلق زاد في الدين

- ومن السُّنَّة المطهَّرة، فقد استخدمت لفظة الخُلُق كثيرًا: ومن ذلك قول عائشة رضي الله عنها في وصف خُلُق الرسول صلى الله عليه وسلم: ((كان خُلُقه القرآن)) [صحيح الجامع ٤٨١١]: أي: متمسّكا بالقرآن وبآدابه، وأوامره ونواهيه، وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف. (أفاده السندي الامام محمد بن عبدالهادي في حاشيته على النسائي ج٣ ص ٢٠٠)

- وفي رواية ذكرها الطحاوي رحمه الله في (مشكل الآثار (٤٤٣١): «كان خلقه القرآن: يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه يرضى برضاه ويسخط بسخطه».

ومن هذا فقد تآلف المعنى اللغوي مع المفهوم الشرعي حين يعبّر حُسْن الخُلُق عن الالتزام بالآداب الشرعية الصادرة عن الأحكام القرآنية والتعاليم المنيرة النبوية. ثم ينضاف إليهما ثالث المعاني وتمام المباني وهو معنى الخلق اصطلاحًا فنجده متمما لهما مفصلاً لما أجمل أو مبينًا لما أبهم :

إذ تصطلح الأخلاق باعتبارين: عام، وخاص :

فمن العام ما ذكره الغزالي في الإحياء (٣/٤٧) حين عرّف الخُلُق بقوله: "الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة".

ومنه فالأفعال الممدوحة من الأخلاق هي الأخلاق المشروعة و الفطرة المرجوة وهي المذكورة في المعاني اللغوية.

أما الإطلاق الأخص فقد زاد الأمر بيانا وعلا بحثه برهانا إذ يطلق على التمسُّك بأحكام الشرع وآدابه فعلاً وتركًا. (و ينظر : أخلاق الحروب الإسلامية في سيرة خير البرية الصادر عن دار اليسر).

- ثم من سيرة الأصحاب : نجد البيان الواضح الجلي من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ومع وضوحه بيانًا يلخص هدف الرسالة المحمدية إجمالًا ، وذلك في قصته يوم أن وقف بين يدي النجاشي مجيبًا ولشبهاته التي ألقاها في ذهنه رسولًا قريش وقف ندا - وقد أرسلتهم قريش في طلب المسلمين من فر بدينه إلى بلاد الحبشة مهاجرا وللنجاشي جارًا - فأجاب جعفر رضي الله عنه ملخصًا للدين وما

Upload by: altawhedmag.com

يأمرهم ربهم وكيف أنه من مساوئ أخلاقهم طهرهم ونهاهم فجعل التوحيد في صدارة الأخلاق ومن أجل معانيها فالتوحيد وإن كان أول العبادات وحاكمها لكنه في النهاية سلوك يعقب اعتقاد.

روى الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح ٣٠١، ٣٠٢/ ١ من حديث أم المؤمنين أم سلمة وقد كانت من المهاجرات الأول إلى الحبشة تقول بعدما ذكرت ما كان من هجرتهم للحبشة وعندما سأل النجاشي جعفر تبين كيف رد جعفر على النجاشي ملخصا البعثة وما دعت إليه قالت: ..... سألهم (أي النجاشي) فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن

التوحيد أساس كل فضيلة ولجام لكل رذيلة ولكل سلوك آثم وقلب غاشم

المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قالت: فعدد عليه أمور الإسلام. انتهى (المسند برقم (١٧٤٠)، هكذا يلخص لنا جعفر الطيار رضى الله عنه دعوة الاسلام التي تبدأ بالتوحيد ثم ما يترتب عليه من عبادة وسلوك وكذلك يلخص لنا ما كان عليه المشركين من الشرك وما يترتب عليه من شعائر شركية وتصرفات عدوانية

معنى ذلك أن هناك تلازما ضروريا وحتميا بين التدين الصحيح والخلق القويم. فالنبي صلى الله عليه وسلم حدد الغاية الأولى من بعثته، والمنهج الأمثل لدعوته، فقال: «ما سلف ذكره (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)

وغير هذه الأدلة كثير للمتتبع لنصوص القرآن، وصحيح السنة، يجد ذلك التلازم الضروري بين الفهم السليم والخلق القويم.

من أجل هذا كان قول شيخ الاسلام ابن القيم رحمه الله يقول في مدارج السالكين: (الدين كُلُّهُ خُلُقٌ. فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الْخُلُقِ زَادَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ) (مدارج السالكين ج٢ص٢٩٤).

هذا وحاصل ما تقدم فإن الخلق ركن ركين من الدين، وبقدر نقص الأخلاق ينقص الدين. وقد روى الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما خطبنا نبي الله صلى الله عليه وسلم إلا قال لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له.

فالإيمان أساس كل فضيلة ولجام لكل رذيلة ولكل سلوك آثم وقلب مرياد غاشم فحقيقة الإيمان حين تسيطر على الذات، تضبط العقائد والعبادات والمناهج والشعائر و المعاملات والشهوات فالمؤمنون الصادقون المخلصون حين يتصلون بربهم يجعلونه مقصودهم وهو الاخلاص ويجعلون نبيهم قدوتهم وهو الإتباع ويجعلون الشرع كله دستورهم منهج حياة فعندئذ تكون محاسن الأخلاق.

وهو ماخسره العالم بأثره يوم أن أعرض عن أخلاق المسلمين.

والحمد لله رب العالمين وللبحث صلة إن شاء الله

Upload by: altawhedmag.com

أثر الصيام على مكارم الأخلاق

إعداد د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله الذي منّ على المسلمين بشهر من أيام الله فجعله مباركًا، ثم تفضل علينا فيه بعبادة الصيام وجعلها من الإسلام ركنًا، وجعل الشهر نفحة من نفحات الدهر والصيام للغفران سببًا، وللجنة طريقًا وبابًا، وعن النار حاجزًا وحجابًا، ثم الصلاة والسلام على خير الأنام صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود، صلى الله وسلم وبارك عليه كما وحد الله عز وجل وعرفنا به ودعا إليه، وبعد فقد ابتدأنا في شهر شعبان شرح حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما بُعثتُ لأتمّم مكارم -وفي رواية: صالح- الأخلاق»، وخرجناه من السلسلة الصحيحة (برقم ٤٥) وغيرها؛ فليراجع تفضلًا.

وكان عنوان الحلقة: (أخلاق المسلمين وحاجة العالم إليها)، وكنت أهدف من ورائها أن أقول لمن تواضع وقرأها إن العالم أجمع -المسلم منهم وغير المسلم- يحتاج إليها أخلاق الإسلام؛ خلافًا لمن يتوارون منه الآن؛ إذ إن أخلاق الإسلام دين منزّل أنزله الذي خلق الخلق مناسبًا لمن خلق (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك: ١٤)، سبحانه يعلم السر في السماوات والأرض، خلق فسوّى وقدّر فهدى، ثم جاء شهرنا السيد المبارك سيد الشهور في الدهور وفيه يرزق الله المسلمين أعمالًا صالحة، ويجعلها بفضله متقبلة.

ومن جميل عادة إخواني خدام دعوة التوحيد في استقباله أنهم يستثمرون شهرهم في إخراج عدد خاص من مجلة التوحيد بأحلى ما عندهم مما يستقبل به الضيف الكريم ويكرم ويستفيد به المسلم من لحظات الشهر وينعم فيرجون به من رب العزة مغفرة ورحمة مما تكرم وأنعم؛ فكنت مثل إخواني خادمًا وبحسن صنيعهم مقتديًا، فتفكرت فيما يناسب شهرنا غير مكرّر لما سطرته أيمانهم السليمة المباركة - سلمت بإذن الله، فوجدت تمام مقالتي عن الأخلاق هي ضالتي المفقودة المنشودة عمومًا، ثم هي في الشهر الفضيل يزداد فضلها وطلبها، خصوصًا إذ هي آثار العبادة من دلائل القبول وشكر الشهر والزيادة قال

Upload by: altawhedmag.com

تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٧).

هذا، وبعدما علمنا أن الأخلاق دين فقد تقرَّر ذلك لغةً وشرعًا واصطلاحًا، وطالما الأمر كذلك أي أنه دين، إذن نعتقد بعد ذلك ما يقرره الدين، وهو: كلّ خُلق لم يدل الهُدى عليه ولم يرشد الدِّين إليه فليس بخُلق؛ لأنه ليس من الدِّين ذلك حتى ولو تواصى به المتواصون أو اعتقده من الخلق الزاعمون فلسفةً وأدبًا، وهذا القرار والاعتقاد حلّ لإشكال قديم حديث خطير؛ إذ به ينطق الرويبضة الزاعمون بأخلاق ليست من أخلاق بني آدم، ما بين دعوة لشهوة أو تقنين لمخالفة وكله عندهم زعمه أخلاقًا ورقيًا أو بمصطلح الزاعمين -ولا أصل له لا في اللغة ولا في الدين- (اتيكيت)، وكلما بالغ المخالفون للإسلام بالمخالفة بُعدًا كلما وصفوهم أنهم أوثق بمصطلحهم صلةً وقربًا (أي أكثر رقيًا بزعمهم)، لذا فقد تقرَّر أن هذا عكس الفطرة التي فطر الله عليها بني الإنسان؛ فالحمد لله الذي كرَّم بني آدم بالمكرمات وفضَّله على كل المخلوقات.

للأخلاق مكانة لا تدانى:

من أجل هذا تكرم الباري في علاه ففرض على بني آدم المكرمات، وجعل التخلق بها من أرفع المقامات وأجلّ العبادات، ووصيتي لنفسي ولإخواني أن يأخذوا من الحديث عنواني ثم يثقلوه ببحثهم وعمق قراءتهم وصحيح فهمهم، فلو سردنا في الأهمية بعض نصوص لفنيت المجلة وما وفينا، ولأسرفنا من وقتكم وما انتهينا، فهذه نُبذ وزُبد للمثال لا للإجمال:

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٣)، ثم بين جزائهم فقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۝٧٥ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٥، ٧٦)

-وقال صلى الله عليه وسلم: «أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا» (مستدرك الحاكم: ٤/٤٤١).

- ورسولنا قدوة للعالم ليسعد؛ إذ خير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم؛ وقد قال الله فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم:٤)؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم متحليًا بكل خُلق كريم، مبتعدًا عن كل وصف ذميم، فكان أرجح الناس عقلًا، وأحسنهم أدبًا، وأوفرهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأكثرهم حياءً، وأوسعهم رحمةً وشفقةً، وأكرمهم نفسًا، وأعلاهم منزلة.. وبالجملة فكل خلق محمود يليق بالإنسان فله صلى الله عليه وسلم منه القسط الأكبر، والحظ الأوفر، وكلّ وصف مذموم فهو أسلم الناس منه، وأبعدهم عنه، شهد له بذلك القاصي والداني، والعدو والصديق. أدَّبه ربّه فأحسن الأدب، وهداه إلى المآرب من الخلق؛ فهو بحقّ الرسول المصطفى والنبي المجتبى قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» (رواه البخاري).

قال القاضي عياض: «وأما الأخلاق المكتسبة من الأخلاق الحميدة، والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها، وتعظيم المتَّصف بالخلق الواحد منها فضلاً عما فوقه، وأثنى الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها، ووصف بعضها بأنه جزء من أجزاء النبوة، وهي السماة بحسن الخُلق، فجميعها قد كانت خُلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم» (الشفا: ١/٩٦).

وشهر رمضان فرصة لتحسين الأخلاق والتعبُّد لله بالتحلي بمكارم الأخلاق؛ إذ قد فتح الله لنا باب طاعة من أسهل العبادات غير أنها من أجل القربات.

إن ربنا غفور يحببنا شرعًا في الجنة، ليبلغنا درجات أسيادنا العابدين فقط باتباع دين سيد المرسلين والتخلق بأخلاق النبي الكريم اللين الرحيم، ويعيننا على اغتنام شهر العبادات والقربات؛ إذ فيه صلاة وصيام وصدقة وقيام وتدريس ومدارسة، وكله تدريب وممارسة للعلم والعبادة؛ فالله الله في شهر الصيام، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

أثر الأخلاق على رقي الأمم

إعداد: أ.د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله رضى الإسلام للمخلوقين دينًا قويمًا. وفتح به من القلوب والعقول والبلدان فتحًا مبينًا، فصارت به حاجة العالم إلى أخلاق المسلمين دينًا يُتَّبع، وأثر العبادة على أخلاق المؤمنين برهانًا يسطع. والثالثة أن الأخلاق أساس للأمم الراقية والحضارات الممتدة الباقية، ثم الصلاة والسلام على خير الورى وأصحابه ومن بهديهم درى، وعلى خطاهم تحرى وجرى. وبعد فقد ابتدأنا في شهر شعبان شرح حديث: عن أبي هريرة رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: "إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ" وفي رواية "صالحَ الأخلاقِ"، وهو صحيح وخرجناه من السلسلة الصحيحة (برقم ٤٥) ومن صحيح الجامع (ح٢٨٣٣)، فليراجع تفضلا. ثم ها هي سطور لخصت فيها ما تفضلت مجلة التوحيد بنشره في شعبان، ثم رمضان فليتكرم مراجعي ومتابعي أن يخلص من المقدمة بعد العنوان إلى ما أسلفنا ثم يصل هذا الثالث الأخير بما قدمنا.

فائدة:

خلاصتها في بدايتها: أننا أمة ذات دين وحضارة ونهضة وأصالة، وعندما خضعت لنا الدنيا كلها لم يكن بسطو سلاح، وانما بتحقيق العبودية وسمو الأرواح: فعاشت المخلوقات والكائنات في ظل الإسلام بعدما عُذبت واحترقت في جور الأديان، وعليه فنهضتنا ليست بالتوجه إلى الغرب والشرق، بل بالقرآن الكريم وسنة النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، ثم هدي السلف واتباع الخلف الصالحين، ومن آزرهم من المسلمين.

ومما يستفاد من الحديث تفصيلاً لما سبق إجماله:

١- الأمم بأخلاقها: واستدلالي بالأدنى ثم الأعلى تدرجًا لفصل الخطاب، وتمام الجواب نذكر:

شهادة الفلاسفة والمتكلمين:

ولن أنقل عن الفلاسفة أصحاب النظريات الأخلاقية تفاصيل أقوالهم فليسوا لنا قدوة ولا مصدر هدى- وان كنت أشير إلى إجماعهم- إذ أجمعوا على أن عامل الأخلاق له الأثر الأكبر في بقاء الأمم أو ذهابها - أنقل هذا الاجماع لمن

Upload by: altawhedmag.com

يقنعه كلام الفلاسفة والمناطقة، ولمن يعجبه كلام الشعراء والحكماء. أقول لله در شاعرنا المسلم الملهم القائل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهو الشاهد أيضا:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم

فأقم عليهم مأتما وعويلا

شهادة التاريخ:

ثم لمن يحتاج إلى براهين التاريخ-وهو شاهد لا يكذب وأفراده للصدق أقرب، فقد ماتوا والحي لا تؤمن عليه الفتنة-، وكما قيل استدلالا بما كان على ما لم يكن؛ فإن الأمور أشباه فلينظر المستدل بالتاريخ إلى أحوال الأمم عمومًا.

قال بعض السلف:" أن الله تأذن لهم بالملك وساقه إليهم وبالعكس من ذلك إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل، وهذا ما حدث في الأندلس وأدى فيما أدى إلى ضياعه"، وغير الأندلس كثير للمتبع لهذه الأخبار

ثم يأتي دليل الإيمان صادق البرهان (الكتاب والسنة)، إن الجواب الساطع الناصع الناصح هو ما قررته الشريعة فضلاً عما أسلفنا - نافلة- من أقوال الفلاسفة وعلماء الكون والطبيعة، فنقول لمن سلمت فطرته ونقت سريرته وكان تصديقه من قريب قال تعالى:« وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا » (الإسراء: ١٦).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره:.. قالوا معناه: أنه سخّرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب.

وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جريج عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير أيضًا.... وقال علي بن طلحة عن ابن عباس قوله: (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟) (الأنعام: ١٢٣)، وكذا قاله أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس.

وقال تعالى في شأن المنحرفين مخبرًا عن قوم لوط: « وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ » (الأعراف: ٨٠، ٨١). وقال صلى الله عليه وسلم في شأن مقلدي غير المسلمين من المعرضين عن هدي النبي الأمين ثم الجزاء بتداعي الأمم عليهم واجتماعهم في توجيه الذل إليهم: قال صلى الله عليه وسلم: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضب تبعتموهم...." الحديث (صحيح البخاري: ٧٣٢٠)، فكان جزاء هذه التبعية هو قول رسول الإنسانية.

وقال صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها..." الحديث، (صحيح سنن أبي داوود ٤٢٩٧)، والسنن هي الطرق جمع سنة وطريقة.

ولأن الأخلاق في الإسلام موصولة بالإيمان والتقوى، فلا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، وقال صلى الله عليه وسلم: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، فقيل له: من هو يا رسول الله؟ فقال: الذي لا يأمن جاره بوائقه". متفق عليه. (بوائقه: أي: غشمه وظلمه وأذاه).

ولا أخال أن المتبادر للأذهان من تقليد المسلمين لغير المسلمين في الحديث السالف "لتتبعن

Upload by: altawhedmag.com

سنن".. الحديث. أن يقلد المسلمون الكافرين في كفرهم ابتداء لكنهم قلدوهم في هديهم الذي هو خلقهم وسلوكهم والذي قد يفضي إلى التورط في شركهم ولو بغير قصد. ومثاله ما تورط فيه فئام من الناس في تقليد السلوك حتى صاروا يعظمون من الأيام أعيادًا هي في الأصل أعياد للكافرين يعظمون فيها آلهة من دون رب العالمين، ونرى قومًا آخرين قد جعلوا من المعاني الشريفة رجعية، ومن المخالفات الصريحة تقدمًا وانسانية، سبحان ربي العظيم! فما الذي نكس فطرهم فخاصموا نبيهم؟ أوليس هذا قد جرهم إليه تقليدهم لغير المسلمين حتى إذا دخلوا جحر ضب دخلوه وراءهم؟!

هذا وان كانت الطرق التربوية عند غير المسلمين تقوم على نظريات فلسفية وافتراضات نسبية فإنها في ديننا ليست كذلك - مهما تنادت بها قلوبهم اللاهية وآذانهم الصاغية- إذ هي في ديننا محددة المباني وواضحة المعاني فكان من الظلم بدرجاته أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير حتى ولو تظاهر الأدنى البديل بمظاهر صوفية أو باطنية أو نحوهما بديلة للهدي الشريف. فقد أغنانا سبحانه بالإسلام وكفانا ورضيه لنا دينًا قويمًا وصراطًا مستقيما وذلك لكل مناحي الحياة قال تعالى: ﴿وما كان ربك نسيا﴾ (مريم:٦٤)، وقال تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (الملك: ١٤)، وقال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ (النساء:٦٥)؛ فلا بد أن نكون على مثل ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن تبعهم بإحسان.

هذه هي قيمة الأخلاق، فالمسلمون تخلفوا عندما نسوا خُلق الإسلام، فلم يتقدم غير المسلمين على المسلمين لاستحقاقهم لذلك، لكن المسلمين هم المستحقون للعقوبة في الدنيا ببغيهم على أخلاق نبيهم ولغير المسلمين شأن وعقوبة أخرى مع الله في الدنيا والآخرة، فما سقطنا إلا عندما سقطنا في مستنقع المنكر، وأنكر الساقطون الأخلاق.

وختامًا: إن بداية سقوط المسلمين حين اختزلوا دينهم في مظاهر الشعائر فقط كمرجئة العصر ومتصوفته-ويا ليتهم حتى حافظوا عليها-، لكنهم تمسكوا بالمباني دون المعاني ولو صدقوا في حُسن تمسكهم بالمباني لدلتهم نيتهم الصالحة إلى المعاني كما ربط النبي بين المظهر والجوهر «لتسوُّنَّ صُفوفكم أو ليُخالفنَّ اللهُ بين وُجوهكم». متفق عليه.

فيجب إنقاذ بناء الإنسان من روافد غير إسلامية وثقافات مرضية غير شرعية تنشر الرزيلة وتبرر الوسيلة يديرها بيادق لمنظمات ليس من مصالحها أن ننهض دينًا ودنيا.

فيا من يبكي على الأمجاد، ويرغب في عزة الأجداد، استثمر في ميدان الأخلاق فهو سهم مصيب وله بعد التوحيد حظ وافر ونصيب، ولا تنس تحرير النية وموعود رب البرية؛ إذ الأخلاق من الإيمان قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (النور: ٥٥).

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

بغية الكمال بشرح حديث أفضل الأعمال

إعداد
أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

في الصحيحين عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله، والجهاد في سبيله». قال: قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: «أنفسها عند أهلها، وأعلاها ثمنًا». قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تُعين صانعًا، أو تصنع لأخرق». قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعُفت عن بعض العمل؟ قال: «تكُفُّ شرك عن الناس؛ فإنها صدقةٌ منك على نفسك».

أولًا: التخريج والحكم عليه:

أخرجه البخاري في "كتاب العتق" "باب أي الرقاب أفضل" حديث (٢٥١٨)، وأخرجه مسلم حديث (٨٤)، وأخرجه النسائي في "كتاب الجهاد" "باب ما يعدل الجهاد في سبيل الله عزوجل" حديث (٣١٢٩)، وأخرجه ابن ماجه في "كتاب العتق" "باب العتق" حديث (٢٥٢٣).

وكما هو ظاهر فالحديث في أعلى درجات الصحة والحمد لله.

ثانيًا: فائدة حديثية من علم الحديث رواية والجمع بين روايات الأحاديث التي ظاهرها التعارض في بيان أفضل الأعمال:

هذا التعارض الظاهر هو من تفضل الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان ذلك أن الله تبارك وتعالى اختار لصحبة نبيه هؤلاء الأخيار، فهم علماء أجلاء شامة أنقياء يحرصون على الخير والسعي إليه، ونقله إلى الخلق والدلالة عليه، وهي نعمة تستدعي منا الشكر، وكان من حرصهم على الخير حرصهم على سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الذي ينفعهم، وسؤالهم عن فقههم وعلمهم؛

Upload by: altawhedmag.com

وذاك لعلمهم رضي الله تعالى عنهم أن الجنة لا تُنال بالأماني والتمني، بل لا بد من عمل يدرك به الإنسان ما يؤمله من رحمة الله جل في علاه كما قال تعالى: «وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون» (الزخرف: ٧٢)، فطريق تحصيل الجنة هو العمل، مخالفة لمن فهم خطأ أو غُرر به خبثًا من المنتفعين فجعلوا الدين أماني وطرقًا وعهودًا توزعها أيادي أشياخ لُبّس عليهم فأسقطوا عن أنفسهم التكاليف ويا ليتهم اقتصروا على فهمهم وضلالهم على أنفسهم، لكنهم صاروا لضلالهم دعاة وبهواهم على غيرهم من الناس قضاة فظهرت الطرق والضلالات والبدع والخرافات. فيا أيها السالكون حنانيكم فهو طريق واحد لا عشرات وصراط مستقيم ليس فيه ثنيات «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين».

فينبغي للعامل أن يبحث عن أفضل ما يوصله إلى مطلوبه، وأفضل ما يقربه إلى منشوده، وذلك أن الأعمال في إيصالها إلى المطلوب على مراتب ودرجات، ليست على مرتبة واحدة بل متفاوتة الأجر والحسنات، وتحصيل ذلك بالبحث عن أفضلها وأطيبها ليس بالهوى والرغبات والنزوات.

وها هو أول هذه الأسئلة التي سألها أبو ذر رضي الله عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: أي الأعمال أفضل؟ وهذا السؤال تكرر من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فسأله أبو هريرة وابن مسعود وأبو أمامة وعمرو بن عنبسة وأبو موسى الأشعري ومعاذ وربما غيرهم مما لم أقف عليه فرضي الله عنهم أجمعين.

- فمن ذلك: ما رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥) عن ابن مسعود قال: " سألت النبيَّ صلى الله عليه وسلم: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها)، قال: ثم أيٌّ؟ قال: (ثم برُّ الوالدين) قال: ثم أيٌّ؟ قال: (الجهاد في سبيل الله)".

- وما روى النسائي (٢٢٢٢)- واللفظ له -، وغيره عن أبي أمامة: " أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيُّ العمل أفضل؟ قال: (عليك بالصوم فإنه لا عدل له)".

- وروى أحمد (١٧٠٢٧) عن عمرو بن عبسة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل: (عملان هما أفضلُ الأعمال إلا مَنْ عمل بمثلهما: حجةٌ مبرورةٌ أو عُمرةٌ) وصححه محقق المسند.

- وروى البخاري (١١)، ومسلم (٤٢) عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: " قالوا يا رسول الله، أيُّ الإسلام أفضل؟ قال: (من سلم المسلمون من لسانه، ويده)".

- وروى البخاري (٢٧٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: " جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: دُلني على عمل يعدل الجهاد؟ قال: (لا أجده)، قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟)، قال: ومن يستطيع ذلك؟

- وسأله معاذ حيث قال: دلني على عمل يقربني من الله يدخلني الجنة أو يقربني إلى الجنة ويبعدني عن النار، فتنوعت أسئلة الصحابة رضي الله تعالى عنهم عن أفضل الأعمال التي هي أحب إلى الله والتي هي طريق الدخول إلى الجنة. (سنن الترمذي وقال حسن صحيح).

وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث وغيرها، وكان من أفضل من أجاب شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر قال: "مُحصَّلُ ما أجاب به العُلماءُ عَنْ هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه

Upload by: altawhedmag.com

الأجوبة بأنه أفضل الأعمال:

أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين، بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم.

أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات، بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره. فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال، لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتمكن من أدائها، وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة، ومع ذلك ففي وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل.

أو أن أفضل ليست على بابها، بل المراد بها الفضل المطلق، أو المراد: من أفضل الأعمال، فحذفت "من" وهي مرادة". انتهى من "فتح الباري" (٢/ ٩).

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: " قد يكون العمل المعين أفضل منه في حق غيره: فالغني الذي له مال كثير، ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه: فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة.

والشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته: وقوفه في الصف ساعة، وجهاده أعداء الله: أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع.

والعالم الذي قد عرف السنة، والحلال والحرام، وطرق الخير والشر: مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم: أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح.

ووليُّ الأمر الذي قد نصبه الله للحكم بين عباده: جلوسه ساعة للنظر في المظالم، وانصاف المظلوم من الظالم، وإقامة الحدود، ونصر المحق، وقمع المبطل: أفضل من عبادة سنين من غيره.

ومن غلبت عليه شهوة النساء: فصومه - له - أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته.

وتأمل تولية النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله، وترك تولية أبي ذر، بل قال له: (إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم)، وأمر غيره بالصيام وقال: (عليك بالصوم فإنه لا عدل له)، وأمر آخر بأن لا يغضب، وأمر ثالثًا بأن لا يزال لسانه رطبًا من ذكر الله.

ومتى أراد الله بالعبد كمالا، وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له، قابل له، قد هيئ له، فإذا استفرغ وسعه، علا غيره وفاق الناس فيه.

وهذا كالمريض الذي يشكو وجع البطن مثلا، إذا استعمل دواء ذلك الداء: انتفع به، وإذا استعمل دواء وجع الرأس: لم يصادف داءه.

فالشح المطاع - مثلا - من المهلكات، ولا يزيله صيام مائة عام، ولا قيام ليلها!!

وكذلك داء اتباع الهوى، والإعجاب بالنفس: لا يلائمه كثرة قراءة القرآن، واستفراغ الوسع في العلم والذكر والزهد، وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده.

ولو قيل: أيما أفضل: الخبز أو الماء؟ لكان الجواب: أن هذا في موضعه أفضل، وهذا في موضعه أفضل ". انتهى من "عدة الصابرين" (ص ١١٤-١١٥).

وعمومًا، فإن شريعتنا وحي يوحى: لذا فإن الخلاصة هي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- تنوعت إجاباته لأصحابه ولنا عن أفضل العمل تنوعًا لفظيًا، والا فالحقيقة هي متفقة في المعنى، وقد بيّنها - صلى الله عليه وسلم- في حديث أبي هريرة في

Upload by: altawhedmag.com

البخاري؛ حيث قال: فيما يخبر بها عن الله -عز وجل- «من عادى لي وليًا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ ممَّا افترضْتُ عليه»؛ فأحب ما يتقرب به إلى الله تعالى الفرائض، وهو أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله -عز وجل- ورأس ذلك الإيمان.

الإيمان بالله رأس الأعمال:

ولهذا قال في حديث أبي ذر في بيان أفضل العمل قال: الإيمان بالله، والإيمان بالله هو الإقرار بالله -عز وجل- الإيمان به وبأسمائه وصفاته بالوهيته وربوبيته، فالإيمان بالله -عز وجل- يتضمن كل هذه المعاني، ويتضمن أيضًا الإيمان بكتبه وملائكته ورسله والقدر خيره وشره واليوم الآخر، فالإيمان بالله عنوان لكل أصول الإيمان التي يجب أن تقر في القلب ويؤمن بها العبد، فالإيمان هو الإقرار المستلزم للإذعان والقبول، فيقر العبد بالله -عز وجل- بما أخبر به عن نفسه، ويقر بما يجب الإقرار به من الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

كل هذا مندرج في أفضل العمل، في قوله -صلى الله عليه وسلم- الإيمان بالله ويلتحق بهذا أيضًا بعد الإيمان بالله ما يكون من أعمال الجوارح التي لا بد منها وهي مباني الإسلام الأربعة بعد الشهادتين، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج.

حقوق الله عز وجل وحقوق العباد:

وهذه كلها في حقوق الله -عز وجل- فهي من أفضل الأعمال، بل هي أفضل الأعمال التي يتقرب بها إلى الله -عز وجل- بعد هذا تأتي فرائض الأعيان المتعلقة بالخلق كبر الوالدين وإكرام الجيران وأداء الأمانات وما أشبه ذلك من الحقوق التي فرضها الله تعالى على العبد من بر الوالدين وذوي القربى والجيران وذوي الأرحام وغيرهم، ممن له حق من خلق الله -عز وجل- على الإنسان، فإن فرائضهم تلي ذلك في الفضل بعد الفرائض بأنواعها.

والفرائض التي هي لله، والفرائض التي للخلق أفضل العمل فيها ما كان أعظم نفعًا وأجرًا، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث بأفضل العمل وهو الجهاد، وهو إذا كان فرضًا فهو داخل في الإيمان بالله، وإن كان نفلاً فهو إشارة إلى أفضل الأعمال من التطوعات، والجهاد نوعان:

- جهاد بالسيف والسنان وهو الذي ينصرف إلى الذهن عن الإطلاق.
- وجهاد بالعلم والبيان وهو الأصل الذي يكون مبدأ العمل.

فإن الجهاد بالعلم والبيان هو الذي أمر به أولاً في قوله تعالى: «وجاهدهم به جهادًا كبيرًا» فينبغي للمؤمن أن يعي هذا الترتيب في فضائل العمل: حتى يسابق إلى الله -عز وجل- بالتقرب إليه بالأفضل في الفرائض وفي النوافل، فانظر إلى قلبك وما حواه من عقائد من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وانظر إلى عملك فتش عن الفرائض ومدى إقامتك لها، ثم بعد ذلك تقرب إليه بسائر ما يفتح الله عليك من النوافل وابحث عن الأنفع والأعلى والأقرب.

وإذا فتح لك في باب فالزمه، فما كان أصلح لقلبك، فهو أفضل من غيره (وينظر شرح الحديث في الفتح وشرح النووي على صحيح مسلم وفتح المنعم شرح صحيح مسلم).

وفي هذا القدر في شهرنا هذا الكفاية، وللحديث صلة في الحلقة القادمة إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

بغية الكمال بأفضل الأعمال

إعداد
أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد: فقد ابتدأنا في شهر ذي القعدة شرح حديث الصحابي الجليل أبي ذر رضي الله عنه عن سؤاله عن أفضل الأعمال، في الصحيحين عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: (الإيمان بالله، والجهاد في سبيله). قال: قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: (أنفسُها عند أهلها، وأعلاها ثمنًا). قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: ((تُعين صانعًا، أو تصنع لأخرق))، قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعُفت عن بعض العمل؟ قال: (تكُفُّ شرك عن الناس: فإنها صدقةٌ منك على نفسك).

وتفضل الله علينا بعرض روايات أخرى لنفس السؤال بلفظه أو بمعناه إذ تكرر السؤال من بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لحرصهم على الخير.

- ومن ذلك:

- حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: " سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: (الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا)، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: (ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ) قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: (الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

- وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ: " أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لاَ عِدْلَ لَهُ) ".

- وعن عمرو بن عبسة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل: (عَمَلاَنِ هُمَا أَفْضَلُ الأَعْمَالِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ بِمِثْلِهِمَا: حَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ أَوْ عُمْرَةٌ) وصححه محقق المسند.

- وعن أبي مُوسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: " قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ،

Upload by: altawhedmag.com

ويده)".

- وعن أبي هُريرة رضي الله عنه، قال: "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد؟ قال: (لا أجده)، قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟)، قال: ومن يستطيع ذلك؟

وهذه الروايات جميعًا تقدم تخريجها في شهرنا الخالي، وكذا تقدم الجمع بينها وأن الخلاف بينها ظاهري والتوفيق بينها علم ضروري؛ إذ طالما صحت الروايات فالجمع والتوفيق أصبح من الضرورات فلا تعطيل لنص صحيح والفرائض مقدمة على النوافل وأول الفرائض وأعلاها هو الإيمان ومتى أراد الله بالعبد كمالاً، وفقه لاستفراغ وُسعه فيما هو ميسّر له، فإذا استفرغ وسعه، ترقى إلى غيره وقد تفضل الله علينا بنقل كلام نفيس في ذلك لشيخي الإسلام ابن القيم وابن حجر رحمهما الله وغيرهما؛ فليراجع كله تفضلاً في باب السنة العدد السابق من مجلتنا، وذلك منعًا للتكرار.

هذا وبغية للكمال

> "الأعمال بعضها أفضل من بعض؛ إذ تتفاوت الأعمال بحسب الأوقات والأحوال بل قد يكون العمل الواحد هو الفاضل في وقت وهو المفضول في وقت آخر."

بأفضل الأعمال نستكمل بمشيئة الله تعالى ذاكرين لبعض؛ مما يستفاد من الحديث غير ما سبق بيانه.

الفائدة الأولى: الأعمال مراتب في الفضل

وأحاديث الباب دليل على أن الأعمال بعضها أفضل من بعض؛ إذ تتفاوت الأعمال بحسب الأوقات والأحوال بل قد يكون العمل الواحد هو الفاضل في وقت وهو المفضول في وقت آخر، ومثاله ما قاله القرطبي في المفهم (٢٧٦/١): "وقد يكون الجهاد في بعض الأوقات أفضل من سائر الأعمال، وذلك في وقت استيلاء العدو وغلبته على المسلمين، كحال هذا الزمان، فلا يخفى على من له أدنى بصيرة أن الجهاد اليوم أوكد الواجبات، وأفضل الأعمال؛ لما أصاب المسلمين من قهر الأعداء، وكثرة الاستيلاء شرقًا وغربًا، جبر الله صدعنا، وجدّد نصرنا".

الفائدة الثانية: أفضل الأعمال قاطبة هو الإيمان بالله؛ وإذا أطلق الإيمان مقصورا على (الإيمان بالله) فالمراد به الإيمان المنجي من النار وهو:

- (إيمان بالله ورسوله)؛ ولذا جاء في الرواية الأخرى: (إيمان بالله ورسوله) فلا حجة عندئذ لقوم جعلوا مع الإسلام أديانًا أخرى بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم تحت وطأة الخوف وبمسميات ودعاوى عناوينها مترادفة براقة أيضًا ظاهرها رحمة وحق وباطنها عذاب وباطل إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: ١٨)؛ فقد نسخ الإسلام كل الشرائع، والحمد لله على نعمة الإسلام.

- وكذلك إذا أطلق الإيمان فقد أراد الإيمان المنجي من النار وهو ما كان اعتقادًا بالقلب وإقرارًا باللسان وعملًا بالجوارح والأركان، وهذه الإجابة تدل على أن الإيمان قول وعمل، قول بالقلب (وهو التصديق) وقول باللسان، وعمل بالقلب

Upload by: altawhedmag.com

(وهو الاستسلام) وعمل بالجوارح وهو ما عليه أهل السنة والجماعة فلا يخرج العمل عن مسمى الإيمان فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- سأل عن أيّ الأعمال أفضل، فأجاب (إيمان بالله ورسوله)؛ فدل ذلك على الإيمان الذي هو تصديق القلب وقول الشهادتين وسائر أركان الإسلام وصالح الأعمال كلها كل ذلك يدخل في مسمى العمل الذي يُؤجر عليه الإنسان وكلف به في الوصول إلى رحمة الله، فليس بمقبول من ادعى الإيمان بغير ما سبق بيانه.

هذا ولا يتعارض المعنى الشرعي السالف ذكره مع المعنى اللغوي الذي تمسك به بعض الناس والذي هو التصديق إذ الإيمان تصديق شرعي مخصوص فالتصديق يكونُ بالقلب واللسان والجوارح، وهو ما يُسمّيه السَّلَفُ بقول القلب، وهذا التصديق لا ينفعُ وحْدَه، بل لا بُدَّ معه من الانقياد والاستسلام، وهو ما يُسمَّى بعَمَل القلب، ويلزمُ من ذلك قولُ اللسان، وعَمَلُ الجوارح، وهذه الأجزاءُ مترابطة، لا غنى لواحدةٍ منها عن



> الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ويتفاضل أهله فيه، فليسوا فيه سواء.

الأخرى فهو قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ويتفاضل أهله فيه، فليسوا فيه سواءً فلا يُتصَور المساواة بين إيمان أبي بكر رضي الله عنه وإيمان غيره من الطائعين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فضلا عن عصاتهم

الفائدة الثالثة: بذل الأغلى ثمنا أعظم أجرا:

وهو مأخوذ من سؤاله: أي الرقاب أفضل؟ يعني أي الرقاب التي تعتق في سبيل الله أفضل؟ والفضل هنا في الأجر والثواب والترغيب في الإعتاق، قال -صلى الله عليه وسلم-:

Upload by: altawhedmag.com

أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها.

ومعناه أعلاها رغبة وما يتمسك به الناس من أموالهم. وهذا وإن كان جوابًا في العتق، إلا أنه في كل أنواع المال. فإن الأفضل في الصدقة ما كان أعلى ثمنًا وما كانت النفس متعلقة به أكثر؛ لذلك قال الله تعالى: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) فإذا أخرج الإنسان ما يحب لله -عز وجل- كان ذلك برهان صدقه وصحة إيمانه وكمال رغبته فيما عند الله - عز وجل-.

الفائدة الرابعة: ومعونة الناس من أحب الأعمال إلى خالقهم:

من قوله - صلى الله عليه وسلم-: "تعين صانعًا أو تصنع لأخرق"؛ تعين صانعًا أي: تعين من يحتاج إلى عون في صناعته فهذا إحسان بالبدن والجهد.

والوجه الثاني من أوجه الإحسان بالبدن أو تصنع لأخرق أي: تعين من لا يحسن الصناعة بالصناعة له.

الفائدة الخامسة: والترك يعتبر من الفعل الذي يؤجر عليه

حديث أبي ذر رضي الله عنه دليل على هذا، وذلك خلافًا لمن قال من

> "يؤجر العبد الذي يكف الشر عن الناس؛ فقد اعتبره النبي صلى الله عليه وسلم صدقة منه على نفسه."

الأصوليين: إن الترك نفي لا يدخل ضمن التكليف، وحديث الباب دليل على دخوله؛ حيث يؤجر العبد الذي يكف الشر عن الناس؛ فقد اعتبره النبي صلى الله عليه وسلم صدقة منه على نفسه. ولا شك من كون النية شرطًا في ذلك كما أفاده القرطبي في المفهم (٢٧٨/١) حديث (٦٦) قال: "غير أن الثواب لا يحصل على الكف إلا مع النيات والمقصود، وأما مع الغفلة والذهول فلا، والله أعلم" (وينظر تفصيلا ماتعًا في " مجموع الفتاوى " (١٠ / ٧٣٨) وشفاء العليل " ص ١٧٠. " جامع العلوم والحكم " (٢ / ٣٢١)).

الفائدة السادسة: وأقل الأعمال أن تكف شرك عن الناس:

فقال أبو ذر رضي الله تعالى عنه للنبي -صلى الله عليه وسلم-: "أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل" يعني إذا ما فعلت هذه الفضائل مما ليس بواجب قال: "تكف شرك عن الناس؛ فإنه صدقة منك على نفسك"، فأمره النبي - صلى الله عليه وسلم- بكف شره عن الناس، القريب والبعيد، فإن كف الإنسان شره وأذاه عن الناس سواءً كان الأذى قوليًا أو عمليًا أو قلبيًا بالحسد والعجب والاحتكار بكل أوجه الأذى، فتكف شرك وهو كل ما يتأذى به الناس عقدًا بالقول، أو قولًا باللسان، أو عملًا بالجوارح فإنه صدقة منك على نفسك.

فإذا طهرت قلبك من الحسد والحقد والغل والعجب، وإذا طهرت لسانك من السب والشتم والهمز واللمز، إذا طهرت فعلك عن الأذى في الأنفس والدماء وفي الأموال وفي غير ذلك مما تطاله جوارحك بإعطاء الحقوق لأهلها؛ فأبشر فإنك قد تصدقت بذلك على نفسك، فكف شرك عن الناس مما تتقرب به إلى الله -عز وجل-؛ إذ إنه صدقة منك على نفسك.

وفي هذا القدر كفاية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

حرمة المال العام

إعداد
أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله ذي العزة والجلال، تفرد بأسمائه الحسنى وصفات الكمال، جعل من كليات الشريعة بعد الدين حفظ النفس والعقل والعرض والمال، وصلى الله وسلم على رسوله ما خطر على بال وبعد:

فعن أبي حُميد الساعدي قال: استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني أسد يُقال له: ابن اللُّتبية - قال عمرو وابن أبي عمر: على الصدقة -فلمّا قدم، قال: هذا لكم، وهذا لي أُهدي لي، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما بال العامل نبعثه فيأتي، فيقول: هذا لك وهذا لي، فهلاّ جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر أيُهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأتي بشيء إلاّ جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيرًا له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تيْعَر»، ثم رفع يديه؛ حتى رأينا عُفْرتي إبطيه: «ألا هل بلّغت؟!» ثلاثًا؛ قال سفيان: قصّه علينا الزُّهري، وزاد هشام: عن أبيه عن أبي حميد قال: «سمع أذناي، وأبصرته عيني، وسلوا زيد بن ثابت؛ فإنه سمعه معي، ولم يقل الزُّهري: سمع أذني».

تخريج الحديث من الكتب الستة:

١- رواه البخاري (٣/ ٤٢٨/ ١٥٠٠)، ولفظه: «رجلاً من الأسد»، وفيه أيضًا: «فلمّا جاء، حاسَبه»، وفي (١٣/ ١٧٥/ ٧١٧٤) باللفظ المذكور أعلاه.

٢- ومسلم (٦/ ١١)، وفيه: «رجلاً من الأسد».

٣-وأبو داود (٢٩٤٦) (كلُّهم من طُرق عن ابن عُيينة، وشُعيب، ومَعْمَر عن الزُّهري عن عُروة عن أبي حُميد الساعدي رضي الله عنه).

تعريف مختصر بالصحابي الراوي:

أبو حُميد الساعدي: الصحابي المشهور، اسمه: عبدالرحمن بن سعد، ويُقال: عبدالرحمن بن عمرو بن سعد، وقيل: المنذر بن سعد بن المنذر، وقيل: اسم جَدّه مالك، وقيل: هو عمرو بن سعد بن المنذر بن سعد بن خالد بن ثعلبة بن عمرو، ويقال: إنه عمّ سهل بن سعد، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم عِدّة أحاديث، وله

Upload by: altawhedmag.com

ذكر معه في الصحيحين.

قال خليفة وابن سعد وغيرهما: شهد أحدًا وما بعده، وقال الواقدي: تُوفِّي في آخر خلافة معاوية، أو أوَّل خلافة يزيد ابن معاوية في المدينة المنورة (ينظر: سِيَر أعلام النُّبلاء؛ للذهبي (٤٨١/٢). الإصابة في تمييز الصحابة؛ لابن حجر (٤٦/٤)، وتهذيب الكمال؛ للمزي (٧٣٢٩/٢٦٤/٣٣)

بعض مفردات الحديث:

١- الأزْد بفتح الهمزة: قبيلة من بطون قحطان.

بني أسَد: بفتح الهمزة وسكون السين المهملة؛ قال ابن حجر: «ثم وَجدت ما يُزيل الإشكال إن ثبتَ، وذلك أنَّ أصحاب الأنساب ذكروا أن في الأزْد بَطنًا يُقال لهم: بنو أسَد بالتحريك، يُنسبون إلى أسد بن شُريك -بالمعجمة مُصغرًا- ابن مالك بن عمرو بن مالك ابن فَهْم، وبنو فَهْم بطنٌ شهير من الأزْد... فيَصح أن يُقال فيه: الأزْدي بسكون الزاي والأسْدي بسكون السين وبفَتْحها من بني أسَد بفتح السين، ومن بني الأزْد أو الأسْد بالسكون فيهما لا غير...». اهـ.

> هدايا العمال من المال العام من المحرم الذي حرم سدًّا للذريعة.

٢- ابن اللُّتْبيَّة: بضمِّ اللام وسكون التاء فوقها نقطتان، وقد تُفتح نسبة إلى بني لتْب قبيلة معروفة.

قال ابن حجر: «وقال عياض: ضبَطه الأصيلي بخطِّه في هذا الباب بضمِّ اللام وسكون المُثنَّاة، وكذا قيَّده ابن السكن، وقال: وهو الصواب، وكذا قال ابن السمعاني: ابن اللُّتْبية بضمِّ اللام وفتْح المُثناة، ويقال بالهمز بدل اللام، وقد تقدَّم أن اسْمه عبدالله، واللُّتْبية أُمُّه، لَم نَقِف على تسميتها». (فتح الباري؛ لابن حجر (١٧٦/١٣).

٣- الخُوار: صوت البقرة.

٤- الرُّغاء: صوت الإبل.

٥- العُفرة: بياض مشوب بالسُّمْرة.

٦- تيْعَر: تصيح وتصوت صوتًا شديدًا، وهو صوت الشاة (ينظر: مفرداته في جامع الأصول في أحاديث الرسول؛ لابن الأثير (٦٤٦/٤).

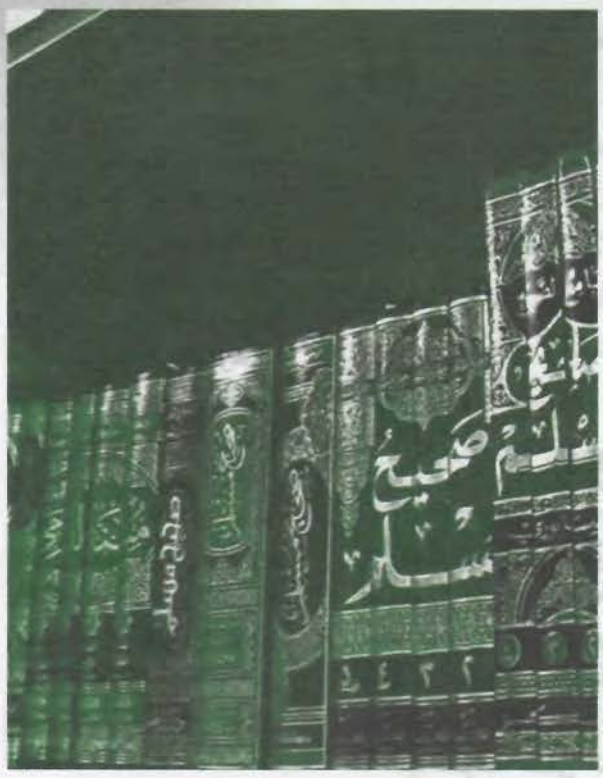
شرح الحديث مختصرا:

في هذا الحديث يعلمنا رسولنا صلى الله عليه وسلم حرمة هدايا العمال، وأنها من المال العام المحرم؛ إذ في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل صحابيًا جليلاً أمينًا من أصحابه على جمع الصدقات؛ فقام بمهمته على الوجه الأكمل الأتم، غير أنه تعرَّض لشبهة لم يكن يعرفها إذ لم يكن قد تعرض لها من قبل؛ ألا وهي حرمة هدايا العمال ومن استعملهم أولياء الأمور في أعمال المسلمين؛ وذلك سدًّا للذريعة؛ إذ قد تكون مظنة المجاملة حتى ولو لم تقع المجاملة. وقصة الحديث أن هذا الصحابي الجليل وهو رجل من بني لتيب بعدما جمع الصدقات التي كُلف بها أتى بها أمينًا عليها غير أنه جنب ما

Upload by: altawhedmag.com

خص به من الهدايا الخاصة له وأخبر بها الصحابة، فقال: هذا هو مال المسلمين لكم وهذا الذي أهدى إلي بعيدًا عن حق المسلمين فأخبر بذلك رسول الله فلم يكن له تأخير للبيان عن وقت الحاجة؛ فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم بيَّن صلى الله عليه وسلم حرمة هذا، وأنه ما أهديت هذه الهدايا للعامل إلا بسبب عمله وأنه لو جلس في بيته وسط أهله لم يكن لأحد أن يهدي إليه.

ثم حذر صلى الله عليه وسلم من شدة الحرمة وأنها من الكبائر وأن المغتصب لهذه الهدايا هو مغتصب لمال عام ويأتي يوم القيامة معذبًا مفضوحًا بها متحملاً على قدر ما اغتصب؛ جملاً كان أو بقرة أو شاة قليلاً أو كثيرًا، ثم تشدد الصادق المصدوق في إشهاد أصحابه حتى رئيت عفرة إبطيه. (مستفاد من فتح الباري؛ لابن حجر (١٣/١٧٨ - ١٧٩)، وشرح صحيح البخاري»؛ لابن بطال (٣/٥٥٦ - ٥٥٧).



> إجماع التابعين دليل على تحريم الهبات والهدايا إن كانت بسبب قرض.

مما يستفاد من الحديث:

١- حرمة هدايا العُمَّال والوُلاة والقُضاة وأنها سُحْتٌ؛ إذ هي بسبب سلطانهم، وهي ذريعة للمجاملة وتضييع الحقوق، وأنها إذا أخذت توضع في بيت مال المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في (بيان الدليل على بطلان التحليل (ص/٢١٧)؛ ومَن تأمَّل حديث ابن اللُّتبية وحديث أنس، وحديث عبدالله بن عمرو، وحديث ابن عباس، وما في معناهما من آثار الصحابة التي لم يَختلفوا فيها، عَلم ضرورة أنَّ السُّنة وإجماع التابعين دليلٌ على أن التبرُّعات من الهبات

Upload by: altawhedmag.com

والمحابيات ونحوهما، إذا كانت بسبب قرض، أو ولاية، أو نحوهما، كان القرض بسبب المحاباة في بيع أو إجارة، أو مُساقاة أو مضاربة، أو نحو ذلك، عوضًا في ذلك القرض، والولاية بمنزلة المشروط فيه، وهذا يجتثُ قاعدة «الحيل الربوية والرشوية»، ويدلُ على حيل السفاح وغيره من الأمور، فإذا كان إنما يفعل الشيء لأجل كذا، كان المقصود بمنزلة المنطوق الظاهر، فإذا كان حلالاً كان حلالاً، وإلاَّ فهو حرام، وهذا لما تقدَّم من أنَّ الله سبحانه إنما أباح تعاطي الأسباب لمن يقصد بها الصلاح». اهـ.

٢- مشروعية إلقاء الخطبة لأمور مهمَّة كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو هدي معطَّل.

٣- مشروعيَّة مُحاسبة المُؤتمَن، وأنَّ المحاسبة تعينه على الصواب وليست طعنًا فيه، وأنه لا حرج في ذلك يا أيها المسئول الحبيب إذ كلكم راعٍ وكلكم مسؤول.

٤- فيه وجوب سد الذرائع وقطع الطرق على كل حرام.

> اتفق العلماء على أن العاملين على الصدقات لا يستحقون على قبضها سبعا أو ثمنا وإنما للعامل بقدر عمالته.

٥- وفيه أنَّ من رأى متأوِّلاً أخطأ في تأويل يضرُّ من أخذ به، أن يُشهر القول للناس، ويُبيِّن خطأه؛ ليحذَر من الاغترار به.

٦- في قوله صلى الله عليه وسلم: «هلاَّ جلس في بيت أمِّه أو أبيه، فينظر يُهدى إليه أم لا»، دليلٌ على أنَّ كلَّ أمرٍ يُتذرَّع به إلى محظور، فهو محظور، ويدخل في ذلك القرض يجرُّ المنفعة، والدار المرهونة يسكنها المُرتهن بلا كراء، والدابَّة المرهونة يركبها ويرتفق بها من غير عوض، وكل دخيل في العقود يُنظر: هل يكون حُكمه عند الانفراد كحُكمه عند الاقتران.

٧- هذا الحديث حُجة على اتفاق العلماء أنَّ العاملين عليها هم السُعاة المتولون لقبض الصدقة، وأنهم لا يستحقون على قبضها جزءًا منها معلومًا سبعًا أو ثمنًا، وإنما للعامل بقدر عمالته على حسب اجتهاد الإمام.

٨- في الحديث رعاية للمقاصد رغم حمل الأمور على المقاصد الحسنة إذ لم يغتر الناظر للمسميات البراقة (هدية، إكرامية، نحو ذلك...). ونظر إلى مقاصدها.

٩- في الحديث حثٌ على أداء الأمانة في جميع الأمور، لا سيَّما فيما يتعلق بحقوق الناس.

١٠- الحث على اختيار العُمَّال والموظفين المخلصين من أهل الأمانة.

١١- الحثُ على اتصاف الموظف بالعفَّة والسلامة من أخذ الرِّشوة والهدية.

١٢- مشروعية رفع اليدين في الدعاء. (ينظر: بعض الشروح على صحيح البخاري: فتح الباري: لابن حجر (١٣/١٧٨- ١٧٩)، و«شرح صحيح البخاري»: لابن بطال (٣/٥٥٦ - ٥٥٧)).

وفي هذا القدر الكفاية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

أول الخير والرشاد في تصحيح الفهم والاعتقاد

شرح حديث: "لا عدوى ولا صفر ولا هامة..."

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه. وبعد:

إعداد أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى، ولا صفر، ولا هامة»، فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء، فيجيء البعير الأجرب فيدخل بينها فيُجربُها كلها؟! قال: «فمن أعدى الأول؟».

التخريج:

رواه البخاري (٥٣١٦) (٥٧١٧)، وفي صحيح سنن أبي داوود رقم (٣٩١١).

المعنى العام للحديث:

جاء الإسلامُ ليَهدمَ مُعتقدات الجاهليّة، ويشرع عقيدةً صحيحة على صحّة التّوحيد مبنيّة، ونفوس زكية، وعقول رشيدة ذكية، وليس ذلك إلا في تصحيح الاعتقاد في رب العباد.

وفي حديثنا الشريف يحكي أبو هُرَيْرَةَ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قالَ: «لا عَدْوَى»، وهذا نَفْيٌ لما كانوا يَعتقدونه من مُجاوَزَة العلّة من صاحبها إلى غيره، وأنَّها تُؤثّرُ بطبْعها، فأعلَمَهُمُ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم أنَّ الأمرَ ليس كذلك، وإنَّما اللَّهُ عزَّ وجلَّ هو الذي يُقدّرُ المرَضَ ويُنزلُ الدَّاءَ.

فقوَّم لنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم المعوجَ من المفاهيم، وأقام العقول علي صحيح الدين.

وهذا الحديث مروي بألفاظ، منها: ما رواه البخاري (٥٧٧٦) ومسلم (٢٢٢٤) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ. قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ".

وفي تفصيل لبيان ما سبق قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:

١- (قوله صلى الله عليه وسلم: (لا عدوى): لا نافية للجنس، ونفي الجنس أعم من نفي الواحد والاثنين والثلاثة؛ لأنه نفي للجنس كله، فنفي الرسول صلى الله عليه وسلم العدوى كلها.

٢- والعدوى: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكون في الأمراض الحسية يكون أيضًا في الأمراض المعنوية الخلقية،

Upload by: altawhedmag.com

ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن جليس السوء كنافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة.

فقوله: (لا عدوى) يشمل الحسية والمعنوية، وإن كانت في الحسية أظهر.

٣- وقوله: (ولا طيرة) الطيرة هي التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

٤- وقوله: (ولا هامة). الهامة: بتخفيف الميم فُسِّرت بتفسيرين:

الأول: أنها طير معروف يشبه البومة، أو هي البومة، تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل؛ صارت عظامُهُ هامةً تطير وتصرخ حتى يُؤخذ بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه.

الثاني: أن بعض العرب يقولون: الهامة هي الطير المعروف، لكنهم يتشاءمون بها، فإذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت؛ قالوا: إنها تنعق به ليموت، ويعتقدون أن هذا دليل قُرب أجله، وهذا كله بلا شك عقيدة باطلة.

وقيل: إنه داء في البطن يصيب الإبل، وينتقل من بعير إلى آخر. وعلى هذا فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

ولا صفر، ولا هامة:

مبنيَّان على الفتح أيضًا، ومعطوفان على "لا عدوى" والخبر عنهما مُقدَّر كالذي قبلها، وفي كل منهما تأويلان:

• فأما الصَّفر، فكانت العرب في الجاهلية تزعم أنه دابة في البطن تهيج عند الجوع، وربما قتلتْ صاحبها، وكانوا يزعمون أنها أعدى من الجرب، وقيل: إنه الشهر المعروف الذي يلي المحرَّم، وكانوا إذا جاء المحرم، وهم محاربون أحلُّوه، وأخَّروا تحريمه إلى صفر، وهو النسيء الذي كانوا يفعلونه، وكانوا كثيرًا ما يتشاءمون بهذا الشهر؛ فلا يعقدون فيه زواجًا، ولا يُزمعون فيه سفرًا لتجارة أو لقضاء مهمة.

• وأما الهامَة بتخفيف الميم على اللغة المشهورة، وحُكي تشديدها أيضًا، فهي طائر من طير الليل، وقيل: هي البومة، وكانوا يتشاءمون بها، فإذا سقطتْ على دار أحدهم اعتقد أنها تَنْعَى له نفسه أو بعض أهله، وتُنذرهم بخراب البيت، هذا أحد التأويلين، والتأويل الثاني: أنهم كانوا يعتقدون أن عظام القتيل الذي لا يؤخذ بثأره، أو رُوحه تنقلب هامة تطير وتصيح قائلة: اسقوني اسقوني! ولا تزال صائحة حتى يؤخذ بثأره.

فقال أعرابي: وهو واحد من الأعراب وهم أهل البادية في العيش والخشونة في الطبع بما يناسب البادية خلاف العرب، فهم أهل المدن والعمران، وكما هو واضح من سؤاله أنه يسأل مستغربًا ولا أقول معترضًا إذ قد التبس عليه.

والفاء للعطف والترتيب، عطف "قال" على فعل محذوف دلَّت عليه بعضُ روايات الحديث، وأصل العبارة: حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا صفر ولا هامة»، قام أعرابي فقال.... إلخ، وهذا الفعل المحذوف "قام" هو متعلَّق بالظرف "حين"، ولا يخفى أن قبله (قال) محذوفة خطًا، ولكنها تُذكَر لفظًا كما هي عادة المحدِّثين في مثل هذا السند، والتقدير: عن أبي هريرة قال حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.. إلخ، ويجوز أن تكون الفاء زائدة والظرف مُتعلَّق بـ"قال".

- قول الأعرابي وسؤاله: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء:

- الفاء: الفصيحة، أفصحتْ عن شرط مُقدَّر، وهي واقعة في جوابه، وما: استفهامية مبتدأ، والبال: الحال والشأن خبر، وفي الرمل خبر تكون، وجملة تكون في الرمل في محل نصب حال من الإبل، وجملة كأنها الظباء حال من الضمير المستتر في خبر تكون.

- والظباء: جمع ظبي، وهو الغزال، ووجه الشبه نقاء

Upload by: altawhedmag.com

أرجلها ونظافتها وجمالها، فلا يعلق بها شيء من التراب أو الرمل، علاوة على قوّتها ونشاطها وسلامتها من الأمراض.

- يفيد كلام الأعرابي مُستشكلاً على نفي العدوى: كيف تكون الإبل نظيفة نقيّة كأنها الغزلان نشاطًا وقوة، فيجيء البعيرُ الأجرب فيدخل فيها فيُجربها كلها؟!

- يعني: يختلط بهذه الإبل النقيّة السليمة بعير من غيرها مصابٌ بالجرب، فيعديها كلها، فما ذاك إلا لأن العدوى ثابتة. فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بجواب حاسم لإشكاله، قاطع لشُبْهته، فقال صلى الله عليه وسلم مجيبه ورافعًا الشبهة رادًّا لها بسؤال مختصر هو عين الجواب والحكمة قال: فمن أعدى الأول؟

بصيغة الاستفهام التقريري، وهو حَمْل المخاطب على الإقرار بما يعرفه كي يزول إشكاله؛ لأنه يعتقد أن الجرب يُعدي بطبْعه، وأنه السبب الوحيد الذي لا يتخلف تأثيره في الإبل الصحيحة إذا خالطت البعير الأجرب، فبيّن له صلوات الله وسلامه عليه أن السبب الحقيقي في الجرب وفي كل مرض هو إرادة الله سبحانه وتعالى؛ فهو الفاعل المختار، وما ينتقل المرض من المريض إلى الصحيح إلا بإذنه ومشيئته، وإذا كان المرض نتيجة المخالطة أو الملاصقة من غير إرادته سبحانه وتعالى، فمن الذي أعدى البعير الأول الذي أصابه الجربُ من غير مخالطة أو ملاصقة؟ إنه لا جواب عن هذا السؤال النبوي الحاسم إلا أن الله تعالى هو الذي أوجد ذلك.

فائدة ودرء شبهة:

هذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليس نفيًا للوجود؛ لأنها موجودة، ولكنه نفي للتأثير؛ فالمؤثر هو الله، فما كان منها سببًا معلومًا؛ فهو سبب صحيح، وما كان منها سببًا موهومًا؛ فهو سبب باطل، ويكون نفيًا لتأثيره بنفسه إن كان صحيحًا، ولكونه سببًا إن كان باطلاً.

فقوله: (لا عدوى): العدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يورد ممرض على مُصح" أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة؛ لئلا تنتقل العدوى.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "فرّ من المجذوم فرارك من الأسد"؛ والجذام مرض خبيث مُعْد بسرعة ويُتلف صاحبه؛ حتى قيل: إنه الطاعون؛ فالأمر بالفرار من المجذوم لكي لا تقع العدوى منه إليك، وفيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمرًا حتميًا، بحيث تكون علة فاعلة، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالفرار، وأن لا يورد ممرض على مصح من باب تجنُّب الأسباب لا من باب تأثير الأسباب نفسها؛ فالأسباب لا تؤثر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب الأسباب التي تكون سببًا للبلاء؛ لقوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) (البقرة:١٩٥)، ولا يمكن أن يقال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينكر تأثير العدوى؛ لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى.

فإن قيل: إن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قال: "لا عدوى. قال رجل: يا رسول الله! الإبل تكون صحيحة مثل الظباء، فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فمن أعدى الأول؟"؛ يعني أن المرض نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله عز وجل؛ فكذلك إذا انتقل بالعدوى؛ فقد انتقل بأمر الله، والشيء قد يكون له سبب معلوم، وقد لا يكون له سبب معلوم، فجربُ الأول ليس سببه معلومًا؛ إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب

Upload by: altawhedmag.com

الذي بعده له سبب معلوم، لكن لو شاء الله تعالى لم يجرب، ولهذا أحيانًا تُصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية، وقد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون.

وهذا الجمع الذي أشرنا إليه هو أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث). انتهى من «شرح كتاب التوحيد ٢/ ٨٠».

مما يستفاد من الحديث:

١-تحرير العقول وتنوير القلوب وتصحيح الاعتقاد إذ الأمور تجري بمقادير يقدّرها خالقها سبحانه وتعالى؛ فشرف العبودية يستلزم التحرر من مفاهيم الجاهلية.

٢-الأسباب والمسببات مخلوقة من الله يجريها ويبطلها بقدرته ومشيئته؛ فسبحان من جعل النار بردًا وسلامًا، وهذا فهم عام.

٣-ومن الحديث أن مرض الجرب كغيره من الأمراض والابتلاءات إنما ينتقل بإرادته سبحانه، وليس بطبيعة المرض، ولو كان بطبيعة المرض فكيف جاء المرض للمريض الأول، ولعل واقعنا يشهد هذا عندما نرى أنه كم من صحيح خالط مريضًا ولم يصبه شيء، وكم من مصاب بغير مخالطة لمريض، فالعبرة أولاً وآخرًا بإرادة الله تعالى ومشيئته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

٤-أن العدوى كغيرها من الأسباب التي يجريها الله ويبطلها بمشيئته.

٥-صدق العبودية يستلزم الأخذ بالسبب ثم إنزاله منزلته أنه جريانه وبطلانه بمشيئة الله وقدرته.

٦-الحذر من اتخاذ الحديث ذريعة من بعض الغالين فينكرون بذلك السبب بالكلية، فجاء الحديث الآخر وحيًا من رب البرية على سيد البشرية رسول الإنسانية؛ مما يدل دلالة صريحة على مراعاة هذه الأسباب المادية وعدم جحودها: أمر صلى الله عليه وسلم بالفرار من المجذوم، ليُبيّن أن الله تعالى هو الذي يُمرض ويشفي، ونهى صاحب الإبل المريضة أن يُوردها على صاحب الإبل الصحيحة؛ أخذًا بالحيطة مع التوكل على الله سبحانه، ومن ذلك أنه أخبر أُمّته بأن الطاعون عذاب أو رجز عذّب الله به طائفة من بني إسرائيل، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه.

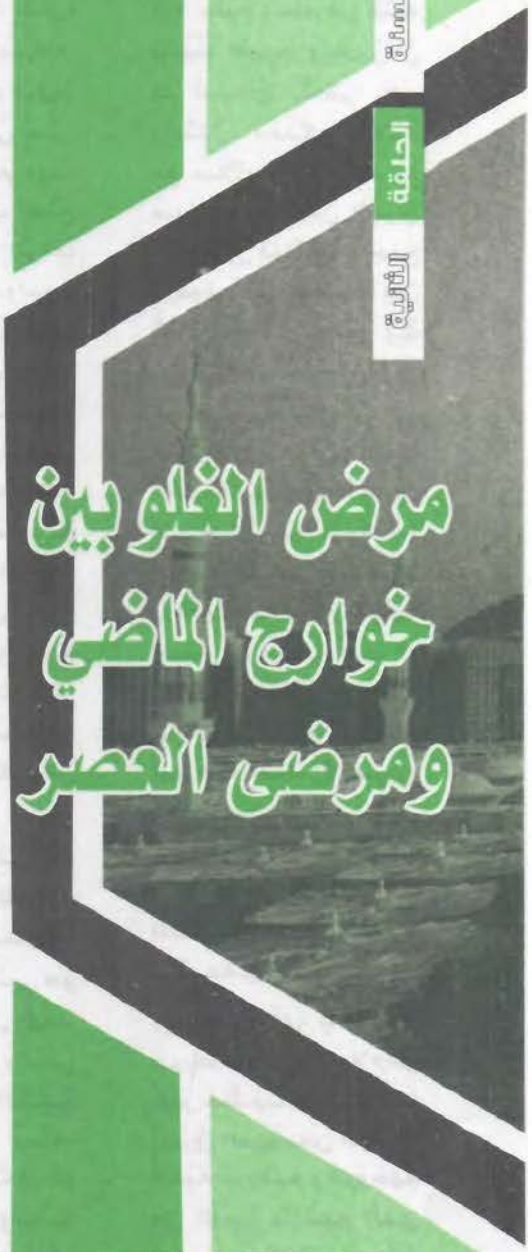
٧ -ومثل ما قيل في العدوى يُقال في الصفر بمعنى الشهر، وفي الهامة بمعنى الطائر كالبومة مثلاً؛ المراد نفي الصفات التي ألصقوها بالشهر والطير من تشاؤم وتعطيل المصالح، وأما الصفر بمعنى الدابة التي تهيج عند الجوع، والهامة بمعنى انقلاب العظام أو الروح طائرًا يصيح، فهذا كان خرافات لا وجود لها ألبتّة، وهما منفيتان ذاتًا وصفة.

٨-ومن المهم أن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بُعث لإصلاح النفوس، وإبطال الخرافات، وتربية الأمة وهدايتها إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فلا مجال في ديننا لاستلاب العقول وحبس القلوب في قوالب مصنوعة محدودة، وإنما جاء الإسلام لينقل الحيارى من عبادة العباد لعبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا لسعة الدنيا والآخرة، جاء ليحرّر العقول من ذل العبودية والتبعية البشرية إلى شرف العبودية لخالق البشر. (وينظر: شروح الحديث في مظانه في فتح الباري وشرح النووي على صحيح مسلم وعون المعبود شرح سنن أبي داوود).

وقد تعرض الإمام ابن القيم رحمه الله لفقه هذا الحديث ومعناه، في عدة كتب من كتبه، ومنها كتاب (مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٦٤: ٢٦٩). ونقل طائفة من كلام أهل العلم في ذلك، كابن قتيبة وابن عبد البر وأبي عبيد. و للحديث بقية في شهرنا القادم، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

مرض الغلو بين خوارج الماضي ومرضى العصر



إعداد
أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد: فإن من دلائل النبوة وأسباب زيادة الإيمان ما يراه الناس الآن من تعدٍّ على جناب الإسلام بأي نوع من الأنواع سواء بزيادة أو بإنكار أو تبديل أو نقصان، إذ كل ذلك قد أخبر به النبي العدنان لما يستقبل من الزمان العاجل منه والآجل. وإنه على ما بقلوب المؤمنين لهذا من كلوم غير أنهم لإيمانهم زيادة ولراياتهم بشارة. ومن ذلك ما كان من حديث ذي الخويصرة المشهور

ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسمًا، أتاه ذو الخويصرة -وهو رجل من بني تميم- فقال: يا رسول الله، اعدل. فقال: ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟! قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه؟ فقال: دعه، فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه، فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه -وهو قدحه- فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس.

قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشهد أن عليّ بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل، فالتمس فأتي به، حتى نظرت إليه على نعت النبي صلى الله عليه وسلم الذي نعته.

Upload by: altawhedmag.com

أولا: العزو موجزا إلى الكتب الستة:

أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) وأخرجه وابن ماجه (١٧٢) مختصرا.

ثانيا: الشرح:

هذا حديث من دلائل النبوة وتشخيص وعلاج لداء عضال من أمراض الأمة إذ ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيخرج بعده أقوام يُقاتلون أهل الإسلام، وبين لنا من صفاتهم وعلاماتهم ما يعالج فتنتهم ويرد مكيدتهم.

وفي هذا الحديث يحكي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنهم بينما هم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما، وقد بينت رواية الصحيحين أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعث من اليمن إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهيبة؛ وهي القطعة من الذهب، وكانت مما أخذه علي رضي الله عنه من زكوات أهل اليمن، فقسمها صلى الله عليه وسلم بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس الحنظلي المجاشعي، وعُيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي، وعلقمة بن علاثة العامري، وهم رؤساء في أقوامهم، وقد كانوا حديثي عهد بكفر، فتألفهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المال؛ ليثبتوا على الإسلام، فيثبت قومهم معهم، فلما خصهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا العطاء، غضب بعض الناس، وفي هذا الوقت أتاه ذو الخويصرة، واسمه حُرقوص بن زُهير، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله، اعدل في القسمة، وهذا قول يدل على جهل وقلة فقه على أرحم تقدير في الحكم عليه، إذ الجرأة على جناب النبي عليه الصلاة والسلام واتهامه بعدم العدل في عينها كفر ولولا أن يعذر صاحبها بجهل رحمة به لكان من الهالكين.

لذا غضب صلى الله عليه وسلم، وقال للرجل: «ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟!» إذ النبي هو أولى الناس بالعدل وأبعد الخلق عن الظلم والبغي ولذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل». وفي رواية في الصحيحين: «من يُطع الله إذا عصيت؟!»

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، ائذن لي فيه، فأضرب عُنقه»، فمنعه صلى الله عليه وسلم من قتله تأليفا لغيره، وأخبر أن له أصحابا يحقر -أي: يستقل- أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، جمع ترقوة، وهي العظم ما بين ثغرة النحر والعاتق، وفي رواية في الصحيحين: «إن من ضئضئ هذا -أي: من خصيته ونسله أو في عقبه - قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم»، يريد أن قراءتهم لا يرفعها الله ولا يقبلها؛ لعلمه باعتقادهم، أو أنهم لا يعملون بها، فلا يثابون عليها، أو ليس لهم فيه حظ إلا مروره على لسانهم، فلا يصل إلى حلوقهم، فضلا عن أن يصل إلى قلوبهم؛ لأن المطلوب تعقله وتدبره؛ لوقوعه في القلب.

«يمرقون»، أي: يخرجون سريعا من دين الإسلام من غير حظ ينالهم منه، كما يمرق السهم من الرمية، فشبه مروقهم وخروجهم من الدين بالسهم الذي يصيب الصيد، فيدخل فيه ويخرج من الناحية الأخرى، ولشدة سرعة

Upload by: altawhedmag.com

خروجه لا يعلق بالسهم من جسد الصيد شيءٌ، ثم ينظر إلى «نصله»، وهي حديدة السهم، فلا يوجد في النصل شيءٌ من دم الصيد ولا غيره، ثم ينظر إلى «رصافه»، وهو عقب يلوى فوق مدخل النصل أو السهم، فما يوجد فيه شيءٌ، ثم ينظر إلى «نضيه»، وهو عود السهم قبل أن يراش ويُنصل، أو هو ما بين الريش والنصل، وسمي بذلك؛ لأنه بري حتى عاد نضوًا، أي: هزيلًا، فلا يوجد فيه شيءٌ، ثم ينظر إلى «قذذه»، جمع قُذة: الريش الذي على السهم، فلا يوجد فيه شيءٌ.

قد سبق السهم «الفرث»، وهو ما يجتمع في الكرش، «والدم»، فلم يظهر أثرهما فيه، بل خرجا بعده، وكذلك هؤلاء لم يتعلقوا بشيء من الإسلام، وهذا نعت الخوارج الذين لا يدينون للأئمة، ويخرجون عليهم.

«وآيتهم»، أي: علامتهم التي يعرفون بها إذا ظهروا، أو عند أول ظهور لهم: أنه يكون فيهم رجلٌ أسود إحدى «عضديه» -وهو ما بين المرفق إلى الكتف- مثل ثدي المرأة، أو قال: مثل البضعة، وهي القطعة من اللحم، «تدردر»، أي: تتحرك وتذهب وتجيء، ويخرجون على حين فرقة، أي: في زمان افتراق من الناس، وهو زمان علي بن أبي طالب وأصحابه رضي الله عنهم.

ثم قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشهد أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتل خوارج عصره، وكانوا بهذه الصفة، وأنا معه بالنهروان سنة (٣٨هـ)، وهي منطقة بالقرب من بغداد في العراق، فأمر علي رضي الله عنه أن يبحث المقاتلون عن ذلك الرجل الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: «إحدى عضديه مثل ثدي المرأة»، فطلب في القتلى، فوجدوه، فأتوا به، ورآه أبو سعيد رضي الله عنه على الصفة التي وصفه بها النبي صلى الله عليه وسلم. (وينظر: كتاب عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٤٣/١٦)، وكتاب دليل الفالحين شرح رياض الصالحين (١٨٦/١).

ثالثًا: بعض ما يستفاد من الحديث:

في الحديث قاسم يشترك فيه كل خارجي مع نظيره قديمًا وحديثًا وهو مرض العجب المفضي بهم للغلو، فبين الغالين من غلاة التفجير وغلاة التجريح وغلاة المعادين للسنة وغلاة المعارضين لما أجمع عليه سلف الأمة بين هؤلاء جميعًا وغيرهم من الغالين على تناقض ظواهرهم وربما إنكارهم على بعضهم بل والتنافر الشديد أحيانًا بينهم نجد بينهم جميعًا مرضًا مشتركًا متوطنًا يسفر عن عجب بما يفهمون وعن غلو فيما يعتقدون وكيف يفكرون ويحكمون ويقررون؛ إذ الغلو بوابة كل شر مهما حسنت النوايا -وذلك على أحسن الظنون بهؤلاء أهل الرزايا- فلولا الغلو ما وقع المشركون في شركهم حين غالوا في الصالحين بحسن نية فصرفوا من العبادة مما هو حق خالص لله إليهم، ولولا الغلو ما خرج من خرج على أمير المؤمنين رابع الخلفاء الراشدين

Upload by: altawhedmag.com

علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ولولا الغلو ما خرج الناس عمومًا على الأمراء والعلماء وأولياء أمورهم، ثم لولا الغلو في عصرنا الحاضر ما رأينا هذه الفئات المريضة من البشر والتي يجمع بينها صفة نفسية سلوكية مركبة في نفوسهم هي عقيدتهم بصحيح فهمهم وعميق ذكائهم، وهذه العقيدة المرضية يسفر عنها سلوك عنوانه غلو في كل ما يسلكون فنصبوا أنفسهم حكامًا على العامة والخاصة، بل وعلى العلماء والأمراء والأولياء، ثم ترتب على غلوهم وأحكامهم وما منحوه من حق لنفوسهم، ترتب عليه سلوك آخر هو أجرم وأشنع من تفسيق وتبديع وتجريح وتدمير وتحريق؛ فرأينا منهم للبلدان تخريبًا، وللعباد تجريحًا على اختلاف مشاربهم وموارادهم وتناقض ظواهرهم ومآربهم، لكنهم يشتركون في قاسمهم، وهو ما أسلفنا من العجب المفضي للغلو، وفضلاً عن كونه مرضًا نفسيًا فهو كذلك مكتسب لجهل حتمي فلا يبالون بعواقب أقوالهم وأفعالهم!!!

ولا يفهمون كلام العلماء فينسبون إليهم ما ليس من مذاهبهم؛ قال شيخ الإسلام - رحمه الله - في رده على من أطلق الهجر وعدمه: " وكثير من أجوبة الإمام أحمد وغيره من الأئمة، خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله، أو خرج خطاباً لمعيَّن قد عُلم حاله، فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، إنما يثبت حُكمُها في نظيرها، فإن أقواماً جعلوا ذلك عاماً" مجموع الفتاوى (٢١٣/٢٨).

وكذلك من قواسمهم وأمراضهم نصب العداء بغير سبب واصدار أحكام بغير علم فيصنفون خلق الله تمييعًا والحكمة تلوثا، ويعدون العفو سيئة والسيئة كفرًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- كما في "مجموع الفتاوى (٧٣/١٩) مبينًا بعض أصول أهل البدع: " وهذا أصل البدع التي ثبت بنص سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم واجماع السلف أنها بدعة :هو جَعْل العفو سيئة، وجعل السيئة كفرًا، فينبغي للمسلم أن يحذر من هذين الأصلين الخبيثين، وما يتولد عنهما من بُغض المسلمين، وذمهم، ولعنهم، واستحلال دمائهم وأموالهم".

ثم رأينا من تأصيلهم لغيهم رأينا بذلهم من الجهد والمال والجاه في التشنيع على المخالف، ومحاولة إسقاطه بأي وسيلة، حتى خرج النزاع -في كثير من الأحوال- عن كونه ابتغاء مرضاة الله، والانتصار لحرمات الله؛ إلى انتصار للنفس والهوى مما يعجب منه عصاة المسلمين، فضلاً عن الطائعين ويفرح له المخالفون فضلاً عن غير المسلمين (وينظر كتابي: القواسم المشتركة بين غلاة التفجير والتجريح، والتوضيح في نصح غلاة التجريح).

فالله الله يا هؤلاء تعالوا إلى كلمة سواء، هذا إن كنتم في التوبة ترغبون، وللجنة تسعون، وللحديث صلة إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

مرض الغلو بين خوارج الماضي ومرضى العصر

أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإننا قد تفضل الله علينا في شهرنا الخالي أن ابتدأنا شرح حديث ذي الخويصرة المشهور، وشهرته جاءت من كونه علاجًا ناجعًا لمرض مستوطن فاجع أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بوقوعه فوقع؛ فصار دليلاً من دلائل النبوة، ووصف فيه العلاج فصار ترياقًا لما أصاب الأمة، وقد أسلفنا من ذلك ما تيسر ونستعين الله فيما يتيسر.

الحديث:

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: بَيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَقْسِمُ قَسْمًا، أتاهُ ذُو الخُوَيْصِرَةِ- وهو رَجُلٌ من بَنِي تَمِيمٍ- فقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، اعْدِلْ، فقالَ: ويْلَكَ! ومَن يَعْدِلُ إذَا لَمْ أعْدِلْ؟! قدْ خِبْتَ وخَسِرْتُ إنْ لَمْ أكُنْ أعْدِلُ. فقالَ عُمَرُ: يا رَسولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لي فيه فأضْرِبَ عُنُقَهُ؟ فقالَ: دَعْهُ، فإنَّ له أصْحابًا يَحْقِرُ أحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ، وصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إلى نَصْلِهِ فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى رِصَافِهِ فَما يُوجَدُ فيه شيءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى نَضِيِّهِ- وهو قِدْحُهُ- فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى قُذَذِهِ فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، قدْ سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أسْوَدُ، إحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المَرْأَةِ، أوْ مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، ويَخْرُجُونَ على حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ. قالَ أبو سعيدٍ: فأشْهَدُ أنِّي سَمِعْتُ هذا الحَدِيثَ مِن رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأشْهَدُ أنَّ عَلِيَّ بنَ أبِي طَالِبٍ قاتَلَهُمْ وأنَا معهُ، فأمَرَ بذلكَ الرَّجُلِ، فالْتُمِسَ فأُتِيَ به، حتَّى نَظَرْتُ إلَيْهِ على نَعْتِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي نَعَتَهُ.

أولاً: التخريج:

متفق عليه وسبق تخريجه.

ثانيًا: الشرح: (ينظر في العدد السابق تفضلاً).

Upload by: altawhedmag.com

ثالثًا: مما يستفاد من الحديث (إضافة لما أسلفناه في العدد السابق):

١- مرض العُجب المفضي للغلو، وقد أسلفنا تفصيله فليراجع تفضلاً للأهمية.

٢- في الحديث علامة من علامات النُّبوَّة؛ إذ تحقق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من ظهور هؤلاء الغالين وجرأتهم على رابع الخلفاء الراشدين سيدنا علي رضى الله عنه وعنهم أجمعين، بل وجرأة جدهم ذي الخويصرة قبل ذلك على سيد المرسلين بمروقهم من الدين.

٣- فيه بيانُ أنه مع تنوع أشكال المخالفة فإن من سمات المخالفين المشتركة الخروج على هدي سيد المرسلين بأشكال شتى تناسب أشكال المخالفة، مع التدليس والتلبيس على متبعيهم من مقلديهم الغالين في قناعتهم بأفكارهم وما يفهمون، وليس أدل على ذلك- وليس سرًا- ما يخرج علينا به المخالفون ليلاً ونهارًا سرا وجهارًا من إنكارهم للسنة حينًا، وخروجهم على هدي رسولنا صلى الله عليه وسلم حينًا آخر، ثم التعدي على جناب أصحابه سادة الأمة أحايين أخرى، وثمة فئات أخرى من فئات المخالفين في الفضائيات يهرفون بما لا يعرفون فما تركوا بيتًا إلا وفيه يعيثون ولا واديًا إلا وفيه يهيمون، وفئات أخيرة مريضة مصيبتها أنها محسوبة على الملتزمين لكنها رفعت عقيرتها بلمز وهمز وتطاول وتجاسر على العلماء العاملين والسادة العالمين لا يرقبون في مؤمن إلًا ولا ذمة، وكأنهم صاروا قضاة حاكمين، وعمومًا كلها أمراض فقط تتعدد صور غواية الشياطين؛ فالله حسبنا يقوض ما يدبرون.

٤- وفي الحديث من حلم النبي صلى الله عليه وسلم وصبره على الأذى ما هو ظاهر لكل متبع له ومتأس، فهلا يصبر الدعاة على المخالفين وقد حلم نبينا على هؤلاء الغلاة الجاهلين الخارجين مراعاةً لمصالح الدعوة ومفاهيم الدين. إن أشد الأمراض فتكًا في جسد أمتنا المخلوق على الفطرة النقية داء الاختلاف الذي يرفع رايته كل مريض ثم يسميه بمسمى يسوغه به لنفسه ويصدره به للآخرين ولو توقف لحظة أمام مقام النبوة والسادة الأصحاب والتابعين لوجد في سيرة طالب الجنة ما يغنيه عن هذا الشقاق وما يحتم عليه مشروع الوفاق وأقول مشروعه حتى لا يصار إلى حطب الليل وغثاء السيل.

٥- إن للمؤلفة قلوبهم حقًا من الزكاة معلومًا وتأليف قلوب المبتدئين بالهدايا ليس بمذموم بل هي سنة مهجورة فلا يطعن بعد ذلك على إيمانهم أن قلوبهم بالهدايا تألفت وعندنا فيه سُنة، ففي الصحيح عن أنس (أنَّ رجُلاً سأل النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم غنمًا بيْنَ جبلَيْن، فأعطاهُ إيَّاهُ، فأتى قومَهُ فقال: أيْ قوْم أسْلمُوا، فوَاللَّه إنَّ مُحمَّدًا ليُعْطي عطاءً ما يخَافُ الفقْر، فقال أنَسٌ: إنْ كان الرَّجُلُ ليُسْلمُ ما يُريدُ إلاَّ الدُّنيا، فما يُسْلمُ حتَّى يكون الإسْلامُ أحبَّ إليْه منَ الدُّنيا وما عليْها) (رواه مسلم ٢٣١٢).

٦- وفيه أن من صفات الخوارج سوء الأدب، والجرأة مثلما كان مع مقام النبوة فلقد رأينا من يتهم صاحب المقام الأسمى بحظ من النفس، ثم يخطب فيه وكأنه للنبي في وعظ ودرس، هذا وإن من تجرأ على الرسول صلى الله عليه وسلم فإن ما دون رسول الله من باب أولى وليس ما نراه اليوم ببعيد من جرأة نوابت من الشباب ما استقام لهم عود ولا اشتد لهم ساعد ولا عرف منهم معروف ولا من البذل للدين من خصلة غير أنهم جعلوا الجرأة على الأولياء وتجريحهم للعلماء

Upload by: altawhedmag.com

أول طريق السالكين، وليسوا بذلك في أفعالهم مبتدعين فليس واحد من هؤلاء إلا وله شيخ هو منه صورة إذا عدنا بالشيخ القهقرى بضع خطوات.

٧- وفيه أن من صفاتهم: الحكم على النيات والسرائر، وهي أمر غيبي لا يطّلع عليه إلا الله عز وجل، فقد تجرأ جدهم الأكبر وحكم على فعل النبي صلى الله عليه وسلم بعدم الإخلاص وحاشاه، ولا يخفى أن الإخلاص أمر غيبي لا يعلمه إلا علام الغيوب ثم تجد من خلوفهم الجدد من رفع راية جده فتجده قائم على أفعال الناس بحكمه ومفسر لها بهواه وفهمه.

٨- وفيه أن من سماتهم قلة العلم مع تعالمهم بضده وهل أوقعهم فيما يفعلون إلا الجهل المركب فينظرون إلى بعض النصوص ويهملون الأخرى، أو ينظرون إلى حكم لا يفهمون مناطه هذا على أحسن الفروض إن صحت النوايا. ومن آيات ذلك أن من عجيب استدلالاتهم أنهم قد استدلوا بهذا الحديث الذي هو عين الإنكار عليهم استدلوا به في جواز الإنكار على الولاة جهرة، ولا يقال في مثل هذه إلا كما قال القائل:

أوردها سعد وسعد مشتمل
ما هكذا يا سعد تورد الإبل

٩- ومن غلوهم وظلمهم وقناعتهم بأنفسهم وغرورهم: حصرهم نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحكام والولاة، فلا يذكر من عيوبه عيبًا، ولا يحمل على كاهله من رعيته حملاً؛ فعيوب الناس في نظره كبائر وكبيرته في عقله صغائر مغفورة وربما حسنات مبرورة.

١٠- وفي الحديث خطورة الكلمة وتأكيد أن الخروج كما يكون بالسيف يكون بالكلمة، بل إن فتنة الخروج بالكلمة أشد، وبيانه:

أ- إن الخارج بالسيف مصيره الهلاك، ويستراح من شره فور ظهور بدعته، أما الثاني فإنه يؤلب الناس ليلاً ونهارًا سرًا وجهارًا، وربما لا تُدرك فتنته إلا بعد اشتعال نيرانها.

ب- إن الغالب على الناس تهيب الخروج بالسيف، وأما الخروج بالكلمة فأمرٌ يسير يقدر عليه كل فارغ مريض.

ج- إن الخروج بالسيف لا يبدأ إلا بعد الخروج بالكلمة؛ إذ الفكر والاعتقاد طريق للقتل والإفساد.

١١- وأخيرًا فيه الفارق العظيم بين أهل التقى وأهل البدع في التعامل مع السادة العلماء وولاة الأمور والخلفاء؛ فأهل السنة وسط بين الغلاة والجفاة وبين الإفراط والتفريط وبين الأمن والإياس، ولي راجع في هذه الفائدة مقال ماتع نوره ساطع في الشهر الخالي عنوانه (هذه عقيدتنا) لفضيلة الدكتور نائب الرئيس العام.

١٢- وكذلك من سماتهم: سرعة مروقهم من الدين وانحرافهم عن هدي سيد المرسلين مهما تظاهروا بكثير عبادة أو عميق زهادة وغالب عبادتهم لا تخلو كذلك من غلوّ وانحراف وجهل وإجحاف.

وعليه فإن ميزان تقدير ظواهر العباد في الدنيا هو الكتاب والسنة، وما عليه صحيح فهم سلف الأمة فلا اغترار بكثير صلاة ولا انخداع بطول صيام مع كامل التقدير للعُبّاد وجميل المحبة والتأسي بالصالحين الزهاد طالما وافقوا الهدي وتأسوا بسيد الخلق.

وفي هذا القدر كفاية، وللحديث صلة إن شاء الله، ونسأل الله القبول.

Upload by: altawhedmag.com

باب السنة الحلقة الأخيرة

مرض الغلو بين خوارج الماضي ومرضى العصر

إعداد: أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإننا قد تفضل الله علينا في شهرين متاليين - ربيع الأول وربيع الآخر- في شرح مختصر لحديث ذي الخويصرة المشهور، وقد منَّ الله علينا بذكر فوائد ولطائف لعلها تكون لدى القارئ المتفضل مبرورة وفي تقدير كاتبها الفقير الضعيف غير مأزورة، ولتتمة الكلام نقول:

ذكر الحديث:

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: بينما نحنُ عندَ رسولِ اللَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يقسِّمُ قسمًا، أتاهُ ذو الخُويصرةِ-وهو رجلٌ من بني تميمٍ- فقال: يا رسولَ اللَّه، اعدلْ، فقال: ويلَك! ومن يعدلُ إذا لم أعدلْ؟! قد خبتُ وخسرتُ إنْ لم أكنْ أعدلُ. فقال عمرُ: يا رسولَ اللَّه، ائذنْ لي فيه فأضربَ عنقَهُ؟ فقالَ: دعْهُ، فإنَّ لهُ أصحابًا يحقرُ أحدُكم صلاتَهُ مع صلاتِهم، وصيامَهُ مع صيامِهم، يقرؤونَ القرآنَ لا يجاوزُ تراقيَهُم، يمرُقونَ من الدِّينِ كما يمرُقُ السَّهمُ من الرَّميةِ، ينظرُ إلى نصلِه فلا يوجدُ فيه شيءٌ، ثمَّ ينظرُ إلى رصافِه فما يوجدُ فيه شيءٌ، ثمَّ ينظرُ إلى نضيِّه-وهو قدحُه- فلا يوجدُ فيه شيءٌ، ثمَّ ينظرُ إلى قذذِه فلا يوجدُ فيه شيءٌ، قد سبقَ الفرثَ والدَّمَ، آيتُهم رجلٌ أسودُ، إحدى عضديْه مثلُ ثدي المرأةِ، أو مثلُ البضعةِ تدردرُ، ويخرجونَ على حينِ فرقةٍ من النَّاسِ. قالَ أبو سعيدٍ: فأشهدُ أنِّي سمعتُ هذا الحديثَ من رسولِ اللَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأشهدُ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ قاتلَهُم وأنا معهُ، فأمرَ بذلكَ الرَّجلِ، فالتُمِسَ فأتيَ به، حتَّى نظرتُ إليهِ على نعتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي نعتَهُ.

أولاً: التخريج: متفق عليه وسبق تخريجه.

ثانيا: الشرح: سبق تفصيله.

ثالثا: ونشير إلى مختصر لما أسلفناه من فوائد: (وينظر تفصيله: في العدد السابق وما قبله تفضلاً).

١- مرض العجب بالنفس يفضي للغلو.

٢- في الحديث علامة من علامات النبوة.

٣- فيه بيان أنه مع تنوع أشكال المخالفة: فإن من سمات المخالفين المشتركة الخروج على هدي سيد المرسلين.

Upload by: altawhedmag.com

٤- وفي الحديث من حلم النبي-صلى الله عليه وسلم- وصبره على الأذى.

٥- أن للمؤلفة قلوبهم حقًا من الزكاة معلوم.

٦- وفيه أن من صفات الخوارج سوء الأدب، والجرأة.

٧- وفيه أن من صفاتهم: الحكم على النيات والسرائر.

٨- حصرهم نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحكام والولاة.

٩- وفي الحديث تأكيد لمن قال: إن الخروج كما يكون بالسيف يكون بالكلمة.

١٠- ومن سمات الخوارج: سرعة مروقهم من الدين، وانحرافهم عن هدي سيد المرسلين.

رابعا: تتمة لبعض ما يستفاد خلافًا لما سبق:

١١- في الحديث من جميل الفوائد أن ميزان تقدير ظواهر العباد في الدنيا هو الكتاب والسنة وما عليه صحيح فهم سلف الأمة، وعليه فإن التعبُّد إلى الله بمحبة الصالحين وتقديرهم يكون بحسب اتباعهم للشرع لا بحسب موافقة الهوى، وان الصدق في ذلك يكون بتعظيم النص الشرعي بفهم صحيح وتطبيق صحيح لهذا الفهم الصحيح. واننا في هذا لسنا أسرى لأفكار مستوردة خارجية، ولا هلوسات هدامة مرضية منابعها أشتات بحسب حال المريض، ومصبها فتنة وفساد عريض؛ فمن غالٍ في التجريح في العلماء والأمراء، وبَغْض الصالحين، ومن غالٍ في التكفير أو التفجير أو الإنكار أو الإعراض عن هدي سيد المرسلين، ومن غالٍ في المبالغة في شأن المبتدعين وتقديمهم وتصدرهم، وكله في آخره له قواسم مشتركة المنبع والمصبّ، منبعها قلب مريض، ومصبها فساد عريض.

وفي التدليل على هذا من الآثار ما لا يحصيه حريص؛ فمنه هذا الحديث الشريف، إذ لا يغتر متتبع لما يبديه بعض الغالين المبتدعين من تنسُّك على غير الهدي النبوي، لدرجة أننا قد نرى من ظاهرهم ما أخبر به الرسول الأمين: (تنكرون صلاتكم إلى صلاتهم)، ومع هذا لا ينفعهم تنسكهم الغالي؛ إذ هو مروق رخيص. ومما يشتهر في ذلك: ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على المنطقيين (ص:٥١٥-٥١٦) قال: "وقال غيرُ واحد من الشيوخ والعلماء: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي".

وقال يونس بن عبد الأعلى الصدفي: قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، فقال الشافعي: قصَّر الليث رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة" (ينظر: شرح الطحاوية ج٢/٧٦٩).

فلا يغرنا من ظواهر المخالفين تنسكهم على غير الهدي النبوي الكريم، ولا يخدعنا من عناوينهم ما أعلنوه من معسول اللفظ، وخلاصته فإن ديننا الصحيح ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بفهم صحيح وتطبيق صحيح لهذا الفهم الصحيح.

١٢- ومن سمات وأمراض هؤلاء الغالين مع قلة العلم- كما أسلفنا في الحلقة الماضية- نجدهم مع هذا متعالين؛ فنجد منهم نفسنة المزاحمة للعلماء، فتجدهم يسارعون في الفتوى، ويحرصون على تصدُّر المجالس والتدليل بهذه الصفة على المرض هو أرحم وصف وعلى أقل تقدير إن لم يكن ما هو أنكى من ذلك وأبكى؟!

لا يرجعون لأهل العلم والفضل إلا من وافق هواهم، فيرى الواحد منهم نفسه لابن عباس رضى الله عنهما في تفسيره قرينًا، ولباقي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في تفكيره شبيهًا، ولستُ في ذلك مبالغًا فليست عبارة (هم رجال ونحن رجال) التي يرفعون بها عقيرتهم ليست عن المسامع ببعيدة، ولا جرأتهم على الصحابة بل

Upload by: altawhedmag.com

وجناب الرسالة عن المتتبع بخافية؛ فقد قرأنا ثم عايشنا وعاينا جُملًا مثل هذه مكرورة مشتركة بين غلاة التجريح والتكفير والتفجير والإنكار والإعراض؛ إذ كله مشكاته واحدة، قلب مريض وعقلٌ مغيب.

هدي السلف تجاه الفتوى ومحبة التصدر:

هذا ومن المعلوم من حال الصحابة رضي الله عنهم بالضرورة ومن تبعهم بإحسان من أهل العلم أنهم يدفعون الفتوى ويتدافعونها، ولا يحبون التصدر ويهربون منه، والآثار في هذا كثيرة، منها ما ذكر النووي في أدب الفتوى والمفتي والمستفتي روايات وأقوال تحذر من التجرؤ والتسرع في الفتوى منها قوله: "وروينا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: "أدركتُ عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول".

ثم ما اشتهر عن الشعبي والحسن وأبي حصين قالوا: إنَّ أحدكم ليُفتي في المسألة، ولو وردتْ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر.

١٣- ومما يستفاد من الحديث أن من أمراض الغالين المخالفين أنهم يلبسون الحق بالباطل، فينطقون بعناوين ظاهرها فيه الرحمة والصحة وباطنها فيه البطلان والعذاب. ولذا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمثال هؤلاء: "سيخرُجُ في آخر الزمان قومٌ أحداثُ الأسنان، سُفهاءُ الأحلام، يقولون من خير قول البرية" رواه البخاري ومسلم.

قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث: وقولُه صلى الله عليه وسلم: "يقولون من خير قول البرية"، معناه في ظاهر الأمر، كقولهم لا حكم إلا لله، ونظائره من دعائهم إلى كتاب الله تعالى والله أعلم: اهـ. وأما حقيقة أمرهم فالله به عليم.

ومن هذا مقولة اشتهرت بين الناس وانتشرت، روجت لها وسائل الإعلام، وسرت على ألسنة حداد من بعض الأنام، وراجت في مواقع التواصل والفواصل وعبر بعض البرامج المأجورة المأزورة ألا وهي قولهم: لا أحد فوق النقد.

وهذا قول فادح فاحش أريد به الهدم لا النقد، فضلاً عن رده ورفضه؛ إذ هو مخالف لأصل عقيدتنا.. فنحن المسلمون نعتقد أن الذات الإلهية فوق النقد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فوق النقد، وما جاء في الكتاب والسُّنة فوق النقد، وأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فوق النقد، وما أجمعت عليه الأمة فوق النقد.

فمخالفة الإجماع خروج عن سبيل المؤمنين؛ قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥)؛ قال السمرقندي في "تفسيره": وفي الآية دليلٌ على أن الإجماع حُجة؛ لأن من خالف الإجماع فقد خالف سبيل المؤمنين. اهـ. وما تلقته الأمة بالقبول محلُّ اتفاق، فمن هو الذي سيجعل عقله حاكمًا على عُقول علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟!

وختامًا فإننا نقول: إن الذي سطرناه هو قولة حق تجاه هؤلاء السادة من العلماء والأمراء يجب بيانه وسلوك حكيم تجاه أولياء أمورنا يجب سلوكه مهما كان ذلك هضمًا لحق أنفسنا؛ فالمسلم يعيش حياته بحسب النصوص الشرعية، وفهمها وتطبيقها لا بحسب انفعالات حماسية ومطالب دنيوية ونزوات شخصية تحركه وتحكمه.

والله من وراء القصد، وفي هذا القدر الكفاية، وأستغفر الله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com



رسائل أهل الإسلام في الدفاع عن خير الأنام عليه الصلاة والسلام

إعداد: أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإنه من آن لآخر تحل علينا أحداث باطنها فيه الرحمة لأهل الإيمان، وظاهرها العذاب من قبل أهل الطغيان. والأحداث متكررة، فالفعل والفاعل والمفعول والدافع وحقيقة الأمر وأصله وما وراء ذلك واحد تقريبًا؛ فلو اختلف الشكل فالمضمون واحد.

لكن اللافت المحزن أن ردود أفعال المسلمين تجاه هذه الأحداث نراها لا تكاد تختلف كثيرًا، فنراهم يحزنون ثم يشجبون، ثم ينسون فيهدؤون، وربما يزيد بعضهم كما فعل معنا كثير من الطيبين، فيطالبوننا بوقفتنا وقومتنا ودورنا وريادتنا كدعوة للتوحيد، ولا مانع من ذلك كله؛ فالدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم باللسان سنة ماضية وفريضة واجبة باقية، وبيان ذلك قصص حسان بن ثابت وأمثاله ومطالبة النبي صلى الله عليه وسلم لهم بذلك ليست عن الناس بخافية.

لكن الذي ينقمه الحكماء من صالح الفلاسفة والعلماء هو تكرار نفس الدور بنفس الطريقة والانتهاء لنفس النهاية والنتيجة بغير إنجاز مذكور مشكور؛ فهل هذا أمر معقول مقبول؟

لذا كانت هناك رسائل من مجلتنا، لعل من أهمها:

أولها: استجابة لنداء المحبين ببيان موقف دعوة التوحيد تجاه المتجرئين علي نبينا الأمين صلى الله عليه وسلم وهو ليس بنافلة بل واجب ودين، وكذا توجيه شيوخنا وسادتنا بفروعنا وجمعيتنا بضرورة القيام بحق خير الأنام على الوجه الصحيح بعيدا الشطط والغلو وفي طريق التعليم والدعوة والتهذيب والسمو فيكون حفاظا على عقيدتنا وشريعتنا وأمننا ودولتنا.

ثانيها: قلت لا أحرم من المشاركة ولو بعبارة أو رسالة مختصرة تقول: إن الدفاع عن نبينا الكريم، وإن كان فرضًا على المسلمين ديانة فهو في حقيقته من العدل والإنصاف وفي حق غير المسلمين نخوة وشهامة وأمانة فرسول الله جاء ليخرج الناس أجمعين من عبادة العباد لعبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا لسعة الدنيا والآخرة، فآمن به من آمن؛ فأحسن لنفسه فأعتقها، وتخلف عن الخير من تخلف فأساء لنفسه وأوبقها، فكان على المحسن لنفسه والمسيء واجب الدفاع جميعًا عن رحمة الله للعالمين، وهل يستحق مُنقذ البشرية منها أقل من هذا القليل من العدل والفرار من الجور والهطل؟

ثالثها: لقد طمأن النبي صلى الله عليه وسلم المحبين على دين رب العالمين الذي ارتضاه الله للخلق أجمعين بما رواه أحمد والحاكم وغيرهما من حديث تميم الداري رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلًا يذل الله به الكفر" قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧/٦): رجاله رجال الصحيح. وقال الألباني في "تحذير الساجد" (١٥٨): على شرط مسلم، وله شاهد على شرط مسلم أيضًا.

لكننا وإن كان قطار الخير واصل غايته لا محالة فمن المعتقد المفهوم لدى العقلاء من كلام الله وسنة خير الأنبياء أن "كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها" و"أن سلعة الله غالية وسلعة الله الجنة" (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) و(إن العزة لله جميعًا)، فهلا كانت البيعة الآن لربنا للقيام بواجبنا تجاه ديننا ونبينا، والعلم لمن أراد الزيادة مبذول، والخير لمن أراد المشاركة منشور؛ فضروا إلى الله، إنه نعم المولى ونعم النصير.

Upload by: altawhedmag.com

تذكير النُبَلاء ببيان فضل الغربة وقوة الغُرَباء



أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب مشرف القسم

الحمد لله كما أمر، والصلاة والسلام على خير البشر: محمد وآله ومن صحبه وتبعه ومن حضر. وبعد:

فحديثنا هذه المرة:

عنْ أبي هُريرة، قال: قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «بَدأ الإسْلامُ غريبًا، وَسيعُودُ كَما بَدأ غريبًا، فَطُوبى للغُرباء» رواه مسلم.

تخريج الحديث:

رواه مسلم في: ١- كتاب الايمان، ٦- باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا، وأنه يأرز بين المسجدين، رقم (١٤٥)، (١/ ١٣٠). وانفرد به عن البخاري رحمهما الله.

ورواه ابن ماجه في سننه: ٣٦- كتاب الفتن، ١٥- باب بدأ الإسلام غريبًا، رقم الحديث (٣٩٨٦)، (٢/ ١٣١٩-١٣٢٠).

فوائد على التخريج:

١- هذا الحديث وبحسب أقوال أهل العلم من متواتر المعنى على الأقل إن لم يكن من متواتر اللفظ في بعض عباراته؛ إذ قد وردت رواياته حول قضيته ومعناه- باختلاف سياقاته وعباراته- من طرق كثيرة جدًا، موصولاً ومرسلاً، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم عدد كبير من الصحابة يربو على العشرين، وأشير إلى بعضها مما في ألفاظه زيادة تفيد في معناها.

٢- وأشهر روايات الحديث مما تفضل الله عليّ بالوقوف عليه من الصحيح منه هي:

- رواية عبدالله بن عمر رضى الله عنهما، وخرج له مسلم «إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا، كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين» (رواه مسلم في: ١- كتاب الايمان، ٦٥- باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وأنه يأرز بين المسجدين، حديث رقم (١٤٦)، (١/ ١٣١).

- ورواية عبدالله بن مسعود، وخرج له الترمذي وابن ماجه.

- رواه الترمذي في سننه: ٤١- كتاب الإيمان، ١٣- باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا، رقم الحديث (٢٦٢٩)، (٥/ ١٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن مسعود، وانما نعرفه من حديث حفص بن غياث عن الأعمش.

- ورواه ابن ماجه في: ٣٦- كتاب الفتن، ١٥- باب بدأ الإسلام غريبًا، حديث (٣٩٨٨) بنحوه، وزاد: قال: قيل: ومن الغرباء؟ قال: النُزّاع من القبائل: (٢/ ١٣٢٠).

- ورواه أنس بن مالك وأخرجه له ابن ماجه، بلفظ حديث

Upload by: altawhedmag.com

أبي هريرة رواه ابن ماجه في، ٣٦- كتاب الفتن، ١٥- باب بدأ الإسلام غريبًا حديث رقم (٣٩٨٧)، (٢/ ١٣٢٠).

- ورواه عمرو بن عوف المزني رضى الله عنه (وكان أحد البكاءين الذين قال الله تعالى فيهم: «تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ» (التوبة: ٩٢). وخرج له الترمذي ولفظه: «إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها، وليعقلن الدّين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل، إن الدين بدأ غريبًا، ويرجع غريبًا، فطوبى للغرباء الذين يُصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي». رواه الترمذي في: كتاب الإيمان- باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبًا... برقم (٢٦٣٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وفي بعض النسخ: حسن، كما في المطبوع مع تحفة الأحوذي (٧/ ٣٨٣).

- ورواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن عنده: «طوبى للغرباء، فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: أناس صالحون، في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم». (١٤). رواه الإمام أحمد في مسنده في موضعين: (٢/ ١٧٧)، (٢/ ٢٢٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤/ ١٥٣).

- ورواه عبد الرحمن بن سنّة رضى الله عنه: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «بدأ الإسلام غريبًا، ثم يعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء. قيل: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس. والذي نفسي بيده لينحازنّ الإيمان إلى المدينة كما يحوز السيل والذي نفسي بيده ليأرزن الإسلام إلى ما بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها». (رقم ١٦٣٤٤ من مسند أحمد).

- ورواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء، فقالوا: يا رسول الله من الغرباء؟ قال: الذين يصلحون عند فساد الناس» (مجمع الزوائد على الكتب الستة ج٧ ص ٢٧٨).

٣- وبعد فقد ورد غير ذلك مما لا يخلو سنده من مقال في غير الكتب الستة عن ابن عباس، وبلال وجابر بن عبد الله وسلمان وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

المعنى العام للحديث:

إن الله سبحانه بعث رسوله بنور التوحيد والإيمان، وأهل الأرض على اختلاف من الأديان، فهم بين عُبّاد أوثان ونيران، وصابئة وكهنة وصور وصلبان، فكان الإسلام والذي يسلم حينئذ يصير غريبًا في حيّه وقبيلته، وبين أهله وعشيرته.

بدأ الإسلام غريبًا حينما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إليه: فلم يستجب له إلا الواحد بعد الواحد، فكان حينذاك غريبًا بغربة أهله، لقلتهم وضعفهم مع كثرة خصومهم وقوتهم وتسلطهم وطغيانهم، ثم صدق الله وعده فأعز جنده ونصر عبده وهزم الأعداء وحده فقامت دولة الإسلام وانتشر التوحيد والأمن والإيمان وجعل سبحانه كلمة الكفر هي السفلى، وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم، واستمر الأمر على ذلك زمنًا، ثم بدأ التفرق والوهن ودبّ الضعف دبًا وفشا الفشل شيئًا فشيئًا حتى عاد الإسلام غريبًا كما بدأ، لكن ليس ذلك لقلتهم فإنهم يومئذ كثير، لكنهم كغثاء السيل، وإنما ذلك لعدم تمسكهم بدينهم واعتصامهم بكتاب ربهم وتنكّبهم هدي رسولهم الله صلى الله عليه وسلم إلا من شاء الله فشغلهم بأنفسهم، وبالإقبال على دنياهم فتنافسوا فيها كما تنافس من كان قبلهم وتناحروا فيما بينهم على إمارتها وثرواتها، فتمكن أعداء الإسلام من ديارهم ورقابهم فاستعمروها وأذلوا أمة الاسلام وفتنوها، ولعل هذه هي غربة الإسلام التي عاد إليها كما بدأ بها.

البشارة:

لكنها البشارة وليست الخسارة، البشارة بنصرة الإسلام بعد غربته، واستعادته لقوته بعد غربته في قوله صلى الله عليه وسلم

Upload by: altawhedmag.com

«وسيعود غريبًا كما بدأ»؛ فكما كان له بعد الغربة الأولى عز للمسلمين وانتشار للإسلام، فكذا سيكون له بعد الغربة الثانية نصرٌ وانتشارٌ.

قال أهل العلم: وهذا الرأي أظهر، ويؤيده ما ثبت في أحاديث المهدي ونزول عيسى عليه السلام آخر الزمان من انتشار الإسلام وعزة المسلمين ودحض الكفر والكافرين» (ينظر: «فتاوى اللجنة الدائمة» (٢/١٧٠)، ونقل النووي في شرح صحيح مسلم عن القاضي عياض أنه قال في معنى الحديث نحوًا مما سبق ذكره. انظر: شرح النووي لصحيح مسلم ٢/ ٣٥٢).

وعمومًا فإن من المتفق عليه لدى الفاهمين من العيان أن الاغتراب عن الأوطان من أشد ما يعانيه الإنسان، ونقول فغربة الدين أشد إذ من المؤلم أن يجد الإنسان نفسه بين أهله غريبًا فلا يجد منهم على الحق مُوافقًا ولا على الدرب مرافقًا، فليت شعري أيّ غربة بعد هذه الغربة؟ لذا كان حديثنا من المبشرات المنجيات؛ ليتخذ من سبيل الصالحين الأولين طريقًا ومنهجًا، ويجعل من سيرتهم معينًا ومنهلاً.

ومن الغربة الآتية على سبيل الإجمال:

وليس عجبًا عندما نسمع عن أشكال جديدة لمقدسات مختلفة المنابع والموارد كالاشتراكية والعلمانية والحداثوية والمثلية والحرية العبادية، ونحوها من العناوين الظلامية من المشتركات اللفظية في مآربها وان تعددت مصادرها ومواردها فهي غربة جديدة سبقتها غربة أولى، قال أهلها عندما جاءهم البشير يدعوهم إلى الحرية الحقيقية، فيخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة قالوا: «أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ» (ص:٥)، وقالوا: «مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ» (ص:٧).

طوبى للغرباء

طوبى للغرباء الأولين من السلف وأتباعهم الطيبين من الخلف أهل الاستقامة والديانة وصفهم عليه الصلاة والسلام: (الذين يَصْلُحون إذا فسد الناس)، وفي لفظ آخر: (يُصْلحون ما أفسد الناس من سُنّتي)، وفي لفظ آخر: (هم النُّزّاع من القبائل)، وفي لفظ آخر: (هم أناس صالحون قليل في أناس سوء كثير)، (الذين يصلحون عند فساد الناس) لهم الجنة والسعادة؛ إذ قد ثبتوا على الحق، واستقاموا على الدين.

وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي». وفي بعض الروايات: هي الجماعة. (رواه الترمذي وغيره والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم والألباني في صحيح سنن الترمذي).

فهنيئًا لفرقة غريبة في الجنة ناجية تواجه اثنتين وسبعين فرقة في النار هالكة، ذات أتباع ورئاسات وولايات، وغايات أهوائهم ولذاتهم، وبدعهم وشبهاتهم هي منتهى فضيلتهم وعلمهم، مقاصدهم وارداتهم.. فلا يقوم لهم سوق ولا يُباع لهم نوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ولا يخفى على أحد ما كان منه الآن من قنوات ومنابر ومناثر، والله المستعان على ما يصفون.

خاتمة خير:

فإن غربة الموحد قوة وبشارة وغربته في أمور دنياه وأخراه، فهو عامل بين بطالين، طالب علم بين قاعدين، صاحب سُنّة بين مبتدعين، داع إلى جنان بين دعاة إلى نيران، آمر بالمعروف، ناهٍ عن المنكر، بين قوم المعروف لديهم منكر، والمنكر عندهم معروف. (وينظر ويستفاد من: مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن القيم ١/١٩٤-٢٠٠، ط. السنة المحمدية).

وللبحث صلة إن شاء الله، وأستغفر الله لي ولكم.

Upload by: altawhedmag.com

باب السنة الحلقة 2

إتحاف النبلاء ببيان فضل الغربة وقوة الغرباء



أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله الذي تفضل علينا بما نحن فيه، والصلاة والسلام على محمد وآله ومتبعيه، وبعد:

فقد تقدمت حلقة في هذا الموضوع تناولنا فيها في الغربة نصًا شريفًا ذكرًا وتخريجًا وشرحًا للمعنى العام، واستمرارًا لما تفضل الله به علينا من خير ومَنّ علينا به من فضل في إدراك حقيقة الغربة، وكونها نعمة من الله؛ نستكمل حديثنا في روضات النص الشريف مشيرين في طيات البحث إلى ما سبق ذكره مجملاً.

الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قال: قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "بَدَأَ الإسلام غريبا، وسَيَعُودُ كما بَدَأَ غريبا، فَطُوبى لِلْغُرَباء" رواه مسلم.

تخريج الحديث:

١- تقدم ذكره فليراجع تفضلاً، واختصارًا فقد رواه مسلم في: كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا، وأنه يأرز بين المسجدين، رقم (١٤٥)، (١/ ١٣٠). وانفرد به عن البخاري رحمهما الله.

٢- وهذا الحديث وبحسب أقوال أهل العلم من متواتر المعنى على الأقل إن لم يكن من متواتر اللفظ في بعض عباراته؛ إذ قد وردت رواياته حول قضيته ومعناه-باختلاف سياقاته وعباراته- من طرق كثيرة جدًا، موصولاً ومرسلاً، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم عدد كبير من الصحابة يربو على العشرين، وأشير إلى بعضها مما في ألفاظه زيادة تفيد في معناها.

المعنى العام للحديث: تقدم ذكره وخلاصته لتسهيل المتابعة:

١- بداية الغربة: بدأ الإسلام غريبًا حين بعث الله رسوله بنور التوحيد والإيمان، وأهل الأرض على اختلاف من الأديان، بين عُبَّاد أوثان ونيران، وصابئة وكهنة وصور وصلبان، فكان الإسلام والذي يسلم حينئذ يصير غريبًا في حيه وقبيلته، وبين أهله وعشيرته.

٢- والبشارة: أن الغربة قوة يتلوها نصر إن شاء الله (سبق تفصيله).

٣- ثم نماذج من الغربة الآنية على سبيل الإجمال: ومن ذلك اجتماع جيوش الشيطان من المشتركات

Upload by: altawhedmag.com

العقدية المنحرفة كالاشتراكية والعلمانية والحداثوية (أي: القراءات الحديثة للنصوص الشرعية المنحرفة عن المفاهيم السنية السلفية)، والمثلية الجنسية والحرية العبادية بكافة صورها الإلحادية، ونحوها من العناوين الظلامية من المشتركات اللفظية في مآربها وان تعددت مصادرها ومواردها فهي غربة جديدة سبقتها غربة أولى قال أهلها عندما جاءهم البشير يدعوهم إلى الحرية الحقيقية فيخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص:٥)، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا﴾ (ص:٧).

٤- فطوبى للغرباء

فطوبى للغرباء الأولين من السلف وأتباعهم الطيبين من الخلف أهل الاستقامة والديانة وصفهم عليه الصلاة والسلام: (الذين يُصلحون إذا فسد الناس).

ولاستكمال بحثنا مما منّ به علينا به ربنا من عرض بعض ما يستفاد نقول:

الفائدة الأولى: الحديث دليل من دلائل النبوة وزيادة الإيمان، ودلائل النبوة من المنح الإلهية لزيادة إيمان المؤمنين وتثبيت الصادقين؛ حيث أخبر النبي الأمين صلى الله عليه وسلم عن شيء سيحدث في المستقبل وهو غربة الإسلام وهو حادث واقع نحياه وواقع مشاهد عايناه، فكان على ألمه وغرابته من مفاخر الإسلام ودلائل الإيمان.

هذا وان كان الشيء بالشيء يذكر وقد لاقى قدرًا أن تسطر هذه الكليمات استعدادًا لعدد المجلة في شهر رجب، وقد سطرتها ليلة السبت في آخر يوم من العام الميلادي المنصرم ووجدنا من الغربة المبشر بها أن الناس من حولنا دخلوا في نزاع لم نسمع عنه من قبل في بلادنا الحبيبة نزاع حول جواز تهنئة غير المسلمين عمومًا أو النصارى خصوصًا بأعيادهم الدينية المتعلقة بعقائد الناس في ربهم وفي نبيهم صلى الله عليه وسلم؛ فقلت: سبحان الله ما من محنة إلا وفي طياتها منحة؛ فمحنة الخوض في هذه الفتنة التي يحدثها مغرضون لا يريدون لنا قرار العين الذي كنا نحياه جميعًا مع غير المسلمين شركاء متبارين كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨). قال أهل التأويل: هذه الآية تدل على جواز البر بين المشركين والمسلمين، وإن كانت الموالاة منقطعة.

قال ابن حجر في الفتح (٥/٢٣٣): "البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادد (أي: القلبي) المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة:٢٢).

وعليه يتضح لكل منصف وسطية الإسلام وسوي دعاته وأوليتهم بالحفاظ على نسيج من المودة بين أبنائه والبر مع الموافق والمخالف وأن الموالاة الممثلة في الحب والنصرة بين أهله شيء والبر والصلة والإحسان لغير المسلمين شيء آخر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الأصل أنه لا يحرم على الناس من المعاملات التي يحتاجون إليها إلا ما دل الكتاب والسنة على تحريمه، كما لا يشرع لهم من العبادات التي يتقربون بها إلى الله إلا ما دل الكتاب والسنة على شرعه؛ إذ الدين ما شرعه الله، والحرام ما حرّمه الله، بخلاف الذين ذمّهم الله؛ حيث حرموا من دون الله

Upload by: altawhedmag.com

ما لم يحرمه الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

وانطلاقاً من هذه القاعدة وبناء على النصوص الشرعية وسيرة خير البرية وأصحابه الراشدين وأئمة المسلمين نقول: إن التعامل مع غير المسلمين في البيع والشراء والهدية والبر مأذون به والمأذون به سنة لا سيما مع هذه الهجمات الشرسة التي تبغي لبلادنا الفتنة وفي بلادنا من البسطاء سماعون لهم فجعلوا الإسلام غريبًا.

وهذا البر قبل فتنتهم كانت بلادنا تحياه بلا فتن في ظل عقيدة صافية تتأصل من صحيح الدين وينشرها من العلماء المخلصين أزاهرة وغيرهم رسميون وغير رسميين، ومن شواهد ذلك كثير من مقالات السادة العلماء ومؤلفات الأكابر المبدعين البلغاء (وينظر: كتاب الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ رئيس قسم الدعوة بجامعة الأزهر في غضون ١٩٢٧م تقريبًا)؛ إذ العقائد من المسلمات التي أمر بصحيحها شرعًا ربُّ الأرض والسموات كما قال تعالى: (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) (الزمر:٧)، حتى وإن ترك للعبد فيها اختياره كونًا كما قال تعالى: (فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) (الكهف:٢٩).

ثم إذا بنا بعد كل هذا البيان الجلي من الرب العلي نجد في هذه الأيام الغابرة المتأخرة جبوشًا من المغرضين خرجوا على مجتمع آمن فاهم مستقر يعرف لكل حقه فخرجوا بنواياهم المخلوطة المشبوهة يصدرون للناس أفكارًا جديدة مغلوطة على جلّ علماء المسلمين، ويا ليتهم ما ركبوا إله الهوى ورجعوا إلى أولي العلم والنُّهى؛ لعلمه الذين يستنبطونه منهم، بل تعالموا بها وتصدروا حتى صار الإسلام الحق المنبثق من الكتاب والسنة صار بين باطلهم غريبًا، فطوبى له وبشرى وحسن مئاب ببشارة النبي العدنان كما قال: "بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ؛ فطوبى للغرباء". (وينظر: السياسة الشرعية ص١٥٥)

الفائدة الثانية: الغربة بمعناها الشرعي قوة يسعى المسلم للحفاظ عليها.

هذا ولما كان من معاني الغربة الشرعية الحقيقية هو تديُّن الخلق بدين الحق المرتضى من الله ثم على الشريعة الصحيحة المنزلة من الله ثم على المنهج الصحيح المفهوم من هذه الشريعة الصحيحة ثم على التطبيق الصحيح لهذا المنهج الصحيح بما يرضي الله نية واتباعًا، إن كان هذا هو خلاصة معنى الغربة؛ فإنه نعمت الغربة التي هي حقيقة الالتزام بدين الإسلام.

وعليه فهذه الغربة هي الموعودة بالنصر من رب الأنام؛ فقلة العدد فيها لا تؤثر، إذ النصر ليس معلقًا بعدد ولا عدة، ولا أسباب، وإنما الوعد متعلق بحقيقة تحقيق التوحيد الخالص المحقق لما سبق من معنى الغربة.

وعليه فيجب ثم يجب ثم يجب أن يعتني دعاة الإسلام بتنقية الصف المسلم من كل شائبة؛ سعيًا لتحقيق هذه الغربة الحقيقة المشرفة المؤملة بالسعادة والنصر والريادة، تنقيتها من كل ما يخالف سواها؛ فتتنقى أولاً: من كل دعي لدين غير دين الإسلام مهما تبهرج وتجمل وانتشر وتعالم وتوج وروج، ثم تتنقى ثانيًا: من كل دخيل على هذا الدين من شرائع مخترعة وطرق مخلوقة مصنوعة ونصوص موضوعة وأوراد وعبادات مؤلفة، ثم تنتقى ثالثًا: من كل منهج فهم خطأ أو تعمد أهله تبنيه جهلاً أو قصدًا من مناهج باطلة مكفرة أو مجرحة أو مفجرة أو معطلة أو منكرة لسنة أو متبنية لبدعة أو محادة لأولياء الله أو خارجة على الأمراء والسادة العلماء الأتقياء، ثم تتنقى رابعًا: من المفاهيم المغلوطة والعلوم القاصرة عن التطبيق الصحيح لصحيح الدين ونقي الشريعة واستقامة المنهج فلا يقل التطبيق الصحيح

Upload by: altawhedmag.com

أهمية عما سبق.

وعلى ما سبق فإن القوة كل القوة في هذه الغربة الصافية النقية ومن توفرت فيه فهو الجماعة ولو كان وحده وهو الأمة ولو كان بمفرده.

هذا وإن كان ما سبق بيانه هو كلام مجمل في حقيقة الغربة فلا يمنع ذلك من ضرب المثال لما انتشر من الأديان المؤلفة والشرائع القبيحة المحرفة والمناهج الفاسدة والتطبيقات الخاطئة الكاسدة.

فنجد فئامًا من الناس يصل بهم التحريف والحيف إلى الاعتراف بما سوى الإسلام دينا وقد قال الله تعالى: (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ) (آل عمران:١٩) وقال: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) (آل عمران:٨٥)؛ فهل بعد هذا البيان من بيان؟ وبعد هذا العنوان من غشيان؟ فأنى لعالم أو داعية أو متبنٍ للقضية أو حتى من عوام المسلمين أني لمن قرأ القرآن أن يدعي هذا الكلام فيقول كل الأديان سواء وأن الجنة ليست حكرًا على المسلمين. ألا فهدى الله وسامح مثل هذا الإنسان مهما زعم علمًا أو حُسن بيان.

وآخرون اعترفوا بما سبق من حقيقة وحدة الدين، وأنه دين كل الأنبياء والمرسلين وأن المنحرف عن الإسلام مغبون وإن مات على غيره فلا يرجى له من الله جنان ولا غفران، لكنهم مع هذا الاعتراف انحرفوا بالشريعة عن حقيقتها فبنوا شريعتهم على غير نص أصلاً أو على نص موضوع غير شريف أو فهم معوج للنص الصحيح، فلا استقامة فيه لفهمهم كتلك التي عجت بها ساحات الموالد وقبور تطفح بالمفاسد والموائد على اختلاف درجاتها من المخالفة من صغائر ممقوتة وشركيات منهي عنها.

وآخرون: تمسكوا بالنص الشريف لكنهم حادوا عن الفهم السوي النظيف فاخترعوا مناهج منحرفة كفرية أو سقيمة بدعية مرضية: فنجد جماعات التكفير والتفجير والتجريح والتبديع والتنفير، فنسبوا بذلك للدين ما ليس منه وصنعوا له وجهًا قبيحًا ليس وجهه فديننا وسطي سمح، ونصوصنا لا ينكسر لفاهمها رمح كما قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) البقرة: ١٤٣.

- وآخرون تجنبوا جميع ما سبق من الانحرافات فهدوا إلى دين الإسلام ثم إلى صحيح الدين ثم إلى منهج مستقيم لكنهم وقعوا في آخر الأمر إلى تطبيق غير مرضي ولا مقبول كمن فهم تغيير المنكر على غير حقيقته فقتلوا وخربوا وهجروا وفتنوا ودمروا وفرقوا: فلله المشتكى والله المستعان.

- ثم لا يفوتنا الإشارة إلى فئة: جمعت بين كل خصال السوء، فلم نعرف لها علمًا ولم نر لها فهمًا، وليتهم على سوء فهمهم وقلة علمهم أراحوا العباد من شرهم إلا إنهم خرجوا على الناس بجهلهم المركب فتبؤوا من المنابر ما أوصلوا به أصواتهم إلى العمائر بل والمقابر، اعترضوا على الله وعلى رسول الله وعلى خير الخلق والقرون وعلى كل داع للخير والجنان ومُحذر من الشر والنيران تركب جهلهم من الأربعة فئات الضالة السابق ذكرها فلا نجد لأمثالهم تفسيرًا إلا أن نقول كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الجاثية: ٢٣)، وما ذكر الهوى في القرآن إلا وهو مذموم.

فكانت غربة المستقيمين بين جحافل المنحرفين قوة لهم تستمد قوتهم من معية رب العالمين وسنة الله في الغابرين، فيا أيها الغرباء بشراكم ببشرى خاتم الأنبياء.

وللحديث صلة إن شاء الله، والأعمال بالنيات، وأستغفر رب الأرض والسموات لي ولكم والمسلمين.

Upload by: altawhedmag.com



سبيل الفائزين وردّ الطاعنين

إعداد: أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله المتفضل علينا بالعبودية، والمتكرم علينا بأسباب الرحمة والسعادة الأبدية، والصلاة والسلام على خير البرية وآله وصحبه ومن كان له وليًا، وبعد:

فإنه قد أطل علينا شهر من أشهر النفحات؛ شعبان من أيام الله المباركات، ومن بركته أنه بشريات بقدوم رمضان شهر الرحمات والبركات، والله نسأل أن يبلغنا الشهر الفضيل سيد الشهور في الدهور، وقد تفضل الله علينا بحديث يجمع بين المعاني والمباني من توضيح لسبيل المؤمنين إلى مرضاة رب العالمين، فضلاً عن رد الطاعنين والانتصار للشرع الحكيم.

الحديث:

عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري -رضي الله عنهما- "أن رجلا سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئًا؛ أأدخل الجنة؟ قال: نعم".

التخريج: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة رقم (٤٤).

مناسبة الحديث ومنزلته:

إن حديثنا الذي تفضل الله به علينا يعد من كنوز السنة كما قال عنه أسلافنا: "فهو جامع للإسلام أصولاً وفروعًا"، (كما قاله ابن حجر الهيتمي في فتح المبين ١٦٢).

Upload by: altawhedmag.com

(وبنحوه قال القاضي عياض في إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم، للأبّي (١/ ١٤٢ ح ١٥). وتفصل في (الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية)٢١٣(فقال رحمه الله: "هذا الحديث عظيم الموقع، وعليه مدار الإسلام لجمعه له؛ وذلك لأن الأفعال إما قلبية أو بدنية، وكل منهما إما مأذون فيه وهو الحلال، أو ممنوع منه وهو الحرام. فإذا أحل الشخص الحلال وحرم الحرام؛ فقد أتى بجميع وظائف الدين".

إذا أتى الإنسان بجميع وظائف الدين فقد حقق المراد من:

١- التربية الإيمانية ونحن في استقبال هذه المواسم الربانية.

٢- وإذا حقق هذه التربية الإيمانية فهو أبلغ رد عملي يترجى معه معية رب العالمين على هؤلاء المتجرئين على الدين.

٣- وكذلك موعظة هؤلاء المتجرئين، وإعلامهم أن نجاتهم لا تكون إلا بتحليلهم الحلال وتحريمهم الحرام، وليس بهذه العقيرة الباطلة التي يرفعون ومرباد السواد القلبي الذي يظهرون، وهو مطلب شرعي في دعوتنا ومنهجنا، فالله نسأل الهداية للجميع.

السائل في الحديث:

السائل في الحديث هو النعمان بن قوقل بن أصرم، شهد بدرًا واستشهد بأُحد، أخرج البغوي أن النعمان قال: أقسمت عليك يا رب ألا تغيب الشمس حتى أطأ بعرجتي في خضر الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد رأيته يطأ فيها وما به من عرج" .الإصابة في معرفة الصحابة ٣/ ٥٦٤ رقم ٨٧٥٥).

المعنى العام:

اللهُ تعالى تفضّل ففرض على عباده فُروضًا، وتفضّل فرتّب على الفروض برحمته وعودًا، ومن هذا ما كان في حديثنا أنّ النُّعمان بن قوقل رضي اللهُ عنه جاءَ إلى النَّبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم، فسأل: هل إذا صلّى ما فرض الله من صلاة وما أوجب الله من صيام، وأحل الحلال وحرم الحرام اعتقادًا وعملاً، ولم يزد على ذلك من النوافل، «شيئًا»، فهل هذا ينجيه من النار ويُدخله الجنّة؟ فقال النَّبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم: «نعمْ»، أي: إنّك لو فعلت هذا تدخُلُ الجنّة، فالله أكبر على ذلكم الموعود على لسان سيد كل مولود.

ومما يستفاد من الحديث:

١- أنّ أول فائدة تصل الفوائد بما سبق من معان فرائد هي حرص الصحابة على الجنة، وما يقرب إليها من عمل؛ وكيف لا وهم خير القرون بشهادة رسولنا المعصوم، وهنا يسيطر على العقل سؤال هو الشاهد من الفائدة هو: وهل يكتفي صحابي فضلاً عن كونه النعمان المجاهد الأبي هل يكتفي من الأعمال بالقليل ويزهد مثله في الكثير من السنة ويترك الفضل وهو المبشر بالجنة؟

فالجواب: لا وألف فوقها، ثم هل يتصور من مسلم حريص على الخير فضلاً عن صحابي جليل أن يُعرض عن السنن بالكلية؟!

وإنما توجيه الحديث من وجوه: أن الله تفضل علينا بذكر القليل من الأعمال رحمة في التشريع ومراعاة الأحوال هذا أولاً. وكذلك فإن المعصوم عندما أتى بالإجمال في التزام العبودية باعتقاد الحلال والحرام والعمل به فاكتفى

Upload by: altawhedmag.com

للاعتقاد من صدق حديثه باللوامع، وللعمل من كلام المعصوم بالجوامع. أقول هذا لنفسي وإخواني ممن أكلهم نمط الحياة السريع فأكسبهم تسارعًا كنمط الحياة الذي نحياه. فاكتفوا من الإسلام بالفرائض. فالسُّنة السنة يا عباد الله. لقد بالغ أسلافنا في فضل السنة حتى قال القرطبي في المفهم: قال علماؤنا: لو أن أهل بلدة تواطؤوا على ترك سنة لقُوتلوا عليها حتى يرجعوا. ولقد كان صدر الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم يثابرون على فعل السنن والفضائل مثابرتهم على الفرائض، ولم يكونوا يُفرّقون بينهما في اغتنام ثوابها.) المفهم شرح مسلم، للقرطبي ١/١٦٦ ح١١).

٢- أن المنع والإباحة اعتقادًا وعملًا لا يكون إلا لله: فلا حلال إلا ما أحلّ الله، ولا حرام إلا ما حرم الله: وتلكم هي ثاني الفوائد، وأهمهما ظاهرة تطل برأسها وتعانق قلوب المؤمنين بقلبها، وهذا هو معنى العبودية. وللعبودية قانون لطالما نقلناه عن أسيادنا العلماء وأخرجناه بألسنة أسلافنا البلغاء يقول منطوقه: إن العبد لا يُحرّك ساكنًا ولا يُسكّن متحركًا إلا بإذن مولاه: أي إلا وهو مأذون له فيه من الشرع، لذا رتب عليها رب العزة هذا الوعد الكريم "الجنة".

هذا وإن من كمال تحرُّر المرء أن ينال شرف العبودية، بالاستجابة لرب البرية فلا حلال إلا ما أحل، ولا حرام إلا ما حرم، ولا يكون إيمانه إلا بذلك كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء:٦٥)، إنّ شرف الاسم بشرف المسمى والمنتسب إليه: فأي شرف أشار إليه الموفق الذي قال:

ومما زادني شرفًا وتيهًا
وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي
وأن صيّرت أحمد لي نبيا

فيا أيها الموفق الحبيب: لا يُغرّنك حقد حاقد، ولا حسد حاسد، ولا تدبير عدو، ولا تحالف الشياطين: فإن دينك محفوظ من رب العالمين، ولا عليك إلا أن تضرب بسهمك وتتمسك بموطن قدمك في قافلة المتسننين الناجين، بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه: فكن رابط الجأش ثابت الأقدام.

هذا ولما كان المراد من ذكر حديثنا الشريف هو الهدفين السالف ذكرهما، وأعني منهج المجلة العلمي، فضلاً عن معالجة الواقع العملي للقيام بدورها المجتمعي، ولما أحاط بنا من حملة شرسة اجتمعت فيها كل جيوش الشر على دين الحق يرمونه عن قوس واحدة: لكنهم أحاطوا به من جوانب شتى فتارة يضربونه في أزهره الشريف المؤسسة الرسمية ليست في مصر، بل في العالم كله، وتارة يضربونه في علمائه من وقتنا الذي نعيشه ووصولاً إلى أصوله من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، إنهم تكلموا في الصحابة والتابعين وفي السلف والعلماء العاملين والأئمة المجتهدين، ثم دخلوا على النصوص الثوابت من العقائد والفرائض، ولم يخطر ببالنا يومًا أن يتكلموا في حادثة فُرضت فيها الصلاة على المسلمين معجزة المعراج، صاحبها تكلم في الصحابة من قبل وتركوه، ثم تكلم عن الحجاب والعفة وما تعرضوا له ولا منعوه، ثم سخر من صريح القرآن وما سجنوه، ثم تعرض لأعراض نسائنا في صعيد مصر الشريف وما أهانوه، ثم ها هو يتكلم في المعراج وما فرض فيه وننتظر قضاء الله فيه.

Upload by: altawhedmag.com

يا أحبابي! القضية ليست في رجل لم يتعلم ويظن خلاف ذلك فوزنه في حياة الناس ليس بشيء كما هو مجمع عليه، لكن القضية أظنها أعمق من هذا: إنها أجندات خارجية إلحادية لأصحاب الأفكار الهدامة المرضية الذين لا يريدون لنا استقرارًا ولا لبلادنا عمارًا؛ فأي فتنة يحدثها هؤلاء عندما يطعنون للناس في نبيهم ودينهم وعقائدهم وثوابتهم هل يريدون إشعال فتن طائفية وخلخلة مجتمعية لوطن محفوظ بإذن الله؟! أم يستعجلون عقابًا إلهيًا على شيوخ ونساء وأطفال يدينون بدين الفطرة؟ أو يريدون قطع الصلة بيننا وبين نبينا وأسلافنا وصالحي آبائنا، فنكون كالريشة في مهب الريح لا أصل لنا ولا جذور.

يا سادة! إن الله عز وجل لما خلقنا، وأرسل رُسُله لنا لم يتركنا حتى رتّب لنا حياتنا وآخرتنا، فكان من ذلك التدبير الهدي الذي تركه لنا نبينا؛ لذلك فإنني لو سألت نفسي سؤالاً يتكرر عن علاج لهذه الحملات ومواجهة لتلكم العداوات؟ فإنني أقول: إنه كثير وكثير جدًا والحمد لله ومنه ما في هذا الحديث، واختصاره هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من (إحلال الحلال وتحريم الحرام)، ثم إنني بعد أحدث نفسي شفيقًا مذكرًا: كيف يأمن على نفسه من اعتقد تحليل ما أجمع على تحريمه، أو تحريم ما أجمع على تحليله؟! والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل:١١٦).

الوجوه المتعددة والمراتب المتفاوتة لمنكري التشريع والسنة:

وقد ضل في هذا الباب فئات تختلف أحكامهم في الشرع باختلاف الدرجات -وإن كنا لسنا بصدد إصدار أحكام، إنما نذكرهم إشارة للبيان-، والله نسأل لنا ولكم الثبات، ولمن ضل عن الحق الهداية والرشاد: فمنهم الملاحدة، ومنهم غلاة التكفير والتجريح والتفجير، ومنهم المبتدعة المفرطة، ومنهم عباد الهوى الزنادقة: بعضهم يُحرِّمون ويُحلِّلون من تلقاء أنفسهم ليوافق دينهم أهواءهم، كما قال الله في حق الكفار الذين كانوا يُغيّرون تحريم الشهور: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ (التوبة:٣٧)، وفئة غلبتهم شقوتهم فقادهم غلوهم إلى مخالفتهم: فحرّموا وحلّلوا بحسب ما رأوا لا بحسب ما أملى عليهم النص الشريف، فكان منهم المكفّرون والمفجّرون والمجرّحون والمنكرون، ثم فئات أخرى متفرعة عن تلكم الفئات ممن وُجِدَ في صدره حرج من سنة خير البريات: فلهؤلاء ونفسي أقول ما قاله الموفق: حافظ بن أحمد الحكمي -رحمه الله- داعيًا لاتباع السُّنة وتعظيم الأحكام الشرعية، وترك الشك المناقض للإيمان، فقال رحمه الله:

حكّم نبيك وانقد وارض سُنّته
مع اليقين وحول الشك لا تحم
فما لذي ريبة في نفسه حرج مما
قضى قط في الأيمان من قسم

(فلا وربك) أقوى زاجرًا لأولي الألباب
والملحدُ الزنديقُ في صمم

وللحديث صلة إن شاء الله، وفي هذا القدر من العبد الكفاية، والله حسبنا، ومنه الهداية.

Upload by: altawhedmag.com

بموت تلميذ الفقي.. فجأة بالمصيبة وتصبُّر بالبشريات

كتبه تلميذه من المبتلين بفقده أ. د/ مرزوق بن محمد مرزوق

الحمد لله كما أمر ربي، والصلاة والسلام على نوري في دربي وآله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الله تعالى قدّر وما يشاء ربي يفعل؛ ففي صباح الجمعة وفي الحادية عشرة بالتمام ونحن نستعد لصلاة الجمعة؛ فإذا بهاتف من الدكتورة سحر فتحي بنت شيخنا ووالدنا فتحي عثمان، وما كان لأحد في الجمعية أن يتجاهل مثل هذا التواصل الكريم؛ لما لمكانة الأسرة عندنا أجمعين، فمكانتهم من مكانة والدنا رحمه الله، فلما تواصلت معها إذ بها تخبرني بقضاء الله في الوالد، وكل شيء عنده بمقدار، فشاء الله أن نرتب في هذه الدقائق المعدودات قبيل الجمعة بلحظات؛ إذ لم يبق على الصلاة إلا القليل، شاء الله أن نرتب لمساجدنا من أفاضل الخطباء البدلاء ونصطحب إخواننا الأتقياء الأوفياء وننطلق لوالدنا رحمه الله، فلكم نصح ووفى وما في سعينا إلا رد قليل لوفاء كثير.

تحركنا وما في أذهاننا ترتيب ولا تدبير، فكان وصولنا قبيل الجمعة، وبتقدير اللطيف الخبير ننتهي من الغسل والتكفين، وحمله إلى مسجد أنصار السنة فرع المنيرة الذي كان والدنا رئيسًا له لسنوات، وما مر من الجمعة إلا لحظات معدودات.

فقلت: وهذه ثاني البشريات؛ إذ كانت الأولى أنه مات بعد مرض طويل نحسبه مكفرًا للذنوب رافعًا للدرجات، والثانية هي هذا التيسير من الله، والثالثة هي الصلاة عليه بعد الجمعة في هذا الجمع المبارك الغفير يستغفرون له ويدعون، والرابعة أن الصلاة عليه في مسجده الذي أفنى فيه من عمره، وتصدق فيه من ماله؛ فلعله له شاهد، والخامسة: وفاته في يوم جمعة، وذلك من علامات حسن الخاتمة. فقلت: الحمد لله على بشريات يرمقها أولو الألباب فهي علامات ودلائل للعلماء والطلاب.

ولشيخنا عندي شهادات أذكر منها ارتجالاً ما يحضرني بغير تحبير ولا إفراط ولا تكثير: منها أنه كان نقيًا تقيًا، فما وجدته حريصًا على منصب، ولا مصابًا في مقصد، رأيته يحرص على الخير مهما كان دون أيّ اعتبار إلا إلى المشروعية المعهودة منه ومن مشايخنا، ورأيته هينًا ليّنًا متواضعًا مع كبير سنّه ومقامه، ورأيته منفقًا حتى تحسب أنه من صفوة الأثرياء، والحقيقة أنه كان ميسورًا بستر الله على الأتقياء؛ إذ هو مكتف بدخله الثابت من المعاش يكفيه ويتصدق منه على قدر استطاعته فلا تجده إلا غنيًا غير مكتنز للمال.

ورأيته مُحبًا لإخوانه يدفعهم للعمل والبذل ويضعهم في موضع الصدارة والعمل والإعداد، ورأيته وفيًا لإخوانه من السالفين أكثر من وفاء أبنائهم لهم، فيدفع الأبناء إلى برّ الآباء بجمع تراثهم ونشره صدقة على أرواحهم، ورأيته يتفقد حال إخوانه، ويبذل لهم على قدر وسعه من ماله وجاهه.

أما عن إحسانه لنا في المجلس؛ فقد وجدنا من والدنا الظهير الذي كان حريصًا على نصحنا، وتبجيحنا لأنفسنا نفرح بلقائه ويبش حين لقيانا، يحب الكلام واقفًا ليفهم ونستحي السماع له جلوسًا إذا تكلم، وإذا تكلم وفى شرحًا، وإذا استطرد ما استطعنا إيقافه تقديرًا وتوقيرًا، وإذا تمسك برأي اعتبرناه هو الجماعة طالما أنه من الرأي والرأي الآخر وليس من المقطوع فيه بجهة، إذا حضر كان حاضرًا، وإذا ناقش كان غالبًا، وإذا صدرناه تصدر شجاعًا لا يلين، صادقًا ليس من تصدره شين، ومع كبير سنّه ومقامه كان محسنًا في تفكهه، مستنًا في تندره، حافظًا ذا رؤية، جريئًا له نظرة.

فعلى شيخ أنصار السنة من الله رحمات تترى، وله من تلامذته وأبنائه وإخوانه دعوات في جوف الليل إلى الله تصعد؛ فاللهم ارحم شيخنا ووالدنا فتحي عثمان، ووالدينا وأهلينا ومشايخنا وأصحاب الحقوق علينا وصالحي المؤمنين؛ إنك على كل شيء قدير، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

Upload by: altawhedmag.com

بين الخوف والرجاء

ماذا تفعل لو كان رمضان الأخير؟

أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم وآله وأصحابه ومن تبعهم من صالحي المؤمنين وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد:

تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال، ورزقنا وإياكم عمرًا مديدًا في طاعة الرحمن ذي العزة والجلال في عفو وإحسان وستر وعافية من الواحد المنان، ثم بحسن خاتمة نرجو بها من الكريم الرحمة والغفران إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

غير أننا بعد هذا كغيرنا من الأحياء ينتظر دوره بين منتظري الرحيل عن دار الفناء، تلكم هي الحقيقة الوحيدة التي لا يماري فيها إنسان فلم يختلف عليها اثنان ولم ينتطح فيها عنزان، مع أن من الناس من اختلف على سيد المرسلين بل واختلفوا على رب العالمين وليست تلك الفئة المختلفة هي المقصودة من هذه التذكرة، إنما قصدت منها نفسي وإخواني من الموحدين، وعلى أية حال فالكل ينتظر دوره في سجل الميتين.

وعليه فإن الإيمان بالموت هي الحقيقة الغائبة الحاضرة المنتظرة، فاللهم عجل أوبتنا وحسن توبتنا وآنس في القبر وحشتنا.

هذا وإننا يا عباد الله حين نقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠)، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، بل وإننا حين نلامس هذا في حياتنا من الاستيقاظ كل يوم على خبر ينعي لنا من الأحياء ممن كنا معهم قبل لحظات وما ذلك الذي ذكرنا عن الناس ببعيد فكم من أناس أراهم في سويداء القلب يحيون وتراهم يا حبيبي في الله أيضًا أمام عينك ماثلين، إخواننا وشيوخنا ومعارفنا بل وأولادنا كانوا بالأمس بيننا يصلون ويصومون ويتصدقون ويستغفرون ويذكرون ويملأون الدنيا، ثم ها هم الآن لدعوة صادقة من الأحياء ينتظرون.

إننا حين نقرأ ونرى ما ذكرت لاشك تكون الموعظة لكننا ما كنا يومًا من الأيام نلتفت إلى أننا كل يوم نسلم أنفسنا للموت في لحظات نظنها أوقات راحة ومتعة أي حين

Upload by: altawhedmag.com

النوم، فهل تعلم يا عبدالله أنك حين تنام فقد صرت في عداد الأموات، ثم إنك بعد هذه الموتة الصغرى تنتظر هل تظل على موتك وثباتك أم أن الله يهبك من فرصة الحياة ما يستوجب الشكر والطاعة كما قال تعالى في شأن موتتك الكبرى والصغرى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٤٢)، وقال عليه الصلاة والسلام في انتظار القضاء بإمساك النفس أو العودة للحياة: (إذا أوى أحدُكُمْ إلى فراشه، فَلْيَنْفُضْ فراشهُ بداخلة إزاره؛ فإنَّه لا يدْري ما خلفهُ عليه، ثُمَّ يقولُ: باسْمِكَ ربِّ، وضعْتُ جَنْبِي، وبِكَ أرْفَعُهُ، إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ به عبادَكَ الصَّالِحِينَ) (صحيح البخاري ٦٣٢٠، من حديث أبي هريرة).

نعمة الحياة والامهال بلا اهلاك:

ثم يكون الشكر على نعمة الحياة حين يعلمنا رسول الله: (كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أوى إلى فراشه قال: اللَّهمَّ باسْمِكَ أحيا وأموتُ، وإذا أصبح قال: الحمْدُ للَّه الذي أحْيانا بَعْدَ ما أماتَنا، وإليْه النُّشورُ (صحيح البخاري ٧٣٩٤ من حديث حذيفة)، وهذه هي نعمة الحياة.

إنه محض إنعام بالفضل ولو كان بالعدل لعجل لنا الهلاك قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (فاطر: ٤٥)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الرعد: ٦). وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ (الكهف: ٥٨)، يقول صاحب التحرير والتنوير في تفسير هذه الآية: ".... وفي ذلك التأجيل رحمة بالناس بتمكين بعضهم من مهلة التدارك، واعادة النظر، وفيه استبقاؤهم على حالهم زمنا...."

فالحمد لله أولاً الذي تفضل علينا ومنحنا الحياة وفرصة التوبة إلى الله حتى لحظة ما نكتب الآن، فاللهم أتم علينا عافيتك، وبلغنا رمضان بكرمك كما أكرمتنا بفرصة الحياة بلطفك، إذ ليس من التشاؤم بعدما ذكرنا أن العبد مرهون بأنفاس ربما تخرج ثم لا يؤذن لها بالدخول أو تدخل ولا يؤذن لها بإعادة الكرة فتخرج.

عبادة تذكر الموت:

هذا وان من الاستعداد ومما نستقبل به رمضان ما ذكرنا من عبادة تذكر الموت كما قال صلى الله عليه وسلم: (أكثروا ذكر هاذم اللذات يعني الموت) صحيح الترمذي (٢٣٠٧) من حديث أبي هريرة، ثم لا يكون هذا الذكر لهاذم اللذات ذكرًا شكليًا بل والعمل بمقتضاه فلا يفعل هذا إلا من اعتقد بحق أنه من الأموات.

ومن أقوال أسلافنا الصالحين:

قال أبو بكر رضي الله عنه:

كل امرئ مصبح في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: "أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس مغفولاً عنه، ولا يدري أأرضى الله أم أسخطه".

وقال أبو ذر: "ألا أخبركم بيوم فقري؟ يوم أوضع في قبري".

قال بعضهم:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يومًا على آلة حدباء محمول
فإذا حملت إلى القبور جنازة
فاعلم بأنك بعدها محمول

وقال أبو العتاهية:

نسيت الموت فيما قد نسيت
كأني لا أرى أحدا يموت
أليس الموت غاية كل حي
فمالي لا أبادر ما يفوت

وقال الحسن البصري: "فضح الموت الدنيا

Upload by: altawhedmag.com

فلم يترك لذي لُبٍ فرحًا".

وقال محمد بن واسع: "ما ظنك برجل يرحل إلى ربه في كل يوم مرحلة".

وقال بعضهم: توسدوا الموت إذا نمتم، واجعلوه أمام أعينكم إذا قمتم.

وقال الربيع بن خيثم: كم من مستقبل يومًا لا يستكمله، ومنتظر غدًا لا يبلغه (ينظر: الزهد لابن المبارك ص٨٤. الزهر الفائح لابن الجزري ص٦٢).

رضي الله عنهم وغفر لنا ولكم.

لذلك أيها الحبيب إن افتراض رمضان القادم هو الأخير افتراض واقعي ومطلب نبوي، فماذا يعني هذا الافتراض زيادة على ما سبق؟

مقام التوبة إلى الله:

هذا وإن أول مقام يقف العبد على بابه هو مقام التوبة إلى الله بكافة صورها وأشكالها من ظلم العبد لنفسه بتقصيره في جنب ربه وظلمه لنفسه بظلمه لخلقه، ولا يذهب العبد ببصره أثناء توبته إلى ما اشتهر من ذنوب تعارفنا عليها فقط، بل إنني أرجو أن ينير الله قلوبنا وأبصارنا على التوبة من ذنوب ربما نتقلب فيها ليل نهار، ومن كثرتها وكثرة تكرارها ودقتها وغفلتنا اعتدنا عليها واستمرأناها، فلا نُلقي لها بالاً ولا نُقيم لها وزنًا من ظلم للنفس بشتى الصور غفلنا عنها وقد سترت علينا، فيا ليت شعري ما الذي كتب علينا ونحن في غفلة معرضون؟!؛ فاللهم سلّم سلّم. واعتبروا يا أولي الأبصار.

ثم عبادة الدعاء:

ثم إنني بعد ذلك أرى أنه من الأهمية أن نستعد ذهنيًا لهذا الشهر الكريم.. بمعنى أن نكون له مترقبين منتظرين.. ولأيامه ولياليه مشتاقين... فعندئذ تكون انطلاقتنا الكبرى حينما يبلغنا الله رمضان. وإن من أهم الطرق للوصول إلى هذه الحالة الشعورية الواجبة أن نتخيل أن رمضان القادم هو رمضان الأخير في هذه الدنيا، مع كامل رجائنا في الله أن يبلغنا رمضان أزمنة عديدة في أعمار في طاعة الرحمن مديدة، وهذه عقيدتنا بين الخوف والرجاء ويكون ذلك بإلحاحنا الشديد في الدعاء في طلب ذلك من الله.

بل إنني لا أقول مبالغًا: إن المسلم يعيش حالة من عقيدة الخوف أن يقضي نحبه فلا يدرك رمضان غير أن عقيدة الرجاء تبعث في نفوسنا من الأمل في الله ما يدفع إلى الدعاء أن يبلغنا رمضان، وأن يرزقنا فيه جماع الخير والإحسان.

إن الاستشعار بما سبق من خوف ورجاء هو مطلب نبوي كريم وأصل عقدي صميم، فكم من أصحاب ومعارف كانوا معنا في رمضان السابق وهم الآن من أصحاب القبور! والموت يأتي بغتة، ولا يعود أحدٌ من الموت إلى الدنيا أبدًا.. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٩، ١٠٠).

فلنتخيّل الآن يا عباد الله أننا عُدنا إلى الحياة، وأخذنا فرصة أخيرة لتجميل حياتنا في هذا الشهر الأخير، ولتعويض ما فاتنا خلال العمر الطويل، ولتثقيل ميزان الحسنات، ولحسن الاستعداد للقاء رب الأرض والسموات.

ثم عبادة استحضار النوايا في رمضان:

فإنني أنوي إن أكرمني الله بإدراك رمضان ما أضعتُ فريضة فرضها الله عليّ أبدًا، بل ولاجتهدتُ في تجميلها وتحسينها، ولو أني أعلم أن هذا هو "رمضاني الأخير" لحرصت على الحفاظ على صيامي من أن يُنقصه شيءٌ.. ولو أني أعلم أن هذا هو رمضاني الأخير، لحرصت على صلاة القيام بقراءة أعيش فيها مع آيات الله عز وجل.. ولو أني أعلم أن هذا هو رمضاني الأخير ما تجرأت على معصية، ولا فتحت الجرائد والمجلات ولا مواقع الإنترنت للسفاهة والمؤامرات أبحث ملهوفًا عن مواعيد الأفلام والتمثيليات والبرامج الآكلة للدين والخلق والثوابت والأوقات..

ولو أني أعلم أن هذا رمضاني الأخير ما نسيت أمتي؛ فجراحها كثيرة، وأزماتها عديدة، وكيف

Upload by: altawhedmag.com

أقابل ربي ولست مهمومًا بأمتي؟!.. ووحوش الأرض تنهش المسلمين.. والمسلمون في غفلة! وقد اجتمع عليها القاصي والداني من أكلة الذئاب كما تجتمع الأكلة على قصعتها.

هكذا كان يجب أن يكون رمضاني الأخير، بل هكذا يجب أن يكون عمري كله.. وماذا لو عشت بعد رمضان؟! هل أقبل أن يراني الله عز وجل في شوال أو بعده لاهيًا ضائعًا تافهًا؟!

إننا في رمضاننا الأخير لا نتكلف الطاعة، بل نعلم أن طاعة الرحمن هي سعادتنا في الدارين فهي سبيلنا إلى الجنة، كما أنها سبيل لصلاح الدنيا، وأن الله عز وجل لا تنفعه طاعة، ولا تضرُه معصية، بل الحق أنهم بالسعادة أطاعوا وبالشقاء عصوا.

إنه يعني أن تكون كل فروضي مع جماعة المسجد، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة)؛ متفق عليه.

ويعني أن تكون الصلاة هي راحتي وقرة عيني فليست تكلفًا فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه (أهمّه) أمر صلى) رواه أبو داود وحسنه الألباني.

كما أنه يعني تجويد صلاتي وقيامي ودعائي تأسيًا برسول الله:

فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فافتتح "البقرة"، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح "النساء" فقرأها، ثم افتتح "آل عمران" فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوُّذ تعوَّذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام قيامًا طويلاً قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريبًا من قيامه) رواه البخاري.

رمضان الأخير والقرآن

إذا صمنا صيام مودع فإن هذا يعني أن يكون تعاملنا مع كتاب الله بنظرة صادقة أرادها منا شرعًا رب العزة جل في علاه.

ليس فقط ما تعودنا عليه من تحصيل أجر المقارئ كما نحفظ ونردد كما في حديث أبي هريرة (قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده" (رواه مسلم).

لكننا نريد إضافة لهذا الخير أن ينصلح تعظيمنا لكتاب الله تأثرًا وتطبيقًا وما حال أسلافنا ببعيد: فهذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقرأ (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (التكوير: ١) حتى بلغ: (وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ) (التكوير:١٠) فخر مغشيًا عليه.

وسمع قارئًا يقرأ والطور حتى بلغ قوله: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ) (الطور/٧،٨) فمرض شهرًا لا يدرون ما مرضه.

وهذا باب واسع ومساحة المتاح قليلة؛ فلتتفضل بالاطلاع في مظانه.

يا عباد الله: إن الكلام عن رمضان الأخير لا ينتهي، إنها حياة كاملة تكون لله عز وجل كما قال تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) (الأنعام ١٦٢).

فهي تعني وقفة في العبادات والمعاملات وعبادة الخلوات برب الأرض والسموات، وقبلها توبة حقيقية لتصحيح المعتقدات، فضلاً عن ذلك نوافل الخيرات ومزيد الطاعات.

فيا أمتي، العمل العمل.. والجهاد الجهاد.. والصدق الصدق؛ فما بقي من عمر الدنيا أقل مما ذهب منها، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

تقبل الله منا ومنكم.

Upload by: altawhedmag.com

يسر الدين
بين إفراط المتكاسلين وتفريط الغالين

إعداد
أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله تفضل علينا بمنحة في الأجل بعد رمضان، ووهبنا مزيدًا من فرص التوبة والرجعان، والصلاة والسلام على خير الأنام ومن تبعه من الصحب والآل أولي البر والإحسان وبعد:

فلا يزال حديثنا موصولاً في الحلقة الثانية التي ابتدأنا أولها في شعبان حول نص شريف: عنْ أبي عبْد الله جابر بْن عبْد الله الأنصاريّ رضي اللّهُ عنْهما: "أنّ رجُلًا سأل رسُول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيْت إذا صلّيْت المكْتُوبات، وصُمْت رمضان، وأحْللْت الحلال، وحرّمْت الحرام، ولمْ أزِدْ على ذلك شيْئًا: أأدْخُلُ الجنّة؟ قال: نعمْ".

وقد تناولناه في الحلقة الأولى تخريجًا وشرحًا وذكرًا لبعض مما يستفاد. وكان مما تفضل الله علينا به اختصارًا:

التخريج: صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة رقم: (٤٤). مناسبة الحديث ومنزلته: حديث جامع للإسلام أصولاً وفروعًا.

وان مما يستفاد منه مما ذكرناه اختصارًا: إن فيه تربية إيمانية وفيه تقرير عقدي بركنية اعتقاد أن التحليل والتحريم حق خالص لله فيجب تحليل ما أحل، وتحريم ما حرم، وكذا حرص الصحابة على الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الصالحون، ثم الوجوه المتعددة والمراتب المتفاوتة لمنكري التشريع والسنة: فمنهم الملاحدة، ومنهم غلاة التكفير والتجريح والتفجير، ومنهم المبتدعة المفرطة، ومنهم عُباد الهوى الزنادقة: نسأل الله أن يرد الجميع إلى الحق والصواب.

Upload by: altawhedmag.com

وتتمة لما سبق به البيان وتفضل علينا به المنان؛ نقول في شوال صلة لما كان في شعبان:

من أهم ما يُستفاد من الحديث أن: (دين الله يسر):

وهي قاعدة كبرى في تكاليفنا وأصل عظيم من أصول ديننا، ومعلم واضح من معالمنا ومفاخرنا فضلاً عن كونها نعمة تستوجب الشكر منا ونفحة من نفحات ربنا لنا لتثبيت قلوبنا وداعي من دواعي استقرارنا واستمرارنا، ولها مردود على نفسيتنا، فهي توحي للقلب الذي يتذوقها، بالسهولة واليسر في أخذ الحياة كلها، وتطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة التي لا تكلف فيها ولا تعقيد، سماحة تؤدي معها كل تكاليف الحياة، مع الاستحضار الدائم لنعمة رحمة الله بالمسلمين، وهذا اليسر والوسطية هي وسطية تشتمل على كل المناحي العقدية والعلمية والعملية، ومن ذلك:

ديننا يسر يراعي جميع أحوال المكلفين، فلقد أرسل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بلسان صدق، جعل الغاية من ابتعاثه الرحمة بالخلق، والدلالة على أقصر الطرق الموصلة إلى رضى الرب، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)؛ فلم يدخر وسعًا في إنقاذهم من الضلالة وإخراجهم من الجهالة، وتحقيق هذا الهدف يتطلب الإدراك التام لما عليه البشر من تنوع في القدرات والطاقات والملكات، فلئن كان في الصحابة من أمثال الصدّيق والفاروق وغيرهم من قادات الأمة الذين جاوزت همتهم قمم الجبال وأعالي السحاب، فإن منهم -في المقابل- الضعفاء وأصحاب الأعذار، وغيرهم ممن هم دونهم حالاً وهمّة وطموحًا من أولئك السابقين، لذا راعى ديننا هذا التفاضل البشري والتفاوت المجتمعي، فوجدنا ما لاحظناه في حديثنا من تفضل ربنا علينا في جواب النبي صلى الله عليه وسلم للسائل الجليل من التيسير والرضا منه بالقليل.

ما تسمح به الأحوال يكون به النوال -إن شاء الله-: وهي كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، ولعلها فائدة يعذرني في بسطها أسيادنا قراؤنا لأهميتها؛ إذ الدين سهل يسير فلا داعي لهذا التنطع الذي يغترّ به فئام من الناس فيصعبون على الناس دينهم، ويُكدّرون عليهم صفو حياتهم من جميل اتباعهم فيكون العنت والمشقة والإعراض والانقطاع هو المآل الحتمي لأولئك المتنطعين، وليت هذا فحسب، بل ويمتد شرهم فيصيب من حولهم من إصابتهم باليأس والقنوط والشعور بالعجز، وهذا هو حتمية الغلو.

لذا كانت البشرى من النبي صلى الله عليه وسلم، ليبين أن الالتزام بهذا المنهج الواضح، كاف لدخول الجنة، وهذا يعكس ما عليه الإسلام من يسر وسماحة في العقائد والعبادات والتكاليف جميعًا، وبُعد عن المشقة والعنت، وواقع ضمن حدود وطاقات البشر، وهذا مما اختص الله تعالى به هذه الأمة دون سائر الأمم.

وهذا نداء أناشد به إخواني وأبنائي فلا يُكلفون أنفسهم والناس فوق وُسعهم الذي يُكلفون به من ربهم، ولم أقصد بهذا أبدًا دعوة للاتكال والإهمال، بل أعني الوسطية في الفكر والالتزام ودعوة الناس لهذا الفكر الوسطي المعتدل فلا يكلف الداعية الناس بما لم يكلفهم الله به؛ لأنه إن فعل وشقّ على

Upload by: altawhedmag.com

الناس بما لا يطيقون مما لم يكلفهم الشارع به؛ فقد صار سبب فتنة، وأصبح سفير شر لا يمثل الإسلام بحال في وقت نستشعر فيه بواجب الاحتواء للموافق والمخالف جميعًا.

مراعاة فقه الأولويات:

ومعناه وضع كل شيء في مرتبته بالعدل، ثم يقدّم الأولى فالأولى، فلا يُقدم غير المهمّ على المهم، ولا المهم على الأهم، ولا المرجوح على الراجح، ولا يُكبّر الصغير ولا يُصغّر الكبير، بل يُوضع كل شيء في موضعه بناءً على معايير شرعية صحيحة يهدي إليها الرفيقان نور الوحي وسلامة العقل معًا.

وحديثنا دليل على عظم التمسك بالفرائض وأنها سبب للجنة؛ إن صدق العامل، فراعى السُّنة فيها والبعد عن المعائب والعوارض، وقد تفضل الله علينا ونحن قريبو عهد بشهر مبارك بوجوه الإحسان فائض؛ إذ تكثر فيه الطاعات ويتفضل الله على المسلمين فيه بأفضال من القربات، لكننا نذكر ببعض مما لاحظناه من إقبال الناس على نوافل العبادات وتقصيرهم في أصول المفروضات؛ فيفرطون في فرائض الصلوات والصدقات والزكوات وصلة الأرحام وتوظيف الأوقات لبقية وظائف الوقت من الواجبات؛ ثم هم بعد إهمالهم لهذا كله يحصرون رمضان في صيام عن الطعام والشراب وصلاة لتراويح نافلات، ولا شك أن هذا يتعارض مع فطنة المؤمن الذي يبحث عن المصلحة العليا التي تدخل صاحبها الجنة، فالمسلم يراعي فقه الأولويات التي تقرّبه من رب الأرض والسماوات.

وعندنا في هذا سنة إذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: "إنَّ اللَّهَ قال: مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَألَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ. (صحيح البخاري ٦٥٠٢)، هذا ولا شك أن من ترتب عقله وتشكل قلبه وفق أولويات الشرع ومراد الحق من العبد فهو الموفق إن شاء الله.

هذا وإن كان الأمر ما سبق من مراعاة الأولويات؛ فإن من أهم ما يبحث العبد تحقيقه هو التوحيد ثم يتلوه ما بعده من المرتبات، وما أشمله من حديث معاذ رضي الله عنه قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير)، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: "لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على من يسّره الله عليه: تعبدُ الله ولا تُشرك به شيئًا، وتُقيمُ الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيت"، ثم قال: "ألا أدُلُّكَ على أبوابِ الخير؟: الصومُ جُنَّةٌ، والصدقةُ تُطفئُ الخطيئة كما يُطفئُ الماءُ النارَ، وصلاة الرجل من جوف الليل، قال: ثم تلا: « تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ » - حتى بلغ - « يَعْمَلُونَ » (السجدة: ١٦-١٧)، ثم قال: "ألا أخبرك برأس الأمر (كله) وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: "رأس الأمر الإسلام، وعَمُوده الصلاةُ، وذروة سَنامه الجهاد"، ثم قال: "ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه"؟ فقلت: بلى يا (نبي) الله، فأخذ بلسانه، قال: "كُفَّ عليك هذا"، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال:

Upload by: altawhedmag.com

"ثكلتك أمك (يا معاذ)، وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم - أو "على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم" (رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح).

وسطية الاعتقاد التي تدعو إلى العمل:

ومنها في حديثنا الجمع بين نصوص الوعد والوعيد في حالتنا خصوصًا، وهي وسطية الفهم؛ فلا يصلح فهم نصوص الوعد وحدها كما فعلت المرجئة ومن شابهها، ولا فهم نصوص الوعيد وحدها كما فهمت المعتزلة والخوارج ومن شابههما، وفي حالتنا هذه نجد من نصوص الوعد سؤال هذا الصحابي الجليل وشبيهه.

وجاء كذلك في الكتاب والسنة آيات وأحاديث كثيرة، تتضمن الوعيد الشديد بالعذاب الأليم، والخلود في النار لأهل الفسق والمعاصي، وأصحاب الكبائر، ووصفهم بالكفر والفسق والضلال ونحو ذلك؛ كقوله صلى الله عليه وسلم كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه في البخاري: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" (صحيح البخاري ٧٠٧٦).

ووسطية أهل السنة في هذا أنهم يقولون في الوعيد: إن الموحد الذي استحق الوعيد بفعله هو بعد ذلك في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، ويقولون في الوعد: إن الله لا يخلف وعده، وعليه فإن عصاة الموحدين من يُغفر له فلا يدخل النار ابتداءً، ومنهم من يدخلها ثم يخرج منها كما دلت عليه السنة الصحيحة في نصوص الوعد، فلا يخلد في النار بل مآله إلى الجنة.

فإذا جاءت نصوص تدل على أن من فعل كذا لا يعذب فهي محمولة على وجود المقتضي وانتفاء المانع، أو تُحمل على وجوه أخرى من التأويل ليحصل الجمع بينها وبين النصوص الدالة على وعيد عصاة الموحدين، لذلك كان هذا الفهم الوسطي السديد داعيًا للخوف والعمل لا للاتكال والكسل وللرجاء والنشاط لا للقنوط والانقطاع.

الوسطية في العمل طلبًا للنجاة:

وهذه تعني أن يبذل العامل وسعه في نيل رضا الله تعالى؛ فوعد النبي صلى الله عليه وسلم وعد صدق وقول حق يدعوه للعمل وليس للاتكال؛ إذ نفهم من قوله صلى الله عليه وسلم: (أفلح إن صدق) في بعض الروايات نفهم أن الثبات على هذه الفرائض يستلزم معية من الله، ولا تكون المعية إلا مع الصدق، والصدق لا يكون إلا بالحرص.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد (٢٦٦): «ليس للعبد شيءٌ أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه وفي فعله، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (محمد: ٢١)، فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم، فإذا صدقت بقي عليه صدق الفعل وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه شيء من ظاهره وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور، ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره، وهذا الصدق معنًى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكُّل، فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله».

وفي هذا القدر الكفاية، وأستغفر الله لي ولكم.

Upload by: altawhedmag.com

تذكير الأخيار

بما يُقرّب من الجنة ويُباعِد عن النار

أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

فإن من أهم كرامات شهر رمضان وإن شئت فقل شهر زيادة الإيمان أنه بعد تحصيل الأجور ينتظر العبد العفو من ربه الغفور، ثم هو بعد ذلك يوقف نفسه فيحاسبها قبل أن تحاسب ويزن أعماله قبل أن توزن، فيكون رقيبا على حقيقة إيمانه والخشية والاستجابة والاتباع على ذلك عنوانه، وليس عيبا بعد ذلك أن يجد العبد نفسه أمام حقيقة يسد بها خلله، ويرجو بها من الله أن يجبر كسره، ألا وهي أن يبدأ من الأول مرة أخرى فكأنه من لحظته يجدد إيمانه وهي من أهم كرامات الشهر.

Upload by: altawhedmag.com

الحديث:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟: الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل». قال: ثم تلا: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» - حتى بلغ - «يعملون» (السجدة: ١٦-١٧). ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر (كله) وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله»؟ فقلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، قال: «كف عليك هذا». فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال: «ثكلتك أمك (يا معاذ)، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم».

ثانيا: التخريج:

رواه الترمذي في كتاب الإيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة، وقال: (هذا) حديث حسن صحيح، برقم٢٦١٦ .

والحديث صححه الألباني رحمه الله في الصحيحة ٨٤٥/٧-٨٤٦ رقم٣٢٨٤، وصححه لغيره في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٢٨٦٦)، وصححه كذلك في صحيح الترمذي.

ثالثا: مفردات الحديث:

لا تشرك به شيئًا: يشمل كل أنواع الشرك.

الصوم جُنَّة: الصوم وقاية من النار، والمراد به هنا صوم النافلة؛ لأنه ذكر الصوم المفروض سابقًا.

الصدقة تطفئ الخطيئة: أي تطفئ أثر الخطيئة فلا يبقى لها أثر.

جوف الليل: وسطه، أو أثناءه.

تتجافى: ترتفع وتبتعد.

عن المضاجع: عن الفُرُش والمراقد.

ذروة سنامه: السَّنام: ما ارتفع من ظهر الجمل، والذروة: أعلى الشيء، وذروة سنام الأمر: كناية عن أعلاه.

ثكلتك أمك: هذا دعاء بالموت على ظاهره، ولا يُراد وقوعه، بل هو تنبيه من الغفلة وتعجب للأمر.

كف عليك هذا: أي اللسان؛ لأنه خفيف الحركة كثير الزلة.

حصائد ألسنتهم: ما تكلمت به ألسنتهم من الإثم.

رابعا: مما يستفاد من الحديث:

أولاً: عبادة التواضع والافتقار:

هذا الحديث أصل متين وقاعدة من قواعد الدين، وهو مكتظ بالفوائد الفرائد، غير أننا نركز على أهم ما يستفاد، والذي منه ما رأيناه من حال معاذ رضي الله عنه صاحب رسول الله ومن أعلم أصحابه النبي بالحلال والحرام، فضلاً عن كونه من اقرأهم للقرآن فكان صحابيًا جليلاً عالمًا عاملاً؛ قال في حقه عليه الصلاة والسلام: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب» (رواه البخاري)، وقال صلى الله عليه وسلم عنه: «أعلمهم بالحلال والحرام» (صححه الألباني).

فلعمرك أي فضل بعد هذا! وأي تزكية ترى، ومع هذا تراه يسأل عن طريق النجاة ويجيبه رسول الله ولا يصرفه؛ لعلمه عليه الصلاة والسلام من حال الخلق حاجتهم لمثل هذه الصفات القلبية العملية والتي ترى عنوانها: عبادة التواضع والافتقار.

Upload by: altawhedmag.com

فلولا عبادة التواضع والافتقار ما وجدنا هذا الانكسار من معاذ الصحابي العالم العامل المزكّى، ولولاهما أيضًا ما وجدنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي زكاه ما وجدنا استجابته لسؤاله.

فيا عباد الله لا تتعجبوا إن نقلت لكم عن علمائنا الأخيار أن من أجلّ القربات وأفضل الأعمال التي تقرب من الجنة وتباعد عن النار بعد توحيد الملك المتكبر الجبار هي عبادة التواضع والافتقار، فما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة بعمله ولا تفضل الله عليه بالاصطفاء والرسالة بجهده إنما هي محض إنعام، وقد رجحت نعمة البصر أمام عبادة الألف عام فأدخل الله تعالى عبده الجنة برحمته، لكنها أسباب يُجريها رب الأرباب فإذا تفضل الله علينا بهذه الفائدة من سؤال معاذ ومن استجابة النبي صلى الله عليه وسلم له وجوابه وشرحه للصحابي العالم العابد فكلنا بحاجة إلى مثل هذا، بل يجدر بنا أن نقول: إن الافتقار إلى الله هو من أوائل طرق النجاة.

لذا فالعبد لا يغرنه من حاله اجتهاده مهما قدّم من أعمال ولا يغترن بما يتقاول به قلبه من قربات وأحوال: فها هو معاذ رضى الله عنه وأرضاه، وما أدراك ما معاذ يستثمر انفراده بمعلم البشرية الخيرات ومنقذهم من الضلالات والعثرات ودليلهم إلى طريق الجنات؛ فيسأله عن مهام الأمور، وطريق النجاة من مكفرات الذنوب ومحصلات الأجور، فكان ما رأيناه من فعل سيدنا معاذ رضى الله عنه وأرضاه مع رسول الله ومصطفاه.

فيسأله وهو يعلم أن التوفيق للهداية بيد الله تعالى ومحض إنعام منه، فطلبها ابتداء يحتاج من العبد إلى لزوم عبادة الافتقار مع الدعاء، فمن يسر الله عليه الهداية اهتدى، ومن لم ييسّر عليه لم ييسر له؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل: ٥ - ١٠).

وعبادة الافتقار إلى الله مقام عالٍ وإن شئت فقل قطب الرحى لأعمال القلوب تفضل الله علينا بأسباب لها، من أظهرها لذي بصيرة شرف ذل العبودية لرب البرية، والدعاء، والاستعانة والتوكل والرجاء؛ فإذا تحصّل العبدُ على مقام الذل لربه تعالى ظهر مقام الافتقار، وعلم أنه لا غنى له عن ربه العزيز الجبار، بل صار مستغنٍ بربه عن غيره، فكمال الذل، وكمال الافتقار يظهران في تحقيق كمال العبودية لربنا الغفار.

يقول ابن القيم رحمه الله في «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص ٨٤):

والاستغناء بالله هو عين الفقر إليه، وهما عبارتان عن معنى واحد؛ لأن كمال الغنى به هو كمال عبوديته، وحقيقة العبودية كمال الافتقار إليه من كل وجه، وهذا الافتقار هو عين الغنى به.

ومن أهم ما يظهر فيه مقام الافتقار إلى الله تعالى: الدعاء، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص/ ٢٤)، وكما قال تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأنبياء/ ٨٣)، وكان من دعاء سيد المرسلين: (اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وحسّنه الألباني في «صحيح أبي داود».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تأكيده على رسم طريق السعادة والنجاة وكونه في الافتقار الى الله ثم بيان ما يظهر فيه مقام الافتقار:

إن سعادة العبد في كمال افتقاره إلى ربه، واحتياجه إليه، أي: في أن يشهد ذلك، ويعرفه، ويتصف معه بموجب ذلك، من الذل، والخضوع، والخشوع، والا فالخلق كلهم محتاجون، ويخطئ من يظن نوع استغناء،

Upload by: altawhedmag.com

فيطغى، كما قال تعالى: (كلاَّ إنَّ الإنسانَ ليَطْغى أنْ رآهُ استَغْنى) (مجموع الفتاوى: ٥٠/١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والعبد مفتقر إلى الله تعالى في كل شيء، في خلقه ووجوده وفي استمراره وحياته، وفي علومه ومعارفه، وفي هدايته وأعماله، وفي جلب أي نفع له، أو دفع أي ضرر له، وهذا هو معنى: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وعموما فبداية الخير أن يفتقر العبد إلى ربه في طلبه التوفيق من ربه، وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له؛ فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة: (إياك نعبد وإياك نستعين) (ينظر: العبودية: ص٩٧٩).

ثانيا: القصد إلى معالي الأمور:

ومنه أن يقصد العبد إلى مراقي الجادة وأرقى المطالب فكان ما يسأل عنه سيدنا معاذ هو أسباب دخول الجنة، وأسباب الابتعاد عن النار؛ قال تعالى: « فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » (آل عمران: ١٨٥)، وكان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار)، وفي صحيح الجامع (٣١٢١) من حديث معاذ (....فإذا سألتُم الله فاسألوه الفردوس).

ثالثا: الأعمال الشرعية من أهم الأسباب المنجية:

إذ الفوز بالجنة والنجاة من النار وإن كان محض إنعام من الله تعالى إلا أنه جعلت له أسباب شرعية من أهمها -بعد توفيق الله- الاجتهاد في الأعمال الصالحة، وهذا هو حديثنا الشريف وما ينطق به فضلاً عن غيره مما امتلأت به كتب السنة، ومنه ما رواه البخاري رحمه الله بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا، فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

فذكر الحديث أن طريق الولاية الأوحد هو توفيق العبد لطاعته واتباع سنته والاجتهاد في الطاعات وما أوضحته السنة من طاعة رب الأرض والسموات، فليس لمدّعٍ أن يدعي أنه من الأولياء وقد خالف السنة وأبعد النجعة وعطل الشريعة وأسقط الفريضة وجاهر بالمعاصي، فضلاً عن تبريرها وتأصيلها وإباحتها للناس، وكل ذلك تحت عنوان مزعوم وقول مختلق مشئوم وضعه في عقولهم وقلوبهم الشيطان؛ إذ ليس بعد طريق الرحمن إلا طريق الشيطان، مما تبنّاه المنتفعون من أصحاب الطرق البدعية والمناهج غير المرضية من المخالفين من العلمانيين ومبتدعة المتصوفين والغالين المخربين من الشيعة والخوارج الخارجين والعلمانيين الهدامين الكارهين والمجرحين المرضى المبدعين المفسدين المحاربين والمكفرين والقتلة والمسلطين على رقاب المسلمين وكل بكل يعتضد غير أن لكل مأربه ومشاربه وهدفه وخطته أو بتعبير معاصر: له أجندته.

فلا ينهض خير أبدًا لمن حاد عن طريق الحق المرسوم ومنهج الوسط الموسوم، فيا رب لك الحمد على دلالتنا لطريق الحق وفهم الرشد، غير أننا نتوسل إليك بكل ما تحب وشرعت أن تتفضل علينا بمزيد كرم منك وتدبير لحفظ ديننا ودنيانا وبلادنا وأولادنا وأعراضنا وأموالنا من مثل هؤلاء الأفاعي والدبابير إنك على كل شيء قدير. وللحديث صلة إن شاء الله.

Upload by: altawhedmag.com

نور المحجة في استقبال ذي الحجة



إعداد
أ.د. مرزوق محمد مرزوق
نائب المشرف العام

الحمد لله مُصرف الوقت والزمن والدهر، القدير على ما يشاء بالعز والقهر، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه. وبعد:

فإن وظيفة عمر العبد هي السعي لفكاك رقبته من النار، والفوز بعفو العزيز الغفار، وقد تفضل الله علينا بنفحات دهرنا في رمضان، ثم الاستقامة على الطاعات للموفق في شهر شوال، ثم ما ابتدأناه من وقفة مع النفس للمراجعة والتصحيح لطريق الاستقامة من بدايته، وقد تفضل الله علينا ببقية في العمر حتى كتابة السطور ورجاء الفوز في عشر ذي الحجة من الرب الغفور، وقد لاقى قدرًا أنه تتمة لتذكير الأخيار بما يقرب من الجنة ويباعد عن النار، وقد تقرر لدينا من الحديث أنه ليس ثمة طريق لهذا من الأسباب بعد تفضل الملك الوهاب إلا طريق العمل الصالح المشروع والبعد عن السعي المخالف الممنوع، وللتتمة نقول:

الحديث:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويُباعدني عن النار، قال: "لقد سألتَ عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على من يَسَّرَهُ اللهُ عليه: تَعْبُدُ اللهَ ولا تُشركُ به شيئًا، وتُقيمُ الصلاة، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيتَ"، ثم قال: "ألا أدُلُّكَ على أبْوَابِ الخير؟: الصومُ جُنَّةٌ، والصدقةُ تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النارَ، وصلاة الرجل من جوف الليل، قال: ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ - حتى بلغ - ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٦-١٧)، ثم قال: "ألا أخبرك برأس الأمر (كله) وعموده وذروة سَنَامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: "رأس الأمر الإسلامُ، وعَمُوده الصلاةُ، وذروة سَنَامه الجهاد"، ثم قال: "ألا أخبرك بمِلاك ذلك كلِّه"؟ فقلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، قال: "كُفَّ عليك هذا"، فقلت: يا نبي الله، وإنَّا

Upload by: altawhedmag.com

لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال: "ثكلتك أمك (يا معاذ)، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم - أو "على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم".

ثانيا: التخريج:

رواه الترمذي برقم (٢٦١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (٣٢٨٤).

ثالثا: مفردات الحديث: تقدمت في العدد السابق؛ فلتراجع تفضلاً.

رابعا: وفيما يستفاد من الحديث: تقدم ذكر ما يلي في العدد السابق:

١- عبادة التواضع والافتقار.

٢- القصد إلى معالي الأمور.

٣- الأعمال الشرعية من أهم الأسباب المنجية.

وللتتمة نستعين ربنا ونقول:

٤- من أهم سبل النجاة مما يقرب من الجنة ويباعد عن النار هي ما وصف رسول الله من الأعمال مما تفضل به علينا من فضائل الأعمال، ومن ذلك:

أ- تأكيده صلى الله عليه وسلم على تحقيق التوحيد والبعد عن الشرك بالله؛ لذا فإنني أذكر نفسي وإخواني بدعوات مباركات كتب الله لها البقاء حين قدمت ما قدم الشرع؛ إذ قدمت دعوة التوحيد على كل شيء، وألحت في هذه الدعوة حتى اتهمهم من لا يعلم أنهم متقوقعون حول هذه الفكرة، وها نحن الآن يا إخواني نقول: إنها ليست مجرد فكرة بل هي عقيدة ورب الكعبة، إنه لا فلاح ولا نجاح، ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا من هذه البوابة التي تفضل الله بها على عباده؛ فأخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن تشتت الآلهة الباطلة إلى راحة القلب بالعبودية للإله الحق؛ فيكون بذلك التوفيق من رب البرية ورجاء العون معه والمعية فيوفق في مسامعه ومشاهده ومساعيه وقراراته، يكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وأما عن الاستطراد في أدلة التوحيد وتقريره، فربما لا يتسع لها المقام؛ فأخاف من الخلل وأرجو أن يُفرد لها مقال أوسع وأرجى تعبيرًا، ولا يملن داع ولا مدعو من التكرار؛ فإن من أدمن طرق الباب يوشك أن يفتح له، قال الحمداني:

تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

ب- الاجتهاد في شرائع الاسلام؛ لا سيما أركانه كما قال صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث (وتُقيمُ الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصومُ رمضان، وتحجُّ البيت)، وإننا بصدد هذه الأركان الركينة نريد أن نتعامل معها من منظور رشيد بالنسبة لنا رغم أنه من مقاصدها يوم أن شُرعت، ومارسها الصحابة الطيبون هذا المنظور هو جزء من المقاصد العبادية والفوز بها. وخلاصة هذا المنظور واختصاره أن هذه العبادات هي تفضل من الله علينا لنسعد في الدنيا والآخرة، هي جلسات إيمانية ومحاضن تربوية وترقية خلقية وثقافة سلوكية وراحة نفسية وتدريب عملي على أساس علمي للقيادة والريادة، وسبب لتحصيل كل أسباب الرزق والسعادة، وغير ذلك كثير من منابع النور وكنوز الخير التي تفيض بها معاني العبادات والتي لا يدركها إلا المتدبرون فليست الصورة الموروثة التي أورثت وربت أبناءها على تكاليف العبادات ومشقتها دون النظر لحسن معانيها وجميل

"العبادات هي تفضل من الله علينا لنسعد في الدنيا والآخرة. هي جلسات إيمانية ومحاضن تربوية وترقية خلقية."

Upload by: altawhedmag.com

كُنْه حقيقتها.

٥- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على نصح أمته:

وهكذا أتباعه يكونون؛ فلقد بادر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض على معاذ رضى الله عنه قائلاً: "ألا أدلك على أبواب الخير؟"، ثم ذكر له النبي صلى الله عليه وسلم من الأبواب خلاف ما سبق ما تشابه معه في الاسم واختلف في بعض القصد وشيء من الرسم؛ فذكر الصيام لكنه التطوع غير سابقه الركن، وذكر الصدقة وهي خلاف ركن الزكاة، وذكر صلاة الليل وما لفضلها الذي لا تكفيه من مقالتنا الإشارة غير أنها ضرورة المجلة في اختصار العبارة، لكنه على الجملة ذكر من النوافل ما يتبع الذي سبقه من الأركان، ثم كرر وأضاف وأكد فأكد مرة أخرى على الإسلام والذي يجتمع ويفترق مع التوحيد والإيمان، وذكر مرة أخرى الصلاة وهي الثالثة في طرحها والدعوة إليها من منظور وتعبير جديد، وعليه فلا يعيبن ناقد على ذي بصيرة إذا نصح ذو البصيرة رعيته بالصلاة إذا حزبهم وأهمهم أمر وما أكثره في هذه الأيام، ثم ختم هنا بالجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام.

٦- مراعاة الحكمة وفقها لأولويات في التدرج في الدعوة إلى الله:

وهو موضوع ذو شجون وآلام وآمال، وبعيدًا عن كثرة الآراء والفلسفات؛ فإن الحكمة في ذلك هي السنة، وهي أن نبدأ بما بدأ به الشرع ونرتب كما رتب الشرع ففي خالص العبادات الجسدية بدأ بعد التوحيد بالأركان، ثم ثنّى بالنوافل المستطاعة قدر الإمكان ثم أكد على أهمية الأهم منها (الإسلام والصلاة)، ثم أرشد إلى عبادة الجهاد التي يقدر على القيام بها على الوجه الأتم من استطاع جهاد نفسه بسابق العبادات، ثم

> "ها هي الأيام العشر قد أطلت علينا بنورها ننتظر نسيم فجرها فنصحح فيها ما يحتاج في السجلات."

ختم صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بإرشاد السائل الجليل إلى ملاك الأمور بعد النوايا في الأجور ألا وهو جارحة اللسان، وما أدراك ما جارحة اللسان الذي لا يزن ثقلاً ماديًا كبيرًا لكنه يستحوذ على أكبر العبادات من الطاعات قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت:٤٥)، كما أنه يُورّط تاركه لعنانه في أحط الدركات، "وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم"، فكان الختام به تلخيصًا للحذر من المخالفات والفوز بالعبادات والقربات.

٧- وخاتمة الخير:

مما يستفاد من الحديث الاجتهاد في الأعمال الصالحات، ويزيد ذلك تأكدًا في هذه الأيام النفحات ومواسم الخيرات؛ فها هي الأيام العشر قد أطلت علينا بنورها ننتظر نسيم فجرها فنصحح فيها ما يحتاج في السجلات، نستنهض فيها الهمم، ونستمطر فيها الرحمات نثوب فيها ونتوب، فإن كان حديثنا الشريف قد أرشد إلى إنعام الله علينا بالاجتهاد في الطاعات، وما تفضل علينا بعائد ذلك من السعادة والريادة، وعلو المقامات؛ فإن هذا الاجتهاد تتعين فيه الزيادة في هذه الأيام المباركات التي اختصها الله بخصوصية من البركات؛ إذ ندبت الأحاديث النبوية إلى العمل الصالح مطلقًا في هذه الأيام، قال صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ أيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أحَبُّ إلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأيَّامِ العَشْرِ". فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلاَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَلاَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ" (البخاري: ٩٦٩)؛ فيها الصيام والقيام والقرآن والصدقة وعرفات والحج، وليسا في غير هذه الأيام.

وفي قوله: "العمل الصالح" إشارةٌ إلى جنس

Upload by: altawhedmag.com

الأعمال الصَالحة بأنواعها، سواء كانت واجبة يقدمها ويُحافظ عليها، أم نافلة تلي الأولى ويُكثر منها؛ هذا وإن كان الشيء بالشيء يُذكر فإن من جملة الصالحات زيادة على ما سبق التقرب إلى الرب بمحبة وخدمة الخلق وحب الطاعات وبغض المخالفات وإفشاء السَلام، وإطعام الطَعام، وصلة الأرحام والإحسان إلى الجيران، وإكرام الضَيفان، وإماطة الأذى، وزيارة المرضى، وقضاء الحوائج، والصَلاة على النَبي صلى الله عليه وسلم، وإسباغ الوضوء وانتظار الصلاة، والدَلالة على الخير، والأمر بالمعروف والنَهي عن المنكر، وسلامة الصَدر والدعاء للمخالف بالهداية، والمداومة على محاسبة النفس واتهامها بالغواية للوصول بها إلى بر الهداية، وتعليم الأولاد والبنات شعب الخير والرشاد، وإصلاح ذات البين وما تحتاج إليه من تقنين للجانها تساعد على نجاحها، وهذه المهمة مما يُحتاج إليه في هذه الأيام بعد انتشار المخالفات وخراب الذمم واستحواذ الشياطين على بعيدي الخطوات عن بيوت الله وأماكن الطاعات. هذا وإن من أرجى الأعمال وعبادة الأوقات ما يحتاج إليه الناس من صلاح للبلاد والعباد ونصيحة المسلمين وخدمتهم، وغير ذلك من شَعب الخير، وليسبق ذلك كله ويصحبه مقام التوبة والافتقار إلى الله تعالى.

العمل الصالح إشارة إلى جنس الأعمال الصَالحة بأنواعها، سواء كانت واجبة يقدمها ويُحافظ عليها، أم نافلة تلي الأولى ويُكثر منها.

ألا يا باغي الخيرات أقبل
إلى ذي الحجة الشهر الحرام
به العشر الأوائل حين هلت
أحب الله خيراً للأنام

وهذا يستلزم منا لزوم للخلوات والدعوات أن يحفظ الله علينا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ودنيانا التي فيها معاشنا وآخرتنا التي إليها معادنا. وفي هذا القدر الكفاية والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com